تفسير القرآن العظيم

المسمى

أولى ما قيل في آيات التنزيل

□ تفسير القرآن العظيم المسمى أولى ما قيل في آيات التنزيل
تأليف : رشيد الخطيب الموصلي
اعتنى به : مجد أحمد مكي
الطبعة الأولى : ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م
جميع الحقوق محفوظة باتفاق وعقد ©
قياس القطع : ١٧ × ٢٤
الرقم المعياري الدولي : ISBN : ٩٧٨٩٩٥٧٥٦٦٤٥٦
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٢١٩/ ١/ ٢٠١٤)

أروقة للدراسات والنشر
هاتف وفاكس : ٤٦٤٦١٦٣ (٠٠٩٦٢٦)
ص.ب : ١٩١٦٣ عمّان ١١١٩٦ الأردن
البريد الإلكتروني : info@arwiqa.net
الموقع الإلكتروني : www.arwiqa.net

الدّراسات المنشورة لا تعبّر بالضرُورة عن وجهة نظر الناشر

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمَح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال أو رفعه على شبكة الإنترنت دون إذن خطي سابق من الناشر. حقوق الملكية الفكرية هي حقوق خاصّة شرعًا وقانونًا، وطبقًا لقرار مجمع الفقه الإسلامي في دورته الخامسة فإنّ حقوق التأليف والاختراع أو الابتكار مَصُونة شرعًا، ولأصحابها حقّ التصرُّف فيها، فلا يجوز الاعتداء عليها.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means without written permission from the publisher.

تفسير القرآن العظيم

المسمّى

أوضح ما قيل في آيات التنزيل

تأليف العلّامة الشيخ

رشيد الخطيب الموصلي

١٣٠٣ - ١٤٠٠هـ

المجلّد الرابع

تفسير سورة الأنفال إلى نهاية سورة الإسراء

اعتنى به وقدّم له

محمد أحمد مكّي

أروقة

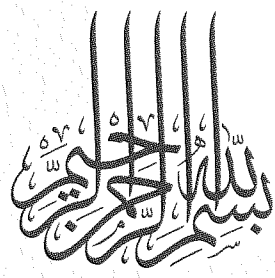
بسم الله الرحمن الرحيم



مدنيَّة، وهي ستٌّ وسبعون آية

تتعـرَّض السورة لشؤون حَدَثت في غَزوة بدر، منها:

ـ كـراهية بعض المسلميـن للخروج.

ـ ثم كراهيتهم للقتال بعد الخروج.

ـ واختلافهم في كيفيَّـة قسمة الغنيمة بعد النصر.

ـ واختلافهم في الأسرىٰ وما بهم يفعلون.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ ومن نهج القرآن أن يُبيِّن الأحكام أحياناً بصورة السؤال والجواب، (كما جاء في المادة الثالثة عشرة من المقدمة الثانية). وفي الجواب إيماءٌ إلىٰ أنَّ تقسيمها لا يرجع إلىٰ رأيهم حتىٰ يختلفوا فيه، فهو مُشْرَبٌ بتأنيب. والمراد من هذه الأنفال: ما غنموه يوم بدر، وكذلك يُراد بها: ما يجعله الإمام من المال لمن يركب خطراً، بأن يقول: من فعل كذا له كذا من المال. ومنه قوله ﷺ: «من قتل قتيلاً فله سَلَبه»[1]. وكأنَّ هذا لم يُرْضِ بعضَ أفراد الجيش لإنقاصه للغنيمة، فنزلت الآية. وقيل: إنَّ الشبان قالوا: إنَّ الغنيمة لنا، وقال الشيوخ: كنا رِدْأً لكم. وذلك عندما قال ﷺ يوم بدر: «من فعل كذا وكذا فله من النفل كذا وكذا»[2]، فتقدَّم الفتيان ولزم المشيخة الرايات فلم يبرحوها.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٤٣٢١)، ومسلم (١٧٥١)، عن أبي قتادة.

(٢) رواه أبو داود (٢٧٣٧)، والحاكم (٢: ٣٥٦) عن ابن عباس وصحَّح الحاكم الإسناد علىٰ شرطهما، ووافقه الذهبي.

وقال الراغب: النفل: هو الغنيمة، وتنوُّع العبارة لاختلاف الاعتبار، فلكونه مظفوراً به يقال له: غنيمة، ولكونه منحة من الله يقال له: نفل أو فيء[١]، فاختلاف العبارات لاختلاف الاعتبارات.

ومعنىٰ الآية: قل: الأنفالُ لله يحكم فيها بحكمه، والرسولُ يقسمها بحسب حكم الله تعالىٰ، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ ولا تَتَنازعوا فيها، ﴿وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ﴾ بالوفاق والتعاون، ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في قسمة الغنائم، وفي كلِّ أمر ونهي وقضاء وحكم، ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١﴾.

ثم بيَّن وَصْفَ المؤمنين الكُمَّل لتحريك النَّخوة والخشية، حَمْلاً علىٰ التمسُّك بالحكم، وأخْذِهِ بقوة، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾. والمراد بذكر الله: ذكرُ القلب لِعَظَمته وجلاله، أو لوعده ووعيده ومحاسبته لخلقه، وغير ذلك من صفاته وأفعاله. والمراد من الوجل: استشعار الخوف منه تعالىٰ.

ثم تابع الوصف فقال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ أي: يقيناً في الإذعان، وقوةً في الاطمئنان، وسَعَةً في العرفان، ونشاطاً في الأعمال، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢﴾ فلا يرجون غيرَه، ولا يَخْشَعون في أمر الغنائم حرصاً علىٰ المكاسب. والتوكُّلُ أعلىٰ مقامات التوحيد، ولا يجوز إلا بعد مُعَاطاة الأسباب الطبيعية، كما ورد في الآثار النبويَّة.

ثم تابع الوصف بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: يُؤَدُّونها حقَّ أدائها من الخشوع واستشعار القلب بما فيها من قراءةٍ ودعاء وأفعال. وذلك هو اللباب والروح للصلاة، وهو المراد منها. ولا يكون إلا بالتدريب والمران، حتىٰ يكون طبيعةً يُطبَعُ

---

(١) «المفردات» ص٨٢٠.

عليها الإنسان، وهي أن لا يخطر بباله في الصلاة سوىٰ الله تعالىٰ. وقال ﷺ: «الإحسان أن تعبدَ الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تَراه فإنَّه يراك»[1]. وصورة ذلك: أن يتدبر في صلاته معاني قراءته وأذكاره.

ثم تابع الوصف بقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾، ولا يحرصون في جمع المال وحطام الدنيا. وأتىٰ بجملة الصلة تبصرةً للنفوس بأن ما يُنفَقُ إنما هو من الله وإلىٰ الله، لتزداد سخاءً.

ثم سجَّل لهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: المتَّصفون بهذه الصفات ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾، ثم بيَّن مآلهم من الكرامة بقوله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ من منازلِ الرِّفعة ومراقي السعادة والنعيم. وذلك بنسبة أعمالهم ﴿وَ﴾ لهم ﴿مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ في الجنَّة ودار الخلود.

وقد عالجت الآياتُ نفوسَ المؤمنين وتطهيرَها من الاختلاف الذي ينشأ عن حبِّ المال، وهو أكبر أسباب الفشل في الأمة، ولذلك قدَّمه في البيان.

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾.

---

(١) سلف تخريجه (٣: ٢٥٧).

ثم بيَّن أن حالهم في كراهتهم لتقسيم الأنفال بالسويَّة مع كَوْنه حقاً، كحالهم في كراهتهم لخروجك إلىٰ هذه الغزوة مع كَوْنه حقاً، أدركوا حُسن عاقبته فيما بعد، فقال: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾ أي: إنَّ الأنفال لله يحكم فيها بالحق، وإنْ كره ذلك بعضُ المتنازعين، كما أخرجك ربك من بيتك إلىٰ بدر بالحق، وفريقٌ من المؤمنين كارهٌ لذلك، فنلتُم ما نلتُم من الظَّفَر والكرامة، والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

فهذه الآية بحسب السياق تنظير، وبحسب الصيغة تأنيب، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك. وخلاصتها: عَقْدُ المشابهة بين كرههم للمساواة في الأنفال وهي الحق، وكرههم للخروج إلىٰ القتال، ثم رأوا حقيَّته وعاقبته المحمودة. فيكون الكلامُ عَقْدَ مشابهةٍ بين أول الواقعة وآخرها في الجدال منهم في الحق، فيكون قوله: ﴿كَمَآ﴾ إما مفعولاً مطلقاً أو خبراً لمبتدأ محذوف تقديره: وذلك كما.

ثم سرد واقعة بدر، وابتدأها بتفصيل معارضة الذين كانوا كارهين لها، فقال: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ﴾.

قال في «المنار»: وبيان ذلك: أنَّ المسلمين كانوا في حال ضعف، فكان من حكمة الله تعالىٰ أنْ وَعَدهم أوَّلاً إحدىٰ الطائفتين علىٰ الإبهام، كما سيأتي في الآية، فتعلَّقت آمالُهم بطائفة العير القادمة من الشام، لأنها كَسْبٌ عظيم لا مشقَّة في إحرازه؛ لِضَعْف حاميته، فيَتَعوَّضون بها ما سلبهم المشركون بعد هجرتهم من بيوت وأموال.

فلمَّا ظهر أنها فاتتهم، وأَنَّ طائفة النفير العام خرجت من مكة بكلِّ ما كان عند قريش من قوة، وقَرُبَت منهم، وتعيَّن عليهم قتالُها، إذ تبيَّن أنها هي الطائفة التي وعدهم الله تعالىٰ، إذ لم يبق غيرها، صَعُب علىٰ بعضهم لقاؤها علىٰ قِلَّتِهم وكَثْرتها، وضَعْفِهم

وقوَّتها، وعدم استعدادهم للقتال كاستعدادها، وطفقوا يعتذرون للنبيِّ ﷺ اعتذارات جدليَّة بأنهم لم يخرجوا إلا للعير؛ لأنه لم يذكر لهم قتالاً فيستعدوا له، كأنهم يحاولون إثبات أن مراد الله تعالىٰ بإحدىٰ الطائفتين: العير، بدليل عدم أمرهم بالاستعداد للقتال.

ولكن الحق قد تبيَّن، بحيث لم يبق لجدالهم وَجْهٌ إلا الجبن والخوف، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾[1]، فهذا تمثيل لجَزَعهم الشديد من لقاء عدوٍّ يتفوَّق عليهم عَدَداً وعُدداً تفوُّقاً عظيماً. ولكن الحرب أصبحت حالةً واقعةً لا محيصَ عنها، وأصبحوا تجاه الأمر الواقع، ولا سيما بعد أنْ علم كلُّ فريق بالآخر، إذ نَزَلا في منطقة واحدة صدفة، علىٰ غير ميعاد.

وما بيَّنه صاحب «المنار» من التفصيل: هو مفادُ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾[2]، وهي طائفة العير. وإنما عبَّر عنها بهذا التعبير للتعريض بكراهتهم للقتال وطمعهم في المال، ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: يريد الله بوعده غير ما أردتم، يريد طائفةَ النفير العام من قريش؛ ليُفنيَهم ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧﴾، ودابر القوم: آخرهم الذي يأتي في دُبُرهم ويكون من ورائهم، ولن يَصِلَ إليه الهلاك إلا بهلاك مَنْ قبله من الجيش. وهكذا كان الظفر ببدر فاتحةَ الظفر فيما بعدها، إلىٰ أن قطع الله دابرَ المشركين بفتح مكة، وما تَخلَّل ذلك من نَيْلهم من المؤمنين في أُحُدٍ وحُنَين إنما كان تربيةً لهم.

وقال صاحب «الكشاف» في معنىٰ الآية: يعني: أنكم تريدون الفائدة العاجلة

---

(١) تفسير «المنار» (٩: ٤٩٩).

(٢) لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان بن حرب مقبلاً من الشام بتجارة قريش، كان لزاماً أن ينزعها منهم عوضاً عن أموال المهاجرين التي استولت عليها قريش ظلماً وعدواناً في مكة، وصادرتها بعد هجرتهم. (المؤلف).

وسَفْساف الأمور، وأن لا تَلقَوْا ما يَرْزؤكم في أبدانكم وأموالِكم، واللهُ عزَّ وجلَّ يريد معاليَ الأمور وما يرجع إلىٰ عمارة الدين ونُصرة الحق وعُلوِّ الكلمة والفوز في الدارين، وشتَّـان ما بين المرادين. ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة، وكَسَر قوَّتَهم بضعفكم، وغَلَب كثرتَهم بقلَّتِكم، وأذلّهم وأعزَّكم، وحَصَل لكم ما لا تقابل أدناه العير وما فيها[1]. ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ وهو الإسلام، ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ﴾ وهو الشرك، ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ من المشركين. أي: رغماً عن أنفسهم. ولا يكون ذلك إلا بقتل أئمة الكفر ورؤسائه من صناديد قريش المعاندين، الذين خرجوا إليكم من مكة ليستأصلوكم، لا بالاستيلاء علىٰ العير.

والحقُّ الأول ـ في قوله تعالىٰ: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ ـ إنما المراد به: القتال لطائفةِ النفير العام، مع ضمان النصر للمؤمنين ومَحْقِ الكافرين، والحقُّ الثاني ـ في قوله تعالىٰ: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ﴾ ـ المراد به: الإسلام، وهو المقصد والهدف، والأول وسيلةٌ وتمهيدٌ لنشره.

ثم ذكَّرهم بلطف آخر من ألطافه الخفيَّة التي لمسوا ثمرتَها، فقال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ حين ضاقت عليكم الحِيَل، والتجأتم إليه أن يُمِدَّكم بنصره، ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ وألهمكم ﴿أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ وعدد الألف إنما يأتي في اللغة لإرادة الكثرة. وأراد بالإرداف: المبالغة في الكَثْرة والتَّضعيف، وهو مأخوذٌ من حالة المخاطَبين، إذ ضاعفوا جيش القتال، يرتدف الفارسان علىٰ البعير لكثرة العدد، ويجوز أن يكون المعنىٰ: يُردفونكم وراءهم، فيكون كنايةً علىٰ تثبيتهم إيَّاهم. والله أعلم.

وقد جاء في «الصحيح»: أنَّ رسول الله ﷺ لما نظر إلىٰ أصحابه، وهم ثلاث مئة

---

(١) «الكشاف» (٢: ١٩٩-٢٠٠).

وبضعة عشر، ونظر إلىٰ المشركين فإذا هم ألف وزيادة، استقبل القبلة، ثم مدَّ يده وجعل يهتف بربِّه: «اللهمَّ أنْجِزْ لي ما وعدتَني، اللهمَّ إن تَهلِك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبَد في الأرض»[١].

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ هذا الإمداد أمرٌ روحانيّ[٢]، يؤثِّر في القلوب فيزيد في قوتها المعنوية، فقال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ لكم وعلامةً بأنه ينصركم علىٰ عدوكم، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ فتَلْقَوْا أعداءكم ثابتين موقنين بالنصر، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فهو الـمُسَخِّر لأسباب القوة المعنويَّة التي هي مصدرُ النصر ومبعثُه، ومن ذلك: تسخيرُ الملائكة تُخَالِطُ المؤمنين، فتستفيد أرواحهم منها الثبات والاطمئنان، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يُغْلَبُ علىٰ أمره، ﴿حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ يضع الأشياء في موضعها المقتضي.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾.

ثم ذكَّرهم بلطف آخر منه تعالىٰ، يُظهِرُ إلقاء القوة المعنوية عليهم، فقال: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ تعالىٰ، أي: تأميناً لكم من الخوف، لأن الفرق عظيمٌ بينكم وبينهم في العَدَد والعُدَد. ومثلُ هذا يوجب عادةً الاضْطِرابَ والقلقَ المؤدِّي إلىٰ الأرق،

---

(١) رواه مسلم (١٧٦٣)، عن عمر بن الخطاب.

(٢) بل كان الإمدادُ بالملائكة أمراً حقيقياً واقعياً، كما تقدَّم التنبيه إليه في التعليق علىٰ الآية ١٢٤ من سورة آل عمران.

ولكنَّ الله بلطفه أوْدَعَ فيكم غير هذه الحالة النفسية، فَغَشِيَكُم النعاسُ تأميناً لكم وإراحة، وذلك لأنَّ من غَلَبَ عليه النعاس لا يكون خائفاً، ولا يشعر بالخوف، فلا تتأثر أعصابه وقوته المعنوية، حتىٰ يشتبك بالقتال بكلِّ جرأة واطمئنان، فباتوا ليلة هادئة. وعلىٰ هذا، فيكون تغشية النعاس سبباً للاطمئنان. ويجوز أن يكون المعنىٰ: أنَّ الله سبحانه أوْدَعَ فيكم قوة معنوية وطمأنينة نفسيَّة، حتىٰ غشيكم النعاس ونمتُم مطمئنين، فيكون الاطمئنان سبباً للنعاس.

وروي عن عليٍّ رضي الله عنه: «لقد رأيتُنا يوم بدر وما فينا إلا نائم، غيرَ رسولِ الله ﷺ يُصلِّي تحت شجرةٍ حتىٰ أصبح»[١].

ثم ذكّرهم بلطف آخر، فقال: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾، وذلك أنَّ المشركين غلبوا المسلمين في أول أمرهم علىٰ الماء، فظمئ المسلمون وظلُّوا دون ماء طهور، وكان بينهم رمال، فألقىٰ الشيطان في قلوب ضعفاء الإيمان منهم هذه الهواجس: تزعمون أنَّ فيكم نبياً وأنكم أولياء الله، وأنتم علىٰ هذه الحال، وهم علىٰ ما ترون؛ لا ظمأ ولا رمال، وقد عطشتم، وغداً يجهدكم العطش، فإذا قَطَعَ أعناقَكم مَشَوْا إليكم، فقتلوا من أحبُّوا وساقوا بقيتكم إلىٰ مكة مأسورين. فحزنوا حزناً شديداً، بمثل هذه الخواطر والوساوس، فأنزل الله من السماء ماء، فسَالَ عليهم الوادي، فشَرِبَ المسلمون وتطهَّروا، وخزَّنوا الماء بحياض، فذهب وسوسة الشيطان عنهم واطمأنَّت قلوبُهم، وثبتت أقدامُهم علىٰ الدَّهاس[٢] والرمال لتلبُّدها بالمطر[٣].

---

(١) رواه أحمد (١٠٢٣)، وابن خزيمة (٨٩٩).

(٢) هي كل أرض سهلة يثقل فيها المشي. «لسان العرب» (دهس).

(٣) لم يقع هذا المطر علىٰ المشركين مع قربهم منهم. ويجوز أن تكون جملة: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ كلاماً جامعاً بين الحقيقة والمجاز. (المؤلف).

ثم فصَّل صورة النصر بالملائكة وإنجاز الوعد بالغلب، فقال: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ والمعيَّة هنا مجاز عن الإعانة، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، أي: إني مُعينكم، ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ و﴿إِذْ﴾ في الموضعين متعلق بالفعل: استجاب لكم. هذا هو الظاهر. كما أنَّ الظاهر هو أنَّ التثبيت إنما هو بإلهامهم لهم تذكّر وعد الله ورسوله، وأمثال ذلك مما يُثبِّتُ القلوب ويُغَذِّي القوة المعنوية.

أما قوله: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾؛ فيجوز أن يكون خطاباً للملائكة، أو للنبيِّ ﷺ والمؤمنين. وقوله: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ مُوجَّهٌ إلىٰ المؤمنين علىٰ ما عليه المحقِّقون، أي: فاضربوا الأعناق واقطعوا الأيدي أيها المؤمنون، لأني سأُلقي في قلوبهم الرعب منكم. وعليه، فالظاهر أنه معطوف علىٰ قوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾، إما علىٰ اعتبار أنَّ قوله: ﴿سَأُلْقِي ...﴾ خطابٌ للرسول وأتباعه، فيكون قوله: ﴿فَٱضْرِبُوا۟﴾ معطوفاً عليه، وخصَّ البنان بالذكر ـ مراداً بها الأصابع ثم الأكفّ بطريقة المجاز المُرسَل ـ لأنها أداة التصرُّف في الضرب. وضَرْبُ الأعناق والأيدي من أمْيَز حرب الميدان عند التحام الجيشين واشتباكهما في القتال.

ثم علَّل ما تقدَّم من إلقاء الرُّعب والأمر بالضرب بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: قاوموا وعارضوا ما جاء به الرسول من عند الله، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾.

ثم خاطب المشركين المنكسرين المخذولين بما به تنديمٌ لهم وتأليمٌ وتوعُّد، فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ أي: ذلكم هو الجزاءُ الدنيوي، فذُوقوه في الدنيا، وهو القتل والانكسار والانهزام أمام فئة قليلة العدد من المسلمين، أما العذاب الأخروي فقد ذكره بقوله: ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

ثم أردف السياق بهذا الحكم العام ليشمله وغيرَه، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا ﴾ أي: زاحفين لقتالكم، ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾﴾ مُنهَزِمين، وإن كانوا أكثرَ منكم عَدَداً وعُدَداً.

ثم ذكر حكمه في المولِّين، فقال: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ ﴾ كأنْ يقتضيَ الفنُّ الحربي التقهقر أو الانسحاب إلىٰ مكان أصلح، أو ليخدع العدو بانسحابه، ﴿أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ﴾ أي: منتقِلاً من فئة قوية إلىٰ فئة ضعيفة من المسلمين لتقويتها، فَمَنْ يولِّهم دُبُرَه لغير ذلك ﴿فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾.

ثم وصل النهي عن التولِّي بما يدلُّ علىٰ عناية الله تعالىٰ بهم ومعونته لهم، إيذاناً بأنهم أَوْلىٰ من العدو بالثبات والصبر، فقال: ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡ﴾ بتأييده لكم ورَبْطِهِ علىٰ قلوبكم، ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ بإلقاء الرُّعب في قلوبهم. وإنما فعل هذا لتكون كلمةُ الله هي العليا ﴿وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ له حُسْنُ عاقبة ومآل، أي: لِيُظْهِرَ حُسْنَ عمل المؤمنين وقوَّةِ إيمانهم وعُلوِّ سمعتهم بهذا الاختبار؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٧﴾﴾ وبحسب ذلك يُجري الأمورَ والأحكامَ، ولا تخفىٰ عليه من أمركم خافية.

ثم قال: ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ الإبْلاءُ والإظهار هو الغرض الأول من تأييدكم، ﴿ وَ ﴾ الغرض الثاني: ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ بهذا التأييد، حيث مكروا بالنبيِّ ﷺ والمؤمنين، وحاولوا القضاء علىٰ دعوة التوحيد، فأضعَفَ قوَّتهم، وأذلَّ جبروتَهم.

ثم وبَّخهم وتهكَّم بهم، ونقل الكلام من الغَيْبة إلىٰ الخطاب؛ مبالغةً في التأنيب، وضمَّنه الإرشاد بعد النقد، علىٰ نهج القرآن، فقال: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾؛ ذكر أصحاب السِّيَر والحديث: أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهمَّ أيُّنا كان أقطعَ للرَّحِم بما لا يعرف، فأحِنْهُ الغَدَاة، أي: أوقِعْهُ في المحنة غداً[1]. ويدلُّ هذا منه علىٰ أنه كان واثقاً بدينه مغروراً به، مع أن أكثر أكابر مجرمي مكة كان كفرُهم كِبْراً وعناداً. ويجوز أن يراد بالفَتْح: الحكم والقضاء.

ثم أتبع ذلك بإرشادهم، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿ وَإِن تَنتَهُوا۟ ﴾ عن عداوة النبيِّ ﷺ ومعارضة دينه وتدخلوا فيه ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾.

ثم توعَّدهم علىٰ المقاومة ثانياً بإعادة الكرَّة عليهم، فقال: ﴿ وَإِن تَعُودُوا۟ ﴾ لمقاتلته ﴿ نَعُدْ ﴾ لما رأيتُم من كَسْركم وإتلافكم، ﴿ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ فلا تدفع عنكم بأسَ الله، ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ بالمعُونة والولاية والتوفيق، فلا تضرُّهم قلَّتهم ولا كثرتكم شيئاً.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

---

(١) رواه النسائي في «الكبرىٰ» (١١١٣٧). وفيه: «فافتح الغد» بدل «فأحنه الغد».

ثم أدَّب المؤمنين عن موقف ضعفائهم الذي ألمع إليه في أمر الأنفال، وفصَّله في أمر المجادَلة عند الخروج إلىٰ القتال، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ كلامَ الله المصرِّحَ بوجوب موالاته ونصره.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ سماعَ تفقُّهٍ واعتبارٍ يتبعه الانتفاع والعمل، وهم الكَفَرة والمنافقون الذين شنع عليهم بقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ وهم الذين لا يُلْقُون السمع لمعرفة الحق والاعتبار بالموعظة الحسنة. فكانوا لِفَقْدِ منفعة السمع كالذين فقدوا حاسَّتَه، ولعدم قول الحق كالذين فقدوا قوة النطق، ولعدم الاعتبار بالموعظة كالذين فقدوا فضيلة العقل الذي يُميِّز بين الحقِّ والباطل ويُفرِّق بين الخير والشر. وفي التعبير بالدوابِّ تحقيرٌ لهم وتأنيب.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ سبب ذلك فيهم إنما هو إفسادهم لفطرتهم حتىٰ لم يبق فيهم خير أبداً. وقد عبَّر عن ذلك بعدم العلم به تعبيراً عن اللازم بالملزوم، إذ يلزم من عَدَم عِلمِ الله بالشيء عَدَمُ وجودِه، فقال: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡ﴾ أي: ولو عَلِمَ الله فيهم بقيَّة استعداد للإيمان والهدىٰ ببقية من نور الفطرة لم تطفئها مفاسدُ التربية وسوء القدوة؛ لأسمَعَهم الكتابَ والحكمةَ سماعَ تفقُّه وتدبُّر، ﴿وَ﴾ لكنهم قد انطمس منهم نورُ الفطرة وجلاءُ البصيرة بما ذكر، فلذلك ﴿لَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ﴾ عن القَبول والإذْعان، ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ بقلوبهم، نافرون من الحقِّ لفساد طبيعتهم.

ومُحصَّل المعنىٰ: لو كان قد بقي فيهم بقية من الاستعداد الطبيعي للهدىٰ والرشاد لم يستوعبها إفساد التربية، لسمعوا ما جاءهم في هذا الكتاب المبين من الهدىٰ والإرشاد، ولكنهم قد أفسدوا طبيعتهم بالكليَّة، وكان من نتيجة ذلك أنْ صدُّوا عمَّا جاء من الهدىٰ

في هذا القرآن، حيث رأوه ضلالاً وتولَّوا عنه وهم مُعْرِضُون. وإنما أسند الفعل إلىٰ الله سبحانه؛ لأنه هو الذي طبع الإنسان علىٰ هذه الطبيعة المستعدَّة للهدىٰ والضلال باختيار صاحبها، واتِّباع ما يميل إليه، (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

وبعد أن نبَّه المسلمين إلىٰ ما لمسوه من ثمرات هذا الدين وأحرزوه به من ألطاف ربِّ العالمين، دعاهم إلىٰ طاعة الله به ورسوله، ليدومَ ذلك الخير عليهم، ونوَّه بشأن ما سَبَق في السياق، ضِمنَ التنويه بالشريعة كلِّها، وأنها حياة الإنسانية، لا معنىٰ لها سواها، وحثَّ المؤمنين علىٰ التمسُّك بها وبتوجيهاتها، ناظراً إلىٰ ما كان من كُرْهِ بعضهم عندما أُمِروا بمحاربة المشركين وانتدابهم لوقعة بدر، علىٰ نهج القرآن في العودة والتتميم، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ من تشريعاتِ الله وتوجيهاته، إذ بها الحياة وبدونها الممات. وملاكها: هو هذا القرآن، إذ به تكمل الفطرة الإنسانية، وتسعد الحياة الدنيوية والأخروية، إذ هو النظام الصالح للبشر، يُصلِحُ النفوس ويُنظِّم الأحوال الاجتماعية تنظيماً ملائماً للفطرة وللمصالح العامة، ويجعل الحياة سعيدة من جميع النواحي والوجوه. وفي ذلك كلُّ الخير والفلاح لبني الإنسان.

ومن جملة الحياة التي يدعو إليها الرسول: هي الجهاد في سبيل الله؛ لأنه سببُ القوَّة والعزَّة والسلطان. والاستجابة بمعنىٰ: الإجابة، والسين والتاء للمبالغة.

ثم ختم الكلام بما فيه تحذيرٌ منه تعالىٰ؛ لأنه مُطَّلع علىٰ خفايا الأمور وأسرار النوايا، فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾[1] بمعنىٰ أنه سبحانه أقرب إليه منه، وأعلم منه بهواجسه وخواطره، يُعَرِّض بما كان عند ضعفاء المؤمنين من مَوْجِدةٍ[2] وعَدَم رضا في أمر بدر والذهاب إلىٰ القتال، ومن تَنازُعِهم في الأنفال وغير ذلك من الهفوات، بمعنىٰ: أنَّ الله سبحانه أقرب إلىٰ خطرات الإنسان من نفس الإنسان، فالكلامُ تمثيلٌ لدقَّة علم الله سبحانه في أحوال البشر وهواجسه وخطراته، فهو بمعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

وقيل: المراد بها التحذير من تغلُّب الهوىٰ وتقلُّب القلوب، فهي مشابهةٌ لقوله تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وذلك لأنَّ الإنسان مهما كان فيه من حياة الضمير ويقظته وقوَّة إيمانه وإخلاصه قد يعرض له أسباب وأحداث تلمُّ به، فينحرف عن الحقِّ بالتأويل، وما يزال ينحدر حتىٰ يكونَ بينه وبين الإخلاص الأول بونٌ شاسع. أو تَعرِضُ له شبهةٌ تُـزَعْزع اعتقاده، أو شهوةٌ يغلب فيها الغيُّ رشادَه، فيطيع هواه أو يسير وراء وساوس الشيطان، أعاذنا الله.

---

(١) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر، قُتِلَ أخي عُمير، فقَتلتُ به سعيدَ ابنَ العاص، وأخذت سيفه، فأتيت به رسول الله ﷺ، فاستوهبته منه، فقال: «ليس هذا لي ولا لك، اطرحه في القبض»، فطرحته ولي ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخْـذِ سَلَبي، فما جاوزت إلا قليلاً حتىٰ نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله ﷺ: «سألتني السيف وليس لي، وإنه قد صار لي فاذهب فخذه». أقول: فإلىٰ مثل هذه الـمَوْجِدَة القلبية، يذكّر سبحانه الإنسان، بدقّة علمه بشؤونه ما خفي منها وما ظهر. (المؤلف).

والحديث رواه أحمد (١٥٥٦)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٣٧٥٧)، عن سعد بن أبي وقاص.

(٢) المَوْجِدة: العتب. «القاموس المحيط» (عتب).

ثم أكمل التحذير بقوله: ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤﴾.

وذكر صاحب «المنار» في الآية وجهاً آخر، فصَّله تفصيلاً واسعاً، وإجماله: أنَّ من سُنَّة الله في البشر الحيْلولة بين المرء وبين قلبه الذي هو مركز الوجدان والسلطان علىٰ إرادته وعمله[1]. إذ من سُنَّة الله في البشر أنَّ مَنْ يتَّبع هواه في أعماله ويستمرُّ علىٰ ذلك ويُدْمِنُه الزمن الطويل، تَضعُفُ إرادته في هواه، حتىٰ تذوب وتفنىٰ فيه، فلا تعود تؤثِّر فيه المواعظ والعبر. وهذه الحالة يُعبّر عنها بالختم والرَّيْن والطبع علىٰ القلب، وإسنادُ الفعل إلىٰ الله تعالىٰ لأنه خالق هذه السنة في طبيعة البشر، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية في خصائص أساليب القرآن).

وبعد أن أمر المؤمنين بإطاعة الرسول والاستجابة له؛ لأنَّ كلَّ ما يأمرهم به هو حياةٌ لهم وكمال، حذَّر عن الأعمال التي تَـجْلب الأضرار العامة، مُلمِعاً إلىٰ ما كان من بعضهم في غزوة بدر، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الشيء بمـا يشمله وغيرَه، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ﴾ أي: واتَّقُوا وقوعَ الفتن القوميَّة والـمِلِّيَّة العامَّة، التي من شأنها أن تقع بين الأمم علىٰ مصالحها العامة من الملك والسيادة، أو التفرُّق في الدين والشريعة، والانقسام إلىٰ الأحزاب والمِلَلِ والنِّحَل. ومنشأُ ذلك: التساهل في الأحكام والمطالب بالتأويل، فإنه يؤدِّي إلىٰ انحلال المجتمع وفساده، ونَشْر التَّميُّع والفَوْضىٰ في الدين، وحدوث الفِرَقِ والمذاهب الباطلة والأحزاب المتنازعة.

روىٰ أحمدُ وغيره عن مُطرِّف قال: قلنا للزبير: «يا أبا عبد الله، ضيَّعتُم الخليفة حتىٰ قُتِل ـ يعني عثمان رضي الله عنه ـ ثم جئتُم تطلبون بدمه، فقال: كنا نقرأ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ

---

(١) تفسير «المنار» (٩: ٥٢٧).

﴿لَا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾، ولم نكن نحسب أنّا أهلُها، حتىٰ وقعت فينا حيث وقعت»[1].

ثم أردف التحذير عن ذلك بالتهديد الشامل للمرتكبين، فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ لمن خالف سُنَنَه التي لا تبديل لها ولا تحويل، ولمن خالف هدايةَ الدين المزكيةَ للنفوس، ولمن أحدث انقساماً في الصفوف.

ثم ذكّرهم بفوائد هذا الدين وما في أوامره ونواهيه من المصالح الدنيويَّة والأخرويَّة، وخصَّ بالإيماء هذه الوحدة الجديدة، وهذا النظام الجديد، وما ينتج عنه من فوائد وحياة اجتماعية، والغَرَضُ من ذلك: الحَمْلُ علىٰ التمسُّك بهذا الدين المؤدِّي إلىٰ تلك المصالح، والاستدلالُ بالواقع علىٰ أنه حياة اجتماعية وخير عميم في الدنيا والأخرىٰ، فقال: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ لِضَعْفكم وتفرُّق وَحْدَتكم، فكنتم أذِلّاءَ تحت سيطرة الأمم، ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾ وضمَّكم إلىٰ بعضكم، ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: ليُعِدَّكم لشكره تعالىٰ بنشر هذا الدين في الآفاق وفي أنفسكم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

---

(١) رواه أحمد (١٤١٤)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧: ٩٩): رواه أحمد بإسنادَيْن؛ رجال أحدهما رجال الصحيح.

ثم سَاوَقَ البحث بما يُكمل الأمر بالاستجابة لله وللرسول، وقرنه بالنَّهي عن تقديم المال وترجيحه علىٰ ذلك، حيث تشاحنوا في الأنفال، وأغلظ في التعبير عنه عندما ألمع إليه تحت ذِكرِ قاعدة الخيانة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ بتعطيلِ أو تهوينِ أوامره ونواهيه وتعدِّي حدوده وانتهاك محارمه وحقوقه التي بيَّنها لكم في كتابه، ﴿وَ﴾ لا ﴿تَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ فيما بينكم من الحقوق في المعاملات، أو بينكم وبين أولياء أموركم من الشؤون السياسية، ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾ مَفاسِدَ الخيانة وسوءَ عاقبتها.

ولكن ربما يدفعكم إلىٰ ذلك الحرصُ علىٰ المال والولد، فلا تفعلوا ذلك ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ لكم واختبارٌ لمطويَّات نفوسكم، يظهر بها ما إذا بقي في نفوسكم من نور الفطرة ما يوقفها موقف الاعتدال في معاملة الأموال والأولاد. فالتَّقيُّ يقبل الحق علىٰ ماله وولده ويُجريه، وغيرُه يتعصَّب لماله وولده ضدَّ الحق ويتعسَّف فيه، ويتهاون في دينه ولا يتهاون فيها، فلا تفعلوا ذلك ﴿وَ﴾ واعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٨﴾؛ لا تكون الأموال والأولاد في جَنْبه إلا شيئاً تافهاً، فلا تبيعوا العظيم بالتافه.

ثم أردف هذا التأديب بما يُرغِّب فيه من بيان ثمرته، ويُبرهَنُ به علىٰ أنَّ تعاليم الله حياة عالية وثقافة سامية، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ أي: يَجْعَل لكم بمقتضىٰ هذه التقوىٰ والتمسُّك بهذه التعاليم مَلَكَةً من العلم والحكمة والعرفان، تُفرِّقون بها بين الحقِّ والباطل، والضارِّ والنافع، وتُميِّزون بين النور والظلمة، والحُجَّة والشبهة، وهذه الملكةُ هي الثقافةُ العالية والتهذيبُ الصحيح، والتقوىٰ: أن نفهم تعاليم الله ونمارسها، فتكون لك ملكة في عملها وحكمتها، ينبعث عنها الوقوف عند حدود الله، ترجوه بها وتخشاه.

وتحرير الكلام: أنَّ التقوىٰ هي ـ كما قال الأستاذ الإمام[١] ـ: أن تقيَ نفسَك من الله ومن غضبه وسَخَطه وعقوبته، ولا يمكن هذا إلا بعد معرفة الله ومعرفة ما يُرضيه وما يُسخِطُه، ولا يعرف هذا إلا مَنْ فهم كتاب الله تعالىٰ وعرف سُنةَ نبيِّه ﷺ وسيرةَ سلف الأمة الصالح، مُطَالباً نفسه بالاهتداء بذلك كلِّه[٢]. ومن أعدَّ نفسه هذا الإعداد فرَّق بين الحقِّ والباطل، والضارِّ والنافع، والحُجَّة والشبهة، والنور والظلمة، وذلك هو الفرقان، ﴿وَ﴾ بنتيجة هذا الفرقان وكمال الإيمان تَصْطلح أعمالكم، ومتىٰ صَلَحَت ﴿يُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾، فالتمسُّك بتعاليم الله والعمل بمقتضاه يَكْفَلان لكم سعادةَ الحياتين الدنيا والآخرة.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

ثم ذكَّر الرسولَ ﷺ بعنايته به وحفْظِهِ له، بعد أن ذكَّر المؤمنين عامَّةً بنصرهم علىٰ ضَعْفِهم وعنايته بهم، إيماءً لفوائد هذا الدين وعناية الله سبحانه بأهله ومُتَّبعيه، وتثبيتاً له ﷺ، كَي لا يخاف لَوْمَة لائم، ولا صَوْلة جائر، ولا حرب مُعتَدٍ أثيم، وانتقالاً من الكلام عن المؤمنين إلىٰ الكلام عن الكافرين، وبياناً لوجوب محاربتهم أجمعين، فقال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قبيل الهجرة بما يدبِّرون فيما بينهم من وسائل الإيقاع بك والتغلُّب علىٰ أمرك؛ ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ بالحبس والشدِّ بالوثاق منعاً لك عن لقاء الناس، ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكة، علىٰ اختلافٍ في آرائهم التي انتهت بأن يجمعوا عصابة، من كل قبيلة واحداً، يشتركون في قَتْلِهِ، فيتفرَّق دَمُهُ في القبائل، فترضىٰ قبيلته بالدية مهما

---

(١) هو الشيخ محمد عبده.

(٢) تفسير «المنار» (٤: ٢٦١).

بلغت[١]، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾، والمكر: التدبير الخفيُّ. وفي الآية مُشَاكَلة، وهي من بديع الكلام. والمراد بمكر الله: إبطالُ مكرهم وحِفْظُه منهم بتدبير الله وهم لا يعلمون.

وتذكير النبيِّ ﷺ بهذه المواقف المكِّيَّة في العهد المدني؛ يُلهِمُ أنها من أشدِّ المواقف نكايةً ووقعاً.

ويجوز أن يراد من الإثبات: المنعُ من الخروج عن مكة خشيةَ أن ينتشر أمرُه، فيكون ضدَّ الرأي الثالث، بناءً علىٰ اختلاف آرائهم. والله أعلم.

وتحرير الآية: أنَّ قريشاً اجتمعت سرّاً ليُدبِّروا أمراً يَتَخلَّصون به منه، ودارت بينهم هذه الآراء الثلاثة، ولكنَّ الرأي الأول وَهَىٰ وضَعُفَ بينهم؛ إذ رأوه غيرَ ممكن، وكذلك الرأي الثالث لم يوافقوا عليه؛ لأنهم تبيَّنوا وتحقَّقوا أنه إذا خرج إلىٰ غيرهم يَقْوَىٰ أمرُه لحلاوة ما عنده والرغبة فيه، فأجمعوا علىٰ الرأي الثاني، واعتمدوا علىٰ أن يأخذوا من كلِّ قبيلة غلاماً نشيطاً، فيضربونه بسيوفهم ضربةَ رجل واحد، فيتفرَّق دمُه في القبائل، فلا تقدر بنو هاشم علىٰ مقاومتهم، فيقبلون الدية اضطراراً. فأتىٰ جبريل عليه السلام وأمَرَه أن لا يبيت في مَضْجَعِهِ الذي كان يبيت فيه، وأخبره بمكر القوم، وأذِنَ الله له بالهجرة، فاختفىٰ مع أبي بكر رضي الله عنه بغار ثور، ومنه هاجر إلىٰ المدينة.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ

---

(١) «تفسير الطبري» (١٣: ٤٩٥).

﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه مكابرةً من مكابرات هؤلاء المشركين المعاندين الماكرين، ذكرها في سياق بيان استحقاقهم لمحاربة بدر وما جرىٰ عليهم فيها، وقولهم بأفواههم ما ليس في قلوبهم، فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ المُنزَّلةُ في القرآن الذي يعجز عن مثله الثقلان، فيما أودع فيه من علم وحكمة وتشريع وقصص وبيان، وما له من التأثير في نفس كل إنسان، بقدر ما أُوتي من بلاغة وعقل وقلب ووجدان، ﴿قَالُوا۟﴾ صَلَفاً ووقاحة، وسَفَهاً وضلالة: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾، نَقَلَ هذا القولَ جمهورُ رواة التفسير عن النضر بن الحارث من بني عبد الدار[1].

ثم أردفوا ذلك بما هو أكذب منه، وهو قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي: قَصَصُهم وأحاديثُهم التي سُطرت في الكتب علىٰ علّاتها، وليس هو بوحي من عند الله؛ يقولون ذلك وقد دُعوا إلىٰ أن يأتوا بأقصر سورة من مثله فعجزوا، ولكنْ لا دواء للوقاحة والمكابرة والعناد.

ثم حكىٰ سبحانه لهم صَلَفاً آخرَ أشنعَ من هذا وأشدَّ عناداً، فقال: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

وقد ردَّ عليهم سبحانه ببيان أنَّ المانع من تعذيبهم بعذاب الاستئصال الذي استحقوه وطلبوه تهكُّماً، إنما هو وجوده ﷺ بين أظهرهم، وتتابُع انتشار الدعوة فيهم،

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣: ٥٠٤).

فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ تُنْذِرُهم وتُمَنِّيهم، فلعلَّهم يهتدون، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾[1] ويتوبون واحداً بعد واحد، أي: ما كان الله ليستأصلهم بالعذاب وفيهم هذان المانعان. ويجوز أن يكون المعنىٰ: أن الله لا يُعذِّبُهم وأنت فيهم، كما أنه لا يُعذِّبُهم لو كانوا مستغفرين مؤمنين.

وبعد أن بيَّن المانع من تعذيبهم، بيَّن استحقاقهم للعذاب الذي أمهلهم فيه، وأنكر عليهم أمانَهم من الله وثقتهم في ذلك، فقال: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾، فنزَّلهم منزلة المعترضين علىٰ تعذيبهم، وأنكر عليهم اعتراضَهم، وبيَّن سَبَبَ التعذيب فقال: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ المسلمين ﴿عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ في الحديبية، ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ أي: مُستحقِّين للولاية عليه لشركهم ومفاسدهم، ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ وهم المسلمون، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أنه لا حقَّ لهم في الولاية علىٰ هذا البيت، وأنَّ الحقَّ فيه للمؤمنين. والتعبير بـ«أكثرهم» هو من أساليب القرآن لدِقَّة البيان.

ثم عطف علىٰ الحكم ما هو حُجَّة علىٰ صحَّته، وهو بيان حالهم في أفضل ما بُني

---

(١) تضمَّن مفادُ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ ...﴾ إظهارَ وثوقهم في أنهم لا يستحقون العذاب فلا ينزل بهم؛ لأنهم علىٰ حقٍّ ومحمد علىٰ باطل، فبيَّن سبحانه لهم: إنما لم يعذِّبهم لا لأنهم علىٰ حق، بل لأنَّ الرسول فيهم يدعوهم إلىٰ الحق، ولعلهم فيما بعدُ يستجيبون ـ أكثرهم أو بعضهم ـ بالتدريج. فلذلك لم يعذِّبهم، كما لم يعذِّبهم إن استجابوا واستغفروا بالفعل، يردّ عليهم ما تضمَّنه كرمهم من إظهار اعتقادهم أنهم لا يستحقُّون العذاب بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ ...﴾، ومُحصَّل الرد: أن اغتصابهم ولاية هذا البيت وهم ليسوا أهلاً لها؛ من المسلمين وهم أهلٌ لها، وصدُّ المسلمين عنه يوم الحديبية؛ كيف لا يكون سبباً لغضب الله عليهم وتعذيبهم؟ وردَّ عليهم ما تضمَّنه الكلام من إظهار اعتقادهم أنهم علىٰ حق، بقوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ...﴾، ومفادُه: أنَّ من كانت صلاته هذه الصلاة، وعبادته في البيت هذه العبادة؛ كيف يكون علىٰ حق في دينه ومرضياً عند الله؟! (المؤلف).

المسجد لأجله، وهو الصلاة، فقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾، والمُكاء: الصفير، والتَّصْدية: التصفيق. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «كانت قريش تطوف بالبيت عُراةً تُصفِّر وتُصفِّق»(١)، ورُوِي عن سعيد بن جُبير: «أنهم كانوا يعارضون النّبيَّ ﷺ في الطواف فيُصفِّرون ويستهزئون»(٢).

ثم سجَّل سبحانه عليهم التوعُّد بقوله: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾، وإذا أريد به ما جرىٰ عليهم يوم بدر وهو الظاهر؛ لأنّ ما قبله يدلُّ علىٰ استحقاقهم لهذه الحرب، وما بعده يؤيِّده. وعليه؛ يكون الكلام لزيادة الإيلام والتنديم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾.

ثم تابع الكلام في تأنيبهم والنَّعي عليهم وتجهيلهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ في مقاومة المسلمين ـ ومن ذلك ما أنفقوه في واقعة بدر ـ ﴿لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وفي هذا زيادةُ تأنيبٍ وتشنيع، والكلام يشمل أمثالَهم في كلِّ زمن، ثم بيَّن عاقبةَ ذلك عليهم ووبالَه، فقال: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ لذهابها

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩٠٤٥).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣: ٥٢٤).

سُدًى، وخسرانها عبثاً، فإنهم يُقاتَلون ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾، وهذا ما ينالهم في الدنيا، أما ما ينالهم في الآخرة فهو ما توعَّدهم به بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

ثم سَبَك بيان الغاية من الحرب وغَلَبِ المؤمنين للمشركين، ودَرَجه علىٰ بيان مصيرهم، فقال: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾[1]، وقد أُخِذَ هذا المعنىٰ من حالة قِطَعٍ مؤذيةٍ منتشرة في الطريق، تُجمَعُ منه وتُكَدَّس جانباً؛ لِيَسْلَمَ المارَّة من أذاها. والمعنىٰ: أنه سبحانه يجمع الخبيث منضَّداً بعضه إلىٰ بعض ﴿فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَ﴾.

ثم سجَّل ونعىٰ عليهم بهذا الحكم المسبوك علىٰ التنديم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ لأنهم خسروا أموالهم وأنفسهم في هذا العمل الذي عاد عليهم بالوبال والنَّكال وسُوء المآل.

وبعد هذا البيان المُهزّ للنفوس والمهيِّئ للعقول، أمر رسوله ﷺ أن يدعوَهم إلىٰ الهدىٰ، فاتحاً باب التوبة علىٰ مِصراعَيْه، وإسدالِ الستار علىٰ الماضي، علىٰ نهج الدعوة إلىٰ الرشاد وأصول الإرشاد، وعلىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد علىٰ الضلال بالدعوة إلىٰ سبيل الهدىٰ، وصفاً للدواء بعد تشخيص الداء، وسَبَكَ الكلام علىٰ وَعْدِ المتبعين ووعيد المُعرِضين، فقال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ﴾ إلىٰ العداء للمؤمنين ومعارضة الرسول ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ وهي استئصالُ شأفة الذين عادَوُا الرُّسُلَ وصدُّوهم عن مهمتهم، فلا بد أن تنالهم هذه السنَّة المُطَّردة التي أيَّدها بالحثِّ علىٰ قتالهم، فقال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾

---

(١) يجوز أن يراد تكتُّل الكفار مع بعضهم وانعزالهم عن المؤمنين بحكم المبدأ والدين، والله أعلم. فهو من أسباب إلقائهم في جهنم علىٰ هذه الصورة. (المؤلف).

منهم ضدَّ الدعوة، ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ لا يستطيعُ أحد أن يَفتِنَ أحداً عن دين الله، ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾، فيُجازيهم عليه الجزاء الأوفىٰ، ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ ولم ينتهوا عن كفرهم وفتنتهم وقتالهم لكم ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ يتولَّىٰ نَصْرَكم عليهم، وهو ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾، فلا يَضِيعُ مَنْ تولَّاه، ولا يُغْلَبُ مَنْ نصره ووالاه.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ بيانُ السبب الذي يُبيح الحرب.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ وصف غزوة بدر وما فيها من الحِكَم والعِبَر والأحكام، مُبتَدِئاً هذا السياق بحكم شرعي يتعلَّق بالقتال، جَعَله وَصْلاً كمَّل فيه ما ابتدأ به السورة من حكم الأنفال، وفصَّل به ذلك الإجمال، فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ والغنيمة: ما يناله المسلمون من المنقولات في حرب الكفار عُنْوة، ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ فيُصْرَفُ هذا الخُمُسُ فيما يُرضي الله من مصالح الدين العامة، ومنها: مَصْرِف الدفاع عن كيانه، وذلك بعد أن يأخذ الرسول كفايتَه لنفسِهِ وخاصَّةِ أهله، وما يحتاج إليه للوفود والقُصَّاد، ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: أقربائه، وهم الذين حُرِّمت عليهم الصَّدقة كما حُرِّمت عليه؛ تكريماً له. وأعاد اللام في (ذي القربىٰ) دون غيرهم؛ لِدَفْعِ توهُّم اشتراكهم في سَهْم الرسول ﷺ.

ثم تابع التصنيف فقال: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾، والمراد بهم: الفقراء، فقد ذهب أخصُّ العلماء إلىٰ أنَّ المسكين والفقير قسمان لصنف واحد، أو هما صفتان مترادفتان علىٰ

موصوف واحد بالذات، وإن اختلف بالاعتبار، وتختلف العبارات باختلاف الاعتبارات. وأرباب الرأي الأول يقولون: الفقير: مَنْ لا يحصل علىٰ ما يقع موقعاً من كفايته، والمسكين: مَنْ يحصل علىٰ مثل ذلك، ولكنه لا يكفيه ويكفي عياله. وقيل: بالعكس.

والمراد بقوله: ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: المسافر الذي نَفِدَ ما يُوصله إلىٰ أهله. ولعلَّ هذا السهم للتشجيع علىٰ الأسفار المفيدة للمسلمين.

ثم وصل هذا الحكم في الغنيمة بما يَحْمِلُ علىٰ التمسُّك به، مُعزِّزاً ذلك بالتذكير بنِعَم الله عليهم في هذه الوقعة الحربية، فقال: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ واليوم الآخر، ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ في بدر من عظائم العِبَرِ في ذلك النصر المبين، الذي فرَّق به بين الحقِّ والباطل في تلك الوقعة الفاصلة المقرونة بمعونة الله وعنايته وقدرته ورعايته، التي انتصف فيها الإسلام من أعدائه، وقام للمسلمين بسببها شوكةٌ وسلطان، وكانت نقطةَ تحوُّل عظيم للمسلمين، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾.

وقيل: المراد بيوم الفرقان: يوم أول نزول القرآن، وبيوم التقىٰ الجمعان: يوم بدر، وإنما جمع بينهما لأنَّ كليهما كان يوم سابع عشر من رمضان؛ لأنه وقعت فيه ظاهرتان عظيمتان، وإن اختلفت سَنَتُهُما. كما يقال: يوم عاشوراء فيه نَجت سفينةُ نوح، وفيه نَجَا موسىٰ من الغرق، وبين اليومَيْن أحقاب؛ إذ المراد اختصاصُ نوع هذا اليوم بهذه الوقائع والخصائص المباركة التي حدثت فيه، والله أعلم.

ومعنىٰ إيمانهم به: اعتقادُهم بأنَّ ذلك من فَضْل الله عليهم وعنايته بهم ورعايته لهم.

﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ

هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾.

ثم وَصَلَ البحث بتفصيل تلك العِبَرِ المُنزَلة يوم بدر الدالة علىٰ عظم القدرة والتدبير، فقال: ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: بأقرَبِ الجانبَين من الوادي إلىٰ المدينة وفيه الماء، إذ نزل المطر ـ المارُّ الذِّكرِ ـ فيه دون غيره، ﴿وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾ أي: والأعداء في الجانب الأبعد من الوادي، والرمل رخو تسوخ فيه الأقدام؛ لأنه لم يُمْطَر كما مُطِرَ الجانبُ الأدنىٰ. فهذه هي إحدىٰ العبر. ومُحَصَّلُها: أنه تعالىٰ أَصْلَحَ موضعكم ـ وهو العُدْوة الدنيا ـ بإنزال المطر عليها حتىٰ أصبحت صالحةً للجَوَلان فيها بتلبُّد رَمْلها، وفوق ذلك تجمَّع لكم ماءٌ للتطهُّر والشرب. أما موضع العَدُوِّ ـ وهو العُدْوة القصوىٰ ـ فلم يُصِبْها المطر مع قُربها من موضعكم، وظلَّت رملية رديئة خالية من ماء الشرب، فكان لذلك أثرُه العظيم في غَلَبِكُم عليهم.

والعبرة الثانية: أنه سبحانه جمع بينكم وبين عدوِّكم، رغماً عن أنكم لا تريدون لقاءه ولم تتأهَّبوا له، إذ قد خرجتم لاغتنام العِير من ركب أبي سفيان، وذلك لا يحتاج إلىٰ كبير عناية، ولم يخطر لكم أنكم تجتمعون بهذا الزحف الحاشد من قريش الذي خفَّ للنجْدة، فقضىٰ سبحانه أن لا تدركوا العير رغماً عن قُرْبِكم منها، وتكونوا أمام أمر واقع، وهو محاربة هذا الجمع الزاحف عليكم، والذي نزلتم وإيَّاه في منطقة واحدة صدفة، والتقيتم به، فلم يكن إلا الحرب، وكل ذلك التدبير منه تعالىٰ لأجل أن يجعلَ لكم الغَلَبة والفوز عليهم، رغماً عن قلتكم وعدم أُهْبتكم للحرب، ليَظْهَرَ بذلك لهم ولكم إنجازُ وعد الله سبحانه بخذلانهم ونصركم عليهم، ويتبيَّن أنكم علىٰ الحقِّ وأنهم علىٰ الباطل.

كمَا فصَّل سبحانه ذلك كلَّه بقوله: ﴿وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾، أي: والعير التي خرجتم للقائها أسفلَ منكم، وهو ساحل البحر، ولو علمتم بها لاتَّبعتُموها وما التقيتُم بالمشركين في هذا المكان.

﴿وَلَوۡ﴾ فُرِضَ أنكم ﴿تَوَاعَدتُّمۡ﴾ معهم علىٰ القتال، ثم علمتُم حالكم وحالهم؛ ﴿لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ﴾[1] لكراهتكم للحرب علىٰ قلَّتكم، وعدم إعدادكم شيئاً من العدَّة لها، وانحصار همكم في أخذ العير واغتنامها، ولأنَّ غرض الأكثر منهم كان إنقاذ العير دون القتال؛ لأنهم كانوا يهابون قتال رسول الله ﷺ؛ لأنَّ كفر أكثرهم به كان عناداً لا اعتقاداً، ﴿وَلَٰكِن﴾ قُدِّرَ هذا التلاقي، وهُيِّئَت له هذه الأسبابُ، عن غير قَصْد من الفريقين، ﴿لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾ وهو القتال المُفْضي إلىٰ خِذلانِهم ونصركم عليهم، وذلك ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾ أي: ليتبيَّن ـ بإنجاز وعد الله بنصر المؤمنين مع قلَّتهم علىٰ الكافرين مع كثرتهم ـ أنَّ المؤمنين علىٰ حقٍّ والكافرين علىٰ باطل، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ بما يُخْفيه ويكنُّه كلٌّ منكم، ﴿عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ في وَضْع الأمور مواضعها اللازمة.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ﴾ بدلاً من قوله: ﴿لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ﴾ بَدَلَ مُفصَّل من مُجمَل.

---

(١) أُخْبِرَ النبيُّ ﷺ بقفول ركب قريش من الشام إلىٰ مكة علىٰ الطريق الـمارِّ ببدر، فأمر أصحابه بالخروج، وخرج معهم يريدون العير، وقال: لعل الله يُنْفِلُكُمُوها. وبلغ أبا سفيان ـ وهو أمير الركب ـ خروجُ رسول الله ﷺ هذا، فأمر الركب أن يأخذ بسِيف البحر، ويترك الطريق المارَّ ببدر، وأرسل رسولاً إلىٰ أهل مكة يُعلمهم بالأمر ويستنفرهم للنجدة، فخرجوا إلىٰ بدر ليشغلوا وجه رسول الله ﷺ عن تتبُّع العير، فصادفوه ببدر وهو يظنُّ أن الركب يمر علىٰ بدر، فوقعت اللقيا علىٰ غير ميعاد، وأصبح الحرب أمراً واقعاً، وأصبح المسلمون تجاه أمر واقع. (المؤلف).

وملخَّص الكلام: أنَّ واقعة بدر لم يقع فيها سابق تصميم، وإنما حدثت فجأة أثناء خروجهم لأخذ القافلة، فلم تتهيَّأ، وصادفوا قريشاً قد اجتمعت لنُصرة القافلة ومحافظتها، ولم يكن بدٌّ من القتال، فكانوا أمام أمر واقع، فأنجز الله ما وعدهم به من النصر والظَّفَر.

ثم ذكر عِبرةً أخرىٰ من أسباب النصر علىٰ العدُوّ قدَّرها الله لهم، فقال: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾، وهذا الظرف بَدَلٌ ثانٍ من ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾، مُبيِّناً لأسبابه وألطاف الله فيه.

والمعنىٰ: إنَّ الله تعالىٰ أرىٰ رسوله رؤيا مناميَّة، مَثَّل له فيها عَدَدَ المشركين قليلاً، فأخبر بها المؤمنين، فاطمأنت قلوبهم، وقويت آمالُهم بالنصر عليهم، ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: في أمر القتال؛ إذ منكم القويُّ الإيمان والعزيمة، يقول: نطيع الله ورسوله ونقاتل مهما كلَّف الأمر، ومنكم الضعيف الذي يَتثبَّط عن القتال بمثل الأعذار التي جادلوا بها الرسول ﷺ، كما تقدَّم في قوله تعالىٰ: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال: ٦]، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ من التنازع والفشل بما أراكم واسْتَدرَجكم، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾ من شعور الجبن والجزع، والإيمان والتوكُّل.

ثم بيَّن تعالىٰ أنه أراهم مِثلَ ذلك في اليقظة أيضاً بسنة من سنن الله، وأرىٰ العدوَّ كذلك؛ ليتمَّ الأمر، فقال: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ وذلك بما أودع في قلوبكم من الإيمان بوعد الله لكم بالنصر، ومن الاستهانة بهم، حتىٰ إنكم لم تكترثوا بهم ونمتُم تلك الليلة مطمئنين، ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ وذلك لقلَّتكم بالفعل، ولِـمَا كان عندهم من عُجْب وغرور.

وإنما فعل سبحانه ذلك ليُقْدِمَ كلٌّ منكم علىٰ قتال الآخر؛ هذا واثقٌ بنفسه مُدْلٍ

بأسه، وهذا مُتَكلٌ علىٰ ربِّه واثقٌ بوعده، حتىٰ إذا ما التقيتم ثبَّتكم وثبَّطهم ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه بنصركم عليهم ﴿أَمْرًا كَانَ﴾ في عِلمِهِ ﴿مَفْعُولًا﴾، وهو أن تكون كلمةُ الله هي العليا، وكلمةُ الذين كفروا السفلىٰ. ومن ثَمَّ هيَّأ الأسباب وقدَّرها تقديراً، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ فلا ينفذ إلا ما قضاه وقدَّر أسبابه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

ثم أرشدهم تعالىٰ إلىٰ القوة المعنوية للمقاتلين التي جرت في واقعة بدر، وكانت هي السَّبَبَ الجالبَ للنصر والظفر لهم، وإلىٰ أحوال عدوِّهم التي كانت السَّبَبَ في خِذلانِهم؛ ليكون ذلك تثقيفاً عاماً لهم؛ يتَّبعون الأول ويتجنَّبون الثاني في كلِّ حروبهم. وهذا النمط من الاستنباط والمعرفة من الوقائع يُسمَّىٰ «العِبرة» في لسان الشرع، وفي العصر الحاضر عند علماء التربية يسمىٰ «النقد والتكشيف»، ويعدُّونه من وسائل الإيضاح في التربية والتثقيف، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، بتذكُّر قدرته ووعده بنصر الرسل والمؤمنين ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ لأنَّ الثبات والاستعانة بالله وسيلتان من وسائل الفوز.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في هذه الأوامر الـمُرشِدةِ إلىٰ أسباب الفلاح وفي غيرها، فطاعة القائد العام ركنٌ من أركان الظفر، وهي ملاكُ النظام، فكيف إذا كان القائدُ رسولَ الله المؤيَّدَ من لَدُنْهُ بالوحي والإلهام، ثم أيَّده بقوله: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: قوتكم، وقد استُعيرت الريحُ للقوة، إذ لا يوجد في الأجسام أقوىٰ منها. وهذا النَّهيُ مُلْمِعٌ إلىٰ مُشَاحنتهم في الأنفال وغير ذلك، ومُسَاوِقٌ للأمر بالثبات، ومُتمِّمٌ للغَرَض منه ومُقرَّر بقوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ علىٰ ما تكرهون من شدَّة، وما تلاقونَ من بأس العدو وغير ذلك؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ معيَّةَ نصْرٍ وتوفيق، يُقوِّيهم ويُعينهم، ومَنْ كان الله معه علىٰ هذه الصورة فلا يغلبه شيء. والصبر أعظم أسباب النجاح، والعاقبة للصابرين.

وقد اشتملت الآية علىٰ خمس وصايا حربية يهتمُّ بها العِلمُ الحربيُّ الحديث، وهي:

١ـ الثبات عند لقاء العدو.

٢ـ والقوة المعنوية، وهي هنا الاستمداد من الله سبحانه.

٣ـ وطاعة الله وطاعة رسوله فيما يأمر به من شؤون القتال؛ لأن طاعة القائد العام تُفْضي إلىٰ النصر والتأييد.

٤ـ وترك النزاع، لأنه يؤدي إلىٰ مقاساة الشدائد.

٥ـ الصبر، لأنه أقوىٰ عنصر في الثبات، والغَلَبُ به مقرون.

وبعد أن أمرهم بالآداب الفاضلة والصفات الحسنة من عناصر القوة المعنوية، نهاهم عمَّا كان عليه خصومهم من الصفات الرديئة، تكميلاً لإرشادهم إلىٰ عناصر القوة، بتحذيرهم من أسباب الخذلان، وذكر لهم بعض أحوالهم القبيحة، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ فهو يُجازيهم عليه في الدنيا والآخرة بمُقْتضىٰ سنَّته في ترتيب الجزاء علىٰ

صفات النفس وتكيُّفاتها. والبَطَر: ضَرْبٌ من إظهار الفَخْر والاستعلاء، يُعرَفُ في الحركات المتكلَّفة والكلام الشاذّ.

قال البغوي: نزلت هذه الآية في المشركين حين أقبلوا إلىٰ بدر، ولهم بغيٌ وفخر، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخُيَلائها وفَخْرِها تُحادُّك وتكذِّب رسولك، اللهمَّ فنَصْرَك الذي وعدتَني»[1].

ثم تابع البيان عن هؤلاء المشركين الذين خرجوا لقتال المؤمنين بغياً وعدواناً وبطراً ورئاءً، فقال: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ﴾ لهم قولاً نفسانياً بما ألقاه في هواجسهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: لا أحدَ يغلبكم؛ لشدَّة بأسكم وكثرة عددكم وقوة عُدَدِكُم، ﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ أي: ناصحٌ لكم ومعينٌ ومُسَاعِد؛ يريد بذلك ما يُغْريهم به وما يُلقيه في هواجسهم من أنكم علىٰ الحق، وخصومَكم علىٰ الباطل، وأنَّ آلهتكم ستُعينكم عليهم وتنصركم. هذه خواطرهم الشيطانية. ولذلك روي عنهم أنه قالوا: اللهمَّ انصُرْ أهدىٰ الفئتَيْن وأفضَلَ الدِّينَيْن. ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ أي: التَقَتا واصْطَدَمتا ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾ يائساً من حالهم، وعلَّل ذلك بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾.

ويجوز أن تكون هذه الجملةُ كنايةً عن ظهور كذب تلك الهواجس السابقة لهم[2]، والتَّبيُّن لأنفسهم أنهم كانوا مخدوعين ضالِّين بتلك الأفكار، والله أعلم؛ لأنهم رأوا من المؤمنين قوَّة من إيمانهم بدينهم ودفاعهم عنه لا يقابلها قوة، ولم يألفوا مثلها في حروبهم.

---

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» (٣: ١٦٨). وكلام البغوي في «تفسيره» (٢: ٢٩٩).

(٢) وهذا من البُعْد بمكان، والصواب: أنَّ إبليسَ قال ذلك حقيقةً من غير أن يشعر به أحد منهم، لكن أطلعنا الله تعالىٰ عليه.

فالكلام تمثيلٌ لما قد رأوه في المسلمين من شجاعة وبَسَالة نشأت من صبرهم وصدق إيمانهم وتذكُّرهم لوعد الله. هذا ما أراه. والله أعلم.

وقال في «المنار»: ومعنىٰ هذا: أنَّ جند الشيطان كانوا مُنْبَثِّين في المشركين؛ يوسوسون لهم بملابستهم لأرواحهم الخبيثة ما يُغريهم ويَغُرُّهم، كما كان الملائكة مُنْبَثّين في المؤمنين؛ يلهمونهم بملابستهم لأرواحهم الطيبة ما يثبِّتون به قلوبهم، ويزيدهم ثقةً بوعد الله بنصرهم. فلما تراءت الفئتان وأوشك أن يتلاحما فرَّ الشيطان بجنوده من بين المشركين، لئلّا تصل إليهم الملائكةُ الملابسة للمؤمنين، وهما ضدان لا يجتمعان، ولو اجتمعا لقوي أقواهما ـ وهم الملائكة ـ علىٰ أضعفهما. فخَوْفُ الشيطان إنما كان من إحراق الملائكة لجنوده[1]. وهذا الخطاب الذي جاء في الآية لا يتوقف مثلُه علىٰ سماع المخاطبين له. ومثلُه قوله تعالىٰ: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

وقد روىٰ ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن الشيطان ألقىٰ في قلوب المشركين أن أحداً لن يغلبكم»[2].

ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما قولٌ آخر، وهو: «أن الشيطان تمثَّل في صورة سراقةَ بنِ مالك بن جعشم سيد بني مدلج، وقال للمشركين ما قَصَّتْهُ الآية الكريمة، فلما رجع مَنْ رَجَع منهم إلىٰ مكة كانوا يقولون: هزم الناسَ سراقةُ، فلما بلغه ذلك قال: والله ما شعرتُ بمسيركم حتىٰ بلغتني هزيمتكم، فلما أسلموا علموا أنَّ ذلك كان الشيطان»[3]، إلا أنَّ هذه الرواية ضعيفة السند، والرأي الأول هو الصحيح. والله أعلم.

---

(١) تفسير «المنار» (١٠: ٢٦).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣: ٩).

(٣) المصدر السابق (١٣: ٧).

وقد جاء في السيرة: أنَّ طائفةً من أهل مكة تردَّدت بين النفير والقعود؛ لأنَّ بين قريش وكنانة ثـأراً في دماء، فإذا هي خفَّت للقاء محمد خافت أن تهاجمها من خلفها، وكادت هذه الحجّةُ تُرجِّحُ وتُؤيِّدُ رأيَ القائلين بالقعود، لولا أن جاء مالك بن جعشم المدلجي، وكان من أشراف كنانة، فقال: أنا لكم جارٌ من أن تأتيكم كنانة من خلفكم، فرجح رأي القائلين بالنفير، فنفروا جميعاً، لم يتخلَّف شيخ ولا شاب.

ثم بيَّن شيئاً من تزيين الشيطان ووسوسته وإلقاءاته علىٰ المنافقين وضعاف الإيمان الذين لم يشتركوا في الوقعة خوفاً وهلعاً، فقال: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾، فالظرف ﴿إِذْ﴾ متعلق بـ﴿زَيَّنَ﴾، و﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم﴾ هم ضِعافُ الإيمان، تثور بهم الشكوكُ والشبهاتُ تارةً فتزلزل اعتقادهم، وتسكن تارةً فيكونون كسائر المسلمين.

ومعنىٰ الآية: أنَّ المنافقين وضِعافَ الإيمان كانوا يعتقدون أنَّ المسلمين مغرورون بدينهم في مُحَارَبة قريش، وأنهم لا نجاةَ لهم؛ لأنهم أضعافُهم عَدَداً وعُدَداً. فقال تعالىٰ رداً عليهم وتقويةً لعزم المؤمنين: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ توكُّلَ إذعانٍ واطمئنانٍ بعد أن يعمل ما في وُسعه من الأسباب؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ تعالىٰ يكفيه ما يهمّه، لأنه ﴿عَزِيزٌ﴾ غالبٌ علىٰ أمره، ﴿حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ يضع كلَّ أمر في موضعه علىٰ ما جرىٰ عليه النظام والتقدير في سنته. ومن ذلك: نصرة الحق علىٰ الباطل. وقد تدخُل عنايته تعالىٰ بالمتوكِّلين عليه في باب الآيات وخوارق العادات، كما حَصَل في غزوة بدر هذه. من «المنار» بتصرُّف[1].

---

(١) تفسير «المنار» (١٠: ٢٨).

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

وبعد أن بيَّن سبحانه حالَ هؤلاء الكفار عند خروجهم لقتال المؤمنين، وطَوَاه على ما نالهم من عذاب الدنيا، أشفَعَه ببيان شيءٍ مما سينالهم في الأخرىٰ، ولكنْ ذكرَه ببيان عام لجميع الكفار، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من قتلىٰ بدر وغيرهم ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ وهو ضَرْبٌ من عالم الغيب، فلا يقتضي أن يراه الناس. وقوله: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ علىٰ تقدير القول، والمراد به المبالغةُ في الإيلام، والحريق: عذاب النار الذي يكون بعد البعث.

ثم علَّل ذلك بأنه من كَسْبهم وسوء تصرُّفاتهم، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ ولكن الناس أنفسهم يظلمون، فيخرجون بسُوء تصرُّفاتهم عما يحفظ لهم سعادتهم، إلىٰ ما يؤدي بهم إلىٰ البلاء.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ دأبَ هؤلاء المشركين الذين قُتِلوا ببدر ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ لمن يستحق عقابه. والدأب: العمل الذي يستمرون عليه. وهذه الجملةُ مَسُوقَةٌ لبيان أنَّ ما حلَّ بهم من العذاب إنما هو بسببِ إصرارهم علىٰ الكفر واستمرارهم عليه، كما كان الأمر في أمثالهم من الأمم.

ثم علَّل ما فُهِمَ من النظم الكريم من كَوْن ما حلَّ بهم من العذاب مَنُوطاً بأعمالهم

السيئة، حَسَب سُنن الله الكونيَّة، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾، وذلك أنَّ الله سبحانه خَلَق الناس مطبوعين علىٰ معرفة الحق والمَيْل إليه، وأرسل لهم رُسُلاً بتعاليم تُرْبي فيهم ذلك الميل، فإذا حافظوا علىٰ هذه النِّعمة نالوا ثمرتَها، وهي السعادة في الدارَيْن، وإذا غيَّروها بالتربية السيئة والإعراض عن التعاليم الإلهيَّة؛ تغيَّرت النتيجة بالشقاء في الحياتَيْن. والله أعلم.

وقال في «المنار»: دلَّت هذه الآية علىٰ أنَّ نِعَمَ الله تعالىٰ علىٰ الأقوام والأمم مَنُوطةٌ ابتداءً ودواماً بأخلاقٍ وصفاتٍ وعقائدَ وعوائدَ وأعمالٍ تقتضيها، فما دامت هذه الشؤون لاصقةً بأنفسهم مُتمكِّنةً منها؛ كانت تلك النِّعَم ثابتة لثباتها، ولم يكن سبحانه لينزعها منهم انتزاعاً بغير ظلم منهم ولا ذنب، فإذا هم غيَّروا ما بأنفسهم من تلك العقائد والأخلاق وما يترتَّب عليها من محاسن الأعمال؛ غيَّر الله عندئذ ما لديهم، وسَلَب نعمته منهم[1]. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٥٣﴾ لا تخفىٰ عليه من أمرهم خافية.

ثم استشهد علىٰ هذه القاعدة بما جَرَىٰ علىٰ آل فرعون وغيرهم؛ حيث سُلِبَتْ نعمة الله منهم لما غيَّروا من أعمالهم وأخلاقهم، فقال: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ الذي وهبهم العقلَ ليَدَّبَّروها، والقدرةَ والسلطانَ ليعملوا بها، فصرفوا تلك المواهب في غير ما خُلِقت له، ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٥٤﴾.

قال في «المنار» ما ملخَّصه: وحاصل المعنىٰ: أن ما يحفظه لنا التاريخ من وقائع الأمم إنما هو جارٍ علىٰ سنن الله المطَّردة في هذا الكون، وأنه أثر طبيعيٌّ لكفرهم وظلمهم وفسادهم[2].

---

(١) تفسير «المنار» (١٠: ٣٣).

(٢) المصدر السابق (١٠: ٤١).

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

وبعد أن شرح أحوال مَنْ أهلكهم الله في وقعة بدر من شرار الكَفَرة، شرع في بيان أحوال الباقين منهم بما فيهم اليهود، وفصَّل أحكامهم، وصدّر الكلام بتشنيع عام ليكون حلقة وَصْل، تعليقاً علىٰ ما قبله، وتـمهيداً لما بعده، علىٰ نهج القرآن، فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وأصرُّوا علىٰ الكفر ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾، وعبَّر عنهم بـ«شرِّ الدواب» لإفادة أنهم ليسوا بشَرٍّ فقط، بل هم أحطُّ من العجماوات وأشرُّ من أشرارها، لأنَّ لها بعض المنافع، وهؤلاء كلُّ أمرهم شر.

وقد بدأ ببيان حكم الناقضِين للعهد، وهم يهود المدينة، كانوا عاهدوا الرسول علىٰ الحياد، ثم نقضوا العهد، كما بيَّن ذلك بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ﴾ أي: من هؤلاء الكفَّار، والذين عاهَدَهُم منهم هم يهود المدينة، وقوله: ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ﴾[1] يَصدُقُ علىٰ طوائف يهود المدينة في جملتهم، وهم ثلاثُ فِرَق، كلٌّ منها عاهدت الرسول ﷺ، ثم نقضت العهد. ويَصدُقُ علىٰ بني قريظة وحدهم، فإنهم نقضوا العهد، واعتذروا بمعاذير، فغَضَّ عنهم رسول الله ﷺ وجدَّد عهدهم، ثم نقضوه ثانياً يوم الخندق، وانضمُّوا إلىٰ المشركين يحاربون الرسول معهم، ﴿وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ تلك العهود.

---

(١) لما هاجر الرسول ﷺ إلىٰ المدينة عامل اليهود بالحُسْنىٰ، وتَعَاهَدوا معه أن لا يخونوا ولا يمالئوا الأعداء، فنقضوا العهد وجدَّدوه، ونقضوه وحاولوا اغتياله، تارة بالسم، وتارة بالإيقاع به، فأمره سبحانه بالفتك بهم، ومن ذلك فَتْكُه ببني قريظة. (المؤلف).

فبيَّن سبحانه حُكمَه فيهم بقوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾، والتثقيف: الحِذْق في إدراك الشيء. والمعنىٰ: إنْ أدركتَهم وتغلَّبتَ عليهم فنَكِّل بهم تنكيلاً يكون عبرةً وسبباً لتَفَرُّقِ مَن وراءَهم من الأعداء واتِّعاظهم بهم. وقد فعل ذلك ﷺ ببني قريظة، حيث قتل مقاتليهم صَبْراً، وسَبَىٰ ذراريَهم بأمر الله[1]؛ لخيانتهم العُظْمىٰ يوم الخندق بنقض العهد، واتِّفاقهم مع العدو. وقد جَعَلَت الآية مَنْ لا يكون عنده فضيلةُ الوفاء بالعهد مجرَّداً من معنىٰ الإنسانية، وعبَّرت عنهم بشرِّ الدواب.

ولما كانوا ينقضون العهد ويلتحقون بالعدو وقت الضيق وفي أحرج المواقف، أمره بالحِيطة وتلافي الأمر قبل وقوعه، فقال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: إنْ تتوقَّع من قوم معاهدين، نَقْضَ عهدك معهم خيانةً منهم، بأن يظهر لك من الدلائل والقرائن ما ينذر به، فاقطع عليهم طريق الخيانة لك قبل وقوعه، بأن تَنْبِذَ إليهم عَهْدَهم؛ أي: تُعلِمَهم بفَسْخِهِ وعَدَم تقيُّدك به.

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾، وفيه إيماء أيضاً إلىٰ تحذيره ﷺ من المناجَزَة قبل الإنذار والإعلام؛ لأنَّ مناجزتهم الحرب ـ وهم علىٰ تَوَهُّم بقاء العهد بينكم ـ خيانة لهم.

وجاء في «طبقات ابن سعد»: أنه نزلت في بني قينقاع[2].

ثم أنذر سبحانه أولئك الخائنين بما سيحلُّ بهم، فقال: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾

---

(١) رواه البخاري (٤١٢١)، ومسلم (١٧٦٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) «الطبقات الكبرىٰ» (٢: ٢٢).

أنهم ﴿سَبَقُوٓاْ﴾ وغَلَبوا بهذه الخيانة والخديعة، ﴿إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ٥٩﴾ اللهَ بمكرهم وخيانتهم لرسوله.

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٦٠ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦١ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٣﴾.

ولما صار المشركون وأهل الكتاب يداً واحدة في معارضة النبيِّ ﷺ ومعاداته، بيَّن تعالىٰ للمؤمنين ما يجب عليهم، استعداداً للحرب التي لا مفرَّ منها، نظراً لهؤلاء الأعداء وضماناً للسِّلم، فقال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾[1]، وهذه الآية توجب علىٰ

---

(١) لقد أراد الإسلام لأهله أن يكونوا أقوياء بالإيمان الصحيح والأخلاق الكريمة والعمل الصالح، وأقوياء بالاستعداد الحربيّ، والتأهُّب دائماً للدفاع عن كيان الأمة وحقوقها، وقد كانوا بالفعل هم أهلَ العزَّة في الأرض والهيبة في عيون الأمم، فلما تهاونوا وقصَّروا في ذلك الاستعداد من كل نواحيه؛ هانوا بنظر الأمم وذلُّوا، واستولىٰ عليهم الطامعون بجميع أنواع الاستيلاء، وفقدوا حقوقَهم وكرامتِهم ومركزهم الرفيعَ الذي كان لهم بين الأمم والشعوب.
وترشد هذه الآية بعمومها إلىٰ ما يجبُ في سبيل المحافظة علىٰ الأمة وكيانها من اتِّخاذ الحَيْطة والحذر من الأعداء، وفيها إلماعٌ إلىٰ أنَّ الحقَّ لا بدَّ في بقائه وتمتُّع الناس به من قوَّة تحميه، وهذه قضية تشهد لها وقائعُ التاريخ، وكثيراً ما رأينا أنَّ رأي صاحب القوة حقٌّ، ولو كان ظاهرَ البطلان، وأن رأي الضعيف باطل، ولو شَهِدَ له القرآن؛ رأينا ذلك في آراء الأفراد، ورأيناه في مبادئ الجماعات ومطالبها. فالقوة سلاح للحقِّ يحبه ويرعاه، ولذلك أمر الإسلام بالجهاد، =

المسلمين أن يكونوا في مُقدّمي صناع العُدَد الحربية، كلَّما تجدَّد نوعها فكان مستطاعاً للبشر؛ لأنَّ الجهاد فرضٌ من فرائض الإسلام، وأن الاستعداد له والتَّمرُّن عليه من لوازم هذه الفريضة؛ إذ حُكْمُ الوسائل حُكْمُ المقاصد، فالذي لا يتمُّ الواجب إلا به واجبٌ أيضاً، ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم يتسابقون إلىٰ حالات الجهاد وإعداد السلاح.

ومن فروض الكفاية علىٰ المسلمين: إعداد الطيارات والغوَّاصات، بل والقنابل الذريَّة، وهم آثمون كلُّهم بتَرْكِ ذلك، لأنها أصبحت في استطاعة البشر، ولذلك أردف هذا الحكم العام بما كان متعارفاً وقت النزول، فقال: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ وهي العناية بتربية الجياد منها وترويضها علىٰ الخطط الحربية، وعلىٰ هذا فمن الواجب علينا الآن أن نسبق العدو في صنع آلات الحروب، لا أن نشتريها منهم.

ثم علَّل ذلك الحكم العامَّ بقوله: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ الذين يتربَّصون بكم الدوائرَ، ويناجزونكم الحرب كلَّما رأوكم ضعفاء، ﴿وَ﴾ كذلك تُرْهِبون ﴿ءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ أي: دون هؤلاء المعروفين لديكم، ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ لأنهم يُخفُون لكم العداء، أو من أعداء المسلمين الذين سيكونون في الأجيال الآتية، ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ وأنتم لا تعلمون عنهم شيئاً.

وإنما ذكر رباط الخيل؛ لأنها كانت عدَّة الحرب إذ ذاك، أما الآن فيقاس عليها بالقياس الجلي الطائرات والدبابات والمدافع وغير ذلك، فيجب علىٰ المسلمين وجوباً محتَّماً صُنْعُ كلِّ ذلك. وهذا الإعداد هو ما يسمِّيه العُرْفُ الحديث: السِّلم المسلَّح؛ لأنَّ معناه الإرهاب وقطع الطمع بهم.

= وجعله ركناً من أركانه، وحثَّ عليه في كثير من سور القرآن، وقد أدركت الأمم اليوم ذلك، فهبت تتدرَّع بالقوة والصبر والتضحية بالنفس والنفيس لاستحصال حقِّها الضائع وشرفِها المهدور. (المؤلف).

ثم حضَّ علىٰ إنفاق المال، لأنه يُعين علىٰ القتال، فقال: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ﴾ أي: تنالون جزاءً وافياً في الآخرة وفي الدنيا. ومن ذلك: أنَّ القويَّ المستعدَّ لمقاومة المعتدين بالقوة قلَّما يعتدي عليه أحد، فأنتم تنالون بهذا الإنفاق حظاً وافراً في الدنيا والأخرىٰ، كما قال: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٦٠﴾ أي: لا تُغْبنون بهذا الإنفاق، بل تربحون في الدارين ربحاً عظيماً.

ولما كان السِّلم هو المقصود الأصلي من هذه الحرب، أمر نبيَّه ﷺ بإيثار السِّلم علىٰ الحرب متىٰ وجد إلىٰ ذلك سبيلاً بقوله: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦١﴾ فلا يَخْفىٰ عليه مكرُهم وتوسُّلهم بالصُّلح إلىٰ الغدر، وسيكفيك كَيْدُهم. يقال: جَنَح للشيء، بمعنىٰ: مَالَ إليه.

وهذه الآية أكبرُ دليلٍ علىٰ أنَّ الدين الإسلاميَّ دين مُسَالَمَة معقولة، وأنه يأمر بالجهاد لمحافظة نشر الدعوة ومدافعة المعتدين، فإنْ تهيَّأت فالسِّلم هو المبدأ الأساسي له، ولَعَمْري إنَّ هذا النوع من الحرب هو النوع الكامل النزيه بغاياته ومبرِّراته وحدوده، كيف لا وهو محصورٌ بالدفاع عن النفس وعن العقيدة وحريتها وحرية الرأي والدعوة إلىٰ ذلك؟! وقد رُوعيت فيه الحُرُمات الإنسانية تمام الرعاية، لذلك يأمر الله سبحانه نبيَّه ﷺ بالجنوح للسلم إن جَنَحوا له، ولو كان فيه دخن أو يخشىٰ أن يكون فيه خديعة، إلىٰ أن تتبيَّن خديعتهم، فإنَّ الله حافِظُهُ من مكرهم، حيث وعده بذلك فقال: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ﴾ بجنوحهم للسِّلم، ويفترصوه لأجل الاستعداد للحرب، أو انتظار غِرَّة، ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: كافيك شرَّهم.

ثم استشهد علىٰ ذلك بما كان من التأييدات الماضية، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ﴾ يوم بدر ﴿وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢﴾ من المهاجرين والأنصار الذين هيَّأهم لك، ﴿وَأَلَّفَ

﴿بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ بعد ما كان بين الأوس والخزرج من التفرُّق والعداء الشديد، الذي رسخ بالحروب الطويلة والضغائن الموروثة، وجمعهم علىٰ الإيمان بك وبَذْلِ النفس والنفيس في مناصرتك، و﴿لَوْ﴾ كنت ﴿أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ للتأليف بينهم؛ ﴿مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ بهذا الدين المبين وهدايتهم إليه. والتآلفُ بين القلوب من أقوىٰ وسائل التعاون وأنجعِها، وأجْدىٰ وسائل التحاب، والتآلف: قوة الإيمان.

وفي الآية إيماءٌ واستشهادٌ علىٰ أنَّ هذه الشريعة حياة وإنسانية.

ثم ختم الآية بما يتناسب مع الغرض الأصلي منها، وهو كفاية الله لرسوله، فقال: ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ﴾ لا يُغْلَب علىٰ أمره، ﴿حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ يَضَعُ الأمور مواضعَها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

ثم بيَّن تعالىٰ ما يجب علىٰ المؤمنين من الثبات وإظهار المتانة، ولو كان العدوُّ أقوىٰ منهم عَدَداً وعُدَداً، ولا سيما في مبدأ الانقلابات المُصْلِحة والنهضات الصالحة.

وقد افتتح هذا السِّياق بما ختم به السياق السابق من كفاية الله لنبيه ﷺ وعنايته به وتأييده بالمؤمنين؛ ليكون حلقةَ وَصْل، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ فلا تَخْشَ من محاربة العدو إذا بادأك، ولا من خيانته في الصُّلح أو نَقْضِهِ للعهد أو غير ذلك.

ثم حثَّ المؤمنين علىٰ الجهاد ونُصرة الحق، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾، قال الراغب: التحريض: الحثُّ علىٰ الشيء بكثرة التزيين له، وتسهيل الخَطْبِ فيه[1]. والمعنىٰ: رغِّبهم فيه لأنه من ضرورات الاجتماع البشريِّ، كأنه يقول: حُثَّهم علىٰ ما يقيهم من أن يكونوا حَرَضاً أو يكونوا من الهالكين؛ لأنَّ الأمة الحربية مرهوبةُ الجانب بنسبة قوَّتها عَدَداً وعُدَداً وصناعةً حربية وفنوناً عسكرية، فكلُّ ذلك واجبٌ مُحتَّم علىٰ المسلمين، حتىٰ يكونوا كلَّ وقت أقوىٰ الأمم أجمعين. فهذه من جملة الحياة التي أمرنا الله بالاستجابة لها بقوله: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، كما أمرنا أن لا نتنازع ولا نتفرق.

ثم أردف هذه المقدِّمة بهذا الأمر الذي أتىٰ به علىٰ صُورة الشرط زيادةً في تقريره، وعلىٰ صورة الخبر مبالغةً في تحقيقه، مومئاً إلىٰ ما جرىٰ في بدر، فقال: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ﴾، والمراد من الصبر هنا: ما يسمَّىٰ في اصطلاح الحرب بالاستماتة، والله أعلم، وذلك لأنَّ هذا الصبر مُنْبعث عن الأخلاق الإسلامية الصحيحة التي منها الثبات ومَضَاء العزيمة ورباطة الجأش وتحمُّل الشدائد والتضحية بالنفس والنفيس في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وتلك قوة عظيمة يَضْؤُل في جانبها كلُّ قوة.

وهذا الكلام خبرٌ بمعنىٰ الإنشاء والأمر، بدليل التخفيف في الآية الآتية، وإنما جاء بهذه العبارة ولم يأت بما ينصُّ علىٰ أن الواحدة بعشرة؛ لأنَّ المطلوب أن تكون هذه القوة في مجموع الجيش، لا في كلِّ فردٍ منه، إذ قد يكون في بعض أفراده ضعفاءُ وبعضُ أفراد يقابل أكثر من العشرة، ولذلك تابع هذه الصيغة وقرَّرها بقوله: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، ونكتةُ إيراد هذا الحكم بلفظ الخبر الإشارةُ

---

(١) «المفردات» ص٢٢٨.

إلىٰ جَعْله بشارةً للمؤمنين الفقهاء الصابرين، بأنهم يكونون كذلك فعلاً، بفقههم ونظرهم الصائب، كما يُفهَمُ ذلك من فحوىٰ التعليل بقوله: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ ما تفقهون من حكمة الحرب، وما تكون وسيلة له من المقاصد العالية.

ومعنىٰ اللفظ الخبري: إنْ يُوجَد منكم عشرون صابرون يغلبوا بتأثير إيمانهم وصبرهم مئتين من الذين كفروا المجرّدين من هذه الصفات الثلاث. والآيةُ تُشْعِرُ بأن العِلمَ مَصْدَرُ البسالة والقوة المعنوية، كما أنه مصدر القوة المادية من الصناعات الحربيّة والفنون العسكريّة التي بها يكون التفوُّق والغَلَبُ والصبر. وتشتمل الآية علىٰ معنًىٰ آخر، وهو أنهم قوم جَهَلة بالله تعالىٰ وباليوم الآخر، لا يُقاتِلون احتساباً وامتثالاً لأمر الله تعالىٰ وإعلاءً لكلمته وابتغاءً لرضوانه كما يفعله المؤمنون.

ثم أردف الحكم بما فيه تخفيفٌ له بعد استِتْباب الأمر واستقرار النهضة، فقال: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾، والآية تُشْعر بأنَّ الضعف لا يراعىٰ في أول الانقلاب، بل يطلب فيه التضحيةُ ونكرانُ الذات لشدَّة الحاجة إلىٰ المقاومة، وكذلك إذا تعرَّض للخطر الشديد دارُ الإسلام وكيانُه وعزَّته وسلطانه، بخلافه بعد استقرار الأمر. وتدلُّ علىٰ أن أدنىٰ ما يجب علىٰ المؤمنين في قتال الكفار أن يصبر الجيش علىٰ مِثلَيْه في العدد، كما قال: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بتيسيره، أو بإرادته ومشيئته تعالىٰ: وأصل الإذن: إباحة الشيء والرخصة في فعله. وهي من الله تعالىٰ، إما أمر تكليف أو إباحة وترخيص. وعلىٰ كلٍّ، فالآيةُ تدلُّ علىٰ أدنىٰ ما يجب ثبات المؤمنين عليه، وهو تحديدٌ لقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾ [الأنفال: ٤٥].

ثم ختم الآية بما يُرَغِّب بالصبر، ويُبيِّن أنه مصدر الغَلَب والظَّفَر، فقال: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾، والمراد من المعيَّة: النصر والتأييد. هذا رأيي، والله أعلم.

وقال في «المنار»: هذه الآية رخصةٌ خاصَّةٌ بحال الضعف، كما كان عليه المؤمنون في الوقت الذي نزلت فيه، وهو غزوة بدر[1].

والمراد من الضعف: ما يعمُّ الماديَّ والمعنويَّ، فقد كانوا لا يجدون ما يكفيهم من القُوت، ولم يكن لديهم إلا فرس واحد، وأنهم خرجوا بقَصْدِ لقاء العير، غير مستعدِّين للحرب، ومع هذا كلِّه كانوا أقلَّ من ثلث المشركين الكاملي العدة، ولما كملت للمؤمنين القوةُ كما أمرهم الله أن يكونوا في حالة العزيمة كانوا يقاتلون أضعافهم إلىٰ عشرة أمثالهم أو أكثر وينتصرون عليهم. وهل تمَّ لهم فَتْحُ ممالك الروم والفرس وغيرهم إلا بذلك، وكان القدوة الأولىٰ في ذلك أصحاب رسول الله ﷺ في عهده ومن بعده، فقد كان الجيش الذي بعثه رسول الله ﷺ إلىٰ مؤتة من مشارف الشام ثلاثة آلاف، وأقلُّ ما روي في عدد الجيش الذي قاتلهم من الروم ومتنصِّرة العرب مئة وخمسون ألفاً، وكان عدد الجيش في اليرموك أربعة وعشرين ألفاً، وروىٰ المؤرخون أن الجموع التي جمعها هِرَقْلُ تجاه هذا العدد زهاء مئتي ألف، وكان يأتيها المَدَدُ علىٰ الدوام. ورَوَوْا أن قتلىٰ الروم بلغت سبعين ألفاً.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

---

(١) تفسير «المنار» (١٠: ٦٨).

ثم أردف هذا السياق ببيان حكم آخر من أحكام الغزو والجهاد، وهو وجوب إظهار الشوكة والقوة في مبدأ النهضة الدينية لتسهيل نشر الدعوة، وذلك بالإثخان في القتل للمستحقِّين ترهيباً للمعارضين، وسَبَكَ هذا الحكمَ بالإنكار علىٰ عملٍ وقع من النبي ﷺ وأصحابه علىٰ خلاف هذا النظام أدىٰ إليه اجتهادُهم بأنَّ ما أوقعوه بالأعداء في بدر كافٍ في الإثخان وجواز الأَسْرِ بعده، وذلك أنهم أخذوا أسرىٰ من الأعداء، ثم أطلقوا سراحهم بشيءٍ من المال افتَدَوا به، فأَنَّبهم علىٰ هذا العمل، فقال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: حتىٰ يبالغ في التفوُّق بالغَلَب وإظهار الشوكة والقهر للمعارضين، ليذلَّ الكفر ويقلَّ حزبه. وهذه قاعدة عظيمة من قواعد تمكين نشر الدعوة.

ثم بيَّن وجه خطئهم في هذا الاجتهاد، فقال: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾ وهو المال الذي تأخذونه من الأسرىٰ، وإن كان للاستعانة به علىٰ الحرب، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ أي: نَشْر الدين والإصلاح الذي هو سبب لنجاة الآخرة وسعادتها، وذلك لا يتمُّ إلا بإظهار الشوكة والقوة تجاه المعارضين، وقَطْعِ دابر المفسدين، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٦٧﴾ يضعُ الأحكامُ حَسَب ما تقتضيه الحكمة ولا يرأف بالمفسدين، ويريد لحزبه المؤمنين أن يكونوا أعزّاء غالبين؛ لأنَّ ذلك من الحكمة أيضاً، إذ فيه الخير والنفع للبشر أجمعين. فليس لهم أن يأخذوا أسرىٰ إلا بعد الإثخان، كما قال في سورة محمد: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤].

ثم أردف هذا الإنكار بالتهديد المصدَّر بالعَفْو؛ تعجيلاً للمَسرَّة علىٰ المساءة، علىٰ نهج القرآن في مِثلِه، فقال: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ في أن لا يعذِّبكم بهذا الذنب، ﴿لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ﴾ من فداء هؤلاء الأسرىٰ ﴿عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨﴾، ويجوز أن يراد به سوء النتائج.

قال في «المنار»: ثم إنه تعالىٰ أباحَ لهم كلَّ ما أخذوه من الفداء لئلّا يفهموا من الإنكار أنه مُحَرَّم، وعَدَّهُ من جملة الغنائم التي أباحها لهم، وقال: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ أي: إذا كان الله تعالىٰ قد سَبَقَ منه كتابٌ في أنه يقتضي أن لا يعذِّبكم بهذا الذنب الذي خالفتم فيه سُنَّته وهَدْيَ أنبيائه، فكُلُوا مما غنمتُم من الفدية حال كونه حلالاً بإحْلَالِه لكم الآن طيِّباً لا خبث فيه، واجعلوا باقيَهُ في المصالح التي بُيِّنت لكم في قسمة الغنائم، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في العَوْد إلىٰ فعل شيء في الدين قبل أن يُؤْذَنَ لكم فيه.

ثم قَرَن التهديد بالتلطيف، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لذنوب أهل الإيمان من عباده، ﴿رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ بهم، فلا يعاقبهم بعد توبتهم منها[1].

وبعد هذا البيان والإنكار؛ لاطف سبحانه هؤلاء الأسرىٰ، ورغَّبهم بالإسلام لما فيه من خَيْرَي الدنيا والآخرة، وهدَّدهم وأنذرهم عاقبة بقائهم علىٰ الكفر وخيانة الرسول ﷺ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ بأن تكونوا مُستعدِّين للإسلام فتُسلِموا، ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ ومن ذلك ما تشاركون فيه إخوانكم المؤمنين من الغنائم التي تغتنمونها من الكفار، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ما كان منكم من الشِّرك وما ترتَّب عليه من السيئات، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن تاب من كفره ومن ذنبه، ﴿رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾ بالتائبين والمؤمنين.

---

(١) هذا تقييد للرحمة وتحجير لها من غير دليل، فرحمة الله تعالىٰ تشمل التائبَ وغيرَه، إلا أنها في التائب مجزومٌ بحصولها، لوعده تعالىٰ بها، ووعدُه سبحانه لا يتخلّف، أما غير التائب فتُرجىٰ له من غير جزم، حيثُ هي ممكنةٌ عقلاً، والتجاوز عن المسيءِ وارد، وتخلُّف الوعيد كَرَم، لكنْ علىٰ العبدِ أن يسارع إلىٰ التوبة لتحصيل الرحمة المجزوم بها، ولا يركن إلىٰ الرحمة المحتمَلة.

وإنما قال: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾، بَدَلَ: (إن يكن في قلوبكم خير)؛ لأن الذي يكون يَعلَمُه الله، فهو تعبيرٌ عن الملزوم باللازم.

وبعد أن رغَّبهم بالتوبة والإيمان، توعَّدهم علىٰ بقائهم في الكفر ومحاولتهم الخداع بإظهار الميل إلىٰ الإسلام، وخاطب بذلك النبي ﷺ، فقال: ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ﴾ بما يظهر بعضُهم من المَيْل إلىٰ الإسلام، والرغبة عن قتال المسلمين، ﴿فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ بمُقَاتَلَتِهم لرسوله، وباتِّخاذ الأنداد والشركاء له، والكفر بنِعَمِهِ وبرسوله، رغماً عما فطرهم عليه من التوحيد، ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ رسولَه وسلَّطه عليهم.

فقوله تعالىٰ: ﴿قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾، جاء علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]، وعلىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، أي: باستئصال أمثالهم بالعذاب. وفيه تهديدٌ ثانٍ لهم إن أضمروا ذلك، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ لا تخفىٰ عليه من أمرهم خافية، ﴿حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ يضع الأمورَ في مواضعها. فكلُّ أحكامه وأعماله صادرةٌ عن علم وحِكمةٍ بالغة. ومن ذلك: نَصْرُ المؤمنين علىٰ الكفَّار المعارضين، وإظهارُهم عليهم بالظفر والغَلَب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۖ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۖ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾.

قال في «المنار»: ثم خَتَمَ هذه السورة الجامعة لأهم قواعد السياسة والحرب والسِّلم والأسرىٰ والغنائم؛ بما يناسبها من القواعد في ولاية المؤمنين بعضِهم لبعض بمقتضىٰ الإيمان والهجرة، وما يلزم ذلك من الأعمال، واختلافها باختلاف الأحوال[1].

وكان المؤمنون في عصر نزول هذه الآيات أربعة أصناف:

الصنف الأول: المهاجرون الأوَّلون إلىٰ زمن صُلح الحديبية.

الصنف الثاني: الأنصار، وهم أهل المدينة.

الصنف الثالث: المؤمنون الذين لم يهاجروا.

الصنف الرابع: الذين هاجروا بعد صُلح الحديبية.

فبيَّن أولاً المساواة في الفَضْل والمنزلة، ووجوب تَبَادُلِ الولاء والنصر بين الصنف الأول والثاني لتقاربهم في الصفات وسَبْقِهم فيها، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، ثم ذكر الصنف الثالث فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾[2].

ثم خصَّ من عموم الوَلاية المنفية، شيئاً واحداً، فقال: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ

---

(١) تفسير «المنار» (١٠: ٩١).

(٢) تبيِّن هذه الآية أنَّ الحقوق المدنيةَ في الحكومة الإسلامية للمسلمين مشروطة بأمرين: الإيمان، وسُكنىٰ دار الإسلام. فالمؤمنون الذين يدينون بالإسلام ولم يتركوا تابعية دار الكفر ويهاجروا إلىٰ دار الإسلام ويستوطنوها؛ لا يكون لهم حقوقُ الإسلام المدنية في الحكومة الإسلامية، وإنما هي للمسلمين الذين يولدون فيها، أو ينتقلون من دار الكفر إليها، فهؤلاء متساوون في تلك الحقوق، وبعضهم أولياء بعض. أما الذين لم يهاجروا فلم يكن لهم من تلك الحقوق إلا الانتصار لهم في الدين إن استنصروا المسلمين. (المؤلف).

﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾، ثم استثنىٰ من هذا الحكم حالة واحدة، فقال: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ أي: إنما يجب عليكم أن تنصروهم علىٰ الكفار الحربيِّين دون المعاهدين، إذ لا يجوز نقض العهود والمواثيق، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾ فعليكم أن تقفوا عند حدوده.

وهكذا قرَّرت الآية وجوب تَبَادُلِ الولاء والنَّصْرِ بين الأنصار والمهاجرين في الشؤون العامة العادية والحربية، وعدم وجوب الولاء في الشؤون العادية للَّذين تخلَّفوا عن الهجرة بإرادتهم، وارتَضَوُا البقاءَ في دار الكفر باختيارهم؛ لأن هذا الواجب إنما هو بين المسلمين الذين جمعت بينهم وحدة الدار، وحفَّزهم إخلاصُهم لدينهم إلىٰ تَـرْكِ دار الكفر، ولو خسروا أموالَهم ونأوا عن أوطانهم وذوي أرحامهم.

أما إذا وقع علىٰ هذا النوع من المتخلِّفين اضطهادٌ بسبب دينهم واستغاثوا بكم، فعليكم أن تُسْرِعوا إلىٰ نَجْدتهم، إذا لم يكن بينكم وبين الـمُسْتَنصَر عليهم عهد وميثاق.

وفي هذا رَوْعةٌ بالغة في احترام الإسلام للعهود والمواثيق، ولو أدىٰ ذلك إلىٰ عدم نجدة المسلمين، مع أنَّ روح الدين تحثُّ علىٰ نجدة بعضهم لبعض وتُوجبه.

ثم خلَّـلَ هذا البيان ببيان وَلاية الكفار بعضهم لبعض؛ حَمْلاً للمؤمنين علىٰ مُباعدتهم وعدم الثقة بهم وإن كانوا أقارب، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي: فكونُوا يداً واحدةً عليهم، ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي: إن لم تفعلوا ما شرع لكم من وَلاية بعضكم لبعض وتناصُركم وتعاونكم تجاه ولاية الكفار بعضهم لبعض عليكم، ومن الوفاء بالعهود للكفار المعاهَدين إلىٰ أن تنقضي عهودُهم أو تُنْبَذَ علىٰ سواء، إن لا تفعلوا ذلك ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ يكون فيه أعظم الخطر عليكم بتَخَاذلكم وفَشَلكم الـمُفْضي إلىٰ ظفر الكفار بكم واضطهادكم في دينكم لِصَدِّكم عنه، كما كانوا يَفْتِنُون ضعفاءَكم بمكة قبل الهجرة.

ثم نصَّ على تفضيل الصنفَيْن الأوَّلَيْن من المؤمنين على غيرهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾، فقد قاموا بأعمال جليلة وتضحيات عظيمة في نُصْرة الدِّين وإعلاء كلمة الله عندما كانوا ضعفاءَ وأعداؤهم أقوياءَ، وهذه شهادةٌ من الله تعالىٰ بكمال إيمانهم وتميُّزهم فيه عن غيرهم. ثم سجَّل لهم بقوله: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ في دار الجزاء.

ثم ذكر الصنف الرابع، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ﴾، وهم من تأخَّر إيمانهم وهجرتهم عن الهجرة الأولىٰ، أو عن نزول هذه الآيات أو صُلح الحديبية، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾، وهذا التعبير فيه إشارة إلىٰ تميُّز السابقين عليهم.

ثم ذكر الحكم العامَّ في هذا السياق، فقال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ وشريعتِه، وذلك في التناصر في الحقِّ والتعاون في البِرِّ.

ثم ختم الله هذا السياق بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾، فهو تذييل لأحكام هذا السياق، أو لجميع أحكام هذه السُّورة؛ يبعث على العمل بها بدقة وإخلاص.

وقيل: إنَّ الآية ـ بمقتضىٰ عمومها ـ تشريعٌ في توريث ذوي الأرحام وتقديمِ بعضِهم على بعض.

وقيل: كان المهاجر لا يَرِثُه مِنْ ورثته إلا المهاجر، ولا يَرِثُه مِن ورثته مَن لم يكن مهاجراً، حتىٰ نزل قوله تعالىٰ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦] وعلىٰ هذا تكون الآية تشريعاً بحسب صيغتها، وحضاً للمؤمنين على التكاتف والتناصر بحسب سياقها، على نهج القرآن في مثله. والله أعلم.

وفيها إيماءٌ إلىٰ جَعْلِ صلة الإسلام من صلة الأرحام، ولذلك جعله تعليلاً لما سبق من الأحكام.



وهي مدنيَّة، مئة وثلاثون آية

نزلت في أواخر السنة التاسعة، وهي السنة التي خرج فيها النبيُّ ﷺ بالمسلمين إلىٰ تبوك بقصد غزو الروم، وخرج في أواخرها أبو بكر رضي الله عنه علىٰ رأس المسلمين لحجِّ بيت الله الحرام، فقرَّرت السورةُ قطعَ العلاقة بين المشركين والمسلمين، وبيَّنت ما كان عليه المنافقون من فتن وأحقاد ومفاسد وتفريق، وعالجت نفوسَ ضعاف المسلمين مما بدا منهم لـمّا أمر النبي ﷺ بالخروج إلىٰ تبوك[1].

وكان أقوىٰ انصبابها علىٰ زمرة المنافقين الذين دخلوا في الدعوة بعد أن استقرَّ النبيُّ ﷺ في المدينة، وتظاهروا بها وأبطنوا النفاق، وهم من أرباب المراكز الذين فوَّتت عليهم الدعوةُ مراكزَهم، فكانوا يميلون للمشركين وأهلِ الكتاب سراً، ولم يَدَعوا فرصةً يُلْحِقون بها الأذىٰ بالمسلمين إلا انتهزوها، وأكثَرت سُوَر القرآن الكريم من التَّحدُّث عنهم. واستمرَّ شأنُهم هذا إلىٰ أن استنفر النبيُّ ﷺ أصحابه إلىٰ غزو الروم، فتجلَّت سرائرُهم في أقبح صُوَرِ العداء، ففضحتهم سورةُ التوبة، فسُمِّيت بالفاضحة لذلك.

* * *

(١) «تفسير البغوي» (٤: ٨).

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾.

ولم يكتب الصحابة ولا مَن بعدَهم البسملة في أول هذه السورة؛ لأنها لم تنزل معها بسملة، كما نزلت مع غيرها من السُّور؛ لأن التبرُّؤ يلائم المفاجأة به والابتداء. والله أعلم.

وقيل: لأنها مع الأنفال سورة واحدة، وهو رأي ضعيف؛ لأنَّ كلاً منهما عالجت شؤوناً غير شؤون الأخرىٰ، فالأنفال عالجت شؤونَ بدر ونزلت في السنة الثانية من الهجرة، والتوبة عالجت شؤونَ تبوك ونزلت في السنة التاسعة من الهجرة. وعلىٰ اعتبار هذا الرأي يكون قوله تعالىٰ: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ...﴾ امتداداً لقوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً...﴾ [الأنفال: ٥٨].

وقال البغوي: لما خرج النبيُّ ﷺ إلىٰ تبوك كان المنافقون يُرجِفون الأراجيف، وجعل المشركون ينقضون عهوداً كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ، فأمر الله عزَّ وجل

بنقض عهودهم[١] بقوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١﴾[٢]، كان الوفاء بهذه المعاهدات من جانب واحد، وهو جانب المسلمين، أما المشركون فطالما عبثوا بهذه العهود وخرجوا عليها، حتىٰ تأَذَّنَ الله بالبراءة من الناكثين، وقد برِئَ اللهُ ورسولُه من إعطائهم العهود والوفاء بها إذ نكثوا، فالآية تنفيذٌ لما جاء في سورة الأنفال من قوله تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]، والخوف إنما يكون بعد ظهور ما يدلُّ عليه من أعمال العدوان؛ لأنَّ مَنْ لم ينقض عهده لم يُظاهِرْ عدواً.

ثم أعطاهم الفرصة لينجوا بأنفسهم حيث شاؤوا، وذلك من رحمته الواسعة ورأفته العميمة، ومن العدل الرائع والإنصاف في معاملة المعاهدين والأحلاف، لا تجد مِثلَه في غير القرآن.

---

(١) «تفسير البغوي» (٢: ٣١٤).

(٢) نزلت سورة التوبة بعد غزوة تبوك، وكان الغرض منها تحديدَ علاقة المسلمين بأعدائهم في آخر عهد النبوة، وكانوا ثلاثة أصناف:

الأول: مشركو العرب، فأمرت المسلمين أن ينْبذوا عهود الذين لم يوفوا بعهدهم، وأُمهلوا أربعة أشهر، وأمرت بإتمام عهد من وفَّىٰ بعهده إلىٰ انتهاء مدته؛ لتخلص جزيرة العرب للمسلمين.

والثاني: مَنْ حارب المسلمين من اليهود والنصارىٰ، فأمرت بقتالهم وقبول الجزية منهم إذا سالموا.

والثالث: المنافقون، وقد فَضَحتهم السُّورة وكشفت أسرارَهم، وأمرت المسلمين بمُقاطعتهم والبُعْد عنهم.

وإنما سُمِّيت سورة التوبة؛ لما جاء فيها من ذكر التوبة في الآيتين ١١٧، ١١٨.

وقد ذهب كثير من الصحابة إلىٰ أنها مع الأنفال سورة واحدة، ولذلك لم تبدأ بالبسملة. وقد ختمت سورة الأنفال بالموالاة بين المسلمين وقطعها بينهم وبين الكافرين، وافتتحت سورة التوبة بمثل ذلك. (المؤلف).

ثم عَدَلَ عن الغيبة إلىٰ الخطاب؛ زيادةً في التقرير، ومبالغةً في التهديد، فقال: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ لا يُتَعَرَّض لكم، أي: أنتم آمنون في هذه المدَّة، ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ﴾ بعدها ﴿غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ﴾ إذا بقيتم علىٰ شرككم، وسينصر الله عليكم رسولَه والمؤمنين، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِي ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢﴾ في الدنيا بالخيبة والفضيحة، وفي الأخرىٰ بالعذاب المهين.

ثم أمرهم أن يُبلِّغوا هذه البراءة تبليغاً عاماً يوم عَرَفة عند اجتماع الناس؛ ليصل ذلك الخبرُ إلىٰ الكل ويشتهر، فقال: ﴿وَأَذَٰنٌ﴾ أي: إعلامٌ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾، وهذا الوصْف للمبالغة؛ إذ ليس له مقابل، فكلُّ حج يوصف بهذا الوصف، أي: أعلِنوا في هذا الاجتماع العام: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ من عهودهم وسائر خرافات شركهم وضلالهم.

ثم التفت من الغيبة إلىٰ الخطاب لزيادة التهديد، وقال: ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ بالرجوع عن شرككم، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة؛ لأن الهداية إلىٰ الإسلام هي السبب للسعادة فيهما معاً، ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن إجابة هذه الدعوة، ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ﴾ بنصر المؤمنين عليكم.

ثم لفت الخطابَ وصَرَفه إلىٰ الرسول ﷺ، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣﴾، ولم يكد ينتشر إعلان هذه البراءة في النواحي والأطراف، حتىٰ ازدحمت المدينة بوفود القبائل الباقية علىٰ شركها؛ تُعلن إسلامها وإيمانها بالله ورسوله.

ثم استثنىٰ مَنْ حافظوا علىٰ عهدهم بإخلاص، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ من الشروط، ﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ التي عاهدتموهم عليها؛ لأن ذلك تقوىٰ لله، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ

﴿ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ لله، ومن ذلك: الاتقاءُ لنقضِ العهود وإخْفارِ الذِّمم، ولسائر المفاسد المخلَّة بالنظام والعدل العام.

وهذه الآية تصريحٌ بأن البراءة إنما كانت من مشركين أخلُّوا بعهودهم، أو ظهرت عليهم دلائلُ الخيانة. وفيها رَوْعةٌ بالغةٌ في احترام الإسلام للعهود والمواثيق.

ثم أمر المؤمنين بما فُهِمَ ضمناً، وهو قتال المشركين بعد انتهاء أربعة الأشهر التي جُعِلَت فرصة لهم، كي لا يُؤْخَذوا على غِرَّة، رأفةً بهم وإنصافاً وعدلاً رائعاً من لطف الله وفضله العميم، فقال: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾[1] وهي تلك الأشهرُ الأربعة الممنوحة لهم والمحرَّمُ قتالُهم فيها، ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ أي: في أيِّ مكان وجدتموهم من حِلٍّ وحَرَم، ﴿وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ والأخْذ: الأسر، وقد رخَّص به في هذه الآية، والحصار يكون داخل حصونهم ومعاقلهم، بأن يُحاطَ بهم ويُمنَعوا من الخروج. وقعودُ المراصد: مراقبتُهم ومعرفة تجوالهم وتقلُّبهم في البلاد.

وإنما قرَّرت الآية هذا الحكم الحاسم في حقِّ الناكثين؛ لأنه لم يُؤْمَنْ جانبُهم بعد هذا النكث، إلا إذا أسلموا ودخلوا في حزب الله، لذلك قال: ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ عن الشِّرك ودخلوا في الإسلام ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ بالكفِّ عن قتالهم وحَصْرهم ورَصْدهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ يَغْفِرُ لهم ما سبق من الشرك وأعماله، ويرحمهم فيمَنْ يرحم من عباده المؤمنين.

والآية تفيدُ دلالةَ إقامةِ الصلاة وإيتاءِ الزكاة على الإسلام، وتوجب لمن يؤدِّيها حقوقَ المسلمين.

ثم استثنى من الأمر بقتلهم في عموم الأحوال والأماكن، حالةَ مَنْ طلب الأمان

---

(١) وجه وصفها بالحُرُم؛ كونها فرصة ممنوحة لهم يحرم قتالهم فيها. (المؤلف).

ليعلمَ ما أَنزَلَ الله وأمر به من دعوة الإسلام، إذ كانت الوفادة إلىٰ النبي ﷺ للاطِّلاع علىٰ حقيقة الإسلام قد كَثُرت جداً بعد أن انهدم الحاجز المنيع بينه وبين المشركين أثناء معاهدة الحديبية، وعلىٰ إثْر الفتح المكِّي، فقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾[1]، وذلك لأنَّ بعض المشركين لم تبلغهم الدعوة بلاغاً تاماً مقنعاً، ولم يسمعوا من القرآن ما تقوم به الحُجَّة، وإنما أعرضوا وعادَوُا الداعِيَ وقاتلوه؛ لأنه جاء بتفنيد ما هم عليه من الشِّرك، وما كان عليه آباؤهم منه. فإذا طَلَبَ مِثْلُ هذا ذلك الأمانَ حتىٰ يسمعَ منك كلام الله ويَعِيَه، فأجِبْ طَلَبه هذا حتىٰ يكتفي من السماع، ثم أبلِغْهُ الأرض التي يأمن فيها، وبعد ذلك تُجري عليه أحكام المشركين إن لم يؤمن.

ثم علَّل هذا بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ ما الكتاب وما الإيمان علماً صحيحاً، فلعلَّ عِلمَهم به يُجديهم نفعاً.

فَلْيَنظر المتبجِّحون بقوانينهم إلىٰ هذه الرأفة والرحمة، والحريَّة الرائعة والتساهل، ومراعاة المصالح العامَّة في الدين الإسلامي، والدقَّة في العدل والإنصاف فيه، هل يجدون لها شبيهاً في قوانين العالم، مهما بلغت من الرقي والمدنية؟

---

(١) يريد أنه يحرم اغتياله، ولا يحلُّ دمه وماله حتىٰ يصل مكان أمنه واستقراره، وحينئذ يصير في الحكم كالمصرِّين علىٰ الشرك. وقد قرَّر الفقهاء وجوبَ هذا الأمان لكل مستأمن، ويبيحون بهذا الأمان التبادل التجاري والصناعي والثقافي وسائر الشؤون الاجتماعية، ما لم يتصل شيء منها بضرر الدولة والمسلمين، ومعارضة الدين. وقد كان للإسلام من مشروعية الأمان وسيلة قوية في نشر دعوته في سائر البلدان. ثم بيَّن أنه إنما سهَّل لهم ذلك؛ لأنهم قوم جهَّال، ففسح لهم المجال في التعليم لحقيقة الدين. وفيه إرشاد إلىٰ معاملة أهل الجهالة المتأصلة بالحِلم والتيسير، وذلك كلُّه من مبادئ الإسلام. (المؤلف).

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾.

ولما كان من عناية الله سبحانه في التَّشريع والإرشاد أن يقرنه ببيان حكمته والدواعي التي تقتضيه، والثمرات التي منه تُجْنىٰ، وكانت المحافظة علىٰ العهود من أعظم مبادئ الإسلام يثقل نَبْذُها؛ عاد إلىٰ مبحث العهد، علىٰ نهج القرآن في العودة، وبيَّن أنَّ سبب النَّبْذ لعهود المشركين إنما هو الاحتراس من نَيْلهم للمؤمنين علىٰ غِرَّة. وابتدأ البيان بهذا الإنكار علىٰ المؤمنين الذين ربما يستثقلون ذلك النقض لرسوخ خلق الوفاء بالعهود في قلوبهم، وقد يكون بعضُهم عُرضةً لإنكار المنافقين عليهم وتأثّرهم بذلك، فبيَّن سبب النَّبذ بقوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾؟ وقد أنقص شِرْكُهم خُلُقَهم الطبيعيَّ، فهم ينقضون العهود إذا تضاربت مع أهوائهم ومآربهم، لأنهم لا يؤمنون بحُرُمات ولا يهتمون بالمُثل العُليا، فهم عند غَلبهم لا يُراعُون شيئاً من حقوق الإنسان لا سيما المعاهدات.

وقبل أن يشرح حالهم المقتضية لِنَبْذ العهد، عَجَّل باستثناء الذين استثناهم في الآية الرابعة، إشعاراً بأهمية الوفاء بالعهد، ما دام المعاهد لم يعبث به، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾، فأمر المؤمنين بالوفاء

بعهدهم ما دام المعاهدون مستقيمين علىٰ العهد. وزاد هنا قوله: ﴿عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، أي: بجوار الحديبية، تأكيداً للوفاء بعهدها.

ثم ذيَّل الآية بما يقرِّر الوفاء بالعهود إذا وفَّىٰ المعاهدون، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧﴾ الذين يجتنبون قَطْعَ ما أمر الله به أن يُوصَل، ولا يغدرون ولا ينقضون الميثاق.

ثم شرع في بيان الحال الـمُقْتضِية لنقض العهد مع غير هؤلاء المستقيمين فقال: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾، والإلّ: اسم يشمل العهد والعقد والحلف والقرابة. والذمة والذمام: العهد الذي يلزم من ضياعه الذَّم. وكان خَفْر الذِّمام ونقض العهد عندهم من العار. والمعنىٰ: كيف يكون لهم عَهْدٌ عليكم، وقد جربتموهم بنقض العهود سراً وعلناً؟

﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: يُخادعونكم في حال الضعف وقلوبُهم مملوءة بالحقد والضغن، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٨﴾ أي: خارجون عن قيود العهود والمواثيق، لا يتمسَّكون بها. قد ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ أي: أعرضوا عن سبيل الله، وصدُّوا غيرهم عنها؛ ليحافظوا علىٰ مراكزهم في هذه الحياة التي كثيرها قليل بالنسبة إلىٰ ما عند الله؛ ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩﴾ من اشترائهم الكفر بالإيمان، والضلالة بالهدىٰ، واللهو الفاني بالنعيم الباقي، وكانوا من أجل ذلك ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ إذا ظهروا عليه وقدروا علىٰ الفَتْكِ به، ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ۝١٠﴾ علىٰ حدود العهود، والبادئون لكم في ذلك.

وإنما أعاد الجملة لبيان أنَّ الحاملَ لهم علىٰ نقض عهودكم وعدم الاكتراث بها، إنما هو إيمانكم بالله وبرسوله ومخالفتهم لكم بذلك الإيمان، فزادهم بهذا الوصف تشنيعاً علىٰ تشنيع.

وبعد هذا فتح لهم باب التوبة، علىٰ نهج دعوة الإسلام، وبيَّن سبحانه ما يجب في حقِّهم إذا هم آمنوا، فقال: ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ عن شِركِهم وصدِّهم عن سبيل الله، ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾؛ لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم. وبهذه الأخوة يُهدَمُ كلُّ ما كان بينكم وبينهم من عداوة، إذ قد جاء في الحديث: «لله أفرحُ بتوبة عبده من العقيم الوالد، والضالِّ الواجد، والظمآن الوارد»[1].

ثم ذيَّل السياق وقطعه بما ينوِّه بشأن ما احتوىٰ عليه من البيان، فقال: ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾.

ثم بيَّن ما يجب في حقهم إذا هم أصرُّوا علىٰ الكفر، فقال: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ﴾ بالاستهزاء والثَّلْب[2] وصدِّ الناس عنه بذلك، ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ أي: عهودُهم كلا عهود؛ لأنها مخادعة لم يقصدوا بها الوفاء، فقاتلوهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾. وفي عنوانهم بـ«أئمة الكفر» إيماءٌ إلىٰ غُلُوِّهم، وبيان بأنَّ نكثهم هذا إنما أتىٰ من شدَّة كفرهم وإصرارهم عليه، فاستحقُّوا القتال. ويجوز أن يُراد الرؤساء بمن معهم.

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

---

(١) ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (٤: ٢٠٥)، وعزاه لابن عساكر في «أماليه»، عن أبي هريرة.

(٢) الثَّلْب: شدَّة اللوم والأخذ باللسان. «لسان العرب» (ثلب).

ثم حرَّضهم علىٰ قتالهم وأغْراهم بأوضح وجوه الأدلَّة وأجْلىٰ أساليب البيان علىٰ استحقاقهم ذلك، فقال: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ علىٰ عهودهم التي قطعوها لكم في الحديبية، ﴿وَ﴾ قبل ذلك ﴿هَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ من مكة، ثم قرَّر الاستحقاق بقوله: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ﴾ بالمعاداة والمقاتلة ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فأنتم مُدافعون، فالبادئ أظلم.

ثم بالغ في التحريض والإغراء، فقال: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ أي: أتتركون قتالهم جُبناً وخَوْراً؟! ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ لأنَّ المؤمن حقاً لا يخشىٰ إلا الله؛ لعِلمِهِ أنْ لا نافع ولا ضارَّ إلا الله.

وبعد هذا التَّحريض صرَّح بالأمر القطعي مع الوعد القطعي بإظهار المؤمنين عليهم، فقال: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ﴾ بذُلِّ الأَسْرِ والقَهْرِ لمن لم يقتل منهم ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾، كان هؤلاء المشركون قد نالوا منهم ما نالوا، فكان في صدورهم من المُوْجِدة والذُّلِّ ما لا شفاء له إلا بهذا النصر عليهم، فهو الذي يشفي صدورَهم ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ ممَّن لم يفقد الاستعداد للإيمان من المشركين، فيوفقه للإيمان والتوبة، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ يعلم ما لا تعلمون، ويُشرِّع لكم من الأحكام ما تقتضيه حكمتُه في إقامة دينه وإظهاره علىٰ الدِّين كلِّه.

وفي قوله: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ إيجازُ الاكتفاء، وهو من إيجازات القرآن، والمراد: يتوبُ الله علىٰ مَنْ تاب. أو المراد: علىٰ مَنْ تاب توبةً نصوحاً؛ لأنه سبحانه لا يشاء إلا الحقَّ والعدل، ومُنزَّهٌ عن المحاباة.

ثم نزَّل المؤمنين بعمومهم منزلة المُسْتثقِلين لهذا الجهاد فأنكر عليهم، مُبيِّناً ما فيه

من تمحيص ضعف الإيمان والتهاون في حقوق الإسلام، تقريراً للسياق السابق، فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ أي: حسبتم أنْ تُتركوا من غير امتحان في الجهاد حتىٰ يتبيَّن الذين يجاهدون منكم في الله حقَّ جهاده، ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ أي: بطانةً وصُحْبةً عميقةً من المشركين، يُطلِعونهم علىٰ أسرار المؤمنين وسياستهم، كما يفعل المنافقون ومرضىٰ القلوب من ضعفاء الإيمان، ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ لا تخفىٰ عليه من أمركم خافية، ولكن بهذا التمحيص ينكشف أمْرُ بعضكم لبعض، فيأخذ المؤمنون حقاً ما يحتاطون به عمَّن معهم من مرضىٰ القلوب وأضرابهم.

وقد عبَّر سبحانه عن عدم تمييز المجاهدين وتبيُّنهم من المنافقين وضعفاء الإيمان بعدم عِلمِهِ بهم؛ لأن عَدَمَ عِلمِهِ بالشيء دليلٌ علىٰ عدم وجوده. وقد تقدَّم الكلام عن معنىٰ عِلْمِ الله هذا في سورة البقرة، عند قوله تعالىٰ: ﴿لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

ثم بيَّن وجهاً آخر لتبرير قتال هؤلاء المشركين وتوضيح أسبابه، وهو إبعادُهم عن المسجد الحرام ونَـزْعُه منهم؛ لأنهم ليسوا بأهلٍ له، وليُطهَّر من أصنامهم وألاعيب عباداتهم الباطلة، ويعاد إلىٰ نـزاهتـه وقداستـه الأولىٰ بعمـارة المؤمنين إياه بعباداتهم وأداء مناسكهم فيه، فقال: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ حالَ كونهم ﴿شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ بما كانوا يفعلونه فيها من عبادة الأصنام ونَصْبها في هذا البيت الحرام، فجعل عَمَلَهم هذا شاهداً علىٰ كفرهم.

ثم ذكر سبحانه حكمَه فيهم وبيَّن مصيرَهم، فقال: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ﴾ التي يعتقدونها من القُرَب، كبناية المسجد وسقاية الحاج؛ لأنَّ خساسة عقيدة الشرك تجعل النيَّةَ في الأعمال سيئة، فيستحيل العملُ الجيدُ معها رديئاً، فلا يؤثِّر في النفس الأثر المطلوب.

ويجوز أن يُـراد بالأعمـال التي يـجعلونها عبادة، وهم يظنون أنهم يُـحسِنون صُنْعاً، وهم يُسيئون صُنْعاً بذلك، فيكونون أهلاً للشقاء في الآخرة، ﴿وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

ويجوز أن يراد بالأعمال عباداتهم، وإنما ذكر المساجد بصيغة الجمع؛ ليكون الحكم عاماً، علىٰ نهج القرآن في تقرير الأحكام. والمراد: أنـهم ليس لهم حقُّ الاستيلاء علىٰ المسجد الحرام، وهم علىٰ مثل هذا الكفر الصريح، و﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ إلىٰ ما يُحبّ الله ويرضىٰ من صورة عمارة مساجده.

وكلمة ﴿عَسَىٰٓ﴾ تُـفيدُ الـرجاء والطمع بوقـوع الفعل. فتضمَّن الكلام الوعدَ للمؤمنين بالفتح المبين.

ثم قرَّر مضمون المعنىٰ، وهو أنَّ عمارة المسجد الحرام إنما تكون بعبادته وحده التي تزكُو معها الأعمال فتزكِّي النفوس لا بالعمارة المادية وأمثالها مع الشرك الذي تحبط معه الأعمال، فقال: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: فاعلها المشرك ﴿كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ لأنفسهم بإفسادِ طبيعتهم ومَحْق استعدادهم لمعرفة الحق، فهم لا يهتدون في سيرهم إلىٰ الصراط المستقيم، الموصل لسعادة الدارين، بمعنىٰ أن من سنة الله في طباع البشر وأخلاقهم: أن يمنع الكفرُ صاحبَه من الرؤية والنظر الصحيح، فلا يهتدي إلى الحق، ولا يتوجه إليه.

ثم صرّح بما فُهِمَ ضمناً من عِظَم درجة المؤمنين المتصفين بتلك الصفات، لتقرير هذا المعنى في النفس، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ بمثوبة الله الفُضْلَىٰ، وكرامته العُليا المبيَّنة في الآية الآتية.

قال في «المنار»: فإن قيل: إنَّ هذا السياق يدلُّ علىٰ أنَّ ما يفتخر به المشركون من السقاية والعمارة له درجةٌ عند الله تعالىٰ، ولكنَّ درجةَ الإيمان مع الهجرة والجهاد أعظم[1].

قلنا: لا مراء في كَوْن هذَيْن العملَيْن هما من أعمال البر التي يكون لصاحبها درجةٌ عند الله إذا فُعِلَا كما يَرضىٰ الله، ولذلك أقرَّهما الإسلام دون غيرهما من وظائف الجاهلية، ولكن الشرك بالله يُحبطهما ويُحبط غيرهما من أعمال البر التي كانوا يفعلونها في جاهليتهم، كإكرام الضيف وصلة الرَّحِم، وذلك لأنَّ الأعمال الصالحة إذا لم يكن معها عقيدة صالحة

---

(١) تفسير «المنار» (١٠: ١٩٨).

لا يكون لها أثر فعَّال في النفوس. ويجوز أن يكون نفعُها بتخفيف العذاب عنه لا بِنَيْل النعيم، كما جاء في الحديث عن أبي طالب أنه في «ضَحْضَاح من نار»[1]. والمشرك لا يدخل الجنة مهما عمل من الأعمال الإنسانيَّة؛ لأنَّ مَنْ يُشْرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار.

ثم بيَّن سبحانه ذلك الفوز الذي أسنَدَه إلىٰ المؤمنين، فقال: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ في كتابه المنزَّل علىٰ لسان نبيِّه المرسَل، ثم علىٰ لسان ملائكته عند الموت؛ ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: رحمة عظيمة خاصَّة من لَدُنْهُ، ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ أي: نوع كامل من الرضا لا يشوبُه ولا يعقبُه سخط، ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ لا يُتصوَّر قَدْرُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

وبعد أن أعلنَ سبحانه براءَته وبراءةَ رسوله من المشركين، وبيَّن الأسباب، وأمر بجهادهم لذلك، وحضَّ عليه بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ ...﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾؛ عاد إليه بحُكم عامٍّ يشمله وغيرَه، علىٰ نهج

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٣٨٨٣)، ومسلم (٢٠٩) من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه. والضحضاح: ما رقّ من الماء علىٰ وجه الأرض ما يبلغ الكعبين، فاستعاره للنار. «النهاية في غريب الحديث» (٣: ٧٥).

القرآن في مثل ذلك، وهذا الحكم هو إنكار الذات في سبيل مصالح المؤمنين، ونهىٰ المؤمنين أن يُوَالُوا الأقاربَ إن اسْتَحبُّوا الكفر علىٰ الإيمان، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِ ﴾؛ وذلك بأن ينصرَه في القتال ضدَّ المؤمنين، أو يَتَّخِذَه بطانةً ووليجة؛ يخبره بأسرار المؤمنين وما يستعدّون به لقتال المشركين.

ثم توعَّد المتولِّين لهم بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ لأنفسهم بتعريضها للوبال، ولجماعتهم بالخيانة لهم.

ولما كانت البراءةُ من الكفَّار ـ علىٰ ما ذُكِرَ ـ شاقَّةً جداً، لأنَّ الرجل المسلم قد يكون أبوه أو أخوه أو ابنه أو عميله كافراً، والمقاطعة لهم كالمُتعذِّر أو المُضِرِّ ضرراً دنيوياً فادحاً، أردَفَ ذلك بالعزم الأكيد في هذا النظام، للإيذان بأنه قاطعٌ لا هوادة فيه، وأنه يجب تحمُّل الصُّعوبات والمضَارِّ في سبيل نشر الدعوة للإيمان، وصاغ العبارة بصورة من التوعُّد والتهديد الرهيب للمخالفين، فقال: ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1] أي: الخارجين عن الطاعة في أوامر الله، لأن مخالفتها مع الإصرار تَسْلُبُ نورَ الفطرة، فلا يهتدي صاحبُها لطريق الهدىٰ.

---

(١) إنما مُنيت الأمة العربية بالفشل الذريع في عصورها الأخيرة، والإخفاق في كلِّ مساعيها؛ لابتعادها عن هذا المبدأ العظيم، وتَغَلْغُل الأنانية المشينة في جميع أفرادها وفي سائر مناحيها، فلم ينج من ذلك عالم ولا جاهل، ولا رفيع ولا خامل، ولا سياسي ولا أمير، ولا غني ولا فقير، ومتىٰ وصلت الأمة إلىٰ مثل ذلك الدَّرْك من الحياة، فليس وراءها إلا الانحطاط العظيم والممات. (المؤلف).

والآيات تُلهِمُ أنها نزلت عندما كان بعض المسلمين المهاجرين يقاسون أزمات نفسية في اضْطرارهم إلىٰ الوقوف موقف العداء من ذوي قُرْباهم ومَنْ لهم علاقة بهم في مصالح مادية، فحذَّرهم سبحانه عن ذلك وتوعَّدهم.

وفيها إلماعٌ إلىٰ أنَّ هذه الأنواع الثمانية من الحبِّ تجعل الجهاد مكروهاً، فوق ما له من بُغْض بمقتضىٰ ذاته. كما أنَّ فيها إيماءً إلىٰ أنه إذا وقع التعارض بين مصالح الدين ومصالح الدنيا، وَجَبَ علىٰ المسلم نَبْذُ الثانية والتمسُّك بالأولىٰ.

وفي الآية تقريرٌ ضمنيٌّ لقاعدة عامَّة، وهي الوجوب القطعي لتغليب المصالح العامَّة علىٰ المصالح الخاصَّة، حتىٰ التي هو بأمسِّ الحاجة إليها وأعزِّها لنفسه وألـزِّها بعطفه وشفقته، ولا سيما من المصالح العامة ما فيه حِفظُ كيان الأمة وعِزُّها وتفوُّقها؛ لأنَّ ذلك هو مَرْمَىٰ الجهاد المطلوب في الدين، والآية تدل علىٰ ما يُسمَّىٰ بإنكار الذات في سبيل الأمة، وهو تقديم مصلحتها علىٰ مصلحته .

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾.

وبعد أن حضَّهم علىٰ قتال المشركين، وبيَّن الأسباب المقتضية لذلك، وأنكر عليهم تقديم المصالح الخاصَّة علىٰ المصالح العامَّة؛ وَعَدَهم ضمناً بالعناية بهم ونَصْرِهم علىٰ أعدائهم، إذا هم أخذوا الأُهْبة وتَدَرَّعوا بقوة الإيمان، واستشهد علىٰ مثل تلك العناية بالتلميح إلىٰ وقعة بدر وفَتْح مكة وغيرهما.

وكذلك استشهد علىٰ الخِذلانِ والنصر بوقعة حُنَين حين ولَّوْا أوَّلَ الأمرِ مُدْبِرين لا يَلْوُونَ علىٰ شيء رغماً عن كثرتهم؛ لأنهم لم يَتَدرَّعوا بالإيمان جميعاً؛ لما بينهم من مُسلِمة الفتح في أول إسلامهم، ثم تداركهم سبحانه بعنايته، فكَرُّوا وانتصروا، فنبَّههم أنَّ نصرَ المؤمنين لا بالعصبيَّة ولا بالكثرة العدديّة، بل بصدق الإيمان والتضحية في سبيل الله، وما ينبعث عن ذلك من عناية الله بهم وإنزال السكينة عليهم، فقال: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾[1] وغُلِبْتُم أوَّلَ الأمر، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ لا تَلْوُون علىٰ شيء، وكان ذلك إذ ولَّىٰ المنافقون الأدبارَ في أول الأمر، وَوَلَّىٰ علىٰ أثرهم ضعفاءُ الإيمان من طُلقاء فتح مكة، ومِن ثَمَّ اضْطرب نظام الجيش، فولَّىٰ أكثر المؤمنين بحركة لا شعورية.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2] المُرْخِصينَ لأنفسهم

---

(١) إن هذه الآية: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ...﴾ بما فيها من تقوية العزم والوعد بالنصر، يجوز أن تكون تتميماً لما قبلها، تمهيداً لما بعدها، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك. (المؤلف).

(٢) لما فتح الله مكة للمسلمين، تقلَّمت أظفار الشرك، وخضعت قريش لمحمد ﷺ، ولكن بقي للشرك دعاة وأنصار تتزعَّمهم ثقيف وهوازن، هالهم أن يفتح محمد مكة، وخشوا عاقبة ذلك علىٰ أنفسهم، وعقدوا أمرهم بينهم علىٰ غزو المسلمين قبل أن يغزوهم. فجمع لهم رسول الله ﷺ جيشاً فيه ألفان من أهل مكة المفتوحة حديثاً، حتىٰ وصلوا حُنيناً ـ وهو وادٍ قريب من الطائف ـ وقد دخل بعضَ جيشِ المسلمين شيءٌ من الغرور بكثرة عددهم، فلم يهتمّوا بثقيف، فأصيبوا بهزيمةٍ أولَ الأمر، وأخذ النبي ﷺ يردُّ بعزمه وقوَّته الروحية جماعة المنهزمين، وحملوا علىٰ الأعداء حملة واحدة تفرَّق بها المشركون شَذَر مذر، وتمَّ النصر للمؤمنين، وبالقضاء علىٰ ثقيف وأتباعهم في غزوة الطائف التي أعقبت حُنيناً، تـمَّت الكلمة في جزيرة العرب لدين الله، ودخل الناس فيه أفواجاً. (المؤلف).

في سبيل الله. وإقامةُ الظاهر مقام الـمُضْمَر لإفادة أنَّ الرسول والمؤمنين حقاً هم في عناية الله وكَنَفِهِ؛ لما هم مُتَّصفون به من التضحية ونُكران الذات.

ثم تابع المعنىٰ بقوله: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾، وإنما وجدتُم أثرَها في قلوبكم بما عاد إليها من ثبات الجأش وشدَّة البأس لِـمَا حضركم من التضحية في سبيل الله، ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالقتل والأَسْرِ والسَّبْي، ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ في الدنيا ما داموا يستحبُّون الكفر علىٰ الإيمان، ويعادون أهله، ويقاتلوهم عليه.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ التعذيبِ في الدنيا ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ من الكافرين الذين يتُوبون لرُشْدهم فيهديهم إلىٰ الإسلام، وهم الذين لم تَحُطَّ بهم خطيئاتُ جهالات الشرك وخرافاته من جميع الجوانب، فيختم علىٰ قلوبهم بالجمود والإصرار علىٰ الجحود بمحض التقليد، ولكنْ بقي في نفوسهم بقيةٌ من نور الفطرة تُرجِعُهم لرُشْدهم، فيتوبونَ ويؤمنون، وهكذا كان حال أهل حُنين، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن يتوب ﴿رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ به وبسائر المؤمنين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ تقرير الموقف السابق في قوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ...﴾، وهو وجوب تطهير المسجد الحرام من أيدي المشركين وإبعادهم عنه، علىٰ نهج القرآن في العودة إلىٰ المباحث المهمة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ أي: قَذَرٌ؛ بفساد اعتقادهم ووثنيَّتهم، ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ

عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾[1] أي: لا تُمكِّنوهم من ذلك، وامنعوهم من أن يحجُّوا إليه من سائر البلاد العربية، كما كان عليه الأمر قبل هذا، ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ من جَرَّاء ذلك ﴿عَيْلَةً﴾ أي: فقراً وحاجة بقلّة المتاجر والمواسم من انقطاع هؤلاء المشركين عن بلدكم، ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ وهذا القَيْدُ لتقوية إيمانهم وتعليق آمالهم بربِّهم، ولإعلامهم بوجوب مباشرة أسباب الرزق؛ لأنَّ مشيئته تعالىٰ تجري علىٰ سُنن حكيمة مُطَّردة، لا جُزاف ولا مُحاباة فيها ولا هوادة.

ثم ختم هذا النَّهي والتطمين بما يشعر أنَّ فيه حِكمةً عالية، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ فيما يشرعه لكم من أمر أو نهي، فكلُّه مصالح للعباد.

وفي هذه الآية إعلانٌ للمقاطعة وسدُّ الأبواب في وَجْه مَنْ بقي علىٰ شِركِهِ بعد الفتح؛ لأنَّ البيت أصبح طاهراً من مظاهر الشرك، وأصبحت تقاليد الحجِّ مثل ذلك، فكيف يسمح للمشركين بعمل تقاليد الوثنية فيه.

﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا

---

(١) تمَّ فتح مكة ولا تزال فلول المشركين في جزيرة العرب تقصد هذا البيت لتحجَّ إليه علىٰ ما عهدت في منهاجها الجاهلي: شرك حتىٰ في التلبية، وعُرْي في الطواف. ولا ريب أن اجتماع منهاج العبادة الشركية مع منهاج العبادة التوحيدية اجتماعٌ لا يقرُّه عقل ولا يقبله سلطان. (المؤلف).

مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾.

ثم أردف السياق المتعلق بأحكام قتال المشركين المبدوء بقوله: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا ...﴾، والمتضمِّن لموجباته، أردفه بسياقٍ مُتعلِّق بأحكام قتال أهل الكتاب، ومُتضمِّن لموجباته، فقال: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ على الوجه الصحيح فيهما، ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾، وإنما يدينون بدينٍ وَضَعَه لهم أحبارُهم وأساقفتهم بآرائهم الاجتهاديَّة وأهوائهم المذهبيَّة، وكان ذلك بعد أن فُقِدَتْ نصوصُ التوراة أثناء سَبْي الإسرائيليين، وفُقِدَت نصوص الإنجيل بعد الحواريين، وقام مقامها تشريعات المؤتمرات الفينيقية والقسطنطينة الرومانية.

ثم بيَّن المراد من المُتَّصِفين بهذه الصفات، فقال: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، والمراد: جنس الكتاب الإلهي الذي يشمل التوراة والإنجيل والزبور وغيرَها.

ثم بيَّن الغايةَ التي يجب أن ينتهوا إليها في هذا القتال، فقال: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾ أي: عن قوَّةٍ منكم قاهرةٍ لهم، أو عن قدرةٍ لهم فلا يكلَّفون فوق قدرتهم، وفي صورة هذا التعبير الدالِّ على الانقياد مُلاءَمةٌ لقوله: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾[1]، والمراد به: خضوعهم لسيادة المسلمين وأحكامهم وخَضْد[2] شوكتهم كي لا يشاغبوا ويقاوموا في

---

(١) وذلك لأنهم حينئذ يكونون قد أَلقَوْا إليكم السِّلم، وكفُّوا أيديهم عنكم. وبهذا الجهاد يكون إخضاع قوىٰ الشر والفساد؛ لأن الله سبحانه لم يأمر بالجهاد إلا لتطهير العالم من الشرك والضلال الذي ضلَّ به العقل البشري، وحطَّ كرامة الإنسان ونزل به إلىٰ مستوىٰ الحيوان. (المؤلف).

(٢) الخَضْد: القطع. «لسان العرب» (خضد).

نشر الدعوة، ولتتيسَّر السبيل بهذه التبعيَّة لاهتدائهم بما يَرَوْنه من عدل المسلمين وهدايتهم وفضائلهم.

وقيل: ليس المراد بهذه الآية عمومَ أهل الكتاب؛ لأنه يخالف المبدأ الذي قرَّرته الآيةُ الثامنة من سورة الممتحنة[١] وأمثالها من الإلماع إلىٰ أنَّ الجهاد الإسلامي دفاعي لا عدائي[٢]، وإنما المراد الـمُتاخِمون لهم من الروم ومُتَنَصِّرةُ العرب الذين كانوا في مَشَارف الشام تابعينَ لدولة الروم، فقد بلغ النبيَّ ﷺ تجمُّعُ كثير منهم علىٰ حدود الشام لغزو الحجاز، فنزلت الآية تأمر المسلمين بردِّ عاديتهم، فجمع النبيُّ ﷺ أكبرَ عدد ممكن من المسلمين، حتىٰ بلغ جيشه ثلاثين ألفاً، وخرج بهم إلىٰ تبوك، وسُمِّي جيشَ العُسْرة لشدَّة صعوبة هذه الغزوة؛ إذ كانت الشُّقّةُ بعيدةً، والحرُّ شديداً، والعدوُّ قوياً.

والآية تذكر أوصاف هذا العدو الواقعيَّة، إذ لو كان يؤمن بالله واليوم الآخر علىٰ الوجه الصحيح، ويدين دينَ الحق، ويحرِّم ما حرَّم الله؛ لَـمَا عزم علىٰ استئصال شأفة أناس مُتمسِّكين بالله وبدينه علىٰ الوجه الصحيح، ويُحرِّمون ما حرَّم الله ورسوله، فحثَّت الآيةُ

---

(١) وهي قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

(٢) ليس ببعيد أن يكون الإسلام قد فرض الجهاد لإنقاذ البشرية من الكفر والشرك والجهالة والعصبية والظلم والاستبداد، فكانت هذه الأهداف السامية التي أخلص في تحقيقها السلف الصالح، أنقذت عدداً غير قليل من شعوب العالم وأدخلتها في حظيرة الإسلام، وكانوا علىٰ شفا حفرة من النار، فأنقذهم منها وأنجاهم من عذاب أليم. (المؤلف).

قلت: وفي إطلاق قوله: «إن الجهاد الإسلامي دفاعي لا عدائي» نظر، فالجهادُ قد يكون دفاعياً، وقد يكون ابتدائياً لنشر الدعوة وهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلىٰ النور، وعلىٰ الحالين لا يكون عدائياً، إذ أساسُه الرحمة بالناس.

المؤمنين علىٰ مُقَاتلة هذا العدو المعتزِّ بقوته والخارج علىٰ دين الله، يريد ليطفئ نور الله، حثَّت علىٰ مقاتلته حتىٰ يذلَّ ويُعطيَ الجزية وهو صاغر؛ كي لا يكون له بعد ذلك عليهم تجبُّر وطغيان. فالآيةُ مُخصَّصةٌ ـ والله أعلم ـ بما سيأتي في آخر السورة من قوله تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾[1]، فإنها تدلُّ علىٰ أنَّ المراد بهم مَنْ ذَكَرْنا من الروم ومُتَنصِّرة العرب الـمُتاخِمين لهم. والله أعلم[2].

والجزية: ضريبة شخصية توضع علىٰ الأشخاص. أما الخراج: فهو ضريبة توضع علىٰ الأرض.

---

(١) القول بالتخصيص بعيد، وغاية ما ذكر المؤلف من أوصاف الروم ومتنصِّرة العرب وأحوالهم أن يكون دخولهم في عموم لفظ الآية أظهر من غيرهم، وأن يكون تطبيق الآية عليهم أَوْلىٰ من علىٰ غيرهم، ويدل علىٰ ذلك أن هؤلاء الذين يَلُونَ المسلمين من الروم فُتحت بلادهم ودخلوا في الإسلام، صار حال البلاد التي بعدهم كحالهم المذكور في الكيد لهذا الدين، والاستعداد لحربه، فوجبت مقاتلتهم، وهكذا الأمر في كل عصر وبلد، وبه يظهر أن القول بأن الآية باقية علىٰ عمومها هو الصواب.

(٢) الدينُ الإسلاميُّ دين الفطرة والطبيعة البشرية، يسير بنفسه إلىٰ القلوب والعقول السليمة إذا لم يَعُقْهُ عائق، ولم يَصُدَّه عنا صادّ، كالماء يسير في منحدره بسهولة وسلاسة إذا لم يُمنع بسد ذلك المنحدر، وقد أنزل الله هذا الدين لسائر البشر، وكلَّف أهله أن يحاربوا المعارضين علىٰ أمور ثلاثة: إما أن يدخلوا فيه سلماً إذا كان قد سبق إليهم وارتضوه، فيكونون من أهله لا فرق بينهم أبداً، وأما أن يقبلوا الجزية فيكونوا رعيَّة في الدولة علىٰ العدل والحرية، ولا يُكرَهون علىٰ الدخول في الدين، لقوله تعالىٰ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ولا يمنعون من دخل منهم في الدين برغبته وكامل حريته، والدين لا يدخل القلوب بقوة، وإنما يدخل بالفهم والقناعة بأنه أمر صحيح. (المؤلف).

قلت: ولم يذكر الأمر الثالث، وهو أن يقاتلوا حتىٰ يخضعوا لأحد الأمرين الآخرين.

ثم فصَّل بعض التفصيل ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾؛ ناظراً إلىٰ عموم أهل الكتاب، علىٰ نهج القرآن وأساليبه في مثل ذلك، فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ﴾ بهذا القول ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾، كالبراهمة والبوذيين واليابان وقدماء الفرس والمصريين والرومان القائلين بالتثليث: الإله الأب، وزوجته، وابنه الوحيد. فكلُّهم يعتقدون بعقيدة الابن والتثليث والحلول، وهذا قول فرقة من النصارىٰ، يقولون بالانبثاق والولادة العقلية الروحانية؛ إذ يقولون: إنَّ الجوهر ـ الذي هو الله ـ انبَثَقَ وتولَّدت منه الكلمة كتولّد القول من القائل، وتدرَّعت بإنسان مخلوق من مريم، فهم يقولون: تدرَّع اللاهوت بالناسوت. فالظاهر ـ وهو الدرع والقميص ـ بشر، والباطن ـ وهو المُتدرِّع ـ لاهوت، وهو الكلمة التي تولَّدت من الله.

وبالحلول المطلق تقول اليهود في النبيِّ عُزير، تعالىٰ الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وبعض اليهود أطلقوا هذا اللقب علىٰ عُزير للتكريم، كما أطلقوه علىٰ إسرائيل وغيرِه من الأنبياء، ثم صَرَفَه بعض المتأخرين منهم علىٰ الحقيقة، كما فعل النصارىٰ في عيسىٰ.

وقد نُقل أن كلمة «عُزير ابن الله» قالها بعض اليهود لا كُلُّهم، وهم بعض يهود المدينة، ويحتمل أنه قد سبقهم غيرُهم في ذلك، فعجَّب الله سبحانه من شأن هؤلاء القائلين وعقيدتهم الشنعاء، بهذه الجملة التعجبيّة الإنكارية التَّوعُديَّة، فقال: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: كيف يُصْرَفونَ عن الحقِّ إلىٰ الباطل بالإغْواء والتَّضليل.

ثم تابع المعنىٰ في بعض تفصيل ما جاء في قوله: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ في الآية المتقدِّمة، فقال: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ليس المراد أنهم اعتقدوهم آلهة، بل المراد أنَّهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم في التشريعات التي وضعوها لهم. فقد وَفَدَ عَدِيُّ بن حاتم إلىٰ النبيِّ ﷺ، وكان نصرانياً، فسمعه يقرأ هذه الآية، فقال: يا رسول الله، لسنا نعبدهم. فقال: «أليس يُحرِّمون ما أحلَّ الله، ويُحلُّون ما حرَّم الله فتتبعونهم؟ فتلك عبادتهم»[1].

وعليه، فيكون الشرك ضربَيْن: شركاً في الألوهيَّة، وهو الشعور بسلطة وراء الأسباب والسُّنن الكونية لغير الله تعالىٰ. وشركاً في الربوبية، وهو الأخذ بشيء من أحكام الدين بالتحليل والتحريم من بعض البشر دون الوحي، كما فعلت المجامع الرسمية في تقرير دين النصرانية. وهو الذي أشارت إليه الآية: بكلمة: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾.

وقال في «المنار»: والأظهر أن يكون المراد من الأحبار والرهبان: جملةُ رجال الدين في الفريقين، أي: من العلماء والعبَّاد، فذكر من كلِّ فريق ما حُذف مُقابِلُه في الآخَر، علىٰ نهج القرآن في الاحتباك، أي: اتَّخذ اليهود أحبارهم ورهبانيِّهم، والنصارىٰ قُسُوسَهم ورهبانَهم؛ أرباباً من دون الله، بإعطائهم حقَّ التشريع الديني وغير ذلك من حَقِّ الرب تعالىٰ. والرهبان عند النصارىٰ أدنىٰ طبقات رجال الدين، فاتِّخاذهم أرباباً يستلزم اتِّخاذَ مَن فوقهم من الأساقفة والمطارنة والبطاركة بالأولىٰ. فالرهبان يخضعون لتشريع هؤلاء الرؤساء، والعوام يخضعون لتشريع الرهبان[2].

وبعد أن أشرَكَ سبحانه وتعالىٰ بين اليهود والنصارىٰ في اتِّخاذهم رجالَ الدين

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٩٥) وقال: هذا حديث غريب.

(٢) تفسير «المنار» (١٠: ٣١٧-٣١٨).

أرباباً شارعين، ذكر ما انفرد به النصارىٰ من اتِّخاذهم المسيحَ رباً وإلهاً يعبدونه، فقال: ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾، ويظهر من هذا التخصيص بالذكر ـ والله أعلم ـ أنَّ اليهود إنما عَنَوْا بقولهم: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ لقبَ التكريم، كما أطلقوا ذلك علىٰ إسرائيل وداود وغيرهما، لا بالمعنىٰ الذي أراده النصارىٰ في المسيح، حيث أشركوا به الله.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ في كتبهم ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وهذه الجملة الأخيرة تعليل للأمر.

ثم أردف التوحيد بالتنزيه، فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ به، يُشرِكون مَنْ لا يَخْلُق شيئاً وهم يُخْلَقون.

ثم نعىٰ عليهم عَمَلَهم هذا بقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾، والمراد: ما يُلقُونه من شُبَهٍ ومشاغبات. شبَّههم في كفرهم بتوحيد الله وتنزيهه، وفي شُبَههم ومُشاغباتهم في ذلك، بحال مَنْ يطلب بنَفْخِهِ إطفاءَ نور عظيم مُنْبثّ في الآفاق، أو مَنْ يحاول إطفاء نور الشمس بفيه حمقاً وبلاهة. وهذا الوصف في منتهىٰ السخرية والتسخيف والاستهجان. وقد أخزاهم الله بقوله: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

ثم بيَّن كيفيَّة هذا الإتمام وأيَّده بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾، وقد عَنوَنَهم بعنواني الكفر والشِّرك للإشارة إلىٰ أنهم قد جمعوا بينهما. وقد اختلفوا في مرجع الضمير في (يُظهِره) علىٰ وجهين:

الأول: أنه راجعٌ إلىٰ رسول الله ﷺ، والمعنىٰ: أنه يُظهِرُ هذا الرسول ويُطْلِعُه علىٰ كلِّ ما يحتاج إليه البشرُ من أمور الدين؛ عقائدِه وآدابِه وسياستِه وأحكامِه، وكتب الأديان ليست كذلك.

الثاني: أنَّ الضمير لدين الحق الذي أرسله الله به. ومعناه: أنه تعالىٰ يُعْلي هذا الدِّينَ ويرفع شأنَه علىٰ جميع الأديان بالحُجَّة والبرهان والهداية والعرفان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ثم عاد وذكر شأن الأحبار والرهبان واستغلالهم للأتباع بمراكزهم هذه، يعيشون بها منهم عيشة الترف والتَّموُّل، وخاطب المؤمنين ليوقفهم علىٰ ذلك ويشملهم بالحكم الآتي، ويُحذِّرهم من عاقبته، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بأنواع الطرق وضُروب التأويلات وخبائث الدعايات والتمويهات.

ثم ألمع إلىٰ ما يجمعونه من استغلال أتباعهم بذِكرِ حكم عام يشملهم وغيرَهم، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾.

ثم بيَّن ذلك العذاب الأليم، فقال: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾، ويقال لهم مبالغةً في الإيلام: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: إنكم كنزتم لأنفسكم هذا الوبال الأليم والبلاء العظيم، ﴿فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: ذوقوا وَبَالَ كنزكم وجزاءَ عملكم وإمساككم عن إخراج ما يجب إنفاقه منه في سبيل الله. إذ المراد من إنفاقها في سبيل الله: إخراجُ ما عليها من الزكاة،

كما جاء في الحديث: «ما من صاحب ذهب ولا فضة، لا يؤدِّي منها حقَّها، إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحت له صفائحُ من نار، فيُكوىٰ بها جَنْبُه وجَبينُه وظهرُه»[1] الحديث. وإنما عبَّرت الآية بمطلق الإنفاق للمبالغة في ذلك.

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

وبعد أن ذكر عَبَثَ أهل الكتاب بالدين، ذكر عَبَثَ المشركين كذلك في أمرٍ اتَّبعوا فيه اليهودَ، وهو: النَّسِيءُ كل أربع سنين في الأشهر القمرية؛ ليوفِّقوا بين السَّنَة الشمسية والسَّنَة القمرية، فاخْتَلَّ لذلك الحساب الديني كالحج ونحوه، وكذلك الزكاة لتعلُّقها بالحوْل، والبيان لا يتأخَّر عن وقت الحاجة، فذكره في مساءاتهم إذ ذكرها. وابتدأ البحث ببيان عِدّةِ الشهور عند الله، وبيان الحُرُم منها، فقال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في عِلمِهِ المتعلِّق بالتكوين، ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إذ جعل القمر يدور حول الأرض اثنتي عشرة مرَّة كلَّما دارت الأرض حول الشمس مرة علىٰ التقريب، أو أنها اثنا عشر شهراً في حكمه التشريعي، لا ثلاثة عشر شهراً، كما يقتضيه حكم النسيء في بعض السنين.

قال في «المنار» ما مُلخَّصه: «المراد بهذه الشهور: الشهور القمرية، والسنة التي

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (١٤٠٢)، ومسلم (٩٨٧)، عن أبي هريرة.

تـتألف منها هي السنة الدينية، وهي اثنا عشر شهراً فيما كتبه الله وأثبته من نظام سَيْر القمر وتقديرِهِ منازلَ منذ خلق السماوات والأرض، ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ فرض الله احترامها وحرَّم القتال فيها علىٰ لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام؛ لتأمين الحجِّ وطرقِه، ونقلت العرب ذلك عنهما بالتواتر القولي والعملي، ولكنها أخلَّت بالعمل اتِّباعاً لأهوائها، كما يأتي بيان ذلك في الكلام علىٰ النَّسيء في الآية الآتية، وهو الغاية لما في هذه الآية. وهذه الأشهر منها ثلاثةٌ سَرْدٌ، وهي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرَّم، وواحد فَـرْدٌ، وهو: رجب[1].

وحكمة تعظيمها وتحريم القتال فيها: تأمينُ الحج وطرقه؛ لأنَّ السفر إلىٰ مشاعر الحج في الحجاز والعَوْدة منه تكون في هذه الأشهر الثلاثة، فحرَّمها كما حرَّم مكة وما حولها في جميع السنة؛ لتأمين الحج وتأمين العمرة التي تؤدَّىٰ في كلِّ وقت. فكان الرجل يلقىٰ قاتل أبيه في أرض الحرم وفي غيرها في الأشهر الحرم؛ فلا يَعرِضُ له بسوء، علىٰ شدَّتهم في الثأر وضراوتهم بسفك الدماء، وحرَّم شهر رجب لتسهيل السفر لأداء العمرة فيه؛ لأنه أفضلُ أوقاتها.

ولولا اختصاصُه تعالىٰ لما شاء من زمان ومكان بالعبادة فيه وباحترامه، لَـمَا كان للأزمنة والأمكنة في نفسه مزيَّة في ذلك. وتقديرُ بعض الأمكنة أو الأزمنة بالـحُرمة هُدْنةٌ إلهية تُتيحُ للمتخاصمين من الأفراد والجماعات أن يحلّوا خصومتهم فيها، فيعود لهم الوفاق والوئام، ويعلو بذلك لواء الإسلام، لو كانوا يعلمون.

ثم نوَّه سبحانه بهذا النظام في الأشهر حَمْلاً علىٰ التمسُّك به، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ هو ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: المستقيم الذي لا عِوَجَ فيه، والذي كان عليه إبراهيم وإسماعيل،

---

(١) تفسير «المنار» (١٠: ٣٥٧-٣٦١).

﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ تحريفاً وزيادةً بحكم النَّسيء، حيث تَـنْسئون المحرَّم إلىٰ صفر كل أربع سنين، فيختلُّ نظام الأشهر، فلا تظلموا وتُشَـرِّعُوا من أنفسكم، فتُحرِّموا أربعةً غير التي حرَّم الله، تتلاعبون بها حسب أهوائكم، وتفسدون شريعة إبراهيم في ذلك، لأنَّ الله سبحانه قد اختصَّ هذه الأزمنة والأمكنة بخصائص من العبادات والاعتبارات لِحِكَمٍ خاصَّة، فمن عَـبَثَ بها فقد ظلم نفسه بإبطال شريعة الله.

وكان هذا البيانُ عن العبث في الدِّين الحقِّ من جانب المشركين وهذا النهيُ تمهيداً لقـولـه: ﴿وَقَـٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾، أي: فلا تَـتَّبعوهم وقاتلوهم حتىٰ في هذه الأشهر، أي: قاتِلوهم جميعاً كما يقاتلونكم جميعاً، فإنَّهم لا يقاتلونكم للعصبية ولا للكسب كدأبهم في قتال قويِّهم لضعيفهم، وإنما يقاتلونكم لدينكم، فكونوا في قتالهم يداً واحدة، ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾، وهذه المعيَّة بمعنىٰ النصر والمعونة.

ثم أَنَّبَ المشركين علىٰ ما كانوا يعبثون بالأشهر الحُرُم بالنَّسيء، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ أي: كفرٌ مضمومٌ إلىٰ كفرهم، ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، ثم فسَّر هذا النسيء بقوله: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ بجَعْلِ شهر مكان شهر، ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾، ثم نعىٰ عليهم بقوله: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ﴾، ثم علَّل ذلك مُبيِّـناً منشـأه فيهم بقولـه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾، لأنَّ الكفر والانطباع علىٰ الضلال يمحقُ نورَ القلب، فلا يهتدي صاحبُه لمعرفة الحق من الباطل، والهدىٰ من الضلال، فإنَّ الهداية إلىٰ الحقِّ من توابع الإيمان وآثاره. فهؤلاء الكفار يظنون أنه يكفي لطاعة الله تحريمُ هذا العدد من الأيام أيّاً كانت، ولم يُـدرِكوا أنَّ لله سبحانه في تحريم عَيْنِ الأشهر خصائصَ وحِكَماً لا تكون في غيرها.

وتوضيح الآية: أنَّ العرب ورثت من ملَّة إبراهيم وإسماعيل تحريمَ الأشهر الحُرُم لتأمين الحجِّ وطرقه، كما ورثوا مناسك الحج، وكانوا يُحرِّمون في هذه الأشهر القتال. ولما طال عليهم الأمد غيَّروا وبدَّلوا في المناسك وفي الأشهر الحُرُم، وذلك أنَّ العرب كانت تقيم أسواقَها المشهورة في أول شهر ذي القعدة. ثم تَعرُجُ من هناك إلىٰ الحج في عشر ذي الحجة.

ولما رأوا اختلاف هذا الموسم من الصيف إلىٰ الشتاء والعكس، وهم يريدون ذلك أن يكون في موسم واحد ملائِم لا يتغيَّر، وكذلك لاحظوا أنَّ أسماء شهور السنة عندهم لا تنطبق دائماً علىٰ مسمَّاها، فشهر ربيع لا يكون دائماً في الربيع، وشهر جمادىٰ لم يصادف الشتاء دائماً، وكذلك رمضان لا يوافق علىٰ الدوام شدَّةَ الرمضاء والحر، ورأوا أنَّ يهود يثرب وما جاورها كانوا يتَّبعون طريقة في تلافي ذلك ومطابقة السَّنَة القمرية للسَّنَة الشمسية، وهي إضافة بضعة أيام لكلِّ سنة قمرية؛ ليتمكَّنوا من تحديد أيام الأعياد عندهم، ومنها: عيدُ الفِصْح الذي يجب أن يُصادِفَ يومَ بَدْرٍ كامل بعد أن يَتَساوىٰ الليل والنهار في بَدْءِ فصل الربيع، فاتَّبع العرب طريقة اليهود هذه، فأضافوا شهراً إلىٰ سنتهم القمرية بعد كلِّ ثلاث سنوات منعاً لحدوث المخالفة بين أشهرهم وفصول السنة، وتطبيقاً للقمرية علىٰ الشمسية، وعبَّروا عن هذا بالنسيء.

وقد أخلَّ هذا النَّسيءُ بنظام الأشهر القمرية الدينية خللاً فادحاً، وقد عاد النظام إلىٰ وَضْعِهِ الطبيعي مراراً بما كان من تنقُّل الأشهر بتوالي النسيء، وكان من ذلك عَوْد النظام الصحيح في مبدأ الإسلام فاستقرّ، وقد نبَّه عنه النبي ﷺ في أحكامه المهمة التي ذكرها ونبَّه عليه في خطبته في حَجَّة الوداع، فقال ﷺ في خطبته في هذه الحجة: «إنَّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة: اثنا عشر شهراً، منها

أربعةٌ حُـرُم، ثلاثةٌ متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورَجَبُ مُضَرَ الذي بين جمادىٰ وشعبـان»[١]. وإنْ بيَّن[٢] ذلك رسول الله ﷺ كي لا يبقىٰ أدنىٰ شك في نفوس بعض المسلمين في صحَّة الأشهر القمرية منذ بدأ الإسلام، وذلك بدوران الزمان، والظاهر أنه إنما قال ذلك ببيان من الوحي. والله أعلم.

وقد تصحَّح ذلك الخلل في أول الإسلام، وإن تأخَّر البيان عنه صريحاً إلىٰ زمن حَجَّة الوداع، أو أعاده فيها إعادة وتقريراً، وفي قوله: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ نوعٌ من أنواع إيجاز القَصْر في القرآن.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

ثم أتبع السياق بسياق يتضمَّن غزوة المسلمين لأهل الكتاب في تبوك، وما جرىٰ فيها، وهو القَصْد الأصلي من السورة، وقد حثَّ المؤمنين في بَدْء هذا السياق علىٰ القتال

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٥٥٥٠)، ومسلم (١٦٧٩)، عن أبي هريرة.

(٢) أي: وقد بيَّن.

بأسلوب إنكاريّ تهديديّ، ناظراً إلىٰ ضعاف الإيمان والمنافقين المُسْتَخْفِين فيهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾[1]، والتثاقل: التباطؤ وعَدَمُ النشاط، وربما ينجرُّ إلىٰ التخلُّف.

---

(١) كان المسلمون فيهم مؤمنون صادقون في الإيمان يضحُّون بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله، وفيهم ضعفاء الإيمان تثقلهم مشقَّة الطريق وشدَّة الحر وبُعْد الشقة، والحرص علىٰ ثمار بساتينهم، وقد نضجت، ورهبة العدو الشديد. وفيهم منافقون أعلنوا الإسلام خوفاً أو طمعاً، وسخروا في نفوسهم من النبي ﷺ أن يدعُـوَ لقتال الروم، وأخذوا يثبِّطون ويعتذرون عن السفر، ويثيرون الفتن ويرجفون الأراجيف، ويُدبِّرون المكايد ويضعون العراقيل.

وكان من المؤمنين حقاً مَنْ ساهم في تجهيز الجيش، ولا سيما عندما قال النبي ﷺ لمن أتوه ليحملهم: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢]، وكان ممن اشترك في تجهيز الجيش: أبو بكر رضي الله عنه، حيث خرج من كل ماله، وعثمان رضي الله عنه حيث جهز عدداً كبيراً من الجيش، وغيرهما من ذوي اليسار، كلٌّ علىٰ قدرته.

أما ضعفاء الإيمان والمنافقون، فمنهم من استأذن في التخلّف، ومنهم من انتحل الأعذار، ومنهم من أخذ يُثبِّط ضعفاء المسلمين، ومنهم من يُثير الفتن ويُرجف الأراجيف.

ورغماً عن كلِّ ذلك فقد أكمل الله لرسوله ما أراد، وتمَّ له إعداد الجيش علىٰ أكمل صورة، فما كاد يصلُ الرومَ نَـبَؤُهُ حتىٰ وقع الرعب في قلوبهم، وآثروا الرجوع إلىٰ بلادهم، فوصل جيش المسلمين إلىٰ تبوك ولم يجد لجيش الروم أثراً، فقام بها أياماً يتحداهم، وانتهز النبي ﷺ الفرصة، وأخذ يعمل علىٰ تأمين الحدود، فعاهد أمراءها وأقام بهذه المعاهدات المعاقل بينه وبين الروم، ثم عاد رسول الله ﷺ بالجيش إلىٰ المدينة، ولكنه ما زال مشغولاً بأمر الروم لاعتقاده أنهم لا يعدلون عن غزو المسلمين، فجهَّز الجيش الذي أَنْفَذَهُ بعد وفاته ﷺ خليفتُه الأول أبو بكر رضي الله عنه، بقيادة أسامة بن زيد، وبه توالت الفتوحات الإسلامية في بلاد الروم، وبلاد الفرس وامتدَّت كلمة الله علىٰ مُعظم أجزاء المعمورة في عهد خلفائه الراشدين رضي الله عنهم. (المؤلف).

وهذا خطابٌ للمؤمنين في جملتهم؛ تربيةً لهم بما وقع من الضعفاء منهم والمنافقين فيهم، وحضّاً للمُخلِصين أن يَرْدَعوا المتخلِّفين؛ ولأن الغزوة كانت جِدَّ عسيرةٍ؛ لكثرة الروم وقوَّتِهم، وقِلَّةِ الزاد لنفاذ التمر بحكم آخر السنة، وعزّة الماء لِبُعْدِ ما بين المائين في الطريق، وشدّة الحر لأن الزمن صيف، وقلة وسائط النقل لقلة إبلهم بالنسبة للنفير العام، وكان الفَرْدُ يزوِّد نفسه بوسائل النقل ونفقات السفر، والغنيُّ يزوِّد غيره بقدر الإمكان، فالسفر بعيد والحاجة شديدة؛ لهذا كلِّه تثاقل حتىٰ أفرادٌ من المؤمنين المُخلِصين، ولكنْ ما لبثوا أن نشطوا للنفير، فعاتبهم سبحانه بقوله: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾.

ثم أنَّبهم بقوله: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: أرضيتُم براحة الدنيا التافهة الفانية بدلاً من سعادة الآخرة العظيمة الباقية، ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى﴾ جَنْب ﴿ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾.

ثم توعَّدهم بقوله: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا، حيث يستعبدكم العدوُّ بذلك ويَسُومُكم سُوءَ العذاب، ويُفنيكم الله، ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يَنفِرُونَ مع رسوله وينصرونه، ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾[1] بتثاقلكم عن نُصْرته، ﴿وَٱللَّهُ

---

(١) توجيه الخطاب في قوله: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ ...﴾ إلىٰ عموم المؤمنين يدلُّ علىٰ وجوب القيام بإصلاح ما يبدو من بعض أفرادهم بحكم التواصي بالحق والتناهي عن المنكر. وقال الشعبي: لقد عُوتب بهذه الآيات أصحابُ رسول الله ﷺ ولم يخرج منهم إلا أبو بكر رضي الله عنه، فإنه كان مرضياً عنه ومثنياً عليه. والآية تدل علىٰ أن الجيش في الإسلام هو كل الأمة، ولا يعفىٰ من الجندية إلا من ذكر الله سبحانه بقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ ...﴾ [التوبة: ٩١]. وقد مضت سُنة الله في هذه الحياة علىٰ أن العزة والكرامة والسلطان إنما تكون للعاملين العالمين المجاهدين من بني الإنسان. أما المتثاقلون المتخاذلون فلا بدَّ أن يكونوا مُسْتعبَدِين للعدو =

عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٣٩﴾﴾، وقد وَعَدَه بالنُّصرة فهو ناصِرُه لا مَحَالة، وتوعَّدكم بالتعذيب إن توليتم عن نُصرته وباستبدالكم بقوم آخرين.

ثم وبَّخهم بصيغة تتضمَّن استهانتَهم وعَدَمَ الاكتراث بهم، مُذكِّراً إيَّاهم بنصرة رسوله عند ما كان وحيداً فريداً، فقال: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: فسينصره كما نصره بقدرته إذ أجمع المشركون علىٰ الفتك به، وأخرجوه من داره وبلده، ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ المعروف عندكم، وهو غار جبل ثور، حيث لا ناصر له إلا الله، ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ لما رأىٰ منه أمارة الحزن والجزع: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ بالنصر والمعونة والحفظ والعصمة.

ثم عطف علىٰ قوله: ﴿فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ ما يُفصِّل إجماله، فقال: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ والسكينة: هي بضمان النصر له ﷺ حتىٰ يبلِّغ الرسالة، فكان يشعر بذلك، فلم يضطرب وهو في تلك الحالة المرهبة الخطرة، ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ فكانت تؤيِّده بالتثبيت، وتُخَذِّلُ المشركين، وتُلقي الرُّعْب في قلوبهم[1]، والتشويش في تفتيشهم، وكان من عاقبة ذلك أنْ خَذَلَ الله الشرك وأظهر الإسلام، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يُغلَبُ علىٰ أمره، ﴿حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ يضع الأمور في مواضعها. وأتىٰ بالجملة الاسمية للدلالة علىٰ الثبوت والاستمرار.

= ومقهورين، وهذا هو مؤدَّىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ أي: بعد إفناء العدو لكم ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗا﴾، أي: نتائج هذا التثاقل والتخاذل تعودُ عليكم، لا علىٰ الله سبحانه، ولا علىٰ غيركم وينزل بكم البلاء. (المؤلف).

وقول الشعبي ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤: ٢٠١)، وعزاه لابن المنذر.

(١) هذا المعنىٰ للجنود غير المرئية، يصحُّ في كل ما جاء في الغزوات من ذلك. (المؤلف).

والآية تُلْمِعُ إلىٰ حراجة الموقف، وذلك لأن زعماء قريش أدركوا العاقبة الوخيمة عليهم من جَرَّاء هجرته واتِّفاقه مع أهل المدينة، واندفعوا بكلِّ قوتهم للحيلولة دون ذلك، والفتك به مهما كلَّف الأمر، فمنعه الله منهم، واختفىٰ بهذا الغار حتىٰ هدأ الطلب.

ثم عَقَّبَ النهجَ الإنكاري بالأمر القطعي، علىٰ سُنة القرآن في ذلك، فقال: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: مَنْ سَهُلَ عليه النفير ومَنْ ثَقُل، وذلك يكون بالقلَّة والكثرة في المال والعيال، ﴿وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ خيرٌ لكم في دنياكم؛ إذ لا حياة للأمم فيها ولا عزّ ولا سيادة إلا بالقوة الحربية، وخيرٌ لكم في آخرتكم؛ لأن السعادة فيها لمن ينصر الحقَّ، ويقيمُ العدل، ويَتحلَّىٰ بالفضائل، ويَتخلَّىٰ عن الرذائل، باتِّباع الدين القويم، والعمل بالشرع العادل الحكيم. والمراد من سبيل الله: التمهيد لِمَا رَسَمه الله لعباده من الإيمان وعمل الخير والدعوة لذلك.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ۖ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

ثم نقدهم بهذا النقد المرِّ الأليم، رامياً إلىٰ الذين تخلَّفوا وانتحلوا الأعذار، ولا سيما المنافقون، فقال: ﴿لَوْ كَانَ﴾ سفرك ـ أيها الرسول ـ ﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾ أي: يؤدِّي إلىٰ منفعة ومَتَاع قريبِ المأخذ، ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي: وسطاً لا مشقَّة فيه ولا كلال، ﴿لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ أي: المسافة والطريق التي لا تُقطَعُ إلا بتكبُّد المشقَّة، وكَبُر عليهم التَّعرُّض لقتال الروم في ديار ملكهم، وهم أكبر دول الأرض الحربية إذ ذاك، فتخلَّفوا جُبناً وحُباً بالراحة والسلامة.

والآية تُبيِّن أنَّ المنافقين كانوا يخرجون في الغزوات الـهيِّنة والمضمونة العاقبة، ويتخلَّفون عن مثل هذه الغزوة الشاقَّة، ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ بعد رجوعكم إليهم؛ ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾، ولكن لنا أعذار مانعة، وهكذا ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بالحَلِف الكاذب لستر نفاقهم، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ فيما يقولون ويدَّعون. فأتىٰ بالجملة الاسمية و«إنّ» المكسورة للدليل علىٰ الثبوت والاستمرار.

ثم عاتبه علىٰ إذنه لهم بالتخلُّف، وقدَّم العفو علىٰ العتاب؛ تعجيلاً بالتأنيس قبل تسرُّب الخوف إليه، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ بالقعود والتَّخلُّف كما أرادوا، وهَلَّا تَريَّثت بالإذن، ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ في الاعتذار، ﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ فيه. فتعامل كُلاً بما يستحقُّ ويليق؛ لأنَّ الكاذبين لا يخرجون، سواء أذنتَ لهم أم لم تأذن. فلو تريَّثتَ لانكشف لك أمرُهم.

وعن مجاهد: «أنهم قالوا: استأذِنُوا، فإنْ أَذِنَ لكم فاقعدوا، وإن لم يَأذَنْ لكم فاقعدوا»[1]. وعن ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما: «لم يكن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٠٧٧).

حتىٰ نزلت سورة براءة»[١]، والمراد: أنه لم يكن يعرفهم كلَّهم، ويعرف شؤونهم مُفَصَّلاً، حتىٰ نزلت.

والذنب في اللغة: كل عمل يَسْتَتْبِعُ ضرراً أو فَوْتَ منفعة أو مصلحة، وليس خاصاً بالمعصية. وفي اصطلاح الشريعة: ما يخالف دين الله. ولم يكن إذنُه لهم من النوع الثاني، وإنما هو من الأول[٢]؛ لأنه صادر منه عن اجتهاد أدىٰ به إلىٰ أنهم لو خرجوا فيهم ما زادوهم إلا خَبَالاً، ولأوْضَعوا خلالهم يبغونهم الفتنة. ولكن حكمة الله سبحانه أبعَدُ مَرْمَىٰ وأعمق أثراً، وهي أنهم لا يخرجون إن أذن لهم أو لم يأذن، وحينئذ ينكشف للناس أمرُ نفاقهم. فهذا الذنب منه ﷺ من النوع الأول لا من الثاني؛ لأنَّ المجتهد مأجور وإن أخطأ، وليس بمأزور، ولكنْ «حسناتُ الأبرارِ سيئاتُ المقرَّبين».

ثم بيَّن الفرق بينهم وبين المؤمنين، علىٰ نهج القرآن في المقابلة، فقال: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ أي: لا يستأذنك هَرَبَ أن يجاهدوا، وليس من شأنهم هذا[٣]. ثم أتىٰ بهذه الجملة الاعتراضية وعداً للمؤمنين وتوعُّداً للمنافقين فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾ له باجتناب ما يُسخِطُه وفِعلِ ما يُـرْضيه ونيتهم فيه.

---

(١) ذكره الخازن في «تفسيره» (٣: ١٠٣).

(٢) يعني: أنه ليس فيه ما يخالف الدين، ولكنه عملٌ يستتبع فَوْتَ منفعة، وهي تبيّنُ الصادقين منهم من الكاذبين، والأحسن أن يُقال: إنه يستتبعُ فَوْتَ منفعة أعظم من المنفعة الحاصلة به، فيكون من باب خلاف الأَوْلىٰ. علىٰ أنه ليس في الآية ذِكرُ «الذنب»، ولو عبَّر بالخطأ لكان أحسن وأبعد عن الإيهام.

(٣) هكذا في الأصل، وهو مختصر، والمعنى: لا يطلب السماح الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر في التخلف هَرَبَ أن يجاهدوا. فالمصدر المؤول في محل نصب مفعول لأجله، ولما حذف المضاف «هرَب» حلّ المضاف إليه في الإعراب محلّه، قال البيضاوي: «في التخلّف كراهةَ أن يجاهدوا».

ثم قرَّر نفي الاستئذان عن المؤمنين بإثباته للمنافقين على طريقة حصر الوصف فيهم؛ تقريعاً لهم وتشنيعاً عليهم، فقال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ في الدين ومقرَّراته، ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ مُتحيِّرين في أمرهم. وفي هذا الأسلوب تقرير لنفاقهم مقرون بالحجة.

ثم أردفه بحُجَّة أخرىٰ، فقال: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ من الزاد والراحلة مما يُعدُّ لمثل هذا السفر البعيد، وكان الفَرْدُ يجهِّز نفسه. وهذه حُجَّة علىٰ كذبهم المعبَّر عنه بقوله: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ بما حَدَث في قلوبهم من الخواطر والمخاوف التي تنشأ بمقتضىٰ سُنة الله من تأثير النفاق علىٰ نفوس أصحابه؛ لأنهم لم يؤمنوا بوعد الله، فلم يُعِدُّوا للخروج عُدَّته؛ لأنهم لم يريدوه، وإنما أرادوا بالاستئذان سَتْر ما عزموا عليه من العصيان.

وفي قوله: ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ تحقيرٌ لهم وتهجينٌ. والمراد من «القاعدين»: الأطفال والعَجَزة والنساء. ونِسْبةُ التّثبيط إلىٰ الله باعتبار سُنَنِه الكونيّة.

ثم بيَّن سبحانه أنَّ في تخلُّف هؤلاء المنافقين مَصلحةً للمؤمنين، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: اضْطراباً في الرأي، وفساداً في العمل، وضعفاً في القتال. وذلك لأنَّ المتَّحِدينَ في العقيدة والمصلحة يتوافقون في الرأي، ويَتَعاضدون علىٰ الأمر، بخلاف المختلفين فيها سراً وجهراً، فإنهم يزيدون الأمر اضطراباً وضَعْفاً ومَفسَدَةً للنظام، كما حَدَث مثل ذلك في غزوة حُنين، فقد ولّىٰ المنافقون الأَدْبارَ في أول المعركة، وولَّىٰ علىٰ أثرهم ضعفاءُ الإيمان مِن طُلقاءِ فتحِ مكة، ومِنْ ثَمّ اضطرب نظامُ الجيش فولَّىٰ أكثر المؤمنين معهم مندفعين مع التيار، بلا شعور ولا تفكير، كما هو الشأن في مثل هذه الأحوال.

ثم تابع البيان عن إفسادهم، فقال: ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ من قولهم: أوضع الراحلة، بمعنىٰ: أسرع بها، أي: لأسرعوا في السَّعي وراءَ الإفساد والفتنة بالنميمة وتفريق الكلمة، ﴿وَفِيكُمْ﴾ أناسٌ ضُعفاءُ الإيمان أو العَزْم أو العقل، ﴿سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ وقيل: بل المعنىٰ: فيكم أناسٌ منهم نمَّامون يسمعون من أقوالكم فينقلونها إليهم، أي: يتجسَّسون لهم عليكم، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ فلا تَخْفىٰ عليه منهم خافية.

ثم ذكر لهم شيئاً من إساءاتهم الماضية، فقال: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ وأنواع التدبير والحِيَل والمكايد، فلم ينجحوا وفشلوا ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ بالنصر الذي وَعَدك به ربُّك، وكانوا به يمترون، ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ﴾ له ﴿كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

ثم بيَّن نفاق أناس آخرين منهم اعتذروا عن اللحاق بغزوة تبوك، خشية أن تفتنهم

نساء الروم، فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾، فردَّ سبحانه وتعالىٰ عليهم الوصف بهذا التسجيل، فقال: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي: يزعمون نفاقاً أنَّ في قعودهم اتِّقاءَ التعرُّض لنوع من الفتنة، وهو الإثم بنظرهم نساءَ الروم الجميلات، فَتَرَدَّوا في شرٍّ وفتنةٍ عظيم، وهو التخلُّف عن نُصْرة الحق الذي لا يعادله شيء، فتوعَّدهم بهذا الوعيد العام، فقال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾، فوضع المُظْهَرَ مكان المُضْمَر؛ للإشارة إلىٰ كفرهم الذي حملهم علىٰ هذا الاعتذار النفاقي الشنيع.

ثم فضح ما يحملونه بين جوانحهم من الكُرْه للمؤمنين وتربُّص الدوائر بهم، وما يضمرونه من النفاق المبين، فقال: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ﴾ من نصر أو غنيمة أو ظهور ﴿تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ كالذي وقع في غزوة أحد ﴿يَقُولُوا﴾ متبجِّحين: ﴿قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل الوقوع، وذلك بالحزم والحذر، فتَخلَّفنا عن القتال، ولم نُلقِ بأيدينا إلىٰ التهلكة، ﴿وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ بما صنعوا.

وقد أمر الله نبيَّه ﷺ أن يُبيِّن لهم بُطلان ما بنوا عليه مَسَرَّتهم من الاعتقاد، فقال: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ من نصر وغنيمة، أو تمحيص وشهادة، ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ يتولانا بالتوفيق والنصر، ونتولاه باللجوء إليه والتوكُّل عليه، فلا نيأس عند شدَّة، ولا نبطر عند نعمة، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ بعد مُراعَاةِ السُّنن الطبيعية في مُعَاطاة الأسباب.

ثم أمره أن يُبيِّن لهم أنَّ ما يزعمونه مضرَّةً للمسلمين ـ وهي الشهادة ـ أنفَعُ لهم مما يعدُّونه منفعة ـ وهو النصر والغنيمة ـ وكلاهما حُسنىٰ، وأدمج في ذلك توعُّدَهم وتهديدَهم، فقال: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ الشهادة أو النصر،

﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ بأن يأذن لنا بقتلكم، ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ لعاقبتنا وعاقبتكم، إنْ أصْرَرْتُم على كفركم ونفاقكم. والتربُّص : الانتظار.

ثم أمره أن يُبيِّن لهم أنَّ كلَّ ما ينفقونه في أمر الجهاد أو غيره لم يُقْبل منهم لنفاقهم وإيغال الفساد في نفوسهم، ولأنهم في شكٍّ مما جاء به الرسول من أمر الدين والجزاء على الأعمال في الآخرة، فقال: ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ أي: أنفِقوا ما شئتم من أموالكم في الجهاد أو غيره مما أمر الله به، في حال الطَّوع للتقيَّة، أو الكُره خوفَ العقوبة الدنيويَّة، فلن يتقبَّل الله منكم شيئاً؛ ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾ أي: خارجينَ عن دائرة الإيمان، فلا تعتقدون بما جاء به الرسول من أمر الدين والجزاء على الأعمال في الآخرة.

ومُحصَّل الآية: أنَّ المنافقين حاولوا أن يَفْتَدُوا أنفسهم بالاشتراك مالياً في غزوة تبوك، فألهم الله نبيَّه رَفْضَ ذلك مع التعليل، وقد فصَّل ما في هذا التعليل من الإجمال بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾، فلم يكن ذلك منهم عن إيمان وعقيدة بالجزاء، ولكن عن خوف وتقيَّة، نفاقاً ورياءً. ومُحصَّل التعليل: أنَّ قَبول المال منهم قد يُتَّخذ دليلاً على تصديقهم فيما يَدَّعُونَه من نيَّات حسنة، ويُقدِّمونه من أعذار كاذبة، يُخْفون بها نفاقهم، ويظنونه قد تَـمَوَّه.

ثم رتَّب على ما تقدَّم هذا البيان، مخاطباً كلَّ سامع، فقال: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يتعبون في جمعها، ثم تكون عليهم وبالاً، ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ فيُعذَّبون في الآخرة أشدّ مما عُذِّبوا في

الدنيا. وعلىٰ تقدير أن الخطاب للرسول، يكون المراد بها عبارة من عبارات التهوين والتزهيد في الشيء، ولا يُراد حقيقة معناها.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

ثم ذكر صورة نفاقهم ومصانعتهم للمؤمنين، فقال: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: يخافون منكم، فيقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم. وكان هذا حالهم في آخر العهد المدني، عندما قلُّوا وضَعُفوا، وكانوا قبل ذلك كثيرين، يشعرون بالقوة والعزة، كما تُلهِمُه آياتٌ أخرىٰ.

ثم بيَّن شدةَ حالهم في هذا الخوف علىٰ طريقة التمثيل، فقال: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾، وهذا تعبيرٌ عن الوقاية بالقول والاعتذار، بعبارة تتضمَّن الوقاية بالفعل والاندحار. والمدخل: السَّرَبُ في الأرض يدخله الإنسان بمشقَّة. والجِماح: السرعة الشديدة، وهو صفة للفرس، استُعيرت لهم. والآيةُ تمثيلٌ لخوفهم. أو المعنىٰ: أنهم لم يقدروا علىٰ تَرْكِ بلدتهم وفراق قومهم، فصانعوكم بالنفاق، ولو قدروا علىٰ الخروج من بينكم لخرجوا.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

ثم ذكر قبيحةَ أناس آخرين منهم، فقَال: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾[١]، واللمز: العيبُ والطعن، فيقولون: هذه قسمة غير عادلة، أو يقولون: إنه يخصُّ أقاربه وأهلَ مودَّته، ويريدون بذلك وقوع الرَّيْبِ في النبيِّ ﷺ؛ ليكون ذلك وسيلةً لوقوع الرَّيْب في دعوته في قلوب ضعفاء الإيمان أو العقول، فهم لا يتركون فرصةً يمكن إدخال الشبهة منها إلا انتهزوها.

ثم بيَّن من حالهم ما يُظهِرُ نفاقَهم الصَّريح، وهو أنَّ من مآربهم بذلك اللمز: التوسُّلَ للحصول علىٰ نصيب منها، قد لا يرىٰ النبي ﷺ لهم حقاً فيه، فقال: ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾؛ يغضبون، وإن لم يكونوا مستحقِّين للعطاء؛ إذ لا همَّ لهم من إظهار إسلامهم وادِّعائه إلا المنفعة الدنيوية.

ثم بيَّن ما كان يجب أن يكونوا عليه، كما هي سُنَّة القرآن في تعقيب النقد بالهدي والإرشاد، وصفاً للدواء بعد تشخيص الداء، فقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾ أي: كافينا في كلِّ حال، ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ لكان خيراً لهم. وهذا الإرشاد عام يشملهم ويشمل المؤمنين معاً؛ يُؤدِّبهم بأن يكونوا كذلك دائماً.

ولما كان لَمْزُ هؤلاء المنافقين في الصدقات ناشئاً عن طلبهم ما لا يستحقون، أردف الكلام ببيان مُسْتَحقِّي الصَّدقات رَدْعاً لهم، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾، وقد اختلفوا في الفقير والمسكين أيهما أشد حاجة، قال ابن قتيبة: الفقير: هو الذي له بُلغة من العيش، والمسكين: هو الذي لا شيء له[٢]. ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا ﴾

---

(١) سيأتي مثل هذه الآية فيما بعد، فانظر تفسيرها. (المؤلف).

(٢) «غريب الحديث» لابن قتيبة (١: ١٩١).

وهم الـجُباة لبيت المال، ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم الذين يُرادُ استمالتُهم إلىٰ الإسلام أو تثبيتُهم فيه من ضِعافِ الإيمان، وقد قسمهم الفقهاء إلىٰ قسمين: مسلمين وكفار.

ويرىٰ أبو حنيفة رضي الله عنه: أنَّ سهم هؤلاء قد انقطع بإعزاز الله الإسلام، واحتجَّ بأنَّ مشركاً جاء يلتمس من عمر مالاً فلم يعطه، وقال: «مَنْ شاء فليؤمن، ومَنْ شاء فليكفر»[١]، وبأن عثمان وعلياً لم يُعطيا أحداً من هذا النوع[٢].

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ أي: إعانة الـمُكاتَبين من الأرقَّاء لفكِّ رقابهم من الرِّقّ. وهذا من رحمة الإسلام وعَدْلِهِ الرائع، ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ وهم الذين ركبهم الدَّيْن وتعذَّر عليهم أداؤه، والقائمون بجمع مالٍ لدفع فتنة أو لمصلحة عامة، ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهي المصالح العامة والمشاريع الخيرية[٣]، ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو المنقطع في السفر ويتعذَّر عليه الوصول إلىٰ أهله، وفيه ترغيبٌ في الأسفار لما فيها من الفوائد الاجتماعية.

وأرىٰ ـ والله أعلم ـ أن يتناول اللفظ بعمومه الـمُشَرَّدين في الطرقات، وفي وصفهم بأبناء السبيل استفزازُ الشعور نحوهم، وتهييجُ العطف عليهم والرأفة بهم. وكذلك تشمل اللقطاء، فيُصْرَف عليهم من الزَّكوات لتربيتهم تربيةً صحيحة، وإعدادهم أن يكونوا نافعين للأمة لا مُضرِّين.

ثم أتبع البيان بقوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ للحثِّ علىٰ العمل بما جاء فيه، من دون تغيير ولا هوادة.

---

(١) ذكره الغزالي في «الوسيط» (٤: ٥٥٧).

(٢) ذكره ابن قدامة في «المغني» (٧: ٣١٩).

(٣) وهذا رأي بعض العلماء المعاصرين، أما المتقدِّمون من الفقهاء فجمهورهم علىٰ أن المراد بمصرف «في سبيل الله»: ما يتعلق بالجهاد من تـجهيز الجيوش والجند وشراء آلات الجهاد وتصنيعها ونحو ذلك.

ثم أتىٰ بما هو كالتعليل له، فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ فيما يشرعه ويفرضه، يُراعي فيه الحكمة والمصالح العامة.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾.

ثم ذكر قبيحةً أخرىٰ لأناس آخرين منهم، فقال: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ أي: غِرٌّ سريعُ الانخداع. وذلك من أكبر عيوب الرؤساء؛ لما يَترتَّب عليه من قَبول الغش. والظاهر أنهم قالوا ذلك تبجُّحاً بنجاحهم في الاستئذان، حيث أذِنَ لهم بمعاذيرهم الكاذبة.

وقد ردَّ الله سبحانه عليهم بالطريقة التي يُسمِّيها البلغاء: أسلوب الحكيم أو القول بالموجب، فقال: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أي: نعم، هو أُذُن، ولكنه أذن خير لكم، لا يقبل مما يسمعه إلا الحق، وذلك من أعظم صفات الرئيس.

ثم ذكر له من الصفات ما ينبعث منه لهم أفضل الخير وأعلاه، فقال: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: كلامُهم عنده مُصَدَّق. وقد ضمّن ﴿يُؤْمِنُ﴾ معنىٰ: يُصْغِي، فعدَّاه تعديته، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، أي: يُصغي لهم ويصدِّق قولهم. وفي الجمع بين الإيمان بالله والإيمان للمؤمنين إشارةٌ إلىٰ أنهما في الحقِّ سواء، لتحقُّق صدق المؤمنين، وإيماءٌ إلىٰ أنه ﷺ لا يؤمن للمنافقين. وإذا ظهر لهم ذلك، فإنما لكونه ﷺ مأموراً أن يبني الأمر علىٰ الظاهر، ويَدَعَ لله السرائر، وأما إذنه لهؤلاء المنافقين فمبنيٌّ علىٰ اجتهاده في أن وجود هؤلاء المستأذِنين المنافقين في الجيش مُضِرٌّ وغيرُ نافع.

ثم أكمل المعنىٰ بقوله: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ إيماناً صحيحاً؛ إذ كان سبباً لإيمانهم وهدايتهم إلىٰ ما فيه سعادة الدنيا والآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ثم توعَّدهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾، ويجوز أن يكون بين الفِقْرة والتي قبلها مقابلةٌ في المعنىٰ، ومُلخَّصها: أنه أُذُن خير للذين آمنوا منكم، وأذنه رحمةٌ لهم. أما المنافقون الذين يُؤْذونه في ذلك فليسوا بمؤمنين؛ لأنَّ إيذاء الرسول بالقول أو الفعل فيما يتعلق برسالته ينافي الإيمان الذي هو سبب الرحمة، وجزاؤه العذاب الأليم.

ثم عاد إلىٰ الموضوع الأصلي في السياق السابق، وهو تخلُّفهم عن غزوة تبوك وملابساته وما دار حوله، فقال: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ نفاقاً وخداعاً. والخطاب للمؤمنين الذين أَنَّبوهم علىٰ التَّخلُّف، فهم يُحاولون أن يُرْضُوهُم خداعاً، ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ بالصِّدق والإخلاص. والإتيان بضمير الواحد بعد الاثنَيْن يكون لنكتة ومن خصائص اللغة. والنكتة فيه هنا: أنَّ إرضاء الرسول ـ من حيثُ هو رسولُ الله ـ عينُ إرضاء الله.

ثم زادهم تأنيباً وتشنيعاً بقوله: ﴿إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ كما يدَّعون ويحلفون. فتضمَّن الكلامُ إثباتَ عدم إيمانهم بالدليل الذي هو عدم الإرضاء.

ثم توعَّدهم بقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: مَنْ يُشاقِقْهُ ويخالِفْه ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ أبداً، و﴿ذَٰلِكَ﴾ هو ﴿ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾ أي: الذُّلُّ والنَّكالُ الشديد.

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

ثم بيَّن شأناً آخر من شؤون هؤلاء المنافقين التي فضحتها هذه السورة، فقال: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾ حَذَراً مَشُوباً باستهزاء ﴿أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي: تكشف عن أسرار نفاقهم وما يُضمِرونه من السوء للرسول ﷺ ودعوته. وهذا الحذر أثر طبيعيٌّ لهم؛ لأنهم شاكُّون مرتابون في الرسالة، غير جازمين ببطلانها كالكفر.

قال أبو مسلم: كان إظهار الحذر منهم بطريق الاستهزاء. ولذلك قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: مُظْهِرٌ ما تخشونه من إنزال السورة في مخازيكم ومثالبكم ونفاقكم واستهزائكم بالرسول، وهي هذه السورة، حتىٰ سُمِّيت بالفاضحة، أي: فاضحة المنافقين.

وقال غيره: إنَّ الحذر كان حقيقاً، أما الاستهزاء فهو دأبهم ودَيْدَنهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤].

وقال قتادة وغيره: بينما رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وبين يديه أناس من المنافقين، قالوا فيما بينهم: أيرجُو هذا الرجل أن يُفْتَحَ له قصورُ الشام وحصونُها؟ هَيْهات هَيْهات[1]. وقال بعضهم لبعض: أتحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم، والله لكأنا بكم غداً تُقادُون في الحبال، فأطْلَعَ الله نبيَّه علىٰ ذلك، فقال ﷺ: «احبِسوا عليَّ هؤلاء

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٠٤٩).

الركب»، فأتاهم، فقال لهم: «قلتُم كذا، قلتُم كذا». قالوا: يا نبيَّ الله، إنما كنا نخوضُ ونلعب، فقال تعالىٰ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ أي: إننا لم نكن جَادِّين بهذه الأقوال ولا منكرين، بل هازلين لاعبين. وظنُّوا أنَّ هذا عُذرٌ مقبول؛ لجهلهم أنَّ اتِّخاذ الدين هزواً ولعباً، كفرٌ مَحْض.

فأمر رسوله أن يردَّ عليهم بقوله: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

ثم زادهم تقريعاً بقوله: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ أي: قد أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان، ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ ﴾ بتوبتهم وإخلاصهم الإيمان بعد النفاق ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ بإصرارهم علىٰ النفاق.

قال في «المنار»: فإن قيل: ظاهر قوله: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ أنهم كانوا مؤمنين، فكفروا بهذا الاستهزاء الذي سمَّوه خَوْضاً ولعباً. وظاهر السياق أنَّ الكفر الذي يُسِرُّونه هو سببُ الاستهزاء الذي يُعلِنونه. قلنا[1]: كلاهما حق، ولكلٍّ منهما وجْه؛ فالأول: بيان لحكم الشرع، وهو أنهم كانوا مؤمنين حكماً، فلما تبيَّن منهم، كفروا حكماً أيضاً. والثاني ـ وهو ما دلَّ عليه السياق ـ هو الواقع بالفعل[2].

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً

---

(١) القائل صاحب «المنار».

(٢) تفسير «المنار» (١٠: ٤٥٧).

وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

ثم ذكر بياناً عاماً لحال جنس المنافقين، فقال: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أي: متشابهون، كأنَّ كلاً منهم عَيْنُ الآخر. وفي صورة التعبير إيماءٌ إلىٰ تكذيبهم في ادِّعاء أنهم من المؤمنين ومُوالونَ لهم، وردٌّ لحَلِفِهم السابق، وتقريرٌ لقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦].

ثم بيَّن صفاتهم العامة، فقال: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾، ومن ذلك: صدُّهم الناسَ عن مبادئ الإسلام. ثم تابع الوصف بقوله: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: عن الإنفاق في سبيل الله.

ثم أجمل حالهم، وسَبَكَه علىٰ مُجمَل الجزاء، فقال: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما يأمر به وينهىٰ عنه، ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أي: حَرَمَهم من فوائد ذِكرِه وشكره وحُسْنِ عبادته، فيه مشاكلة في اللفظ.

ثم سجَّل عليهم وقرَّر أمرهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

ثم قفَّىٰ علىٰ بيان حالهم هذه بذكر ما أعدَّه لهم ولإخوانهم الكفار من العذاب، فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، ثم هوَّل أمرها فقال: ﴿هِىَ حَسْبُهُمْ﴾ أي: تكفيهم عذاباً وحدها، وقد أضاف إليها قوله: ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أبعَدَهم عن رحمته التي وعد بها المؤمنين في الآيات المقابلة الآتية،

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ أي: ثابتٌ لا يتحوَّل، والظاهر أنَّ هذا وَصْفٌ لعذابهم في جهنم. ويجوز أنَّه نوع آخر من العذاب فوق عذاب جهنم المعتاد.

وذِكرُ المنافقات إلىٰ جانب المنافقين يدلُّ علىٰ ما كان للمرأة في الحركة الإسلامية من دَوْرٍ مهم.

وبعد أن ذكر هذا البيان العام عن جنس المنافقين وصفاتهم في كل زمان ومكان، عاد إلىٰ النَّسق السابق وخاطب المنافقين الذين نزلت في شأنهم هذه السورة، فقال: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: أنتم أيها المنافقون المؤذون لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين، كأولئك المنافقين الذين خَلَوْا من قبلكم في أقوام الأنبياء، مفتونون بأموالكم وأولادكم، مغرورون بدنياكم، كما كان أولئك مفتونين مغرورين بأموالهم وأولادهم.

وللمبالغة في الوعيد، بيَّن امتيازهم عليهم بالقوة في سائر أنواعها، إيذاناً بأنهم أدنىٰ للهلاك من أولئك، بحسب السنة الطبيعية، فقال: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ﴾ أي: تمتَّعوا بنصيبهم هذا من الدنيا واغترُّوا به، ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم﴾ أنتم كذلك ﴿بِخَلَٰقِكُمْ﴾ من هذه الدنيا ﴿كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ من الأموال والأولاد والقوة، ولم يهتمُّوا إلا بذلك، ﴿وَخُضْتُمْ﴾ في الباطل والفساد ﴿كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾.

ثم نعىٰ عليهم، وذكر حُكْمَهُ فيهم جميعاً وفي أمثالهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي: فشلت، فدارت عليهم الدوائر، واسْتَأصَلَهم العذاب، ﴿وَ﴾ كذلك حبطت في ﴿ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بِتَدْسِيَتِهم لنفوسهم وإفسادهم لِفِطَرِهم، فكانت أعمالهم فاسدة فاشلة، نالوا بها العذاب الأليم، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾، ومَنْ أعظَمُ خسارةً ممَّن خَسِرَ الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين! وإنما حبطت أعمال

الضال والكافر؛ لأنه كمَنْ يسير إلىٰ مكان في طريق لا توصل إليه، بل توصل إلىٰ شر عظيم وهلاك.

ثم أنَّبهم لعدم تذكُّرهم واعتبارهم بما جَرَىٰ علىٰ أمثالهم في أمم الأنبياء الماضية، فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ﴾ وهي قرىٰ قوم لوط، يقال: ائتفكت البلد بأهلها، أي: انقلبت. فسُمِّيت قرىٰ لوط بذلك، بعد أن انقلبت بأهلها.

ثم شرح أمر هؤلاء الأقوام، فقال: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ فأعرضوا عنها وعاندوا الرسل فأخذهم العذاب، وهو الطوفانُ الذي أغرق قوم نوح، والريحُ العقيم التي أهلكت عاداً قومَ هود، والصيحةُ التي أخذت ثمود، والعذابُ الذي هلك به النمرود بعد أن حاول إحراق إبراهيم عليه السلام، والنارُ التي أحرقت قومَ شُعيب يوم الظلَّة، والخسفُ الذي نزل بقرىٰ قوم لوط وهم فيها، ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ بما جَرَىٰ عليهم، إذ لم يخلقهم مطبوعين علىٰ الضلال، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ بتَدْسِيَتِهم لها، وإفسادهم لفِطرتِها حتىٰ أفقدوها الاستعدادَ للهداية الموصلة إلىٰ النعيم المقيم، وولَّدوا فيها الاستعدادَ للضلال المؤدِّي إلىٰ الشقاء الأليم، وخلود الجحيم.

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

ثم أردف البيان عن حال المنافقين وصفاتهم ومصيرهم، بالبيان عن حال المؤمنين وصفاتهم ومصيرهم، علىٰ نهج القرآن في المقابلة، فقال: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ في الأخوَّة والمودَّة والنُّصرة الحربية وما يتعلق بها وغير ذلك دون المنافقين، إذ لا ولاية بينهم وبين المؤمنين ولا مودة. وفي المؤمنين بتأثير الإيمان ضِدُّ ما في المنافقين من الأقوال والأعمال، فهم ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾، وهذه الصفات تقابل من المنافقين أمْرَهم بالمنكر ونَهْيَهم عن المعروف وقَبْضَ أيديهم عن الصَّرف والإنفاق، ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالىٰ، ولا ينفقون إلا وهم كارهون.

ثم تابع البيان عن صفات المؤمنين بقوله: ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ أي: يستمرُّون علىٰ الطاعة. وهذه الصفات تدلُّ علىٰ تضامنهم القوي وقيامهم بالواجبات الإسلامية من تعبديَّة وماليَّة واجتماعيَّة.

وأثبتت الآيةُ ولايةَ المؤمنين والمؤمنات بعضهم لبعض، والولاية: عبارة عن تعاونهم وتناصرهم فيما فيه خيرهم وصلاحهم؛ كلٌّ في حدود معرفته واستعداده، وكذلك في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو حال يتدخَّل في السياسة والاجتماع، والله أعلم. فسجَّل لهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾، وفي هذا مقابلةٌ لنسيان المنافقين لله ونسيان الله تعالىٰ للمنافقين.

ثم أتىٰ بالفاصل بما يناسب صفات الله تعالىٰ، علىٰ صورة تعليل لما تقدَّم، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ لا يُغْلَبُ علىٰ أمره، ولا يمتنع عليه شيءٌ من وعده ووعيده، ﴿حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ لا يضع شيئاً منها إلا في موضعه.

ثم فصَّل مُجمَلَ قوله: ﴿سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ ليُقابل ما تَوعَّد به المنافقين والكفار، ويفسِّر بمفهوم المقابلة معنىٰ نسيانه لهم، فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ من تلك الجنات شأناً، وأعلىٰ نعيماً وسعادة. والرضوان هو: النوع الكامل من الرضا الذي لا يعقبه سخط، و﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾، اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾.

وبعد هذا البيان أمر الله نبيَّه ﷺ أن يجاهد هؤلاء المنافقين لقمع شرِّهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: جاهِدْهُم أشدَّ المجاهدة.

ثم بيَّن جزاءهم الأخرويَّ، فقال: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ مصيرُهم هذا.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «جهاد الكفار بالسيف والسِّنان، وجهاد المنافقين بالحجة والبرهان وبغلظة اللسان»[1]. وهذه السياسة الحكيمة كانت سَبَبَ توبة كثير من المنافقين.

ثم عاد إلىٰ النَّسْق السابق، وهو سَرْد قبائحهم وجرائمهم الموجبة لهذين الجزاءين

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤: ٣٥٨- ٣٥٩).

الدنيوي والأخروي، وابتدأ بما يتضمَّن إعادة الكلام عن استهزائهم السابق الذي اعتذروا عنه بما فيه كفر وفسوق، وهو الخوض واللعب، وإنما كرَّره للمبالغة في التأنيب والتفظيع، فقال: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ أي: وأظهروا الكفر بعد إظهارِهم الإسلام. ومن ذلك ما روي: أنَّ رسول الله ﷺ أقام في غزوة تبوك شهرَيْن ينزل عليه القرآن، ويعيب المنافقين المتخلِّفين، فيسمعه مَنْ كان منهم معه، فقال بعضهم: لئن كان حقاً ما يقوله محمد عن إخواننا الذين خلَّفناهم، وهم ساداتنا وأشرافنا، فنحن شرٌّ من الحمير. فبلغ ذلك النبي ﷺ وأرسل إليه، فحلف بالله ما قال، وأنكر مقالته هذه التي تدلّ علىٰ تردُّده بصدق محمد ﷺ[1].

ومن ذلك قول عبد الله بن أُبي في غزوة بني المصطلق الذي حكاه الله عنه في سورة المنافقين بقوله: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، ولما بلغ قولُه رسولَ الله ﷺ أنكره وحلف أنه ما قال[2].

ثم تابع الكلام عن جرائمهم، فقال: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾، وهو اغتيال الرسول ﷺ في العقبة مُنصَرَفَهُ مِن تبوك، وذلك أنّه توافق خمسة عشر منهم علىٰ أن يزدحموا عليه إذا تَسَلَّمَ بالليل، فأخبره جبرائيل بذلك، فاحتاط للأمر[3].

---

(١) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٨٣٠٣). والقائل هو الجُلاس بن سويد.

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٣٥١٨)، ومسلم (٢٥٨٤)، عن جابر.

(٣) رواه أحمد (٢٣٧٩٢)، عن أبي الطفيل: «لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أمر منادياً فنادىٰ: إن رسول الله أخذ العقبة، فلا يأخذها أحد، فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة، ويسوق به عمار، إذ أقبل رهط متلثمون علىٰ الرواحل، غشوا عماراً وهو يسوق برسول الله ﷺ، وأقبل عمار يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله ﷺ لحذيفة: «قُدْ، قُدْ»، حتىٰ هبط رسول الله ﷺ، فلما هبط رسول الله ﷺ نزل ورجع عمار، فقال: «يا عمار، هل عرفت القوم؟» فقال: قد عرفت =

ثم شنّع عليهم عملهم هذا الذي قابلوا به نِعَمَ الله عليهم بوجود رسوله ﷺ بين ظهرانَيْهم، حيث اغتَنَوْا بعد فقر، وظهروا بعد خمول، فقال: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ ومنها الغنائم. وفي صيغة هذا التعبير: ما يشبه النوع البديعي الذي يسمُّونه: طريقة تعقيب المدح بما يشبه الذم، أو العكس. ومن صُوَره: أن يُؤْتىٰ بأمر منفي، ثم يُؤْتىٰ بأداة استثناء، فيَتوهَّمُ السامعُ أن يؤتىٰ بشيء يُستثنَىٰ من المنفي، ولكن المتكلم يأتي بشيء موافق للمنفي، كما في هذه الصورة، حيث أتىٰ بما يُسخِّفُ الانتقام ويُؤنِّبُ عليه، والغرض منه هنا المبالغة في التشنيع. أي: لم يكن من وجوده ﷺ بينهم إلا أنهم نالوا كلَّ خير وسعادة من الغنىٰ وحسن الحال، فماذا ينقمون عليه؟

وبعد أن فضح مَساوِيَهم، وسَرَد جرائمهم؛ فَتَحَ لهم باب التوبة، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، ووعدهم إذا تابوا، وتوعَّدهم إذا أصرُّوا علىٰ هذا النفاق، فقال: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ﴾ من هذا النفاق ﴿يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: في الدنيا والآخرة. وقد حذفه اعتماداً علىٰ مجيئه في قوله: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ﴾ عما دُعُوا إليه من التوبة ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾ أي: لا يجدون حينئذ في كل

= عامة الرواحل والقوم متلثمون، قال: «هل تدري ما أرادوا؟» قال: الله ورسوله أعلم، قال: «أرادوا أن ينفروا برسول الله ﷺ فيطرحوه» قال: فسأل عمار رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: نشدتك بالله، كم تعلم كان أصحاب العقبة، فقال: أربعة عشر فقال: إن كنت فيهم فقد كانوا خمسة عشر، فعذر رسول الله ﷺ منهم ثلاثة قالوا: والله ما سمعنا منادي رسول الله، وما علمنا ما أراد القوم، فقال عمار: أشهد أن الاثني عشر الباقين حَرْبٌ لله ولرسوله في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد. قال الوليد: وذكر أبو الطفيل في تلك الغزوة أن رسول الله ﷺ قال للناس، وذكر له: أن في الماء قلة، فأمر رسول الله ﷺ منادياً فنادىٰ: «أن لا يرد الماء أحدٌ قبل رسول الله، فورده رسول الله ﷺ، فوجد رهطاً قد وردوه قبله، فلعنهم رسول الله ﷺ يومئذ». وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦: ٢٨٩): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

الأرض مَنْ ينصرهم ويُخَلِّصهم من ذلك العذاب، فقوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تمكينٌ وإيغالٌ لنفي النصير.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

ثم بيَّن حال طائفة أخرىٰ من أولئك المنافقين، فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وأعاد اللام في «لنكوننّ» لتأكيد العَزْم علىٰ الاستعانة والتوسّل بفضل المال إلىٰ الاستقامة علىٰ منهج الصلاح، ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

والآية تُلهِمُ ما كان قد عاد إلىٰ أهل المدينة من الخيرات والبركات من جرَّاء الهجرة النبوية والحركة الإسلامية، ولكن هؤلاء المنافقين منهم قابلوا الإحسان بالإساءة، وشاغبوا وأفسدوا علىٰ الدعوة سراً، ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ الله، أي: جَعَل عاقبةَ أمرهم ﴿نِفَاقًا﴾ راسخاً ﴿فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ للحساب أو بالموت. والمراد: بيان منتهىٰ الغاية التي لا رجاء معها للتوبة. وإنما رَسَخَ هذا النفاقُ فيهم ﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾، وذلك بحَسَب سُنَّة الله في خَلْق الإنسان وجِبِلَّتِه، حيث يكون لأعماله المستمرَّة أثرٌ راسخٌ في نفسه، يَصعُبُ أو يستحيل تغييره.

ثم وبَّخهم على ذلك بقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾، فكيف يَكذِبون عليه فيما يُعاهِدونه به، وعلىٰ الناس فيما يحلفون عليه باسمه؟

ثم ذكر قبيحةً أخرىٰ أيَّد بفَحْواها دِقّةَ علم الله في أمرهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾[1]، وذلك أنَّ رسول الله ﷺ حثَّ الناس ذات يوم علىٰ الصدقة، فأتىٰ عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وقال: كان لي ثمانية آلاف، فأقرضتُ ربي أربعة، وأمسكت لعيالي أربعة، فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيتَ وفيما أمسكت»[2].

وتصدَّق عاصم بن عَدِيّ بمئة وسق من تمر.

وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع من تمر، وقال: أجَّرْتُ الليلة الماضية نفسي من رجل لإرسال الماء إلىٰ نَخْلِه، فأخذتُ صاعَيْن من تمر، فأمسكتُ أحدهما لعيالي، وأقرَضْتُ الآخر ربي. فأمر رسول الله ﷺ بوضعه في الصدقات.

فلمزهم المنافقون وقالوا: ما أعطىٰ عبد الرحمن وعاصم إلا رياء، وأما أبو عقيل فإنَّ الله ورسوله لغَنِيّانِ عن صاعه، ولكنه أحبَّ أن يُذكَرَ بنفسه ليُعْطَىٰ من الصدقات[3].

فقال تعالىٰ في بيان جزاء هؤلاء اللامزين الساخرين: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾، وهذا التعبير يُسمَّىٰ مُشاكَلَة، والمراد به جزاء الـمُماثَلَة، أي: جزاهم بمثل ذنبهم، فجعلهم

---

(١) أعاد ما سبق عنهم من اللمز في الصدقات، وزاد عليه في البيان، علىٰ نهج القرآن في ذلك، وذكر نوعاً آخر منه. (المؤلف).

(٢) رواه البزار في «مسنده» (٨٦٧٢)، وفيه: عندي أربعة آلاف؛ ألفان أقرضهما ربي، وألفان لعيالي.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤: ٣٩١).

سخرية للمؤمنين وللناس أجمعين، بفضيحته لهم في هذه السورة ببيان هذا الخزي وغيره من مخازيهم وعيوبهم، ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

ثم بيَّن تعالىٰ أمْرَهم في حكمه عليهم، فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، وعدد «السبعين» في عُرف العرب بمعنىٰ الكثرة، فليس المراد به العدد المعيَّن، وليس له مفهوم مخالفة، والمعنىٰ: مهما تُكثِرْ من الاستغفار لهم فلن يُستَجابَ لك فيهم. والأمر هنا بمعنىٰ الخبر، (كما جاء في الفقرة السادسة، من المادة التاسعة، من المقدمة السادسة). والظاهر أنه ﷺ كان يستغفر لهم رجاءَ أن يهديَهم الله فيتوب عليهم، ويغفر لهم، كما كان يدعو للمشركين كلَّما اشتدَّ إيذاؤهم له، ويقول: «اللهم اغفِرْ لقومي فإنهم لا يعلمون»[1].

وقد بيَّن سبب عدم مغفرته لهم بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ أي: جَرَت سُنَّته في الراسخين في فسوقهم وتمرُّدهم أن يفقدوا الاستعداد للتوبة والهداية إلىٰ الإيمان.

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢)، من حديث ابن مسعود.

ثم أعاد الكلام عن الذين تخلَّفوا وظلُّوا في المدينة، وبيَّن للرسول ما يجب أن يُعامِلَهم به إذا رجع إلىٰ المدينة، فقال: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾، والخِلافُ: مصدر، واستُعمِلَ ظرفاً بمعنىٰ: بَعْد، أي: فرحوا بذلك ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وحرَّضوا علىٰ ذلك، ﴿وَقَالُواْ﴾ لإخوانهم في النفاق: ﴿لَا تَنفِرُواْ﴾ معه ﴿فِي ٱلْحَرِّ﴾، يقولون ذلك تثبيطاً لهم، أو تثبيتاً لنفاقهم وإغراءً عليه، وتواصياً فيما بينهم.

فأمر الله سبحانه رسوله ﷺ بتسفيه أحلامهم، وتسخيف نظراتهم في ذلك، وسبكه علىٰ التوعُّد لهم، فقال: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾، ثم قرَّعهم بقوله: ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾.

ثم توعَّدهم مُبيِّناً ما يكون من عاجل أمرهم وآجله، فقال: ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا ﴾، ثم بيَّن أن هذا البلاء جرُّوه علىٰ أنفسهم بكسبهم، فقال: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾، وجزاء كل عمل من جنسه، وكما يَدينُ المرء يُدان.

ثم بيَّن تعالىٰ ما يجب أن يُعامَلوا به من الجزاء في الدنيا، وضمَّنه التحذير من أن يشاركوه في قتال، فقال: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ ﴾ أي: ردَّك من سفرك ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ وإنما لم يقل: (فإن رجعك الله إليهم)؛ لأنَّ منهم مَنْ تاب من النفاق، ومنهم مَنْ خَرَج معه، وما كلُّ مَنْ تخلَّف كان منافقاً. فأراد بالطائفة: المُصِرِّين علىٰ النفاق، أي: إن رجعتَ إلىٰ هؤلاء، ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ ﴾[1] معك في غزاة أو غير غزاة مما تخرج لأجله، ﴿فَقُل﴾ لهم: ﴿لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا﴾ أي: لن يكون لكم شرف صحبة الإيمان بالخروج معي، ﴿وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا﴾ لا بالخروج والسفر إليه، ولا بالدفاع له.

---

(١) عاد رسول الله ﷺ للمدينة، وهو يفكّر في أمر الروم، لِعِلْمِه أنّهم لم يعدلوا عن غزو المسلمين، فجهّز الجيش الذي أنفذه بعد وفاته ﷺ خليفتُه الأول أبو بكر الصِّدّيق رضي الله عنه. (المؤلف).

ثم بيَّن سبب هذا الحرمان من شرف الخروج معه، فقال: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: إنكم رضيتم لأنفسكم بخِزْي القعودِ أوَّلَ مرَّة دُعيتُم فيها إلىٰ الخروج، واستُنْفِرتُم فلم تَنْفِروا، عصياناً لله ولرسوله، ﴿فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ من الصبيان والعَجَزة والنساء. وفي صورة الكلام تهجينٌ لهم وتحقير.

ثم بيَّن تعالىٰ حُكْمَه في شأن أمواتهم بعد ما بيَّنه في شأن أحيائهم، فقال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ أي: خارجونَ عن حظيرة الإيمان.

ثم هوَّن أمر رؤسائهم وما يَعْتزُّون به من أموالهم وأولادهم، وأومأ بوعده له بالظفر عليهم، فقال: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ حيث يتعبون في جمعها، ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ فتكون عليهم وبالاً.

وقوله: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ﴾ عبارةٌ من عبارات التهوين، ولونٌ من ألوان التزهيد في الشيء والاستهانة به، لا يُرادُ به حقيقة معناه، إذ ليس هذا من شأنه ﷺ.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾.

قال في «المنار»: ثم بيَّن حالة المنافقين في أمر الجهاد بالمال والنفس الذي هو أقوىٰ آيات الإيمان بالله ورسوله وما جاء به، وما يقابل ذلك من حال المؤمنين الصادقين، وأثر تلك الحالتين في القلوب الذي هو مناط الجزاء، فقال: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ

وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ﴾ والمراد من السورة: آيات في موضوع خاص في السورة؛ مِنْ ذِكْرِ الكُلِّ وإرادةِ الجُزْء، وهذه الآية معطوفة علىٰ ما قبلها من خبر المنافقين الذين تخلَّفوا عن الجهاد للجمع بين تلك الحالة الخاصَّة، وهذه الشنشنة[1] العامة. والمعنىٰ: أنه كلما نزلت سورة تدعو الناس ببعض آياتها إلىٰ الإيمان بالله والجهاد مع رسوله ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾[2] أي: استأذنك أولو المقدرة علىٰ الجهاد بأموالهم وأنفسهم، بالتخلُّف عن القتال، ﴿وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: الضعفاء والمرضىٰ. وفي هذه العبارة تحقيرٌ لهم وحكايةٌ للسان حالهم.

ثم بالغ في ذلك بقوله: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ أي: النساء والأطفال، ثم بيَّن أنَّ منشأ ذلك فيهم إنما هو انطباعهم علىٰ الكفر، فقال: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بحَسَب سُنَّة الله تعالىٰ في أنَّ الذين ترسخ في نفوسهم الصفات الرذيلة يفقدون الاستعداد لأضدادها، وإذا وَصَل إلىٰ سمعهم قولٌ مخالف لما هو دين لهم أو عادة، لا يتدبَّرونه ولا يرونه جديراً بالنظر والتفكير، ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ ما يُخاطبون به من ذلك، مهما كان أمرُه وشأنه من الوضوح والجلاء في الحقِّ والصواب.

ثم ذكر حالَ المؤمنين ومصيرَهم في مقابلة حالِ المنافقين ومصيرهم، علىٰ نهج القرآن في المقابلة، فقال: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ التي هي ثمرات الإيمان والجهاد؛ من شرف النصر ومحْو كلمة الكفر وإعلاء كلمة الله وإقامة الحق والعدل بدين الله والسيادة في الأرض، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾ الفائزون بسيادة الدنيا مع سعادة الآخرة، دون أولئك المنافقين الذين حُرِمُوا منهما بنفاقهم، وبما كان له من سُوء الأثر في أعمالهم وأخلاقهم.

---

(١) الشنشنة: الطبيعة والسجيّة «لسان العرب» (شنن).

(٢) تفسير «المنار» (١٠: ٥٠١).

ثم فسَّر أهمَّ ما في ذلك الفلاح، فقال: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، و﴿ذَٰلِكَ﴾ هو ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾، اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

وبعد أن بيَّن أحوال منافقي أهل المدينة، بيَّن أحوال منافقي الأعراب البدويين، فقال: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ أي: المعتذرون ﴿مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ في التَّخلُّف عن الخروج إلىٰ تبوك، ﴿وَقَعَدَ﴾ عن الخروج وعن المجيء للاعتذار ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ من الأعراب، أي: الذين أظهروا الإيمان بهما كذباً وإيهاماً، وهؤلاء هم المنافقون الأقحاح، قعدوا ولم يعتذروا، جرأة علىٰ الله تعالىٰ، فسجَّل عليهم بقوله: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾، فهذا الوعيد عامٌّ في المكذِّبين، وخاصٌّ ببعض المعتذرين، وهم الذين كان اعتذارهم نفاقاً.

ثم بيَّن تعالىٰ الأعذار الشرعية المقبولة في التَّخلُّف؛ ليُعْلَم بُطلانُ ما عداها، فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ وهم الشيوخ والصبيان والنساء، ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ علىٰ أنفسهم إذا خرجوا للجهاد، ولا ما يتركون لعيالهم.

وكان المؤمنون حينئذ يُجهِّزون أنفسهم، فالفقير ينفق علىٰ نفسه بما يمكنه، والغنيُّ يُعاونُه ويُنفِقُ علىٰ نفسه وعلىٰ غيره بقدر سَعَته، كما فعلوا في غزوة تبوك، إذ لم يكن بَعْدُ بَيْتُ مالٍ يُنفَقُ منه علىٰ الغُزاة، وهذا العُذْر خاصٌّ، ويزولُ بوجود بيت مال للأمة يُنفَقُ منه عليهم. أي: ليس علىٰ هؤلاء ﴿حَرَجٌ﴾ وإثمٌ في القعود عن الجهاد ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ في الطاعة وأداء الأمانة بالقول والعمل، ولا سيما ما تقتضيه حالة الحرب.

ثم مكَّن هذا المعنىٰ بهذه الفاصلة، فقال: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ أي: إلىٰ مُؤاخَذَتِهم وإيقاعِهم في الحرج.

ثم قفَّىٰ علىٰ ذلك بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾، فهو يغفر لهم ما لا يَخْلو منه البشر من ضَعْفٍ في أداء الواجب، لا ينافي الإخلاصَ والنُّصحَ لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامَّتهم.

ثم خصَّ بالذكر مِن بين الذين لا يجدون ما ينفقون، زُمْرةً خاصةً منهم، جرىٰ لهم مع الرسول ﷺ ما ذكره سبحانه تشريفاً لهم، فقال: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ ولا ما يركبون.

ولما بيَّن أنَّ هؤلاء الأصناف ليس عليهم من سبيل، بيَّن مَنْ عليهم السبيل في مؤاخذتهم وإيقاعهم في الحَرَج، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ من النساء والأطفال، ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بحَسَب سُنَّة الله في أنَّ النفوس إذا أشبعت بالأخلاق الرذيلة تَفْقِدُ الاستعداد للأخلاق الفاضلة والإيمان الصحيح، ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾ شيئاً من ذلك، ولا يُدْرِكون كُنْهَ حالِهم، ولا سُوء مآلهم، ولا ما هو سبب ذلك من أعمالهم.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

ثم شَرَعَ في بيان ما سيكون من أمر المنافقين الذين تخلَّفوا في المدينة وما حولها عن غزوة تبوك، مع الرسول ﷺ والمؤمنين، بعد عودتهم إليهم، فقال: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي: لن نُصدِّقكم، كيف و﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ﴾ بوَحْيِهِ إلىٰ رسوله عن شيء ﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ التي تُسِرُّونها في ضمائركم، وهي مُخالِفةٌ لظواهركم التي تعتذرون بها، ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ وسيُعامِلُكم الرسولُ بما يأمره به الله، ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ الذي يعلم ما تُسِرُّون وما تُعلنون، وما تكتمون وما تُظْهرون، وتُحشرون إليه ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾، ويُحاسِبُكُم بما تستحقُّون.

ثم استأنف الكلام، وقال: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ وتسامحوهم، أي: سيؤكِّدون إليكم اعتذارهم بالأيْمان الكاذبة إذا رجعتم إليهم من سفركم، لأجل أن تُعْرِضوا عن عَتْبِهم وتوبيخهم، ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ إعراضَ إهانةٍ واحتقار، لا إعراض صَفْح وإعذار؛ ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ أي: قذر معنويٌّ يجب الإعراض عنه، تنزيهاً عن القرب منه.

ثم بيَّن جزاءَهم، فقال: ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾

أي: إنَّ أَخْذَهم بهذا العذاب أثرٌ لازم من آثار كسبهم، بحسب سنن الكون التي نظمها الله تعالىٰ.

ثم أعاد الكلام عن حَلِفِهم ليُرتِّب عليه ما يأتي، فقال: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ أي: فَرْضاً وتقديراً، وقد أعلمكم الله بحالهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ الخارجينَ عن نُور الفطرة ونظام الدين بسُوء صنيعهم، فما الذي يُجْديهم رضاكم نفعاً؟ وهذا لونٌ من ألوان تقرير وجوب الإعراض عنهم، وعدم الاغترار بمَعَاذيرهم الكاذبة، وأن لا يُجالسوهم ولا يكلِّموهم. ما أعظمَ هذا الوعيد الرهيب! وما أشنعَ هذا الموقف والتهديد المخيف! أعاذنا الله.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾.

ثم استأنف الكلام عن حال سكان البوادي من المنافقين، فقال: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ أي: من منافقي سكّان المدينة وغيرها من القرىٰ، وذلك بمقتضىٰ البداوة؛ لأنها تُغَلِّظُ الطباع وتُقَسِّي القلوب. وسكانُ البدو أقلُّ ذَوْقاً وأدباً من سكان الحضر، فهم محرومون من وسائل العلوم الكسبية والثقافة العقلية، ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ أي: أجدرُ بالجهل لحقيَّة هذه الشريعة من أهل الحضر المزوَّدين بالثقافة وتهذيب العقول، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ بأمور عباده وما يحكم به عليهم، وما يُشرِّعه لهم، وما يجزيهم به.

ثم تابع الكلام ببيان صنف آخر من منافقي الأعراب، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ أي: ما يُؤْخَذُ منه من الزكاة، وما ينفقُه في سبيل الله والجهاد فيه، إنما يعدُّه مَغْرَماً وضريبةً إجباريَّة، لا يرجو من ورائه ثواباً عنه الله؛ لأنه لا يُؤْمن بالبعث والجزاء، فينفق ما ينفقه في سبيل الجهاد ضريبةً وتفادياً، ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ أن تدورَ عليكم ليتخلَّصوا منكم ومن التكاليف.

وقوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ يحتمل أن يكون دعاءً عليهم بما يتربَّصون بالمؤمنين، أو خبراً بحقيقة حالهم معهم، أو المعنيين معاً.

ثم ختم الكلام عنهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ لا يخفىٰ عليه اعتقادهم ونيَّاتهم، وسَيُجازيهم علىٰ ذلك.

ثم بيَّن حال المؤمنين من الأعراب، علىٰ نهج القرآن في المقابلة بين الصنفين، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، وقد قابل بهذا تَربُّص المنافقين الدوائر بالمؤمنين؛ لأنه يدلُّ علىٰ كفر المنافقين وعدم إيمانهم باليوم الآخر، وقد قابل اتِّخاذهم ما ينفقون مَغْرماً بقوله: ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: يتَّخذ ما يُنفِقُه وسيلةً لأمرين عظيمين؛ أولهما: القُربات والزُّلفىٰ عند الله، وثانيهما: صلوات الرسول، أي: أدعيته لهم ورضاؤه عنهم وثناؤه عليهم؛ لأنه ﷺ كان يدعو للمتصدِّقين ويستغفر لهم. ولم يثبت بالنصِّ انتفاع أحد إلا بالدعاء، وما يكون المرء سبباً فيه؛ كالولد الصالح، والسُّنَّةِ الحسنة يُتَّبَعُ فيها. هذا ما قاله صاحب «المنار»[1].

ولكن جاء في بعض الآثار انتفاع الميِّت بصدقة الغير عنه، وثواب قراءته له، ولا يعارضه انقطاع عمل نفسه «إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح

---

(١) (١١: ١٠).

يدعو له»[١]؛ لأن المراد به أنه لم يَبْقَ له عمل نفسيّ إلا من هذه الثلاث، ولم يُـرَدْ أنه لا يـجوز التبرُّع له، فقد تبرَّع رجل بوفاء دينارين عن ميّت، فقبله النبي ﷺ وصلىٰ علىٰ الميت[٢].

وبعد أن أثنىٰ علىٰ مُؤْمني الأعراب واتِّخاذهم ما ينفقون قُربات، سَجَّل سبحانه بقَبول هذه القربـة، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾، ثم بيَّن جـزاءهم علىٰ ذلك، فقال: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ الخاصَّة فيمن رضي عنه.

ثم ذكر ما هو كالتَّعليل، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾ يَغْفِرُ للمُخْلِصين ما يقترفون من تقصير، ويرحم الصَّادقين في إيمانهم.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

ثم أردف الكلام عن مُؤْمني أهل البادية بالكلام عن مُؤْمني أهل الحضر؛ مقابلةً لـما تقدَّم من الكلام عن منافقي هذا الصنف، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ فقد كان لجميعهم في نُصرته ﷺ علىٰ أعدائه الألداء عملٌ يستحقُّ كُـلَّ إكبار وإجلال، حتىٰ ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بما وفَّقهم له وأسْبَغَه عليهم من نِعَمِه الدينيَّة والدنيويَّة، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا[٣] ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾،

---

(١) رواه مسلم (١٦٣١)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أبو داود (٣٣٤٣)، والنسائي (١٩٦٢) عن جابر بن عبد الله.

(٣) جاءت «تحت» هنا بدون (مِن)، وفي أمثالها بـ(من)، ويظهر لي أنها كما تأتي بمعنىٰ الأسفل تأتي بمعنىٰ الأمام، ولعلَّ المراد بإحدىٰ الصيغتين: أنها أنهار وجداول تجري تحت الأشجار وفي=

و﴿ذَٰلِكَ﴾ هو ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾، اللهمَّ اجعلنا في صُحبتهم يا أرحم الراحمين.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ ذكر المنافقين، وبيَّن منهم صنفاً ماهراً في صنعة النفاق بحيث لا يُعرَفُ منه ذلك ولا يُدرَك، فقال: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ الحضريين منافقون، ﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ أي: مَرَنوا عليه وحذقوه، حتىٰ بلغوا الغاية من إتقانه، بحيث لا يشعر أحدٌ به، حتىٰ خَفيَ علىٰ فِطْنةِ الرسول ودِقَّةِ فِراسته، لذلك قال تعالىٰ له: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾.

ثم ذكر حُكْمَهُ فيهم، فقال: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ في الدنيا؛ إحداهما: فضيحتهم هذه، والثانية: ما سيصيبهم من المصائب، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ﴾ في الآخرة ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾، أعاذنا الله، وذلك لِـمَا كان لهم من أذًىٰ خفيّ وفساد بليغ.

= ثناياها، وبالآخرة: أنها أنهار عظيمة مستقلة تجري أمام الجنان، فيجمع فيها بين نضارتين: نضارة الجنات ونضارة الأنهار، ويجوز أن تكون الجنات أصنافاً بهذا الاعتبار، هذا رأي أراه. والله أعلم. علىٰ أنه يجوز أن تكون الصيغتان بمعنىً واحد، وقد جاء في القراءة الشاذة: (من تحتها). (المؤلف).

ثم ذكر قسماً ثالثاً ليسوا من المنافقين ولا من المؤمنين السابقين الذين رضي الله عنهم، بل من المؤمنين الـمُذنِبين، فقال: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ وهم الذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك لا عن نفاق، وقد ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ حيث خرجوا مع النبيِّ ﷺ في سائر غزواته، وتخلَّفوا في هذه الغزوة، فقال تعالىٰ فيهم: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: هم محالُّ الرجاء لقَبول الله توبتهم؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ لمن تاب وعمل صالحاً ثم اهتدىٰ. وهؤلاء هم أو منهم الذين كانوا قد ربطوا أنفسهم في السَّواري، وحلفوا أن لا يُطلقونها إلا إذا أطلقها النبيُّ ﷺ، فقال: «لا أطلقها حتىٰ أُؤْمَر»[1]، فنزلت هذه الآية. والله أعلم.

ثم أردف الكلام بهذا البيان العام، وهو أنَّ الصدقة مُطهِّرة ومُزكّية للنفوس، ليتناول البيان شأن هؤلاء الـمُذنِبين الذين خَلَطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، إذ تَخَلَّفوا عن غزوة تبوك لجمع محصولاتهم، فرغبوا أن يتصدَّقوا ببعضها أو كلِّها، تكفيراً عن ذنبهم المسبَّب عنها.

وقد جعل ذلك حكماً عاماً عقَّبَ به الخاصَّ ليشمله وغيرَه، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي: المؤمنين بما فيهم هؤلاء المذنبون ﴿صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ من دَنَس البخل والطمع والأَثَرة، ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادْعُ لهم وأَثْنِ عليهم، ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾ أي: دعاءَكَ المقتضي لرضاك عنهم وتقديرك لصدقتهم وثنائك عليهم ﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ تَسْكُنُ به نفوسُهم وترتاح؛ لأنه من فصيلة الشكر والاعتراف بالفضل، وهو أمرٌ ترتاح له النفوس حتىٰ تتوسَّع رغبتها في الأعمال، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لدعائك سماعَ قَبول وإجابة، ﴿عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ بما فيه من الخير والمصلحة.

---

(١) رواه بالمعنىٰ الطبريُّ في «تفسيره» (١١: ٦٥٦) والذي ربط نفسه بالسارية أبو لبابة.

ثم زاد في التنويه بشأن التوبة والصدقة وكونهما مُطهِّرتَين للنفوس، فقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ لتتمَّ بذلك توبتُهم وتُغْسَلَ حَوْبتُهم. وفي التعبير بأَخْذِ الله للصدقات ترغيبٌ كبير في الإعطاء. وقال أبو مسلم ما معناهُ: إنما يقصد بهذه الجملة: ألم تعلم كذا، تقرير المعنىٰ لا الاستفهام الحقيقي. فهو يقرِّر بقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ...﴾ قَبولَ الله للتوبة وللصدقات. وينتظم في سياق هذا العلم قولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ أي: أنه هو الذي يقبل التوبة من كلِّ مُذنب يشعر بذنبه ويتوب عنه إلىٰ الله توبةً نصوحاً، وهو الرحيم للتائبين.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ...﴾ غيرَ عام، ولكنه خاصٌّ بهؤلاء المُذنِبين الذين اعترفوا بذنوبهم ورغبوا في إعطاء قسم كبير من أموالهم التي عاقتهم عن الخروج، عِوَضاً عن تخلُّفهم. والسياق خاصٌّ بهم، وهو الأقرب. والله أعلم.

وبعد أن بيَّن لهم شأن التوبة ترغيباً بها، رغَّبهم في العمل وأرشدهم إلىٰ طلب مَرْضَاةِ الله ورسوله والمؤمنين، بأعمالهم امتثالاً لأمر الله، فقال: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، وهذا معطوف علىٰ قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾، ومُكمِّل للغاية المتوخَّاة منه.

ثم ذكر لهم ما لذلك من الجزاء في الآخرة، فقال: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ بالبعث بعد الموت، ولا يخفىٰ عليه من أمركم شيء، ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ ويُجازيكم عليه.

وبعد أن ذكر المتخلِّفين المنافقين؛ المُعْتذرين منهم نفاقاً وغير المُعتذرين جرأةً علىٰ الله، وذكر القسم الأول من المُتخلِّفين غير المنافقين، وهم الذين خَلَطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، واعترفوا بذنوبهم، وندموا علىٰ تخلُّفهم، واستكانوا وتابوا، وزكُّوا توبتَهم

بالصدقة وطَلَب دعاء الرسول واستغفاره، فتاب الله عليهم؛ ذكر القسم الثاني منهم، وهم الذين حَارُوا في أمرهم ولم يعتذروا للرسول ﷺ، لأنهم يعتقدون أنْ لا عُذْرَ لهم، وأرجؤوا إظهار توبتهم، هَضْماً لأنفسهم، وإرجاءً إلىٰ أن ينزل الله حكمه فيهم، فأرجأ الله الحكم القطعيَّ في أمرهم للحكمة التي يأتي بيانها، فقال: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ مُشْتَقٌّ من: أرجىٰ، بمعنىٰ: أرجأ، أي: مُرْجَؤُون ومُؤَجَّلون إلىٰ أن ينزل حكم الله فيهم.

قال ابن عباس[١] ومجاهد وعكرمة والضحاك[٢] وغيرهم: هؤلاء هم الثلاثة الذين خُلِّفوا ـ أي: عن التوبة عليهم ـ وهم: مرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة مَنْ قعد، كَسَلاً ومَيْلاً إلىٰ الراحة وطِيب العيش تحت ظلال المدينة الوارف، لا شكّاً ولا نفاقاً، فكانت طائفة منهم ربطوا أنفسهم بالسواري، كما فعل أبو لبابة وأصحابه بعد أن رجع النبي ﷺ من غزوة تبوك حتىٰ تاب الله عليهم[٣]، وطائفة لم يفعلوا ذلك، وهم هؤلاء الثلاثة

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٠: ١٩٥).

(٢) روىٰ هذه الآثار الطبري في «تفسيره» (١٤: ٥٤٥-٥٤٦).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤: ٤٤٨-٤٤٩)، عن ابن عباس قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ١٠٢]، إلىٰ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وذلك أن رسول الله ﷺ غزا غزوة تبوك، فتخلف أبو لبابة وخمسة معه عن النبي ﷺ، ثم إن أبا لبابة ورجلين معه تفكروا وندموا، وأيقنوا بالهلكة، وقالوا: «نكون في الكِنِّ والطمأنينة مع النساء، ورسول الله والمؤمنون معه في الجهاد! والله لنوثقن أنفسنا بالسواري، فلا نطلقها حتىٰ يكون رسول الله ﷺ هو يطلقنا ويعذرنا»، فانطلق أبو لبابة وأوثق نفسه ورجلان معه بسواري المسجد، وبقي ثلاثة نفر لم يوثقوا أنفسهم. فرجع رسول الله ﷺ من غزوته، وكان طريقه في المسجد، فمر عليهم فقال: «من هؤلاء الموثقو أنفسهم بالسواري؟» فقالوا: هذا أبو لبابة =

المذكورون[١]، ولم يعتذروا لأنهم لا عُذْرَ لهم، فنزلت توبة أولئك وأُرْجِئَتْ توبةُ هؤلاء، حتىٰ نزلت آيتا التوبة في حقِّهم بعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبت، إذ قُوبلوا من النبيِّ ﷺ والمجاهدين بالإهمال والمقاطعة، حتىٰ قاطعتهم نساؤهم، وظَلُّوا مُقاطَعين نَحْواً من أربعين يوماً، لا يكلِّمهم أحد.

وهذه الآية معطوفة علىٰ قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ...﴾ أي: وثَمَّ أناسٌ آخرون من المتخلِّفين غير المنافقين، مؤخَّرون لحكم الله في أمرهم، أو لأمره لرسوله بما يعاملهم به، ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾، وحكمة هذا الإبهام: إثارةُ الهمِّ والخوف في قلوبهم لِتَصحَّ توبتهم، وليكونوا عبرةً لغيرهم، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بحالِ عباده ونيَّاتهم، ﴿حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ بما يشرعه لهم ويحكم به عليهم، مما يفيدهم ويصلح أحوالهم وأعمالهم، ومن ذلك إرجاء أمر هؤلاء إلىٰ وقت آخر.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ

= وأصحاب له، تخلفوا عن رسول الله ﷺ، فعاهدوا الله أن لا يطلقوا أنفسهم حتىٰ تكون أنت الذي تطلقهم وترضىٰ عنهم، وقد اعترفوا بذنوبهم. فقال رسول الله ﷺ: «والله لا أطلقهم حتىٰ أومر بإطلاقهم، ولا أعذرهم حتىٰ يكون الله هو يعذرهم، وقد تخلفوا عني ورغبوا بأنفسهم عن غزو المسلمين وجهادهم!» فأنزل الله برحمته: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ١٠٢]. و«عسىٰ» من الله واجب، فلما نزلت الآية أطلقهم رسول الله ﷺ، وعذرهم، وتجاوز عنهم.

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩)، عن كعب بن مالك، وهو حديث طويل.

أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

ثم أعاد الكلام عن المنافقين، علىٰ نهج القرآن في تفريق الموضوع الواحد والعودة إليه المرَّة بعد المرَّة تجديداً للذكرىٰ والعظة، فذكر لهم قبيحة أخرىٰ من أشنع قبائحهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾، وكانوا ـ علىٰ ما يذكره المفسِّرون ـ اثني عشر رجلاً من منافقي الأوس والخزرج. ولعلَّ بعض ضعفاء الإيمان كانوا قد شايعوهم مغرورين، لا يعلمون من مقاصدهم الخبيثة شيئاً.

وقد بيَّن سبحانه أنَّ الأغراض التي بَنَوه لأجلها أربعة:

الأول: أنهم اتَّخذوه لمضارَّة المؤمنين. وقال المفسِّرون: إنهم أرادوا أن يضرُّوا به أهل مسجد قباء المجاور له، وكان قد بناه النبي ﷺ حين مَقْدَمِهِ من مكة مهاجراً، وقبل وصوله إلىٰ المدينة. فبنىٰ المنافقون بجواره هذا المسجد مُضَادَّةً له وللمصلِّين فيه.

والثاني: الكفر، لأنهم يتمكَّنون في مسجدهم هذا من ترك الصلاة مع خَفَاء ذلك علىٰ المؤمنين، ومن التَّشاور بينهم في الكيد لرسول الله ﷺ وغير ذلك.

والثالث: التفريق بين المؤمنين الذين كانوا يصلون جميعاً في مسجد قباء.

والرابع: الإرصاد لِـمَنْ حارَبَ اللهَ ورسولَه، فيجد في هذا المسجد له عيوناً وأعواناً ومكاناً يأوي إليه ويدبر فيه المكايد، حتىٰ كان فيه جواسيس للروم وجيوشهم.

ثم قال تعالىٰ في إتمام البيان عنهم: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ﴾ ببنائه ﴿إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ من

تيسير صلاة الجماعة علىٰ الضَّعَفَة والعَجَزَة ومَنْ يحبسهم المطر، يحاولون بذلك إقناع الرسول ﷺ ليُصَلِّي لهم فيه، ويُبعِدون الشبهة عنهم، فقال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

ثم بيَّن حكمه فيه، فقال: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾[1]، وهذا نهيٌ للرسول ﷺ ـ وللمؤمنين بالتَّبع ـ عن الصَّلاة فيه. وقد قابل ذلك بقوله: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾، والظاهر أنَّ المراد به مسجد قُباء، ولكن جاء في الأثر: أنه مسجد النبي ﷺ[2]. ويجوز إرادة الجنس المرعي فيه هذا الوصف، فيشمل كلاً منهما لأنه أُسِّس علىٰ التقوىٰ.

وصيغة ﴿أَحَقُّ﴾ لا يراد بها التفضيل، ولكن المبالغة في الاستحقاق.

وقد علَّل ذلك بقوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾، والتَّطهير صيغة مبالغة تشمل الطهارتين النفسية والبدنية، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ ويكره المتدنِّسين المنافقين. والظاهر من السياق أنَّ المراد من هذا التطهير ما يقابل صفات أولئك المنافقين أهل مسجد الضرار، ويجوز أن يشمل الطهارة المادِّيّة.

ثم أردف الكلام بوعد المؤمنين ووعيد المنافقين، فقال: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ

---

(١) لم يكد النبي ﷺ يتلقىٰ عن الوحي هذه الآيات بحق مسجد الضرار حتىٰ دعا جماعة من أصحابه وقال لهم: «انطلقوا إلىٰ هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وحرقوه». ولم يلبثوا إلا قليلاً حتىٰ عادوا بعد أن وصلوا بتحريقه وهدمه إلىٰ الأرض، وتفرَّق عنه مُنشِئُوه المنافقون. (المؤلف).
والحديث رواه الطبري في «تفسيره» (١٤: ٤٦٨).

(٢) رواه النسائي في «السنن الكبرىٰ» (١١٢٢٨)، عن أبي سعيد الخدري أنه قال: تمارىٰ رجلان في المسجد الذي أسس علىٰ التقوىٰ من أول يوم، فقال رجل: هو مسجد قباء، وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «هو مسجدي هذا».

عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾[1]، ثم علَّل كفرهم هذا بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٩﴾ أي: مَضَتْ سُنَّته تعالىٰ أنَّ من انطبع علىٰ الكفر والظلم حتىٰ أصبح ذلك مَلَكَةً له وخُلُقاً، لا يهتدي إلىٰ الحق والإيمان.

ومن مباحث اللفظ: أنه استعار المكانَ القويَّ للتقوىٰ استعارةً مكْنية، واستعار شفا جرف هارٍ للكفر والنفاق استعارةً تمثيلية، وعقد المشابهة بينهما. وقوله: ﴿فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ ترشيحٌ للبناء والنفاق معاً.

ثم صوَّر ثباتَ كفرِهم ونفاقِهم هذا ورسوخَه في قلوبهم تصويراً بليغاً، أدمج فيه شأن بنيانهم هذا بعد أن أمر رسوله ﷺ بتخريبه، فقال: ﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ﴾ ذكرَ البنيانَ وأرادَ سببَه بطريقة المَجَاز المُرْسَل، أي: سبب بنيانهم وهو الكفر والنفاق ﴿رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡ﴾ إلا بحيث لا يبقىٰ لها قابليَّة الإدراك؛ يُبيِّن بذلك أنَّ نفاقهم وكُفْرَهم راسخٌ فيهم لا يمكن تحويلهم عنه، فسيموتون وهم كفار، وخاصَّة المعنىٰ: لا يزال كفرهم ونفاقهم قائماً في قلوبهم حتىٰ تنقطع قلوبهم بالفناء، أو المعنىٰ: لا يزال البناء عالقاً في قلوبهم بعد أن أمر النبي ﷺ بتخريبه إلىٰ أن تَقَطَّعَ قلوبهم بالفناء، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١١٠﴾ فحَكَم عليهم هذا الحكم بعلمه وحكمته.

وقال الزمخشري: المعنىٰ: لا يغيب عن قلوبهم ولا يضمحلُّ أثـرُه إلا أن تَقَطَّعَ

---

(١) في الكلام طيٌّ واختصار وحَمْلٌ علىٰ المعنىٰ، علىٰ نَهْج إيجاز القرآن في أساليبه. ومُحَصَّل المعنىٰ: أنّ من عَمِلَ للتقوىٰ والرضوان، كمَنْ أسَّس بنيانه علىٰ أساس مكين، ومَنْ عملَ مع الكفر والعصيان، كَمَنْ أسَّس بنيانه علىٰ شفا جرف هار؛ إذ عاقِبَتُه الانهيار في نار جهنم وبئس القرار. فإنّ هذا المعنىٰ بهذا الأسلوب البديع، وبطريقة المقابلة والاكتفاء. والاستفهام الإنكاري من أساليب القرآن ومسالكه البديعة في البيان. (المؤلف).

قلوبهم قطعاً وتَفَرَّقَ أجزاء، فحينئذ يسلون عنه، وما دامت سالمة فالريبة باقية متمكّنة فيها[١]. يريد: أن الشك والنفاق والحنق علىٰ الرسول وأتباعه متمكِّنة منهم حتىٰ الموت.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّآئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

وبعد بيان أحوال المنافقين بأنواعهم، وأحوال أصناف المؤمنين المقصِّرين، بيَّن حال المؤمنين حقَّ الإيمان من أيِّ ملة كانوا بصورة عامة، وما سينالونه من جزيل الإحسان، علىٰ طريقة المقابلة في القرآن، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ وهذا تمثيلٌ لإثابة الله المؤمنين علىٰ بَذْلِ أنفسهم وأموالهم في سبيله، ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾.

ثم أكَّد لهم هذا الوعد الكريم بقوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: أنه قد سجَّل لهم هذا الوَعْدَ الحقَّ في الكتب الثلاثة المنزَّلة علىٰ أشهر رسله.

ثم مكَّن ذلك بقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾؟

ثم زادهم تحسيساً بالفوز وبما يوجب المسرَّة، فقال: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى

---

(١) «الكشاف» (٢: ٣١٣).

﴿بَايَعْتُم﴾ الله ﴿بِهِۦ﴾، والاستبشار: هو الشعور بالفرح الذي تنبسط به بِشْرة الوجه فيتألَّق نوراً.

ثم أتىٰ بما يدلُّ علىٰ التحسيس والتنويهِ بعَظَمةِ ذلك الربح، فقال: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾.

وقد صوَّرت الآية وَعْدَ الله للمؤمنين بصورة عَقْدٍ بين بائع وهم المؤمنون، ومُشْتَرٍ وهو الله سبحانه، علىٰ مبيع هو أنفُسُ المؤمنين وأموالهم، وثمنٍ هو الجنة. وسواء في ذلك قَتلوا أو قُتلوا أو سَلِموا، وتُنوِّه بربح الصَّفقة والفوز للمشترين.

ثم وصف سبحانه هؤلاء المؤمنين الخُلَّص بصفاتهم التي ربحوا بها هذا الربح الوافر، فقال: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ﴾ لله، ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ في الأرضِ لغَرَض صحيح من علم أو عمل، كالجهاد في سبيل الله، ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ لله تعالىٰ في صَلَواتهم. والقرآن يذكر الصلاة تارةً بلفظها، وتارةً ببعض أركانها.

ثم تابع الوصف بقوله: ﴿ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ أي: شرائعه وأحكامه التي حدَّد فيها ما يجب وما يُحْظَرُ علىٰ المؤمنين.

ثم ختم السياق بما فيه مبالغةٌ في التوفيق بهذا الوعد الجليل، وتقريرٌ للأعين، وزفٌّ للبشرىٰ، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ أيها الرسول الأمين. ولم يذكر ما يُبشَّرون به لعِظَمِ شأنه.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ

﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾.

وبعد أن أتمَّ الكلام علىٰ البراءة من المشركين وبيان أسباب ذلك، وبيان أحوال إخوانهم المنافقين وما يتعلَّق بذلك، أردف السياق بهذا الحكم المتمِّم له، وهو النَّهيُ عن الاستغفار للموتىٰ منهم بدافع العطف والشفقة علىٰ القرابة والأعزاء، فقال: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ونفيُ الشأن هنا بمعنىٰ النَّهي، وهو أبلغ منه. والمعنىٰ: ما كان من شأن النبيِّ والمؤمنين ولا مما يجوز أن يقع منهم أن يستغفروا للمشركين، ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾، وذلك بموتهم علىٰ شركهم وكفرهم وضلالهم.

وكان ﷺ ـ والله أعلم ـ يستغفرُ لأبي طالب بعد موته، وبعضُ المؤمنين لآبائهم وأقاربهم المشركين[1]، فنهاهم الله عن ذلك. والآية تُلمع إلىٰ نهي المؤمنين أن يستغفروا لمن مات كافراً.

ثم أردف هذا ببيان صورة وقوع الاستغفار من إبراهيم عليه السلام لأبيه، تفهيماً للفرق بين الاستغفارين، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ فكان يرجو إيمانه، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ بموته علىٰ الكفر والشِّرك والضلال، ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ وترك الاستغفار له.

ثم مدحه بما هو مصدر ذلك منه، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾[2]، والأوَّاه:

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤)، عن المسيب بن حزن.

(٢) تُلهِمُ الآيات أن رسول الله ﷺ أراد أن يقتدي بقول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦]، فجاءت الآية مُبيِّنة للفرق بين الاستغفارين. ومحصَّله: أنّ إبراهيم عليه السلام إنما استغفر لأبيه =

كثير التَّأوُّه والتَّحسُّر والتألُّم علىٰ كل متوجّع وخاسر، ويطلق أيضاً علىٰ الخاشع كثير الدعاء والتَّضرُّع. والحليم: هو الذي لا يَسْتَفِزُّه الغضب، ولا يعبث به الطيش. وإنما كان إبراهيم عليه السلام يتأوَّه من خشية الله، ويتحسَّر علىٰ المشركين من قومه، ولا سيما أباه.

ثم أردف النهيَ المُعبَّر عنه بصيغة نفي الشأن في قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ...﴾، أردفه بما يُهدِّئ رَوْعَهم عما صدر منهم من الاستغفار لآبائهم وبعض أقربائهم المشركين قبل النهي، علىٰ نهج القرآن في تعقيب المنهيات بما يُؤْذِنُ بالعفو عما سلف، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ أي: ما يجب اتِّقاؤه من محظورات الدين، وقبل البيان لا يعدُّ ما صدر منهم ضلالاً، ولا يؤاخذهم عليه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ فلا يحكم إلا بالحق والعدالة. ومعنىٰ «يُضِلُّهم»: يجعلهم ضَالِّين[1].

= وهو حيّ، وهذا الاستغفار بمعنىٰ طلب التوفيق له إلىٰ الهداية والرشاد، فلما مات علىٰ الكفر قطع الاستغفار له. فتُلهم الآية أنه لا يجوز الاستغفار للكافر بعد موته، ولكن يجوز الاستغفار له وهو حي، إذ هو حينئذ بمعنىٰ طلب التوفيق من الله لهدايته وإرشاده ثم غفران ذنوبه، والله أعلم. (المؤلف).

(١) الأصح في تفسير هذه الآية وأمثالها أن يُقال: وما كان الله ليحكم علىٰ قوم بالضلال، بعد إذ حكم عليهم بالهداية، بسبب ما كسبوه من إيمان وعمل صالح.

فمعنىٰ (يُضِلّ): يحكم عليهم بالضلالة نتيجة امتحان إرادتهم الحرة في الحياة الدنيا، وهذا من التدبُّر الأمثل في إسناد الفعل إلىٰ ما يُسنَدُ إليه، إذ لا يشترط لصحة الإسناد أن يكون المُسنَدُ إليه فاعلاً للشيء الذي تضمَّنه الفعل أو موصوفاً به.

ولقد وقع الجبريُّون في أخطاء كثيرة في موضوع القضاء والقَدَر، تصوُّراً منهم أن إسناد الفعل إلىٰ المُسنَد إليه لا يُفهَمُ منه إلا معنىٰ القيام مباشرةً بالفعل، مع أنّ المُسنَد إليه قد يكون هو الدالَّ أو الداعيَ للقيام بما تضمَّنه الفِعل، كما في الآية ٦١ من سورة الأنعام، والآية ٨٥ من سورة طه، والآية ٣ من سورة الإنسان، وغير ذلك كثير. =

ثم ختم السياق بما يقرِّر حقيَّة ما جاء فيه، ويردُّ على ما تضمنَّه شركُ المشركين ونفاقُ المنافقين من إنكار التوحيد، ويُمهِّد لما يأتي بعده من العَفْو عن المقصِّرين، ويَدُلُّ على قدرة الله العظيمة، تحذيراً منه للمخالفين، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا شريكَ له في خَلْقهما، ولا في تدبير شؤونهما، ولا في التَّشريع الديني للمُكلَّفين فيهما، ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾ فلا تحيدوا عن هدايته فيما يأمركم به وينهاكم عنه، واحذروا عقابَه وعذابه في الحياة وبعد الممات.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

ثم أعاد الكلام عمَّا يتعلَّق بغزوة تبُوك، وقرَّر الحكم في حقِّ الآخرين الذين أرْجَأ الفَصْلَ في قَبول توبتهم، بعد أن أصدر عفواً عاماً في حقِّ المؤمنين المتثاقلين، والمؤمنين

= كما يضافُ الفِعلُ إلى المُسنَدِ إليه باعتبار أنه نسبَ ما تضمَّنه إلى فاعله أو مَنْ قام به، كقولك: برّأتُه؛ إذا نسبتَه إلى البراءة، وذكرتَ أنه بريء، ومثلُ ذلك: صوّبتُه، وخطّأتُه.

ومن الإسناد القرآني في حدود هذه العلاقة الكثير من الآيات، كما في الآية ٤٩ و ٨٨ من سورة النساء، والآية ٢٧ من سورة إبراهيم، إلى عشرات الآيات التى لا يُفهَمُ من إسنادها إلى الله عزّ وجلّ أنه هو المُجبر، وهذا وأمثالُه يُسقِطُ المفاهيم الجبرية المُفسِدة لمعنى القضاء والقَدَر الذي دلّت عليه النصوص الصريحة.

ويُنظَر لاستجلاء هذه القاعدة المهمة: كتاب «قواعد التدبُّر الأمثل» للمَيْداني رحمه الله تعالى، القاعدة السابعة والثلاثون، ص ٦٦٥-٦٨١.

المتخلِّفين النادمين، وعن النبيِّ ﷺ حين أذِنَ في التخلُّف للمنافقين، فقال: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾، وقد فسَّر ابن عباس هذه التوبة[١] بقوله تعالىٰ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، ﴿وَ﴾ تاب علىٰ ﴿ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾، وهي غزوة تبوك، فتَجاوز عن هَفَواتهم، لانغمارها في حَسَناتهم، ومن ذلك: تثاقلهم، وإنْ كان من أقلِّهم، حتىٰ وَرَد الأمر الحتم والتوبيخ علىٰ التثاقل. والعُسْرة: شدَّة الضيق. فقد كانت هذه الغزوة عسيرة جداً؛ لكثرة الروم وقوَّتهم، وقلة الزاد لنفاد التمر بحكم آخر السنة، وعزَّة الماء لبُعْد ما بين المائين في الطريق، وشدّة الحر، وقلَّة الرواحل، والنفير عام. لهذا كلِّه تثاقل حتىٰ أفراد من المؤمنين الخُلَّص، ولكن ما لبثوا أنْ نشطوا للنفير، فتاب الله عليهم، وتابَ عن المتخلِّفين النادمين من المؤمنين.

قال جابر بن عبد الله: كان فيها عُسْرة الظَّهْر، أي: ما يُحمَلُ عليه من الرواحل، وكان فيها عُسْرة الزاد وعسرة الماء[٢].

وقال ابن عباس لعمر رضي الله عنهم: حدِّثْنا عن شأن ساعة العسرة، فقال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلىٰ تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً فأصابنا فيه عطش شديد، حتىٰ ظننا أنَّ رقابنا ستقطع، حتىٰ إنْ كان الرجل لَيَنْحَرُ بعيرَه فيعصر فرثه، فيشربه، ويجعل ما بقي علىٰ كبده. فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله، إنَّ الله قد عوَّدك في الدعاء خيراً فادعُ لنا، فرفع يديه فلم يرجعهما حتىٰ كانت السماء قد أهطلت، ثم سكبت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر، فلم نجدها جاوزت العسكر»[٣].

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٨: ٢٧٨).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤: ٥٤٠).

(٣) المصدر السابق (١٤: ٥٤١).

ثم تعرَّض سبحانه لشأن المتثاقلين عن الخروج في هذه الغزوة، وهم الذين تباطؤوا ولم يَتخلَّفوا، وتابَ عليهم بعد خروجهم ونَيْلهم هذه المشقَّة، فقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ عن الصِّراط السَّويِّ بتثاقلهم عن النفير حين أمرهم الرسول ﷺ حتىٰ وَرَدَ الأمر الحتْم فيه، ووبَّخهم الله تعالىٰ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [التوبة: ٣٨] إلىٰ آخر الآيات الثلاث، وكذلك المتخلّفون النادمون من المؤمنين، وهم الذين خَلَطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، واعترفوا بذنوبهم تائبين، فأنَّبهم سبحانه، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧﴾ والرأفة: العناية بالضعيف والرفق به والعطف عليه، والرحمة أعم وأوسع.

﴿وَ﴾ كذلك تاب ﴿عَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ وهم المُرْجَوْن لأمر الله، الذين أُرْجِئَت توبتهم، وخُلِّفوا عمَّن اعتذروا وقُبِلَتْ توبتهم، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ خوفاً من أمر العاقبة، وتَحَزُّناً من إعراض النبي ﷺ عنهم والمؤمنين وهَجْرهم إيَّاهم في المجالسة والمحادثة والتحية، حتىٰ إن الرسول ﷺ ـ علىٰ رأفته بأصحابه وبرِّه بهم ـ ما عَادَ ينظر إليهم ولا يكلِّمهم وهم يطلبون دعاءه واستغفاره، ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ وهو أن يأتي الوحي بنتيجة أمرهم، ﴿ثُمَّ﴾ من بعد ذلك الضيق وتلك الشدَّة البالغة الحدّ نحواً من أربعين يوماً ﴿تَابَ﴾ الله ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: أنزل قَبول توبتهم.

وقولُه: ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾ متعلِّق بقوله: ﴿خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ ...﴾، والمعنىٰ: إنما خُلِّفوا إلىٰ هذا الحدّ ليتُوبوا إلىٰ الله توبةً نصوحاً. ويجوز أن يتعلَّق بـ﴿تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾، والمعنىٰ: تَابَ عليهم بعد هذا التضييق كي يتوبُوا من أن يعودوا لمثلها؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾.

وهؤلاء الثلاثة الـمُرْجَؤون هم: كعب بن مالك من بني سَلِمة، وهلال بن أمية من بني واقف، ومرارة بن الربيع من بني عمرو بن عوف. وقصَّتهم في كتب الحديث وكتب التفسير المطوَّلة، وهي من أروع القصص، وأعظم التأديب الإصلاحي، تظهر فيها عظمة نفوس أولئك العظماء الذين هم صفوة البشر ونَقَاوته.

ويجوز أن يكون إنما أضاف التوبة إلىٰ جميع المهاجرين والأنصار، ولم يخصّها بالمذنبين؛ اعتباراً للوحدة النوعيَّة المبنيَّة علىٰ التضامن في الأمة، بالتآمر والتناهي.

وللجَرْي علىٰ هذا النَّسَق أيضاً، ولتعقيب النقد بالإرشاد الذي هو من أساليب القرآن، قفَّىٰ بالخطاب الآتي الـمُوَجَّه إلىٰ ضُعفاء الإيمان الذين كانوا يسمعون للمنافقين، فيما كانوا يَبْغون من فتنة المؤمنين في التباطؤ والتثاقل عن غزوة تبوك، ويخوِّفونهم منها. فخاطب المؤمنين كلهم تعميماً للتأديب، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، وحثاً للعامة علىٰ اتباع الخاصَّة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ باتِّباع ما أمر به وتَرْكِ ما نهىٰ عنه، ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ الـمُخْلِصين لله ولرسوله كلَّ الإخلاص، دونَ المنافقين الذين يُريدونَ أن تدورَ عليكم الدوائر. وفيه تعريضٌ بالـمُتَخلِّفين من المؤمنين.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ

يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

ثم أتبع هذا بتأكيد مضمونه، وهو وجوبُ الغزو مع رسول الله ﷺ وخطر التَّخلُّف عنه إلا بإذنه، فقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: ما كان من شأنهم، وهم الذين بايعوا رسول الله علىٰ النُّصرة والمَنعة، ولا ينبغي لهم التَّخلُّف عن الغزو مع رسول الله، مُؤْثِرين أنفسهم علىٰ نفسه في الشدائد، أي: لا ينبغي ذلك لأحدٍ منهم.

ثم رغَّب بعدم التَّخلُّف وَجَعَل الكلام علىٰ طريقة التعليل، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ أي: عطشٌ، ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ أي: تَعَب، ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ أي: جوع، ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والجهادِ عن دينه وإعلاءِ كلمته، ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ من دخولهم بلدانهم واحتلالهم لها، ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ من جَرح أو قَتْل أو أَسْر، ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ يُجْزَوْنَ عليه بالثواب العظيم؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

ثم تابع البيان بقوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾، واسم التفضيل للمبالغة في الوصف لا للتفضيل.

ولما كان ما جاء عن توبيخ الـمُتَخَلِّفين وتَقْريعهم يحمل المؤمنين علىٰ أن لا يَتخلَّف أحدٌ عن الغزو حتىٰ في الغزوات التي لم يخرج فيها النبي ﷺ؛ أردف البحث بهذا البيان الاستثنائي، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾، أي: لا يجب علىٰ المؤمنين

ولا يُطلب منهم أن ينفروا جميعاً في كلِّ سريَّة تخرج للجهاد، فإنَّ هذه السرايا من فُروض الكفاية، لا من فُروض العين التي تجب علىٰ كلِّ فرد، وإنما يجب ذلك إذا خرج الرسول واستَنفَرَهم للخروج نفيراً عاماً.

ثم أردف السَّلب بالإيجاب، وبيَّن الحكم اللازم في ذلك، وقال: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ﴾ كالقبيلة وأهل المدينة ﴿طَآئِفَةٌ﴾ أي: جماعةٌ علىٰ قدر الحاجة.

ثم علَّل ما تضمَّنه الكلام من وجوب نفير البعض وبقاء البعض، بقوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي: لِيَتأتَّىٰ للمؤمنين في جملتهم التفقُّه في الدين، وذلك بأن يحضر الباقون في المدينة ما يَتَجدَّد نزولُه علىٰ الرسول ﷺ من الآيات، ويفقهوا ما يبيِّنه من ذلك بالقول والعمل، ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ الذين نَفَروا للقاء العدو ﴿إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ أي: ليُعلِّموهم ما علموا وفقهوا، ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ بمقتضىٰ هذه التعاليم ما يستوجب الحذرَ في الدنيا والأُخْرىٰ. وإنما خصَّ الإنذار بالذِّكْر من بين أنواع العلم في ذلك لأنه أهمها.

ثم قال في «المنار»: والآية تدلُّ علىٰ وجوب تعميم العلم والتفقُّه في الدين والاستعداد لتعليمه وتفقيه الناس فيه علىٰ الوجه الذي يصلح به حالُهم، ويكونون به هُداةً لغيرهم. وإنَّ المتخصِّصين لذلك لا يقلُّون عن المجاهدين في الدرجة؛ لأنَّ الجهاد نوعان: جهادٌ بالسيف والسِّنان، وجهادٌ بالحجَّة والبُرهان. والثاني هو الذي عليه مدار الدعوة إلىٰ الإيمان، وإقامة دعائم الإسلام[1].

ثم أردف هذا البيان المرخِّص للتخلُّف بالحثِّ علىٰ الجهاد؛ احتراساً من التراخي فيه، وحثاً علىٰ دفاع الروم المتاخمين لهم في تبوك وغيرها، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟

---

(١) تفسير «المنار» (١١: ٦٢-٦٣).

﴿ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ وتتَّصل بلادُهم ببلادكم، إظهاراً للشوكة، وتأميناً لنشر الدعوة لهذا الدين العالمي. وهي موجَّهة إلىٰ الأقرب فالأقرب، كما قال تعالىٰ: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورىٰ: ٧]، فهذه الآية ترشد المؤمنين إلىٰ طريقة السَّداد في هذا الباب، وذلك بأن يبدؤوا بقتال مَنْ يليهم، ثم ينتقلوا إلىٰ الأبعد فالأبعد. وهكذا فعل النبيُّ ﷺ وصحابته، حيث حاربَ قومه أولاً، ثم انتقلوا إلىٰ غَزْو سائر العرب، ثم إلىٰ غَزْو الشام والعراق، ثم ما وَلِيها، ثم مصر ثم ما وَلِيها.

وهكذا تُقرِّر الآية نظاماً سديداً في الجهاد، وهو وجوبُ ألا تُوزَّع القوَّة، بل تُوجَّه إلىٰ الأقرب فالأقرب من أعداء الإسلام البُغاة والمعتدين، فلا يشتغل المسلمون بحرب حتىٰ يفرغوا من غيرها ما أمكن، وقد حَثَّهم سبحانه علىٰ إظهار القوة، فقال: ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي: شدّة وبسالة في القتال، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ بالمعونة والنصر.

ويحتمل أن تكون الآية أمراً بالعودة لقتال الروم ونصارىٰ العرب الذين كانت غزوة تبوك لدفاعهم، ولذلك جَهَّز رسول الله ﷺ جيش أسامة بن زيد الذي أرسله أبو بكر الصِّدِّيق بعد وفاة الرسول لقتال الروم.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

ثم أعاد الكلام عن المنافقين تجديداً للذكرىٰ، علىٰ سُنَّة القرآن في ذلك، فقال:

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ﴾ لإخوانه استهزاءً وسُخْرية، أو إنكاراً وتشكيكاً: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ بحقيَّة الإسلام؟

فردَّ الله تعالىٰ عليهم بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ بما يَرْجُون من خير هذه الزيادة وأثرها في أعمالهم، وما يَنْبعث عن تلك الأعمال من مثوبة.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شك وارتياب ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ راسخون علىٰ الكفر.

ثم قرَّر مضمون هذا الحكم بتوبيخهم عن غضِّهم النظر والتدبُّر بما يمتحنون به مما فيه عبرة لهم لو يعتبرون، ومن ذلك إنباءُ الله رسوله بما في قلوبهم، وفضيحتُهم بما يُسرُّون وما يُعْلنون من أعمالهم التي سبق تفصيلها في هذه السورة، فقال: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ أي: يُمْتَحنون ويُخْتَبرون ﴿فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ إذ لا يَخْلو كثير من السُّور من ذِكرِهم أو التلميح إليهم، ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ ولو تذكَّروا وتدبَّروا لذهب بشكِّهم، وشَفَىٰ مرض قلوبهم.

ثم ذكر حال أولئك المنافقين، أو صِنفٍ آخرَ منهم عندما يكونون في مجلس رسول الله ﷺ وتنزل تلك الآيات الفاضحة لهم، فقال: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ قائلين: ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ أي: يَتسارقون النظر ويتغامزون بالعيون علىٰ الانسلال من المجلس خُفْيةً؛ لئلا يفتضحوا بما يظهر عليهم من أثر الإنكار والسخرية أو الذلِّ والاكتئاب بالوحي الفاضح لهم، فقال تعالىٰ فيهم: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ أي: صَرَف الله قلوبَهُم عن الاهتداء، بسبب أنهم لا يَتَدبَّرون ليفقَّهوا الحق، فهم لا يستعملون عقولهم في ذلك. وهذه الجملة للدعاء والخبر معاً، والمَغْزىٰ واحد.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

ثم ختم السورة بهذه الآية التي بكَّتَ فيها المنافقين وزادهم تقريعاً، وامتنَّ بها علىٰ المؤمنين في عصر الدعوة وزادهم ترفيعاً، مُنوِّهاً بشأن ما سبق من البيانات والتعاليم والتوجيهات، ومُلْمِحاً إلىٰ أنَّ في هذا الرسول ما لا يصحُّ معه أن ينافقوه، فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ فالمنَّة به علىٰ العرب أعظم، وإن أُرسِلَ رحمةً للعالمين عموماً، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ والعَنَتُ: المشقة. والمعنىٰ: يثقلُ عليه مشقَّتُكم أو شقاؤُكم؛ شفقةً بكم، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: في مصالحكم وهدايتكم التي هي أهمُّ المصالح، ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ فإذا دَعَاهُم إلىٰ مشقَّة كالجهاد، فإنَّ ذلك لمنجاة مما هو أشقّ، وللحصول علىٰ ما تَتَضاءل كلُّ مشقّة في جانبه من السعادة الدنيوية والأخروية. والرأفة: العطف علىٰ الضعيف والشفقة عليه. والرحمةُ أعمُّ من ذلك.

ثم التفت إلىٰ النبيِّ ﷺ مُسَلِّياً له عن إعراض المشركين والمنافقين، فقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ وأعرَضُوا عن الإيمان، وعارضوك بالسيف واللسان، ﴿فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ يُدبِّر الأمور بتدبيره، ويُسيِّر الأحوال بعظيم تقديره، ومَنْ توكَّل عليه فاز وأفلح بكلِّ خير، وسَلِمَ من كل ضَيْر، وهو حَسْبُنا ونِعْمَ الوكيل.

* * *

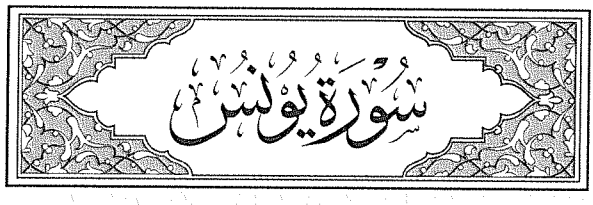

مكية، وهي مئة وتسع آيات

وموضوعها يدور علىٰ:

ـ إثبات أصول التوحيد وهدم الشرك.

ـ وإثبات الرسالة والبعث والجزاء، ورفع الشبهات عنها، وما يتعلَّق بذلك من مقاصد الدين الأصليَّة.

ـ وإثبات تنزيل القرآن، وإبطال شُبَهِهم عليه.

وخاتمة تتناسب مع السياق.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (٢) إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦) إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾.

﴿الر﴾ مرَّ الكلام علىٰ هذه الحروف في أول سورة البقرة، وأَوْلىٰ ما قيل فيها: أنها للتنبيه والاهتمام بما يأتي بعدها، أو في أثناء السورة، ومن ذلك قوله: ﴿تِلْكَ﴾ أي: الآيات التي تألَّفت منها هذه السورة أو القرآن كلُّه ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١)﴾ في معانيه

وأحكامه، وعِبَرِه وإرشاده، وطُرق هدايته وتعاليمه، وقد أنزله الله تعالىٰ علىٰ رسوله بواسطة وَحْيِه، كما أنزل ما قبله من الكتب علىٰ الأنبياء الماضين.

ثم عَجَّبَ من إنكار المشركين أن يُرسِلَ الله رسولاً من البشر لإنذارهم وتبشيرهم، مع أنَّ هذه سنة قديمة لله تعالىٰ في تاريخ الرسل، قد مضت بها سنة الأوَّلين، فقال: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ من عاقبة الكفر، ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، والقَدَم: مصدر بمعنىٰ السَّبْق، استُعمِلَ هنا وصفاً، وذلك من خصائص اللغة. ويجوز أن يراد بالقدم: قَدَمُ الرِّجْل، ذُكِرَ وأريد به السَّبْقُ في العمل أو القدومُ علىٰ الله، مِن ذِكر السبب وإرادة المسبَّب، كإطلاق اليد علىٰ النِّعمة. والشيء الصِّدق: هو المتَّصف بسائر الصفات المحمودة، يقال: رجُلُ صِدْق، وثوبُ صِدْق، وهكذا. والمراد بـ«قدم صدق»: سابقةُ العمل الصالح المؤدِّي إلىٰ المنزلة الرفيعة.

ثم ذكر إعراض المشركين وما يقولونه في شأن هذا الرسول، ذكره بطريقة الفصل دون الوصل؛ للإشارة إلىٰ أنه جواب سؤال نشأ مما قبله، كأنه قيل: ماذا قال الكافرون عن هذا الوحي، أو عن هذا المُوحَىٰ إليه؟ فقال: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ لِـمَا رأوه من قوَّة تأثير دعوته علىٰ الناس، وشدَّة ميلهم له وتمسُّكهم بما جاء به. وقُرئ: (لَسِحْرٌ)[1]، وحينئذ يُراد به القرآن. وهذا القول منهم يتضمَّن اعترافَهم بأنَّ ذلك فوق المعهود من البشر، رغم إعراضهم عنه وتكذيبهم له.

ثم أردف هذا الإنكار عليهم بدليل قدرته التي يَضْؤل في جانبها كلُّ عجيب، وضمَّن الكلام: الدعوة إلىٰ التوحيد، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى

---

(١) «المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات» (١: ٣١٦).

سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾، فهذا الأثر العظيم من آثار قدرته تعالىٰ يُفنِّد عجبهم من وحي القرآن إلىٰ رسول أرسله إليهم؛ لأن مثل ذلك ليس بعجيب في جانب هذه القدرة العظيمة.

ومن جملة تدبير الأمر: إرسالُ الرسل للعالمين. ويشمل تدبيرُ الأمر: استمرارَ نظام هذا الكون في عمله لِـمَا جُعل له وأريد منه. والله أعلم. ونسبتُه إليه لأنه سبحانه خالق ذلك النظام.

والمراد بالأيام ـ والله أعلم ـ: الأطوار، فإنَّ اليوم في اللغة: هو الوقت الذي يحدُّه حَدَث يحدث فيه، وإن كان ألوفَ ألوفِ السنين من أيام هذه الأرض الفلكية التي وجدت بعد خلق الأرض ونظام سَيْرها. والمعنىٰ: إنَّ الله تعالىٰ أوجد السماوات والأرض في مُدَدٍ قدَّرها لها، وأطوار تنسّقت فيها، فإنَّ الخلق في اللغة: التقدير والتنسيق.

أما العرش، فقال أبو مسلم: العرش: مصدر مِن: عرش يعرش عرشاً، بمعنىٰ: بنىٰ، فكلُّ بناء يسمَّىٰ عرشاً. والمعنىٰ: ثم أشرف علىٰ البناء بعد استكماله، يُدبِّر أمره وأمر مَنْ فيه.

أقول: والأرجح أنَّ هذه العبارة وأمثالَها يعبِّر بها القرآن لِتَحَقُّق الوجود لله تعالىٰ في الأذهان بصورةٍ تتناسب مع تَصَوُّرات الإنسان، من باب التعبير عن المعقول بصورة المحسوس من عبارات القرآن، أو هي تمثيلٌ مُنتَزَعٌ من حال المخاطبين وتعبيرهم عن شأن الملوك والسلاطين إذا علَوا منصَّة الحكم والسلطان، لأنه سبحانه يخاطب عباده في تعريف ذاته وصفاته بما اعتادوه في ملوكهم وعظمائهم، تقريباً للفهم، ولا يُراد به معناه الحقيقي[1]، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة).

---

(١) هذا مُسلَّم في «الاستواء»، لأن حقيقة معناه اللغوية: لا تليق بالله تعالىٰ، فيُفسَّر بنحو ما ذكر =

وقيل: بل المعنىٰ حقيقي، أي: ثم استوىٰ علىٰ عرشه الذي جعله مركز التدبير لهذا الملك الكبير، استواءً يليق بعظمته وجلاله وتنزيهه وكماله، يُدبِّر أمر ملكه بما اقتضاه علمُه وحكمتُه. وعلىٰ هذا المعنىٰ؛ لا تكون ﴿ثُمَّ﴾ لإفادة التراخي، بل لإفادة عظمة المعطوف بها، أو لمجرَّد عطف الخبر علىٰ الخبر، وإفادة أنه خبرٌ جديد. علىٰ أنه يجوز أن يكون للتراخي في الزمن؛ لأن التدبير بعد الإيجاد، وإن كان العلم به قديماً، والله أعلم. وقد فَصَّلتُ هذه الآية في سورة الأعراف[1] بأكثر من هذا، فارجع إليه.

وبعد أن ذكر ما يتَضمَّن الدعوة إلىٰ التوحيد، أردفه بهذه الحقيقة المتضمِّنة لنقض عقيدتهم في شركهم، وأنَّ معبوداتِهم شفعاء لهم، فقال: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾، وقد قال في «المنار» في وجه الردِّ ما مُلخَّصُه: معنىٰ هذه الحقيقة: أنه لا يمكن أن يوجد شفيع يشفع لأحدٍ عنده تعالىٰ إلا من بعد إذنه، وليس لأحدٍ حقٌّ في الإخبار عنه تعالىٰ بمن يشفع عنده، ومَنْ يقبل شفاعته إلا بإعلامٍ منه، وذلك لا يكون إلا بوحي منه تعالىٰ، وقد ثبت في وحي هذا القرآن أنه لا يشفع أحدٌ عنده بإذنه إلا من ارتضاه للشفاعة، فقال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾ [طه: ١٠٩]، علىٰ أحد مَعْنَيَي الآية[2].

= المؤلف رحمه الله، ولا يلزم ذلك في العرش، فقد نطقت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة بإثباته، ويَبعُد تفسيره بالبناء كما قال أبو مسلم، أو بأنه تمثيل كما قال المؤلف، إذ لا محذور في إثباته علىٰ حقيقته، بل إثبات العرش بمعنىٰ أنه جسم عظيم دال علىٰ عِظَمِ ملك الله تبارك وتعالىٰ، وقَرْنه بالاستواء ـ علىٰ المعنىٰ التمثيلي للاستواء ـ أبلغُ في تقرير هذا المعنىٰ التمثيلي من أن يكون كلٌّ من الاستواء والعرش وارِدَيْن علىٰ التمثيل.

(١) في الآية ٥٦ منها.

(٢) تفسير «المنار» (١١: ٢٤٣).

وثبت في هذا الوحي أيضاً أنَّ هؤلاء المأذونَ لهم بالشفاعة لا يشفعون إلا لمن كان الله تعالىٰ راضياً عنه بإيمانه وعمله الصالح وله هفوات، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[1] [الأنبياء: ٢٨]، مصداقاً لقوله تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤].

ثم احتجَّ بما ثبت من اختصاصه تعالىٰ بوحدانية الربوبية، علىٰ استحقاقه وحدانيةَ الألوهية، فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ أي: ذلكم الموصوفُ بالخلق والتقدير والحكمة والتدبير والتَّصرُّف في أمر الشفاعة، يأذن بها لمن شاء فيمن شاء، هو الله ربُّكم ومُتَولِّي أمور العالم، ومنها أموركم، فاعبدوه وحدَه ولا تشركوا به شيئاً ولا معه أحداً، لا للشفاعة، ولا لأجل مطلب آخر من مطالبكم، فالشفعاء لا يملكون لكم من دونه نفعاً ولا ضراً، وإنما يملك ذلك ربُّكم وحدَه، وقد هداكم إلىٰ أسباب الضر والنفع الكسبية بعقولكم ومشاعركم وسخَّرها لكم، وهداكم إلىٰ أسباب النفع والضر الغيبية بوحيه وأقدركم عليها، وكل ما يطلب من المنافع والمضار فإنما يطلب من أسبابه التي سخَّرها تعالىٰ وبيَّنها لكم، وما عجز عنه العبد أو جهله من ذلك فالواجب عليه أن يدعو الله تعالىٰ وحده فيه. وهذا هو الركن الأول للدين الإلهي، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾.

وبعد أن قرَّر اختصاصه بالربوبيَّة والتصرُّف في الكون، قرَّر اختصاصه بالجزاء في يوم الحساب الذي أثبته بالدليل، مكملاً بذلك ما ردَّ به علىٰ المشركين في اعتقادهم بشفاعة الشافعين، وأدمج في الكلام الوعيد لهم علىٰ ذلك، فقال: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ

---

(١) أي: لمن ارتضىٰ إيمانه وعمله الصالح، فيُشفَع له في هفواته كما قال، لكنْ فُسِّرت الآية بـ: إلا لمن ارتضىٰ أن يكون مشفوعاً له، فتكون أعم، وتشمل الشفاعة أيضاً أصحاب الكبائر، ولو بعد حين من العذاب، ويبقىٰ شمولها للكافر ممتنعاً بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، وهو مذهب أهل السنة، خلافاً للمعتزلة.

جَمِيعًا ﴾ أي: إلىٰ ربكم دون غيره من معبوداتكم وشفعائكم وأوليائكم، ترجعون جميعاً بعد الموت وفناء هذا العالم الذي أنتم فيه، لا يتخلَّف منكم أحد أبداً، ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ﴾ لا يُخْلَف.

ثم أكَّد تحقيق هذا الوعد بدليله فقال: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾، أي: يُنشِئُه عند التكوين، ثم يُعيدُه في نشأة أخرىٰ بعد الموت والفناء. وقد تضمَّنت الجملة قياس الإعادة علىٰ الخلق؛ لأنهما من جنس واحد، أو متماثلان، وألمعت كلمة ﴿ثُمَّ ﴾ إلىٰ أنَّ الإعادة مُتمِّمةٌ للبَدْء والإيجاد.

ثم ذكر العاقبة والغاية لـهذه الإعادة، فقال: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أي: بالعدل، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾، والحميم: الشديد الحرارة.

قال في «المنار» ما مُلخَّصُـه: ولعلَّ نكتة اختـلاف النظم والأسلوب في جزاء الفريقين وتعليل الرجوع إليه تعالىٰ، هي إفادة أنَّ المقصود بالذات من الرجوع إليه تعالىٰ هو جزاء المؤمنين الصالحين؛ لأنه هو الذي يكون به منتهىٰ كمال الارتقاء البشري للذين زكُّوا أنفسَهم في الدّنيا بما يكون لهم في الجنة من النعيم.

وأمّا جزاء الكافرين المفسدين لأنفسهم بتدسيتها وتدنيسها بالكفر والخطايا، وهي لها كأعراض الأمراض التي تُسبِّبها مخالفة سُنَّة الله في حِفْظ الخِلقة وصحَّتها، فليس هذا الجزاء من المقاصد التي اقتضتها الحكمة الإلهية في خَلْق الإنسان، ولكنه مقتضىٰ العدل في المظالم والحقوق، ومقتضىٰ معاكسة السُّنن الحكيمة في ارتباط الأسباب بالمسبَّبات والعلل بالمعلولات، ذلك الارتباط الذي هو مَرْمَىٰ الشريعة، فهو مثل عروض المرض لمخالفة سنن الصحة، فليس هو مستقلاً مقصوداً بالذات من الرجوع إليه تعالىٰ، وإنما هو ردُّ فِعْلٍ

من الإنسان نفسِه مُرتَّبٌ علىٰ عمله السَّيِّئ، فالشرك بالله والكفر بنِعَمِهِ واقتراف الخطايا المخالفة لشرائعه وللوجدان الفطري في الإنسان تدنِّس نفس فاعلها وتُفسِدها وتكيِّفُها بما يجعلها غير أهل للنعيم الروحاني[1] الخاص بالأنفس الزكية. فيكون العقاب في الآخرة أثراً طبيعياً لهذا الفساد، كما يكون المرض أثراً طبيعياً لمخالفة قوانين الصحة ووصايا الطبيب[2].

ثم عاد إلىٰ تكميل اختصاصه بالربوبية بتفصيل ما أجمل في آية خلق السماوات والأرض، علىٰ نهج القرآن في العودة، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾، والضياء: يطلق علىٰ ما هو مشعٌّ بالذات، والنور: يطلق علىٰ ما بالعَرَض، إذ نور القمر ليس ذاتياً فيه، وإنما هو آتٍ له من ضياء الشمس، ﴿وَ﴾ قد ﴿قَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ يَنزِلُ كُلَّ ليلة في واحدة منها لا يخطئها ولا يَتَخَطَّاها؛ يكون هلالاً، ولا يزال يتزايد حتىٰ يتكامل فيكون بدراً، ثم لا يزال يتناقص حتىٰ يكون محاقاً، وهكذا دواليك.

ثم بيَّن بعض فوائده المنوطة بالمكلفين، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ أي: لضبط عباداتكم ومعاملاتكم الدينية والمدنية. فإن هذا النظام المُشاهَد في الأشهر سَهْلُ الضبط علىٰ جميع الناس، خلافاً لحساب السنين الشمسيَّة والأشهر الشمسيَّة، لأن ذلك لا يعرفه إلا الحسَّاب، لذلك جعل الشرع الإسلامي شهر الصيام وأشهر الحج وعدَّة الطلاق وغيرها من الأمور الشرعية بالحساب القمري الذي يعرفه كلُّ أحد من سائر طبقات الناس. وكذلك لعبادتي الصيام والحج بمقتضىٰ الأشهر القمرية حكمة أخرىٰ، وهي دورانهما في جميع فصول السنة،

---

(١) تقييدُه بـ«الروحاني» قد يُتَوهَّمُ منه نفيُ النعيم الجسدي، والحقُّ أنهما جميعاً ثابتان، فكان ينبغي له أن يتركه أو يُوضِّحَه، والله أعلم.

(٢) تفسير «المنار» (١١: ٢٤٦-٢٤٧).

فيعبد المسلمون ربَّهم في جميع الأوقات؛ من حارَّة وباردة ومعتدلة وطويلة وقصيرة، ويتدرَّجون في ذلك، فلا يشعرون في الحر ومشقّته شعوراً قوياً لا يطاق، وذلك بسبب هذا التدرُّج.

ثم أتىٰ بوجه الاستدلال علىٰ الحشر والجزاء الذي ذكره في الآية السابقة، فقال: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ النظامَ العظيمَ ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ الذي تقتضيه الحكمة، فهو أمرٌ له ما بعده من اليوم الآخر وما فيه، والله سبحانه ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ القرآنيَّة والتكوينيَّة، ويُنبِّه إلىٰ ما فيها من آثار القدرة العظيمة والحكمة البالغة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾ أي: لم يَطْمِسُوا بأعمالهم السيِّئة أنوارَ عقولهم النَّيِّرة، فيعلموا أنَّ هذا الخالق الحكيم لم يخلق الإنسان في أحسن تقويم تحت هذا النظام العظيم، ثم يتركه يحيا ويموت كالحيوان لا يُبعَثُ[1] ولا يعود.

ثم تابع هذا النَّسق من التبصير ودليل القدرة، فقال: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ طولاً وقِصَراً ناتجَيْن عن النظام الشمسي البديع الذي لا يتغيَّر، ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من عظائم وأنظمة لا تتبدَّل، ﴿وَ﴾ في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ من أنواع الجماد والنبات والحيوان وعجائبها وأنظمتها التي لا تتحوَّل؛ ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ أي: لأنواعاً من الدلائل ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦﴾ الله، فتعلمون من ذلك قدرتَه علىٰ إعادة البشر في اليوم الآخر وجزائهم بالجنة والنار؛ لأنَّ تقوىٰ الله تجلو البصيرةَ وتنير القلوبَ.

ويجوز أن يكون المعنىٰ: لقوم يحاولون اتِّقاء الله في نواهيه ومخالفة أوامره، لأنَّ الذين يدرسون سُنن الله الكونيَّة، يُدركون أنَّ الذين يخالفون سنن الصحة البدنية

---

(١) لكنْ ثبت في السنة النبوية أن الحيوانات تُبعَثُ وتُحشَر، ويُقتَصُّ لبعضها من بعض، كما في «صحيح مسلم» (٢٥٦٨)، ثم يُقال لها: كوني تراباً، فلعله يريد: لا يُبعَث للحساب والجزاء من نعيم وعذاب كبعث الإنسان.

يمرضون، والذي يخالفون سنن الاجتماع والعمران تخرب بلادهم ويذلون، فهكذا الذين يخالفون سُنن الله في تشريعه وهدايته ينالون البأساء والضراء في الدنيا، والعقاب الأليم والعذاب الشديد في الأخرىٰ، لأنَّ تشريعه سبحانه مطابق للسنن الكونية والفطرة الإنسانية.

ثم أردف السياق ببيان حال منكري البعث وجزائهم في الآخرة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لأنهم لا يعتقدون به ولا يؤمنون بيوم الحساب، ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فصار كلُّ همِّهم محصوراً فيها، وكلُّ عملهم لها، ﴿وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ لسكون نفوسهم وارتياح قلوبهم بشهواتها ولذَّاتها، وهم الذين لم يستهدفوا غير هذه الحياة الدنيا، ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ فلا يَتدبَّرون المنزَّلةَ منها علىٰ رسوله وما فيها من المواعظ والعِبَر والمعارف والحِكَم، ولا يتفكَّرون في الكونيَّة وما تدلُّ عليه من حِكَمِه وسُنَنِه في خَلْقِه، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ من الأعمال والعقائد المخالفة لِسُنَن الله في شريعته ونظام كونه.

ثم بيَّن حال المؤمنين وجزاءهم، علىٰ طريقة القرآن في المقابلة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ الصِّراطَ المستقيم الذي ينتهي بهم إلىٰ الحال السعيدة التي ذكرها سبحانه بقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾.

ثم بيَّن سبحانه شيئاً من حياتهم الاجتماعية والروحية في تلك الجنات، فقال: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾، فهم يُناجُونَ ربَّهم، وذلك أكبر لذَّاتهم، ويفتتحون المناجاةَ بهذه الجملة إلماعاً عن رضاهُم بما نالوه من النعيم، ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أي: لم يكن بينهم نزاع ولا خصام، ويُحيِّي بعضُهم بعضاً، وتُحيِّيهم الملائكة بهذا الكلام،

﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ للإيذان بكمال الرِّضا بذلك النعيم. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

ثم أردف الكلام بلون من التهديد مسبوكٍ علىٰ بيان سبب تأجيل الله للعذاب وإمهال المستحقين، وبناه علىٰ استهزائهم بالوعيد، وقوله: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠]، فقال: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾[1] وأُهلِكوا ولم يُمْهَلوا، ولكن الله أرحم بهم من أنفسهم، يؤخِّر الكافرين منهم إلىٰ أجل مُسمًّىٰ، لعلهم يَثُوبون إلىٰ رُشْدهم.

---

(١) لو كانت سُنَّة الله أن يُعجِّل للناس الشرَّ إذا استعجلوه أو استوجبوه، كتعجيله لهم الخير إذا استعجلوه وتَعَاطوا أسبابه، لعجّل الشرَّ لهؤلاء، ولكن من سُنَّته سبحانه أن يُمهل الظالمين ويؤخِّر جزاءهم إلىٰ أجل مُسمًّىٰ، فاكتفىٰ بالفعل عن مصدره، وبالمصدر عن فعله؛ علىٰ طريقة الاكتفاء والاحتباك من إيجازات القرآن. وزاد في جلاء المعنىٰ بقوله: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾، إذ يوضح أنَّ معنىٰ ما قبله إنما هو تأجيل العذاب.

ويجوز أن يكون الاستعجال مضافاً إلىٰ المفعول به لا إلىٰ الفاعل، أي: استعجاله لهم بالخير، بمعنىٰ: تعجيله لهم بالخير. وعلىٰ كلٍّ، فالآية علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧، العنكبوت ٥٣]، وأمثالهم.

وهذا الكلام محمول علىٰ المعنىٰ، وهو من نهج القرآن، والمراد منه: ليس من سنن الله الكونية أن تتعجَّل نتائج الشر كما تتعجَّل نتائج الخير، ولو كان كذلك لَفَنِيَ الإنسانُ بمدة قصيرة من الزمان، بما يصدر عنه من ضلال وكفران. (المؤلف).

وقد وضع قوله: ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ موضع: تعجيله لهم بالخير. ويجوز أن يكون في الآية احتباكٌ واكتفاءٌ على سُنة القرآن، (كما جاء في المادة الثامنة من المقدمة الثانية)، فاكتفىٰ بالفعل عن مصدره، وبالمصدر عن فعله؛ لأنها بمعنىٰ: ولو يُعجِّل الله للناس الشرَّ تعجيله للخير، حيث يستعجلون الشر بأعمالهم وأقوالهم استعجالهم بالخير، لَقُضي إليهم أجلهم.

ولكنه سبحانه وتعالىٰ لا يُعَجِّل لهم ذلك، وإنما يُمهلهم ويؤخِّرهم إلىٰ أجل مُسمًّىٰ، كما أفاده قوله تعالىٰ: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾ حتىٰ يأتي أمر الله تعالىٰ وهم غافلون. والعَمَه: شدة العمىٰ، وأراد به التَّحيُّر. فالآية علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]. والله أعلم.

ومحصَّل الآية: أنه سبحانه قد جعل نتائجَ عمل الخير مُعَجَّلةً يحصل عليها الإنسان عقب العمل، كالزراعة والصناعة والأعمال المعاشية، بخلاف أعمال الشر المُفْسِدة للروح، وأحوال الإنسان من كفر وطغيان وظلم وعدوان، فإنه لا يرىٰ نتائجها إلا بعد حين، أو في اليوم الآخر. هكذا سبقت كلمة الله، وبهذا مَضَتْ سُنَّته، واستقرَّ شؤونُ تكوينه. والله أعلم.

وقد ضمَّن ﴿قُضِىَ﴾ معنىٰ: عُجِّل، فعدَّاه تعديتَه. والمراد بالأجل: أجل العذاب، والمعنىٰ: لعجَّل لهم العذاب.

ثم توعَّدهم ضمن بيان غريزة الإنسان العامَّة وانطباعه علىٰ معرفة الله، وظهور ذلك فيه عندما يمسُّه الضر، إيماءً إلىٰ أن ما أشارت إليه الآية من استعجال أولئك الناس بالشر تعجيزاً لنبيِّهم ومبالغةً في تكذيبه، لو نزل بهم جأروا وتَضَرَّعوا إلىٰ الله في كشفه

وإزالته، فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا﴾ وهو حائرٌ في أمره، يَتضرَّع بنا في جميع أوقاته وعلىٰ سائر أوضاعه؛ ﴿مُضْطَجِعاً لِجَنْبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾، والمراد: تملُّك ذلك الشعور له في كلِّ أوقاته وأوضاعه، ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ وعاد المشرك إلىٰ شركه بعد ذلك التضرُّع بالله.

ثم بيَّن أنَّ رجوعَهم إلىٰ الكفر إنما هو من إفسادهم لغرائزهم بانطباعهم عليه، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ في الانطباع علىٰ الضلال ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ من الشرك والبطلان، وذلك حسب سنن الله في طبيعة الإنسان إذا تمادىٰ في الغَيِّ وانطبع عليه وأصبح له مَلَكَة راسخة، فإنه يخرج عن مقتضىٰ طبيعته الصحيحة، ويرىٰ ما هو عليه هو الحقّ، وما يخالفه هو الباطل، وغير جدير بالنظر والاعتبار.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾.

ثم أردف الكلام عن المسرفين، بالتهديد المسبوك علىٰ التنبيه والإرشاد، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ أنفُسَهم بالكفر والعصيان، والمعارضة

والطغيان، ﴿وَ﴾ كانت قد ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدالَّة على صدقهم، ﴿وَ﴾ لكنْ ﴿مَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ بعد أن فقدوا استِعدادَهم للإيمان، بانطباعهم على الكفر والعصيان، فأهلكناهم بذنوبهم في موعدهم المضروب لهم، و﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ﴾ أيها الموجودون ﴿خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد أولئك الهالكين من الأمم، جعلناكم تخلفونها، بما آتيناكم من أسباب المُلكِ والحكم؛ ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾، فمَنْ عَمِلَ مثلَهُم نالَ جَزاءَهُم.

ثم ذكر لهؤلاء المجرمين هذا الاقتراح الدالَّ على منتهى جهالتهم وعِنادهم، وقرنه بالردِّ عليهم، فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحاتِ الدلالة على إثبات التوحيد وبطلان الشِّرك ومهانة ملابساته، ﴿قَالَ﴾ هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لعدم إيمانهم بالبعث: ﴿ٱئْتِ﴾ يا مُحَمَّد ﴿بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ بأن تَتَصرَّفَ في بعض آياته بالتنقيح والتبديل، يطلبون ذلك لما يكرهونه منه، كتحقير آلهتهم وتكفير آبائهم. وقد يكون المعنى: يا محمد، ارفع منه ما يؤنِّبنا أفظعَ التأنيب، ويُقَرِّعُنا أشنعَ التقريع؛ إذ يزعمون أنَّ القرآن من عنده، فأمره سبحانه أن يردَّ عليهم بهذا الرد المجهِّل لهم، فقال: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾ أي: ليس القرآن من عندي كما تزعمون، وإنما هو من عند الله، فلا يمكنني أن أُبدِّلَهُ بمحض رأيي؛ ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾، فإنْ بدَّل الله تعالى منه شيئاً بنسخه بَلَّغْتُهُ عنه، وما عَلَيَّ إلا البلاغ المَحْض.

ثم علَّل النفي بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ بتبديل قرآنه وتحريفه، ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾.

ثم خصَّ بالجواب ناحيةَ ما رَمَوْا إليه من كَوْن القرآن من عنده لا من عند الله، وأثبت بالحُجَّة العقلية أنه من عند الله لا من عنده، فردَّ بذلك ما تضمَّنه كلامهم، فقال: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن لا أتلوَه عليكم ﴿مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾، ولكنه شاء سبحانه أن يَمُنَّ عليكم بهذا العلم العظيم لتهتدوا به، وأمرني بتبليغه إليكم، ولم يكن لي علمٌ بشيء من ذلك قبله، ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ لم أَتْلُ عليكم فيه سورةً من مثله، ولا آيةً تشبه آياته، لا في العلم والعرفان، ولا في البلاغة ورَوْعة البيان؛ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ وتدركون أنَّ مَنْ عاش أربعين سنة لم يقرأ فيها كتاباً، ولم يُلقَّن من أحد علماً، ولم يتقلَّد ديناً، ولم يعرف تشريعاً، ولم يمارس أساليب البيان في أفانين الكلام؛ من شعر ولا نثر ولا خطابة، لا يُمكنه أن يأتيَ من تلقاء نفسه بمثل هذا القرآن المُعْجز لكم، بل لا يمكن لجميع الخلق حتىٰ الدارسين لكتب الأديان والحكمة والتاريخ أن يأتوا بمثله؟! فكيف تَقْترحون عليَّ أن آتيَ بقرآن غيره؟! وهذه حُجَّة عقليَّة ناهضة علىٰ بطلان شُبهتهم الداحضة التي بَنَوا عليها مطالبة محمد ﷺ بالإتيان بقرآن غير هذا.

وفي هذه الفاصلة من لَذْعةِ التعنيف والتخجيل، بقدر ما فيها من لفت النظر إلىٰ قوة الدليل.

ثم تمَّم الردَّ عليهم بقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾، والأول: ما اقترحوه، والثاني: ما اجترموه. والمعنىٰ: أنا أنعي عليكم الثاني منهما، فكيف أرضىٰ لنفسي بالأول؟! وهو شرٌّ منه؛ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾.

ثم حكىٰ سبحانه ادِّعاءَهم أنَّ معبوداتِهم شُفعاءُ لهم عند الله، وقَرَنَه بالتسخيف

والردِّ والتبكيت، فقال: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ أي: ما ليس له قدرة علىٰ ضُرٍّ يُخشىٰ، ولا نفع يُرْجَىٰ، فما وَجْه عبادته، أفلا تعقلون؟ وهذا الوصف للإيذان بأنه تعالىٰ وحده هو القادر علىٰ نفع مَنْ يعبده، وضرِّ من يكفر به ويشرك بعبادته، ومَنْ كان كذلك فهو وحده الذي يستحقُّ أن يُعبد، فكيف يعبدون آلهةً غيره، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾؟

ثم أمره أن يردَّ عليهم بهذا الرد الذي هو غاية في التبكيت والتجهيل والتهكُّم، فقال: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، أي: أتخبرون الله تعالىٰ وتُعْلِمُونه بشيء لا يعلمُه من أمر هؤلاء الشفعاء؟

وقوله: ﴿ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ تأكيدٌ للنفي؛ لأنَّ ما لا يعلمه الله لا يكون موجوداً، وما لا يوجد فيهما مُنتفٍ حكماً.

ثم أردف هذا الردَّ التهكُّمي بالتنزيه، فقال: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ بوسائط وشفعاء.

﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ

إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾.

ثم بيَّن ما كان عليه الناس في أصل فطرتهم من الوحدة في الدين الصحيح المبنيِّ علىٰ التوحيد، وما صاروا إليه من الاختلاف في ذلك، مُضَمِّناً الكلام أنَّ التوحيدَ أمرٌ فطري، فقال: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ علىٰ الفطرة الصحيحة المطبوعة علىٰ التوحيد والتنزيه[1]، ﴿فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ إذ أفسدوا فِطَرَهم بالانطباعات علىٰ الضلال، حتىٰ خرجوا من التوحيد الفطري إلىٰ أنواع من الشِّرك اختلقوها بأوهامهم وخيالاتهم، أو الآيةُ علىٰ حدِّ قوله ﷺ: «ما من مولود إلا ويولد علىٰ الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانِهِ أو يُمجِّسانه»[2] الحديث.

ولفظ «كان» في الآية ليس فعلاً ماضياً، وإنما هو فعلٌ دالٌّ علىٰ الوجود والتكوين،

---

(١) لأنَّ كل مولود يولد علىٰ الفطرة الصحيحة الهادية لمعرفة الله وتوحيده وتنزيهه، وقد أرسل الله سبحانه للناس شرائع تساند لهم تلك الهداية الطبيعية وتهديهم سواء السبيل، وتوجِّههم التوجيهَ الصحيح، ولكنهم يخرجون أفراداً وجماعات إلىٰ الشرك وسوء التوجيه، بسوء التربية والتقليد الأعمىٰ، فيرون الحقَّ باطلاً والباطلَ حقاً، كما جاء في الحديث القدسي: «إني خلقتُ عبادي حنفاء، وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحَرَّمَتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأَمَرْتُهم أن لا يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً». (المؤلف).

والحديث رواه مسلم (٢٨٦٥)، عن عياض بن حمار، لكن بلفظ: «وأمَرَتْهُم أن يُشركوا بي ما لم أُنزِّل به سلطاناً».

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (١٣٥٩)، ومسلم (٢٦٥٨)، عن أبي هريرة.

كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠]، ومعنىٰ الآية: إنَّ الله سبحانه خلق الناس علىٰ طبيعة صحيحة تدرك الحقَّ من الباطل، والخطأَ من الصواب، ما دامت تلك الطبيعة سالمةً لم يُفسِدها صاحبُها بمفاسد التربية وسوء التقليد.

ثم توعّدهم سبحانه علىٰ ذلك بقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في جَعْل الجزاء في الآخرة ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدنيا ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ من أمر الدين، وعجَّل لهم العذاب علىٰ كفرهم به.

ثم ساوَقَ البحث بالردِّ علىٰ إنكارهم نبوَّةَ محمد ﷺ، لأنه لم يُنزِلْ عليه آيةً كونيةً كآيات الأنبياء، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، فأمر الرسول بأن يَرُدَّ عليهم بقوله: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ يعلم ما في إنزاله صلاح فيُنزله، وما ليس في إنزاله صلاح فلا يُنزله.

ثم هدَّدهم بأسلوب تَرْجية وتأميل، تحته تعريضٌ بأنه ربما يُنزِلُ آيةً في إهلاكهم، فقال: ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾ لِمَا يفعله بي وبكم. وكان مشركو قريش يعتقدون في بادئ الأمر أنَّ دعوته ستظل في نطاقها الضيِّق، فإذا ما لقيَ حَتْفَه عاجلاً أو آجلاً تلاشت دعوته وتفرَّق أصحابه وعادوا إلىٰ دينهم.

ويجوز أن يكون معنىٰ: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾: لم أَدْرِ أنه ينزل أو لم ينزل، فانتَظِروا إني معكم من المنتظرين.

ولم يكن ﷺ خلواً من الآيات الكونية، كإشباع العدد الكثير بقليلٍ من الطعام والشراب، وتسخير الله للمسلمين السَّحاب في مواقف اشتدَّت فيها حاجتهم إليه، وشفاء بعض المرضىٰ بدعائه ﷺ، وغير ذلك. ولكن هذه المعجزات لم تُجعَلْ حُجَّة علىٰ رسالته، ولا أُمِرَ بالتحدِّي بها، وإنما كانت بركةً من بركاته التي أنعم الله بها عليه. أما

الحُجَّة علىٰ نُبوَّته فهي هذا القرآن[١] الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وهو يثبت النبوَّة والتوحيد والحشر بأدلة قاطعة وبراهين دامغة، ليكون هادياً للبشر علىٰ مدىٰ الزمن، مهما ارتقىٰ في مراقي العلم، وتَدَرَّج في مدراج العرفان.

وقد جاء عنه ﷺ: «ما من نبيٍّ من الأنبياء إلا أُعطِيَ ما مِثلُه آمَنَ عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتِيتُه وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثَرَهم تابعاً يوم القيامة»[٢].

والمراد من الوحي: هذا القرآن العظيم الذي فيه من الآيات والبراهين العلمية والعقلية الدالَّة علىٰ النبوَّة والرسالة الشيء الكثير. ويُرجىٰ أن ينتبه له البشر في هذه العصور العلمية، فيكون أكثرهم من المهتدين.

ثم ردَّ عليهم من وَجْهٍ آخر، وهو التلميح إلىٰ أنه لو كان هناك آيات ـ كما اقترحوا ـ لكابروا فيها ولم يُصدِّقوا، واسْتَشهَدَ عليه بتتميم مضمون ما سبق في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ ...﴾ [يونس: ١٢]، وكيف أنهم يَذِلُّون ويخنعون، فإذا كشف عنهم الضر يعودون إلىٰ شركهم، ويحملون مثل ذلك بعد النجاة علىٰ مجرَّد الأحوال العادية، ولم يعدُّوها آية كونية ولطفاً من الله، فقال[٣]: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا

---

(١) لتقدُّم النوع الإنساني في اتِّساع الفكر وبُعد النظر، لم يأت سبحانه في الشريعة الإسلامية بآيات كونية مجسَّمة تبهر الناس بالمنطق العاطفي، وتأخذهم بالتصديق الشعوري، ولكنه أتىٰ بآيات قرآنية تُنوِّر النفوس بالمنطق العقلي، وتعمرها بالتصديق اليقيني، كما قال تعالىٰ في سورة العنكبوت: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. (المؤلف).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) هذه الآية تتضمَّن وعيداً، علىٰ نهج القرآن في تعقيب العتاب بالوعيد. (المؤلف).

لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا ﴾ حيث يُعلِّلونها بالمصادفات وأنها من الأمور المعتادة، غير جازمين بأنها من ألطاف الله فيهم ورحمته بهم استجابةً لدعائهم منه تعالىٰ، ويعودون إلىٰ ما كانوا عليه من البغي والضلال، وهكذا يكون شأنهم في المعجزات إذا أُعْطُوها.

ويجوز أن يُراد بالمكر: مقابلة تلك الرحمة بالكفر والطغيان. فتوعَّدهم بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ﴾ أي: أعجَلُ عقوبةً وأسرَعُ عذاباً من سرعتكم في انقلابكم عن الحق. وفي تسمية العقوبة مكراً مشاكلةٌ لمكرهم، وهذا من البديع، ثم أكَّد التهديد بقوله: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾، وهُم الحفَظَة من الملائكة الذين وُكِّلوا بإحصاء أعمال الناس.

ثم أعاد ما سَبَق من مسِّهم الضُّرّ[1]، وكَشْفِهِ عنهم، ومكرهم فيه بصورة مُفَصَّلة، توضيحاً للمكر، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ بما خلق من السُّنن والوسائل الكونية التي تَتَّخذون بمُوجبها عُدَّة السير وأداته. ومن تلك السنن: طبيعة الماء لِعَوْم الفُلْكِ عليه، وذلك من نِعَمِ الله العظيمة عليكم، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ أي: بالذين فيها.

والالتفات إلىٰ الغيبة للإيذان بما لهم من سُوء الحال الموجِبِ للإعراض عنهم، كأنه يذكر لغيرهم سوء أحوالهم لِيُعجِّبهم منها. وقيل: ليس فيه التفات، بل معنىٰ قوله: ﴿إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾: إذا كان بعضكم في الفلك. فالضمير الغائب عائدٌ إلىٰ ذلك المضاف المقدَّر، أي: جَرَيْنَ بذلك البعض الراكب في الفلك ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ مُواتيةٍ لهم في جهة سَيْرهم، ﴿وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا ﴾ أي: الفُلك أو الريح الطيِّبة. ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ عاكستها وأزعجتها، ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ ليهلكوا، فإذا كانوا

---

(١) كذا، ولعل الصواب: من مسِّ الضُّرِّ إياهم.

كذلك ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ لا يتوجَّهون إلىٰ وليٍّ ولا شفيع، بل يرجعون إلىٰ الله وحده بفطرتهم المفطورة علىٰ التوحيد. فإنها تَتجرَّد حينئذ بتأثير تلك الهزَّة مما دنَّسوها به من الانطباعات علىٰ الشِّرك، فيتضرَّعون إلىٰ الله وحده قائلين: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ الموحِّدين.

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ﴾ وانتهت تلك الهزَّة النفسية، ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالشرك والكفر ومعارضة الإيمان. وفي قوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ زيادة في التشنيع.

ثم أنّب هؤلاء البغاة وتوعَّدهم ونبَّههم مخاطباً بذلك عمومَ الناس؛ ليكون تأديباً عاماً، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ لأنَّ وباله عليها؛ إذ تَحْرِمونها من السعادة الأبدية بما لا يتجاوز ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الفانية فينقضي ويخلِّف وبالاً طويلاً، أفاده بقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ ونُجازيكم عليه الجزاء الوفاق. وحاصل المعنىٰ: إنكم تضرُّون أنفسكم ببغيكم هذا ضرراً كبيراً لغاية موقَّتةٍ ضئيلة، وذلك ما لا يفعله عاقل.

ثم وضّح زهادةَ الدنيا وسرعةَ انقضائها ومفاجأةَ انتقالها بهذا المثل البليغ، فقال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ فنبت ولبست به الأرض حُلَّة قشيبة، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ فوق خُضْرتها الزاهية بأنواع الأزهار وألوانها، ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ حاصلونَ علىٰ التمتُّع بثمراتها ومحصولاتها وجمالها ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ بجائحة من الآفات، ﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ أي: كأنْ لم تكن أمسِ بذلك الغنىٰ العامر الخصيب.

وخلاصة المثل: تشبيهُ سرعة تَقَضِّي مَتاع الحياة الدنيا، بسُرعة تَقَضِّي رَوْنق النبات الفتَّان الآخِذِ بمجامع قلب الإنسان، ولا سيما إذا أصابته آفة قبل الأوان.

ثم ختم الآية بما فيه تحسيسٌ بهذه العبرة، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: عندهم فكر صحيح، ومنطق سديد.

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

وبعد أن بيَّن زهادة الحياة الدنيا وحطَّ من شأنها مُعَرِّضاً بغرور المشركين بها، قفَّىٰ علىٰ ذلك ببيان ما يدعُو إليه سبحانه من سعادة الآخرة ونعيمها الدائم المقيم، عكس الحياة الدنيا، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ عن كُلِّ عاهة وآفة، وهي الجنَّةُ ونعيمُها السالم من كلِّ ما ينغِّص ويُؤْلم، والدائمُ المقيم الذي لا ينقطع.

ثم بيَّن أنه قد هيَّأ لها الأسباب، وبيَّنها في هذا الكتاب، فقال: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ وهو الذي لم يُفسِد فطرتَه بمفاسد التربية ومساوئ التقليد ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ يوصل إلىٰ تلك الدار.

ثم بيَّن مصير الذين هداهم لذلك، فقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ باهتدائهم بهذا الهدىٰ المثوبةُ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ كما يغشىٰ وجوه الذين أساؤوا، من الكآبة والظلمة والذلة، كما سيأتي.

ثم سجَّل لهم بهذا الوعد الكريم، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

ثم قابل بذلك مصير الذين أساؤوا، وأشار إلىٰ أنه لم يظلمهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ دون زيادة، جزاءً وفاقاً. وذلك بمقتضىٰ الحقِّ العادل، ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ وكآبة، عكس حال المحسنين.

ثم حقَّق الوعيد وقـرَّره بقوله: ﴿مَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: لا يرجُون النجاة من عذاب الله. ثم مثَّـل عِظَـمَ كآبتهم بقوله: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾، ثم سجَّل لهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

ثم نصَّ بالكلام علىٰ الحشْر مُبيِّناً حال المشركين وتبرُّؤ شركائهم منهم، تبصرةً لهم وتذكيراً، فقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: المؤمنين والمشركين، ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ لنُفصِّل بينكم، ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: فـرَّقنا وكـرَّهنا بين المشركين وبين الذين جَعَلوهم شُركاء لله، كما يكون الحال بين الخصوم. بمعنىٰ: جَعَلنا بحكم الطبيعة كلاً منهم يكره الآخر، فالمشركون يكرهون الشركاء كُـرْهَ المتورِّط لمن يعتقد أنَّ البلاء جاء من جهته. ومثل ذلك من سنن الله في طبيعة الإنسان.

ثم حكىٰ ما يقوله لهم الشركاء، فقال: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ عندما كنا معكم في الدنيا، فما الذي حملكم بعد ذلك، أو: إنما كنتم تعبدون أهواءكم وتتَّخذون أسماءنا وتماثيلنا هياكل، ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا﴾ وحَكَماً ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾، فهو العليم بحالنا وحالكم، ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ﴾ إيَّانا ﴿لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾، وهذه الغفلة علىٰ حقيقتها في حقِّ الصُّلحاء الذين عبدوهم بعد موتهم، سواء مثَّلوهم بالأصنام أو لم يُمثِّلوهم، أما في حقِّ الملائكة فالمراد بها عدم الرِّضا.

ثم ذكر ما يكون من أمرهم، فقال: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ أي: هنالك

تَخْتَبِرُ وتُدرك كلُّ نفسٍ ثمرةَ ما قدَّمت من عمل، وتعرف سعادته أو شقاءه، فيدرك المشركون تَعَاسةَ ضلالهم وعنادهم للصواب، ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّ﴾ دون ما اتّـخذوا من دونه بالباطل من معبودين، ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٣٠﴾ من أمر الشفعاء والأولياء.

﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٣٢ كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٣﴾.

وبعد أن أوقفهم علىٰ مصيرهم، أقام الحُجَجَ عليهم في إثبات التوحيد وبطلان الشرك، ليحملَهم علىٰ التوحيد الـمُنقِذِ لهم من ذلك المصير، فقال: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بما يُنزِلُه من المطر ﴿وَ﴾ من ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ بما يُنبتُـه فيها، ﴿أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ وهذه الحجَّة مسبوكة علىٰ التَّمنُّن بالمواهب التي وَهَبها الله للإنسان، وعلىٰ التهديد بسلبها، مع الإيماء والتنبيه إلىٰ قدرته. وخصَّ هاتين الحاسَّتَين بالذكر؛ لأنَّ عليهما مدار الحياة الحيوانية، ولأنهما واسطة التعقُّل الذي به كمال البشريَّة وإدراك الحق.

ثم ذكر نوعاً آخر من مظاهر قدرته وخصائص ألوهيته، فقال: ﴿وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ كالحيوان من موادِّه، والنبات من بذوره، والعكس. ولا يَرِدُ ما يقال: إن في النُّطَفِ والبذور حياة؛ لأن المراد الحياة العرفية لا العلمية، ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ في الخليقة كلِّها بما أودَعَه في كُلٍّ منها من السنن الطبيعية وما أتقنه من النظام، ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ أي: فسيكون جوابهم عن هذه الاستفهامات الخمس: أنَّ فاعل ذلك كله هو الله، ﴿فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١﴾ أي: أتَعْلَمُون ذلك وتقرُّون به ولا تَتَّقون سَخَطَ الله وعقابَه من جرَّاء شرككم به وعبادتكم لغيره.

ثم قرَّر نتيجةَ ما تقدَّم بقوله: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: عن الحقِّ إلىٰ الباطل، وعن الهُدىٰ إلا الضلال، فتُشركون به مَنْ لا يَخْلُقون شيئاً وهم يُخْلَقون.

ثم بيَّن سببَ ثباتهم علىٰ شركهم، وعدم مَيْلهم إلىٰ الإيمان، رغم هذه الحجج والمواعظ، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: قَضَتْ سُنَّة الله تعالىٰ في غرائز البشر أنَّ الذين خرجوا عن حظيرة الحق وانطبعوا علىٰ الباطل، لا يميلون إلىٰ الهدىٰ والإيمان أبداً.

ويجوز أن تكون الآية بياناً لحكم الله فيهم، والمعنىٰ: حقَّت عليهم كلمةُ العذاب؛ لأنهم لا يؤمنون مع وضوح هذه البراهين، ونُصوع هذه الحجج الدامغة.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

ثم ساوَقَ البحث باحتجاج آخر علىٰ اختصاص الألوهيَّة بالله تعالىٰ وبطلان الإشراك، وسَبَك الكلام علىٰ البعث ودليله، فقال: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾؟

ولما كان جوابُ هذا السؤال بديهياً؛ لأن مَنْ قدر علىٰ إيجاده من العدم يقدر علىٰ إعادته، أمَرَه أن يُجيبَ هو، فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ وتُصْرَفُون عن أمر ظاهر يتبيَّن بأدنىٰ تفكير. ومبنىٰ الاستدلال علىٰ بَدْء الخلق وحده؛ إذ إنه حُجَّة قطعية علىٰ اختصاصه سبحانه بالألوهية، وإنما ذكر الإعادة علىٰ وجه التدليل،

لأنَّ مَنْ قَدَرَ علىٰ البَدْء والإيجاد من العدم قَدَرَ علىٰ الإعادة، فهو من عطف الدعوىٰ علىٰ الدليل.

ثم وجَّه لهم سؤالاً عن شأن آخر من شؤون الربوبية المقتضية لاستحقاق الألوهية، فقال: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ بنَوْعَي الهداية؛ الفطرية والتعليمية؟

ثم أمَرَه أن يُجيبَ هو، لأنه ظاهرٌ لا ينكرونه، أو بمنزلة الظاهر ولا يمكنهم أن ينكروه، فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾، فقد هَدَىٰ البشرَ للإيمان بأمرين؛ بفطرته، وبإرسال الرسل وإنزال الكتب والتوفيق للنظر والاستدلال.

ثم مَخَّضَ النتيجة في هذا الاستفهام الإنكاري عن إثبات التوحيد وإبطال الشِّرك بهذا البرهان القاطع الناصع المُشْرَب بالتسخيف للمشركين، فقال: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ﴾ أي: لا يهتدي ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾، وذلك شأن ما سوىٰ الله من سائر الخلق. والآية بعمومها تدلُّ علىٰ استهجان عبادتهم لهذه الأوثان التي لا تقدر أن تنتقل من مكان إلىٰ مكان حتىٰ ينقلوها. أي: فهل يليق بمَنْ هذا شأنُه أن يكون إلهاً. ولذلك قرَّعهم بهذَيْنِ التقريعَيْن المتواليين، وقال: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾، والمعنىٰ: ماذا أصابكم؟! وكيف حكمتم أن يكون هؤلاء شركاء لله، أو وسطاء بينكم وبينه؟!

وبعد أن أقام أنواع الحجج والبراهين القطعية علىٰ توحيد الربوبية والإلهية، بيَّن مَهانة طرق المشركين الاعتقادية، فقال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ في معتقداتهم ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ أي: إلا عقائدَ مبنيةً علىٰ الظن، ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ مما يطلب به اليقين، كالاعتقاد والدِّين. وفيه إشعارٌ بأن الحقَّ الصحيحَ لا يتحقق ولا يتبيّن إلا بالعلم اليقين. وإنما قال: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾؛ لأنَّ بعضهم كانوا يعلمون أنَّ ما جاءهم به الرسول هو الحقُّ، ولكنهم يُعْرِضون استكباراً أو حسداً أو ضَنّاً برياستهم وزعامتهم.

هذا أمية بن أبي الصَّلت يقرُّ برسول الله ﷺ ويقصده ليؤمن به، ثم يعود فيقول: لا أؤمن برسول ليس من ثقيف[١]. وهذا أبو جهل يقول: والله ما كذب محمد قطُّ، ولكن إذا كانت السِّدانة والحِجابة في بني هاشم، ثم النبوة، فما بقي لنا[٢]؟ وهذا أبو طالب يرىٰ المعجزات ويقول: إني لأعلم أنك علىٰ الحق، ولولا أن يُعَيِّرَني نساءُ قريش لأقررتُ بها عَيْنَك[٣].

فنعوذ بالله من ظُلْمةِ حَسَد، وغباوةِ كِبْر، وحماقةِ هوًىٰ، تُغَطِّي نُورَ العقل، فيُعْرِضُ صاحبُها عن الحق الصُّراح.

ثم ختم السياق بهذا التهديد، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٧ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨﴾.

ثم عاد إلىٰ نقض قولهم: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ [يونس: ١٥]، علىٰ نهج القرآن في العودة إلىٰ المهمِّ من المواضيع حتىٰ يشبع الكلام عنه، فقال: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كما تزعمون أيها المشركون.

قال في «المنار»: ونَفْيُ الشأنِ أبلَغُ وآكَدُ من نَفْي الشيءِ مباشرة، أي: ما كان هذا القرآن العظيم مع عُلوِّ شأنه في أسلوبه ونَظْمه، وعلومه العالية، وحكمه السامية، وتشريعه العادل، وآدابه المُثْلىٰ، وتمحيصه للحقائق الإلهية والاجتماعية إلىٰ غير ذلك من

---

(١) ذكره أبو حيان الأندلسي في «البحر المحيط» (٤: ١١٧).

(٢) ذكره الشربيني في تفسير «السراج المنير» (١: ٤٨٣).

(٣) رواه أحمد (٩٦٨٧)، والبزار (٩٧٥٢)، عن أبي هريرة.

الشؤون العالية، ما كان أن يَفْتريَه أحدٌ علىٰ الله من دونه ويُسنِدَه إليه، فهو أجَلُّ وأعلىٰ أن يُفْتَرىٰ، ولا يقدر غيره تعالىٰ عليه، وهو بهذه الصفة المعجزة والمقام الرفيع، ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: ولكنه من الله تعالىٰ، وإنه تصديق الذي سبقه من الوحي، ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الإلهي، أي: جنسه، وهو ما شرعه الله للبشر في علمه الأزلي من العقائد والشرائع وشؤون الاجتماع وسنن الله في خلقه. ذلك الكتاب الذي ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾[1]؛ أنزله مُفصَّلاً بعد تلك الكتب الـمُجْمَلة، في أوَّل ما تأهَّل لإدراكه النوعُ الإنساني، بعد تدرُّجه في المعرفة والعرفان، وضمَّنه كلَّ ما يحتاج البشر في شأن التشريع إلىٰ يوم القيامة، بصورة مُجمَلة أو مُفصَّلة. ولذلك ختم به الشرائعَ، إذ لا حاجة من بعده إلىٰ ما سواه.

ثم انتقل من بيان كونه أجَلَّ وأعلىٰ أن يُفْترىٰ، لعجز الخَلْق عن الإتيان بمثله، إلىٰ حكاية زعم هؤلاء الجاهلين والمعاندين أنَّ محمداً ﷺ قد افترىٰ هذا القرآن، وعَطَفَ الكلامَ علىٰ مُقَدَّر، اتِّباعاً لمنهج القرآن في مثله، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: أيَقنَعُون بهذا التحقيق أم يُصِرُّون علىٰ دعوىٰ الافتراء، فإنْ أصرُّوا فـرُدَّ عليهم بهذا التحدِّي و﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ في أسلوبه ونظمه وهدايته وعلمه، ﴿وَٱدْعُوا۟﴾ معكم للمعاونة ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ في زعمكم أني افتريته، وأنه من صُنعي. والغالب علىٰ الظَّنِّ أن العرب من أول ما سمعت القرآن أيقنت أنه غيرُ مقدورٍ للبشر، ولكنها تقول ذلك تعنُّتاً وعناداً، والله أعلم.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ

(١) تفسير «المنار» (١١: ٣٠١-٣٠٢).

﴿ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾.

وبعد أن كذَّب مزاعمَهم، بيَّن أن تكذيبَهم ناشئٌ من جهلهم بحقيقة ما اشتمل عليه القرآن، وذكر ذلك بأسلوب الإضراب، فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ من جميع وجوهه ونواحيه، ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ أي: ما يَؤُولُ إليه بالوقوع، أي: إنَّهم كذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمه جهلاً وعناداً، ومنه وعيدهم علىٰ كفرهم الذي لم يأتهم بعد، فلو ترىٰ حالهم حين يرونه، ثم سلَّىٰ الرسول ﷺ بإلفات نظره إلىٰ ما جَرَىٰ علىٰ المكذِّبين قبلهم، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ لأنفسهم بالتكذيب للرسل، استأصلهم العذاب؛ ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وبعد أن توعَّدهم بمثل عاقبة المكذِّبين قبلهم، أتىٰ بما له كالاستدراك علىٰ ذلك، وهو بيان الفرق بين عموم أمة الدعوة وعموم الأمم قبلها، حيث إن التكذيب في الماضين كان عامّاً إلا قليلاً منهم، فاستحقُّوا عذاب الاستئصال. وأما أمة الدعوة هذه من قومك في أم القرىٰ ومن حولها فالأكثر منهم مؤمنون أو سيؤمنون، وقليل منهم سيُصِرُّون علىٰ الكفر، فلا تستحقُّ هذه الأمة عذاب الاستئصال، ولكن سينال المكذِّبين وحدَهم نصيبُهم من عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة، فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي: إن قومك لن يكونوا كأولئك الظالمين من قبلهم الذين كذَّبوا رسولهم إلا قليلاً منهم، فكان عاقبتُهم عذابَ الاستئصال، بل سيكون قومك قسمين: قسماً سيؤمن وهو الأكثر، وقسماً لا يؤمن، ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾ فيُجازيهم جزاءً وفاقاً، وهو ما وقع في بدر، والله أعلم.

ثم أعاد التسلية بعد هذا البيان بصورة تُلائمه، فقال: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ أي:

أصرُّوا علىٰ تكذيبك ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ فلا يُؤَاخِذ اللهُ أحداً بعمل الآخر.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

ثم وصف حالَ الذين لا يؤمنون من قومه شارحاً عدم إحاطتهم بعلمه، فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾، ولكنْ لا يَتدبَّرون القول ولا يعقلونه، والسمع الذي لا يَنْبعث عنه الفهم والفقه: هو الصَّمَم، بل أقبح الصمم. ثم سبك تأنيبهم علىٰ تيئيس النبي ﷺ من هدايتهم، وقال: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي: ولو انضمَّ إلىٰ صَمَمِهم عدمُ عقلهم. والمعنىٰ: أنَّ إسماعَهم وتفهيمَهم ليس بممكن، لأن من انطبع علىٰ شيء، إذا وصل إلىٰ سمعه ما يخالفه، لا يراه جديراً بالنظر، لا سيما إذا لم يكن له ثقافة عقلية في نفس الموضوع.

ثم شرح حالهم في أفعاله ﷺ بعد ما شرح حالهم في أقواله، فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾، ولكنه لا يبصر ما آتاك الله من نور الإيمان والهَدْي للحق فكأنه أعمىٰ العينين، ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ فكيف لو كانوا فاقدين لنور البصيرة أيضاً؟

ثم ختم البيان بما يُنْبِئُ أنَّ هذه الحالات ليسوا مخلوقين عليها خلقاً، وإنما هي نتيجة كسبهم وتحريف مواهبهم، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ أي: لم يكن من شأنه ولا من سُنَّته في خلقه أن يُنقِصَهم شيئاً من الأسباب والمواهب التي يهتدون بها إلىٰ ما فيه

خيرهم، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ بتحريف تلك المواهب وإفساد تلك الغرائز، حتىٰ لا تكاد تصلح للهداية إلىٰ طريق الخير. فإنَّ غرائزَ البشر ومواهبَه كلَّها خيرٌ بذاتها وأصل خلقتها، ولكنه يُفسِدُها بسُوء التصرُّف بها. وأكبر عامل في ذلك فساد التربية وسوء العشرة.

ثم بيَّن مقدار ظلم المشركين لأنفسهم وخسارتهم لها بمقدار قلَّة مدة الدنيا بالنسبة لمدة الآخرة الطويلة المدىٰ، ليُدركوا مقدارَ الخسران، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: أن هذه الحياة الدنيا التي غرَّتهم بمتاعها الحقير الزائل، وحظوظها الدنيئة الزائفة، قصيرةٌ ستزول بموتهم، وسيُقَدِّرُون يوم القيامة قِصَرَها بساعةٍ من النهار، لا تَسَعُ أكثر من التعارف. وقيل: إنَّ المعنىٰ: أنهم يتعارفون بينهم يوم يحشرون، ويأخذون باللوم والتوبيخ والتحسُّر والندامة.

ثم نعىٰ علىٰ المُكذِّبين خسارتهم العظيمة لأنفسهم في ذلك اليوم، فقال: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ إذ خسروا السعادة الأبديَّة، بإفسادِهم استعدادَهم للإيمان وعمل الصالحات المُزكِّية للنفس والمُربِّية للروح، والمكيِّفة لها بكيفيَّة تُؤهِّلها لتلك السعادة العلية، فضَلُّوا الصواب، ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾ فيما اختاروه لأنفسهم من إيثار الخسيس الفاني علىٰ النفيس الخالد، أي: لم يكن عندهم في هذا العمل شيء من هداية العقل أبداً.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

ثم أردف السياق المتضمِّنَ لعِنادهم وتكذيبهم، بما فيه تحقيقٌ لما يتوعَّدهم الله به في الدنيا، وأنه سَيَجزيه حالاً أو مآلاً، وما يَتوعَّدهم به في الأخرىٰ بعد رجوعهم إلىٰ الله، وسَبَك ذلك علىٰ تسليته ﷺ وتثبيته، وتمَّم به الردَّ عليهم في تكذيبهم بما لم يأتهم تأويله،

فقال: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل وقوعه ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾، فيُجازيهم به جزاءً وفاقاً. وزيدت (ما) في (إنْ) الشرطية ونون التوكيد في فعل الشرط فكان توكيداً مزدوجاً. والمراد بذلك: تأكيد وقوع ما أوْعَدَ الله هؤلاء المشركين من العقاب في الدنيا، والمعنىٰ: أنَّ العذاب واقعٌ بهم لا مَحَالة، سواء رأيت بعضه أو لم تره، وبعد ذلك سيرجعون إلينا وينالون عقاب الآخرة الذي به يكذِّبون.

ولما بيَّن حالَ محمد ﷺ مع قريش وأكَّد لهم الوعيد، بيَّن أن حال كلِّ الأنبياء مع أقوامهم كذلك، فقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ يُرسَلُ إليهم؛ ليُبيِّن لهم أصول الدين من الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر، والأعمال الصَّالحات والعبادات الملائِمة لاستعدادهم حسب تدرُّج النوع الإنساني في سَعَة المعرفة والكمال، لِتَتكيَّفَ النفس بكيفيَّة تُؤهِّلها لسعادتها في ذلك اليوم، وتُبعِدُها عن الشقاء، ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ بذلك الدين الجديد فلم يؤمنوا به وبَقُوا علىٰ ما كانوا عليه، وقامت الحُجَّة عليهم ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾، بل ينالون الجزاءَ العادل في الدنيا والآخرة.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

وبعد أن أكَّد وقوع ما أوعَدَهم الله به من العذاب، ذكرَ استهزاءَهُم في ذلك الوعيد بصورة استبطاء، وقَرَنَه بالرد المسبوك علىٰ بيان حدود النبوة، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي:

كفارُ قريش للنبي ﷺ ومَن اتبعه من المؤمنين: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ الذي تتوعدون به ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ في قولكم: إن الله سينتقم لكم منا، وينصركم علينا؟

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ فَضْلاً عن أن أملك ذلك لغيرها، فليس بيدي ما تستعجلون به ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾، فيكون ذلك متىٰ شاء، لا شأن لي فيه ولا مشيئة. ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ في عذابها علىٰ تكذيب الرسل ﴿أَجَلٌ﴾ يُفسَحُ لهم فيه، قطعاً لمعاذيرهم ورجاءَ أن يثُوبوا لرُشْدهم، أما ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ المعيَّن لذلك ولم يؤمنوا ﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾، ونفيُ الاستقدام لتمكين المعنىٰ أو تتميمه، أو لتضمين معنىٰ: فلا يملك رسولهم أن يُقدِّمه.

ثم تابع السياق بوجهٍ آخر من الجواب، وهو: ما الذي تتمكَّنون منه إذا جاءكم العذاب حتىٰ تسألوا عن وقت وقوعه؟ فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ﴾ الذي تستعجلون به ﴿بَيَٰتًا﴾ أي: ليلاً ﴿أَوْ نَهَارًا﴾؛ إذ لا يَعْدُوهُما الوقت. وقد أقام مقامَ الجواب هذه الجملةَ المصدَّرة بالإنكار التهديدي ملتفتاً من الخطاب إلىٰ الغَيبة؛ للإبعاد والتحقير مع التجهيل، فقال: ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ وقد ضمَّن «يستعجل» معنىٰ: يتمكَّن، فعدَّاه تعديتَه، أي: ماذا يتمكنون أن يفعلوا إذا جاءهم العذاب في أيِّ وقت كان؟ وهذا الاستفهام للتهويل ووخامة العاقبة، أشفَعَه بعدم نفع إيمانهم وتصديقهم بعد وقوعه، فقال: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ أي: بالعذاب. ويجوز أن يكون الضمير لله سبحانه، أي: إذا ما أتاكم عذابه آمنتم به، بمعنىٰ: آمنتم بالله وقت نزول العذاب بكم.

ثم أنَّبهم ونَعَىٰ عليهم بقوله: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ أي: الآن آمنتُم بالعذاب أو بالله جَزَعاً، وقد كنتم قبل نزول العذاب تستعجلون العذاب مُكذِّبين مستهزئين.

وقد أردف البيانَ عن عذاب الدنيا بالبيان عن عذاب الآخرة، علىٰ نهج القرآن في

ذلك، وصاغَ العبارة بصيغة التحسيس والإيلام، فقال: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ أي: العذابَ الدائمَ المستمرَّ الذي كنتم به تستهزئون. وزاد في تأليمهم بما هو كالتعليل للحكم ونفي للظلم، فقال: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾ فأفسدتم مواهبَكم بسُوء تصرُّفاتكم فيها، وكيَّفتم نفوسَكم بكيفية هيَّأتها لِنَيْل هذا العذاب.

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

ثم أعاد الكلام علىٰ إنكارهم العذاب وعلىٰ تحقيقه، ولوَّن البيان بلون آخر، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، لأنَّ تقرير المعنىٰ في النفس والتهويل به عليها إنما يكون بالتكرار والتنويع في التعبير، وصاغ العبارة بصورة السؤال والجواب من أساليب القرآن، وإن لم يكن سؤالٌ في الواقع، (كما جاء في الفقرة (أ) من المادة الثالثة عشر، من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾ أم هو مُجرَّد إرهاب وتخويف؟ وقد يكون السؤال للاستهزاء، فأمر سبحانه الرسول بقوله: ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ لله عن إنزاله بكم.

ثم بيَّن هَوْل ذلك العذاب، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ﴾ أي: لو فُرِضَ لكُلِّ نفس تلبَّست بهذا العذاب أنها تملك جميع ما في الأرض من موجودات؛ لفضَّلت أن تتجرَّد منه فداءً من ذلك العذاب لو تهيأ لها. وهذا أروع تعبير عن شدَّة ذلك العذاب وهَوْلِهِ العظيم. أعاذنا الله.

ثم بيَّن حالتهم النفسية إذ ذاك بقوله: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ﴾، ثم بيَّن

تعالىٰ أن ذلك العقاب كان جزاءً عادلاً؛ جزاءً وفاقاً، فقال: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾ في ذلك، بل نالوا ما قدَّموه لأنفسهم، وأنهم هم الظالمون لها.

ثم ختم السياق بدليل قدرته علىٰ إنفاذ حُكمه وإنجاز وعده ووعيده، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وكلمة ﴿مَا﴾ أتىٰ بها لتغليب غير العقلاء، تقريراً لكمال قدرته سبحانه علىٰ جميع الأشياء، وبياناً لاندراج الكلِّ تحت ملكوته، يتصرَّف فيه كيفما يشاء، فهو قادرٌ علىٰ إنجاز وعده ووعيده، ووقوعُهما أمرٌ لا رَيْبَ فيه، كما قال: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ وهم منكرو البعث والجزاء ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ ذلك ولا يُصدِّقون.

ثم تابع التحقيق بهذا التقرير المسبوك علىٰ الاستدلال والتوعُّد معاً، فقال: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾، فالذي يُحيي ويميت يقدر علىٰ إعادتكم، فتنالون ما تستحقون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

ثم نبَّه إلىٰ مَكانة ما سَبَق من العلم والهداية؛ زيادةً في التحسيس بعظمة مواضيع هذا القرآن ومواقعها في التهذيب والتثقيف المُؤدِّيَيْنِ إلىٰ السعادة في الحياتين، والمُجنِّبَين عن الشقاءَيْن علىٰ نهج القرآن في إرداف الوعيد بالدعوة إلىٰ الرشاد، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وهذا القيد تذكير بما يستدعي الاتِّعاظ بها، لأنها من الله العليم الحكيم، ﴿وَ﴾ هي ﴿شِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ من الأمراض النفسية المُخِلّة بالحياتَيْن، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ تهديهم إلىٰ ما فيه صلاح حالهم في هذه الحياة وما يُؤهِّلهم للسعادة الأبديَّة في تلك الحياة التي ألمع إليها ونوَّه عن عِظَم شأنها بقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ من متاع الحياة الدنيا.

والمراد من (فضل الله): الهداية بهذا القرآن، فهي السبب لسعادة المسلمين في الدنيا والأخرىٰ إذا تمسَّكوا بها وعملوا بمقتضاها علىٰ الوجه الصحيح، وأحوالُهم وتاريخُهم في صدر الإسلام شاهدٌ علىٰ ذلك. والمراد من الرحمة: السعادة، وأعاد الباء فيها للإيذان باستقلالها في استيجاب الفرح، وقدَّم الجارَّ والمجرور لإفادة القَصْر، وأتىٰ باسم الإشارة للتقرير، وأدخل الفاء عليه لإفادة معنىٰ السببية، أما الفاء الثانية فهي للجزاء في الشرط الضمني، أي: إنْ فرحوا فَلْيَفرَحوا بذلك.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾.

ثم تابع الردَّ والإنكارَ عليهم، بالإنكار علىٰ باطلهم في التشريع؛ مُلمِعاً إلىٰ شدَّة حاجتهم لهذا القرآن، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ وكلُّ عطاء منه تعالىٰ يُعبَّر عنه بالإنزال، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]. وهكذا أنزل الله الرزق وأعطاكموه، ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ أي: فحرَّمتم منه ما لم يُحرِّم الله، وحلَّلتم ما لم يُحلِّل الله. وقد تقدَّم تفصيل ذلك في سورة الأنعام.

فأمر نبيَّه ﷺ أن يُؤنِّبهم ويبكِّتهم بقوله: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾، ووجه التبكيت: تحقُّق العلم بالشق الثاني، لأنَّ حقَّ التشريع في التحريم والتحليل لله سبحانه.

ثم توعَّدهم مشيراً إلىٰ سُوء حالهم وشدَّة عقابهم يوم القيامة، فقال: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أن يُفعَل بهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ يومَ تُجزىٰ كلُّ نفس بما عملت. وهذه الصيغة من أعظم صُور التهديد وأبلغ أساليبه.

ثم ختم السياق بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ في كلِّ ما خلقه لهم من الرزق، وكلِّ ما شَرَعَه لهم من الدين، وكلِّ ما وَهَبَهم من العقل المميِّز بين الحق والباطل، والحسَن والقبيح، والضار والنافع، ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾ فَضْلَه عليهم باتِّباع تعاليمه التي تُكْمِل فِطَرَهم وتزكِّيها وتُؤهِّلهم لسعادة الدارين، فيَجْنون بهذا الإعراض علىٰ أنفسهم؛ إذ يحرمونها من السعادتين.

قال في «المنار» ما ملخَّصه: لما ذكَّر تعالىٰ عبادَه بفضله وما يجب عليهم من شكره، وبكون أكثرِهم لا يشكرونه كما يجب عليهم، عطف علىٰ ذلك تذكيرَه لهم بإحاطة علمه بشؤونهم وأعمالهم كلِّها صغيرِها وكبيرِها، جليلِها وحقيرِها، وبكل ما في العوالم عُلْوِيِّها وسُفْلِيِّها، ليُحاسبوا أنفسهم علىٰ تقصيرهم في ذكره وشكره وعبادته، وبدأ بخطاب أعظمهم شأناً في أعظم شؤونه، فقال: ﴿وَمَا تَكُونُ﴾ أيها الرسول ﴿فِى شَأْنٍ﴾ أي: أمرٍ من أمورك المهمَّة الخاصَّة بك، أو العامة التي تُعالِج بها أمرَ الأمة في الدعوة إلىٰ سبيلك، ﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ أي: وما تتلو من أجل ذلك من قرآن أُنزِلَ عليك، سواء كان ذلك تبليغاً له أو تنفيذاً لأوامره وأحكامه أو تعبُّداً به. وإنما خصَّ هذا بالذكر من بين أعماله ﷺ لأنه أعظمُ أعماله ومعظم شؤونه.

و﴿مِن﴾ الأولىٰ للتعليل، والثانية للتبعيض. ويجوز أن يكون ضمير ﴿مِنْهُ﴾

للكتاب المفهوم من السياق. والتعبير في خطابه ﷺ بالشأن ـ وهو الأمر العظيم أو ذو البال ـ يدلُّ علىٰ أنَّ جميع أموره وأعماله ﷺ كانت عظيمة، حتىٰ العادات منها، لأنه قدوة صالحة فيها.

ثم التفت إلىٰ خطاب الأمة كلِّها في شؤونها وأعمالها[١] فقال: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ صغيراً كان أو كبيراً ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ أي: رُقباء مُطَّلعين عليكم، ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: تخوضون وتندفعون فيه، فنحفظه عليكم لنُنبِّئكم به، ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ أي: لا يَبعُدُ عنه ولا يغيب عن علمه ولا يخفىٰ عليه ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ أي: مهما بلغ من القِلَّة والدِّقَّة، لا مما ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا﴾ مما ﴿فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾[٢] أي: إلا وهو معلومٌ ومُحْصيّ عنده تعالىٰ[٣]. وإنما ذكَّرهم سبحانه بذلك ليُحاسبوا أنفسهم علىٰ تقصيرهم في ذكره وشكره وعبادته، وَلْيَستَبشِروا إذا أحسنوا فيها. وقدَّم ذِكرَ الأرضِ هنا لأنَّ الكلام مع أهلها، وأخَّره في آية «سبأ» المماثلة لها[٤] وقدَّم السماء؛ لأنها في سياق ثنائه تعالىٰ علىٰ نفسه ووصفه بإحاطة علمه، فناسب تقديم السماء لأنها أعظم[٥].

---

(١) فبعد أن كان يُجري الكلام علىٰ الرسول انتقل فأجراه علىٰ الأمة، ومثل هذا من خصائص اللغة وأساليب القرآن. (المؤلف).

(٢) هو علم الله سبحانه الأزلي الأبدي السرمديّ المتعلِّق بما كان وما يكون، لا ينفك عنها ولا يتجدَّد. (المؤلف).

(٣) أي: وما يعزب عن شهود ربك من شيء، وما من شيء إلا هو مكتوب في كتاب مبين، هو اللوح المحفوظ.

(٤) يعني: قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

(٥) ولأنَّ الحديث في آية سورة سبأ عن الساعة التي تبدأ أحداثها بتبدُّلٍ في السماوات فالأرض.

ثم قابل تهديدَ الـمُفْتَرين علىٰ الله الذين لا يشكرون فضلَه باتِّباع تعاليمه التي أنزلها علىٰ لسان رسله، بتبشير المتَّقين الشاكرين، تطميناً لهم من مخاوف تحذيره وإنذاره فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

ثم ذكر بعض صفاتهم التي عادت عليهم بذلك الفضل والأمان، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ اللهَ في جميع سُنَنِهِ الشرعية والكونية، فلا يعاكسون منها شيئاً.

ثمَّ صرَّح بما فُهِمَ ضِمْناً، فقال: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، لأنهم اتَّبعوا ـ فوقَ سُنَنِ الله التشريعية ـ سُنَنَ الله الكونيةَ فيها ولم يهملوها، فنالوا كلَّ الخير، ﴿وَ﴾ كذلك لهم البشرىٰ ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ لأنهم أقاموا سنن الله التشريعية المزكّية للنفوس والمؤهِّلة للنعيم المقيم؛ إذ ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وقوانينه وسُنَنِه، ولا خُلْفَ في مواعيده. ثم نوَّه بشأن هذا الجزاء، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ينالونه من سعادةِ الدارَيْن ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾، والبشرىٰ: هي الحالة التي تتألَّق لها بشرة الوجه، وقد عبَّر بها عن الراحة والسعادة والسرور.

وقد جاء عنه ﷺ: «أنَّ أولياء الله: الـمُصَلُّون، ومَنْ يقيم الصلوات الخمس التي كتبها الله علىٰ عباده، ومَنْ يُؤدِّي زَكَاةَ ماله طيِّبةً بها نفسُه، ومَنْ يصومُ رمضان ويحتسب صَوْمَه، ويجتنبُ الكبائر»(١).

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

---

(١) رواه الحاكم (٤: ٢٨٨) عن عمير الليثي، وصحَّح إسناده علىٰ شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

وبعد أن بيَّن تعالىٰ لرسوله حالَ أوليائه ـ وكان هذا يتضمَّن الوعد بنَصْرِهِ ونَصْرِ مَن آمن به ـ أكمل تسليته بقوله: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ الذي يقولونه في تكذيبك والسعاية ضدّك، ولا تَخْشَ عاقبته، ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ لا يملك أحدٌ من دونه شيئاً منها، و﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لما يقولون، ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾ بما يفعلون، فيذلهم ويُحبط أعمالهم.

ثم ذكر دليل سلطانه وقدرته المستقلَّة بجميع الشؤون، تحقيقاً لقدرته علىٰ إنجاز ما تضمَّنه السياق من وعد الشاكرين ووعيد الـمُغْتَرِّين وتثبيت رسول رب العالمين، فقال: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ خلقاً وملكاً. وأتىٰ بـ﴿مَن ﴾ دون (ما)، تناسباً مع السياق المتضمِّن للوعد والوعيد للعقلاء.

ثم سفَّه أحلام مَنْ يعبدون غيره سبحانه، وهو الآخِذُ بناصيتهم، والمالكُ لضُرِّهم ونفعهم، فقال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾، وحاصل المعنىٰ: أنهم ليسوا شركاء، فهو ينكر عليهم ويسخّفُهم، ويقرِّر جهلهم بقوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ في ادِّعائهم أنهم شركاء لله؛ يجلبون نفعاً أو يكشفون ضراً أو يُقرِّبون إلىٰ الله زلفىٰ، إن يتَّبعون في ذلك ﴿ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ والوهم الفاسد، ﴿وَإِنْ هُمْ ﴾ في هذا الادِّعاء ﴿إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾، إذْ يكذبون ويهرفون بما لا يعرفون، ويخدعون أنفسَهم وهم لا يشعرون.

ثم تابع البيان عن اختصاصه تعالىٰ بصفة الألوهية وأفعال الربوبية تأييداً لنفي ما يخرصون به من الشركاء، فقال تعالىٰ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ ﴾ مظلماً ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ لتبتغوا من فضله، فمَنْ يشاركه في هذا العمل العظيم الحكيم؟! ثم أتىٰ بما فيه نظر للعقول، فقال: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ ما تقدَّم سماعَ تبصُّرٍ وتفكير؛ ليعلموا أنه تعالىٰ جلَّ عن الشبيه والنظير والشريك والمعين. وفيه تعريضٌ بأن المشركين لا يسمعون ولا يعقلون. وفي هذا التبكيت بداعة من البلاغة

العالية في هذا القرآن العظيم، وهي صيغة الإيجاز بالمقابلة والاكتفاء، فقد حذف «مظلماً» اكتفاء بـ﴿مُبْصِرًا﴾، و«لتبتغوا من فضله» اكتفاءً بـ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾، وفي القرآن إيجازاتٌ من الحذف والاكتفاء لا تُحصَىٰ. جلَّ مَنْ هذا كلامُه.

﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

ثم أردف الكلام بأشنع كفرهم وأسخفه، وتعقَّبه بالإبطال، فقال: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ﴾ عمَّا لا يليق به، ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ بذاته عن الولد وعن كلِّ شيء، ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً، فالذي يجعلونه ولداً إنما هو من المخلوقين لله تعالىٰ والمملوكين، وليس ذلك شأن المولودين. وكلمة ﴿مَا﴾ هنا لتغليب غير العقلاء تقريراً لكمال غناه سبحانه، وأنه يملك جميع الموجودات.

ثم شنَّع عليهم بالجهالة والسخافة ناقضاً قولَهم هذا، بأنه غير مُستند إلىٰ برهان، وكلُّ ما كان كذلك فهو باطل، فقال: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ أي: إنما تقولون شيئاً غير مُسْتَند إلىٰ عقل ولا إلىٰ منطق وبرهان، ثم أنكر عليهم هذه الجهالة والفرية الشنعاء، فقال: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي: كيف تنسبون إلىٰ الله هذه النسبة من دون علم ولا تفكير؟

ثم أمره أن يؤنِّبهم ويتوعَّدهم علىٰ ذلك بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ باتِّخاذهم الشُّركاء له أو بزَعْمِهم اتِّخاذَه ولداً لنفسه أو بغير ذلك، كالتَّحليل والتَّحريم وغيرهما من مسائل التشريع ﴿لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾، وصلاح حالهم الحاضر

﴿مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

وقد أردف هذا السياق بقصص الأنبياء تأكيداً للتهديد والإرشاد، وتسليةً للنبيِّ ﷺ، وتوعُّداً للمشركين المعاندين، بأنهم ـ إنْ أصرُّوا علىٰ شركهم ـ فسيكون مصيرُهم مصيرَ أولئك المجرمين المعارضين من أقوام الأنبياء، فقال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي: واقرأ ـ أيها الرسول ـ علىٰ هؤلاء المشركين المكذِّبين مِن قومِكَ فيما أوعَدْتَهم مِن عِقاب الله لهم، ليقفوا علىٰ سابق سُنّته في المكذِّبين لرسله من قبلك، اقرأ عليهم خَبَرَ نوح ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى﴾ أي: شقَّ عليكم إقامتي بين أظهركم، ﴿وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لكم، وأردتم التَّخلُّص مني بالإيقاع بي؛ ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ دون سواه، ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ أي: تجمَّعوا أنتم وشركاؤكم الذين تعبدونهم وتعاونوا علىٰ مقاومتي، ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ﴾ الذي تعتزمونه ﴿عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي: فيه شيء من الحَيْرة والتَّخفِّي، بل جاهِروني به، ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ﴾ ذلك الأمر بأن تُنفِّذوه بالفعل، ﴿وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ أي: لا تُمهلوني في تنفيذه.

وقد ضمَّن ﴿ٱقْضُوٓا۟﴾ بالقاف معنىٰ «أَفْضُوا» بالفاء، وعدَّاه بـ«إلىٰ» ليؤدي المعنيين

معاً، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة، وفي القسم الثاني عشر من المقدمة السادسة).

ومحصَّل المعنىٰ: ثم أَفْضُوا إليَّ واقضوا عليّ، فعَدّىٰ ﴿ٱقْضُوٓاْ﴾ بـ«إلىٰ» لهذا الغرض بطريقة التضمين من أساليب القرآن. وإنما خاطبهم بهذا الخطاب إظهاراً لعدم المبالاة بهم والاستهانة بأمرهم ثقةً بالله سبحانه وتعالىٰ.

ثم أدمج التأنيب ضمن تبصيرهم علىٰ صدق دعوته بدليلٍ ملموس، فقال: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عنّي مُصرِّين علىٰ إعراضكم عن تذكيري لكم ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم﴾ عليه ﴿مِّنْ أَجْرٍ﴾ فتتَّهموني بأني أبغي من وراء ذلك غَرَضاً دنيوياً، كالرئاسة عليكم والتملّك فيكم. كلا، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ الذي أرسلني إليكم، فهو الذي يوفيني أجري.

ثم قَرَنَ الدعوة بالقول بالدعوة بالفعل، فقال: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ المنقادين المُذْعِنين لما أدعوكم إليه من التوحيد.

وهكذا عالجهم بهذه المعالجة النفسيَّة والحُجَّة الإقناعيَّة والبراهين الإلزاميَّة، ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ وأصرُّوا علىٰ كفرهم وعِنادهم وتمرُّدهم، فحقَّت عليهم كلمةُ العذاب.

وقد بيَّن سبحانه ما كان من استئصاله لهم بالعذاب، مُقدِّماً تَنْجية نوح والذين آمنوا معه، لتعجيل المسرَّة لهم بذلك، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ يخلفون الهالكين ويكون بَشَرٌ ثانٍ، ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ثم ختم القصة بالتحسيس بالعبرة تهويلاً لما جرىٰ عليهم وتحذيراً لمن كذَّب الرسول ﷺ من قومه، وتسليةً له وتثبيتاً، فقال: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه أنَّ ذلك لم يَزْجر مَنْ بَعْدَهُم من مُجْرمي أقوام الأنبياء، فقال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ أي: أرسلنا من بعد نوح رسلاً مثله إلىٰ أقوامهم، كهُود

إلىٰ عاد، وصالح إلىٰ ثمود، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: المعجزات الباهرات، ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾[1] أي: فما كان من شأنهم أن يؤمن المتأخِّر منهم بما كذب به المتقدِّم مِنْ قَبْلُ استكباراً من الرؤساء، وتقليداً أعمىٰ من الدهماء. وتعقيبُ المتأخِّرين خطىٰ المتقدِّمين سنةٌ من سنن الاجتماع. ويتضمَّن الكلام أنَّ المتأخر لم يعتبر بما جرىٰ علىٰ المتقدِّم. وفي صيغة التعبير إيماءٌ إلىٰ وحدة شؤون الأمم المنحدرة بعضها من بعض أو المتَّصلة ببعضها، وهو نظام اجتماعي لا يتبدَّل.

ثم ذكر سبب ذلك الإصرار، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ أي: علىٰ عقولهم ونفوسهم بتدسيتهم لها، ومحق نور فطرتها حتىٰ حَرَموها الهداية إلىٰ الصراط المستقيم المؤدِّي بسالكه إلىٰ النعيم المقيم، وأوقعوها في البلاء العظيم والعذاب الأليم.

ووَجْهُ طَبْع الله علىٰ قلوبهم: هو أنَّ سنَّة الله تعالىٰ مَضَتْ في أخلاق البشر وغرائزهم أنَّ من انطبع علىٰ الضلال من الأفراد والجماعات حتىٰ أصبح مَلَكةً له ودِيناً راسخاً في نفسه، لا يسمعُ لما يُخالفه من الهُدىٰ والحق، ولا يستنير به ولا يُصْغي إليه.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ

---

(١) يلمع بهذا إلىٰ أن الأبناء تقتفي أثر الآباء في الضلال، إذا لم يتبصَّروا ولم يتدبَّروا. وهكذا يطبع الله علىٰ قلوب المعتدين الذين يقلِّدون سلفهم تقليداً أعمىٰ، فينشؤون علىٰ الضلال، ولا يؤمنون بما كَذَّبَ به سلفُهم، وإن كان كالشمس في وَضَح النهار. (المؤلف).

إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وقد تابع السياق بذكر طبقة أخرىٰ قريبة من عصر الدعوة من أقوام الرسل الذين لم ينزجروا بما جرىٰ علىٰ المكذِّبين قبلهم، وقد فصَّل ذلك تفصيلاً وافياً، لما له من شديد الخطر وعظيم الأثر، إذ فيه من العبرة أنَّ قوة الحقِّ تثلُّ[1] العروش وتهدُّ أركان الباطل وإنْ تجبَّر أصحابه، فقال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: إلىٰ فرعون مصر وأشرافِ قومه الذين يملؤون العين رُواء، وإلىٰ قومهم القِبطِ بالتَّبَع؛ لأنهم كانوا مستعبدين لهم؛ يكفرون بكفرهم ويؤمنون بإيمانهم، بعثنا لهم موسىٰ وهارون وعزَّزناهما ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ اليد والعصا ـ وجمع الاثنين جائز في اللغة ـ أو التسع المفصَّلة في سورة الأعراف، ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عنها ولم يؤمنوا، ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

ثم فصَّل هذا الإجمال، فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ وهو الوحيُ إلىٰ موسىٰ، وتأييده بالآيات الكونية[2] ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾ أي: ظاهر مُؤثِّر علىٰ النفوس.

﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰٓ﴾ مُؤنِّباً لهم ومنكراً عليهم: ﴿أَتَقُولُونَ﴾ هذا القول ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ﴾؟ ثم بالغ بالإنكار فقال: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾؟! ثم وصله بما هو كالتقرير للإبطال أو كالدليل عليه، فقال: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾، لأنَّ السحر شَعْوذة لا تلبث

---

(١) ثلَّ اللهُ عرشَهم، أي: هدم ملكهم. «لسان العرب» (ثلل).

(٢) الصواب أن يقول: بالآيات الإعجازيَّة، والمؤلف يُفسِّر معجزات الأنبياء بأنها تجري علىٰ سنن كونية غير معلومة للناس، والصواب أنها خارقة لهذه السنن غير جارية عليها، كما تقدَّم التعليق عليه في مواضع. يُنظر على سبيل المثال (١: ١٨٢).

أن تنفضح. وإنما أنكر عليهم بهذا الإنكار؛ لأنهم أعرفُ الناس بالسحر، ولكنهم يكابرون. ويدلُّ علىٰ ذلك صورة هذا الإنكار.

ولـما ألزمهم وانقطعت حُجَّتهم عمدوا إلىٰ التَّشبُّث بالتقليد وإسداء التُّهم، و﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: لتكون لك ولأخيك كبرياء الرئاسة الدينية، وما يتبعها من كبرياء الملك والعظمة في أرض مصر، أي: لا غَرَضَ لكما من هذه الدعوة إلا هذا، ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ٧٨﴾ ومنقادين فيما يخرجُنا من دين آبائنا ويَسلُبُنا مُلكَنا وسلطانَنا.

ثم ذكر مُلَخَّص ما قاوم به فرعون دعوة موسىٰ، فقال: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾ لِـمَلَئِهِ: ﴿ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ٧٩ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ٨٠ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ﴾ حبالَهم وعِصِيَّهم المصنوعة بطريقة السِّحر والشَّعْوذة، ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُ﴾ أي: إنَّ الذي جئتم به إنما هو سحر وألاعيب مموّهة علىٰ الناظرين، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾ أي: سيُظهر بطلانه للناس، ويدركون أنه صناعة خادعة وشَعْوذة باطلة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨١﴾.

قال في «المنار» ما ملخَّصه: وهذه قاعدة عامَّة مبيِّنة لسنَّة الله في تنازع الحق والباطل، والصلاح والفساد، وغَلَبة الحقِّ والصلاح للباطل والفساد، ﴿وَ﴾ ذلك حيث ﴿يُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ التكوينيَّة، وهي مقتضىٰ إرادته، وبكلماته التشريعيَّة التي يُوحيها[1] إلىٰ رسله[2]. ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨٢﴾ أي: رغماً عن أنوفهم، ومن ذلك ما وعد سبحانه وتعالىٰ به موسىٰ من نصره علىٰ فرعون وإنقاذ قومه من عبوديته وظلمه.

---

(١) في «المنار»: يوجبها.

(٢) تفسير «المنار» (١١: ٣٨٣).

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّـَٔا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

ثم ذكر ما كان من شأن موسىٰ مع قومه بني إسرائيل الذي أرسله الله لِيُخْرِجَهم من مصر، فقال: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾[1].

قال في «المنار»: المتبادر إلىٰ فهمي: أنَّ عَطْفَ هذه الجملة بالفاء علىٰ ما قبلها لإفادة السببيَّة أو التفريع. والمعنىٰ: أنَّ إصرار فرعونَ وقومِه علىٰ الكفر بموسىٰ بعد خيبة السَّحَرة وظهورِ حقِّه علىٰ باطلهم، ثم عَزْمَه علىٰ قتله، كما قتل مَنْ آمن به من السَّحَرة، كل هذا أوقع الخوف والرُّعب في قلوب بني إسرائيل قوم موسىٰ، فما آمن له إلا ذريَّة من

---

(١) يلمع الكلام ـ والله أعلم ـ إلىٰ أنَّ الشبان لم ينطبع فيهم الضلال انطباعَه فيمن مارسوه طويلاً، فلا يزال فيهم بقية من نور الفطرة يمكن أن تعيَ الحقَّ وتتأثرَ بالإرشاد وتسلك سبيل الإرشاد. وضمير ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ يعود علىٰ الذرية، وأراد بهم أشراف بني إسرائيل والمترفون منهم. والمعنىٰ: أن هؤلاء الذرية آمنوا بموسىٰ مع خوفهم من سطوة فرعون ودسائس أشرافهم ومُتْرفيهم الذين لا يرغبون بقلب الوضع الحاضر لدولة فرعون؛ لأنه يسلب مراكزهم، ويُغيِّر أحوالَهم، ويفقدهم ثقة فرعون. وخصَّ الفتنة بفرعون، لأنه هو المسلِّط المنفذ، وملأُ بني إسرائيل أعوان له أو عيون. (المؤلف).

قومه، وهم الشبَّان، ﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيۡهِمۡ﴾ أي: أشراف قومهم الجبناء المرائين الذين هم عرفاؤهم وجواسيس عليهم عند فرعون فيما يطلب منهم، فإنَّ الملوك يَستَذِلُّونَ الشعوب ويستعبدونهم برؤساء وعرفاء منهم. فكان هؤلاء المؤمنون يخافون ﴿أَن يَفۡتِنَهُمۡ﴾ فرعون. وقد ذكر الفتنة وأراد الجزاء، مِنْ ذِكْرِ السَّبَبِ وإرادةِ المسبَّب، أي: أن يقتلهم، ﴿وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: قويّ مُستبدّ متسلِّط في أرض مصر يفعل ما يشاء، ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٨٣﴾ أي: المُفْرِطين في الظلم والقهر والاستبداد[1].

﴿وَقَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰ﴾ لما رأىٰ خوفهم من الفتنة: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ بعد التدرُّع بالصبر ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤﴾ منقادين لأمر الله.

﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ وتضرَّعوا إليه تعالىٰ داعين بهذا الدعاء: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٥﴾ أي: اختباراً لظلمهم حيث يتسلَّطون علينا ويفتنوننا عن ديننا بقوتهم وسلطانهم، ﴿وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ﴾ حُكم ﴿ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٦﴾ وقهرهم واستبدادهم.

ولفظ «الفتنة» هنا: يجوز أن تكون بمعنىٰ الفاتن أو المفتون، أي: لا تجعلنا فاتنين لهم، أو لا تجعلنا مفتونين بهم. ومؤدَّاه علىٰ الأول: لا تفتنهم بنا فيزدادوا كفراً وعناداً وظلماً بظهورهم علينا، حيث يظنُّون أنهم علىٰ الحق وأننا علىٰ الباطل، ولذلك ظهروا علينا. وعلىٰ الثاني: لا تَفتِنّا بهم فنضعف في اتِّباع نبيِّنا، أو نتولىٰ عنه فراراً من شدَّة ظلمهم لنا وإيذائهم وقهرهم.

فأنجَزَ الله لهم سبحانه هذا التَّضرُّع، وأمَرَهم أن يأخذوا له بالأسباب، فقال: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّـَٔا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا﴾[2] تكون لكم ملاجئَ تبوءون إليها

---

(١) تفسير «المنار» (١١: ٣٨٣-٣٨٤).

(٢) الظاهر أن الله سبحانه أمرهم أن يتَّخذوا لهم بيوتاً حصينة، وأن تكون متجاورةً ومتقابلة، لأنَّ =

وتعتصمون بها، ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: متقابلة في جهةٍ واحدة. فالقِبْلة في اللغة: ما يُقابل الإنسانَ ويكون تلقاءَ وجهه، ومنه: قبلة الصلاة. ويصحُّ الجمع هنا بين المعنيين العامِّ والخاصِّ بقرينة قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ولا يتعارض هذا الأمر مع المعنىٰ الأولىٰ وحده، ويجعل إقامة الصلاة مستأنفاً مستقِلاً؛ لأنه إنما أمرهم بإقامة الصلاة في هذا المعرض؛ لأنها تُعينُ علىٰ الصبر والثبات، لما فيها من مناجاة الله تعالىٰ.

ثم أمر موسىٰ أن يبلِّغهم وَعْدَ الله بقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: بحفظ الله لهم من فتنة فرعون. وإنما أفرد موسىٰ بالأمر بالبشارة والتبليغ؛ لأنها وظيفة صاحب الشريعة، وهو موسىٰ دون هارون، فإنه وزيرٌ له وظهير.

ثم حكىٰ سبحانه وتعالىٰ ما كان من دعاء موسىٰ علىٰ فرعون ومَلَئِهِ، واستجابة دعوته، فقال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ بعد أن يئس من إيمان فرعون وملئه، وأعَدَّ بني إسرائيل للخروج من مصر إعداداً دينياً ودنيوياً، قال مُتَوجِّهاً إلىٰ الله تعالىٰ في إتمام الأمر بعد قيامه بما يقدر عليه هو وبنو إسرائيل من الأسباب، قال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وقد أثبت البحث والتنقيب في نواويس قبور المصريين القدماء التي كُشِفَتْ حديثاً أنَّ عظمة المصريين في مدنيتهم وحضارتهم ومقتنياتهم في آثارهم لا تُضارعها حتىٰ مدنية العصر الحاضر، مع ما بلغ العلم والرقيّ العقلي في النوع الإنساني، وفيما حُفِظَ في دور الآثار المصرية وغيرها من العواصم الأوربية ما يشهد بذلك، مع كثرة تلك الأموال، ووجود أنواع من الزينة والحُلي، لم تكن لتخطر علىٰ البال.

وقد جَرَت سُنَّة الله بأنَّ كثرة الأموال عند مَن يحرفون طباعهم ويفسدون غرائزهم،

= ذلك أدنىٰ لسلامتهم من الفتنة، ونجاتهم من أذىٰ القوم، وأخفىٰ لأداء واجباتهم وتدبير أمرهم. (المؤلف).

تُورث الكبرياء والعُجْب والخُيلاء والطغيان، وإخضاع رقاب الناس لهم. لذلك قال موسىٰ: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾، وهذه اللام للعاقبة والصيرورة لا للتعليل، أي: فكانت عاقبة أمرهم أنْ كفروا بالنِّعَم وقابلوها بالعصيان والضلال البعيد. وقيل: هي للتعليل؛ لأن إيتاء النِّعم علىٰ الكفر استدراجٌ واختبار. وعلىٰ كلٍّ، فقد جعل هذا البيان توطئةً للدعاء عليهم، فقال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي: بالآفات والجوائح حتىٰ لا يرىٰ لها أثر.

ثم نسق مع الدعاء عليهم بيان تحريفهم لطباعهم ليكون كالتعليل الضمني له، وأخرَجه مَخرَجَ الدعاء، وساقه مساقه، فقال: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: بما أحاطتْ بها خطيئاتهم حتىٰ أفقدوها نورها واستعدادها للهدىٰ والرشاد، ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾، فهذا بيانٌ لما قد انطبعوا عليه من الضلال والعناد، فيه نتيجة تحريفهم لطبيعتهم وإفسادهم لها.

وإنما أخرجه مَخرَجَ الدعاء ونَسَقَه معه، مبالغةً في إظهار اليأس منهم. ولذلك أمره سبحانه بالاستقامة علىٰ الدعوة كما سيأتي، ولم يكن ذلك منه عليه السلام إلا بعد أن يئس من إيمانهم، واشتدَّت فتنتهم علىٰ المؤمنين وعلىٰ نشر الدعوة.

والفاء للسببية، وقيل: ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ﴾ معطوف علىٰ ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ وما بينهما اعتراض.

ولما دعا موسىٰ عليه السلام بهذا الدعاء عليهم، آذنه سبحانه وتعالىٰ بقبول دعائه، و﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾، وتثنيةُ الضمير تُنْبِئ باشتراك هارون عليه السلام مع موسىٰ بالدعاء، أو التأمين عليه، أو بالغرض منه. وإنما أسند القول أولاً إلىٰ موسىٰ وحده؛ لأنه هو صاحبُ الدعوة، وهارون وزيره فيها وناصره عليها. ويجوز أن يكون في تثنية الضمير إضافةُ ما للواحد إلىٰ الاثنين بحكم الاشتراك في أصل الأمر. وذلك من خصائص اللغة.

ولما كان غرضُ موسىٰ وهارون عليهما السلام من هذا الدعاء طَلَبَ إعانتِهما علىٰ هؤلاء المعارضين، أمرهما سبحانه ـ بعد الإيذان باستجابة دعائهما ـ بالثبات والاستقامة علىٰ نشر الدعوة، وقال: ﴿فَٱسْتَقِيمَآ﴾ علىٰ ما أنتما عليه من دعوة فرعون وقومه إلىٰ الحق، ومن إعداد بني إسرائيل للخروج من مصر، ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ أي: ولا تَسْلكان طريقَ الذين لا يعلمون سُنَّتي في خَلْقي، وإنجاز وَعْدي لرسلي، فتَستَعجِلا الأمر قبل أوانه.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

ثم حكىٰ سبحانه ما كان من أمر فرعون وجنوده وغرقهم، وتنفيذ حُكمِهِ فيهم، فقال: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ أي: ليفتك بهم ظلماً وعدواناً، أو أتبعهم بسرعة سَيْر، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾، وقد فُصِّلت صورة هذا الغرق في غير هذه السورة، علىٰ نهج القرآن في الاكتفاء، (كما جاء في المادة الثانية عشرة من المقدمة الثانية)، وحين أدركه الغرق ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ المنقادين له.

وفي هذه الآية دلالةٌ علىٰ أن المُحْتَضَر ينكشف له الحق الذي كان قد خفي عليه من أمر العقيدة والدين، ويذلُّ ويقرّ ويؤمن، ولكن لا يفيده ذلك؛ إذ لم يَعْقُبْ هذا الإيمانَ عملٌ صالح يُكَيِّفُ النفسَ من أهليتها للشقاء إلىٰ أهليتها للهناء بعد الموت، ولأنه إيمانُ

يأس وشدَّة خوف ومحاولة نجاة، لا إيمانٌ صادق، كما ينبئ عنه قوله تعالىٰ: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾.

ثم ذكر أنه سيجعله عبرةً لمن بعده، وقال: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي: نجعلك علىٰ نَجْوة من الأرض لينظر إليك من كَذَّبَ بهلاكك ممن يعتقدُ بألوهيتك، أو يغترُّ بعظيم قوَّتك، و﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ أي: لتكون عِبْرةً لمن بعدك من الناس. وهكذا كان، وهو اليوم رهن المتحف المصري علىٰ ما يقال.

ثم عقَّب علىٰ ذلك بقولـه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾، فيمرُّون بها كما تـمرُّ الأنعام في مَسَارحها.

وبعد أن ذكر سبحانه خاتمة فرعون وجنوده، قفَّىٰ علىٰ ذلك بذكر عاقبة بني إسرائيل، وختم القصة بالنَّعي عليهم والتوعُّد والتأنيب، فقال: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾، والـمُبوَّأ: مكان الإقامة. وأضيف إلىٰ الصدق للتنويه بشأنه ولتحقّق وعد الله فيه، وهو منزلهم من بلاد الشام الجنوبية المعروفة بفلسطين. والشيءُ الصِّدْقُ: هو المتَّصِفُ بجميع الصفات الممتازة، يقال: رجلُ صدق، وعالمُ صدق، ورمحُ صدق، وهكذا. فالـمُبوَّأُ الصدق: المكان الطيِّب الممتاز، أي: جَعَل الله لهم خير مهجر في فلسطين. لذلك أردفه بقوله: ﴿وَرَزَقْنَـٰهُم﴾ فيه ﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾، وقد أنزل عليهم نسخة الشريعة الـمُزكِّية لنفوسهم المُصْلحة لأحوالهم لو اتَّبعوها، ولكنهم لم يفعلوا، كما يُنْبئ عن ذلك قوله: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي: فما اختلفوا اختلافهم الشديد إلا بعد أن جاءهم عِلمُ الدين المؤدِّي إلىٰ الائتلاف، وفيه مبالغة في التأنيب بفساد نفوسهم. وقيل: المراد من العلم هو ما كانوا موعودين به من نزول هذا القرآن علىٰ محمد ﷺ؛ إذ هو أكملُ وأتمُّ ما أنزل الله من علم الدين علىٰ لسان الأنبياء والمرسلين، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦] أي: مشحوناً بعلمه، والله أعلم.

ثم توعَّدهم علىٰ ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾، فيجازيهم علىٰ ذلك بما يستحقون.

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾.

ثم أردف قصص الأنبياء التي أتىٰ بها تسليةً للرسول ﷺ، أردفها بما يُقرِّر صِدْقَ القرآن في وَجْهِ بيانها، مخاطباً النبيَّ ﷺ بأسلوب من أساليب المُحَاجَّة والإثبات، وهو أسلوب الشكِّ ليبني عليه اليقين، فقال: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ في هذه القصص من أمر موسىٰ ونوح وغيرهما، وما جرىٰ علىٰ المكذِّبين من تلك الأمم، ﴿فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: ممَّن آمن منهم بك، فهم يقرؤون في كتابهم أنك مُرسلٌ من ربِّك.

وأسلوب فرض الشك هذا من أساليب العرب، يُعبَّر به للحضِّ علىٰ شيء يترتَّب عليه، أو للمبالغة في إثبات شيء كذلك، يقول أحدهم لابنه: إن كنت ابني فكن شجاعاً، أو فلا تكن بخيلاً، يريد حَمْلَه علىٰ الأمر، وهو لا يشك بأنه ابنُه حقاً.

ويجوز أن تكون هذه الآية من أسلوب مخاطبة الرؤساء بما يفعله الأتباع، وهو من أساليب العرب أيضاً، يقال للملك أو الرئيس: إذا فعلت هذا كانت عاقبته كذا، والمراد: إذا فَعَلَتْهُ دولتُك أو أُمَّتُك. فيكون خطاباً للأمة في شخص النبي ﷺ.

وإنما أَمَرَهُ أن يسأل من أهل الكتاب، لأنَّ مشركي قريش يعتمدون علىٰ أهل الكتاب، ويثقون بهم، ويقبلون آراءهم.

ثم قـرَّر السياق بقول: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ فيما جاء في هذه القصص.

ثم عزَّز التقرير بقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾، فهذا تثبيتٌ له بعد تسليته، وتقريرٌ لرسالته، يُعَرِّضُ بهؤلاء المكذِّبين المعارضين. وهذا الأسلوب أبلغ في تقريعهم وتأنيبهم وتوعّدهم من أيِّ أسلوب آخر.

ثم ختم السياق ببيان سِرِّ إصرار الكَفَرة علىٰ ما هم عليه من الكفر والضلال، قاطعاً طَمَعَه في إيمانهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾﴾، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠]. فالمراد: هذه الكلمة التكوينيَّة في أخلاق الإنسان وغرائزه، وهي أنَّ من انطبع علىٰ الكفر والضلال بصُنعه وكَسْبه يفقد الاستعداد للاهتداء والرشاد، فهؤلاء ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾[1] من الآيات الكونية[2] كآيات موسىٰ التي اقترحوها عليك، والآيات المنزَّلة كآيات هذا القرآن العلميَّة العقليَّة الدالَّة بإعجازها اللفظي والمعنوي علىٰ أنها من عند الله، والدالة ببراهينها وبمنطقها العقليِّ والوجدانيِّ علىٰ حقيقة ما تدعوهم إليه وتنذرهم إيَّاه، ولكنهم لا يؤمنون ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾، وحينئذ لا ينفعهم الإيمان.

---

(١) كل مَنْ دسَّىٰ نفسه وأفسد فطرته بمفاسد التربية وسُوء القدوة وتمكّن منه الضلال، حقَّت عليه كلمةُ ربِّك بمقتضىٰ السنة التكوينية في طبيعة الإنسان، وهي: أنه لا يؤمن، وكل من حقَّت عليه كلمة ربك بمقتضىٰ هذه السنة التكوينية، لا يمكنه أن يؤمن، ولكن الله سبحانه ـ حين خلق الإنسان بهذه الطبيعة ـ جهَّزه بوقايتين: هدايته إلىٰ الحق بطبيعته المفطورة علىٰ ذلك، وهدايته بالشريعة. (المؤلف).

(٢) الصواب أن يُقال: الآيات الإعجازية، كما تقدَّم التعليق عليه في هذه السورة ص١٩٢.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

ثم فرَّع علىٰ هذا البيان هذا التأسيفَ والتأنيبَ المطبوع علىٰ الدعوة والإرشاد، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، وهو تعقيبُ النقد علىٰ الكفر بالدعوة إلىٰ الإيمان، فقال: ﴿فَلَوْلَا﴾ أي: فهلَّا ﴿كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾ من قرىٰ أقوام أولئك الرسل ﴿ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ من العذاب الذي أُنذروا به، ثم استثنىٰ من ذلك بطريقة الاستثناء المنقطع والاستدراك، قوله: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟﴾ قبل وقوع العذاب بهم، ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾ فيها ﴿إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ مجيء آجالهم. وقد تضمَّن الكلامُ تأنيبَ أقوام الأنبياءِ علىٰ عدم الاقتداء بقوم يونس عليه السلام.

ثم علَّق علىٰ هذا السياق المبيِّن لسُنَّة الله في خلق الإنسان واستعداده للكفر والإيمان، وأنه إن انطبع علىٰ الكفر بنتيجة التربية الضالة والتقليد، لا يُؤمِنُ ولو جاءَتْهُ كلُّ آية، علَّق عليه بما يقرِّر ويُشعِرُ بأنَّ ذلك الإعراض منهم ليس قهراً لقدرة الله، ولا قَسْراً لإرادته تعالىٰ، فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾، وذلك بتغيير هذه السنَّة في طبيعة البشر، بأن يخلقهم مَقْسُورين علىٰ الإيمان والخير، لا يميلون لغيره، وليس فيهم استعداد للكفر والشر كالملائكة، ولكن حكمة الله اقتَضَتْ أن يكون البشر مختاراً في تصرُّفاته ليكون خليفةً في الأرض، يتصرَّف فيها بفعله واختياره المطلق، وذلك يجعله مستعدّاً للهُدىٰ والضلال، ورائدُه في الميل إلىٰ كلٍّ منهما عقلُه وتفكيرُه، وهذان يتأثَّران بمُؤثِّرات التربية، وينطبعان بطوابع البيئة، ويتلقَّحان بالـمُصَاحَبة، حُسْناً وقُبْحاً.

وقد مهَّد بهذا البيان لتسليته ﷺ بقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟

﴿مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ أي: إنَّ هذا ليس في استطاعتك مهما حرصت عليه، إذ ليس في إمكانك تغيير سنن الله في طبيعة الإنسان.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[1]، وذلك لأنَّ كلمة الله سبحانه قَضَتْ أنَّ من دسَّىٰ نفسه لا يُمكِنُه أن يؤمن. وهذا هو معنىٰ كونه لم يأذن الله له بالإيمان، أي: بحسب سُنَّته التكوينيَّة، كما لم يأذن لحبة البُرِّ إذا نَخَرَها السُّوسُ أن تَنبُت. فيُيَسِّرُ الإيمان للذين يستعملون عقولهم التي لم يفسدوا طبيعتها ولم يطمسوا نورها، ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ أي: الخِذلانَ والخِزْيَ الناجم عن الكفر والفجور ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾، لأنهم طمسوا نور عقولهم وأفسدوا طبيعتها بصنعهم.

﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

وبعد هذا البيان أمر نبيَّه ﷺ أن يُؤَنِّبهم ويُنبِّههم إلىٰ ما في السماوات والأرض من

---

(١) كل من زكَّىٰ نفسه وحافظ علىٰ سلامة فطرته ونفوذ بصيرته فقد أذن الله سبحانه له ـ بمقتضىٰ سنته الكونية في طبيعة الإنسان ـ أن يؤمن، وكلُّ مَنْ أذن الله له سبحانه أن يؤمن يُمكِنُه أن يؤمن، فكل من زكّىٰ نفسه وحافظ يُمكِنُه أن يؤمن. وكلُّ مَنْ دسَّىٰ نفسه ولم يحافظ علىٰ سلامة فطرته ونور بصيرته لم يأذن له الله سبحانه بالإيمان بمقتضىٰ سنته التكوينية فيه، وكل مَنْ لم يأذن له سبحانه بالإيمان بمقتضىٰ ذلك لا يُمكِنُه أن يؤمن، فكل مَنْ دسَّىٰ نفسه ولم يحافظ علىٰ سلامة فطرته ونور بصيرته لا يُمكِنُه أن يؤمن.

وخلاصة المعنىٰ: أنَّ الله سبحانه لما خلق الإنسان مختاراً في تصرُّفاته، هَدَاه إلىٰ الحق والصواب بهدايتين : هدايةِ الطبيعة، حيث جعله بطبعه ميَّالاً إلىٰ الحق ما لم يفسد طبيعته بمفاسد التربية وسوء القدوة، وهدايةِ الشريعة التي خصَّه الله بها دون سائر المخلوقات، فكلها مهدية بهداية واحدة، وهي هداية الطبيعة فقط. (المؤلف).

آيات بيِّنات دالة علىٰ وحدانيَّة الله تعالىٰ في الألوهية والربوبية، إقامةً للحُجَّة عليهم، فقال: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الآيات البيِّنات والعجائب الباهرات التي تُنادي علىٰ اختصاصه سبحانه بالألوهيَّة والربوبيَّة، إذْ لا شريك له في صنعها.

ثم رجع إلىٰ بيان حالهم في إصرارهم، وسَبَك ذلك علىٰ التأنيب والتوبيخ، فقال: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾[1]، لأنَّ من انطبع علىٰ الشِّرك والضلال لا يميل إلىٰ الإيمان بالتوحيد، ولا يراه جديراً بالتفكير ورعاية النظر. والمؤمن هو الذي ينظر بنور الله؛ لأنه زكَّىٰ نفسه علىٰ فطرتها السليمة، ولم يُدسِّها، بخلاف المشرك والضال. ويجوز في (ما) أن تكون للنفي، أو للاستفهام بمعنىٰ النفي.

ثم أردف هذا بتنبيههم إلىٰ ما هم صائرون إليه إن أصرُّوا علىٰ شركهم، كما هي سُنَّة الله في أمثالهم، وقال ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ممَّن كذَّبوا الرسل حسبما قَصَصْنا عليك من قبل، لذلك ﴿قُلْ﴾ لهم مُنْذِراً ومُتَوعِّداً: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ ما سيكون من عاقبتكم، ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

وبعد أن أنذر المشركين بالعذاب حسب سُنَّتِهِ تعالىٰ في الـمُصِرِّين علىٰ الشرك من أمثالهم، بيَّن سُنَّته تعالىٰ في تَنْجية المؤمنين، كَيْ لا يتسرَّب إليهم شيءٌ من الخوف، فقال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وهذا معطوف علىٰ محذوف يُفهَمُ من السياق، علىٰ نهج القرآن في مثله، والتقدير: فسنهلك المكذِّبين ثم نُنجِّي رُسُلَنا والذين آمنوا. وقد قرَّر الوعد ببيان سُنَّتِهِ في ذلك، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ أي: مَضَتْ سُنَّتنا ـ إن استأصلنا بالعذاب الـمُصِرِّين علىٰ الكفر من أقوام الرسل ـ أن نُنَجِّيَ المؤمنين من بينهم.

---

(١) كل مَنْ آمن يُبصِرُ الحق وينظر بنور الله، وكل مَنْ لم يؤمن لا يُبصِرُ الحق ولا ينظر بنور الله. وكل مَنْ لا يبصر الحق ولا ينظر بنور الله لا تغنيه الآيات والنذر، فكل من لا يؤمن لا تُغنيه الآيات والنذر.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

ثم ختم السورة بالدعوة الفعلية إلىٰ العقيدة الإسلامية؛ مُبيِّناً حَقِّيَّتها، ومُظْهِراً مزاياها التي يدعُو العقل السليم إلىٰ التمسُّك بها، مقارناً بينها وبين سَخَافة عقيدتهم ومَهانَتِها، فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ أي: من صِحَّة ديني الذي أدعوكم إليه، وأنه حقٌّ وما تدعون إليه باطل، فأنا متيقّن ذلك، ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ممَّن يعجز عن أمر نفسه، ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ بالموت، ثم يبعثكم فيُحاسبكم ويجازيكم. وإنما ذكر الوفاة لأنهم لا يشكُّون فيها، فأشار إلىٰ ما وراءها من الحساب، أي: إني أُخْلِصُ العبادة لمن يقدر أن يفعل ذلك، لا لغيره ممَّن يعجز عن إنقاذ نفسه من الذباب.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي: أُمِرتُ بأن أُقيمَ وجهيَ للدين القيِّم الذي لا عِوَجَ فيه، وأن أميلَ عن كلِّ دين سواه. والمراد: التوجُّه إليه وحده، في الدعاء والالتجاء. والدعاء مخُّ العبادة. وإنما غيَّر الأسلوب فأتىٰ بصيغة الأمر للاهتمام بمضمونه، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (هـ) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية).

ثم أردف الأمرَ بالنهي عن ضدِّه، علىٰ نهج القرآن في تقرير المعنىٰ، فقال: ﴿وَلَا

﴿تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ الذين يجعلون بينهم وبين الله حجاباً من الوسطاء والشفعاء. وهذا خطابٌ عام في شخص النبي ﷺ، على أسلوب العرب في خطاب الرؤساء بما يجب أن تفعله أُممهم. والمراد به إظهار المبالغة في تجنُّب الشِّرك.

ثم أتبَعَ المعنىٰ المُجْمَلَ في النهي عن الشِّرك بالمعنىٰ المُفَصَّل فيه، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ أي: لا يقدر علىٰ شيء لك أو عليك، ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ لأنفسهم بهذه العقيدة الضالَّة، وبحرمانها من النعيم، وإلقائها في العذاب الأليم، وإنَّ الشِّركَ لَظُلْمٌ عظيم.

ثم قابل مَهَانةَ أولئك وعَجْزَهم بقُدرةِ الله العليَّة، وتَصَرُّفِهِ العظيم في شؤون خلقه، واختصاصه بصفات الألوهيَّة، وجَعَلَه كالتعليل لما قبله، فقال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ بمقتضىٰ السنن الكونيَّة المقرَّرة في ذلك، ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾، ولولا ذلك لأهلك الناس بذنوبهم في الدنيا قبل الأخرىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

ثم ختم البلاغ بهذا النداء الحاضِّ علىٰ الاهتداء بهذا القرآن، فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ به ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾، لأنه ينال السعادة بهذا الاهتداء، ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عنه ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: فإنما وبالُ ضلاله علىٰ نفسه بما ينالها من الشقاء، ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾ أي: بمسيطر عليكم، أُكرِهُكُم علىٰ الإيمان به، ولكنِّي بشيرٌ ونذيرٌ لقوم يفقهون.

ثم أمره بالتثبُّت في نشر الدعوة والصبر علىٰ كلِّ ما يُصيبُه من جرَّائها حتىٰ يأتي وعد الله، فقال: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ علىٰ سُنَّته في الحكم بين المرسلين والمكذبين، ويُنْجِزَ لك ما وَعَدَك به من النصر والتأييد، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ وأصدَقُ الواعدين ومُؤيِّدُ المرسلين.



مكيَّة، وهي مئة وثلاث وعشرون آية

وموضوعها عينُ موضوع سورة يونس:

أصول عقائد الإسلام في الإلهيّات والنبوّات والبعث والجزاء وعمل الصَّالحات.

وقد فصَّل فيها ما أجمَلَه في سورة يونُسَ من قَصَص الرسل عليهم السلام، وتنزيل القرآن والحاجة إليه والتنويه بشأنه وتحدِّيهم به.

ثم ختمها بما يناسب السياق.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣﴾.

﴿الر﴾ مرَّ تفسيرها في سورة البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها أنها للتنبيه والاهتمام بما يأتي بعدها، ومنه هنا قوله: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ أي: جُعلت منطبقةً علىٰ الواقع والحقيقة، مُحكَمةَ النَّظْم والتأليف، جليلةَ المعاني، بليغةَ الدلالة والتأثير، ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ ببيان حقائق العقائد والأحكام والمواعظ، وسائر ما أُنزِلَ الكتابُ له من العلوم التربوية، والمعارف والفوائد الروحية، كيف لا وهو ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾؟ فكلُّ ما فيه: هدايةٌ وحِكَمٌ وعلومٌ ورشاد، بما يكفل السعادة في الدارَيْن للعباد.

ثم ذكر أعلىٰ ذلك شأناً، وهو الدعوة إلىٰ التوحيد وما إليه، فقال: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢﴾ نذيرٌ بالعذاب الأليم لِـمَنْ كفر وعصىٰ، وبشيرٌ بالنعيم المقيم لمن آمَنَ واتَّقىٰ.

ثم عطف علىٰ قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ قولَه: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا﴾ في الحياة الدنيا ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يقبضكم فيه، ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ في الحياة الأُخرىٰ، ويجازيه بما لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ علىٰ

قلب بشر، ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾[1] عما أدعوكم إليه، ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣﴾، هَوْلُه شديد، وبُؤْسه مديد. أعاذنا الله.

ويجوز أن يكون هذا إنذاراً بعذاب الاستئصال في الدنيا، وأما عذاب الآخرة فقد ضمَّنه قولَه تعالىٰ: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ بعد موتكم ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤﴾، وليس ذلك المرجع في قدرته إلا أمراً يسيراً.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾.

وبعد أن دعا إلىٰ التوحيد، وذكَر البعثَ والجزاء، وبشَّر وأنذر، بيَّن حال المشركين عند تبليغهم الدعوة وإلزامهم بالحُجَّة، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ﴾، وهذا تصويرٌ لما كان يحاوله بعض الكفّار والمنافقين عند سماع القرآن من الاستِخفاءِ منه بالإعراض عنه وثَنْي الصَّدر. ويجوز أن يكون ذلك منهم عند سماعهم قوارعَ التأنيب أو مجرَّدَ تمثيل لحالهم، والله أعلم، فكلمة ﴿أَلَآ﴾ لتحقيق الوقوع.

ثم بيَّن سبحانه عِلمَه الدقيقَ الواسع بهم، توعُّداً ونعياً عليهم، وجَعَله علىٰ نَسَق الكلام، فقال: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: يأوون إلىٰ فراشهم، وقيل: بل المراد بذلك أن يحنيَ الشخصُ ظهرَه ويستغشي بثوبه ويُضْمِرَ همَّه في نفسه. وهذه صُورةٌ لأخفىٰ ما يحاول الرجل إخفاءه من الحال أو الكلام، وأنَّ الله سبحانه لا يخفىٰ عليه ما يُخفون، بل ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، وقوله: ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ تكميلٌ للمعنىٰ، ذُكِرَ

---

(١) أي: تَتولَّوا.

للمُقايَسة وعدم الفَرْق، وليس داخلاً في صورة استغشاء الثياب. والمراد: استواء عِلمِهِ تعالىٰ بسِرِّهم وعلانيتهم علىٰ حدٍّ سواء.

ثم ذكر سبحانه من علمه ما هو أدقُّ من ذلك، فقال: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾ أي: بما تحويه الضمائر من التصوُّرات والهواجس.

ثم أكَّد سبحانه سَعَةَ علمه مُدْمِجاً في ذلك إحاطةَ رزقِه ودقةَ ضبطِه، علىٰ نهج القرآن في الإدماج، لأن تنظيم الرزق في هذا العدد الكبير مبنيٌّ علىٰ علم واسع وإحصاء دقيق بحيث لا يفوته شيء أين ما كان، فقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ وهو عِلمُ الله الواسعُ الأزليُّ الأبديُّ السَّرْمديّ، لا يغيب عنه ما كان وما يكون وما هو كائن، يعلمه بعلم مُستمرّ لا يتجدَّد ولا ينقطع ولا يغيب.

والدابَّة: كل ما يدبُّ علىٰ الأرض من مخلوق.

وقد ذكروا للمُستَقَرِّ والمُستَودَع معانيَ بعضها علىٰ تقديرِه اسمَ مفعول، وبعضها علىٰ تقديرِه اسمَ مَكان. ومن أقوالهم: أن المراد بالمستقر: مكانُها من الأرض، والمراد بالمستودع: ما كانت فيه قبل ذلك من صُلب أو رَحِم أو بيضة أو قبل هذا الدور. ويجوز أن يراد بالمستقر: مأواها، وبالمستودع: ما تنتشر فيه. والله أعلم.

والمراد من الكتاب المبين: علم الله الواسع، أو هو كنايةٌ عن الإحصاء، سِيقَ لتقرير ما قبله، أو هو شيء استأثر الله بعلمه[1]. والله أعلم.

---

(١) وهو اللوح المحفوظ، فقد روىٰ الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢: ٧٢) (١٢٥١١) عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله خلق لوحاً محفوظاً من درّة بيضاء، صفحاتها من ياقوتة حمراء، قلمه نور، وكتابه نور، لله في كل يوم ستون وثلاثمئة لحظة، يخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويُعِزُّ ويُذِلُّ، ويفعل ما يشاء». =

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾.

ثم أردف سَعَةَ عِلمِه تعالىٰ بسَعَة عَمَلِهِ وقدرته تكميلاً للسياق، فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ من أيام الله سبحانه وتعالىٰ في الخلق والتكوين، وليس المراد بها أيام الأرض؛ لأنها شيءٌ نتج بعد هذا الخلق. وقد مرَّ الكلام علىٰ مثل هذه الآية في سورة الأعراف[1] وغيرها، فارجع إليه.

ثم قال تعالىٰ: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾، قال أبو مسلم: العرش مصدر من قولهم: عرش يعرش عرشاً، بمعنىٰ: بنىٰ، وكلُّ بناء يُسمَّىٰ عرشاً، وبانيه يُسمَّىٰ عارشاً[2]. قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨] أي: يَبْنون، وقال في صفة

= ورواه الطبراني (١٠: ٣١٦) (١٠٦٠٥) في رواية أخرىٰ موقوفاً علىٰ ابن عباس رضي الله عنهما. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٧: ٩١: رجاله رجال الثقات. أقول: مثل هذا البيان لا يقال من قِبَل الرأي، فينبغي اعتماده.

(١) في الآية ٥٦ منها.

(٢) تقدَّم التعليق علىٰ قول أبي مسلم في العرش في تفسير الآية ٥٤ من سورة الأعراف، وبيان أن الصواب إثبات العرش الذي هو مخلوق عظيم دالٌّ علىٰ عِظَمِ قدرة الله تعالىٰ وسلطانه.

القرية: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الحج: ٤٥]، والمراد: أن تلك القرية خَلَت منهم مع سلامة بنائها وقيام سقوفها.

فالمراد من قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾: وكان بناؤه للسَّماوات والأرض علىٰ الماء[١].

وقيل: العرش مركز نظام الملك، مستعار من حالة ملوك المُخَاطَبين، علىٰ نهج القرآن في استعارة بعض المعاني المسندة له تعالىٰ مِنْ حالة المُخاطَبِين تقريباً للأفهام، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة)، ولأنه سبحانه يخاطب الناس في تعريف ذاته وصفاته بما اعتادوا أن يعرفوه في ملوكهم وعظمائهم.

وقال ابن الجوزي[٢]: هذه العبارة وأمثالُها يعبِّر بها القرآن لتحقُّق الوجود لله سبحانه وتعالىٰ في الأذهان بصُورة تتناسب مع تصوُّرات الإنسان، من باب التعبير عن المعقول بصُورة المحسوس.

والمراد من الماء: ما يسمَّىٰ بالسديم في عرف علماء الفلك؛ لأنه شيءٌ بين الماء والبخار، وقد عبّر القرآن عنه تارة بالماء وتارة بالدخان تقريباً لعقولنا، والله أعلم. وهذا السديم هو أصل السماوات وما فيها والأرض وما عليها. فعلىٰ اعتبار أنَّ العرش كناية علىٰ السلطان، يكون المعنىٰ: كان سبحانه ولا شيء معه، ثم أوجد السَّديم فكان سلطانه

---

(١) بل المعنىٰ الصحيح: وكان عرش الله قبل خَلْقِهِ السماواتِ والأرضَ علىٰ الماء. والعرش: مخلوق عظيم فوق السموات السبع ومحيطٌ بها كما تقدَّم.

(٢) هو أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي (٥٠٨-٥٩٧هـ) علامة عصره بالتاريخ والحديث كثير التصانيف منها: «المدهش»، و«روح الأرواح»، و«الأذكياء وأخبارهم». «الأعلام» للزركلي (٣: ٣١٦-٣١٧).

عليه ولا شيء سواه، ثم أوجد منه سائر المخلوقات فكان عرشه عليها يُدبِّرُ أمرها. هذا رأيي، والله أعلم. ويجوز أن يكون الفضاء مخلوقاً قبل السديم. والله أعلم.

ثم علَّل سبحانه خلقه للسماوات وما فيها والأرض وما عليها، بحكمة من حِكَم ذلك الخلق، خاصَّة بالبشر المكَلَّفين، فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، والقرآنُ يُعلِّل خَلْقَ الشيء بوجه ملائم للبحث من وجوهه المتعددة، أي: ليجعل ذلك وسيلة إلىٰ خلقكم واختباركم أيُّكم أحسنُ عملاً ليجازيكم علىٰ أعمالكم، يُعبِّر بهذا عمَّا لتأثير عمل الإنسان في مصيره في الآخرة، وأنَّ سعادتها وشقاءها يكونان بنسبة هذا العمل خيراً أو شراً.

وبعد أن نبَّه إلىٰ قدرة الله العظيمة الظاهرة للعيان في خلق السماوات والأرض، أَنَّبَ المنكرين للبعث بقوله: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾ لِتُجْزَوْا بأعمالكم، أنكروا ذلك علىٰ قدرة هذا الخالق العظيم، وكذَّبوا هذا القرآن الذي جاء بأمر البعث، كما حكىٰ ذلك عنهم بقوله: ﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ أي: إنَّ هذا القرآن تُسْحَرُ به العقول، حتىٰ جَعَل أصحابَ محمد يُصدِّقون بالبعث. وقال القفّال[1] ما ملخَّصه: إنَّ معنىٰ الآية: إن القول بالبعث سحر مبين، أي: خديعةٌ ظاهرة البطلان، وضعتموها لمنع الناس عن لذّات الدنيا لينقادوا لكم، وليدخلوا تحت طاعتكم.

ثم عطف عليه ما يقوله هؤلاء المكذِّبون المنكرون، إذ أنذرهم الرسول ﷺ بعذاب الدنيا، وجَعَل ذلك وعيداً علىٰ إنكار الحشر، تحقيقاً لطريقة القرآن في تعقيب الوعيد للإنكار، فقال: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ أي: إلىٰ مدَّة مُعيَّنة مُقدَّرة في علم الله ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾ مستهزئين: ﴿مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ عنا؟

---

(١) هو أبو بكر الشاشي، سلفت ترجمته (٢: ٩٧).

فردَّ عليهم سبحانه متوعِّداً إيَّاهم بقوله: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ أي: إنَّ له يوماً يأتيهم فيه متىٰ انتهت المدة المعدودة المضروبة دونه، فيومئذ لا يَصرِفُه عنهم صارف، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾ أي: وسيحيط بهم يومئذ من كل جانب ما كانوا يستهزئون به من العذاب.

ثم أردف استبطاءهم الاستهزائيَّ هذا ببيان حال الإنسان العامَّة، وطواها علىٰ تحقُّق الوعيد، وهي قنوطُه الشديدُ إذا أُنزِلَ به البلاء، وأمانُه المديد إذا بُدِّل بالرخاء، فيتكبَّر ويَتَجبَّر ويظنُّ أنَّ ما هو فيه من الخير لا شرَّ بعده ولا شقاء، يُلمِعُ بذلك إلىٰ منشأ هذا التَّبجُّح فيهم والاستهزاء. وقد ضمَّن ذلك أن صاحب هذه الطبيعة لا يتَّعظ بنعمة ولا نقمة، يردُّ بذلك علىٰ الاستبطاء، ويتوعَّدهم ضمناً بالانتزاع للنعمة، وصنَّف الإنسان صنفين، مُبيِّناً فيهما طبيعته الخلقية، فقال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ كالصحَّة والأمن وسَعَة الرزق، ﴿ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ﴾ بما يحدث من الأسباب بمقتضىٰ سُنَنِنا في الخلق والتكوين والأخذ والإعطاء؛ ييأس من عودتها، ويقنط من رَوْح الله. وأقام مَقامَ الجواب علَّته ومنشأه، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾﴾ أي: إنه في هذه الحال شديدُ اليأس من الرحمة، قَطُوعٌ للرجاء من عَوْدة تلك النعمة، كثير الكُفران لغيرها من النِّعم التي لا يزال يَتمتَّعُ بها.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾ أي: ذهب ما كان يَسُوؤني فلن يعود، ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾ أي: إنه في هذه الحال لَشديدُ الفرح والمرح الذي يُـهَيِّجُه البطرُ بالنعمة، فلا يقابلها بشكر الله، فهو في حال الرخاء يَبْطَر ويكفرُ بنِعَم الله، فإذا تَبَدَّل عليه بالشدَّة يُقنِّطُه من رَوْح الله. وإذا كُشِفَتْ عنه أعرَضَ ونأىٰ بجانبه وأمن مِنْ بطش الله.

ثم استثنىٰ من جنس الإنسان فيما ذكر من حاله، المؤمنين الصابرين الصالحين، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ علىٰ ما أصابهم من الضَّرَّاء إيماناً بالله واحتساباً للأجر عنده، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ حتىٰ عند الشدَّة، ولم تمنعهم منها الضرَّاء. وكذلك عند كشفها وتبديلها بالسَّرَّاء، لأنهم لا ينظرون إلىٰ الدنيا وما فيها إلا نظرهم إلىٰ المتاع الزائل الخسيس. ثم سجَّل لهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ واسعةٌ من ربِّهم تمحُو من أنفسهم ما عَلِقَ بها من ذنب وتقصير، ﴿وَ﴾ لهم كذلك ﴿أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

ثم أردف هذا السياق بتهوين أمر المشركين للرسول ﷺ، وسبكه علىٰ تسليته وتثبيته، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾، وهذا التعبير لونٌ من ألوان بلاغة القرآن في شدَّة البيان، مبنيٌّ علىٰ الفرض والتقدير، يتكرَّر أمثاله في القرآن بصُور مختلفة، لا يُرادُ به حقيقة معناه، وإنما المراد هنا المبالغة في التحذير من أن يعجز ويتوانىٰ في تبليغهم إيَّاه وتكريره عليهم، نتيجة يأسه من إيمانهم. والغَرَضُ منه: الحَمْلُ علىٰ التشجيع والثبات في التبليغ بصورة شديدة من الكلام.

والمعنىٰ: لعلك إن تَحزَنْ وتَضِقْ ذَرْعاً من ﴿أَن﴾ يتعنَّتوا و﴿يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ يمتاز به عن غيره، لأن هذا أحسَنُ وأدلُّ ما يَرَوْن من نِعَم الله علىٰ الإنسان المقرَّب

منه تعالىٰ، ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ يؤيِّد دعوته، إذ لا يتصوَّرون صِدقَ الرسالة إلا بمثل ذلك، فلا تَضِقْ ذَرْعاً بمثل قولهم هذا، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ وإنْ ساءهم إنذارُك وأطلق ألسنَتَهم فيك، ليس عليك هُدَاهُم، وإنما عليك دعواهم، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ فهو الـمُوكَّل بأمورهم والرقيبُ عليهم. وقد رَوَت الرواة أن الكفار كانوا يطالبون النبيَّ ﷺ بالمعجزات، ومن بينها: الإتيان بمَلَكٍ يُصَدِّقه، أو استنزال كنز يَغْنىٰ به، ويكون دليلاً علىٰ رعاية الله له، فلا يلتفت إليهم. ثم توحىٰ إليه الآيات يتلوها عليهم، فيسخرون منه، ويقولون: هلّا استنزلتَ كنزاً أو مَلَكاً مع هذه الآيات إن كنت تستنزلها من عند الله حقيقة. فيضيقُ صدرُه من تكذيبهم، ويكفُّ عن تلاوة الآيات عليهم أحياناً، فعاتبه الله علىٰ ذلك، وشجَّعه علىٰ عدم الاكتراث بقولهم، وأنه ليس إلا نذيراً، فيكفيه التبليغ، وعلىٰ الله أن يتولاهم بما يستحقون.

ثم تابع البيان عن تكذيبهم بالقرآن، وردِّهم بالتحدِّي، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾، وهذا معطوف علىٰ مُقدَّر، علىٰ نهج القرآن، والتقدير: أيرجعون عن غيِّهم أم يُصِرُّون ويقولون: افتراه. واختار الأستاذ الإمام[1] أن ﴿أَمْ﴾ في أول الكلام تكون للاستفهام[2]، وهو هنا للإنكار. والمعنىٰ: أيقولون أنَّ محمداً افترىٰ هذا القرآن؟

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ أي: علىٰ مثل ما فيه من تشريع دينيّ ومدنيّ وسياسيّ، وحِكَم ومواعظ وآداب، وأنباء غيبية عن الماضي والمستقبل، بمثل هذه التراكيب البديعة والأساليب العجيبة والبلاغة الحاكمة علىٰ العقول والألباب، والفصاحة المُسْتَعْذَبة في الأذواق والأسماع. ومن إعجازه: أنه يَتَلطَّفُ مع النفس الإنسانيَّة تارةً بالأداء العقلي الرقيق، وتارةً بالأداء البياني الـمُقنع، وتارةً بالبرهان الـمُلزِم الساطع.

---

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

(٢) تفسير «المنار» (٥: ١٢٩).

٢١٨ ـــــــ

يقدر أحدٌ علىٰ ما يقدر عليه، ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٤﴾؟ وهذا الاستفهام من باب التثبيت والترقية إلىٰ معارج اليقين.

وقيل: إنَّ الخطاب في قوله: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ للكفار، بدليل قوله: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾، وذلك من خطاب الشخص ثم العدول إلىٰ غيره، (كما جاء في النوع الخامس عشر من المقدمة الخامسة في أنواع الخطاب في القرآن)؛ إذ من أساليبه أن ينتقل من إجراء الكلام علىٰ أمر إلىٰ إجرائه علىٰ آخر. وإذا لم يُعتبَر قولُه: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ خطاباً للكفار، نعتبر ذلك في قوله: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾.

وبعد أن قامت الحُجَّة القطعية علىٰ إعجاز القرآن وحقيَّة دعوة الإسلام بما يقطع ألسنة المُفْتَرين ويُبطِلُ معاذيرَهم، بيَّن لهم الصارف النفسي عنه، وهو إيثارهم الدنيا علىٰ الآخرة، وأوضَحَ لهم كَوْن هذا الصارف شراً لهم لا خيراً، إذ لا حظَّ لهم من حياتهم إلا شهوات الدنيا وزينتها. والإسلام يدعوهم إلىٰ إيثار الآخرة علىٰ الأُولىٰ، لأنَّ سعادتها هي السعادة الحقَّة، ويُبيح لهم الطيبات، ولكن من غير إسراف ولا إفراط، ويبيحُ الشهوات بحدود وقيود تجعلها إنسانيَّة لا حيوانية بهيمية.

وقد ألمع إلىٰ أنَّ مَنْ يخالف ذلك يناله شقاء الآخرة ويُحرَمُ من سعادتها، فقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾[1] ويَصْرِفُ كل استعداده لها طلباً حيوانياً جنونياً، ولا يَصرِفُ من استعداده شيئاً للحياة الأخرىٰ، ﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا﴾ وذلك حسب سُنَّته في الأسباب والمسبَّبات، فينالون منها شَأْواً لا يُستَهانُ به، ﴿وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ١٥﴾، لأنَّ مدار ذلك علىٰ الأعمال السببية، لا علىٰ النيَّات والمقاصد الدينية.

---

(١) هذا بيان لمن لم يُسلِم رغماً عن ظهور أدلة الإسلام، فالآية تبيِّن أنَّ الله سبحانه لم يحرمه من سعادة الدنيا إذا تعاطىٰ ذلك، لأن أسباب سعادة الدنيا غير أسباب سعادة الآخرة، ولكلٍّ أسبابٌ تؤدي إليها. (المؤلف).

وتوضيح الأمر: أنَّ الله سبحانه خلق الإنسان، وقذف به إلىٰ الأرض، وركَّب فيه من القوىٰ والمواهب ما يسيطر به علىٰ قوىٰ الطبيعة، لاستثمارها والاستفادة منها، وما يستعين به علىٰ ما فوق ذلك من إصلاح الروح وتكييفها بما يُؤهِّلها للسعادة في الحياة الأخرىٰ، وأعانَهُ علىٰ ذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب والشرائع، لتوضيح الصِّراط المستقيم، فهو إنْ طَلَبَ الدِّين وحده ناله، وإنْ طَلَبَ الدِّين لذاته والدنيا تكميلاً لحياته حصَّلهما معاً، ووجد مِن قُواهُ ما يساعده علىٰ ذلك، وإن لم يُرِد إلا الدنيا وحدها بلغ مُنَاهُ منها، فإنَّ مِنَحَ الله معروضةٌ لكلِّ مَنْ طلبها بأسبابها الحقيقية، لا فرق في ذلك بين مؤمن وكافر، وبرّ وفاجر، كما قال تعالىٰ: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

ثم سجَّل سبحانه لهؤلاء الذين يريدون الحياة الدنيا وحدها، ويصرفون كلَّ استِعدادِهم لها دون الحياة الأخرىٰ، بقوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾، لأنهم لم يعملوا عملاً لنعيم الآخرة علىٰ الصورة الصحيحة المؤدّية إليه، حسب نظام الله تعالىٰ الذي علَّمنا إيَّاه بوحيه وشرعه، فلم تكن أعمالهم مُوصِلةً إليه، ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا﴾ أي: من أجلها، من ظاهر البر والإحسان، لأنَّ نفوسَهم قد أوغَلَ فيها الفساد، فلم يكن له تأثير في تزكيتها، كالمَعِدة الفاسدة يدخلها الطعام الجيد فيعود رديئاً، ولأن الأعمال الصالحة إذا لم تقترن بعقيدة صالحة لم يكن لها أثر فعَّال في النفس، وكل ما كان كذلك فليس له قيمة في نظر الإسلام سوىٰ قيمة الطلاء، وهم كمَنْ يقصد أمراً ويسعىٰ إليه في غير أسبابه الموصلة، فسَعْيُه خائبٌ فاشلٌ لا مَحَالة. وهذا معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ فلا ينالون به في الآخرة ثواباً، ولا يخفِّف عنهم عقاباً، والله أعلم. والباطل يأتي بمعنىٰ: عدم النفع، وبمعنىٰ: عدم الانطباق علىٰ الواقع، وبمعنىٰ: عدم الوجود.

وفي الآية إيماءٌ إلىٰ أنَّ الإفراط في صَرْف القوىٰ الغريزية في شيء يؤدِّي إلىٰ التفريط في ضده.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

ثم أتىٰ بما هو كحلقة الوصل بين السياق السابق واللاحق، فقابل بين مَنْ يهتدي ويهدي بالقرآن عن علم وبيِّنة، وبين مَنْ يكفر به ويُضَلِّل الناس عن جهل وتقليد، أو عناد وجحود، مُلمِعاً إلىٰ أنَّ الحظّ لمن جمع بين سعادة الدنيا والأُخرىٰ، أو انفرد بالأخرىٰ، فهو السعيد حقّاً، لا من انفرد بسعادة الدنيا وحدها، لأنه كفر بهذا القرآن، فقال: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، وهي ما حافظ عليه من نُور البصيرة الفطريَّة التي يتبيَّن بها الإنسان ويُميِّز بين الحقِّ والباطل والهدىٰ والضلال، ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: ويتبع هذا النورَ الفطريَّ ويُؤيِّده نورٌ آخر إلهيٌّ منه تعالىٰ، وهو هذا القرآن. وإنما أعاد الضمير إلىٰ البيِّنة مذكِّراً باعتبار المعنىٰ، لأن المراد منها نور الفطرة.

ومحصَّل هذا: أنَّ الإنسان مَهْدِيٌّ بهدايتَيْن: هدايةِ الطبيعة، وهدايةِ الشريعة. وقيل: البينة: القرآن، والشاهد: الإنجيل الصحيح. ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ وهو التوراة الصحيح، جاء شاهداً أيضاً، و﴿إِمَامًا﴾ مُتَّبعاً في الهدىٰ والتشريع، ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن وعمل به. وشهادتُه له من وجهَيْن: تصريحه بالبشارة بنبوَّة محمد ﷺ، والتشابه فيما بين رسالة محمد وموسىٰ عليهما السلام.

ثم سجَّل لهؤلاء المهتدين بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: بهذا القرآن إيمانَ معرفة وإذعان، ويُوقنون بأنه ما كان أن يُفْترىٰ من دون الله، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ الذين تحزَّبوا للصدِّ عنه من أهل مكة وزعماء قريش وأهل الكتابَيْن بعد نَسْخ كتابَيْهما ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾.

وبعد هذا التمهيد والبيان، أرشد بهذا الإرشاد العام الذي تضمَّنه الكلام، وقال: ﴿فَلَا تَكُ﴾ أيها المكلَّف بالإيمان به ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾ وشكٍّ ﴿مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾، ويجوز أن يكون الخطابُ للأمة في شخص النبي ﷺ، علىٰ أسلوب القرآن في مثل ذلك من شدة البيان.

ثم نعىٰ علىٰ المكذِّبين، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾.

ويجوز أن نجعل قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ...﴾ جارياً علىٰ الرسول ﷺ. والمراد من البيِّنة: هي اعتقاده أن ما عنده وحيٌ من الله، يَرُدُّ علىٰ المشركين الذين يعتقدون أنّ ما عنده مُجَرَّدُ هواجِسَ وخيالات، وأنَّ القرآن من صنعه. والله أعلم. والشاهد منه تعالىٰ: هو القرآن المُنزَّل من عند الله. وما في كتاب موسىٰ: هو ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ...﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يريد بهم الذين يؤمنون

بالتوراة علىٰ وجهها الصحيح، فلا تكن في مريةٍ منه، أي: من أمرك، فإنك علىٰ الحقِّ المبين، والله أعلم.

وبعد أن قابَلَ وفرَّق بين المؤمن بهذا القرآن والكافر به إصراراً علىٰ باطله، بيَّن مصير كلٍّ من الفريقين، وبدأ بوصف الثاني ناعياً عليه، فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ في التشريع والأحكام، والعقائد والإيمان، والصفات والأفعال، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ يوم القيامة لمحاسبتهم، وتُعرَضُ عليه أعمالهم وأقوالهم، ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ الذين يقومون بأمره للشهادة عليهم من الكرام الكاتبين والأنبياء المرسلين وصالحي المؤمنين، يقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ في الاعتقاد والتشريع. ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وصراطِهِ المستقيم، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يريدونها عَوْجاء، أو يصفونها بالزيغ عن الحق، ويُشكِّكون الناس بها، ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

وقد بالغ في التأكيد[1] لإفادة أنهم وإن كانوا يزعمون أنهم يؤمنون بالآخرة، فإنَّهم يؤمنون بآخرةٍ صوَّرها لهم خيالُ طواغيتهم الأوَّلين، ورؤسائهم الضَّالِّين، وأنها تُنالُ بالوسائط والقرابين، فليس هذا إيماناً بالآخرة، وإنما هو الكفر بها والضلال. هذا إذا لم يكُونوا من المنكرين لها بتاتاً، من الذين لا يؤمنون ببَعْثٍ ولا جزاء، ويقولون: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩].

وقد توعَّدهم بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لم يكونوا مُعجِزين لله أن يعاقبهم في الدنيا، ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ يمنعونهم من عقابه، ولكن اقتَضَت حكمتُه البالغةُ أنْ يُؤخِّرَهم إلىٰ الآخرة، وحينئذٍ ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ

(١) المبالغة في التأكيد: هي في إعادة ضمير «هم» في قوله: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

﴿ٱلْعَذَابُ﴾، وليس المراد من مضاعفة العذاب لهم في الآخرة: الزيادة عما يستحقّونه منه بمُقْتضىٰ سُنَّته تعالىٰ في إفسادهم لأرواحهم بكفرهم وتدسيتهم لأنفسهم؛ لأنَّ عذاب الآخرة إنما يكون جزاءً وفاقاً، ولكن المراد: تهويلُ أمر ذلك العذاب. والله أعلم.

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ للقرآن والإصغاء له، كُرْهاً وإعراضاً، ﴿وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ ما يُبصَرُ به من آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم الدالة علىٰ وحدانية الله وتنزيهه سبحانه، لأن مَن انطبع علىٰ ضلال لا يرىٰ ما يخالفه جديراً بالنظر والاعتبار.

ثم سجَّل ناعياً عليهم بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾؛ إذ حَرَمُوها السعادة التي كانت مُسْتَعِدَّةً لها لو لم يُفسِدوها بالكفر والمعاصي، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾﴾ من اتِّخاذ الشفعاء عند الله.

ثم بالغ في تقرير خسرانهم لأنفسهم، فقال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾، واسم التفضيل هنا ليس علىٰ بابه، ولكن أتىٰ به للمبالغة في الخسران.

وكلمةُ ﴿لَا جَرَمَ﴾ تفيد التحقيق والتأكيد لما بعدها، قال الفرَّاء[1]: هي في الأصل بمعنىٰ: لا بدَّ ولا مَحَالة، ثم كَثُرت فحُوِّلت إلىٰ معنىٰ القَسَم، وصارت بمعنىٰ: حقاً[2]. ولهذا تُجاب باللام، نحو: لا جَرَمَ لأفْعَلَنَّ كذا. أي: حقاً أنهم في الآخرة هم الأخسرون.

---

(١) هو أبو زكريا، يحيىٰ بن زياد بن عبد الله الديلمي (١٤٤-٢٠٧هـ) إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة. كان يقال: الفراء أمير المؤمنين في النحو، له: «المذكر والمؤنث»، و«الحدود»، و«المقصور والممدود». «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٠: ١١٨-١٢١)، و«الأعلام» للزركلي (٨: ١٤٥-١٤٦).

(٢) «معاني القرآن» للفراء (٢: ٨).

وبعد أن ذكر مصيرَ الكافرين، ذكر مصيرَ المؤمنين، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: خَشُوا واطمأنَّت نفوسُهم بالإيمان، ولانَتْ قلوبُهم إلىٰ ذِكره، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

ثم أجمَلَ المقابلةَ بين الفريقين بالتمثيل، فقال: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾، ثم أردف الإنكار بالتأنيب، فقال: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ۖ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ولما كان التكرارُ والتنويعُ في البيان أشدَّ تأثيراً علىٰ النفوس من إقامة الحُجَّة والبرهان، ولا سيما ما يَتضمَّن التهديد والتنكيل؛ أردف السياق بقصص الرسل مع المكذِّبين من أقوامهم، زيادةَ تسليةٍ له ﷺ وتأليف، وتحذيراً للمكذبين له وتخويفاً، فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾ بهذه الرسالة، وهي: ﴿ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴾، وقد تضمَّنت كلمة ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ معنىٰ العطف والشفقة عليهم.

ثم حكىٰ ما كان من جواب قومه له، بقوله: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ﴾ أي: الذين يملؤون العَيْنَ رُوَاءً، وهم الأشراف والزعماء من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ ﴾، قالوا مُنكِرينَ عليه دعوتَه ومُـحَاجِّينَ له بما يتلخَّص في أربع شُبَه:

الأولىٰ: أنه بَشَرٌ مثلهم، وهي ما حكاه عنهم بقوله: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾، فكيف تكون رسولاً من الله؟! يقولون ذلك جاهلين أو متجاهلين تاريخ النبوات وانحصارها في البشر.

والثانية: أن الذين اتَّبعوه أراذِلُ ليسوا من أهل الفكر والبصيرة، وهي ما حكاه عنهم بقوله: ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾، أي: اتَّبعوك من دون نظر وتفكير.

والثالثة: أنه هو وخاصَّته لا يمتازون عليه بمُميِّزات عظماء الرجال، وهي: القوة والجاه والمال، كما حكىٰ ذلك عنه بقوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ ﴾ أنت وخاصّتُك ﴿ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ تمتازون به، كالقوة والكثرة والجاه، فيحملنا علىٰ اتِّباعكم.

والرابعة: أنكم مُؤْتَـمِرون علىٰ قَلْب الوضع وسَلْب الرياسة، وليس هناك إيمانٌ برسالة ولا اعتقاد، أي: لا خَبَرٌ جاء ولا وَحْيٌ نزل، وقد ألمع إلىٰ حكاية ذلك عنهم بقوله: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ في دَعْوىٰ الرسالة من الله، مُتوسِّلين بها إلىٰ سَلْب الرياسة ومُدَجِّلين.

فأجاب سبحانه عن مجموع تلك الشُّبَه بطريقة التداخل، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

وقد أجاب عن الشبهة الأولىٰ والرابعة بما حكاه عنه سبحانه بقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾، وهذا العنوان للتقرُّب والتأنيس، أي: يا أقربائي الذين أريد لهم الخير والفلاح: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: علىٰ حُجَّة ظاهرة تُبيِّن أنَّ ما جئتكم به هو الحق من عند الله، ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ أي: خصَّني بذلك من بينكم، وهي النبوَّة وتعاليم الوحي التي هي سَبَبُ رحمة الله الخاصَّة لمن يهتدي بها، ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ وخفيت.

ثم أكمل الردّ ببيان أنَّ الله سبحانه لا يُلزِمُ الناسَ بشرائعه إلزاماً بالكُره والإجبار، ولكن بالتبليغ والإنذار، فقال: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾، أي: ليس من سُنَّة الله أن يُلزِمَ الدين إلزاماً ويَقسُرَه قَسْراً، ولكن يُوحيه وحياً، فيبلغ الرسول ذلك للناس، وما علىٰ الرسول إلىٰ البلاغ.

ثم أيَّد ما تضمَّنه الكلام من إثبات نبوَّته، وألمع إلىٰ الردِّ علىٰ الشبهة الرابعة بقوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾، فأكون متَّهماً عندكم بطلب المنفعة وإحراز الرياسة بهذه الدعوىٰ والدعوة، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ الذي أرسلني بهذا الأمر.

وقد أجاب عن الشبهة الثانية بما حكاه عنه سبحانه بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[1] لاحتقاركُم لهم ووَصْفكم إيَّاهم بالأراذل، جهلاً منكم بالمقاييس الحقَّة،

---

(١) إنَّ أقوىٰ الناس استعداداً لفهم دعوة الرسل، وأقربهم للاهتداء بها: هم الضعفاء والفقراء والمظلومون، وأعتاهم وأبعدهم عن قبولها: هم المُترَفون والمتكبِّرون؛ لأنهم يخشون علىٰ مراكزهم أن تنهار باتباع هذا الداعي الجديد. لذلك قال هرقل لما سأل أبا سفيان عن أتباع النبي ﷺ: «أضعفاءُ القوم يتبعونه أم رؤساؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. قال هرقل: وكذلك الرسل إنما يتبعهم ضعفاء أقوامهم قبل رؤسائهم». (المؤلف).

والقصة المذكورة جزء من حديث طويل، متفق عليه؛ رواه البخاري (٤٥٥٣)، ومسلم (١٧٧٣)، عن ابن عباس.

وعلىٰ سُنَّة أكابر مُجْرمي الكفار من جميع أقوام المرسلين، فإنَّهم يحتقرون أتباع الرسل.

ثم علَّل النفي بقوله: ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ يوم القيامة، أي: إنهم فائزون بلقاء الله عزَّ وجل مُقرَّبون لديه، فكيف أطرُدُهم فيخاصموني عند الله، ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ وتظنُّون أنَّ الامتياز إنما يكون بالجاه والمال.

ثم تابع التعليل والتجهيل بقوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ﴾؛ إذ هو أمر عظيم، يقتضي عقاباً شديداً بمقتضىٰ عدل الله، مهما تكن صفة مَن اقترفه، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ كلَّ ذلك.

ثم أكمل الأجوبة، علىٰ طريقة القرآن في الاحتباك وسَبْك المعاني المنوَّعة علىٰ المقاصد المتعدِّدة في التركيب الواحد، فجعل الكلام محتوياً علىٰ الردِّ لسائر الشُّبه، تَصْريحاً أو إلماعاً، مُكرِّراً للمهم منها، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾، وكان المشركون يظنُّون أنَّ هذه الأمور لازمة لمن كان نبياً مُرْسَلاً من الله تعالىٰ.

ومُحصَّل الرد: أنه الله سبحانه يختار رسولاً من البشر، لا علىٰ أساس مميِّزاتكم التي هي الثروة والجاه المزيف.

ثم تابع الكلام فقال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ من فقراء المؤمنين ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾[1] كما تقولون. وهذا لازمُ قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ ...﴾ ومطويٌّ

---

(١) إذا أراد الله سبحانه أن يتدارك أمة برحمته، فيعيد إليها الحياة الاجتماعية بواسطة التعاليم الإلهية، فلا يكون ذلك إلا عن طريق العامة منهم؛ لأنهم ـ لبُعدهم عن مناشئ الإصابات من الأمراض الاجتماعية ـ يكونون أبطأ تأثراً بأنواع الفساد الخلقي من الخاصَّة، فيبقىٰ فيهم من نور الفطرة، تصلح للرجوع بهم إلىٰ الحياة الاجتماعية الصحيحة، بواسطة التعاليم الإلهية. (المؤلف).

فيه. والمراد من الخير: ما وعد الله على الإيمان والهدىٰ من سعادة الدنيا والآخرة.

ثم تـمَّم الكلام بقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: إنْ كان إيمانُهم عن يقين وإخلاص، أو عن مصلحة دنيوية كما تزعمون. ﴿إِنِّيٓ إِذٗا﴾ أي: إذ قلتُ ذلك فيهم، أو كذبتُ في دعواي للرسالة طلباً للرياسة، إني إذن ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١﴾، ويجوز أن تكون هذه الفاصلةُ متعلِّقة بكلِّ ما تَقدَّم، أي: إني ـ إذا قلتُ شيئاً مما نفيتُه ـ إني إذن لمن الظالمين.

فلما ألزمهم بالـحُجَّة وظهرت لهم المحجَّة، ركبوا العناد بالسَّـفَاهة، على عادة المغلوبين بالحِجاج، كما حكىٰ ذلك عنهم سبحانه بقوله: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ ولم يَبْقَ عندنا شيءٌ نقوله، ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من عذاب الله ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢﴾، وهذا جواب تجبُّر وطغيان بعد أن انقطعت حُجَّتهم.

فردَّ عليهم و﴿قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ أي: إنَّ ذلك بيد الله لا بيدي، فإن شاء أتاكم به ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٣٣﴾ له، وإنْ شاء أخَّره لحكمة تقتضيه، إذ لكلِّ شيء عنده قَدْر، ولكلِّ قَدْر أجل، وما أنتم بفائتين.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡ﴾ حسب سُنَّته الكونية في أنَّ المتشبِّع بالغيِّ والغرور والضلال، يفقد الاستعداد لقَبول النُّصح والهدىٰ والرَّشاد، ويُعْرِضُ ولا يسمع في ذلك ما يقال.

ثم خوَّفهم وأنذَرَهم ضمن التعليل بقوله: ﴿هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٣٤﴾ أي: ومالكُ أموركم ومُدبِّـرُها ومُسيِّـرُها على سُنَّته المطَّردة في الخلق وفي طبائع الناس وما يَنْجُمُ عن نوع تربيتها من الحُسْن والقُبْح في النظر والأخلاق، وما ينبعث عن ذلك من خير أو شرّ وفساد، وإليه تُرجعون في الآخرة، فيجزيكم بأعمالكم خيرها وشرها.

أما قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ فهو من الجدل بالتي هي أحسن.

وقد اختلف المفسِّرون في أنها من قصَّة نوح، أم هي حكاية لقول مشركي مكة في تكذيب هذه القصص، مقرِّرة لمثيلتها السابقة في السورة؟ والفرق بينهما: أن الأُولىٰ مَطْوِيَّةٌ علىٰ الردِّ بطريقة النقض والإلزام بالتحدِّي، وهذه مطويةٌ علىٰ التأنيب والتَّسخيف، وقد جاءت معترضةً في قصَّة نوح.

والاعتراضُ بالجُمَلِ أثناء القصص والمواعظ وغيرهما معهودٌ في القرآن، ومن ذلك الاعتراض بالوصيَّة بالوالدين[1] أثناء موعظة لقمان لابنه، وكذلك قوله تعالىٰ في سورة طه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٣-٥٥]، فقد جاء معترضاً في المحاورة بين موسىٰ عليه السلام وفرعون.

ثم قال في «المنار» ما مُحرَّره: وللجُمَلِ والآيات المعترضة في القرآن حِكَمٌ وفوائدُ يقتضيها تلوين الخطاب، ومنها تنبيه الأذهان وتجديد النشاط في الانتقال من موضوع إلىٰ آخر، والتشويق إلىٰ سماع بقية الكلام الأول، بقطعه والانتقال إلىٰ موضوع آخر، ثم العودة إلىٰ إتمامه، وأمثال ذلك[2].

ومن المتوقع هنا أن يخطر ببال المشركين ـ عند سماع ما تقدَّم من هذه القصة ـ أنها مفتراة كما زعموا، لاستغرابهم هذا السبك في الجدال، والقوَّة في الاحتجاج، وأن يَصُدَّهم هذا عن استماع بقيتها. فيكون إيرادُ هذه الآية تجديداً للردِّ عليهم، وتنشيطاً لسماعهم بقية القصة.

---

(١) يعني: الآيتين (١٤، ١٥) من سورة لقمان.

(٢) تفسير «المنار» (١٢: ٦٠).

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَا ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾.

وبعد أن قطع القصة بما ذكر، عاد إلىٰ تكميلها، وذكر الحكم الفصل في قوم نوح، فقال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾، وفي هذا إيذانٌ بقُرب نزول العذاب بهم.

وقبل التصريح بذلك عَجَّل بمسرَّة نوح عليه السلام، فأمره أن يتخذ السفينة المنجية له وللمؤمنين من الغرق، فقال: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ وحمايتنا ﴿وَوَحْيِنَا﴾ لك متىٰ تَصنعُه وكيف تَصنعُه، ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ وتطلب الرحمة بهم، ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ حيث حقَّت عليهم كلمةُ العذاب، وقُضي فيهم بالقضاء الحتم.

ثم حكىٰ ما كان من أمره بعد الإيحاء إليه بصنع الفلك، فقال: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ أي: وطَفِق يصنع الفلك كما أُمِر، ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ وتنادَرُوا عليه؛ لقوله بالطوفان، ويظنُّون أنه مُصَابٌ بالجنون والعَتَه. وكان يجيبهم بما حكىٰ سبحانه بقوله: ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا﴾ اليوم ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ عندما يحلُّ بكم العذاب والغرق ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ منَّا الآن، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ بعد تمام الفلك ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ في الدنيا، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ بعد ذلك في الآخرة أيضاً ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ دائمٌ لا ينقطع أبداً. وسخريةُ نوح عليه السلام بهم مشاكلةٌ وليست بحقيقة، لأن ذلك ممتنع في حقِّه ﷺ، وإنما المراد بها استجهالهم.

ثم حكىٰ سبحانه دَوْرَ تنفيذ الحكم، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بإهلاكهم، ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ وهو إما كنايةٌ عن شدَّة الغضب عليهم، مثل: حَمِيَ الوطيس، أو كناية عن قوَّة انبعاث الماء؛ لأنَّ التنُّورَ يطلق علىٰ كُوَّة عين الماء. ولا يشترط في الكناية صحَّةُ إرادة المعنىٰ الحقيقي، كما لا يمتنع. وعليه، فيجوز أن تكون الطبيعة أثارت بركاناً فجَّر الأرض عيوناً، وأرسلت ذلك الماء، فكان ذلك اتفاق أقدار لأقدار[1]. والله أعلم.

وعلىٰ كل، فالمعنىٰ: حتىٰ إذا اشتدَّ طغيان الماء ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ﴾ من أنواع الحيوان عدا الحيَّات وما شابهها مما تسكن خبايا الأرض وأجحارها فلا يضرها الماء[2]، والله أعلم، أو مما لا بدَّ للأرض منه ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾[3] ذكراً وأنثىٰ، كي لا ينقرض نَسْلُه بالطوفان، وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ الطوفان عمَّ كُرةَ الأرض، ﴿وَ﴾ كذلك

---

(١) نعم، يجوز ذلك كما يجوزُ الآخر، فيحتاج إلىٰ قرينة تدل عليه، فيبقىٰ القول الآخر أصح، وهو أن نَبْعَ الماء من أقطار الأرض إنما كان بأمر مباشر من الله تعالىٰ، لا بموافقة أقدار لأقدار، ويدل عليه سباقُ الآية وسياقُها، أما السباق فقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ فهو يُشعِرُ بالأمر المباشر الخارق للعادة والسنة الكونية، وأما السياق فقوله: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [هود: ٤٤]، فكما أن نهاية الأمر كان بالأمر المباشر فكذلك بدايته.

(٢) هذا الاستثناء فيه نظر، لأنه يخالف ظاهر لفظ الآية، ثم إن الذي لا يضر هذه الحيوانات هو الماء المعتاد، لا ماء الطوفان الذي لم يكن كسائر مياه الأرض، فهذا مما يُضعف الاستثناء أيضاً.

(٣) الظاهر أنَّ الحيوانات لما غمرها الماء طافت مذعورة وطلبت مَنْجاة، فلم تجد غير السفينة، فازدحمت عليها فأمر أن يحمل من كُلٍّ زوجين اثنين؛ لأنَّ ذلك هو الممكن لبقاء النسل. ولشدَّة اندهاشها وذعرها لم يعتدِ بعضها علىٰ بعض، أو لمعجزة من الله لنبيه ﷺ. هذا ما أراه، والله أعلم.
وقيل: أُمِرَ أن يحمل من الحيوانات المنتفع بها فقط. ومن المحتمل أنَّ الحيات وبعض الحشرات التي تسكن في أجحار صغيرة من الأرض لا يقضي علىٰ كلها الماء ـ والله أعلم ـ إذ يمكنها أن تتحصَّن تحت الماء ببعض الأجحار الحصينة المسدودة. (المؤلف).

احْمِلْ ﴿أَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ وهم الكفّار منهم، ﴿وَ﴾ احمِلْ ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ من قَوْمك، ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾، وهذه الجملة إما للتأسيف أو لإتمام البيان، أو لهما معاً.

ثم حكىٰ ما قاله نوح عند ركوب السفينة، فقال: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾، وهذه الجملة تحتمل أن يكون قالها نوح عليه السلام عندما أمرهم بركوب السفينة، بشارةً بحفظ الله لها ولهم، وتحتمل أن يكون أمرهم بأن يقولوها كما يقولها هو تَيَمُّناً ودعاء. وأتمَّ ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ يغفر الهفوات للناس برحمته الواسعة، وينجِّيهم من عذابِ مَنْ حقَّت عليه كلمةُ العذاب، فقد غفر لنا خطايانا ونجَّانا من عذابه.

﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

ثم تابع البيان فصوَّر حال السفينة بعد ركوبهم فيها علىٰ هذا الماء الطاغي، إتماماً

لبيان رحمة الله بهم، وتصويراً لعظمته وحفظ الله لها، فقال: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ أي: تجري بهم أثناءَ أمواج تشبه الجبال.

ثم ذكر مصير ابن نوح الذي لم يؤمن، فقال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ عن أهله الذين ركبوا السفينة، وعن الكفار أيضاً، فظنَّ نوح أنه نادِمٌ فقال: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ آمِن و﴿ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ المقضيِّ عليهم بالهلاك. وهكذا يملك الضلالُ النفسَ إلىٰ هذا الحد؛ لقوة انطباع الكفر والعناد فيه، فامتنع و﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ فبيَّن له أنْ ليس الأمر كما يزعم، فهو ليس بطغيان كالمعتاد، يُتَّقىٰ ضَرَرُه بما يُقدَر عليه من الأسباب، كما حكىٰ سبحانه ذلك عنه بقوله: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ أي: إلا مَنْ رحمه الله، فأمَرَ بحَمْلِهِ في هذه السفينة، ﴿وَ﴾ قد بدأ الماء يرتفع في أثناء هذا الحديث حتىٰ ﴿حَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾، فصوَّرت وأوضحت الآية نوحاً الوالد الملهوف، يبعث النداء تِلْوَ النداء، وابنه الفتىٰ المغرور يأبىٰ إجابة الدعاء، والموْجَةُ القويةُ العاتية تحسم الموقف في لحظة سريعة خاطفة، تجعله من المُغْرَقين.

وبعد أن قُضِيَ الأمرُ بإهلاك الظالمين وابتَلَع الماءُ كلَّ شيء ما عدا السفينة ومَنْ فيها، أمر الله سبحانه أمْرَ تكوين[1]، أن تعودَ الحال معتادة كما كانت، فقد حكىٰ ذلك بقوله: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ بإهلاك الكافرين ونجاة المؤمنين، ﴿وَاسْتَوَتْ﴾ السفينة ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ أي: استقرَّت علىٰ الجبل المعروف بالجُودي بعد قليل، ويظهر أنَّ هذه المنطقة كانت هي المسكونة، والله أعلم.

---

(١) هذا محتمل، ويمكن أيضاً أن يكون أمراً حقيقياً، وهو الأوفق بسياق الآيات، والأبلغ في تقرير المعجزة. والظاهر أن قائل ذلك للسماء والأرض: مَلَكٌ من الملائكة، وخطابهما غير ممتنع، فالإدراك قوةٌ يُقدِرُ الله تعالىٰ عليها مَن شاء وما شاء من خلقه.

﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ من رحمة الله، أي: هَلاكاً وسُحقاً لهم، بما كان من رُسوخهم في الظلم، بإفسادهم لطبيعتهم.

ويعدُّ البلغاء هذه الآية أوجَزَ وأبلَغَ عبارة في القرآن.

ولا يبعد أن يكون أهل السفينة قد اتَّخذوا هذا الجبل مقراً لهم بعد هبوطهم عليه يعيشون فيه زرعاً وضرعاً، بعد أن انحسر عنه الماء. والله أعلم.

ثم عاد إلىٰ صفحة أخرىٰ من القصَّة، علىٰ نهج القرآن في العودة، فذكر فرعاً منها يشتمل علىٰ بيان أنَّ سنة الله في خلقه تجري علىٰ طبعها بلا مُحاباة لوليّ ولا نبي، وأن الأنبياء عليهم السلام يجوز عليهم الخطأ في اجتهادهم، ويُعَدُّ عليهم ذنباً بالنسبة إلىٰ مقامهم الرفيع ومعرفتهم الكاملة بربهم، فقال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ بدافع العطف والشفقة في إثر ندائه لابنه الذي تخلَّف عن السفينة، وظنَّ أنه ندم إذ رآه منعزلاً عن قومه، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ الذي وعدتَني بنَجاتهم إذ أمرتني بحَمْلهم في السفينة، ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا خُلْفَ فيه، ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ بالحقِّ والعدل.

﴿قَالَ﴾ له سبحانه وتعالىٰ: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الذي أمرتُك أن تسلكهم في السفينة، ثم عَلَّل النفي بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ أي: لأنَّ عمله غير صالح للإسلاك معك. والمراد أنه كان يعمل عمل الكافرين، والكفر يقطع الولاية بين المؤمنين والكافرين، ويُوجبُ براءةَ المؤمنين منهم، كما قال تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ ...﴾ [الممتحنة: ٤]، فقد بيَّن سبحانه وتعالىٰ لنوح عليه السلام أنَّ المراد من الأهل: أَهْلُ دينه منهم لا عمومهم. وقيل: إنَّ المعنىٰ: إنَّ سؤالَك إيَّاي عنه وطَلَبَك لنجاته عَمَلٌ غير صالح لا أرضاه لك.

ثم قال في «المنار» ما ملخَّصه: ويحتمل أنَّ نوحاً عليه السلام حين رأىٰ ابنَه بمعزل

عن الكفار ظنَّ أنه قد بَدَا له في كفره وجَنَح إلىٰ الإيمان، ووافق هذا الظنَّ رحمةُ الأبوة، فسأل الله أن يُحقِّقه. ولما كان هذا الاجتهاد ظنياً لا يليق بنبيّ ورسول من أُولي العزم أن يخاطب به ربَّه، عاتبه وأدَّبه عليه بقوله: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ صحيحٌ، ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ الذين يسألون أن يبطل الله تشريعه، أو حكمته وتقديره في خلقه، إجابةً لشهواتهم وأهوائهم في أنفسهم أو أهليهم أو مُحبِّيهم.

فرهب نوح عليه السلام من ذلك الزَّجْر و﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: إني أعتصم بك من أن أسألك بعد الآن ما ليس لي علمٌ صحيحٌ بأنه جائز لائق، ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى﴾ ذنبَ هذا السؤال الذي سَوَّلَتْهُ لي رحمتي وشفقتي علىٰ ابني وطمعي برحمتك الواسعة، ﴿وَتَرْحَمْنِىٓ﴾ بقَبول توبتي؛ ﴿أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ سعادتَهم الأبديَّة التي تُنال بطاعتك ورضاك[1].

وقد أُجيب من جانب الله تعالىٰ بما فيه إظهار الرضا عنه والمغفرة له والتبشير بما سيكون من أَمْرِه وأَمْرِ مَنْ معه، وقِسْمٍ من ذرِّيَّتِهم من الإحاطة بالخيرات والبركات والسعادة في الدنيا والآخرة، واقتصار قسم آخر من الذرية علىٰ نَيْل خيرات الدنيا وبركاتها دونَ سعادة الآخرة التي حُرِمُوها بما أفسدوا من فِطَرِهم، ومُحِقُوا من نور استعدادهم لتلك السعادة الأبديّة.

وقد حكىٰ ذلك سبحانه بما قاله لنوح عندما استوت السفينة علىٰ الجودي عائداً إلىٰ تتميم القصة، وباركه بقوله: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ﴾ أنت ومَنْ معكم من السفينة إلىٰ الأرض ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ﴾ من المعايش وسَعَة الرزق ﴿عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ﴾ تتناسلُ ﴿مِّمَّن مَّعَكَ﴾، ولا تزال ممتَّعةً بالخيرات والبركات ونَيْل السعادة في الأخرىٰ لبقائهم

---

(١) تفسير «المنار» (١٢: ٧١-٧٢).

علىٰ سلامة فِطَرِهم الممنوحة لهم واستعدادهم للسبق إلىٰ تلك السعادة، ﴿وَ﴾ سيكون كذلك منهم ﴿أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ في الدنيا بأرزاقها وبركاتها، لعملهم بأسبابها، ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ لإفسادِهِم طبائعَهُم التي كانت مُستَعدَّةً للإيمان، وذلك السلام الربَّاني لو لم يفسدوها. وهؤلاء الأمم مثل: عاد وثمود ومَنْ لفَّ لفَّهم.

وهذا البيان إنما هو بيانٌ للبشر كلِّهم، وانقسامه إلىٰ أقسام: منهم مَنْ ينال الدنيا والآخرة، ومنهم مَنْ ينال الآخرة وحدَها، ومنهم مَنْ ينال الدنيا وحدها، ومنهم مَنْ لا ينال الدنيا ولا الآخرة؛ لأنه لم يعمل لكلٍّ واحدة منهما بمقتضىٰ التعاليم التي جاءت بها الشرائع.

ثم ختم القصة بما يُنوِّه بشأنها، ويُنبِّه إلىٰ ما فيها من الهداية والإرشاد والعلم الصحيح الدال علىٰ إثبات نبوته ﷺ، فقال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ الوحي الذي نَزَل مُبيِّناً لها بهذا البيان، فمِن نَهْج القرآن أن يُبرهِنَ بهذه الحُجَّة علىٰ نبوَّته ﷺ إثر أكثر القصص التي يقصُّها عليه، حيث يبرهن بمضمونها علىٰ أنَّ هذا القرآن إنما هو من عند الله؛ لأنه يتكلم عن أمور بعيدة عن النظر، خفيَّة علىٰ البشر، وعن التأريخ المجهول لأرباب الخبر. بمعنىٰ: أنَّ الإخبار عن مضمونها إخبارٌ عن المغيّبات التي لا يُعرَفُ أمرُها صحيحاً إلا بالوحي، فيكون بيانها علىٰ هذا الوجه تصديقاً لنبوته ﷺ، وأن ما جاء به إنما هو من عند الله.

وبعد هذا البيان وختام القصّة، صرَّح بما هو الغاية من القصص، وهي تسليتُه ﷺ وتثبيتُه تجاه المعارضين، وقال له: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: فاصبر كما صَبَر نوح علىٰ قومه، فإنَّ سنَّة الله في رسله مع أقوامهم أن تكون العاقبة بالفوز والنجاة للمتَّقين.

وفي هذه الخاتمة وهذه الفاصلة إشارةٌ إلىٰ أنَّ المراد من هذه القصَّة التأسِّي بنوح عليه السلام والتثبُّت تجاه مُشركي قريش، وكذلك القصص التابعة.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾.

ثم قفَّىٰ علىٰ قصَّة نوح بقصَّة هود لنفس الغرض السابق في قصة نوح عليهما السلام، فقال: ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ﴾ في القومية ﴿هُودًا﴾، وفي قوله: ﴿أَخَاهُمْ﴾ إشارةٌ إلىٰ أنه يحرص علىٰ مصلحتهم وما فيه خيرهم. فدعاهم إلىٰ الإيمان ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ الذين يُحزنني هلاكهم وشقاؤهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحده ولا تشركوا به شيئاً، ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، فإن أفعال الألوهية وصفاتها مقتصرةٌ عليه، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ في اتِّخاذ الأنداد له والوسطاء.

ثم أيَّد دعوته بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: علىٰ هذا الإرشاد والنُّصح ﴿أَجْرًا﴾، فأكون متَّهَماً عندكم بإرادة المنفعة الشخصية من وراء هذه الدعوة، ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾ وإياكم علىٰ الفطرة السليمة، فلم أُفسِدْها بالبدع والوثنيَّة، كما أفسدتُم فِطَرَكم.

ثم ختم الكلام بما يزيد في التنبيه، فقال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ مما يكتنف دعوتي، إنها ليست لأغراض دنيويَّة، ولكنها دعوةٌ خالصة لله، والأجر العظيم فيها علىٰ الله.

ثم رغَّبهم بالماديات التي يشتدُّ شَغَفُهم بها، فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ من وثنيتكم وشرككم ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾، وكانت بلادُهم الأحقافُ شديدةَ الحاجة إلىٰ المطر؛ لأنها أراضٍ رمليةٌ يُسرع إليها الجفاف، فيحتاج الزرع والشجر فيها إلىٰ كثرة المطر.

ثم أردف هذا بما كانوا يُعْنَوْنَ به عناية عظيمة، ويفخرون به علىٰ الناس، وهو القوة، فقال: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾، ثم ختم الكلام بالتحذير فقال: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا۟﴾ عما أدعوكم إليه ﴿مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ علىٰ أنفسكم في ذلك.

وفي قوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ إظهارٌ للشفقة عليهم والحرص علىٰ مصلحتهم.

ثم حكىٰ سبحانه وتعالىٰ ما كان من ردِّهم لهذه الدعوة وجحودهم للبيِّنة، فقال: ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا﴾ علىٰ دعواك الرسالة ﴿بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ المُجَرَّد وأنت بشرٌ مثلُنا، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ أنك رسولٌ من الله، ﴿إِن نَّقُولُ﴾ في تكلُّمك بدعوىٰ الرسالة ﴿إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ وهو الجنون والهوج لإنكارك لها، وصَدِّك إيَّانا عنها.

وإنكارُهم للبيِّنة جحودُ عناد، لأن حُجَّتَه علىٰ وحدانيته تعالىٰ باختصاصه بأفعال الألوهية وصفاتها حُجّةٌ قطعية موافقةٌ للعقل الصحيح والفطرة السليمة. وإن أرادوا بها المعجزة، فقد جاءهم بما طلبوا منها، فلم يَعتَدُّوا بها جحوداً وعناداً.

فقابل خَطَلَهم هذا وتَوَعُّدَهم المطويَّ فيه، بما حكاه سبحانه عنه بقوله: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟﴾ أنتم أيضاً ﴿أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ﴾ ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا﴾ أنتم

وشركاؤكم، ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ أي: لا تُمهلوني ولا تُؤخِّروا الفَتْكَ بي إن استطعتُم. وهذا جوابٌ لتوَعُّدهم المطويّ، علىٰ نهج القرآن في الاكتفاء، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة الثامنة من المقدمة الثانية)، حيثُ إنَّ القرآن يكتفي بتفصيل الجواب عمَّا يُجمله في السؤال، فالكلام يدلُّ علىٰ أنهم تَوَعَّدوهُ بالإيقاع به، فأجابهم بهذا الجواب. وصورة الجواب تُؤْذِنُ بدرجة ثقة الأنبياء بالله سبحانه وتعالىٰ. ويكثر أمثال هذا الجواب عنهم عليهم الصلاة والسلام.

ثم بيَّن مصدر ثقته هذه بما هو كالتعليل، فقال: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ ذلك الرَّبُّ العظيم الذي ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾ تدبُّ علىٰ الأرض من أنواع المخلوقات ﴿إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ فهي تحت تصرُّفه وسيطرته وقهره، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ في الحقِّ والعدل؛ لا يُسلِّط أهلَ الباطل من أعدائه علىٰ أهلِ الحقِّ من رُسله ومُتَّبعيهم من أوليائه، ولا يضيعُ حقاً، ولا يفوته ظالم.

ثم أنذرهم بقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: فإنْ تَـتَولَّوا ولم تَنتَهُوا ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ وليس عليَّ غيرُ البلاغ. وقد حَقَّت عليكم كلمـةُ العذاب، بإصْراركم، فسَيُهلككم ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ بتولِّيكم عن الإيمان، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ ومُهَيْمِن، فكيف يضرُّه شيء؟!

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾.

ثم ذكر ما كان من مصيرهم واستئصالهم بالعذاب، وإنجائه هو ومَنْ آمن معه، فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ خاصَّة بهم، فوق العادة

من أسباب النجاة المعتادة، ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ شديدِ الفظاعة لم يُعْهَد مِثلُه، قد أصاب قوم هود.

قال في «المنار»: وأعاد فعل التنجية للفصل بين ﴿مِّنَّا﴾ التي هي صفةٌ للرحمة، وبين ﴿مِّنْ﴾ الداخلةِ علىٰ العذاب[1].

وقال الرازي ما تحريره: المراد من النجاة الأولىٰ: النجاةُ من عذاب الدنيا الذي أصاب قوم هود، وهو ما عبَّر عنه بالريح العقيم وغيرِ ذلك من التعابير الهائلة، ومن النجاة الثانية: النجاةُ من عذاب القيامة وما بعدها.

وإنما وصفه بالغِلْظة للتنبيه إلىٰ أنَّ عذابهم في الدنيا كان خفيفاً بالنسبة إليه؛ لأنَّ كلَّ عذاب دون النار عافية[2].

ثم أجمل القصة لإعادة التحسيس، وسَبَك الكلام علىٰ التشنيع والتأنيب، فقال: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ التي يُؤيِّد بها الرسل، ﴿وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾ أي: جنسَهم، والجنس يتحقَّق في الواحد، أي: عَصَوْا رسولهم، ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ من رؤسائهم الطغاة العُتاة، ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ يعني: عذاب الاستئصال، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ينالون لعنةً قصيّةً وعذاباً غليظاً.

وذلك لما ذكره في موقع التعليل بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ بجُحودهم بآياته وتكذيبهم لرسله. ثم سجَّل ناعياً عليهم بقوله: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾.

وتكرار كلمة ﴿أَلَا﴾ للمبالغة في التهويل، وتكرار اسمهم لزيادة التَّشنيع والتسجيل.

---

(١) تفسير «المنار» (١٢: ٩٩).

(٢) «تفسير الرازي» (١٨: ٣٦٦).

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

ثم قفَّىٰ علىٰ قصَّة هود مع قومه بقصة صالح مع قومه، فقال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ﴾ في القومية ﴿صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ أي: لأنَّ أفعال الألوهيَّة وصفاتِها مُقْتصرةٌ عليه، ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾. وفي قوله: ﴿أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ نسبة ما للأصل إلىٰ الفرع، والاستعمار: طلب التعمير، والاستفادة من خيراتها، وإنما نسب للفَرْع ما للأصل؛ لأنَّ عناصرَه تنتقل إليه، ويجوز أن يكون المراد بالإنشاء من الأرض: إنشاء البشر أجمعين؛ لأن النُّطَفَ تتكوَّن بواسطة الأغذية النباتية المكوَّنة من الأرض، فله عليكم هذه المنَّة، وهذا السلطان القاهر، وله فيكم هذه القدرة البالغة، ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ من اتِّخاذ الأنداد والشركاء ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ أي: كنتَ ـ قبل أن تدعونا إلىٰ تبديل ديننا ـ موضعَ رجائنا، لِـمَا لك من العقل والرأي، ولكن هذه الدعوة قد أفقدتك مركزَك بيننا، وحُسْنَ سمعتك فينا.

ثم احتجُّوا عليه بهذه الحُجَّة الواهية التي أضلَّت كثيراً من الأمم الماضية، وقالوا: ﴿أَنَنْهَىٰكَ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾، وقد استمرُّوا أزماناً لا ينكر عليهم أحد. ثم سَنَدوا الحجَّة بقولهم: ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾، فوصفوا الشَّكَّ بالرَّيْب للمبالغة فيه.

وقد ردَّ عليهم سُخْفَهم، و﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ تُبيِّن وتُثبت صحَّة دعواي فيما أدعوكم إليه، ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ وهي الرسالة إليكم، ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ بكتمانها وترك الدعوة إليها، ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى﴾ بحضِّكم علىٰ إبقاء رجائكم فيَّ ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾ أي: إيقاع في الخسران بإيثار ما عندكم علىٰ ما عند الله، واشتراء رضاكم بسخط الله، أو: فما تزيدونني بما تقولون لي غير المبالغة في نسبتكم إلىٰ الخسران.

ثم ذكر بيِّنته التي أعطاه الله إيَّاها علىٰ صدق رسالته وإنذارهم بالهلاك وعذاب الاستئصال إذا كذَّبوا بها، فقد مَضَتْ سُنَّة الله في المكذِّبين ـ إذا طلبوا آيةً كونيَّة علىٰ صدق الرسول، وأعطاهم الله إيَّاها، ثم أصرُّوا بعد ذلك علىٰ التكذيب ـ أن يستأصلهم الله بعذاب، فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ لأنها جاءت بلا وسائط وأسباب طبيعية معتادة، ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾ يمتحن الله بذلك طاعتَهم؛ لِيُظهِرَ للناس ولأنفسهم إصرارَهم علىٰ العصيان، فتقوم حُجَّة الله عليهم بأجْلىٰ تبيان.

وقد حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي: قَتَلوها عَقِبَ ذلك الإنذار، غير مُصَدِّقين له ولا مُبالينَ بالوعيد، ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾، ثم يأتيكم العذاب، ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ أي: واقعٌ لا محالة.

ثم ذكر مجيء العذاب، فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بإهلاكهم، ﴿نَجَّيْنَا﴾ منه ﴿صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ﴾ هكذا نجَّيناهم ﴿خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي: ذُلِّهِ ونَكَالِه وما يتبعُه من سُوء الذِّكْر واللعنة والإبعاد من رحمة الله، ذلك الخزْي والنَّكال الذي أصاب المكذِّبين.

ثم استطرد بما فيه تهديدٌ لقريش وتمهيدٌ لما بعده، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾ قادرٌ على فعل مِثلِهِ بقومك إذا أصرُّوا على الجُحود.

وبعد أن عجَّل بالبيان عن نجاة صالح عليه السلام والمؤمنين من هذا العذاب، بمقتضىٰ نهج القرآن في حكم البلاغة العالية، ثم ذكر أَخْذَ الكافرين بالعذاب، فقال: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾، وهي الصاعقة التي نزلت بقوم صالح، فأحدثت رَجْفةً في القلوب وزلزلةً في الأرض، وصُعق منها جميع القوم، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ أي: كأنْ لم يكونوا فيها ولم يقيموا بها، مِن: غَنِيَ بالمكان؛ إذا استقرَّ فيه وأقام، وجثم في المكان وتلبَّد فيه.

ثم ذيَّل ذلك البيان ناعياً عليهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ بإشراكهم به، ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ من رحمة الله.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ

ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾.

ثم ذكر قصة إبراهيم مع الملائكة عليهم السلام، وما كان من أمر قوم لوط الذين لم يؤمنوا، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ الآتية، و﴿قَالُوا۟﴾ له: ﴿سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾ أي: مَشْويّ بالرَّضْف، وهي الحجارة المَحْميَّة بحرِّ الشمس. وهو أنظف من المشويِّ على النار وألذُّ طَعْماً.

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ أي: لا يأكلون منه، ﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾، لأنَّ الضيفَ عادةً لا يمتنع عن الطعام إلا لريبة أو قَصْد سَيِّء، فزال ذلك عنه حيث علم أنهم ملائكة، و﴿قَالُوا۟﴾ له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾ لإهلاكهم، وأنت ناجٍ بحفظ الله، ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ سارةُ ﴿قَآئِمَةٌ﴾ بين يديه ﴿فَضَحِكَتْ﴾[1] فرحاً بعذابهم لسيرتهم الخبيثة، ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ بن إسحاق.

فلما سمعت بهذه البشارة دفعها الحرصُ على تحقُّقها أن تستفهم كيف تُذلَّلُ الموانع الطبيعية العادية الموجودة فيها وفي زوجها، فأظهرت ذلك بصورة التَّعجُّب تمشياً مع خصائص اللغة في التعبير عمَّا يُخالج النفسَ من مثل ذلك، و﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾، وهذا كلام أتى للاستحياء والتعجُّب، أي: يا عَجَباه ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ أي: بحَسَب العُرف والعادة.

فأجابها الملائكةُ على ظاهر كلامها، بما يتضمَّن التذكيرَ بقدرة الله على تذليل الموانع

---

(١) يجوز أن يراد به معناه الحقيقي، ويجوز أن يراد به التبسُّم أو المبالغة فيها، ويجوز أن يراد به الابتهاج، والله أعلم.

العادية وعظيم مِنَنِ الله الخاصَّة بأهل بيت النبوَّة، و﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ ﴾ أي: إنَّ رحمة الله تعالىٰ عليكم متكاثرة، وبركاته لديكم متوالية متعاقبة، وهي النبوَّة والمعجزات القاهرة للعادات، والتوفيق للخيرات العظيمة، فليس بكثيرٍ إتحافُكم بهذه الكرامة الغالية.

ثم ختم البيان بما يُلْمِعُ إلىٰ التعليل، فقال: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣﴾ والمجيد: مَنْ لا يصدر عنه إلا ما يستحقُّ المدح والثناء، أي: إنَّ الله سبحانه مُسْتَوجِبٌ لأنواع الثناء والحمْد، حقيقٌ بأسْنَىٰ غايات الجلال والـمَجْد، لإفاضته النعم في الناس والمكرمات، وتأثيل[1] ذلك لأهل بيوت النبوات.

ثم ذكر ما كان من حِلْم إبراهيم عليه السلام وعطفه علىٰ قوم لوط لـمَّا علم بمجيء العذاب، وأدمج في طيَّات الكلام وصورة التعبير الإرشادَ له بعتاب خفي، فقال: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ ﴾ إذْ عَلِمَ أنَّ هؤلاء الضيوف ليسوا من البشر فيخاف منهم إن لم يأكلوا، وإنما هم من ملائكة العذاب لقومه، ﴿وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ ﴾ في الكرامة بالولد واتِّصال النَّسْل، أخَذَ ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤﴾ أي: يُجادل رُسُلَنا فيما أرسلناهم به من عقاب قوم لوط. وإنما جُعِلَت مجادلتُهم ومراجعتُهم مجادلةً له تعالىٰ، لأنَّها مجادلة في تنفيذ أمره.

ثم ذيَّل ذلك بما يدلُّ علىٰ الرضا عنه تخفيفاً لروعة العتاب، فقال: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ٧٥﴾، والأوَّاه: الرحيم، والحليم: هو الذي لا يتعجَّل بمجازاة من اعتدىٰ عليه، بل يتأنَّىٰ فيه ويرجو صلاحَه. وهذا كالدلالة علىٰ أنَّ جداله كان ناشئاً عن الحلم والرحمة، فأناب إلىٰ الله في ذلك.

ثم ذكر ما أجابتـه به الملائكةُ عن ذلك الجدال، فقال حكايةً عنهم: ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ

---

(١) التأثيل: التأصيل، كما في «لسان العرب» (أثل).

أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ الجدالِ في أمر قوم لوط والاسترحام لهم، ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وقُضيَ الأمر فيهم، ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ بجدال ولا شفاعة، فهو أمرٌ واقع، ما له من دافع.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِى ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ بيان ناحية أخرىٰ من القصَّة، وهي ما كان من إهراع قوم لوطٍ إليه للاعتداء علىٰ أضيافه، إذ إنَّ قصَّة لوط وقصة إبراهيم ممتزجتان ببعضهما، فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ بعد ذهابهم من عند إبراهيم، ﴿سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ عن احتمال ضيافتهم، لما يتوقعه من اعتداء قومه عليهم كعادتهم؛ لأنه لم يعرف أنهم ملائكة، ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾ شديدُ الأذىٰ.

﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: يُهَرْوِلونَ ويُسْرعون، وقد علَّل ذلك بقوله: ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، فأشار بهذه الجملة إلىٰ أنَّ إسراعَهم كان لهذه الغاية المتأصِّلة فيهم، وهي من بلاغة القرآن في التدقيق والتلطيف للمعنىٰ، أي: وإنَّهم من قبل هذا كانوا منهمكين في عمل السيِّئات، فائتَلَفوها ولم يَبْقَ عندهم حسٌّ بقَباحتِها، ولذلك لم يَسْتَحْيوا من مجيئهم مُهْرِعين مُجاهِرين.

ثم ذكر ما كان من شدَّة امتعاض لوط عليه السلام من ذلك، فقال حكاية عنه: ﴿قَالَ﴾ لهم لوط: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ يستعطفهم ويثير فيهم النَّخْوة، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾، وليس هذا الكلام علىٰ حقيقته وظاهره، بل علىٰ طريقة نفي الشيء بإيجابه، وهي هنا لإظهار شدَّة امتعاضه من ذلك، وللمبالغة في إظهار تناهي خُبث ما يرومونه بأضيافه، أي: فِعلُكم هذا وطَلَبُكم له أبشَعُ وأفظَعُ من هذا الفعل إيقاعاً بي. فيكون الكلام إنكاراً عليهم بأشنع وجوه الإنكار، ولوناً من ألوان التبشيع والتفظيع، لا يُراد بعبارته حقيقةُ معناها. ويؤيِّد هذا المعنىٰ تحاشيهم وتنزيههم له بقوله الآتي: ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي: إننا نُنزِّهك عن ذلك ونرفع شأنك. فهذا يُؤيِّد هذا الرأي، في معنىٰ كلام لوط عليه السلام.

وقيل: إنَّ الكلام علىٰ الإرشاد، والمراد من البنات: نساء قومه، لأنَّ النبي في قومه كالوالد، أي: كفُّوا عن فعلكم هذا واكتفوا بالنساء عن الذكران، فهو الموافقُ للفطرة والغاية التي خُلِقْنَ لها، وهي بقاءُ النَّسْل، بخلاف فِعلِكم هذا. وعليه، فيكون نفيُ الحق الآتي نفياً للرغبة البالغة فيهنّ، أي: قد علمت أننا نميل إلىٰ هذا أكثر من ذاك. وصيغة التفضيل للمبالغة في الطُّهر، وليس علىٰ بابه، فلا مفهوم مخالفة لها. وهذا قول مرويٌّ عن ابن عباس[١] ومجاهد وسعيد بن جبير[٢]، أي: إنَّ غشيانكم لنسائكم هو الطُّهْرُ والموافقُ للفطرة، لا عملكم هذا القبيح المشين.

ثم أكَّد ذلك بقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ﴾، ثم زاد في التنديد والتوبيخ بقوله: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾؟ أي: ذو رُشْد يعقل هذا فيُرشدكم إليه؟ ولا شك أنَّ الأمة التي تخرج إلىٰ هذا الحدِّ عن مُقْتضيات الطبيعة وسياجها، لا رشيدَ وازعاً فيها.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١١٠٨٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥: ٤١٤).

أما هم فقد نزَّهوه عما صَدَرَ عنه من نَفَثات صَدْرِهِ في أمر البنات، ولم يرتدعوا عن بُغْيتهم، و﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩﴾.

فلما سمع منهم هذا الردَّ، ورأىٰ أن تبشيع هذه الفعلة بهذا التعبير الفظيع لم يَزِدْهم إلا إغراءً ولم يخجلهم، ﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً﴾ لفعلتُ بكم ما فعلت، ﴿أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾ من أصحاب العصبيّات القويَّة؛ لنكَّلت بكم تنكيلاً. ويحتمل أن يكون قد قال لهم ذلك صراحة، أو قاله في نفسه، أو مع نفسه تألُّماً وتمنِّياً، وإنَّما تَمَنَّىٰ ذلك لأنه لم يكن منهم، وإنَّما سمَّاهم قومه علىٰ المجاز، بمعنىٰ: أهل دعوته ووطنه الجديد الذي أُرسِلَ إليه، إذ هو غريب فيهم، لأنه جاء إلىٰ هذه الديار مع عمِّه إبراهيم عليهما السلام من أور الكلدانيِّين في العراق، فسكن إبراهيم أرض الكنعانيين، وسَكَن لوط مدن دائرة الأردن، وقاعدتها سدوم. ويظنُّ كثير من الباحثين أنَّ بحيرة لوط قد غمرت موضعها بعد الخسف.

ثم حكىٰ ما كان من أمر الملائكة وإنجاء لوط مع أهله إلا امرأته، وإهلاك قومه، فقال: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾ بسُوءٍ في نفسك ولا فينا. فطَمَسَ اللهُ أعيُنَهم، فلم يعودوا يُبْصِرون لوطاً ولا مَنْ معه، كما قال تعالىٰ في سورة القمر: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾ [القمر: ٣٧]، فانقلبوا عُمياً يَتَخبَّطون، أو كما أعمىٰ الله قريشاً وهم حول رسول الله ﷺ في الغار يسمعهم ويراهم(١).

والظاهر أنه لم يَعلَمْهُم ملائكةً قبل أنْ قالوا له: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾، وكان يظنُّهم

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١)، عن أنس بن مالك، أن أبا بكر الصِّدِّيق حدثه قال: نظرت إلىٰ أقدام المشركين علىٰ رؤوسنا، ونحن في الغار، فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلىٰ قدميه أبصرنا تحت قدميه. فقال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما».

ضيوفاً من الناس، فخاف عليهم من شَنَاعة قومه، إذ كان هذا شأنُهم، وبعد أن عَرَّفَه الملائكة بأنفسهم أمروه بقولهم: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: بطائفةٍ من الليل تكفي لتجاوز حدود هؤلاء القوم، ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ وراءه لئلّا يرىٰ العذاب أو يُصيبَه. ويجوز أن يكون المرادُ به مجرَّدَ الحث في السَّيْر.

ثم استثنىٰ من أهله ـ الذين أمره بالإسراء بهم تخلُّصاً من العذاب ـ امرأتَه، حيث كانت كافرة خائنة لدينه، فقال: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾.

ثم بيَّن قُرْبَ نزول العذاب بهم، رامزاً إلىٰ التعليل عن أمره بالسَّرْي ليلاً بهم، فقال: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾.

ثم ذيَّل ذلك بما يكون كالجواب والتَّسلية لشدَّة تذمُّره منهم، فقال: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾، وفيه تخفيفٌ لِغَيْرة لوط. وحكمة إنجاز هذا العذاب عند الصباح: أنهم يكونون مجتمعين حينئذ في مساكنهم، فلا يفلت أحد منهم، والله أعلم.

ثم بيَّن سبحانه مُجْمَلَ صورة ذلك العذاب، فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾.

قال في «المنار»: وسُنَّة الله في خَسْف الأرض في قطر من الأقطار: أن يَحْدُثَ تحتَ تلك القطعة فراغٌ بقَدْرها، بسبب تحوُّل الأبخرة التي في جوفها، فينقلب ما فوقها إما مستوياً وإما مائلاً إلىٰ جانب من الجوانب، إن كان الفراغ تحتها أوسع[1]. وفي بعض هذه الأحوال يكون عاليها سافلها. ويجوز أن يكون معنىٰ ﴿عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أن ما كان سطحاً لها هبط وغار فكان سافلَها، وحلَّ محلَّه غيرُه من اليابسة المجاورة أو الماء.

---

(١) هذا ظنٌّ في موضع لا يُغني فيه الظن عن الحق شيئاً، فتعذيبُ الله تعالىٰ للظالمين، وإهلاكه للكافرين، لا يُقاسُ بمثل هذا مما جرت به العادة، فالمسألة معجزة غيبية لم يُطلَب منا العلمُ بكيفيتها.

والمرجَّح عند علماء طبقات الأرض: أنَّ قرىٰ لوط صارت تحت الماء المعروف ببحيرة لوط. أقول: ويعارض رأيهم هذا ظاهرُ قوله تعالىٰ في سورة الحجر: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾، اللهم إلا أن يقال: عبَّر بهذا عن شأنها قبل أخذ البحيرة لها أو بعده، باعتبار ما كان، فذلك من خصائص اللغة، وعليه فيكون المراد نفس البحيرة، والله أعلم.

أما قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾، فيجوز أن يكون ذلك قبل القلب أو في أثنائه. وفي سورة الذاريات: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣]. وقال الحسن: الحجارة طين متحجِّر[١]. وقال الراغب: السِّجِّيل: حجر وطين مختلط، أصله فارسي فعُرِّب[٢]. وقيل: إنه من النار، وأصله سِجِّين، فأُبدِلَت نونه لاماً. وهذا موافق لرواية سِفْر التكوين. فإنْ صحَّ يكون من النيازك، أو من بركان من البراكين، تهيَّج في ذلك الوقت. والله أعلم[٣].

وقد وُصِفَ بقوله: ﴿مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾[٤] أي: متراكب، إذ ينزل بعضه في إثر بعض،

---

(١) لم أجده إلا في تفسير «المنار».

(٢) «المفردات» ص٣٩٨.

(٣) تفسير «المنار» (١٢: ١١٣-١١٤).

(٤) قيل: «منضود» صفة لـ«سِجِّيل»، تبين أنه متلبِّد متكاثف صُلب للغاية. ويقول علماء طبيعة الأجسام: إن مثل هذه الحجارة يحتوي علىٰ مادة معدنية تُكْسِبها صلابة وتماسكاً عظيماً بين أجزائها حتىٰ لا تتفكك بالتصادم مع الهدف المقصود، مثل: رصاصات المسدس الصغيرة المكونة من مواد معدنية ذات صلابة قوية. ونقل الرازي أنه ورد في الأخبار: أنَّ معنىٰ «مسوَّمة»: معلَّمة بخطوط حمراء. وقد ذكر علماء طبقات الأرض أن مثل هذه الحمرة تدل علىٰ أنها محتوية علىٰ خام أكسيد الحديد ذي اللون الأحمر الذي يُكْسِب الصخور التي تحويه صلابةً وكثافةً عظيمتين. ويستدل كذلك من قوتها علىٰ هذا التدمير، أنها ـ فوق صلابتها النادرة ولا بد أنَّها ـ قد كانت =

ويقع طائفةً بعد طائفة. وقد أجرىٰ هذا الوصف علىٰ السِّجِّيل مادةِ تلك الحجارة، ومثل ذلك من خصائص اللغة.

ثم تابع الوصف للحجارة نفسها، حيث أراد مفرداتها، فقال: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: مُعلَّمةً بعلامة خاصَّة عند ربِّك، وهذه كناية عن أنَّ كلَّ حجر منها لا تصيب إلا من أراد الله أن تصيبه، والله أعلم. والمراد: المبالغة في تمكين الإجراء وتحقيق الجزاء، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾؛ يحتمل أن يكون للتهديد، أي: وما هذه العقوبة ببعيدةٍ عن الظالمين من قريش، ويحتمل أن يكون للتبصير، أي: وما هذه القرىٰ التي حَلَّ بها العذاب بعيدة المسافة عن مُشركي مكة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِٱلَّيْلِ﴾ [الصافات: ١٣٧]. ويجوز أن يُراد به المعنيان معاً، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، والله أعلم.

﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ

= مندفعة في سقوطها بسرعة هائلة، عندما أصابت مباني القرية فدمَّرتها. إذ يجوز أن يكون التدمير بنفس هذه الحجارة؛ لأن الواو لمطلق الجمع لا للترتيب. ويكون معنىٰ جَعْل عاليها سافلها: سقوط أعالي البناء علىٰ أسافله بنتيجة الانهدام، والله أعلم. (المؤلف).
وكلام الرازي في «تفسيره» (١٨: ٣٨٣).

وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾.

ثم قفَّىٰ علىٰ قصة لوط مع قومه بقصة شعيب مع قومه، فقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ فأمرهم بتوحيد الله، و﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ إذ تقتصر أفعال الألوهية وصفاتها عليه.

ثم نهاهم عن أشدِّ الرذائل التي فَشَتْ فيهم، فقال: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أي: فيما تكيلون وما تزنون من المبيعات كما هي عادتكم، وكانوا تجاراً مُطفِّفين ﴿إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ٢-٣].

ثم نَبَّههم إلىٰ مَوْضع فضْل الله فيهم؛ ليزجُرَهم بمعونة ذلك عمَّا هم عليه، فقال: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ أي: بثروة واسعة في الرزق يجب أن ترفع أنفسكم عن دناءة بَخْس حُقوق الناس وأكل أموالهم بالباطل، فهو كفرٌ لنعمة الله عليكم بالغنىٰ والسَّعة، والواجب عليكم شكرها.

ثم حذَّرهم بقوله: ﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾ بكم؛ إذا أنتم أصرَرْتُم علىٰ شرككم وكفركم بنِعَمِه. وهذا اليوم يصدق بيوم القيامة ويوم عذاب الاستئصال معاً.

ثم أمرهم بالواجب بعد أن نهاهم عن ضدِّه، علىٰ سُنَّة القرآن في ذلك، فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالحقِّ والعدل. وكرَّر النداء بـ﴿يَٰقَوْمِ﴾ لزيادة الاستعطاف.

ثم قَـرَنَ الأمر بما هو أعمُّ منه ومن النهي السابق، علىٰ نَهْج القرآن في تقرير الأحكام العامة إثر الأحوال الخاصَّة، فقال: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾، فإنَّ البخس يشمل النقصَ والعَيْبَ في كلِّ شيء.

ثم أردَفَ الأمر والنهي بما يتمِّمُها ويزيد في تقريرهما علىٰ طريقة تقرير قاعدة عامة، فقال: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾، والعثو: الإفساد، فكلمة ﴿مُفْسِدِينَ﴾: حالٌ مُؤكِّدة له. وهذا نهيٌ عام آخر يتناول ما سبق وغيرَه، مثل قطع الطريق وتهديد الأمن والخروج علىٰ السلطان، وأمثال ذلك.

ثم خَتَم الإرشاد بما يزيده تأثيراً علىٰ النفوس، فقال: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾، والإضافة للتكريم. يريد: ما يبقىٰ لديهم ممَّا يحصلون عليه بالطريقة المرضية عند الله، أي: ما يبقىٰ لكم بعد إيفاء الكيل والوزن من الربح، وما يبقىٰ لكم بحُسْن الأعمال من الأجر عند الله ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فإنَّ الإيمان هو الذي يُطهِّر النفس من دناءة الطمع، ويُحلِّيها بفضيلة القناعة والكرم والسخاء، ويُـرَغِّبها بالأجر والثواب.

ويجوز أن يكون الكلام حثاً علىٰ الإيمان ووعداً عليه، أي: إنْ آمنتُم فلكم عند الله بقيةٌ من الكرامة والنعيم لا يُقدَرُ قَدْرُها.

ثم أعذَرَ وأنذَرَ بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ أي: بمسيطر ووكيل، وإنما أنا مُبلِّغ ونصيح. أو المعنىٰ: ما أنا بحافظٍ نِعَمَ الله أن يزيلها عنكم.

ثم ذكر ما ردَّ به قومه عليه، فقال: ﴿قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾، فردُّوا عليه دعواه من جانبيها؛ لأن الجزء الأول من الرد مُوجَّه إلىٰ دعواهم للتوحيد وعبادة الله وحده، والجزء الثاني مُوجَّه إلىٰ دعواه إياهم إلىٰ إيفاء المكيال والميزان، وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم.

والمراد من الصلاة: إما معناها الحقيقي، وإما مطلق الدِّين، وإنما عبَّر بها عنه لأنها أظهر جزء فيه يرونه. والاستفهام للإنكار والاستهزاء. والمعنىٰ: أدينك هذا يأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا، أو أن نتصرَّف في أموالنا بما نستطيع من حِذْقٍ واحتيال علىٰ الكسب من الناس.

ثم تابعوا الردَّ باستهزاء ثانٍ، فقالوا: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ يستهزئون ويُعَرِّضون بما يعتقدونه فيه من اتِّصافه بِضَدّيهما، وهما السَّفَهُ في الرأي، والغَوايةُ في الفعل بهوس الدين والصلاة، كما يقال للجاهل: إنَّك عالم، أو لمن به خبل: إنك عاقل، يُهزَأُ به ويُتَندَّر عليه.

قال الرازي: أو أن يكون المراد: إنك موصوفٌ عند نفسك وعند قومك بالحِلْم والرُّشْد، أو أنه كان مشهوراً عندهم بأنه حليم رشيد، كما كان صالح مَرْجُوّاً عند قومه قبل أن دعاهم إلىٰ التوحيد. فلما أمرهم بمفارقة طَريقتِهم قالوا له: أنت مَنْ نعرف، فكيف تنهانا عما ألفَيْنا عليه آباءَنا؟ ثم قال: وهذا الوجه أصْوَبُ الوجوه عندي. انتهىٰ[1].

فردَّ عليهم شعيب عليه السلام ما أوردوه عليه من ناحيتَيْه، بما حَكىٰ عنه سبحانه بقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أي: علىٰ حُجَّة واضحة من ربِّي فيما دعوتكم إليه، يريد النبوَّة والحكمة، ويردُّ علىٰ مقالتهم الشنعاء المقرونة بالاستهزاء في جَعْلِهم أمْرَه ونهيَه إياهم غيرَ مُستند إلىٰ سَنَد، ولكنه مُجَرَّد سَفَه وهَوَس.

ثم استشهد بالواقع مِنْ وَفْرة ماله وسَعَة كَسْبه علىٰ أنَّ إيفاء الكيل والوزن أدنىٰ إلىٰ تنمية المال وعِظَم الكسب، فقال: ﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، أي: بدون أن أبخَسَ حقَّ أحد أو أُطفِّف المكيال والميزان، وقد كان كثير المال.

---

(١) «تفسير الرازي» (١٨: ٣٨٧).

ثم تابع الكلام بما يدلُّ علىٰ الإخلاص في النُّصح، فقال: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ وإنما أختار لكم ما أختار لنفسي.

قال الرازي: فكأنه عليه السلام قال لهم: لـمّا اعترفتم بكمال عقلي فاعلموا أنَّ الذي أختاره لنفسي لا بدَّ أن يكون أقربَ الطُّرُق وأصْلَحَها[1]. وهذا القول من الرازي مَبْنيٌّ علىٰ ما اختاره فيما سبق في معنىٰ قولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾.

ثم زاد الدعوة توثيقاً بقوله: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ ولا منفعة ذاتيّة لي بذلك. والتقييد بالاستطاعة لبيان سَعَة هذه الإرادة وبُعْدِ مَدَىٰ هذا العمل، لا للاعتذار عما ليس في وُسْعِه.

ثم قرن ذلك بالاستعانة بالله، فقال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ۖ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾.

---

(١) «تفسير الرازي» (١٨: ٣٨٨).

ثم أردف الإرشاد بالإنذار وبالتبصير بالعاقبة، فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ زماناً ولا مكاناً ولا إجراماً. فقوله: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ مأخوذ من قولهم: جَرَمَ الذنب؛ إذا كسبه، والشقاق: شدَّة الخلاف والخصام. وقد ضمَّن (جرم) معنىٰ: حمل، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك. والمعنىٰ: لا يحملنَّكم خصامُكم لي علىٰ الإصرار علىٰ الكفر، فيصيبكم ما أصاب أمثالكم من المكذِّبين.

ثم أردف التبصير والإنذار بالإرشاد، فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ يقبل توبة التائبين، ويرحم المستغفرين، ويكثر المودَّة لهم بإحسانه ونِعَمِه.

فلمَّا عجزوا عن مُجادلته بالدليل والبرهان، وانقطعت حُجَّتُهم بعد هذا البيان، عَمَدوا إلىٰ السَّفاهة والطغيان، شأنَ أمثالهم عند انقطاع حُجَجِهم، كما حكىٰ عنهم ذلك سبحانه بقوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾، والفقه: الفهم الدقيق المؤثِّر في النفس الباعث علىٰ العمل، أي: ما نفهم سرَّ إبطال عبادة آلهتنا، وقُبْحَ حريَّة التصرُّف في أموالنا، وتوعُّدَنا بعذاب يصيبنا بمثل الأحداث الجويَّة التي نزلت بمن قبلنا، كأنَّ أمرها بيدك، أو كأنَّ ربَّك يصيبُ بها مَنْ تشاء، ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ إنْ أردنا أن نبطش بك، ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ أي: لولا عشيرتُك الأقربون نَرعىٰ جانبهم، ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾ وقتلناك شرَّ قتلة، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ وقويّ في ذاتك.

فأجابهم عن إدلالهم عليه هذا، بأنه مُعْتزٌّ بالله، لا برَهْطه، وهَدَّدهم علىٰ شِركِهم به، و﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ۖ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ فأشركتُم به ولم تحسبوا لبطشه حساباً، كالشيء الذي يُلقىٰ وراء الظهر، ﴿إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾، فيُحْصيه عليكم ويَجْزيكم عليه جزاءً وفاقاً.

ثم بيَّن لهم أنه ماضٍ في الدعوة، غيرُ مكترث لتهديدهم، واثقٌ بنصر الله، فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: علىٰ نهاية ما تتمكَّنون منه، ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ علىٰ مكانتي من دعوتكم إلىٰ التوحيد وأمركم بالمعروف ونهيكم عن المنكر.

ثم صرَّح بالوعيد بعد التلميح، فقال: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾ أي: وانتظِروا لما سيقع، إني معكم منتظر لذلك. وفي زيادة ﴿مَعَكُمْ﴾ إظهارٌ لكمال الوثوق بعقيدته.

ثم ذكر وقوع العذاب بهم بعد أن قدَّم نجاة المؤمنين بمقتضىٰ حكم البلاغة، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بعذابهم الذي أُنذروا به، ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ خاصَّةٍ بهم، ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ ميِّتين متلبِّدين، ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ أي: كأنْ لم يكونوا ولم يقيموا فيها.

ثم سجَّل ناعياً عليهم بقوله: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ أي: هلاكاً لهم وبُعْداً من رحمة الله كما جرىٰ علىٰ ثمود.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

ثم أردف قصَّة شُعيب مع قومه بقصَّة موسىٰ مع فرعون وقومه، فقال: ﴿وَلَقَدْ

﴿أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: أشراف قومه، ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾ أي: بذي رُشْد وهُدىٰ، بل هو الغيُّ والضلال، وسوف ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ﴾ إلىٰ النار ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ كما كانوا تابعين له في الدنيا، تَبِعُوه في الضلال ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾، وإنما عبَّر بالماضي لِتحقُّق الوقوع. ثمَّ أنّبهم ونَعَىٰ عليهم بقوله: ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾.

ثم سجَّل عليهم بقوله: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِۦ﴾ الدنيا ﴿لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أخرىٰ لا تُقَدَّر.

ثم نعىٰ عليهم مُسَمِّياً ذلك الورود رِفْداً، علىٰ طريقة التهكُّم، فقال: ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾، والرِّفْد: العطاء والعون للوافدين.

ثم أجمل ما تضمنَّه السياق من مصير الـمُكَذِّبين مُخاطباً بذلك النبي ﷺ، ليزيده تحسيساً بالأمر، وتسليةً عن معارضة المشركين، وتنويهاً بما في السياق من أنباء، فقال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾، فاستعمل لتلك القُرىٰ صفة الزرع، فوصف التي لها بقايا ماثلة وأطلال باقية بالقائم منه، ووصف القرىٰ العافيةَ الأثر المندرسةَ عن النظر بالحصيد. والأولىٰ مثل قرىٰ قوم صالح فهي ماثلة علىٰ قِدَم العهد بحادثتها، وذلك لأنها أراض صخرية ولم يُخْسَفْ بها. والثانية: مثل قرىٰ قوم هود ولوط.

ثم بيَّن سبحانه العدل في ذلك، فقال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ﴾ بما جرىٰ عليهم، لأنا لم نخلقهم فاسدين ضالِّين، ﴿وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بإفسادها بالشِّرك والبغي والضلال، حتىٰ لم يَبْقَ فيها بقية من قَبول الحق وإيثار الخير علىٰ الشر، فكان ما جَرَىٰ عليهم أمراً لازماً لفعلهم.

ثم قَرَنَ ذلك بالتأنيب والتجهيل والتنديم، فقال: ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ١٠١﴾ أي: هلاك وتخسير وتدمير، وذلك باعتمادهم عليها وعبادتهم لها.

ثم ختم الكلام بما يزيد في التحسيس بما سَبَقَ من مصير المكذبين، وجعله على صورة قاعدة عامة، على نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ١٠٣ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ١٠٤ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ١٠٩﴾.

ثم ذكَّر بعذاب الآخرة بعد التذكير بعذاب الدنيا، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، ثم ذكر ما يجري في ذلك اليوم، زيادة في الوعظ والتنبيه، فقال: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ للحساب والجزاء، ﴿وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ١٠٣﴾ يشهده الخلائق كلُّهم، ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ١٠٤﴾ أي: معدودٍ في علمنا، مُعيَّنٍ لدينا، لا يزيد ولا ينقص عن تقديرنا له بحكمتنا.

ثم ذكر بعض أحوال ذلك اليوم زيادةً في الوعظ والإنذار، فقال: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾؛ إذ لا يملك فيه أحدٌ قولاً ولا فعلاً تجاه عظمة الله.

ثم ذكر حالة تلك الأنفس، فقال: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ﴾ بالعذاب الدائم، ﴿وَ﴾ منهم ﴿سَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ بالنعيم المقيم. وقد فصَّل ذلك بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾، أعاذنا الله، وهذا تصويرٌ لشدَّة كربهم.

ثم بيَّن تأبيدهم فيها، فقال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾، وهذه العبارة تستعملها العرب كنايةً عن الدوام الدائم، فجرىٰ القرآن في التعبير علىٰ حسب عُرف التخاطب، علىٰ نهجه في مثل ذلك، ولا يشترط في الكناية صحَّة المعنىٰ الحقيقي. ويجوز أن يُراد سماءُ كلٍّ من أهل النار وأهل الجنة وأرضُهم، وذلك ما فوقهم وما يستقرُّون عليه، فقد قال ابن عباس: لكلِّ جنة أرض وسماء. وروي مِثلُه عن الحسن والسُّدِّي[1].

أقول: ويجوز أن يُلمَحَ ذلك من قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

ثم قرَّر هذا التأبيد بقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ علىٰ سُنَّة القرآن في تعقيب التأبيدات والقطعيات باستثناء المشيئة، لإفادة أن ذلك التأبيد أو القطع مبنيّ علىٰ النواميس التي شاءها الله بحسب الحكمة البالغة، ولو كانت الحكمة في غيرها لشاء ما به الحكمة.

فمؤدَّىٰ هذا الاستثناء: الجَزْم بما قبله، لا تقييدُه بمشيئة الله، كما يوهمه الظاهر، إلا أنَّ فيه إرشاداً إلىٰ التفويض إلىٰ الله في الأمور، وإشارةً إلىٰ أنَّ مشيئته تعالىٰ لا يغلبها أمرٌ ولا نظام؛ ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ فهو إنْ شاء غيرَ ذلك فعل، ولكنْ مشيئتُه لا تتعلَّق إلا بما تقتضيه الحكمة في علمه الأزلي.

وبعد أن ذكر حال الأشقياء، ذكر حال السعداء، فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ أي: لا يكون إلا ذلك؛ لأنه

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١١٢٢٩-١١٢٣٠، ١١٢٣٢).

شـاءه ربك، ولا يكون إلا ما شـاء ربك، وذلك ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ أي: دائماً غير منقطع ولا مبتور.

ثم ختم السياق بالغرض منه، وهو بيان أنَّ مصير مشركي مكة كمصير هؤلاء إن لم يؤمنوا، وسَبَك صورة العبارة علىٰ ما يتضمَّن زيادةَ تأكيدٍ في ذلك، بحسب عُرْفِ التخاطب في الأساليب العربية، فقال: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: من عاقبة عبادة مشركي مكَّةَ ونتيجتِها الوخيمة عليهم. وهذا لونٌ من ألوان التحقيق والتوثيق، يجري علىٰ مثله القرآن، وإن لم يكن ليعتريه ﷺ المريةُ والشكُّ أبداً. ويجوز أن يكون الخطاب للأمة في شخص النبيِّ ﷺ، كما جرىٰ عُرْفُ التخاطب مع الرؤساء والزعماء، يقال للملك: إذا فعلت هذا كانت عاقبتُه كذا. والمراد: إذا فعلتْه أمَّتُك أو دولتُك.

ثم استأنف البيان عن المشركين المعارضين، فقال: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾، وفي صورة التعبير بلاغةٌ عالية في الوعيد والتنذُّر الدقيق.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾.

ثم ذكَّرهم بقوم موسىٰ الذين آتاهم الكتاب فاختلفوا فيه، بغياً وتنازعاً علىٰ الرياسة مثلهم، وذكَّرهم بكلمة الله في تأخير جزائهم إلىٰ الآخرة، لأنهم لم يستحقُّوا عذاب الاستئصال في الدنيا، لإيمان بعضهم وصلاحه، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بإنظارهم إلىٰ يوم القيامة ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدنيا، ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: كفار قومك بما فيهم أهل الكتاب ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي: القرآن ﴿مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾. وعَوْدُ الضمير علىٰ ما هو معروف في الذِّهْن من خصائص اللغة.

فتوعَّدهم بقوله: ﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾ منهم ﴿لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ يوم القيامة، ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾ يُحصيها لهم ويُجازيهم عليها.

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

ثم عقّب هذا السياق بسياق التحذير والإرشاد للمؤمنين، علىٰ سُنَّة القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أي: إذا كان أمر أولئك الأمم كما علمت، ووعيد المشركين والكافرين كما سمعت، فالزم الصراط المستقيم؛ أنت، ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ فيه بتجاوز حدوده غُلواً في الدين، فإنَّ الإفراط فيه كالتفريط، كلٌّ منهما زَيْغ عن الصِّراط المستقيم؛ ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ فيجزيكم بحَسَبه.

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: ولا تَستَنِدوا إلىٰ قومكم المشركين فتجعلوهم ركناً تعتمدون عليه، فتقرُّونهم علىٰ ظلمهم وتُشجِّعونهم عليه، ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾. وذهب بعض مفسِّري السلف إلىٰ أنَّ المراد: النهيُ عن المُداهَنة في الدِّين، والمَيْل إلىٰ الظالمين، والرضاء بفعلهم، ومخالطتهم ومعاشرتهم.

ثم أرشدهم وهدَّدهم بقوله: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: ليس لكم مَنْ يتولَّىٰ أموركم غير الله، ﴿ثُمَّ﴾ إنكم إذا اعتمدتم علىٰ الظالمين ﴿لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾، لأنه سبحانه لا ينصر مَنْ يركن إلىٰ الظالمين. فالتعبير بـ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة علىٰ الغاية. ويجوز أن يكون المعنىٰ: لا أحد ينصركم من الله إن فعلتم ذلك. والله أعلم.

ثم أمرهم بأعظم العبادات التي يُستعان بها علىٰ ما ذكر من الأمر بالاستقامة

والنهي عن الطغيان وعن الركون إلىٰ الظالمين، علىٰ نهج القرآن في تعقيب المواقف الحرجة بالأمر بالصلاة. ووجَّه الخطابَ إلىٰ النبيِّ ﷺ جَرْياً علىٰ مُخاطَبة الرئيس والمرؤوسين في شخص الرئيس، أو علىٰ طريقة خطاب الخاص وإرادة العام، (كما جاء في المادة الثالثة من المقدمة الخامسة)، فقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ قالوا: هذا يشمل الصبحَ والعصرَ، وأدخل بعضهم فيه الظهرَ بطريقة التوسُّع والاندماج. أما قوله: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ فقد قالوا فيه: إنه يشمل صلاة المغرب والعشاء.

ثم علّل وجه الاستعانة بها، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾، لأنَّ للأعمال الحسنة من تزكية النفس وإصلاحها ما يمحو منها تأثيرَ الأعمال السيئة وإفسادها وتسخيمها. وقد فسَّروا السيِّئات هنا بالصغائر. ثم علَّق علىٰ ما تقدَّم بقوله: ﴿ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾ أي: إنَّ في جميع ما ذكر من الوصايا لموعظةً للمتَّعظين الذين يراقبون الله ولا ينسونه.

ثم أمرهم كذلك بأعظم الأخلاق التي يُستعان بها علىٰ تحقيق ما مَرّ، مُخاطِباً النبيَّ ﷺ، فقال: ﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٥﴾ أي: وَطِّنْ نفسَك علىٰ احتمال المشقَّة في سبيل ما أُمِرتَ به وما نُهيتَ عنه في هذه الوصايا، وتذكَّر أجْرَ الله تعالىٰ علىٰ ذلك.

﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ١١٦ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١١٩ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ١٢٠ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا

عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

ثم أردف السياق السابق في نزول عذاب الاستئصال في الأمم، ببيان أبرز أسبابه، وهو عدم التناهي عن الفساد واتِّباع الظالمين للشهوات، وعبَّر بصيغة التأسيف والتنديم، فقال: ﴿فَلَوۡلَا﴾ أي: فهلّا ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ الذين أهلكناهم بظلمهم وفسادهم، واستأصلناهم لإصرارهم علىٰ الكفر؛ هلَّا كان فيهم ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ﴾ من البصيرة والرأي والصلاح ﴿يَنۡهَوۡنَ﴾ أولئك الأقوام ﴿عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، فيحول نهيُهم إياهم دون هلاكهم. كلا، لم يكن فيهم بقية من هؤلاء العقلاء الأخيار ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ باتِّباعهم هدايتنا، وكانوا منبوذين من جانب قومهم، مُهدَّدين مع رسلهم، لا يُقبَلُ أمرُهم ونهيهم، ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ وهم الأكثرون منهم ﴿مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ فاستحقُّوا العذابَ الأليم. والترفُ مَفْسَدةٌ للفرد والمجتمع، يؤدي بالأمة إلىٰ الدمار، ولهذا وصف الله المترفين بالظلم والإجرام.

وقد تابع البحث ببيان أنَّ الله سبحانه لا يظلم أحداً، ولكنّ الكافرين هم الظالمون، فقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾، كلا، ولا يظلم ربك أحداً.

ثم أردف السياق المتضمِّن لمعارضة المكذِّبين للأنبياء والمرسلين، ببيان أنَّ أمرهم هذا لم يكن قهراً للإرادة الربانية، ولا عَجْزاً في القدرة الإلهية، ولكنه نتيجة إفساد للفطرة البشرية التي شاء الله أن يخلق الإنسان عليها بمقتضىٰ الحكمة البالغة، حيث خلق له عقلاً يتدخّل في سائر شؤونه، وجعله مطلق التصرُّف بإرادته، حسب الخطة التي يرسمها له رأيُه، وتنصرف إليها نفسُه، تلك الإرادة المتأثرة بشكل التنشئة والتربية وطابع البيئة والمحيط، ولو شاء أن يخلقه مقسوراً علىٰ فعل الخير مَجْبوراً علىٰ طاعة الله لفعل، ولكن

مشيئة الله سبحانه لا تجري جُزافاً، وإنما تجري بحسب الحِكَم والمصالح العامَّة والسُّنن الكونيَّة. وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن لا يَقسُرَ ويُحدِّد الإنسان في أعماله وتصرُّفاته كالملائكة، بل يكون واسع العلم والقدرة، حرَّ الاختيار والتصرُّف، يفعل ما يشاء، ويختار ضمن حدود مقدرته، وهذا هو معنىٰ ما جاء في الحديث: «إن الله خلق آدم علىٰ صورته»[1]، أي: ذا علم وإرادة وإيجاد؛ لأن الإنسان خُلِقَ ليَعمُرَ الأرض ويستفيد من خيراتها، والله أعلم.

وقد ألمع سبحانه وتعالىٰ إلىٰ هذا بقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ أيها الرسولُ الحريصُ علىٰ إيمان قومه، الآسِفُ علىٰ إعراض أكثرهم عن إجابة دعوته واتِّباع هدايته، لو شاء ربك ﴿لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[2].

قال في «المنار» ما محصَّله: أي: علىٰ دين واحد بمقتضىٰ الغريزة والفطرة، لا رأيَ لهم فيه ولا اختيار. وإذن لما كانوا هم من هذا النوع من الخَلْق المسمَّىٰ بالبشر وبنوع

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٦٢٢٧)، ومسلم (٢٨٤١)، عن أبي هريرة.

(٢) جعلهم الله سبحانه مختاري التصرُّف في الأفعال وفي الاتجاهات العقلية؛ ليتشعَّب لهم العمل في مرافق الحياة الدنيا، فيتمّ فيهم الرقيّ والكمال المنشود لهم، ويكونوا مظهراً لأسرار خلقه المادية والمعنوية المنوطة بهم، إذ لا يتم ذلك إلا بتنوُّع وتوسُّع تفكيراتهم وتباينها، ليحظىٰ كلّ منهم بما لا يحظىٰ به الآخر، ويتم الكمال بالمجموع. ولو جعلهم أمة واحدة في نوع التفكير والاتجاه كالملائكة، لفات هذا الغرض المطلوب منهم، باعتبارهم خلفاء الأرض، يكتشفون ويستنبطون خفاياها، من كنوز واستعداد وأحوال وأوضاع، إلا أنه سبحانه لم يتركهم وشأنهم في أمر اجتماعهم وإصلاح أرواحهم، فأرسل لهم رسلاً تبيِّن لهم الخطط التي يجب أن يتَّبعوها في إصلاح حالاتهم الاجتماعية وخصائصهم الروحية، التي بها تتمّ سعادتُهم في الدارين، فمن أبصر فلنفسه، ومن عمي فعليها، وما ربك بظلام للعبيد. والمراد في قوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ الذين يتبعون تعاليم الله سبحانه وبها يهتدون. (المؤلف).

الإنسان الذي جعله الله بمقتضىٰ حكمته خليفةً في الأرض؛ يَسْتنبط خيراتِها، ويتصرَّف بشؤونها التي لا تُحصىٰ، بل لكانوا في حياتهم الاجتماعيةِ كالنَّحل والنَّمل مقسورين علىٰ عمل محدود، وفي حياتهم الروحيَّة كالملائكة مفطورين علىٰ اعتقاد الحقِّ وطاعة الله عزَّ وجل، فلا يقع بينهم اختلاف. لكنه سبحانه لم يشأ ذلك، بل خلقهم بمقتضىٰ حِكمتِه كاسبين للعلم والمعرفة لا مُلهَمين، وعاملين بالاختيار وترجيح بعض المُمْكنات المتعارضة علىٰ بعض، لا مجبورين ولا مُضْطرِّين، وجعلهم متفاوتين في الاستعداد وكَسْبِ العلم والمعرفة واختلاف الاتجاه والاختيار، ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨﴾ كذلك في كلِّ شيء حتىٰ في الدِّين الذي شرعه لتكميل فِطْرتهم وإزالة الاختلاف فيما بينهم، ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ منهم، وهم الذين حافظوا علىٰ سلامة فطرتهم فاتَّفقوا علىٰ حكم كتاب الله فيهم. ولا يخفىٰ أن الجدال الحسن يوسِّع العلم والإدراك، ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، لأن في المجادلة الصحيحة النزيهة إظهار الحقائق[1].

ومحصَّل الكلام: أنه لم يخلقهم كبقية الحيوانات محدُودي التفكير، مُتقاربي الفهم والإدراك في حدود ضيقة، بل خلقهم في سَعَة العلم وبُعْد النظر وفَهْم المُدْركات، علىٰ جانب عظيم، فكانوا بحكم الطبيعة مختلفين في درجة الفهم وقوَّة الاستنباط، لأن ذلك أمرٌ طبيعيّ للعقل البشري، وفيه مجال لتقرير العلوم وتوسيعها وتوضيحها، فلذلك كانوا مُستَعدِّين للاختلاف والتفرُّق في علومهم ومعارفهم، وآرائهم وشعورهم، وما يتبع ذلك من إرادتهم واختيارهم في أعمالهم. ومنها الدين والإيمان، والطاعة والعصيان، فكانوا فريقين:

فريقاً حافظوا علىٰ سلامة فِطَرِهم واتَّفقوا في الدِّين، فجعلوا كتاب الله حَكَماً بينهم

---

(١) تفسير «المنار» (١٢: ١٦٠).

فيما اختلفوا فيه، فاجتمعت كلمتهم وكانوا أمة واحدة، فرحمهم الله بوقايتهم من شرِّ الاختلاف وغَوَائله في الدنيا، ومن عذاب الآخرة والأسباب المؤدية إليه.

وفريقاً أفسدوا فِطَرَهم بمفاسد التربية، واختلفوا في الدِّين كما اختلفوا في مصالح الدنيا ومنافعها وسلطانها، فكان بأسهم بينهم شديداً، فذاقوا عقاب الاختلاف والشقاق في الدنيا، وأعقبه جزاؤهم في الآخرة، فكانوا محرومين من رحمته بظلمهم لأنفسهم، لا بظلم منه لهم.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ التي قالها في غير المهتدين، وهي: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ أي: من عالَمَي الإنس والجن، يعني: الذين لم يهتدوا منهم بما أرسل به رسله لهداية المكلَّفين والحكم بين المختلفين. وعلىٰ هذا المعنىٰ، تكون اللام من قوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ للعاقبة لا للتعليل.

ثم ختم السورة بالتنويه بما جاء فيها من العلم والهداية والتثبيت والعناية، فقال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أي: نقصُّ عليك كلَّ نوع منها يؤدِّي إلىٰ تثبيت فؤادك في القيام بأعباء الرسالة ونَشْر الدعوة، لما فيه من زيادة العلم بسُنن الله في الأقوام، وما قاساه رُسُلهم من الإيذاء، فصبروا عليه، ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ﴾ السُّورة أو في هذه الأنباء ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الذي دَعَا إليه جميع أولئك الرسل، وهو توحيد الله واتِّقاؤه، وامتثال ما يأمر به وتَرْكُ ما ينهىٰ عنه والإيمان بالبعث والجزاء، ﴿وَ﴾ هو ﴿مَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ الذين يتَّعظون بما حَلَّ بالأمم المكذِّبة من عقاب الله، ويتذكَّرون ما في ذلك، حسبما جاء في هذه السورة من عاقبة الكفر والظلم والفساد.

ثم زاده تثبيتاً بقوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ واستطاعتكم من مُقاوَمة الدعوة، فسوف تَلقَونَ جزاء ذلك من العقاب والخذلان، ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾﴾

علىٰ مكانتنا واستطاعتنا من الثبات علىٰ الدعوة وتنفيذ أمر الله وطاعته، ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ بنا ما تتمنَّون لنا من انتهاء أمرنا بالفشل أو غيره مما تتحدثون به، ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ ما وَعَدنا ربُّنا من النصر وظهور هذا الدِّين علىٰ الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون، وإتمام نوره ولو كره المشركون، وعقاب المعاندين منهم في الدنيا بعذاب من عنده أو بأيدينا.

ثم خَتَم الختام بما يُلْمِعُ إلىٰ تحقيق ما جاء فيه من الوعد والوعيد، ويتضمَّن أنَّ وقت إنجاز ذلك من غيب الله، فقال: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ومن ذلك: ما تنتظر من وعد الله لك ووعيده لهم، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ ليتمَّ لك ما وَعَدَك، إذ التوكُّل لا يصحُّ إلا مع معرفة الله بالعبادة والأخذ بالأسباب المستطاعة، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ أي: ما تعمله أنت والمؤمنون من عبادته والتوكُّل عليه والصبر علىٰ أذىٰ المشركين، فيُوفِّيكم جزاءه في الدنيا والأُخرىٰ، وما يعمله المشركون من الكفر والكيد لكم، فيُوفِّيهم جزاءهم كذلك، جزاءً وفاقاً.

انتهىٰ الجزء الرابع[1] بانتهاء سورة هود، ويبتدئ الجزء الخامس بابتداء سورة يوسف.

* * *

(١) حسب تقسيم المؤلف رحمه الله في الطبعة الأولىٰ لهذا الكتاب.



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسلام علىٰ محمد وآله أجمعين.

وبعد،

فهذا هو الجزء الخامس[1] من تفسير القرآن العظيم المسمّىٰ «أَوْلَىٰ ما قيل في آيات التنزيل». ويبتدئ بسورة يوسف، وهي مكية، وآيها مئة وإحدىٰ عشرة آية.

والغرض منها أولاً: إثبات تنزيل القرآن كسابقتها، ولكن أثبته هنا بحكاية هذه القصَّة التي لا يُمكن أُمِّياً مِثلَه أن يعلمَها بهذا الضبط والإتقان، كما قال تعالىٰ في آخرها: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [يوسف ١٠٢].

وثانياً: بيان أنَّ النفس المطمئنَّةَ المحافظة علىٰ جِبِلَّتِها الناصعة والمتربية تربية صالحة، تثبت تجاه عواصف هذه الحياة، ولا تُغْريها الـمُغْرِيات، والنفس التي قد ساءت تربيتها، تعصف بها هذه العواصف والمُغْرِيات، وتُفْضي بها إلىٰ التَّسفُّل والشقاء في الدنيا والأخرىٰ.

---

(١) حسب تقسيم المؤلف في الطبعة الأولىٰ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

﴿الر﴾ قد مرَّ تفسير هذه الحروف في أول سورة البقرة فارجع إليه، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لتنبيه الفكر وإثارته إلىٰ ما يأتي بعدها، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾﴾، أي: إنَّ آيات هذه السورة هي آيات الكتاب المبين لما شاء الله بيانه من الحقائق.

ثم امْتَنَّ علىٰ العرب بإنزاله بلغتهم، واختيارهم لتبليغه بعد فهمه ودرايته، فقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾[1] معانِيَهُ ـ أيها العرب ـ وما تُرشد

---

(١) يقول المتخصِّصون في طبائع اللغات وشؤونها: ليست لغة تسامي اللغة العربية في أداء الأفكار العالية، والإفصاح عن أدقِّ معاني العلم الإلهي والتأثير في القلوب، فبالجمل الصغيرة منها تؤدي الموضوعات المهمة، وتكون قوية التأثير في القلوب. وهذا ما تحتاجه معاني القرآن الكريم. (المؤلف).

إليه؛ من مطالب الروح، ومدارك العقل، وتزكية النفس، وتثقيف الوجدان والحسِّ، وإصلاح الاجتماع العام؛ تلك الأمور التي تعود لصلاح الحال وسعادة المآل. ومن المعلوم أنَّ كلَّ أمة ينزل بلغتها كتابُ الشريعة يجب عليهم أن يكونوا هم الدعاةَ إليه، والناشرين تعاليمه في الأمم. وفي اختيار العرب لمهمة نشر الدعوة لأكمل شريعة ختم بها الشرائع، إيذانٌ بأنهم من خيرة البشر[1]، وقد جاء عنه ﷺ: «إنَّ الله اختار بني آدم فاختار منهم العرب، ثم اختار العرب فاختار منهم قريشاً، ثم اختار قريشاً فاختار

---

(١) إنما اختار الله سبحانه العرب دون سواهم؛ لإنزال شريعة القرآن عليهم، وانتدابهم لنشرها في العالمين؛ لِـمَا كان بهم من المزايا المؤهلة لذلك.

كانت العرب ممتازة باستقلال الفكر وسَعَة الحرية الشخصية، أيام كانت الأمم ترسف في عبودية الرياستين الدينية والدنيوية للكَهَنة والحكام، محظور عليها أن تخالف في مسألة عقلية أو عقيدة مِلِّية أو تصرُّفات مدنية أو مالية.

كانت العرب ممتازة باستقلال الإرادة في جميع الأعمال أيام كانت الأمم مذلَّلة مسخَّرة للملوك والنبلاء المالكين للرقاب والأموال، يستخدمونها كما يستخدمون البهائم، ويصرفونها كما يصرفون السوائم.

كانت العرب ممتازة بعزّة النفس وشدة البأس وقوة الأبدان وجرأة الجنان، أيام كانت الأمم مؤلفة من رؤساء أفسدهم الإسراف في الترف، ومرؤوسين أضعفهم البؤس والشظف، وسادة أبطرهم بغي الاستبداد، ومَسُودِين أذلَّهم قهرُ الاستعباد.

وكان في العرب فضيلة المساواة بين الأفراد، أيام كانت الأمم تنقسم إلىٰ طبقات بحكم القهر والاستبداد.

كانت العرب قد بلغت الكمال في فصاحة اللسان وبلاغة المقال، ودقّة التعبير عن الأغراض والمعاني، وإتقان الصنع في صَوْغ مفردات وتراكيب المباني، مما جعل لها السبق علىٰ سائر الأمم واللغات، وفي ذكر ذلك أهليةٌ كقادةٍ لنزول هذا القرآن عليهم دون غيرهم، وتكليفهم بنشره في العالمين، وجعلهم أساتذة لهم إلىٰ يوم الدين. (المؤلف).

منهم بني هاشم، ثم اختار بني هاشم فاختارني منهم، فلم أزل خياراً من خيار»[١].

ثم استأنف الكلام عن هذه الآيات التي هو في صدد البيان عنها، فقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ أي: بإيحائنا إليك هذه السُّورة من القرآن، ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ۝٣﴾ أي: فقد وجَّه نظراتك إلىٰ الحقِّ المبين والعلم الصحيح، ونبَّهك إلىٰ ما كنتَ غافلاً عنه ولم يَخْطُر لك ببال.

ثم شرع في بيان ذلك القصص، فقال: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ﴾ في المنام ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾، ثم بيَّن الصفة التي رآها عليها، فقال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ۝٤﴾، فأعاد فعل الرؤية لتدلَّ علىٰ الوصف. فالأُولىٰ: تدلُّ علىٰ مُطْلق المشاهَدة، والثانية: تدلُّ علىٰ رؤيتها ساجدة. وقيل: إن إحداهما من الرؤيا، والأخرىٰ من الرؤية.

وإنما وصفها بالجمع المذكر السالم الذي لا يوصف به إلا العقلاء، ليشير إلىٰ أن سجودها كأنه كان عن اختيار. وقيل: إنما عبَّر بذلك؛ لأنَّ هذه الوصف ـ وهو السجود ـ خاصٌّ بالعقلاء، وكلُّ وصف خاصٍّ بالعقلاء يُجمع هذا الجمع، وإن اسْتُعمل لغير عاقل. وقيل: بل يستعمل الجمع المذكَّر في القصص دائماً؛ إذ يُنزَّل فيها غير العقلاء منزلة العقلاء.

---

(١) رواه الحاكم (٤: ٨٣)، والطبراني في «الكبير» (١٢: ٤٥٥)، و«الأوسط» (٦: ١٩٩) عن عبد الله ابن عمر، وفيه: «واختار من العرب مضر، واختار من مضر قريشاً».
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨: ٣٩٦): رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط»، وفيه حماد ابن واقد وهو ضعيف يعتبر به، وبقية رجاله وثِّقوا.

وقد فهم يعقوب عليهم السلام، واعتقد من هذه الرؤيا: أنَّ يوسف سيكون نبياً عظيماً ذا ظهور وسلطان، يسُودُ به أهلَه حتىٰ أباه وأمه وإخوته[١]، وخاف أن يسمع إخوتُـه ما سمعه، ويفهموا ما فهمه، فيحسدوه ويكيدوا لإهلاكه، فنهاه أن يقصَّ رُؤْياه عليهم، كما حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾، وهذا التصغير للعطف والتَّحبُّب، يشفق عليه ويقول له: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ بوسوسة الشيطان لهم وإغوائه؛ لأنَّ الشيطان لا يضيع فرصةً مِثلَ هذه، فلا بدَّ أن ينتهزها إذا لم تُؤْخذ الحيطة منه. ومثلُ هذا يعلمه يعقوب عليه السلام، فاحتاط له بهذه الوقاية، وقرَّرها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾.

ثم شرع بتفسير الرؤيا بعد أن أوصاه بكتمها، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الشأن الرفيع الذي تمثَّل لك في رُؤْياك ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ لنفسه، ويَصْطَفيك علىٰ آلك، ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: الرُّؤىٰ، لتكون معجزةً لك. كما يدلُّ عليه قولُه الآتي لصاحِبَي السجن[٢]، ويجوز أن يكون المراد ما هو أعمُّ من الرؤيا من كلِّ ما يوحيه إليه، فيكون المعنىٰ: ويُعلِّمك بالوحي ما لم تكن تعلم. ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بالنبوَّة والرسالة والملك والرياسة، ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ وهم أبواه وإخوته وذريته؛ لأنَّ شرف أحد أفراد العائلة العظيم شرفٌ لها. واستَتبَعَ ذلك بما جعله مَرْجعاً ومُسْتنداً له في تعبير الرؤيا بهذه الصورة، فقال: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ بشرف النبوة.

وهذا التأويل من يعقوب عليه السلام بمَعُونة ما كان يعلمه من وعد الله لإبراهيم

---

(١) أقول: ومن هنا تولَّد حبُّه الشديد ليوسف، ذلك الحب الذي أغاظ إخوته عليها، وإنما أوَّل أبوه له هذا التأويل لعِلمِهِ أنَّ النبوة في هذا البيت بدعاء إبراهيم عليهم السلام. (المؤلف).

(٢) في الآية ٣٧ وما بعدها.

عليه السلام باصْطِفاءِ آله، وجَعْل النبوَّة والكتاب في ذُرِّيَّته؛ إذ علم مِنْ رُؤْيا يوسُفَ عليه السلام أنه هو أحدُ الأنبياء الذين وعد اللهُ إبراهيمَ عليه السلام باصطفائهم من ذُرِّيته. فلهذا علَّل البشارة بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾ أي: عليمٌ بمَن يَصْطفيه، حكيمٌ باصْطِفائه، وبإعداد الأسباب وتسخيرها له.

لذلك ازداد حبُّ يعقوب ليوسف عليهما السلام وعطفُه وحرصُه عليه، حتىٰ هاج ذلك ما كان يحذره من حسد إخوته وكيدهم له. ولاعتقاده بتحقُّق مآل رؤيا يوسف، لم يُصدِّق ما زعموه من أكل الذئب له، ولم ينقطع أمله منه، بل لم ينقص إيمانه بما أعدَّه الله له ولهم به، ولكنْ عِلمُه بذلك كان إجمالياً لا تفصيلياً. وما كان حزنه عليه إلا لفراقه، ولما جرىٰ له في هذا الفراق وصورته من آلام. وقد جاءت قِصَّتُه من أولها إلىٰ آخرها مُفصِّلةً لهذا الإجمال، تفصيلاً هو من أبدع بلاغة القرآن.

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ۝١٣ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝١٤ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٥ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ۝١٦ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۝١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١٨﴾.

وبعد أن قَدَّمَ مقدَّمتين:

المقدمة الأولىٰ: في صفة القرآن وكونه تنزيلاً من الله، دالاً علىٰ رسالة مَن أُنْزِل عليه، وكونه عربياً تقومُ به الحُجَّة علىٰ العرب الذين يعقلونه، وكون النبي ﷺ كان من قبله غافلاً عما جاءه فيه، لا يدري منه شيئاً. ونتيجة هذه المقدمة تأتي بعد تمام القصة في قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ...﴾ [يوسف ١٠٢]، وفي ذلك حُجَّة قاطعة علىٰ أنَّ هذا القرآن تنزيلٌ من عند الله، وعلىٰ أنَّ مَنْ نزل عليه إنما هو رسول من الله.

والمقدمة الثانية: رؤيا يوسف وما فهمه منها أبوه فهماً إجمالياً، وحذَّره ما يُستهدَف له من كَيْد إخوته، وبشَّره بحُسْن عاقبته. ونتيجة هذه المقدمة: ما قاله لأبيه بعد دخولهم عليه وسجودهم له: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ...﴾ [يوسف ١٠٠].

وبعد هاتين المقدمتين شرع في القصة، فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ أي: المُتدبِّرين والباحثين، أي: لقد كان في قصَّة يوسُف وإخوته لأبيه أنواعٌ من الدلائل علىٰ أنواع من قدرة الله، وحكمته، وتوفيق أقداره، ولُطْفه بمن اصطفاهم من عباده، وتربيته لهم، وحُسْن عنايته بهم؛ كإفادتها: أنَّ النفس الإنسانيَّة إذا لم يفسدها صاحبها بمفاسد التربية تحافظ علىٰ نزاهتها وإطاعة ربها.

وإفادتها: أنَّ التربية الصَّالحة للنفوس تُزكِّيها تزكيةً جليلة، وتحولُ دون وصول التلويث والتدنيس إليها مهما قويت المُغْريات.

كما ألمعت إلىٰ أنَّ العاطفة تنقلب في لحظة من نقيض إلىٰ نقيض، إذا عَرَض لها ما يَصُدُّها عن ذلك، ولا سيما عواطف النساء، ولكن لا تلبث أن تعود، كما حَدَث لامرأة العزيز مع يوسُف حين انقلب حبُّها إلىٰ فَتْكٍ به عندما أعرض عن دعوتها له، وعرَّض

لها بخيانة زوجها، وهمَّت أن تقتله في تلك اللحظة، ثم عاد عليها الحب بعد ذلك الموقف الجافي، واشتدَّ بها إلىٰ حدِّ الشغف والجهار.

يَظهَرُ كلُّ ذلك للسائلين، أي: الباحثين الراغبين في معرفة الحقائق والاعتبار بها؛ لأنهم هم الذين يعقلون الآيات ويدركون مراميها.

ومن تلك الآيات: أنَّ إخوة يوسف لو لم يحسدوه لَـمَا ألقَوه في غَيَابة الجبّ، ولو لم يلقوه لَـمَا وصل إلىٰ عزيز مصر، ولو لم يعتقد العزيز بفراسته أمانة يوسف وصدقه لَـمَا أَمِنَه علىٰ بيته ورزقه وأهله، ولو لم تُراوده امرأة العزيز عن نفسه ويستعصم لَـمَا ظهرت نزاهته وعُرِفَ أمره بهذا الشكل العجيب، ولو لم تَخِبْ في كيدها وكَيْد صواحبها من النسوة لَـمَا أُلقي في السجن لإخفاء هذا الأمر، ولو لم يسجن لَـمَا عرفه ساقي الملك وعرف براعته وصدقه في تعبير الرؤيا، ولو لم يعلم الساقي منه هذا لَـمَا عرفه ملك مصر وعلم منه أمانةً فائقةً وعقلاً واسعاً، وقابليةً جديرة بالملك، فجعله علىٰ خزائن الأرض، ولو لم يتبوّأ هذا المنصب لَـمَا تمَّ له قولُه تعالىٰ حكايةً عن أبيه: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٦].

فما من حلقة من هذه السلسلة إلا وكان ظاهرُها مُحرِقاً، وباطنُها مُشْرِقاً.

فهذه أنواع من آيات الله في القصة للسائلين، أي: للباحثين عن وقائعها الحسِّيَّة الظاهرة، وما هو أعلىٰ منها من علومها وحِكَمِها الباطنة، كعلم يعقوب بتأويل رؤيا يوسُف، وعلمه بكذبهم في دعوىٰ أكل الذئب له، ومن شهادة الله له بالعلم بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ﴾ [يوسف: ٦٨]، ومن شمِّه لريح يوسُف منذ فَصَلت العير من أرض مصر قاصدةً أرض كنعان، ومِنْ علم يوسف بتأويل الأحاديث، ومن كَيْد الله له ليأخذ أخاه وما كان ليأخذه بشرع الملك، ومِنْ عِلمِهِ بأن إلقاء قميصه علىٰ أبيه يُعيدُه بصيراً بعد عَمَىٰ سنين كثيرة.

ففي القصَّة آيات بيِّنات، وعجائب باهرات. وفوق ذلك أنَّ كلَّ قضية خُتمت بخير، وكلَّ ضيق إلىٰ سَعَة، وكلَّ شدَّة إلىٰ رخاء.

ثم ابتدأ في سَرْد القصة وتفصيلها وحدوث ما توقَّعه يعقوب عليه السلام من وراء الرؤيا التي أمره بكتمانها حذراً من ذلك، فقال: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة كثيرة العمل، ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾ إذ يفضِّل غلامين ضعيفين من ولده لا يقومان له بخدمة نافعة علىٰ العُصْبةِ الكثيرة العَدَد والفائدة.

وكان من نتيجة هذا التنافس ما حكاه عنهم سبحانه من قولهم: ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ مجهولةً بعيدةً بحيث لا يهتدي إلىٰ العودة إلىٰ أبيه إنْ هو سَلِمَ من الهلاك، فإن فعلتُم به ذلك ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾ أي: يعودُ حالكم مع أبيكم إلىٰ صلاح. وهذا المعنىٰ مَرْويٌّ عن الحسن.

ويجوز أن يكون هؤلاء الإخوة في تلك الحال لم يكونوا بلغوا الحلم، ولا توجَّه إليهم التكليف، وإن بلغوا حدَّ النفع والعمل، وقد يقع ممن قارب البلوغ من الغلمان مثل هذه الأفكار والأفعال. وهذا قول البلخي والجبائي[1]، ويُؤيِّده قراءة: (نَرْتَعْ ونَلْعَبْ) في الآية الآتية[2].

---

(١) وهما من أئمة المعتزلة. وضعَّف الإمام الرازي في «تفسيره» (١٨: ٤٢٤) هذا القول بأنه «يبعد من مثل نبي الله يعقوب عليه السلام أن يبعث جماعة من الصبيان من غير أن يكون معهم إنسان عاقل يمنعهم من القبائح»، ثم اختار في آخر كلامه: أن «الجواب الصحيح: أنهم ما كانوا أنبياء، وإن كانوا أنبياء إلا أن هذه الواقعة إنما أقدموا عليها قبل النبوة».

(٢) وهي قراءة ابن كثير وأبي عَمرو وابن عامر. وانظر: «حجة القراءات» ص٣٥٥.

أقول: ولا تعارض في أنهم لم يبلغوا الحلم جميعُهم مع عددهم، إذ يجوز أنهم ليسوا من أم واحدة، بل من أمهات متعدِّدات، وكذلك لا تعارض له مع وعي يوسف الذي يدلُّ عليه صورة الرؤيا وقصِّها لأبيه؛ لأنَّ دَوْرَ التمييز من مثله يكون كاملاً عالياً.

وقد جاء في «مجمع البيان»: قيل لأبي جعفر[١]: أكان أولاد يعقوب أنبياء؟ فقال: لا، ولكنهم كانوا أسباطاً أولادَ أنبياء. ولم يفارقوا الدنيا إلا سعداء، تابوا وتذَّكروا ما صنعوا[٢].

وقال المرتضىٰ: لم يقم لنا حُجَّة بأن إخوة يوسف الذين فعلوا ما فعلوا، كانوا أنبياء، ولا يمتنع أن يكون الأسباط الذين كانوا أنبياء غير هؤلاء الإخوة، إذ ليس في ظاهر الكتاب أنَّ جميع إخوة يوسف فعلوا هذا.

فلما اقترحوا هذا الاقتراح في أمر إبعاد يوسف عن أبيه عليهما السلام أدركت أحدَهم رأفةُ الأخوة، فاقترح ـ إنْ هم أصرُّوا علىٰ إبعاده ـ أن يختاروا الشقَّ الثاني؛ لأنه أخفُّ الأمرين، كما حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ إبعادَه لا مَحَالة، يدبِّرون هذه المكيدة وهذا التدبير بحكم منطق الصبيان الأقوياء. ويظهر أن القائل كان أوعاهم وأكبرَهم سناً، والله أعلم.

وغيابةُ الجبّ: حفرة بجانبه تكون فوق سطح الماء يدخلها من يُدلَّىٰ منه، لإخراج شيءٍ وقع فيه، أو إصلاح خللٍ عَرَض له. وعُلِمَ من التعريف بـ«أل» أنه جُبٌّ معروف

---

(١) يعني: الإمام محمد الباقر رضي الله عنه.

(٢) لم أجده.

هناك، حيث يرعون مواشيهم، وهو علىٰ طريق القوافل. والسيَّارة: جماعة المسافرين، يسيرون في الأرض للتجارة، يريد: أنهم يأخذونه حيث شاؤوا من الأقطار البعيدة.

وبعد ائتمارهم هذا واتِّفاقهم أن يجعلوه في غَيَابة الجب، كادوا لأبيهم في إرسال يوسُف معهم وتنفيذ ما ائتمروا به عليه، فقال تعالىٰ في حكاية ذلك عنهم: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ١١﴾ أي: ليس فينا مَنْ يُخِلُّ بنُصْحه ومحبته والشفقة عليه. وصورةُ التعبير تُؤْذِنُ بأنهم شاعرون بارتياب أبيهم منهم في أمر يوسف، فمهَّدوا بذلك لقولهم: ﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا﴾ إذ نخرج إلىٰ مراعينا ﴿يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ﴾، وقرئ: (نَرْتَعْ ونَلْعَبْ)[1]. والاشتراك في اللعب لا يَبعُدُ أن يُفهَمَ من القراءة بالياء أيضاً، كما يُفهَمُ من القراءة بالنون، أي: يرتع ويلعب معنا. والرتوع: أكل ما يطيبُ لهم من البقول، مأخوذ من رتع الماشية.

ثم أكَّدوا له الوعد بالمحافظة مبالغةً في الكيد، فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢﴾ أي: من كلِّ سُوء وأذىٰ.

ثم ذكر ما كان من جواب أبيهم لهم بقوله: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ﴾ أي: يحزنني فراقُه، وأضاف إلىٰ ذلك قوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ١٣﴾ باشتغالكم، أو بلعبكم. قيل: لو لم يذكر خوفه هذا لَمَا خَطَر ببالهم هذا العذر الذي دبَّروه، ولكن الحرص علىٰ الشيء والخوف عليه يجعل العواطف تغلب النفس والعقل، لا سيما والذئابُ كثيرة في أرضهم.

فأجابوه عمَّا يخافه بما يَرجون أن يُطمئِنَه، و﴿قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ١٤﴾، وهذا جواب شبَّان أو مَنْ يقارب الشباب من صبيان

---

(١) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر، كما سلف قريباً ص٢٨٠.

مُغْتَرِّين بقوَّتهم وعددهم ونَجْدتهم؛ لأنَّ الصبيَّ من هذا النوع يشعر بنفسه رجلاً شجاعاً.

ثم حكىٰ تنفيذ عَزْمِهم فيما ائتمروا عليه، وكذبهم في اعتذارهم لأبيهم، وما قابلهم به من تكذيب وصبر واستعانة بالله عز وجل، معتمداً علىٰ علمه الإجمالي في مستقبل يوسف من رؤياه التي رآها، فقال: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ وحياً إلهامياً عند إلقائه: أنك ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ أنك أخوهم يوسف، لِمَا يرونه عليك من فضْل الله ونعمِهِ من مالٍ وجاهٍ وعزةٍ وسلطان، ولا يدرون أنه هو ذلك الضعيف الذي ألقَوْهُ في غيابة الجب. وسيتبيَّن هذا في آخر السورة عند ملاقاتهم به.

وجواب (لـمَّا) محذوف، علىٰ نهج القرآن؛ إيذاناً بظهوره، أو إشعاراً بأنَّ تفصيله مما لا يُحيط به التعبير. وعلىٰ الأول؛ يجوز أن يُقدَّر: هدأ رَوْعُه واطمأنَّت نفسُه.

أما الإيحاء فلا يَبعُدُ أن يتناول مُجمَلَ ما سيكون من أمره، ولذلك صَبَر علىٰ ما جرىٰ وكتم ـ والله أعلم ـ ولكن القرآن خصَّ بالذكر هذا التنبؤ لأهميته في الواقع. والإلهام: وجدان تستيقنه النفسُ وتنساق إلىٰ ما يطلب، من غير شعور منها من أين أتىٰ. وقد هوَّن سبحانه بهذا الإيحاء مصيبته، فعلم أنها مصيبةٌ في الظاهر نعمةٌ في الباطن. وكم من النِّعم في طيَّات النِّقم! ومن مبادئَ مُحْرِقة تؤدِّي إلىٰ نهاياتٍ مُشْرقة!

ثم ذكر ما كان من كيدهم، فقال: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾ لِيُقنِعُوهُ بما يَبْغون، وقد بيَّنه بقوله: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي: نلعب لعبة السباق، ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا﴾ إذ لا يستطيع علىٰ هذه اللعبة معنا، ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ إذ أوْغَلْنا في البُعد عنه.

ثم بالغوا في إقناعه بقولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ أي: بمُصَدِّق لنا في قولنا هذا، لاتِّهامك إيَّانا بكراهة يوسُف وحسدنا له علىٰ تفضيلك إيَّاه علينا في الحُبِّ والعطف. فأنت لا تُصدِّق بقولنا هذا ﴿وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾.

وقد عبَّر القرآن عن تمويههم وخديعتهم ومكرهم بهذه العبارة الفذَّة الدالة علىٰ كلِّ ذلك، فقال: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾، والعربُ تضع المصدر موضع الصفة للمبالغة في الوصف. وإنما قال: ﴿عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾ ليصوِّر للقارئ والسامع أنه موضوع وَضْعاً مُصنَّعاً. وقد رُوي عنه عليه السلام أنه قال لهم: «هذا الذئب لم يترك في قميص يوسف أثراً لِـمخْلَبٍ ولا ناب!»[1]؛ يُريهم بهذا القول موضع كذبهم، ثم ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أي: زيَّنت ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾[2] حتىٰ اقترفتموه، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ لا

---

(١) روى الطبري في «تفسيره» (١٥: ٥٨٠): قال يعقوب: إن كان هذا الذئب لرحيماً! كيف أكل لحمه ولم يخرق قميصه؟.

(٢) تُؤْذن الآية أنَّ يعقوب عليه السلام أدرك يقيناً من تصنيع الدم ومن علمه الإجمالي في مستقبل يوسف أن ما يدَّعونه غير صحيح، ولذلك لا بُعْدَ أن قد ضايقهم في استكشاف الواقع، والغالب أنهم أقرُّوا بالصحيح دون تأخير، وعليه فلا بد أنْ قد أرسل علىٰ عَجَل مَنْ يُخرِجُه من غيابة الجب، ولكنهم لم يروه هناك، إذ قد أعقبت السيَّارة الحادث وأخرجته بعد قليل وأخفته. ويجوز عندما جاؤوا يبكون كان يوسُف قد أخرج وهم لا يدرون. هذه الاحتمالات لا يعارضها السياق، وليس من شأن القرآن أن يفصِّل مثل ذلك، ولكنه ينتقل في القصص من أمر هام إلىٰ مثله ويترك الفراغ للذهن، يستنبطه السامع من أحوال الاجتماع وطبيعة الإنسان.
وهذا التحرير يلائم قوله تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟...﴾ [يوسف: ٨٧]؛ لأنه يفهم من ظاهره أن كذبة أكل الذئب لم تعلق في نفس يعقوب ولم يكترث بها في حينه، إلا أنَّ عمل السيارة بما كان فيه من صدفة جادَّة وسرعة إخفاء، كان له دور خطير في تطوير الحادث، ولذلك توعَّدهم سبحانه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ١٩]. هذا ما أراه، والله أعلم. (المؤلف).

أشكو فيه إلىٰ أحدٍ، ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ مِنْ أمرِ هذه المصيبة، ولا يزكّىٰ الذهبُ إلا بالنار، ولا المؤمن إلا بالـمِحَنِ الكبار.

وهذا هو الفصل الأول من قصّة يوسُف، وفيه من الآيات: إرشاد إلىٰ وجوب عناية الوالدين بأمر الأولاد، وتربيتهم علىٰ المحبَّة بينهم والعدل فيهم، واتِّقاء وقوع الحسد والتباغض فيما بينهم.

ومنه: اجتناب تفضيل بعضهم علىٰ بعض بما يعُدُّه المفضول إهانةً له ومُحاباةً لأخيه، وقد نهىٰ عن ذلك النبي ﷺ وعدَّه جَوْراً[1].

ومنه: سلوك سبيل الحكمة في تفضيل مَنْ فضّل الله بالمواهب الكسبية الفطرية، كمكارم الأخلاق والتقوىٰ والعلم والذكاء، وما نهىٰ يعقوبُ عليه السلام يوسفَ عن قَصِّ رُؤْياه علىٰ إخوته إلا من علمه بما يجب في ذلك، حفظاً لعواطفهم، ولكن الإنسان لا يملك قلبه. وقوةُ الحوادث وسرعتُها وظروفُها قد تغلب التدبير، ويكون لها أثر بالغ خطير.

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ

(١) يشير إلىٰ الحديث المتفق عليه؛ الذي رواه البخاري (٢٥٨٧)، ومسلم (١٦٢٣)، عن النعمان بن بشير قال: أعطاني أبي عطية، فقالت عمرة بنت رواحة: لا أرضىٰ حتىٰ تشهد رسول الله ﷺ، فأتىٰ رسول الله ﷺ، فقال: إني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطية، فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله، قال: «أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟» قال: لا، قال: «فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم» قال: فرجع، فرد عطيته.

غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

وأما الفصل الثاني من القصة؛ فيبيِّن مصيرَ يوسف بعد ذلك، واستعباده، وحادثته مع امرأة العزيز، وما يتبع ذلك. وقد بدأه سبحانه بقوله: ﴿وَجَآءَتۡ﴾ ذلك المكانَ ﴿سَيَّارَةٞ﴾ علىٰ وزن جوَّالة وكشَّافة، وهي: قافلة التجارة، ﴿فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ﴾ أي: الذي يأتي لهم بالماء، ﴿فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ﴾ في ذلك الجبّ، فأبصره في الغَيَابة، فاستَبْشَر، فنزل عليه وأخذه، أو أدلىٰ دَلْوَه فتعلَّق به يوسف. والأول أظهر، وعندما رآه الوارد ﴿قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ﴾، يُبشِّر نفسَه أو جماعةَ السيَّارة أو مَنْ كان علىٰ البئر منهم.

وكلمة: ﴿يَٰبُشۡرَىٰ﴾ تَـتَبادر ممَّن يفاجئه السرور بلُقَطة ثمينة.

﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ﴾ أي: أخفَوْهُ عن الناس لئلا يَدَّعيَه أحد من أهل المكان، وليكون بضاعةً لهم من جملة تجارتهم، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾، وهذه العبارة تدلُّ علىٰ الإنكار الشديد والوعيد الرهيب والعمل الفظيع في حادثة يوسف عليه السلام. أي: بما يعمل أهل هذه السيارة وما يعمله إخوة يوسف، وحكمة الله تعالىٰ فيه فوق ذلك، فكم لله من ألطاف خفيَّة تَدِقُّ عن الأفهام، وتَقصُرُ عن حماها الأوهام!

وكلمة: «أسَرُّوهُ» تُؤْذِن بأنَّ هناك طلباً له وتفتيشاً من جانب أبيه، ولكنَّ السيَّارة أخْفَته عليهم وأنكرته، ولا يَبعُدُ أن يتناول هذا الإسرار يوسف نفسه، فقد أخفَوْا عليه ما سيصنعون به من البيع بضاعة، وربما ذكر يوسفُ أمْرَهُ لهم وقالوا: نعيدك إلىٰ أبيك. وأبعدوه عن أعين الطالبين، والله أعلم.

وقيل أيضاً في معنىٰ ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ﴾: إنَّ الوارد ومَنْ كان علىٰ البئر منهم اتَّفقوا

علىٰ أن يُخفُوا أمْرَه عن السيارة، ويخبروهم بأنَّ أهل الماء جعلوه بضاعةً عندهم، علىٰ أن يبيعوه لهم بمصر.

ثم ذكر ما كان من بيعه واستعباده، فقال: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ يقال: شَرَىٰ الشيء؛ أي: باعه، ويقال: اشتَراه، أي: ابتاعه. والمعنىٰ: باعوه بثمن زهيد، ومِثْلُه لا يُثَمَّن، ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ يَبْغُون الخلاصَ منه لئلا يظهر مَنْ يطالبهم به.

ثم ذكر عنايةَ من اشتراه به، حيث تفرَّس فيه النَّجابة ومخايل النبوغ، وقد حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ﴾ وهو العزيز، بعد أن اختبر سلوك يوسُفَ واطَّلع علىٰ ما فيه من نَجابة وعُلوّ فطنة وسُمُوِّ أخلاق، قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ بأن يكون كواحدٍ منا لا كالعبيد والخدم. وعلَّل ذلك بقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ بعد شبابه بالقيام ببعض شؤوننا الخاصَّة، أو شؤون الدولة العامة، لِـمَا يلوح عليه من مخايل الذكاء والنباهة، ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ فيكونَ قرَّة عينٍ لنا ووارثاً لمجْدنا ومالنا، إذا تمَّ رُشْدُه وصَدَقت فراستي في نجابته.

وفُهِمَ من هذا الأمل والرجاء: أنَّ العزيز لم يكن له ولد، وما كان يرجو أن يكون له ولد. وقد روي أنه كان رجاؤه هذا كرجاء امرأة فرعون في موسىٰ، وكانت صالحة مُلهَمة. وأما العزيز فكان ذكياً صادق الفراسة، فاستدلَّ من كمال خلق يوسُف ونجابة ملامحه وعُلوِّ أخلاقه ونبوغ ذكائه وحُسْن خلاله، علىٰ أن حُسْنَ عشرته وكَرَمَ وفادته وشَرَفَ تربيته خيرٌ متمِّم لحُسْنِ استعداده الفطري.

ثم نبَّه سبحانه وتعالىٰ إلىٰ ما في إلهام الله لهذا العزيز بعناية يوسف من الحِكَم البالغة والتدابير الخفية، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: وعلىٰ هذا

النَّحو من التدبير والتسخير جَعَلنا ليوسف مكانةً عاليةً في أرض مصر، كان هذا العطف عليه والرجاء فيه من هذا العزيز مبدأها، وإن تقمَّصت الأسباب بثياب مُكْفَهِرّةِ اللون مُتَجَهِّمةِ الظاهر، فإنَّ فيها من التجارب والتدريب النفسي ما جعله مُستعدّاً لعظائم الأمور والقيام بالدعوة إلىٰ الله.

وقولُه: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ معطوفٌ علىٰ مقدَّر، علىٰ نهج القرآن، والمراد منه: تعبير الرؤيا ومعرفة حقائق الأمور بالعقل والإلهام، مما ينتهي به إلىٰ الغاية من هذا التمكين. ويجوز أن يكون المراد ما هو أعمُّ من ذلك، فيتناول كلَّ ما سَيُوحيه إليه سبحانه، فيكون المعنىٰ: ولنُعلِّمَه بالوحي ما لم يكن يعلم، ونُنجيه من كلِّ مأزق.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ فلا يُغْلبُ علىٰ شيءٍ منه، بل يقع كما يريد، فكلُّ ما وقع ليوسُفَ من إخوته ومن مُسْتَرِقِّيه وبائعيه، ومن توصية الذي اشتراه لامرأته بإكرام مَثْواه، وما وقع له مع هذه المرأة، وفي السجن، كلُّ ذلك قد كان من أسباب ما أراد الله تعالىٰ من تمكينه في الأرض، وإن كان ظاهره علىٰ خلاف ذلك، فكثيرٌ مما ظاهره مُخْرِق باطنُه مُشْرق، والعكس جارٍ بحسب الحِكَمِ والمصالح، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾، بل يأخذون بظواهر الأمور.

ثم بيَّن صِدْقَ فراسة هذا الوزير ضمن بيان امتنان الله تعالىٰ علىٰ يوسُفَ عليه السلام، وذلك علىٰ نهج القرآن في إيجاز الإدماج، فقال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ جمع شِدَّة، مثل: أنعُم جمع نِعمة، وذلك باستكمال نموِّه البدنيّ والعقليّ، ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ قيل: المراد من الحكم: الحكمة، وقيل: المراد النبوَّة. ويجوز أن يُراد: ما سيؤول إليه أمْرُه من السلطان في الدولة، والله أعلم. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ الذين لم يُدنِّسوا فِطرتَهم، ولم يُدَسُّوا أنفسَهم بالإساءة في أعمالهم وإفساد عقائدهم.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾.

ثم شرع في بيان حادثة يوسف مع امرأة العزيز؛ بياناً لنزاهته وكمال أخلاقه، فقال: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾[1]، وفي قوله: ﴿هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾ إشارتان: الأولىٰ: سبب شدَّة مَيْلها له، والثانية: تَسَلُّطُها

---

(١) يظنُّ بعض علماء النفس: أنَّ ما يسمونه الأفعال المنعكسة يعمل في النفس عملَه دون سيطرة عليه أو قدرة علىٰ كفِّه، وذلك كرغبة الإنسان ومَيْله الشديد إلىٰ الشيء، أو الأمر الذي يحبه حباً جماً إذا رآه أو تهيأ له وقدر عليه، فلا يتمكن من كفِّ نفسه عنه وحفظها منه، ولاسيما إذا كان المَيْل إليه طبيعياً فطرياً. والصواب: أنَّ في قدرة الإنسان السيطرة علىٰ هذا الموقف بسهولة، إذ لم يكن قد أفسد إرادته بجريانه مع هواه من أول نشأته، وبعدم تربيته علىٰ تحمُّل ما لا يحب في العاجل لينال به الخيرَ في الآجل، فإن هو أفسدها استبدَّت به واستولت عليه، وإن هو نمَّاها علىٰ طبيعتها الصحيحة وثبَّتها علىٰ ترك الحب العاجل للخير الآجل، أوقفَها عند حدِّها وعوَّدها علىٰ ذلك، فاستَسْلَمَت وانقادت. وهذا هو المراد من إرجاع جميع الأسباب إلىٰ اتِّباع الهوىٰ، لأنَّ من يتعوَّد علىٰ اتِّباع هواه حتىٰ يسيطر عليه ويستبدَّ به لا يتمثَّل له النفع الآجل، كما يستحوذ عليه الميل العاجل؛ لضعف نفسه وخَوَرِ إرادته عن مقاومة هواه. (المؤلف).

عليه بحكم السيادة. وجملة: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ أفصَحُ عبارة تدلُّ علىٰ الغرض والطلب في هذا الموضوع، أي: أقبِلْ إلىٰ ما هو مُهيَّأ لك.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ وهي جملة ملْؤُها التحاشي والتمنُّع، وقوفاً عند حدود الله. وما كانت تدري أنَّ نفسه ليست كنفوس الناس العاديين، وليست أخلاقه كالأخلاق الدارجة بين الناس، فبُهتت وانكسر هواها.

ثم تعلَّل بتعليلين: الأول: مثيرٌ لشعورها في حفظ كرامة زوجها، وتعريضٌ بها وتَقْريعٌ لها، وهو قوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾، يريد السيد: العزيز، ويُورِّي بالله سبحانه وتعالىٰ، ويجمع بين المعنىٰ الحقيقي والمعنىٰ المجازي. علىٰ أنَّ مضمون المعنىٰ الأول أيضاً لا يصدر إلا عن مُتَّقٍ لله حقَّ تقاته، فهو مُسْتَلزم للمعنىٰ الثاني، يدلُّ عليه بالدلالة الالتزاميَّة. وهذه التورية لا تفهمها المرأة، وإنما هي مُضْمَرة في نفس يوسُف عليه السلام، ولكنها فهمت منه التقريع والتأنيب لها بأنها داست كرامةَ زوجها وحقوقَه وحقوق الإحسان إليها، وحقوق الثقة بين الزوجين، وأنه قد راعىٰ حقوق الإحسان إلىٰ ما لا مزيد وراءه.

والتعليل الثاني: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ وهو تعليلٌ حقيقيٌّ إيمانيٌّ يبيِّن حقيقة نفسه، وما هي منطبعة عليه، وحقيقة الأمر في ذاته، وأنَّ الله سبحانه مَخْشيُّ الجانب، وإنَّما أنَّبها بهذا الأسلوب من التأنيب ولم يؤنِّبها صراحةً بالخوف من الله؛ لأنها ليست من ذوات التقوىٰ، ولكنها من ذوات الحشمة والآداب، إلا أنَّ شَغَفَها أوقعها.

فكان في هذا التأنيب زيادة إيلام وتقريع، وازدواج في الخواطر، وانعكاس في العواطف. فأثار هذا التَّمنُّعُ وهذا التقريعُ الضمني والاحتقارُ حفيظتَها ونَخْوَتَها، وانقلبت المراوَدة بصورة مفاجئة إلىٰ عَدَاوة وخصام، بنتيجةِ وَهْلة التحقير الفاضح.

وهذا أمر طبيعي بمقتضىٰ الأحوال النفسية، ففي اللحظة التي أعقبت هذا التعنيف غير المنتظر، انقلب فيها حبُّها له إلىٰ بُغْض شديد، إلىٰ البطش به بصُورة لا شعورية[١]، حكاه سبحانه وتعالىٰ مُقْتَضباً، علىٰ نهج القرآن، فقال: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ﴾ أن تَبطِشَ ﴿بِهِۦ﴾، فاضْطَرَّ يوسف عليه السلام أن يدفع عن نفسه صيالها، ﴿وَهَمَّ﴾ أن يبطش ﴿بِهَا﴾ مُدافِعاً عن نفسه، ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ السابق[٢]، أي: لولا أنه رأىٰ من واجب زوجها عليه أن يحاول كَتْمَ الأمر بكل إمكانه، وهو إحسان سيده وسيدها له، ووجوب مقابلة الإحسان بالإحسان. فهذه الفكرة نفسها هي التي حالت بينه وبين دفع صيالها وهجومها بمثله؛ لأنه يؤدي إلىٰ ظهور الخبر وفضيحتها وفضيحة سيده الذي أكرم مثواه، إلىٰ الإساءة العظمىٰ به. فانضمَّت هذه الفكرةُ إلىٰ مراقبة الله سبحانه

---

(١) إنَّ الغضب ينبعث عنه كُرْهٌ عارض يزول بزواله، لكنه ينشأ عنه أعمال لا شعورية، يجري ذلك حتىٰ مع المحبوب. (المؤلف).

(٢) يقول علماء النفس: إن العاطفة تنقلب في لحظة من نقيض، إذا عرض لها فجأة ما يصدمها، ولا سيما عاطفة النساء. وهكذا كان أمر هذه المرأة، فعندما نزلت بحكم الحب الشديد من شرفها الرفيع إلىٰ هذه المنزلة الوضيعة، كانت تعتقد أن يوسُف لا يتردَّد في مطاوعتها إذا عرضت له نفسها علىٰ هذه الصورة، بل برضا وشغف. فلما فاجأها بهذا الموقف المُزْري بها، ونقدها بهذا النقد المؤلم والتشنيع الهاجن، انعكست لديها العواطف والخواطر، واستحقرت نفسها، وحنقت عليه، وهاجت، فانقلب الحب إلىٰ كُرهٍ وعداء، وفقدت شعورها وموازنتها وهمَّت أن تبطشَ به بدافعٍ لا شعوري غاضب، عندما أدركت احتقاره لها من جرَّاء هذا، وهاجته غير حاسبة للموازنة والنتيجة أي حساب، فهمَّ بمدافعتها بالقوة، ولكن سرعان ما سَرَىٰ في نفسه أنه إن دافعها بالمقاومة وبطش بها، أساء أيضاً إلىٰ سيده بما سيَشِيعُ من ذلك الأمر، فلم يَرَ مَخْلصاً إلا بالفرار من أمامها ففعل، وبهذا صَرَف الله عنه السوء كما صرف عنه الفحشاء. والله أعلم. ويجوز أنْ يُراد بالبرهان هنا: حكم الله سبحانه، لأنه يتناول تحريم الزنىٰ والخيانة. (المؤلف).

وتعالىٰ وخشيته العظمىٰ، فلم يَرَ حلاً لذلك الموقف الحرج إلا بالفرار من أمامها، ففرَّ هارباً واتَّبعَتْهُ لتبطش به بحركة لا شعورية، واستبَقا الباب مُعْرضاً عن البطش بها كما أعرض عمَّا راودته عليه، فسلم من البطش بها كما سَلم من مُطاوَعَتها في المراودة.

وقد بيَّن ذلك سبحانه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾، فلم يبطش بها، ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ فلم يُطاوِعْها، وقاوم الطبيعة في كلتا الحالتين، مُتنزِّهاً عن الأمرَيْن، بكلِّ حَصَانة وثبات، ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ بفتح اللام وهم آباؤه الذين قال تعالىٰ عنهم: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ * إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٥ – ٤٧]، وإنما قال: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ ولم يقل: «لنصرفه عن السوء والفحشاء»؛ لأنه لم يَتوجَّه إليهما، وهمُّه بدفع صيالها همٌّ بأمر مشروع، وُجِدَ مُقْتَضيه مُقْتَرناً بالمانع، وهو رؤيته برهان ربه فلم ينفِّذه، وفرَّ منها حيث رأىٰ الفرار هو الخير الذي تتمُّ فيه الحكمة، وتتحقّق به النجاة. وإنما عبَّر عن البطش بها بالسوء؛ لأن قتله للنفسِ الذي ربما يؤدي إليه الموقف مما يسوؤه، وإن كان دفعاً لصيالها، لا سيما وفيه إساءة عُظمىٰ إلىٰ سيِّده الذي أحسن مثواه. وفي هذا الموقف عبرة لأولي الألباب.

ثم قال في «المنار» ما مُلخَّصه: وقد وقع لبعض المفسِّرين في هذه الآية خَبْط وخَلْط يُنزَّه عنه كرام الناس، فَضْلاً عن الأنبياء المعصومين. والحق ما بيَّناه، لأنَّ الهمَّ يُراد به مقاربة الفعل الذي يتنازعه عاملان نفسيان: عامل يدفع إليه، وعامل يمنع عنه، ثم يترجَّح فيه جانب المانع. وهذا إن صحَّ فرضاً علىٰ جانب يوسف عليه السلام في أمر المراودة، فلا يصحُّ علىٰ جانب المرأة، لأنها كانت عازمة غير مُتردِّدة[1]. علىٰ أنَّ فعل

---

(١) انظر تفسير «المنار» (١٢: ٢٣٥-٢٣٦).

الهمّ لا يُطلَقُ ولا يَصدُقُ إلا علىٰ ما هو غير طبيعي من شدائد الأعمال، فلا يقال: همَّ أن يأكل أو يشرب أو يلتذ.

أقول: ومع ذلك فإنَّ صيغة الهمِّ إذا عُدِّيت بالباء الداخلة علىٰ الأشخاص فقيل: همَّ بفلان، وهمَّ به، فلا تدل في الغالب إلا علىٰ البطش به؛ إذ لم تأتِ هذه الصيغة في الكلام العربي في الأكثر إلا كذلك.

وقد جاء في أوائل الجزء الرابع من «الملل والنحل»[١] لابن حزم[٢] عند الكلام في يوسف عليه السلام: إنَّ معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾: أنه همَّ بضربها والإيقاع بها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ [غافر: ٥]، ولكنه امتنع من ذلك لبرهان أراه الله إيَّاه، فرأىٰ أنَّ الفرار أجْدىٰ من ضربها والفتك بها[٣]. وقد ذكر ابن حزم هذا المعنىٰ واعتمده بعد أن فنَّد سائر الآراء الواردة في هذه الآية وشنَّع عليها[٤].

---

(١) وهو: «الفصل في الملل والأهواء والنحل».

(٢) هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد القرطبيُّ (٣٨٤-٤٥٦هـ) الإمام الأوحد البحر ذو الفنون الظاهريّ صاحب التصانيف. له: «المحلى»، و«جمهرة الأنساب»، و«الناسخ والمنسوخ». «سير أعلام النبلاء» (١٨: ١٨٤-٢١٢)، و«الأعلام» للزركلي (٤: ٢٥٤-٢٥٥).

(٣) «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (٤: ١٠).

(٤) قال أبو السعود ما مُلخَّصه: إن همَّه بها عبارةٌ عما له من الميل بمقتضىٰ الطبيعة البشرية مما لا يكاد يدخل تحت التكليف، لا أنه قصدها قصداً اختيارياً. ألا يرىٰ أن ما سبق من استعصامه إنما هو تسجيل باستحالة صدور الهم منه بالمعنىٰ الحقيقي، وإنما عبَّر عن الميل الطبيعي بالهم، لمجرد وقوعه في صحبة همها بطريقة المشاكلة، وأشار إلىٰ تباين هميهما بإفراد كل منهما بتعبير، فلم يقل: «ولقد هما بالمخالطة» أو «همَّ كلٌّ منهما بالآخر». وأضاف إلىٰ ذلك تصدير الأول بما يقرره من المؤكدات وتعقيب الثاني بما يعفو أثره من قوله تعالىٰ: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أي: حُجَّته =

ثم فصَّل ما كان من همِّها أن تبطش به، وتَرْكِ همِّه أن يبطش بها، فقال: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ أي: فرَّ يوسُف من أمامها هارباً إلىٰ باب الدار، يريد الخروج منه للنجاة منها، ترجيحاً للفرار علىٰ الهمِّ بالدفاع الذي رأىٰ فيه نقيصةً علىٰ سيِّده، وكفراناً لنعمته عليه أن يبطش بها. وتَبِعَتْهُ تبغي الفَتْكَ به أو إرجاعَه حتىٰ لا يفلت من يدها، وهي بزَعْمِها لا تدري أين يذهب إذا هو خرج ولا ما يقول وما يفعل؟ لأنها لا تعلم عنه إلا أنه فرد من أفراد الناس، وتَكَلَّفَ كلٌّ منهما أن يسبق الآخر، فأدركته ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ إذ جَذَبته به من ورائه جَذْبةَ غضبٍ لتفتكَ به.

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾، وكانت النساء في مصر تلقِّب الزوج بالسيد، فلما رآها في هذه الحالة المنكرة ﴿قَالَتْ﴾ ملقيةً التَّبِعَة علىٰ يوسُف: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾، وكان هذا القول مكراً وخداعاً لزوجها، وهو منتظرٌ منها في موقفها هذا دفاعاً عن نفسها.

= الباهرة الدالة علىٰ قبح هذا الفعل وقُربِه. والمراد برؤيته لها: كمال إيقانه بها إلىٰ مرتبة عين اليقين. والمعنىٰ: لولا ذلك العلم والإدراك لجَرَىٰ علىٰ مُوجب ميله الطبيعي الجِبِلّيّ. وفائدة هذا الشرط: أن امتناعه عليه السلام لم يكن لعدم مساعدة من جهة الطبيعة، بل لمحض العفة والنزاهة بمقتضىٰ خشية الله. وقد نصَّ أئمة البلاغة علىٰ أن ما بعد ﴿لَوْلَآ﴾ في أمثال هذه المواقع، يجري من حيث المعنىٰ مجرىٰ التقييد للحكم، كقوله تعالىٰ: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]، فلا يتحقق هناك همّ أصلاً. وكل ما قيل في هذا الهم من الأقاويل، إنما هو خرافات وأباطيل تمجُّها الآذان، وتردها العقول والأذهان، ويل لمن لاكها ولَفَّقها، أو سمعها وصدَّقها، كيف وقد قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ أي: بما فيه من موجبات العفة والعصمة، ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾. (المؤلف).
وكلام أبي السعود في «تفسيره» (٤: ٢٦٦-٢٦٧).

﴿قَالَ﴾ يوسُف عليه السلام مُبرِّئاً نفسه من هذه التُّهمة التي ألصقتها به: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ فامتنعتُ وفَرَرْتُ هارباً كما ترىٰ. فأصبحت القضية موضوعَ بحثٍ وتحقيق وتشاور بين زوجها وأهلها. أشار إلىٰ ذلك القرآن علىٰ نهجه في إيجاز الإشارة، فقال: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾[1] أي: حَكَمٌ عن علم كالمشاهَدة، فقال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ أي: شُقَّ أو قُطع من قدّام ﴿فَصَدَقَتْ﴾ في دَعْواها أنه أراد بها سُوءاً؛ إذ يكون: لما وثب عليها أخذت بتلابيبه فجاذبها فانقدَّ قميصه وهما يتنازعان ويتصارعان، ﴿وَهُوَ﴾ إذ ذاك ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾ في دعواه أنها راودته فامتنع وفرَّ أمامها.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ أي: من خلف ﴿فَكَذَبَتْ﴾ في دعواها أنه هجم عليها ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ في قوله: إنَّه فرَّ هارباً.

---

(١) يجوز أن تكون هذه الجملة عبارة عرفية يعبَّر بها عن جلاء الأمر ووضوح القضية، ولم يكن في الواقع حاكم ولا شاهد. فيراد بها أن براءةَ يوسف عليه السلام واضحة جليَّة بهذه العلامة البيِّنة الواضحة، والله أعلم. وقد لاحت للسيد هذه الملاحظة حالاً وبوضوح، فعلم أنها هي المجرمة، وقد حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾. وعلىٰ هذا الرأي يكون قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ مجرَّدَ تمهيد لقوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ...﴾، وإلفاتَ نظر لصدقه وكذبها.

ويجوز أن يكون المعنىٰ علىٰ ظاهر اللفظ، وأن الشاهد هو أحد أفراد أهلها الذين اشتركوا مع زوجها في إجراء التحقيق والتقرير، فجاء النص بأنه من أهلها للمبالغة في نفي التهمة علىٰ يوسف عليه السلام، لأنه ـ بحكم كونه من أهلها ـ حريصٌ علىٰ دفع التهمة عنها، منعاً للعار بكل إمكانه، إلا أنه ـ لـمّا لم يمكنه ذلك لظهور الأمر ووضوح البرهان ـ اضْطُرَّ إلىٰ الإقرار بتهمتها وتبرئة يوسف، فكان ذلك مبالغة في تبرئته عليه السلام، وعبَّر عن ذلك بالشهادة لزيادة المبالغة في هذا المعنىٰ، والله أعلم. (المؤلف).

قلت: هذا الذي نحا إليه المؤلف رحمه الله تعالى هنا في تفسير «الشاهد» مما لا يُوافَقُ عليه، فما هو إلا تعسُّفٌ في التأويل، وتكلُّفٌ في الفهم.

أقول: وهذا النمط من التحقيق في إثبات الجرائم هو المسمَّىٰ اليوم بالتحقيق العَدْلي، سبق إليه القرآن قبل ألف وثلاثمئة سنة ونيِّف. والله أعلم.

﴿فَلَمَّا﴾ توصَّلوا إلىٰ هذا التحقيق الدقيق، وانتبه السيد للأمر؛ إذ ﴿رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ التفت إلىٰ زوجته مؤنِّباً ومعنِّفاً، ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ المعهود منكنَّ مَعْشَرَ النساء في التَّنصُّل من الخطيئات واتِّهام الغير بها، ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ لا قِبَلَ للرجال به، ولا يفطنون لِحِيَلِكُنَّ في دقائقه. قالوا: ولِرَبَّاتِ القصور القِدْح المُعَلَّىٰ، لأنهنَّ أكثر تفرُّغاً من غيرهنَّ مع كثرة الكيادات إليهن.

ثم التفت إليها وإلىٰ يوسف قائلاً: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ الكيد الذي جَرَىٰ لك ولا تتحدَّث به، ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾ أيتها المرأة، ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: من جنس المجرمين مُرتكبي الخطايا، المُتعمِّدين لها. ولهذا غلَّب فيه جمعَ المذكر السالم، فلم يقل: من الخاطئات. وقيل: إنما لم يبطش بها الزوج لأنها من العائلة المالكة، وهو ليس منها، فلم يقدر علىٰ ذلك. ويجوز أن يكون ذلك من الاشتباه في الأمر، ولا سيما لم يكن فِعلٌ ولا اتِّصال، وإنما التهمة في المحاولة.

﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾.

قال في «المنار» ما مُلخَّصه: ثم ذكر حادثة فرعيَّة من حوادث هذه القصة؛ وهي

أنَّ نسوة من كبار بيوتات مصر مَكَرْنَ بامرأة العزيز لتَجْمَعَهُنَّ بهذا الشاب الذي فتنها جمالُه، وأذلَّها عفافُه وكمالُه، حتىٰ راودته عن نفسه وهو فتاها، ودَعَته إلىٰ نفسها، فردَّها خشيةً وطاعةً لله تعالىٰ، وحفظاً لأمانة المحسن إليه أن يخونه، مَكَرْنَ بها لتجمعهنَّ به، فيَرَوْن جماله، ويرىٰ جمالهنّ، ولعله يَصْبوا إليهنَّ ويجذبه من جمالهنَّ الطارئ المفاجئ له ما لم يَجْذبه من جمالها الذي أَلِفَهُ قبل أن يبلغ أشدَّه، وكان نَظَرُه إليها نَظَرَ الرقيق إلىٰ سيدته أو الولد إلىٰ والدته.

وقد جاءت في السورة بأبدع صورة من الإيجاز والبلاغة، وأعلىٰ تعبير في الأدب والنزاهة، وهو قوله: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ بصيغة جمع القلة، وهو ما بين الثلاثة إلىٰ العشرة: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: قد اخترَقَ حبُّه شَغَاف قلبها، أي: غلافَه المحيط به، وغاص في سويدائه، فملك عليها أمْرَها، ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾[1].

وإنما قُلْنَ هذا القول مكراً وحيلةً ليصلَ إليها، فيحملها ذلك علىٰ أن تجمعهنَّ به بُغْيَةَ رؤيته واستمالتهنّ له، لذلك عبّر عنه سبحانه بالمكر، فقال: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾[2]، وكان من المتوقَّع أن تسمعه لِمَا اعتيد بين هذه البيوتات من التواصل بالزيارات واختلاف الخدم من كلّ منها إلىٰ الآخر، وهُنَّ ما قُلنَه إلا لتسمعه، فإن لم يصل إليها عَفْواً، احتَلْنَ في إيصاله قَصْداً.

---

(١) تفسير «المنار» (١٢: ٢٣٩-٢٤٠).

(٢) يجوز أن يكون إنَّما سمَّته مكراً توسُّعاً، وتريد به: أنهُنَّ لو كُنَّ في موقفها ما فعلن غير فعلها، وما تحمَّلن ضغط النفس تجاه حُسنه المغْري هذه المدة الطويلة، ولذلك فَعَلْنَ ما أظهر أمره، فألزمتهنَّ وصرَّحت بالأمر لإظهار عذرها، ولم تستحي منهنَّ بعد ما جرىٰ عليهنّ عند أول رؤيته. (المؤلف).

فلمَّا بلغها ذلك عنهن، حملها أن تجمعهنَّ به ليَرَيْنَ بأعينهنَّ من جماله وكماله ما يجعلهنَّ أن يَعْذُرْنها، لذلك ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ﴾ أي: هيَّأت ﴿لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ أي: ما يتَّكِئْنَ عليه من الكراسيّ والأرائك، كما هو المعتاد في دُورِ الكُبَراء. ويجوز أن يكون كنايةً عن الوليمة، أي: دَعَتْهُنَّ إلىٰ وليمة طعام، حسب المعتاد، ومَكَرت بهنَّ كما مَكَرنَ بها، إذ هي تكريم لهنَّ في الظاهر، وإظهار لعُذْرها في الواقع، ﴿وَ﴾ كان من تمام الوليمةِ والمكرِ أنْ ﴿ءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ ليقْطَعْنَ ما فرَّقت عليهنَّ من أنواع الفاكهة. ويجوز أن يكون هذا أمراً معتاداً، ولكونه نقطة الارتكاز نصَّ عليه.

وقد تعمَّدت أن يفاجئهنَّ وهُنَّ مشغولات بما يَقْطَعْنَه أو يقشرنه، ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾، يجوز أن يكون قالت له ذلك، أو هو حكاية لما دبَّرته من أن يكون خروجه عليهنَّ وهُنَّ علىٰ تلك الحال، فكان لذلك من الدهشة عليهنَّ ما حكاه التنزيل بقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ أي: أعْظَمْنَ أمْرَه واندَهَشْنَ لحُسْنه الرائع وجماله البارع، وغِبْنَ عن شُعورهنّ، ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي: جَرَحْنَها جروحاً بالغة. قال الزمخشري: يقال: كنت أقطع اللحم فقطعت يدي، أي: جرحتها[1] جرحاً بليغاً، ﴿وَ﴾ حينئذ ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ أي: لم يُعْهَد له في الناس مثيل. وقد أكَّدن ذلك بقولهنّ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ تمثَّل بهذه الصُّورة البديعة؛ يُبالِغْنَ في إثبات أنه لا مَثيلَ له بين البشر.

وإنهُنَّ لنساء، وإنها لامرأة تعرف كيف تُفْحِمُ النساء، فأفحَمَتْهُنّ وصرَّحت بأمرها بعدما سلَّمن لها، ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ أي: هذا الذي خَلَبَ ألبابَكُنَّ في أوَّل وَهْلة هو الذي تَلُمْنَني علىٰ حُبِّه. فما قولكنَّ في أمري معه، وقد ترعرع في داري، وبلغ أشُدَّه بين سمعي وبصري، أخلو به في ليلي ونهاري؟

---

(١) «الكشاف» (٢: ٤٦٥).

﴿وَلَقَدْ﴾ غازَلْتُه بأنواع من الكلام الرقيق، والتحديق الأنيق، فلم يرفع إليَّ طرفاً، ولم يمِلْ نحوي عطفاً، وترأَّيتُ له في زينتي وما خَفِيَ من محاسني، ثم صارَحْتُه بالأمر و﴿رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ وأعرَضَ عني احتقاراً، وابتعد عني نفاراً.

أقول: وهذا هو موضع العبرة، فإنَّ نظره إلىٰ الله لم يَدَعْ في قلبه البشريِّ مكاناً خالياً لنظرات هذه العاشقة الواهة التي شَغَفها حباً. وإن من أقوىٰ غرائز البشر حُبَّ الإنسان لمن يعتقد أنه يحبه. فهذا الموقف منه موقفٌ عظيم، يليق بذاته العظيمة وأخلاقه الكريمة، وهكذا يكون الإنسان إذا بَلَغ الكمال، وذلك هو موضع العبرة لأُولي الألباب، وقياس الإنسانية التي لم تفسدها الأحوال، ولم ترتطم في مستنقعات الأوحال. وآية للسائلين، ومن آيات هذا الموقف الرزين.

وبعد أن عَذَرْنَها وتجرَّأت، هدَّدَتْهُ علىٰ مَرْأىٰ منهن ومَسْمَع، فقالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾، وفي هذا التهديد من ثقةِ هذه المرأة بسُلطانها علىٰ زوجها الوزير الكبير ـ مع علمه بأمرها واستعظامه لكَيْدها ـ ما حقُّه أن يخيف يوسُف من تنفيذ إرادتها، وقد عِيلَ صَبرُها، وهتكت سَتْرها، وكاشفت نسوةَ كبار بلدها بما تُسِرّ وما تُعلن من أمرها، حتىٰ تواطأن معها علىٰ كيدها، ورَاوَدْنَه عن نفسه كما راودته عن نفسها، وهو تواطؤ لا قِبَلَ لرجل به إلا بمعونة الله وحفظه. لذلك دعا ربَّه مستنجداً، و﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣] يقول: أيْ ربِّ الغالبُ علىٰ أمري، العالم بسرِّي وجهري، إن الحبس والاعتقال في السجن مع المجرمين حيث شظف العيش، أحبُّ إلىٰ نفسي وآثر عندي ممَّا يدعوني إليه هؤلاء النسوة من الاستمتاع بهنَّ في ترف هذه القصور وزينتها، والاشتغال بحبهنَّ عن حُبِّك، وبقُربهنَّ عن قُربك، وبمُغَازلتهنَّ عن مناجاتك.

ثم قال في «المنار»: وإنما يُشرَحُ هذا الشرح بما يُعلَمُ من سياق القرآن وإيجاز أساليبه، ومن طباع الرجال والنساء، ومن التاريخ العام، والسنن والأخلاق والعادات، وسيرة الصالحين والأنبياء، دون حاجة إلىٰ ما لا سند له ولا دليل عليه إلا في الروايات الإسرائيليات[١].

أقول: وقد علق الزمخشري علىٰ القصة بقوله: ولو وُجد منه أدنىٰ زلة لنُعِيَتْ عليه، وذُكرت توبتُه، كما نُعِيَتْ علىٰ آدم زلَّتُه[٢]. ولكنه وقفَ وقفةَ ذوي العَزْم والقوَّة وسُمِّي مُخْلَصاً. وإنما ذكرت قصتُه ليكون تثبُّته قدوةً للصالحين في مواقف العثار، وهذا الموقف في يوسُف عليه السلام من الآيات للسائلين.

ثم بالغ في استعانة ربِّه ببيانِ ضعفه البشريّ تجاه هذا الحادث الجَلَل، علىٰ طريقة التغليظ في الخوف والحذر، فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: من صنف السُّفهاء الذي تَسْتَخِفُّهم أهواء النفس، فيعملون السُّوء بجهالة، وهو ما يُخالف مقتضىٰ الحِلْم والأناة، ومقتضىٰ العلم والحكمة، فإنَّ من يعيش مثلي بين أمثال هؤلاء النسوة الماكرات المُتْرفات، لا مفرَّ له من الجهل إلا بعصمتك وحِفْظِك له بما هو فوق الأسباب المعتادة.

وهذا نفيٌ صريحٌ منه عليه السلام بأنه ما صَبَا إليهنَّ، ولا أحبَّ أن يعيش معهنّ، وإنما بيَّن مقتضىٰ الاستهداف لكيْد هؤلاء النساء، وسأل ربه أن يُديم له ما عوَّده من مضمون قوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فالكلام مُجرَّد إظهار لحراجة موقفه، واستمداد من الله سبحانه أن يديم عِصْمَتَه، ويُقوِّي عزيمتَه،

---

(١) تفسير «المنار» (١٢: ٢٤٥).

(٢) «الكشاف» (٢: ٤٥٧).

ويحفظه من كَيْدِهنَّ ومكرهنّ، علىٰ قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

ويدل سياق القصة علىٰ أن الحَصَانَ عند نساء هؤلاء الأقوام ليس بالدرجة المرغوب فيها، والله أعلم.

وقد قَرَنَ سبحانه الدعوة بالإجابة، وقال: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ لا يخفىٰ عليه شيء، وهذا هو نهاية الفصل الثاني من القصة.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾.

وأما الفصل الثالث؛ فيبتدئ بقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ الدالة علىٰ براءته ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾، الظاهر أنَّ ضمير ﴿لَهُم﴾ يعود إلىٰ المجلس العائلي الذي تولَّىٰ أمر التحقيق والتقرير في القضية، وظهرت لهم براءة يوسف،

وهم: العزيز وبعض أهل المرأة. ويجوز أن قد اشتركت هي أيضاً في هذا الرَّأي بعد أن يئست من استمالته إليها، انتقاماً ودفعاً عن سمعتها. والبِدَاءُ: تبدُّل الرأي. والمراد: أنهم تبدَّل رأيهم عن تبرئته إلىٰ أن يسجنوه لصالح المرأة وسمعتها، ولإخفاء الذِّكر وكفِّ الألسنة في إلقاء التَّبِعة علىٰ امرأة العزيز، ولإبعاده عنها.

إلا أنَّ هذا السجن كان بتدبير الله الخفيّ الذي يُعبِّر عنه جاهلوه بالـمُصَادَفة والاتفاق، فكان مُظْهِراً لمعجزة النبوّة، وتمهيداً لدعوة الرسالة، كما تجد ذلك في السياق الذي حكاه سبحانه بقوله: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ تبيَّنَ فيما بعدُ أنّهما مملوكان لمِلك مصر؛ أحدهما: خازن طعامه، والآخر: ساقيه. وقد تبيَّن لهما أنَّ يوسُف عليه السلام يُحسِنُ تعبير الرؤيا. وقد رأىٰ كلُّ واحد منهما رؤيا، فَطَلبا من يوسُف عليه السلام تعبيرَها لهما.

﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦﴾ في تأويل الرؤيا.

وما قالا هذا القول إلا بعد أن رأيا من سَعَة علمه وحُسْن سيرته مع أهل السجن، ما جَعَلهما يَثِقانِ من ذلك. يُفهَمُ هذا من صورة التعبير، وهو من إيجاز القرآن المعجز.

أما يوسُف عليه السلام فقد افترص ثقةَ هذَيْن السائلَيْن بعلمه وفضله، وإصغاءَهما لقوله، واهتمامَهما بما يسمعان من تأويله لرؤياهما. فبدأ حديثه بما هو أهمُّ عنده، وهو دَعْوَتُها وسائرِ مَنْ في السجن إلىٰ توحيد الله عز وجلّ. وعُلِمَ من هذا أنّ وحي الرسالة جاءه بعد دخوله السجن، فتحقَّق قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ ﴾ [يوسف: ٣٣]، كما أنَّ وحي الإلهام جاءه عند إلقائه في غيابة الجبِّ علىٰ ما سبق.

ثم قال في «المنار»: وحكمة هذا من ناحيته: أنَّ الله تعالىٰ جَعَل له في كلِّ مِحْنةٍ

ظاهِرةٍ مِنْحَةً باطِنة، وفي كلِّ بدايةٍ مُحْرِقةٍ نهايةً مُشْرِقة، تحقيقاً لما كان قد فهمه أبوه من اجتباء ربه له. وحكمته من ناحية دعوة الدين: أن أقوىٰ الناس وأقربَهم استعداداً لفهمها والاهتداء بها هم الضعفاء والمظلومون والفقراء، وأعتاهم وأبعدهم عن قَبولها هم المترفون والمتكبِّرون.

بدأ يوسُف عليه السلام بالدعوة بعد مقدِّمةٍ في بيان الآية الدالة علىٰ صدقه والثقة بقوله، وهي إظهار ما منَّ الله به عليه من تعليمه ما شاء من أمور الغيب، وأقربها إلىٰ اقتناعهم ما يختصّ بمعيشتهم، فكان هذا ما يقتضيه المقام وتُوجبه الرسالة في جوابه لهم. وهو ما حكاه سبحانه بقوله: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾، قيل: المراد: لا يأتيكما طعام تَرَيانِه في الرؤيا إلا نبّأتكما بتأويله[1].

وقيل: المراد في اليقظة، والمراد من تأويله: ما أراده الباعثُ له من الغرض والقَصْد الحسن والسيئ، أو بيانُ صفةِ ذلك الطعام. وكان يقول لهم: اليوم يأتيكما طعام صفته كَيْتَ وكَيْت، فيكون كقول عيسىٰ: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وقيل: بل المراد: بيانُ كلِّ ما يهمُّهما من الأمور قبل وقوعها، وإنما خصَّص الطعام بالذكر لمناسبة ما استعبراه من الرؤيَتَيْن المتعلقتَيْن بالطعام والشراب، ليساوق الكلامَ ويشاكلَه.

ثم جَهَر بمنَّة الله عليه في ذلك، فقال: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾.

ثم علَّل هذا اللطف والمنَّة منه تعالىٰ بقوله: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ وهم المصريُّون الذين عاش بينهم، وحَافَظَ علىٰ فطرته فلم يتأثَّر بهم، وكانوا يعبدون

(١) تفسير «المنار» (١٢: ٢٥١).

الشمس ويعبدون العجل (أبيس)، ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾، وقد كرَّر الضمير مبالغةً في الإنكار، وتقريراً لكفرهم بالآخرة علىٰ وجهها الصحيح وإن ادَّعوا الإيمان بها، لأنهم يُصَوِّرون لهم آخرة بحسب عقائدهم الزائفة، ومن مقتضياتها: تحنيطُ أجسامهم، ودَفْنُ جواهرهم ومقتنياتهم معهم، ليتنعَّموا بها في آخرتهم المتخيَّلة.

وقد جعل تفنيدَه لملَّة هؤلاء الأقوام داخلاً في مقدمة الدعوة إلىٰ التوحيد، وتمهيداً لها، وأكمله بقوله: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾، وهي عبادة الله تعالىٰ وحده دون سواه.

وقد بيَّن ذلك بعبارة تدلُّ علىٰ أن استحقاق الله سبحانه للاختصاص بالعبادة أمر ظاهر، ومفطور عليه البشر، فقال: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾.

ثم أردَفَ بيانَ نعمة التوحيد بالشكر، فقال: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ حيث فَطَرَهُم علىٰ التوحيد والهُدىٰ، ما لم يُفسِدوا فِطَرَهُم، وأرسل الرسل إليهم بواسطة الوحي تنشر فيهم دعوتَه، وتُبيِّن لهم هدايتَه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ نِعَمَ الله عليهم، فيُشرِكون به مَنْ لا يَخْلُقون شيئاً وهم يُخْلَقون.

ثم دخل في صُلب الدعوة؛ مُؤْذِناً بأنَّ صاحبَيْهِ هذَيْن هما ممَّن لا يؤمن بالله، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ﴾ أي: يا صاحِبَيَّ في السجن من هؤلاء القوم الذين لا يؤمنون بالله، ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾[1]؟! فضمَّنَ الكلامَ وَجْهَ القُبح

---

(١) في كلِّ شيء من موجودات هذا الكون آثارٌ بديعةٌ ومعالمُ جليَّة تدل علىٰ وجود الله سبحانه واختصاصِه بالألوهية، كما تدل علىٰ عظيم صفاته؛ من علم وقدرة ورحمة وغيرها من صفات الله العلية، ولكن رغم ذلك الظهور ضلَّ الإنسان ضلالاً بعيداً، فكان منه ثنوية يقولون بإلهين اثنين: إله للخير، وإله للشر. وكان منه تثليثية يقولون بالأب والزوجة والابن، أو الأب والابن =

في تعدُّد الآلهة، إذ إنه يؤدِّي إلىٰ التفريق بين البشر، ووَجْهَ الحُسْنِ بالاعتقاد بإله واحد يعبده البشر كلُّهم. ففيه ـ فوق حَقِّيَّتِهِ ـ توحيدٌ لمنازع نفوسهم إلىٰ سلطان واحد يخضع الجميع لحكمه، وفي ذلك نظام أُخُوَّتِهم وملاك سعادتهم. وأدمج فيه أنَّ الذي يستحقُّ الاختصاص بالألوهيَّة هو الله المتصرِّف في هذا الكون، الخاضع له كلُّ ما فيه.

وتحرير البحث: أنَّ التوحيد للإله يجرُّ إلىٰ الاتِّحاد، وتَعْداد الآلهة ـ ولا سيما أن يتَّخذ كل قوم إلهاً مختصاً بهم، أو ديناً كذلك ـ فإنه يجرُّ إلىٰ التفريق، وأيُّ تفريق! فلو توحَّد البشر كلُّهم علىٰ عقيدة واحدة، اتَّحدوا وتقاربوا وائتلفوا وتَسَامحوا، ولم يتنازعوا إلا في أقل القليل[1]؛ إذ مما لا شك فيه أن مَنْبع الشرور والفساد هو تَعْداد الأرباب واختلاف العقائد والأديان، وألوهية الناس للناس، والاعتقاد بأنهم ـ بذواتهم أو برموزهم وهي الأصنام ـ يُقرِّبون إلىٰ الله زلفىٰ، ويتوسَّطون لهم في دفع الضر وجَلْب الخير من سائر نواحي الحياة، فإن هذه العقيدة وما يُلابسها تردُّ الإنسان إلىٰ أسفل سافلين.

وقد كان في أساطير الأولين من المشركين، بما فيهم المصريون القدماء: لكلِّ حال من أحوال الطبيعة إله، كإله الخصب، وإله الجَدْب. ولكلِّ شأنٍ من شؤون البشر

= المكوَّن من امرأة بشرية. وكان منه من وزَّع الألوهية بين آلهة متعددة؛ فجعل لكلِّ قوة من هذا الكون إلهاً خاصاً، ثم جعل علىٰ رأس الجميع إلهاً أكبر يلجؤون إليه ويأتمرون بأمره. ولكلِّ قوم آلهة تختصُّ بهم دون سواهم. وهكذا خَبَط العقل البشري خَبْط عشواء في إدراك ذات الله ومعرفة صفاته، رُغماً عن كونه سبحانه نور السماوات والأرض، يُظْهِرُ كلُّ شيء فيها جَلِيَّ ذاتِه وعظيمَ صفاتِه، وأنه واحدٌ لا شريك له ولا مثال. (المؤلف).

(١) جاء الدين الإسلامي ديناً للبشر كلِّهم، موحِّداً لهم كعائلة واحدة. فنزل القرآن ليكون للجميع، وتكون لغتُه لغةً للجميع؛ لأن الإسلام توحيد واتحاد وقرآن ولغة عربية، وانعدام كل واحد من هذا الثلاثة يُفقد الإسلام كمالَه، والله أعلم. (المؤلف).

إله، كإله السلم، وإله الحرب. ولكلِّ أمة آلهة من هؤلاء غير الأخرىٰ، تعتزُّ بها وتنافس. وهل من تفريق للبشر وتشتيت لعقائدهم ولأمرهم أكبر من هذا؟ يؤدِّي إلىٰ المخاصمة والتناحر في سبيل الوهم والضلال!

وبعد أن بيَّن مفاسدَ الشرك وسيِّئاتِهِ، ومصالحَ التوحيد وحسناتِهِ، وأنَّ المُسْتَحِقَّ للعبادة هو ذو القهر والسلطان، ردَّ عليهم عبادتهم لأسماء أصنام تعجز عن تدبير نفسها، وأدمج في ذلك أنَّ الدين والعقائد والأحكام لا تُقبَلُ إلا عن طريق الوحي، فقال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: من حُجَّة وبرهان.

ثم نصَّ علىٰ ما هو الدِّين الحقُّ المستقيم، فقال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[1] أي: ليس الحكم الحقُّ في الربوبية والعقائد والعبادات الدينية والأحكام الشرعيَّة إلا لله وحده، يُوحيه لمن اصْطَفاه من رسله، فلا يجوز لأحدٍ أن يضَعَ شرائع للبشر، أو ينفِّذ أمره في البشر، إلا إذا كان ذلك تنفيذاً لحدود شرائع الله. ولا يجوز لأحدٍ أن يضع خطة للبشر في العقائد والعبادات وسائر التشريع إلا إذا كان ذلك مُسْتَمَداً من وحي الله، علىٰ لسان أنبيائه عليهم الصلاة والسلام. فهذه القاعدة هي أساس دين الله تعالىٰ علىٰ ألسنة جميع رسله، لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة.

---

(١) إنَّ الأحكام الشرعيَّة يجب أن تُساير الطبيعة البشريَّة؛ الفرديَّة والاجتماعيَّة، الماديَّة والروحيَّة، وتكفل لها السعادة في الحياتين بصورة واقعية، ولا يمكن أن يعلم ذلك بحدود مضبوطة إلا الله سبحانه الذي يعلم مَنْ خلق وما يحتاج إليه، فهو وحده القادر أن يشرع للإنسان ما يلائم روحه وجسمه مُلاءَمَةً صحيحة، يكون له بها السعادة والفلاح. أما ما يخالف تشريع الله، ويعتقد الإنسان أنه من مصلحته؛ فذلك خديعة النفس، يُزيِّفها العقل الصحيح والوجدان النزيه. (المؤلف).

ثم بيَّن أوَّلَ أصلٍ بُنِيَ عليه الدِّين، وهو مدار البحث، فقال: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ غيرَ مشركين به شيئاً، ولو كان مَلَكاً كريماً أو نبياً مرسلاً، لأنه لم يخرج عن كَوْنه من مخلوقاته وعبيده، ميَّزه بقوىٰ من مادة جنسه، يتفوَّق بها شخصُه.

ثم ختم الدعوة بالتَّنصيص علىٰ أنَّ عقيدة التوحيد هي الحق، وما دون ذلك باطل، فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: المستقيم الذي لا عِوَجَ فيه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ ذلك حقَّ العلم، لاتِّباعهم أهواءَ آبائهم ومُضلِّليهم.

ولما كانت الدعوة إلىٰ التوحيد فيها طمأنينةٌ نفسيَّةٌ للذي سيُؤَوِّلُ ويُعبِّر رؤياه بالصَّلْب، ولا سيما إذا نَجَحت الدعوة الدينيَّة فيه واقتَرنت بالإيمان، أخَّر تأويل رؤياهما عنها، وهذا هو الذي يقْتَضيه المنطق الصحيح والحِذْق البارع. فبعد أن دعاهما إلىٰ التوحيد والدين القيِّم، عبَّر لهما الرؤيا، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ وهذا هو الذي رأىٰ أنه يعصر خمراً، ويعني بالرب: المَلِك، ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ﴾ وهو الذي رأىٰ أنه يحملُ فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾.

ثم قرَّر التأويلَ والعَبْرَ بقوله: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾، وهذا نبأ زائد علىٰ تأويل رؤياهما، وَرَدَ مَوْرِدَ الجواب عن سؤال أو أسئلة في صفة ذلك التأويل، مثل: قطعِيٌّ هو أم ظنِّيٌّ؟ وما شابه ذلك. فهو يقول لهما: إنَّ الأمر قد بُتَّ فيه وانتهىٰ حكمُه.

والتعبير بقوله: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا... وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ﴾، أبلغُ في هذا المقام وأنسبُ من ضمير الخطاب؛ لأنه يدفع بَشَاعة المجابَهة بأمر الصَّلب لمن رأىٰ أنه يُصْلَب، وإن كان المعنىٰ مفهوماً. وبهذا ينتهي الفصل الثالث من القصة.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾.

والفصل الرابع يشمل الحلقة الأخيرة من محنة يوسف عليه السلام، والحلقة الأولىٰ من نِعَم الله العظيمة عليه وأعمال نبوَّته، ويبتدئ بقوله: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ وهو الذي أوَّل له رُؤْياه بأنه سيسقي ربَّه خمراً، قال له: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: عند سيِّدك المَلِكِ بما رأيتَ وما سمعتَ وما علمتَ من أمري. ويشمل هذا دعوته إيَّاهم إلىٰ التوحيد، واختصاصَه تأويل الرؤيا وإصابته فيه، وإنباءَهم بكلِّ ما يأتيهم من طعام ونحوه قبل إتيانه، ويشمل كذلك أنه مسجون ظلماً.

﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ أي: نَسِيَ الشرابيُّ أن يذكر يوسف عند الملك؛ لأنَّ من يَتَشبَّع بالشِّرك وملابساته، لا يهتم بمثل يوسُف وتَنَبُّؤاتِه. وقلَّةُ الاكتراثِ تُنْسي، ﴿فَلَبِثَ﴾ يوسفُ ﴿فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾، والبضع: ما بين الثلاث والتسع.

ثم جاءت عمدة هذا الفصل، وهي رؤيا الملك التي كانت واسطةً لِتَعَرُّفِه بيوسُف عليه السلام، ووقوفِهِ علىٰ عَظَمة شأنه، كما حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ مُخاطِباً الملأ من رجال دولته وأشراف قومه: ﴿إِنِّىٓ﴾ رأيت فيما يرىٰ النائم رُؤْيا جليَّة ماثلة أمامي كأني أراها الآن، ﴿أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ أي: يَأكُلُ البقراتِ السبعَ السِّمانَ سَبْعُ بقراتٍ مَهَازيلَ في غاية الضعف والهزال، ﴿وَ﴾ أرىٰ ﴿سَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ قد آن حصادهنَّ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَىَ﴾ هذه ما معناها، وما تدلُّ عليه، ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ وهذا حثٌّ لهم واسْتفزاز. يقال: عبَّر الرؤيا، أي: انتقل ببيانها من المعنىٰ الخيالي إلىٰ المعنىٰ الحقيقي، كمن يَعْبُرُ النهر من ضُفّة إلىٰ أخرىٰ.

ثم ذكر ما كان من جواب الملأ له، فقال: ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أي: قال الملأ: هذه الرؤيا من جنس أضغاث الأحلام، أي: الأحلام المختلطة من الخواطر والأخيلة التي يتصوَّرها الدماغ في النوم، فلا ترمي إلىٰ معنىٰ مقصود، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ وهذا يحتمل نفي هذا النوع من الأحلام، أو نفي العلم بجنس الأحلام مطلقاً.

ولما شاع أمرُ رؤيا الملك، وبَلَغت مَسَامعَ الساقي؛ تذكَّر أمر يوسف ونبوغَه في عَبْرِ الرؤيا، فذكر ذلك لأُولي الأمر أو للحاشية في القصر، بما حكاه عنه بقوله: ﴿وَقَالَ

﴿ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾ أي: من صاحِبَيْهِ في السجن، وهو الساقي، ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: تذكَّر يوسُفَ ووصيتَه بعد طائفة طويلة من الزمن، قال: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أي: بتأويل هذا الحلم، وذكر لهم يوسفَ وعِلمَه الصحيح في عَبْرِ الأحلام وتأويلها، وقال لهم: ﴿فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾ إليه.

فأرسلوه، فجاءه يَستَعبِرُه الرؤيا، وقال ما حكاه عنه سبحانه بقوله: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ أي: الذي بلغ غايةَ الكمال بالصِّدق في الأقوال والأفعال وتأويل الأحاديث وعَبْر الأحلام: ﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾، وقَرَن هذا الاستفتاء بما يتضمَّن رجاء أن يحقِّق ليوسف أمَلَه بالخروج من السجن، إثر انتفاع الملك ومَلَئِهِ بعلمه، فقال: ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أولي الأمر ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ مكانتكم من العلم، فينتبهون لك، ويعلمون ما جهلوا من تأويل رؤيا الملك.

ثم حكىٰ سبحانه ما قاله يوسف عليه السلام في عَبْرِ الرؤيا، فقال: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي: مُستمراً.

قال في «المنار» ما مفصَّله: قال يوسُف مُبيِّناً ما يجب عليهم عَمَلُه لتلافي ما تدلُّ عليه هذه الرؤيا من القحط وشدّته علىٰ البلاد والعباد قبل وقوعه، بيَّنه في سياقِ هذا التدبير العلمي. وهذا ضربٌ من بلاغة الأسلوب والإيجاز لا تجد له مثيلاً في غير القرآن، خاطَبَ أُولي الأمر بما لقَّنه للساقي خِطابَ الآمِر للمأمور الحاضر، فأوجَبَ عليهم الشروع في زراعة القمح دائبينَ عليه دأباً مستمراً سَبعَ سنين بلا انقطاع. فالكلام خَبَرٌ بمعنىٰ الأمر، وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب إيجاد المأمور به.

والدليل علىٰ كونه بمعنىٰ الأمر قوله: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ أي: فكلُّ ما حَصَدتم منه في كُلِّ زَرْعةٍ فاتركوه، أي: ادَّخِرُوهُ في سُنْبُلِهِ بطريقةٍ تحفظه من السُّوس بعد سَرَيان الرطوبة إليه، فيبقىٰ الحَبُّ لغذاء الناس والتبن لغذاء البهائم والدواب، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾ في كلِّ سنة من هذه السنين، مع مراعاة الاقتصاد والاكتفاء بما يسدُّ حاجة الجوع.

فهذه السِّنُونُ السبعُ تأويل البقرات السَّبعِ السمان، والسُّنْبلاتُ السَّبْعُ الخُضْرُ علىٰ ظاهرها في كون كل سنبلة تأويلاً لزرع سنة من سِنِيِّ الخصب، ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ في مَحْلِهِنَّ وجَدْبِهِنَّ ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾، وفي الآية إسناد الفعل إلىٰ الزمان الذي يقع فيه. وذلك من خصائص اللغة. والمراد: يأكلُ أهلُهُنَّ كلَّ ما قدَّمتُم لهم، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: مما تخزنون وتحرزون للبذر[1].

وفي هذه الآية تلويح إلىٰ تأويل العجاف التي أكلت السِّمان، بسِنِيِّ الجَدْب والمَحْل التي تَستَنفِدُ ما ادَّخَرُوهُ من محصول سنيِّ الخِصْب السابقة.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكِر، وهو السبع الشِّداد، ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ ما شأنه أن يُعْصَر من الأدهان التي يأتدِمون بها، ومن الأشربة المباحة عندهم. والمراد أنه يكون عاماً عظيم الخِصْب، ويكون فيه للناس كلُّ ما يبغون. والإنباء بهذا زائد علىٰ تأويل الرؤيا، ليظهر منه أنَّ هذا التفصيل لم يعرفه يوسُفُ عليه السلام إلا بالوحي.

وقد عُلم بالبَدَاهة من فحوىٰ الكلام: أنَّ الرسولَ بلَّغ المَلِكَ ما قاله له يوسُف عليه السلام، وأنهم فهموا منه أن الخَطْب جَلَل، وأنَّ هذا الرجل ذو علم واسع، وتدبير

---

(١) تفسير «المنار» (١٢: ٢٦٣-٢٦٤).

لا يُسْتغنىٰ عنه في حالي السَّعة والشدَّة، وقد طوىٰ كلَّ ذلك القرآن، علىٰ سنَّته في الطيِّ والإيجاز، اكتفاءً بما يدل عليه، وهو هنا قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ﴾ لأسمع كلامه بأُذُني، وأختبر تفصيل رأيه ودرجة عقله بنفسي، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ وبلّغه أمر الملك، ﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ قبل شخوصي إليه، ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾، وفي كلمة ﴿رَبِّى﴾ جَمْعٌ بين الحقيقية والمجاز، فهم المَلِكُ منها أنه يريد سيِّده الوزير، وقد ورَّىٰ يوسف فيها بالله تعالىٰ، وأراد بموقفه هذا أن يستأنف لدىٰ الملك دعوىٰ الحكم عليه بالسجن، حفظاً لكرامته وإظهاراً لبراءته، كي لا يكون متَّهماً بتهمة تخلُّ بشرفه، فيكون خروجه من السجن عفواً عنه وإحساناً به.

فأراد بهذا الموقف أن يزيد في عُلوِّ شأنه ونزاهته، ويُفهِمَ ذلك للملك قبل خروجه. وهذا من دلائل عظمته عليه السلام. وإنما خصَّ في طلب التحقيق حالةَ تقطيعهنّ لأيديهن؛ لأنها تدلُّ دلالةً واضحةً علىٰ أنه لا صُنْعَ له بأمرهنّ؛ لأنهنَّ فَعَلْنَ ذلك بأنفسهن عن دهشة وانفعال نفسيّ. ومثل هذا يُسمُّونه اليوم بالطب العدلي أو اللمحة الدالة، وهو أن يستنتج من وضعية الجِراح وموضعها وصورتها حقيقةَ الجريمة والمجرم استنتاجاً واضحاً. وقد سبق إليه القرآن قبل ألف وثلاثمئة سنة ونيِّف. والله أعلم.

وفُهِمَ مِنْ أسلوب القرآن في الاكتفاء والإيجاز: أن الملك نزل عند إرادة يوسف عليه السلام، وتشكَّلت هيئة تحقيق تحت إشرافه، أو أجرىٰ هو التحقيق الدقيق بنفسه؛ يُفهَمُ ذلك من صورة المحاكمة التي حكاها سبحانه مجملاً بقوله: ﴿قَالَ﴾ أي: المَلِكُ للنِّسْوة: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ أي: ما شأنكُنَّ ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾، هل كان ميلٌ منه إليكنَّ ومغازلةٌ لكنَّ وتحرُّشٌ بكن؟

ولما كان تقطيعهنَّ لأيديهنَّ يكذِّب ذلك كلَّه؛ لأنه إنما صَدَرَ عن انفعالهنَّ النَّفسِيّ،

كان الجواب منهنَّ ما حكاه سبحانه بقوله: ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾، وهذا التعبير آكَدُ من نفي رؤية السُّوء منه شيئاً. وبعد ذلك ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ التي كانت معها الحادثة، وتبيَّن لها من أمره عَظَمةٌ وعِصْمةٌ نادرةُ المثال، ومِثْلُه لا يُكْذَبُ عليه، قالت: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ظهر بعد خَفاء، ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ وهو لم يُراوِدْني، بل استَعصَمَ وأعرَضَ عني، ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ فيما اتَّهمني به من قبل، وحمله أدبه الأعلىٰ ووفاؤه الأسمىٰ لمن أكرَمَ مَثْواه وأحسن إليه، حمله علىٰ السكوت عن حقِّه إلىٰ الآن. ونحن جزيناه بالسيئة علىٰ الإحسان.

أقول: ولولا جلال النبوة واقتضاؤه أن لا تبقىٰ عليه هذه التهمة، وأن ترتفع عنه هذه الوصمة، لَـمَا فاه بهذا أبداً. والله أعلم.

ثم زادت علىٰ هذا البيان بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإقرار بالحق والشهادة بالصدق إنما جَهَرْتُ به ﴿لِيَعْلَمَ﴾ إذ يَبلُغُه ذلك عني ﴿أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ منذ سُجِنَ إلىٰ الآن، أي: بالنيل من أمانته أو الطعن في شرفه وعفَّته، بل صرَّحتُ للنسوة بأنني راوَدْتُه فاستَعْصَم، وهو شاهد، وها أنا أقرُّ بهذا أمام الـمَلِكِ ومَلَئِهِ وهو غائب، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ وإنما تكون عاقبة كيدهم الفضيحة والنكال. ولقد كِدْنا له فصَرَفَ ربُّه عنه كيْدَنا، وسَجَنَّاه فبرَّأه وفَضَحَ مكرنا، حتىٰ شهدنا له في هذا المقام السامي علىٰ أنفسنا.

ثم قال في «المنار»: وقد عُلِمَ من جملة الكلام أنَّ يوسف عليه السلام كان مَثَلَ الكمالِ الإنسانيّ في العفَّة والصيانة لم يمسَّه أدنىٰ سوء من فتنة النسوة، كما شهد الله سبحانه له بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، وشهدت النسوة بقولهنّ: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ [يوسف: ٥١]، وشهدت امرأة العزيز نفسها بقولها:

﴿أَنَا رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١]. وعُلِمَ أنَّ هذه المرأة كان لها مزايا في عشقها الذي كان اضطرارياً لا علاج له إلا الحيلولة بينها وبين هذا الشاب الذي بلغ منتهىٰ الجمال والكمال، فمن مزاياها: أنها لم تَتَّهِمْهُ بالجُنوح للفاحشة صراحةً، وكل ما قالته لزوجها إذ فاجأها لدىٰ الباب: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا﴾ [يوسف: ٢٥]، تعني به همَّه بضربها وتُوَرِّي به. وأنها في خاتمة الأمر أقرَّت بذنبها في مجلس الملك الرسميّ، إيثاراً للحق وإثباتاً لبراءة الـمُحِقّ. فأية مزايا أظهرُ من هذه لمن ابتُليت بمثل هذا العشق الشديد! (١)

ثم إنها ـ علىٰ تبرئة نفسها من خيانته بالغيب ـ اعترفت في الآية التالية بأنها لا تُبرِّئُ نفسها من الكيد له بطلب السجن، وأن ذلك كان من هوىٰ النفس الأمَّارة بالسُّوء، لأنَّ المرادَ تذليلُه لها وحَمْلُه علىٰ طاعتها بمجرد تخويفه، إذ لم تعتقد أن سيِّده يفعل به ذلك؛ لما له من الثقة بكماله. والله أعلم. كما حكىٰ ذلك عنها بقوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾، وذلك إذا تهيأ لها تربية صالحة كاملة. وفيه وجه آخر: وهو: لئن بَرَّأتُ يوسُف من الإثم، فما أُبَرِّئُ نفسي منه، فإنَّ النفس لأمَّارة بالسوء إلا ما رحم ربي.

ثم علَّلتْ رجاءها بمغفرة الله لها بعد توبتها بقولها: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾.

وقال بعض المفسِّرين في قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ ...﴾: إنه من كلام يوسف عليه السلام، واتَّصل بكلام امرأة العزيز لظهور الدلالة، إذ هو كلام مؤمن قويِّ الإيمان.

أقول: وذلك من أساليب القرآن، فهو يُجري الكلام عن شخص أو أمر بعد

---

(١) تفسير «المنار» (١٢: ٢٦٨).

إجرائه عن آخر مُتمِّم له، اعتماداً علىٰ الظهور. والمعنىٰ: إنَّ الذي فَعَلْتُه من ردِّي رسول الملك إليه في شأن النسوة إنما فعلتُه ليَعلَمَ العزيز أني لم أَخُنْهُ بالغيب في زوجته، وأنَّ الله لا يهدي كيد الخائنين، ثم بيَّن أنه لم يُرِدْ بهذا الكلام تزكية نفسه والتَّمجُّد بها، بل إظهار ما أنعم الله عليه من العصمة والتوفيق في ذلك، فإنَّ النفس أمَّارة بالسوء إلا ما رحم الله[1]، بأن تهيّأ لها تربية صالحة وتدريب صحيح.

فيكون الكلام بياناً للطبيعة البشريَّة، وهي التنازع فيما بين النفس والعقل، فإذا غَلَبَ العقلُ النفسَ يكون تسليمُها له وارتداعُها عن السقوط بتوفيقٍ من الله، ولا يكون ذلك إلا في تَقْوية النفس بتعويدها علىٰ مقاومة الرذائل وتمكّنها من الفضائل، فتنطبع علىٰ الخير، وتفرُّ من تَعَاطي السُّوء واكتساب الشرِّ فرارَها من الأسد، إذ تصبح هذه النفسُ وقد رُبِّيت فيها الطبيعة الإنسانية تربية صحيحة، ونَمَا منها الاستعداد للخير علىٰ ما خلقها الله عليه، فإذا هي ناصعة مشرقة لم تُدَنَّسْ بمزاولة الرذائل والتعوُّد عليها، بخلاف النفس المفسودة، فإنها تصبح ـ بذلك الإفساد لها ـ دنيئة شريرة.

ومحصَّل الكلام: أنَّ كلَّ مولود يولد علىٰ الفطرة الصحيحة، وإنما العَوَجُ بالاعوجاج، والفَلَجُ بالانفلاج، ويحصل ذلك من نتيجة إفساد الإنسان طبيعته بمعاونة وساوس الشيطان.

ويقول علماء النفس ما مُحصَّله: إنَّ الذات البشريَّة تنقسم بنتيجة التربية والدخول في معترك الحياة إلىٰ ثلاثة أقسام: الذات السفلىٰ، والذات العليا، والضمير.

فالذات السُّفلىٰ: هي التي تحوي الغرائز الطبيعية في حالة سيئة همجية لسوء

---

(١) وهذا الكلام من يوسف علىٰ حدِّ قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. (المؤلف).

تربيتها، فكلُّ همِّها أن تصل إلىٰ أهدافها وإن أساءت التصرُّف، وعبثت بالقيود الاجتماعية والقوانين النظامية من شرعية ووضعية، ولا تريد أن تخضع للعقل والضمير.

والذات العليا: هي التي تتكوَّن صفاتُها من التربية الحسنة للغرائز، ومن النشأة السامية والثقافة الصالحة والتهذيب الصحيح، فيكون همُّها التمثُّل بالمُثُل العليا والتفوُّق في ذلك بمعونة العقل والضمير.

فإذا غلب التسفُّل علىٰ الذات هَوَتْ إلىٰ أسفل سافلين، وإذا غَلَبَ عليها السموُّ والصلاح ارتفعت إلىٰ أعلىٰ عليين، وذلك هو الكمال المنشود للإنسان في عالم الغيب وعالم الشهود.

وذاتُ يوسُفَ عليه السلام من أعلىٰ أنواع الذوات العليا، معصومة عن كلِّ ما يُدنِّسُها ويُدسِّيها، وذلك لِـمَا نشأت عليه من الصلاح والكمال. وقد شهد الله سبحانه ببراءة يوسف بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، وشهدت الآيات الناطقة ببراءته، وشهدت النسوة ببراءته ونزاهةِ موقفه، رغماً عن عَظَمة الـمُغْرِيات وقوَّتها. وهذا هو موضع العبرة من السورة. والله أعلم.

وسأل مجاهدٌ عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه: إنَّ الذين لا يشتهون المعصية أفضلُ أم الذين يشتهونها ولا يعملون بها؟ فقال عمر رضي الله عنه: إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣][1].

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾

(١) ساقه ابن كثير في «تفسيره» (٧: ٣٦٨)، بإسناد أحمد في «الزهد»، وفيه: «كُتب إلىٰ عمر: يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهي المعصية...». وهو الصواب، لأن مجاهداً لم يدرك عمر.

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

وبعد إكمال التحقيق تبيَّن للملك من ثنايا البحث أنَّ يوسُف هذا نادر المثال بالعفة والأمانة والعلم والدراية، وأنه مَنْ لا يُهْمَلُ مِثْلُه عن الاستخدام في إدارة شؤون الدولة، فطلب حضوره طلباً ثانياً ليرشِّحه لبعض الوظائف، كما حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أي: أجعله من خواصِّ حاشيتي، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ طويلاً واختبره دقيقاً، رأىٰ فيه مِن عقل ودراية وكمال وعُلوِّ جَنَاب وحُسْن خصال، ما رَبَأ بها وعظم عنده عمَّا كان سمعه عنه، وعمَّا ظهر له منه في ثنايا التحقيق عن قضيته، لذلك ﴿قَالَ﴾ له: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ أي: ذو مكانة ومنزلة عندنا، ومُؤْتمن علىٰ كلِّ شيء. وهذا ترشيحٌ لإدخاله في سِلْكِ رجال الدولة، وتمهيدٌ لذلك، وعَرْضٌ عليه. وقال ابن عباس: يريد: مكَّنتُك من مُلكي، وجعلتُ سلطانك فيه كسلطاني، وائتمنتُك فيه.

أما يوسُفُ عليه السلام فقد رشَّح نفسه للمالية والاقتصاد، والظاهر أنه أراد أن يقوم بتطبيق ما يراه في تأويل رؤيا الملك مما تحتاج إليه البلاد في ذلك الأمر، وقد قام به أحسن قيام. وذلك ما يُعرِبُ عنه قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر، بمعنىٰ: ولِّني أمْرَها من الإيراد والصَّرْف، ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ بوجوه التصرُّف فيها. وفيه دليلٌ علىٰ جواز طلب الولاية لمن يعرف في نفسه الكَفَاءة في العمل. ويجوز أن يقال: ليس هذا طلباً للولاية، لأن المَلِكَ ولَّاه من نفسه، ولكنه إظهارٌ لما يختصُّ به، وبيَّنه بعد أن رشَّحه الملك لوظائف الدولة.

ويدلُّ حُسْنُ تصرُّف يوسف في سِنِي الخِصْب والجَدْب، علىٰ مهارةٍ فائقة وتدبير مُتْقن في الإدارة والاقتصاد، فقد أشرف علىٰ الماليّة والتموين أربع عشرة سنة، لا علىٰ تموين مصر وحدَها، بل علىٰ تموين البلاد المجاورةِ التي أجدبت كذلك، وجاءت إلىٰ مصر تَسْتَجْدي منها القُوتَ سبع سنين.

ثم نبَّه سبحانه وتعالىٰ إلىٰ مكانة هذه النتيجة المُشْرِقة من تلك المقدِّمات المُحْرِقة، ليتبيَّن للناس وجوهَ الحِكَم الخفيَّة والمصالح العليَّة في أعماله سبحانه وتعالىٰ، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ أي: جعلناه يتصرَّف في أرض مصر العظيمة الشأن كما يشاء، رغماً عن كونه ليس من أهل البلاد.

فتلك السلسلة من المقدِّمات المُحزِنة، كان لها هذه النتيجة اللامعة، فقد أرادته امرأة العزيز عشيقاً لها، وأراد زوجُها أن يكون يوسف قهْرماناً[1] لهما أو ولداً، وأراد الله أن يُمكِّن له ويجعله سيِّدَ البلاد لينشر الدعوة فيها، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

وقد ذيَّل البيان بقوله: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ أي: بمقتضىٰ الحكمة الداعية لذلك، ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: بل نَجْزيهم عليه الجزاءَ الأَوْفىٰ في الدنيا والأخرىٰ.

وبعد أن بيَّن الجزاءَ والرحمةَ في الدنيا، بيَّن الجزاء والرحمة في الأخرىٰ، ولكن بيَّنه بصورة عامَّة، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾، فإنَّ ما ينالونه من الخير في الآخرة لا يُقاس بما ينالونه من الخير في الدنيا. وإنَّ هذا التمكين له في أرض مصر بالملك والسلطان، مكَّنه من نشر دعوته فيها وبثّ

(١) القهْرمان: هو المسيطر الحفيظ على مَنْ تحت يديه. «لسان العرب» (قهرم).

الإصلاح. وكم لله في خفايا الأمور من تدبير، وكم له من المِنَن في طيَّات المِحَن، وكم له سبحانه من لُطْف خفيّ وإنعام جليل! وبهذا ينتهي الفصل الرابع.

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

وأما الفصل الخامس؛ فيبتدئ ببيان أنَّ يوسُف لـمّا تـمكَّن في مصر، وأصاب النَّاسَ ما أصابهم من القحط، وقَصَدوا مصر للامتيار والتموين، سداً للمجاعة بقليل ما ينالون من ذلك، كان إخوة يوسف مِن جملة مَن قصدوا مصر ليمتاروا، كما حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴾ ممتارينَ لَـمَّا أصاب أرضَ كنعانَ وبلادَ الشام ما أصاب أرضَ مصرَ من الجَدْب والغلاء، ﴿فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ أي: علىٰ يوسُف في مجلس ولايته وإدارة تموينه، ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: عرفهم ولم يعرفوه، لطُول العهد وتَبايُنِ ما بين حالَيْه، إذ لم يخطر ببالهم أنَّ هذا العظيمَ عزيزَ مصر هو أخوهم الذي فتكوا به. وكانوا فارقوه صغيراً وهم صغار، والصغير إذا كبر وهو غائب تَخْفىٰ ملامحُه، ولا يكاد يعرفه مَنْ كان يعرفُه وهو صغير. أما يوسف عليه السلام فبنُور النبوَّة وما فيه من عقل واسع، لم تَضِعْ عليه ملامحُ إخوته، وإن كان قد فارقهم صغاراً، ومنذ عهد بعيد.

وبعد أن طال بهم المقام، وتنوَّع بينهم الكلام، استَدرَجَهم أن يأتوه بشقيقه وهم لا يشعرون، لأنه سألهم عن عددهم؟ وأشقاء أم أبناء أب وأمهات؟ وذكروا لهم أخاه الذي لم يأتوا به معهم، فطلبه.

وقد أجمل القرآنُ صورةَ ذلك البيان، علىٰ نهجه في الإيجاز، فقال: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾، وقد أكمل الاستدراج بقوله: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: وقد أكرمتُ نُزُلَكُم وضيافتكم أيَّ إكرام، يُرغِّبهم في أنهم ـ إن أتوا بأخيهم ـ زادَ عددهم وأَوْفىٰ لهم الكَيْل.

ثم أكّد الإيجاب بالسَّلب، وأنذرهم بالحرمان إن لم يأتوا به، مبالغةً في الحضِّ علىٰ ذلك، فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾.

ولما كانوا غير واثقين من المقدرة علىٰ إقناع أبيهم في ذلك بعد حادثة يوسف؛ ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ ولا نألو جهداً في إقناعه أن يُرسِلَه معنا. ولما كان جوابُهم يدلُّ علىٰ عزَّة هذا المطلب وصعوبة مناله، أكَّدوا له تصميمَهم بقولهم: ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

ولكن يوسف عليه السلام أتبع الاستدراج القولي والطلب الأكيد وأشفعه بالتدبير الفعلي، تحقيقاً لهذا الأمر، ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾، وهي التي اشتروا بها الطعام؛ لأنهم كانوا يتبادلون بالبضائع مع أهل الريف، بدل النقد. فأمر فتيانه أن يُعيدوا لهم بضاعتَهم ويضعونها في رحالهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ﴾ أي: لعلهم يُدرِكون حقَّ ردِّها والتكرُّم عليهم بها.

ثم علَّل ذلك بالغاية، فقال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي: لعلَّ ذلك يُغْريهم بالرجوع، ويُقوِّي طَمَعَهم في زيادة الميرة. ويجوز أن يكون ما قاله للفتيان مقصوراً علىٰ جَعْل البضاعة في رحالهم، وأما بقية الكلام فهو بيانُ القرآن لِـمَا أضْمَره يوسف، وذلك من أساليب اللغة في الحكاية عن الأمر والمقاصد، ومن نهج القرآن. والله أعلم.

وفي إعادة البضاعة إليهم توسعةٌ عليهم وعلىٰ أبيهم وعيالهم. وذلك من واجباته، وإن كان له فيها مآرب أخرىٰ.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٦٣ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ٦٥ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٦٦ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦٨﴾.

ثم حكىٰ سبحانه بأسلوب إيجاز القرآن ما كان بينهم وبين أبيهم بعد رجوعهم إليه، وقال: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ﴾ قبل أن يفتحوا أمتعتهم: ﴿يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾ إلا أن يَصْحَبنا أخونا «بنيامين»، ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ إلىٰ مصر، ﴿نَكۡتَلۡ﴾ ما نحتاج إليه من الميرة، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٦٣﴾ من أن يصيبه مكروه.

فأجابهم بجَوابٍ أوَّلُهُ خَوْف، وآخِرُهُ مَيْل، وفَّق بينهما، و﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ﴾ وقد قلتُم فيه أيضاً: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢]، فلا أثق بكم ولا بحفظكم، ولكنِّي أُفوِّض الأمر إلىٰ الله في حفظه ورعايته، ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤﴾، فأرجو أن يرحَمني بحفظه ولا يَجْمَعَ عليَّ مُصيبتَين. فهذا ـ كما ترىٰ ـ مَيْلٌ منه عليه السلام إلىٰ الإذْن والإرسال، لِـمَا رأىٰ فيه من المصلحة المُلِحَّة.

ثم ذكر قضية العثور علىٰ البضاعة في الرِّحال، وأنها كانت مُؤيِّدةً لرأي الإرسال، فقال: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ﴾ بعد ذلك الحوار، ﴿وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ فانتهزوا هذا الأمر للمبالغة في الإقناع، و﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾ أي: ماذا نريد أكثر من هذا الإحسان الذي أحسَنَه بنا هذا العزيز؟

ثم أردفوا الإنكار بما يوضِّحه من بلوغ اللطف بهم غايته، فقالوا: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ فوق ما منَّ علينا من المنن العظيمة، والمبالغة في الكرامة والرفد. وإيثارُ صيغة البناء للمفعول للإيذان بكمال الإحسان الناشئ عن كمال الإخفاء، بحيث لم يشعروا به. وقولُه: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ معطوف علىٰ محذوف، علىٰ سنة بلاغة إيجاز القرآن، ومعنىٰ: «نَمير» نَجْلِبُ لهم المِيرَة، وهي الطعام، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ من المكاره حسبما وعدنا، ﴿وَنَزْدَادُ﴾ بواسطته ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾، وهي حصَّته الزائدة علىٰ حِصَصِنا، لأن ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي أتينا به من قبل ﴿كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾ غيرُ كافٍ لنا، بخلاف ما إذا زِيدَ عليه حصّة أخرىٰ.

وبعد أن تكامل لديه الميل إلىٰ الإرسال، أعاد الاستيثاق منهم، و﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي: إلا أن تُغْلَبوا علىٰ أمركم. والجملة مأخوذة من إحاطة العدو، فتُوُسِّعَ بها في الاستعمال.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أي: عَهْدَهم من الله حسبما أراده يعقوب منهم، يعني: عهداً مؤكَّداً بذكر الله وقَسَمِهِ؛ ﴿قَالَ﴾ يعقوب: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾، وهذه الجملة لتشديد الميثاق والحثِّ علىٰ مراعاته.

وبعد أن تمَّ الاتفاق أخذ يوصيهم بما يأتي: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟﴾ البلد ﴿مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾ مجتمعين ﴿وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾، قال المفسرون: خاف عليهم العَيْنَ لأنهم أبناء رجل واحد وموصوفون بالكمال.

أقول: وربما خاف عليهم حَسَدَ الناس لهم والإيقاع فيهم؛ إذ رأوا في المرة السابقة توجُّهَ العزيز إليهم وعنايتَه بهم، وتوفير الميرة لهم في تلك الأيام العصيبة، والشعب يَضِنُّ بميرته لا سيما أيام القحط، فقد خاف عليهم العين، ولكن من الرقابة لا من الإصابة، ومن الشَّغب عليهم لا من العَجَب منهم. والظاهر أنهم كانوا يبيعونَ أفراداً لا جماعات كإخوة يوسف، والله أعلم. أو خاف العيون والجواسيس أن يصفوا للملك دخولهم هذا بصورة تخشاه السياسة؛ لأن دخولهم مجتمعين وهم عُصبة، ويتَّصلونَ بالعزيز اتصالاً وثيقاً وهم من مملكة خارجة عن حدود مصر، فهذا أمر تَحسِبُ له السياسة حسابها. والغالب أن يكون خاف عليهم شرَّ المصريين؛ لأنهم لا يرضيهم امتيار الناس لأرزاقهم في مثل هذه السنين المُجْدبة السوداء، لا سيما إذا كانوا قافلة كبيرة، ومثل ذلك أمرٌ طبيعيٌّ وقت الغلاء، فحذَّرهم يعقوب عليه السلام من أن تَجْلب حالُهم سوءَ نظر المصريين وحَنَقَهم، وأمرهم أن يدخلوا متفرقين ليخفىٰ شأنهم.

ثم بيَّن لهم أنَّ ذلك ما هو إلا إرشادٌ وتوجيهٌ وأخذٌ بالأسباب والاحتياط، ولا عِلمَ له بالمقادير، فقال: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾ أي: إني لم أُوصِكم به لأدفع عنكم الضُّرَّ يقيناً، ولكنه مُعَاطاة الأسباب في الحذر والوقاية، وهكذا يجب أن يكون شأن طالب الحاجة؛ يتعاطى الأسبابَ الطبيعيةَ لذلك المطلوب، ثم يُفوَّض الأمر إلىٰ الله ويتوكَّل عليه. وهذا هو الموافق لِـمَا جاء عنه ﷺ من قوله لصاحب البعير: «اعْقِلْ وتوكَّل»[1].

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ فلا مانع ممَّا قدَّره وقضاه، ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ

---

(١) رواه ابن حبان (٧٣١) عن عمرو بن أمية بلفظ: «اعقلها وتوكل»، والحاكم (٣: ٧٢٢)، بلفظ: «قيِّدها وتوكل»، وقال الذهبي: سنده جيد.

﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ فهو يُوصيهم بالتوكُّل بعد الأخذ بالأسباب ومُعَاطاة ما يجب فيها. وذلك هو التوكل الصحيح، كما قال تعالىٰ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقد قرَّر سبحانه هذه الحقيقة وأثبتها بعد أن حكاها عن يعقوب عليه السلام، فقال: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ أي: من أبواب متفرِّقة ﴿مَّا كَانَ﴾ ذلك ﴿يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ وهي الحيطة والأخذ بالأسباب.

ثم أثنىٰ عليه في ذلك، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾، وهذا يدلُّ علىٰ أن مثل توصية يعقوب الاحتياطية مقبولة عند الله، إذ الاحتراس مشروع، كما فعل رسول الله ﷺ عند الهجرة، ومن ذلك أنَّ الأخذ بالأسباب واجب، وإرادةُ الله من وراء ذلك تفعل ما تشاء، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ نظامَ الله تعالىٰ في هذا الكون وسُنَنَه في خلقه، فلا يفهمون معنىٰ التوكُّل علىٰ الله، ويظنونه مجرَّد اتكال. فألمع سبحانه إلىٰ أنَّ تَعاطِيَ الأسباب علىٰ وَجْهِ الإتقان، ثم التوكُّل علىٰ الله بعد ذلك، هو الواجب المحتَّم علىٰ بني الإنسان[1].

---

(١) الأمور كلها أسباب ومُسبَّبات، ولا يمكن أن تُتَعاطىٰ الأسبابُ ولا تَنتُجَ المسبَّباتُ إلّا في الظاهر لا في الحقيقة؛ لأنه إذا تعاطيتَ الأسباب بزعمك أنها أسباب لكذا، وهي في الحقيقة ليست بالأسباب، لا تنتج النتيجة. وإن تعاطيتَ الأسباب بزعمك أنها كلُّ الأسباب، وهي ليست كذلك، لا تنتج النتيجة.

ومغزىٰ الآية: أن الأخذ بالأسباب الوقائية واجب، وإن كان ذلك الاحتياط لم يجز شيئاً في بعض الأمور، وذلك كأن يكون للخطر سبب آخر لم يخطر علىٰ بال المتقي، فينتج الخطر، ولكن يكون المتوقي معذوراً في هذه الحال، إذ قد اتقىٰ علىٰ قدر علمه ووُسْعِه، ولذلك مدحه علىٰ ما فعل. هذا ما أراه. والله أعلم. (المؤلف). =

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ۖ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

ثم حكىٰ ما كان من أمرهم بعد دخولهم مصر علىٰ يوسف عليه السلام، فقال: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ قيل: أفردَ كلَّ بني أم منهم إلىٰ حجرة، فبقي أخوه منفرداً، فضمَّه إليه. والقرآن طوىٰ صورة ذلك، علىٰ نهجه في الإيجاز، كما أجمل ما دار بينهم بقوله: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾، ويظهر من صورة الكلام وما تضمَّنه من تلطيف وتأنيس أنهما تَشَاكيا من إخوتهما، وأنَّ

= قلت: ولا يخفى أن ترتُّب المسبَّبات على الأسلوب ترتُّب بحسب السنة الإلهية في الخلق، وهو المُعبَّر عنه عند العلماء بالترتُّب العادي، أي: بحسب ما جرت به العادة، فعَدَمُ الإمكان المذكور في كلام المؤلف هنا: عادي لا عقلي، ولذلك جازت المعجزات والكرامات.

يوسف قال لأخيه بعد أن عرَّفه بنفسه ما معناه: أنَّ تلك المآسي قد انتهت، وبدَّل اللهُ الضيق باليُسْر، والشدَّة بالفرج والسَّعة، فلا تبتئس بما جرىٰ.

وتدابرا علىٰ إبقائه عنده، وكان من ذلك ما ذكره سبحانه بقوله: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ وهو ما جاؤوا لطلبه من الميرة، ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾، والظاهر من لفظ ﴿ٱلسِّقَايَةَ﴾ أنه إناء ثمين يُشرَبُ به في مجلس الملك. وما كان ليوسُف عليه السلام أن يفعل مثل هذا إلا بوحي أو إلهام، وهو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ...﴾ [يوسف: ٧٦].

ويجوز أنْ قد تمَّ ذلك بالاتفاق مع بنيامين، حيث أخذ هو السقاية بصُورة خفيَّة من مكانها ووضعها في رَحْله، وبهذا الاتفاق نَسَبَ الجَعْل إلىٰ يوسف، والله أعلم. ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ وقال الـجُبَّائيُّ: إنما قال ذلك بعضُ مَنْ فقد الصَّاع من قوم يوسف من غير أمره، ولم يعلم ما أمر به يوسف من جَعْل الصاع في رحالهم[1]. وقال أبو مسلم: بل إنَّ يوسف أمر المنادي بأن ينادي به، ولم يُرِدْ به سرقة الصاع، وإنما عنىٰ به: إنكم سرقتم يوسف، أي: أخفيتموه عن أبيه وألقيتموه في الجُب، فيكون من باب الإيهام والتعريض. وفي المعاريض مندوحة عن الكذب.

ويؤيِّد هذا الرأي أنه أتىٰ بالجملة الاسمية وباسم الفاعل الدال علىٰ الوصف، بدل الجملة الفعلية الدالة علىٰ الحدوث، ليتمَّ التعريض بفعلتهم في يوسُف؛ لأنَّ السرقة

---

(١) قال الجبائي ذلك ـ وهو من أئمة المعتزلة ـ فراراً من أن يكون يوسف عليه السلام هو قائل ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ أو الآمر به، لما فيه من نسبة النبي إلى الكذب، وهو غير جائز، لكنْ حَمْلُ ذلك على التورية أَوْلى، وحينئذ لا يمتنع أن يكون هو عليه السلام مَنْ أمر بذلك، كما سيأتي في قول أبي مسلم.

لغةً: التَّمويه والتَّخفية، يقال: سَرَقَ منه الشيء؛ إذا أخذه خُفْية أو بحيلة. وأخْذُ يوسُفَ من يعقوب عليهم السلام ـ وإن كان جهاراً في أول الأمر ـ فقد اقترن أخيراً بالتمويه والتخفية، وأُضْمِرَ في النفس من أول الأمر، فأُطلِقَ عليه لفظُ السرقة تعريضاً.

ثم ذكر ما كان من الإخوة لما سمعوا هذا النداء، بقوله: ﴿ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم ﴾ وهذه الجملة الحالية بيانٌ لاندهاشهم مما سمعوه، أي: قالوا وهم مُشْمَئِزُّونَ من إسناد السرقة إليهم: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾، والصُّواع لغة: هو الـجام الذي يشرب فيه، وهو اسم. والسقاية: وصف، كالكوب والمشربة. وهو غير الصَّاع بمعنىٰ المكيال.

ثم بيَّن الـجُعْل الذي جُعِلَ لمن يأتي به، تمكيناً للغرض، وحَمْلاً للأمر علىٰ الالتقاط دون السرقة المتقصِّدة، فقال: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ﴾ من عند نفسه مُظْهِراً إيَّاه قبل التفتيش ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ يكون جُعْلاً له، ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾ أي: كفيل. وهذه الجملة توثيق من المؤذِّن بإنجاز الجعل.

ثم ذكر ما كان من كلامهم تجاه ذلك النداء بقوله: ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم ﴾ من حُسْن سيرتنا وجَوْدة معاملتنا معكم واستطلاعكم أحوالَنا ومراقبتكم أعمالَنا ﴿مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾، وأتىٰ بنفي الشأن لأنه أبلغ من نفي الفعل، إذ هو نفيٌ للفعل بالدليل. والمعنىٰ: إننا لم نسرق؛ لأن ذلك ليس من شأننا. وقد استشهدوا علىٰ ذلك بعلمهم لأحوالهم العامة، وهو أكبر حُجَّة في صدق دعواهم. فالآية تدلُّ بنظمها علىٰ أن ذلك متحقِّق لديهم.

ولـما ادَّعوا براءتهم من تلك التهمة، ﴿قَالُوا۟﴾ لـهم: ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ﴾ قال ابن عباس: كانوا يستعبدون كل سارق بسرقته[1]، يعني: الكنعانيين، وهم على شرع يعقوب وإبراهيم عليهما السلام. وقيل: بل كانت شريعتهم أن يُسترقَّ السارقُ مُدَّةً تُقدَّرُ على قدر سرقته. فالمعنى: إنَّ جزاء من وُجد الصواع في رَحْله أن يُؤْخذَ عبداً. وقولهم: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ تقريرٌ لذلك الحكم، مؤكَّدٌ بقولهم: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٥﴾ بالسرقة. وقيل: إنَّ هذه الفاصلة حكاية لكلام يوسف بعد أن سمع منهم ذلك الحكم، فكأنهم اتَّفقوا عليه جميعاً.

ومن تتمة الكيد ما ذكره سبحانه عنه بقوله: ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ نفياً للتهمة وتمكيناً للتدبير، ﴿ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾، وتأنيثُ الضمير باعتبار «السقاية»، وحيث ذكَّره أراد «الصُّواع»، قالوا: فأقبلوا على أخيهم، وقالوا له: فضحتنا. فقال: إنما وضعه في رَحْلي الذي وضع بضاعتكم في رحالكم، إنَّ بضاعتكم وُضِعَت في رحالكم وما دَرَيتُم إلا بعد أن عثرتُم عليها. وفي هذا الكلام تورية وابتعاد عن الكذب. والفعل يطلق على الأمر به والاتفاق عليه.

ثم بيَّن سبحانه وتعالى تبرير موقف يوسف عليه السلام في هذه الأعمال بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾ أي: هكذا ألهمناه الكَيْدَ وأمرناه به، وما فعله من نفسه، ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾، لأنَّ حكم السارق في قوانين مصر الضرب والضمان، لا الاسترقاق والاستخدام، فالتزم حكمَهم هذا الذي جرى على لسانهم، مبالغةً في نفي السرقة عن أنفسهم، وعَمِلَ به، ودخل في جملة الكيد، لأنه لولا هذا السبب والتدبير الخفي لَـمَا تهيَّأ له أخذه. وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ يعني: أن ذلك الأمر كان بمشيئة الله وتدبيره؛ لأنَّ ذلك كلَّه كان إلهاماً

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (١٨: ٤٨٨).

من الله ليوسُف وإخوته حتىٰ جَرَىٰ الأمر علىٰ وَفْق المراد. والمعنىٰ: أنه ما كان ليأخذه إلا بمشيئة الله وإرادته إذ أوحىٰ له بذلك.

ثم نوَّه بشأن يوسف عليه السلام ضمن هذا التَّمنُّن العام، دفعاً لاعتراض المعترض علىٰ بعض هذه الأعمال، فقال: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ في العلم والحكمة والتدبير ووحي الإلهام ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾، فأوقفَتْ هذه الجملةُ المُعتَرِضَ علىٰ بعض تصرُّفات يوسُف عليه السلام عند حدِّه، وأفهَمَتْهُ أنَّ اعتراضَه إنما هو من نقص معلوماته، ولا سيما في خفايا الأمور. كما جاء مثل ذلك في حكاية أمر موسىٰ عليه السلام مع من آتاه الله من لَدُنْه علماً، حيث خَرَق السفينة وقَتَل الغلام، وقال لموسىٰ حين اعترض عليه: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىٰ ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢]. والله أعلم.

ولـمّا رأوا السقاية تُستَخرَجُ من رَحْل أخيهم ﴿قَالُوٓا۟﴾ بتأثُّر وانفعال مُؤْلم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾، يعنون: يوسُف عليه السلام. قال سفيان ابن عيينة[1] ومجاهد: إنهم يعتقدون أنه في صغره سَرَق عناقاً أو دجاجة، وأعطاها إلىٰ سائل، فهم يُعرِّضون بها، ولم يعلموا أنَّ ذلك الإعطاء كان بإذنٍ من أبيه. ويجوز أن تكون سرقةَ صبيٍّ تافهة لا يُدرِكُ للسرقة معنىٰ، يسرقها من أهله ليعبثَ بها، أو من بعض إخوته أو أقرانه ليلعب بها، أو يأخذها خِلسةً ليساعد بها فقيراً، أو يظن ذلك أجراً. ويكثر مثل هذا في الصِّغَر وحداثة السن بدافع بساطة المنطق، ولا تُعدُّ هذه تَبِعةً ولا معياراً له في الكبر، ولكنهم بَدَرَت منهم بدافع الثأر من جُرْم أخيه المبني علىٰ ظاهر الأمر.

---

(١) هو الهلالي أبو محمد سفيان بن عيينة بن ميمون (١٠٧-١٩٨هـ)، محدّث الحرم المكي، من الموالي، كان حافظاً ثقة واسع العلم كبير القدر. «الأعلام» للزركلي (٣: ١٠٥).

ولذلك عرَّض يوسفُ بردِّها وتوهيتها، كما حكىٰ عنه سبحانه بقوله: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أي: أسرَّ يوسُف هذه الوَصْمة التي وَصَمُوه بها، ولم يُجادلهم عنها ويكشف لهم عن حقيقة أمرها، لأنه لا يريد أن يكشف لهم أمْرَه الآن، إذ لم يَحِنِ الأجلُ بعدُ، واكتفىٰ بأن ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾، والمراد من إثبات الشر لمكانهم إثباته لأنفسهم، علىٰ طريقة المجاز المرسل، أي: أنتم من شرِّ الأماكن ومن شرِّ الناس.

وهذا الرد من أعلىٰ الكلام بلاغةً وألطفِها توريةً وتلويحاً، فظاهره احتقار وتهجين لهم، حيث كان منهم سُرّاق، وباطِنُهُ ردٌّ عليهم وتقريعٌ لهم، إذ يتهمون يوسف بالسرقة المزعومة، ولم ينظروا ما كان من أفعالهم الأليمة ومكائدهم الجسيمة. وكذلك قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾؛ فإنَّ ظاهرَه تَنَصُّلٌ من تسليمه لهم في دَعْواهم هذه المجرَّدة عن الدليل، واتهامهم للغير بلا إثبات ولا تفكير، فلا يُريد أن يُسلِّم لهم بذلك ويُصدِّقهم به، وقوفاً عند النزاهة من التُّهَم، وباطِنَه: دَفْعُ ما اتَّهموه به من السرقة، وإنكارٌ عليهم مُسْتَنِدٌ بعلم الله.

وبعد هذا التعريض والإيلام، مالوا إلىٰ الاستعطاف والاسترحام، و﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ رقيقاً، فإن أباه ثكلان علىٰ أخيه الهالك، مُتَسَلٍّ به عنه، ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾؛ فأحسِنْ علينا بهذا الاستبدال.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾، ولم يقل: «مَنْ سَرَق»؛ تَحرُّزاً من الكذب. والمراد: أنَّ الله سبحانه قد أذِنَ في أخذِ مَن وجدنا الصُّواع في رحاله، فكيف نأخذ غيره ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾، وفي هذا الجواب تيئيسٌ لهم من هذا الرجاء والاستعطاف.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُّمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ أي: انعزلوا مُتناجين لحلِّ هذه المشكلة العويصة وتدبيرها، وهذه العبارة من أبلغ عبارات الإعجاز والإيجاز في الغرض الذي قُصِدَ بها. والمعنىٰ: فلما يئس إخوة يوسُف من العزيز أن يجيبهم إلىٰ ما استعطفوه إليه من تخلية أخيهم، انفردوا وانعزلوا عن الناس متذاكرين متناجين.

ثم فصَّل صورة المشاورة بقوله: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ مُذكِّراً إياهم ومُسْتفزاً شعورهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لتأتُنَّه به إلا أن يُحاط بكم. ثم زادهم استفزازاً وإغراء بقوله: ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُّمْ فِى يُوسُفَ﴾، و﴿مَا﴾ مصدرية، ومحلُّ المصدر: العطفُ علىٰ مفعول ﴿تَعْلَمُوٓا۟﴾، والمعنىٰ: وتعلمون من قبل هذا ما فعلتُم بيوسف، ولم تحفظوا عَهْدَ أبيكم فيه، وكنتم قد قلتم كذلك فيه: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ [يوسف: ١١]، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢]، فكيف يقنع منا بما نقوله عن هذه الحادثة؟

وبعد هذا الاستفزاز المضاعف، بيَّن لهم ما عَزَمَ عليه بنتيجة هذا الشعور وقال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: لن أُفارق أرض مصر ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ بما يكون عُذْراً مقبولاً، أي: بأن يقضي ما هو قاض، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ فلا يكون حكمُه إلا بالحقِّ.

ثم طلب منهم أن يتركوه وحده في مصر يعالج القضية، ويذهبوا إلىٰ أبيهم بالميرة، ويقصُّوا عليه القصة. ولقَّنهم صورة البيان، فقال: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ من ظاهر الحال واستخراج الصُّواع من الوعاء.

ثم بالغ في الاحتراس وتحرِّي الصدق، فقال: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾، فما ندري؛ أحقيقة الحال كما شاهدنا، أم في القضية أمر مستور، لا نعرف كُنْهَه؟

ثم زاد توثيقاً بقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ يعني: مصر وأهلها؛ لأن الخبر قد شاع وذاع وملأ الأسماع، ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ لأن الأمر علىٰ ما ذكرناه قد شاع وذاع، ثم بالغ في التوثيق بقوله: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾، والصدق هنا: مطابقة القول للاعتقاد، لا الواقع.

﴿قَالَ﴾ يعقوب عليه السلام: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، قال المفسِّرون: ليس المراد من التَّسْويل هنا: الكذب والاحتيال، كما في واقعة يوسُف عليه السلام، ولكنه عنىٰ به هنا إخراجهم له إلىٰ مصر طلباً للمنفعة، فكان ما كان. أو عنىٰ به: بل خَيَّلَتْ لكم أنفُسُكم أنه سَرَق وما سَرَق، إذ إنَّ الحقيقة ليست كما عرفتم، ولاختلاف معنىٰ التسويل في الموقفين عقَّبه في حادثة يوسف بقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، وعقَّبه هنا بقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾، يعني: يوسُف وأخاه وكبيرَهم الذي تخلَّف. وهذا التعبير مُشْبَع بالأمل والحدس الدقيق؛ إذ لاح له وأحسَّ أنَّ يوسُفَ بَطَلُ هذه القصة والتدبير.

ثم ختم الكلام بما يُقرِّر الصبر والرجاء، فقال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالي وحالهم، ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ فيما يبتلي ويثيب.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

ثم قصَّ سبحانه وتعالىٰ ما كان من شأن يعقوب بعد ذلك، فقال: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ كراهةً لما صادفه منهم. وبما أن الأسىٰ يبعث الأسىٰ، أثارت هذه الحادثة في قلبه حادثة يوسف أيضاً، فازدوج الحزن عليه، عاد عليه حزن يوسف جَذَعاً، ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، وهذه الجملة تُنْبئ عن شدَّة حُزنه وتواصُلِه، ولذلك أردفها بقوله: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾، وهذا بيانُ حال من أحواله، لا أنه حالٌ كان بعد هذا الحادث، والله أعلم.

ثم مدحه سبحانه وأظهَرَ رضاه عنه بقوله: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ يكتم الحزن ويُخفيه.

ثم ذكر ما كان من أولاده تجاه ما شاهدوه من حاله، فقال: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي: لا تزال تذكر يوسف، ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي: مُضْنىٰ بالياً، ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾ وهذا الإنكار مطويّ علىٰ الشفقة عليه، وعلىٰ اليأس من يوسُف.

فردَّه عليهم، و﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾: يريد صدق رُؤْيا يوسف وتأويلها، وانضمَّ إلىٰ ذلك ما انتبه إليه من طلب مَلِك مصرَ لأخيهم بقوله: ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف ٥٩] ومن حبسه له. إذ أدرك أنَّ في الأمر شيئاً من قضية يوسف.

لذلك أمرهم بقوله: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ﴾، وهو الراحة والفرج بعد الشدة، ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ لجهلهم بأحوال الله وصفاته. والذي يظهر أنَّ يوسفَ إنما كتم خبره عنهم وعن أبيه، بوحي من الله أو إلهام. والله أعلم.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾.

ولما أمرهم أبوهم بالتَّحسُّس عن يوسُفَ وأخيه عادوا إلىٰ مصر، وقصَّ علينا القرآن ما كان بينهم وبين العزيز في هذه المرَّة، وكيف صَدَقت فِراسة أبيهم في ذلك، فقال: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ ﴾ أي: علىٰ العزيز ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ ﴾ أي: رديئة لا تُقبَل، يزجيها ويدفعها من تُعرَضُ عليه. فهم يعتذرون عن رداءتها ويهزُّون منه مَبْعَثَ الرحمة والرأفة، أي: إننا محتاجون إلىٰ العطف والإحسان،

﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ ولا تنظر إلىٰ رداءة بضاعتنا، ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾، فهيَّج ذلك فيه منتهىٰ الشفقة والعطف، وبدأ بافتتاح التعارف علىٰ ألطف وجهٍ وألينِه، وهذا هو مبدأ الفصل السادس.

وقيل: إن يعقوب عليه السلام كتب للعزيز كتاباً، فلما قرأه بكىٰ، ثم أقبل عليهم و﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾، قال ابن عباس: يريد: عندما كنتم صبياناً.

أقول: وهذا يجري مجرىٰ العذر لهم، أي: إنما أقدمتُم علىٰ ذلك حال كونكم صبياناً لا دراية لكم كاملة، فافتتح التعارف معهم بلطيف العتاب، كما هو شأنُ الأنبياء. وإنما لم يذكر أباه يعقوب في صورة العتاب، وخصَّ العتاب له ولأخيه، مع عظم مصيبة يعقوب بيوسف وشدَّة غمِّه لفراقه، تعظيماً له ورَفْعاً من قَدْره، وعلماً منه بأن ذلك كان بلاء له ليزداد به عُلواً في الدرجة، ورفْعةً في المنزلة عند الله.

وهذه الآية هي مصداق قوله تعالىٰ: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥]، والظاهر أنه اعتبر التنبؤ من أول اتصالهم بيوسف، حيث قال تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨].

ثم حكىٰ ما قالوه عند سماعهم لهذا العتاب المُنمِّ عن قائله فقال: ﴿قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾؟! وهذه الجملة الاستفهامية المؤكَّدة بعدَّة مؤكِّدات هي التي أفادت أنواعاً عديدة من الإحساسات، فهي من البلاغة بمكان، شرحت الموقف شرحاً دقيقاً، مُزِجَ فيه التقريرُ والدهشة مع استفهام الاستغراب والاستعظام؛ إذ ما كانوا يظنون أنه يصبح عزيز مصر بهذه العظمة البالغة، وهذا الشأن الرفيع، لذلك ﴿قَالَ﴾ لهم مبالغاً في تعريف نفسه وتفخيم شأن أخيه وشكره الله علىٰ نِعَمِهِ فيهما: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ بالاجتماع بعد الفُرقة، والعِزَّة بعد الذِّلة.

ثم علّل ذلك بهذا التعليل العام فقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾، وإنما وضع المُظهَرَ موضع المُضْمَرِ تنبيهاً علىٰ أنَّ المنعوتين بالتقوىٰ والصبر موصوفون بالإحسان.

ولما كان كلامه ينطوي علىٰ التعريض بهم والتأنيب لهم، أجابوه بما يتضمَّن التسليم والاعتذار و﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: اختارك وفضَّلك علينا، وذلك بما ذكرت من النعوت الجليلة، ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾ فيما فعلنا معك، وهذا اعترافٌ منهم بأنَّ الله نصيرُ المظلومين، يُؤثِرُهم بفَضْله علىٰ الظالمين، وتأنيبٌ من نفوسهم لنفوسهم، حتىٰ إنك لتلمس منه خَجَلَهم لمساً.

ولذلك تلطَّف بهم، وردَّ عليهم بما يقتضيه مقام النبوة من العفو والسماح، و﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: لا توبيخ ولا عتاب. والجملة خبرية أُريدَ بها إنشاءُ العفوِ والسَّماح، وهذا شأنُ الأنبياء عليهم الصَّلاة والسلام إذا ظفروا بمَنْ عاداهم وتمكَّنوا منه، كما فعل ﷺ بأهل مكة بعد الفتح، فقد عَفَا عنهم، وقال: «اذهبوا، أنتم الطلقاء»[1]، مع أنهم كانوا قد سلكوا في إيذائه ومقاومته أنواع المسالك. وهكذا تكون النفوس العظيمة والأرواح الطيبة، إذا ظفرت بمَنْ عاداها أو آذاها.

وإن يوسف عليه السلام لم يكتف بالعفو عن إخوته، بل أضاف إليه الدعاء لهم بالمغفرة، فقال: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾، وهذا غايةُ ما يكون من عُلوِّ النفس وطيب الروح وكمالها.

وعندما انتهىٰ دَوْرُ الابتلاء، أراد الله سبحانه لهم اللقاء، فأمرهم بما أمره الله به،

---

(١) رواه البيهقي (٩: ١١٨)، عن أبي هريرة.

وقال: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

ثم أخذ سبحانه يقصُّ ما كان من أمر يعقوب مع مَنْ حضره من أهله وما كان من حسِّياته، فقال: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾[1] أي: لما خرجت القافلة وانفصلت عن مصر مُتوجِّهةً نحو الشام ومعها حامل القميص، ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ لمن عنده من أهله: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾، قال الحسن وقتادة: لولا أن تقولوا: إنه شيخ قد هَرِم وخرف[2]. فالمعنىٰ: لولا أن تُهرِّموني وتُخرِّفوني. وهذه معجزة منه، ولطف من الله به.

وكم لله مِن لُطفٍ خفيّ ... يدقُّ خفاهُ عن فَهْم الذكيّ[3]

ولكنهم فنَّدوه و﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ أي: لفي ذهابك عن الصَّواب الذي فيك من القديم في حُبِّ يوسُف والاعتقاد بعودته! يقولون ذلك له إشفاقاً عليه.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾[4] بالقميص، ﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي: وَجْه يعقوب، أو ألقاه يعقوب علىٰ وجه نفسه، ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ وشتّان بين القميصين، وحينئذٍ ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾، يريد تصديق رؤيا يوسف، وأنها حقٌّ لا بدَّ من تأويلها علىٰ الشكل الذي رأىٰ.

---

(١) العير: القافلة تحمل الميرة، سواء كانت جمالاً وبغالاً، أو حميراً، أو خليطاً منها.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦: ٢٥٥).

(٣) البيت نسب للإمام علي كرم الله وجهه وهو في ديوانه (١: ١٨٣).

(٤) إذا توسَّطت «أنْ» بين «لـمّا» والفعل دلَّت علىٰ أنَّ الفعل فيه تراخٍ. (المؤلف).

ولما رأوا ذلك وتحسَّسوا بمَعْزاه ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾، وحَرْفُ التنفيس[1] للإشعار بالدوام علىٰ الاستغفار لهم.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

ثم جاء الفصل السابع من القصَّة، ويبتدئ بوصول يعقوب وآله إلىٰ مصر، وقد حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ تكريماً وشوقاً. وأكثر المفسرين علىٰ أنَّ التي كانت مع أبيه هي خالته وليست أمه؛ لأنها قد ماتت، والتجوُّز بمثل هذا من خصائص اللغة، ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ لأنهم كانوا قبل هذا يخافون ملوك مصر ولا يأمنونهم. وهذا من التحدُّث بالنعمة. ويجوز أن يتَّحِدَ مرمىٰ هذه الآية مع مرمىٰ يعقوب عليه السلام حين أوصىٰ أولاده أن يدخلوا من أبواب متفرِّقة، والله أعلم.

وعلىٰ كلٍّ فهي مؤيِّدة لِـمَا ذكرتُ في معنىٰ تلك الآية.

ثم بيَّن تعالىٰ كيف حَيَّوْا يوسفَ تحيَّة الملوك بالانحناء، وكان ذلك مصداقاً للرؤيا، فقال: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ تكريماً لهما، ﴿وَخَرُّوا۟﴾ أي: الأبوان والأولاد ﴿لَهُۥ

---

(١) يعني: «سوف».

﴿سُجَّدًا﴾ بالانحناء أداءً لتحية الملوك، ﴿وَقَالَ﴾ يوسف: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَايَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا﴾، حيث تَأوَّلَتْ بسجود الإخوة والأبَوْين، يُذكِّر أباه بهذه النتيجة اللامعة، ويُضَمِّنُ ذلك شكرَ الله عليها.

ثم تابع التحدُّث بالنعمة بقوله: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾[1] أي: البادية، ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي: أفسد ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ أي: يدبِّر ما يُريده بما يَدِقُّ أمره عن فهم البشر. يريد: ما جرىٰ له في حياته من المقدِّمات المُحرِقة لتكون هذه النتيجةُ المُشرِقة، ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿هُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بوجوه المصالح والتدابير، ﴿ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾ الذي يفعل الأشياء علىٰ ما تقتضيه الحكمة البالغة والمصلحة العامَّة النافعة التي يَقْصُرُ عنها فَهْمُ البشر، ولله في خلقه شؤون.

ثم أثنىٰ علىٰ الله تعالىٰ بما أنعم عليه من هذه النِّعَم الجليلة، وتضرَّع إليه تعالىٰ أن يُديمَها له، وأن يتولاه في الدنيا والأخرىٰ، فقال: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾، والـمُلْك: عبارة عن الاتِّساع في المقدرة لمن له السياسة والتدابير، فيشمل وظيفة الوزير. وتأويلُ الأحاديث أعمُّ من تعبير الرؤيا، من كلِّ ما يُوحي به إليه أو يُلهِمُه إياه.

ثم ذكر من صفات القدرة والحكمة ما يتناسب مع ذلك الامتنان، فقال: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: مُبدِعَها وخالقها، ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ أي: أنت الذي تـتولاني، فوفِّقني لطاعتك والانقياد لك حتىٰ الموت.

---

(١) وهذا يدلُّ علىٰ أنهم كانوا من أهل البادية، لا من أهل الحضر. (المؤلف).

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

ثم ختم القصة بالتنبيه إلىٰ مكانة ما سبق من العلم والهداية، مُعلِّقاً بها يُعلَّقُ به علىٰ أمثالها من القصص في أنها من عند الله؛ لأنها تتناول أموراً بعيدةً عن النظر، خفيَّةً علىٰ البشر، وتاريخاً صحيحاً مجهولاً لأرباب الخبر، يرمي بذلك إلىٰ أنَّ القرآن من عند الله؛ لاشتماله علىٰ دقائق الأنباء وخفايا الأمور، فقال مخاطباً النبي ﷺ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ وهذا مِصداقُ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

ثم تهكَّم بالمعارضين لنبوَّته والمنكرين لها وللقرآن، وأنه من عند الله، تهكَّم عليهم بنفي مشاهدته ﷺ لمؤامرة الإخوة في يوسُف حين أجمعوا أن يجعلوه في غَيَابة الجُبّ، إلماعاً إلىٰ أنَّ هذا الخبر لا يمكنه أن يعرفه علىٰ هذا الوجه الصحيح، لولا إيحاء الله به إليه، فقال: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾، يعني: إخوةَ يوسف حين دبَّروا له المكيدة، والمعنىٰ: أنَّىٰ لك ذلك لو لم يُوحِهِ الله إليك؟

ثم أتىٰ بما فيه تسليةٌ له ﷺ عن إعراض المشركين وعدم إيمانهم مع هذه البراهين، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ رُغماً عن هذه العِبَر والبراهين؛ لأنهم أفسدوا طبائعَهم، ففقدت الاستعدادَ للنظر والاستدلال، فَضْلاً عن السَّداد في الرأي وصحة العقيدة.

ثم ذكَّرهم بملاحظة أخرىٰ علىٰ صحَّة دعواه للنبوَّة، يُبرهن بها القرآن كثيراً في هذا الباب، فقال: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: علىٰ هذا القرآن وتبليغك لهم إياه ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾، فيتَّهموك بأنك تُريد من وراء دَعوىٰ النبوَّة غَرَضاً ذاتياً ومصلحةً شخصية، كلا، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ من الله ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾؛ يذكِّرهم به ويهديهم إلىٰ ما تكمل به فطرتُهم، ويتمّ به نظام اجتماعهم، ويعود عليهم بخير الدنيا والآخرة.

ثم نعىٰ عليهم غفلتَهم عن كَثْرة الآيات الكونية الدالة علىٰ صدق ما يدعو إليه من وحدانية الله، فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تدلُّ بوضوح علىٰ وحدانية الله سبحانه، ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ أي: لا ينتبهون لها، بل يمرُّون عليها مرور البهائم والأنعام في مسارحها.

ثم أردف الكلام بهذا النَّعْي والتشنيع العام، يردُّ به علىٰ دَعوىٰ كثير من المشركين بأنه يؤمن بالله خالق السماوات والأرضين، فقال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ في إقرارهم بوجوده ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ باتِّخاذِ الوسطاء والشركاء، وبمراعاة غير الله معه في بعض الأمور كالرياء.

وهذا يشمل بعمومه مَنْ لا يُخلِصُ العمل لله، ومَنْ يتَّخذ الأنبياء والصُّلحاء وُسَطاءَ له عند الله. والله أعلم.

وبعد أن ندَّد بهم علىٰ إعراضهم عمَّا جاءهم من الحق، توعَّدهم علىٰ ذلك فقال: ﴿أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي: عذابٌ من الله يَغْشَاهم فيُفنيهم عن آخِرهم، ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ فيَلقَوْنَ حسابهم في الآخرة، ويُجزَوْن الجزاء الأليم. وهذا الوصف للساعة نقضٌ لإنكارهم لها واستبعادهم صحّتها.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

وبعد تأنيبهم عن الإعراض عمَّا جاءهم به من الحق، وتوَعُّدِهم على ذلك؛ أمره أن يُوضِّح لهم الطريقة التي يدعوهم إليها؛ إذ قد تهيَّأت نفوسهم، وعلىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد بالإرشاد، فقال: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ وهي الدعوة إلىٰ التوحيد والإيمان بإخلاص، كما فسَّرها بقوله: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي: علىٰ بيانٍ وحُجَّةٍ واضحة ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ قل: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ أي: أُنزِّهه عن الشُّركاء.

ثم ردَّ عليهم إنكارَهم أن يقوم رجلٌ منهم فيدَّعي أنه مُرسَلٌ إليهم من الله، مُبيِّناً أنه تعالىٰ لم يرسل رسلاً إلىٰ البشر إلا من البشر، فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾، وهذا القيد للتمكين والتقرير.

ثم لفت نظرهم إلىٰ سُنَّة الله في المكذِّبين، تهديداً لهم، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من المكذِّبين بالرسل والآيات، فيحذروا تكذيبك.

ثم أردف الترهيب بالترغيب، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾، وهذه للمبالغة في الحث.

ثم تابع الكلام عن إرسال الرسل، وبيَّن سبحانه سُنَّته الكونيَّة في نصرهم بعد بُطءٍ وابتلاء، زيادةً في تسليته ﷺ وتثبيته، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾، ويجوز أن تكون هذه الجملة غايةً لمحذوف دلَّ عليه السياق، علىٰ نهج القرآن في مثله، أي: لا يغرنَّهم تماديهم فيما هم فيه من الدَّعة والرخاء، فإنَّ مَنْ قبلهم قد أُمْهِلُوا حتىٰ أيِسَ الرسل من النصر عليهم في الدنيا، أو غايةً لمضمون قوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩]، أي: أُمهِلوا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ [يوسف: ١١٠]، ويكون ما بينهما اعتراض.

وليست هذه الجملة إلا تصويراً مجرداً لبطء النصر وتأخيره إلىٰ أجله الذي تتكامل فيه الأسباب، حسب حكمة الله في سُننه الكونية، إذ الرسل لا تيأس من رَوْح الله. أو المعنىٰ: حتىٰ أيس الرسل من إيمانهم لانهماكهم في الكفر وتماديهم في الطغيان.

وقولُه: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ تأكيدٌ لمضمون الجملة السابقة؛ إذ هي في معناها وعلىٰ وتيرتها، وتمثيلٌ للدرجة القُصوىٰ من اليأس من إيمان قومهم بهم. أو المعنىٰ: ظنَّ الأمم أنَّ الرسل كذَبوهم فيما أخبروهم به من نصر الله إيَّاهم. ورُوِيَ هذا المعنىٰ عن كثير من مفسِّري السلف، فيكون الضمير في «ظنُّوا» عائداً إلىٰ ما هو مفهوم من السياق وذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن، (كما جاء في الفقرة (د) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية). واختار هذا الرأي أبو مسلم.

وروي عن عائشة رضي الله عنها: أن المعنىٰ: خاف الأنبياء من أن يكذِّبهم الذين كانوا قد آمنوا بهم. وقد استحسن هذا الرأيَ الفخرُ الرازي[1].

أقول: ويجوز أن يكون هذا الكلام تمثيلاً وتصويراً للهواجس النفسيَّة في استبطاء

---

(١) ينظر «تفسير الرازي» (١٣: ١٧٣).

النصر لتراخيه. والمراد به: تصوير المبالغة في التراخي، لا حقيقة معناه، والله أعلم. أي: حتىٰ إذا كان الأمر كذلك ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ أي: النبيُّ والمؤمنون، وإنما لم يُعيِّنهم اكتفاءً بذكر المجرمين، حيث قال: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾.

ثم ختم السورة بما يحثُّ علىٰ إدراك ما سبق فيها من العِبَر، والاتِّعاظ بها، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾؛ إذ قد تبيَّن منه أنَّ لله تعالىٰ نِعَماً عظيمة تحت طيَّات مصاعب جسيمة، ونتائج مُشرِقة من مقدِّمات مُحرِقة، وأنَّ عباد الله المُخْلَصين لا تُغْريهم المُغْريات، ولا تعصف بهم عواصفُ النفوس والشهوات، بل يقفون عند حدود الله وبراهينه وقوفَ تعظيمٍ وإجلال، ويتحمَّلون أعظم المشقَّات في سبيل رضا الكبير المتعال، وهذه الصفات هي من العِبَر والآيات التي أشار إليها في أول السورة.

والذي أراه من خواتم هذه السورة: إنذار الرسول بأن خاتمتك تكون كخاتمة أمر يعقوب، وتكون نهاية العسر يسراً، والله أعلم.

ثم نبَّه إلىٰ ما في ذلك من الدلالة علىٰ أنَّ هذا القرآن مُنزَّل من عند الله، ونوَّه بشأنه؛ حَمْلاً علىٰ التمسُّك به، وعرَّض بالمكذبين به من المشركين والجاحدين، فقال: ﴿مَا كَانَ﴾ هذا القرآن الذي فيه تلك القصص والعِبَر ﴿حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السماوية، ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يحتاجه البشر في إصلاح نفسه، وتنظيم أحواله، في دنياه وآخرته، مما لا يهتدي إليه عقله أبداً، أو يهتدي إلىٰ بعضها بعد جهد جهيد، فكان أعظَمَ خير للناس، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾، لأنَّ الإيمانَ الصحيح يُدرِّب صاحبَه علىٰ استقلال الفكر، والنظر الصحيح، والتمييز بين الخطأ والصواب، والحقِّ والباطل، والعظيم والتافه. لذلك كان المؤمنون حقاً هم الذين يهتدون بهذا القرآن.



وقد اختلفوا في أنها مكية أو مدنية، كلَّها أو بعضَها

وهي ثلاث وأربعون آية.

والغرض منها كما في التي قبلها:

إثبات نزول القرآن، وقد ذكر فيها شبهتَيْن لهم عليه وأبطلهما.

وكان يتخلل إثباتَ نزول القرآن الاستطرادُ إلىٰ التوحيد وإلىٰ الوعد والوعيد.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓرٰ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿الٓمٓرٰ﴾ مرَّ الكلام علىٰ الحروف التي تُبتدأُ بها بعض السور في أول سورة البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لتنبيه الفكر إلىٰ ما يأتي بعدها اهتماماً به. ومنه هنا قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، والإشارة بـ﴿تِلْكَ﴾ إنما هي إلىٰ ما يُتلىٰ من آيات هذه السورة، علىٰ وجه التفخيم والتعظيم؛ لأي: تلك الآيات هي آيات هذا الكتاب العظيم الفخيم، ﴿وَٱلَّذِىٓ﴾ قد ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ هو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ بذلك الحق المبين. وهذا من أشدِّ أساليب التقريع والتأنيب.

ثم ذكر أهمَّ ما جاء في هذا الكتاب، وهو الدعوة إلىٰ التوحيد، ببيان اختصاص الله تعالىٰ بأفعال الألوهية والربوبية وصفاتها فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾، والعَمَد: السواري والدعائم، مُفرَدُه: عمود، وقد قيل في هذا الوصف قولان؛ أحدهما:

إن معناه: خَلَقَ السماواتِ بغير عمد، وأنتم ترونها كذلك. وهذا المعنىٰ مرويٌّ عن ابن عباس والحسن وقتادة[١] والجُبَّائي وأبي مسلم. والثاني: أن يكون ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ من نعت العمد، فيكون المعنىٰ: بغير عمد مرئيَّة. وروي هذا عن ابن عباس أيضاً ومجاهد[٢].

أقول: والمراد من السماوات طبقاتُ النجوم، أو النجوم نفسُها[٣]، مِنْ ذِكْرِ الكل وإرادة الجزء، أو المحل وإرادة الحالّ. والمراد من العَمَد غير المرئية: الجاذبية العامَّة التي بها تتماسك النجوم في هذا الفضاء. والله أعلم.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، وكلمة: ﴿ثُمَّ﴾ لإفادة عَظَمة المعطوف، أي: لإفادة أنَّ ما بعدها عمل مهم عظيم، أو لتراخيه وتعاليه في الرُّتْبة عما قبله، أو هي لمجرَّد عطف الخبر من دون ملاحظة الترتيب. وكلا هذين المعنيين هما من خصائص اللغة وأساليب القرآن. وهذا الوصف وأمثالُه في ذات الله تعالىٰ وصفٌ مجازيٌّ يُعبِّر به القرآن عن تحقُّق الوجود والثبوت لله تعالىٰ في الأذهان بصورة تتناسب مع تصوُّرات الإنسان.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦: ٣٢٥).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٢٠٨٩، ١٢٠٩٠).

(٣) السماوات أعظم من هذه النجوم، فالمجموعة الشمسيَّة واحدة من ملايين المجموعات تحتويها المجرَّة التي نحن جزء منها، وهذه المجرَّة واحدة من ملايين المجرات الأخرى. فالسماوات هي هذا الكون العلوي من فوقنا لا نعرف منه إلا القليل، وما نعرفه من الكواكب والنجوم التي تصل إلينا أشعتها بعد ملايين السنين ـ كما يقول الفلكيون ـ هي تحت السماء الدنيا، لأن الله جعلها زينة للسماء الدنيا كما في سورة فصلت: ١٢، والصافات: ٦ و٧. فتفسير السماوات بالكواكب السيَّارة المرتبطة بمجموعتنا الشمسية ـ كما ذهب إليه المفسِّر، ومن قبله: القاسمي في «محاسن التأويل»، وعبد القادر المغربي في «تفسيره جزء تبارك» ـ خطأ، والصحيح أن النجوم وطبقاتِها كلّها من السماء الدنيا، وفوقها سائر السماوات. وقد تقدَّم مراراً التنبيه على خطأ المؤلف في تأويل السماء بالنجوم أوطبقات النجوم.

ويجوز أن تكون هذه العبارة مستعارة من صفة المخاطبين في مثل هذا الشأن، دالة علىٰ معنىٰ التدبير والسلطان، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة في مجازات القرآن)؛ لأنه سبحانه وتعالىٰ يُخاطِبُ الناس في تعريف ذاته وصفاته بما اعتادوا أن يعرفوه في ملوكهم وعظمائهم، تقريباً للأذهان. وهذا المعنىٰ لم يتحقَّق إلا بعد إيجاده سبحانه لهذا الكون، إذ كان قبل ذلك عَرْشُه علىٰ الماء، وهو: السَّديم الذي تكوَّنت منه السماء. والله أعلم.

أو يقال: العرش في اللغة: البناء، أو المبني، كما حقَّقنا ذلك في مثل هذه الآية في أول سورة هود[1]. والمراد: إشرافه تعالىٰ علىٰ هذا الكون الذي بناه، وتدبيره لشؤونه، وسيطرته عليه، يكنىٰ بذلك عن سَيْره دائباً في نظامه المتقن من دون خلل ولا تعطيل، ولذلك عطف عليه أو علىٰ رفع السماوات قوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يكون فيه نهاية هذا الكون. والمراد من التسخير: ما وضعه لهما من النظام الذي منه تعاقُبُ الليلِ والنهار واختلافُهما طولاً وقِصراً.

ثم أجمل المعنىٰ المراد من الاستواء والتسخير بقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾، ويجوز أن يُراد بالآيات هنا: الكونية، وهو الأنسب بالسياق، أو القولية، أو كلتاهما، وهو أجمع للمعنىٰ. والمراد من تفصيل الكونية: نتائج نظام هذا الكون ومواليده، ومن تفصيل القولية: توضيحها لتدركوها إدراكاً صحيحاً، وتعلموا من كلِّ ذلك قدرة الله سبحانه علىٰ إعادتكم بعد الموت، كما قال: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢﴾.

وبعد أن ذكر الآيات والشواهد العلوية، أردفها بالشواهد السفلية، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ بأن جَعَل أكثرها سهلةً قابلةً للاستفادة منها بالزراعة والسكن وغير

---

(١) وتقدم التعليق عليه هناك عند تفسير الآية ٧ من سورة هود: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾.

ذلك، ولم يجعلها كلَّها جبالاً قاسيةً صعبةَ المنال والسلوك، أو رمالاً رخْوةً تغوصُ فيها الأجسام كما تغوص في الماء[١]، ﴿وَ﴾ لكن ﴿جَعَلَ فِيهَا﴾ جبالاً ﴿رَوَاسِيَ﴾ أي: ثوابت؛ لتتوازن سائر نواحيها فينتظم دورانها، ﴿وَ﴾ جعل فيها ﴿أَنْهَارًا﴾ تتفجَّر من تلك الجبال، ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ قال الماوردي: ذكراً وأنثىٰ[٢].

أقول: وهذا ينطبق علىٰ النظرية الحديثة في علم النبات، وقد تَجوَّزَ بالثمرات عن أشجارها. ويجوز أن يُراد أصنافُ الثمار، واكتفىٰ بالاثنين أقل التعدد، وقيل: إنما مدَّ سبحانه الأرض بإيجاد الجبال عليها، فيكون قوله: ﴿جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ من عطف السبب علىٰ المسبَّب. والله أعلم. والمعنىٰ: أعان الأرض ونظم حركتها بجعل هذه الجبال فيها.

ثم ذكر من الآيات ما له تعلُّق بصلاح النبات، فقال: ﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: يُعاقِبُ بينهما كي لا يكون ظلٌّ دائم، ولا شمس مستمرة، وبهذا التعاقب يتمُّ نموُّ النبات، ويبدو صلاحُه، وتتمُّ حياة الحيوان والإنسان.

ثم حثَّ علىٰ إدراك ما في ذلك التنظيم والإتقان من الدلائل الواضحة علىٰ اختصاصه بالربوبية والألوهية، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣﴾ ولم يُفسِدوا قَرائحَهم بالجمود والتقليد الأعمىٰ.

ثم استأنف طائفة أخرىٰ من الآيات السفلية، فقال: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ تختلف طبائع أتربتها، ﴿وَ﴾ فيها ﴿جَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ﴾ أي: أنواع مُنوَّعة منها، وإنما أفرد الزرع لأنه في الأصل مصدر يستعمل للجمع والمفرد، أو لأنه ذُكِرَ مع الجمع فيدل علىٰ الجمع، وذلك من خصائص اللغة، ﴿وَ﴾ كذلك فيها ﴿نَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ أي: متقاربُ الصفاتِ ومتباعدُها، والكل من هذه الفصائل

---

(١) ومن معاني المدِّ في الأرض أيضاً: مدُّها بالخيرات والمعادن والموادِّ الخِصْب.

(٢) «النكت والعيون» للماوردي (٣: ٩٣).

متجاور و﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَ﴾ مع توافر أسباب التَّشابه في الفصائل المتقاربة، ﴿نُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ أي: في شكل الثمر وجودتها. وهكذا تكون بذرة الحنظل بجوار حبة البطيخ، فتمتص الأولىٰ من مواد تلك الأرض ما يتحوَّل إلىٰ المُرِّ الزعاف، وتمتص الثانية ما يكون حُلْوَ المذاق، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾.

وبعد أن نبَّه إلىٰ قدرة الله العظيمة في هذه الأشياء المألوفة، أنكر علىٰ منكري البعث استبعادَهم الإعادة علىٰ هذه القدرة البالغة، فقال: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ﴾ ـ مع هذه القدرة ـ ﴿قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فنُعاد ونُبعث؟! وهذه الصيغة تدلُّ علىٰ منتهىٰ التعجُّب، كما أنَّ صيغة قولهم هذا تدلُّ علىٰ منتهىٰ الإنكار والاستبعاد؛ إذ تقديم الظرف لتقوية الإنكار، وتكرير الهمزة في قولهم: ﴿أَءِنَّا﴾ لتأكيد الإنكار.

ثم أردف ذلك بالتقريع المقرون بالتهديد، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ ولم يتفكَّروا في آثار قدرته وعظمته البالغة في مظاهرها الواضحة، ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ أغلالُ التقليد الأعمىٰ والضلال البعيد، أو بمعنىٰ: مغلولون يوم القيامة بأغلال العذاب، أو المعنيان معاً، جمعاً بين الحقيقة والمجاز. وذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن.

ثم نصَّ علىٰ الوعيد بقوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾، تَعْساً لهم وسُحقاً، وضلالاً وغَيّاً. ألم يفكِّر هؤلاء الضالُّون أن المنيَّ عندما يحصل في الرحم

يستحيل علقةً ثم مضغة ثم لحماً وعظاماً وعَصَباً وغير ذلك حتىٰ يكون إنساناً، وإذا مات ودُفن استحال تراباً، وأصلُ المني من غذاء، والغذاءُ من تراب، إذا كان نباتاً أو غير نبات، فإذا كان قد تعلَّق الإنشاءُ بالاستحالة الأولىٰ، فلِمَ لا يتعلَّق بالاستحالة الثانية، وقد سمَّىٰ الله الإعادة خلقاً جديداً. ذلك هو الجهل العميق والضلال البعيد، لا سيما وأنَّ الإعادة إنما تكون من عَجْمِ الذنب الذي هو بمثابة نواة الحياة، أو هو هي، والله أعلم. فيُعاد منه الجسم مثلما تنبت الحبة في حميل السيل، كما جاء في الحديث[1]، إلا أن عجب الذنب يوم القيامة بعد أن تصير الأرض كتلة ترابية، وتتبخّر منها البحار بقربها من الشمس، ويُنْزِلُ اللهُ عليها مطراً خاصاً يبتلُّ منه عجم الذنب، وينمو داخل الأرض مثل الكمأة، فإذا تكامل تَشَقَّقُ الأرض عنهم سراعاً. والله أعلم.

ثم أردف هذا السياق بسياق آخر متعلِّق به يشتمل علىٰ الإنكار عليهم في طلبهم أن يعجِّل لهم ما أنذرهم به من العذاب، استهزاءً واستخفافاً، وفي طلبهم للآيات الدالة علىٰ نبوته، والرد عليهم في ذلك، وتنبيههم إلىٰ ما جرىٰ علىٰ المُنْذَرين قبلهم من أمثالهم، فقال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي: بالعقوبة التي أُنذِروا بها ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: دون الحسنة. والمعنىٰ: يستعجلونك بالعذاب إنكاراً واستهزاءً، ولو فطنوا لطلبوا الإمهال عِوَضاً عن الاستعجال، يُعرِّض بسَفَهِهم وغباوتهم، أو: ولو فطنوا لعجَّلوا بالإيمان طلباً للسعادة والإحسان. وعليه، فيكون قولُه: ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ تتميماً للكلام، علىٰ سُنة القرآن في مَزْج التَّنديد بالإرشاد. ومُحصَّلُهُ: لَيْتَهُم ـ عِوَضَ تعجُّلهم بالسيئة ـ يتعجَّلون بالحسنة، وهي الإيمان بما جئتَ به لعلهم يَسْعَدُونَ ولا يَشقَوْنَ، لو

---

(١) رواه البخاري (٦٥٧٣)، ومسلم (٢٩٩) ـ، (١٨٢) ضمن حديث طويل بلفظ: «فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل». و«حميل السيل»: هو ما يجيء به السيل من طين أو غُثاء وغيره. «النهاية في غريب الحديث» (١: ٤٤٢).

كانوا يعقلون. وكيف يستعجلون بالسيئة إنكاراً واستهزاء ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾[١]، أي: قد مَضَتْ وجَرَت عقوبةُ أمثالهم من المكذِّبين، وكان عليهم أن يعتبروا بها، لو كانوا يعقلون.

ثم بيَّن سبب الإمهال منه تعالىٰ، فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ فيُمهِلُهم لعلَّهم يذَّكَّرون فيثوبون إلىٰ ربهم تائبين، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٦﴾ إذا جاء أمْرُهُ بعد ذلك. أعاذنا الله. وفي عموم هذه الآية من الخوف والرجاء ما يُطمع العاصي ويُخيف الراجي.

وقد روىٰ مسلم عن النبي ﷺ: «لو يَعْلَمُ المؤمنُ ما عند الله من العقوبة ما طمع بجَنَّتِهِ أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد»[٢].

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١١﴾.

ثم ذكر مطالبتهم بالآيات كالناقة والعَصَا، وردَّ عليهم ببيان ما في هذا الكون من آياتٍ عظام، كلها تدل علىٰ اختصاصه سبحانه بالألوهية والربوبية لو كانوا

---

(١) أي: العقوبات المنكِّلات الفاضحات التي جعلتْهم مثالاً يرتدع به غيرهم. والمَثُلات: جمع المَثُلة، على وزن: الفَعُلة، مصدر بمعنى اسم المفعول للمبالغة، فِعلُه: مُثِلَ، أي: عُوقِبَ وجُوْزِيَ، عُبِّرَ به عن اسم الذات لتوكيد المبالغة.

(٢) رواه مسلم (٢٧٥٥)، عن أبي هريرة.

يفقهون، ويُرسِلُ رُسُلَه للبشر يُعرِّفون، فقال: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾، ولم يعتبروا بما مرَّ من الآيات العظام، فردَّ عليهم أولاً ببيان حدود الرسالة، فقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ كغيرك من الرسل، وليس إليك طَلَبُ إنزال الآيات لو كانوا يعلمون.

ثم ذيَّل هذا البيان بهذا التذييل العام، فقال: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾ أي: ولكلِّ قوم نبيٌّ يُرسَلُ إليهم يهديهم إلىٰ طريق الرَّشاد، ﴿لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وتلك سُنَّة الله في تاريخ البشر، فلا غَرَابة إذا أرسلك الله هادياً لهم.

ثم ردَّ عليهم ثانياً بأن مصنوعاتِ الله تعالىٰ كلَّها آياتٌ لو كانوا يعلمون، وخصَّ بالبيان أقربَها إليهم وأفعلَها في إيجادهم، وهي ما أودعه الله في جهاز الرَّحِم من عجائب، وسَبَك ذلك علىٰ بيان علم الله الواسع، فقال: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ أي: ما يكون منها في حالة غَيْض وما يكون منها في حالة فَيْض. والمعنىٰ: أن الله يعلم ما أودع في الرَّحِم مما يُفضي إلىٰ كل ذلك العمل، وينتج هذه النتائج المتباعدة.

والتعبير بالعلم عن الصنع؛ لإفادة عَظَمة هذه الآية الكونية العجيبة الدالة علىٰ قُدرته البالغة، وهي عجائب التكوين في جهاز الرَّحِم، التي لا يعلم بعضَها إلا الماهرون من أرباب الفن. ومنها ما يتعلق بغَيْض الأرحام بالعقم، أو الإقلال في الولادة، أو ازديادها بالإكثار. وكلُّ ذلك مُنْبَعِثٌ عما أودع فيه من استعداد بديع ونظام دقيق.

﴿وَ﴾ ليس ذلك خاصاً بالرَّحِم ونتائجه فقط، بل ﴿كُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ﴾ تعالىٰ يجري ﴿بِمِقْدَارٍ ۝٨﴾ ونظامٍ عجيبٍ دقيقٍ. ألا ترىٰ ذرَّات الأكسجين والهيدروجين

في الماء كيف أنَّ الأوَّلَ أضعافُ وزن الثاني، والثاني أكبرُ حجماً علىٰ نِسَبٍ لو اختَلَّتْ وزناً أو حجماً لفسد الماء. وترىٰ مثل القمح والقطن وغيرهما مركّبين من عناصر متَّحدة في الأكثر مختلفة الكمية في تركيب كل واحد منهما، وهذا الاختلاف هو الذي صيَّر مادة القطن صالحةً للبس، ومادة القمح صالحة للأكل. وهكذا سائرُ الأشياء، حتىٰ إن الحيوان والنبات يرجعان إلىٰ عناصر واحدة تختلف في مقاديرها. أمَا في كل ذلك آيةٌ لهم لو كانوا يعقلون!

ثم دلَّل علىٰ سَعَة علمه هذا المؤدِّي إلىٰ دقَّة تكوينه في الموجودات بصفته الذاتية في العلم، فقال: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ أي: يعلم ما خَفيَ وما ظهر، لا فرق في علمه بالأمرين علىٰ السواء، لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، مما كان ومما سيكون، ليس لعلمه بداية ولا له نهاية، ولا غفلة ولا نسيان، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهو ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾ علىٰ كلِّ شيء، فلا يتخلَّف عن إرادته مراد.

ثم تابع البيان بما يُفصِّل سَعَة علمه بالغيب والشهادة، ويتضمَّن الإلماع إلىٰ علمه تعالىٰ بأنهم إنما طلبوا إنزالَ الآيات تعنُّتاً، إذْ لا يَخْفىٰ عليه سبحانه خافية، والسرُّ والجهرُ عنده سِيَّانِ، فقال: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾ أي: إنه سبحانه يعلم السِّرَّ كما يعلم الجهر، ويعلم ما أخفاه التستُّر وظلمةُ الليل، كما يعلم ما أبداه التظاهر وضياءُ النهار، والكلُّ عنده سواء، فلا يَخْفىٰ عليه ما يُضْمِرُه المُضْمِرون، وما يَقْصِدُه هؤلاء المكذِّبون من العناد والإعنات.

ثم واصل المعنىٰ بذكر آيةٍ أخرىٰ؛ خفيَّةٍ في ذاتها، ظاهرةٍ بآثارها، مطويَّةٍ علىٰ الحكمة والمِنَّة المُفْضِيَتَيْن إلىٰ اختصاصه سبحانه بالألوهيَّة، فقال: ﴿لَهُۥ﴾ أي: لكلٍّ ممَّن أسرَّ القول أو جَهَر به، ومِنَ المُسْتَخْفي والسَّارب، أو للإنسان المفهوم من السياق

﴿مُعَقِّبَٰتٌ [١] مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ قال البخاري: ملائكةٌ حَفَظةٌ تَعْقُبُ الأولىٰ منها الأُخرىٰ[٢]. وعن عليّ[٣] وابن عباس: ملائكة يحفظونه من المهالك[٤].

أقول: وقد يُعبِّر القرآن والحديث بالملائكة أحياناً عن القوىٰ الخفيَّة الصَّالحة النافعة[٥]، فيجوز أن يُراد هنا: القوىٰ الطبيعية في الإنسان التي تولِّد المناعة في الجسم، وتحفظه من كثير من الأمراض والأعراض، ويكون معنىٰ التعقيب: الـمُلازَمة له وعدم الانفكاك عنه، أو التَّجدُّد في هذه القوىٰ[٦].

والتعبير بصيغة العاقل: إمَّا للتجوُّز في شمول لفظ الملَك لهذه القوىٰ، أو بصفته، علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ في صفة الكواكب: ﴿رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، والله أعلم. ومن مثل ذلك ما يقوله علماء الطبيعة من أنَّ جوَّ الأرض يمنع النيازك من الفتك بنا،

---

(١) المعقبات: جمعُ مُعَقِّبةٍ، وإنما وصفت الملائكة الـمُوكَّلون بحفظ ابن آدم بذلك؛ لأنهم يعقب بعضهم بعضاً في حفظ ابن آدم وكلاءته في الليل والنهار، دون أن يقع بينهم فترة انقطاع.

(٢) «صحيح البخاري» (٦: ٧٨).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦: ٣٧٨).

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٢١٩٦).

(٥) لا يعبِّر القرآن عن الملائكة بالقوىٰ الخفية الصالحة، بل عالم الملائكة أمر حق يجب الاعتقاد بوجودهم، والإيمان بصفاتهم، وجميع النصوص القرآنية والأحاديث النبوية تدلُّ دلالة قاطعة علىٰ حقيقة وجودهم، بمعنىٰ أنهم ذواتٌ موجودة، متصفة بصفات حميدة، وأعمال رشيدة، وأقوال سديدة. وليسوا عقولاً مجردة، ولا من معاني النفوس البشرية السعيدة الـمُسْعِدة، وإنما هم عالم حقيقي الوجود. ومجمل الإيمان بالملائكة: الاعتقاد الجازم بأن الله تعالىٰ خلق عالماً أسماه بالملائكة، وهم: أرواح قائمة في أجسام لطيفة نورانيَّة، قادرة علىٰ التمثُّل بأمثلة مختلفة، بإذن الله تعالىٰ، لا يوصفون بأنوثة ولا ذكورة.

(٦) تقدم بطلان هذا التأويل للملائكة (١: ٤٥٦).

لأنها تَـتَبخَّر ـ من احتكاكها بالهواء ـ كلُّها أو معظمُها إلىٰ دخان أو تراب دقيـق قبل أن تصل الأرض، ومثل هذا الحفظ والحيطة كثير في سُنـن الكون من مخلوقات الله[١].

ويقول ابن الأنباري: إن ﴿مِنۢ﴾ بمعنىٰ الباء، أي: بأمر الله[٢]. وهذا كله علىٰ تقدير تعلُّق ﴿مِنۢ﴾ بـ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾. ويجوز أن تتعلق بمحذوف يكون صفة للمُعقِّبات.

وقيل: بل الآية وَصْفٌ للمُسْتخفي بالليل والسَّارب بالنهار، يصفه بأنه قد يتَّخذ له حَرَساً يحرُسه ويمنع عنه ويخفيه. فهي تُؤْذِنُ أنّ ذلك الحرس لا يخفيه عن علم الله، ولا يقيه مما قدَّره الله عليه وقضاه، وهو وغيره في ذلك سواء.

ثم تابع السياق المتضمِّنَ لعنادهم، مع توفُّر الدلائل ووضوح البيان في استحقاقه سبحانه للألوهية والربوبية وحده؛ لاختصاص صفاتها وأفعالها به تعالىٰ؛ أتبعه ببيان سبب ذلك التَّعامي فيهم، وذكره بطريقة قاعدة عامة في استلزام الأسباب للمسبَّبات، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾[٣] أي: إنَّ الله سبحانه لا يغيِّر نعمةً أنعمها علىٰ قوم حتىٰ يُغيِّروا ما بأنفسهم من الأحوال التي

---

(١) وكلُّ ذلك يتم عن طريق الملائكة الذين وكَّل الله لـهم تدبير أمور الكون، كمـا قال سبحانه: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ [النازعات: ٥]. فالملائكة الكرام يتلقون أوامر الله سبحانه وينفذون أحكامه، فهو سبحانه له التدبير المطلق، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١].

(٢) «معاني القرآن» (٢: ٦٠).

(٣) خلق الله الإنسان مطبوعاً علىٰ الاستعداد للعقيدة الصحيحة والأعمال الصالحة، وينبعث عن ذلك كل الخير للإنسان في دنياه وأخراه. ثم أرسل له الرسل بالشرائع المنـزلة لتربية ذلك الاستعداد وتنميته، ولا يتغيَّر ذلك في الإنسان إلا إذا أفسد هذه الطبيعة بمفاسد التربية وسوء القدوة. وحينئذ يناله الشر في الدنيا والأخرىٰ، ولا يفارقه إلا إذا عاد فأصلح طبيعته، ورجع بها إلىٰ حالتها الأولىٰ. وهذا الأمر جارٍ في الفرد والأمم علىٰ السواء. (المؤلف).

أدّت إليها، ولا يُبدِّلُ نِقْمةً أنزلها بقوم حتىٰ يُبدِّلوا ما بأنفُسهم من الأسباب التي أفضت إليها. وبعبارة أخرىٰ: إنَّ الله سبحانه خَلَق الإنسان للسعادة في الدنيا والأخرىٰ، وطبعه علىٰ أسبابها، وأرسل له تعاليمَ تُعينُه علىٰ ذلك، فإذا أفسد طبيعته وحاد عن التعاليم تغيَّرت سعادتُه بشقاء، وإذا نَدِمَ وعاد أدرك المراد.

وقد أكَّد هذا بقوله: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾، لأنَّ سنة الله في نظام الأسباب والمسبَّبات لا تتخلَّف، فالذين يتلبَّسون بأسباب السوء ينالهم لا مَحَالة، بمقتضىٰ سنة الله، ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ أي: ليس لهم من دون الله مَنْ يتولَّىٰ أمرَهم ويمنعُهم من أن تجري سُنة الله فيهم.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾.

ثم تابع البيان عن الآيات الدالة علىٰ اختصاصه بالألوهية، وأدمج فيه الإيماء إلىٰ التَّهديد والترجية، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، لأن الناس منه بين اثنين: خائفٍ منه، وطامعٍ فيه. أي: خوفاً من الصاعقة، وطمعاً في الغيث، كما يرسل عليكم الآيات تهديداً وترجيةً لأن تَؤُوبُوا لرُشْدكم، ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾ لخيركم وصلاح عيشكم وإنعام الله عليكم. وفيها دليلُ القدرة والمنَّة، إذ هي من عُظْمىٰ الآيات الكونية؛ يعلمها المتخصِّصون في هذا الفن، وكيف تثور الأعاصير من البحار بواسطة ناموس الحرارة، وتنتشر الأبخرة في الأجواء، ويطرأ عليها من التطوُّر والتفاعل ما يجعلها ماء ثجَّاجاً بقدرة الله العظيمة في سُننه المطَّردة في ذلك.

وقد ينشأ السَّحابُ الثِّقالُ علىٰ صورة كُتل عظيمة، بعضُها مشحون بالكهرباء الموجِبِ، وبعضُها بالسالِبِ، فتَتَجاذب ويَحدُثُ الرعد والبرق من ذلك[١]، ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ والرعد: هو الصَّوتُ الذي يحدث من اصطدام كتل أجرام السحاب، واتصال بعضها من بعض، والله أعلم. والمراد من التسبيح هنا: لازِمُه[٢]، وهو الإيذان بتنزيه خالقه سبحانه عن الشريك والمثال، أي: يدلُّ بعظمة تكوُّنه وعجيب نظامه دلالةً واضحة علىٰ استحقاقه تعالىٰ وحده لأن يُعبَدَ ويُحمَد، وأن يُنزَّه عن الشريك والمثال في هذه الأعمال.

﴿وَ﴾ كذلك تُسبِّح ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ أي: من هيبته وجلاله، تنزهه وتخافه. وفيه تنبيه إلىٰ أنها تعلم من خشية الله ما لا نعلمه. ﴿وَ﴾ هكذا ﴿يُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ وهي قَصْفَةُ رعدٍ هائل، تَنْقَضُّ معها بَثْقَةُ نارٍ أو شرارة لا تمرُّ بشيء إلا أتت عليه، ثم أشار إلىٰ ما شاءه من نظام طبيعة الكهرباء، وطُرق إصابتها وعدم إصابتها، وقال: ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ ممَّن يستحقُّ ذلك، أو ممن لا يتحفَّظ منها ويَعرِض بنفسه لها، فهي من آثار قدرة الله العلية.

---

(١) وقد ثبت في العلم الحديث عن نظريَّة السَّحاب: أنه حينما يسخن الهواء القريب من سُطوح البحار وغيرها بتأثير الحرارة في الجو، ويبرد لوصوله إلىٰ منطقة باردة، أو لامتزاجه بتيَّار من الهواء البارد، فإذا بَـرَدَ تكاثف منه بخار الماء، وتكوَّن السحاب وسار مدفوعاً بقوة الهواء، ويتراوح بُعْدُه عن الأرض بين ميل وعشرة أميال، حتىٰ إن سكان الجبال الشاهقة يحاذونه أو يكون دونهم أحياناً. (المؤلف).

(٢) بل المراد به حقيقتُه، فالرعدُ يسبِّح بحمد ربِّه عن معرفةٍ به، وعلىٰ وَجْهِ الحق والحقيقة؛ إذ لا يمتنع أن يخلق الله له إدراكاً يناسبه، كما قال: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وكل هذه الآيات الكونية يرونها ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي﴾ آيات ﴿ٱللَّهِ﴾ القوليَّة ويُعرضون عنها، ويتَّخذون له شريكاً ونداً. فتوعَّدهم بقوله: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ أي: شديد الحَوْل والأخذ، والكَيْد والنكال. قال البخاري: المِحال: العقوبة[1]. وقالوا: المحال: مأخوذ من قولهم: مَحَلَ فلان بفلان، إذا كايده وعرَّضه للهلاك.

ثم تابع الوصف بقوله: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ قال الحسن: من دَعَاه دَعَا الحقَّ[2]، المستجيب. أو أنه الذي يحقُّ أن يُعبَدَ ويُدْعىٰ إلىٰ عبادته دون غيره، كما يُفهَمُ كل ذلك من الموصول الآتي المقابل.

أقول: ويجوز أن يُؤوَّلَ بمعنىٰ أنَّ ما يدعوهم الله إليه هو الحقُّ المؤدِّي إلىٰ السعادتين، وما يدعوهم إليه غيره هو الباطل المؤدي إلىٰ الشقائين. وقد أقام مقام الشق الثاني هذا التمثيل، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ من الأوثان وغيرها ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾، ثم مَثَّل فَشَل دعائهم لهم ورجائهم منهم بالعطشان الذي يريد أن يأخذ الماء بكفه ليُبلِّغَهُ فاه، ولكنه لا يقبض كفَّه ويُقعِّرُه ليقف فيه الماء، بل يبسطه وينشره، فلا يكون فيه شيء منه ليُبلِّغه فاه، ويروي به صَدَاه، فقال: ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾، وقيل: هذا تمثيل يضربه العربيُّ لمن يسعىٰ فيما لا يدركه، كما يمثل بقوله: هو كالقابض علىٰ الماء. ثم ذيَّل ذلك بقوله: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ للأصنام وعبادتهم لها ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ بعيد.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ

(١) «صحيح البخاري» (٦: ٧٨).

(٢) ذكره الرازي في «تفسيره» (١٩: ٢٥).

يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾.

ثم أردف الكلام ببيان أنَّ اختصاصه سبحانه بالألوهية أمر واضح، يُدركه أو ينقاد له مَنْ في السماوات والأرض طَوْعاً، إن سَلِمَت فِطَرُهم من التحريف والإفساد، وكُرْهاً إن أفسدوها وحرَّفوها، فأصبحوا لا يشعرون بانقيادهم له طبعاً، فلا ينقادون له طوعاً، فقال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ أي: ينقاد ويخضع لأنظمته وسننه تعالىٰ في هذا الكون[1]، ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ حيث ينقادون ويخضعون للسنن الكونيَّة في أنفسهم وخارجها بما يدلُّ علىٰ غاية الانقياد، حيث بيَّن أنَّ ذلك لم يكن مُقْتصراً علىٰ ذواتهم، بل يشمل صفاتِهم وأعراضَهم، وخصَّ بالذكر منها ما له ظهور واضح، فقال: ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿١٥﴾﴾ أي: ينقاد له سُبحانه بمقتضىٰ نظامه وسُننه في هذا الكون حتىٰ ظلالهم أيضاً، حيث يطولُ بالغدوِّ والآصال، ويَقْصُر فيما بين ذلك بالتدريج طرداً وعكساً، صعوداً وهبوطاً، بنظام لا يتبدَّل ولا يختلُّ، وذلك ناتج عن وَضْع دقيق مُتْقن في النظام الشمسي البديع.

وخصَّ الغُدُوَّ والآصال بالذكر؛ إما لأن الظِّلَّ يكون فيهما علىٰ أطوله، وإما لأنهما طرفا النهار، فأراده بهما؛ إذ قد يُذْكَرُ طرفا الشيء ويُراد بهما جميعه، لأنه منحصر

---

(١) المراد بالسجود في هذه الآية: أن جميع من في السماوات والأرض تسجد لله تعالىٰ خالقها، ولكن سجود كل نوع علىٰ حسب هيئته، وصورة خلقه. فكل يسجد علىٰ حَسَبِهِ سجوداً حقيقياً.

بينهما، أي: في جميع الأزمان. وإما لأن الظلَّ في هذين الوقتين نتيجة لحالة انحطاط الشمس دون قيامها، وذلك أنسب بمعنىٰ السجود، والله أعلم.

ثم أردف هذا البيان الإلزامي بأسلوبٍ آخَرَ أشدَّ إلزاماً وأنكىٰ تقريعاً، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار: ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ومُدبِّرهما ومُصَرِّفهما علىٰ ما فيهما من البدائع والعجائب، فسيَبهَتون ويُحْجِمون عن الجواب فراراً من الإلزام، وحينئذ ﴿قُلِ﴾ أنت لهم: هو ﴿ٱللَّهُ﴾، ثمَّ بكِّتهم وأنِّبهم و﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ كالأنبياء والصديقين، فضلاً عن أن يملكوا ذلك لغيرهم. ومن كان كذلك كيف يستحق أن يُؤَلَّه ويُعبد؟!

ثم أمره أن يضرب لهم هذا المثل علىٰ طريقة التشبيه والمُضْمَر، تكميلاً للإفحام، فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾، ثم أتبع هذا التقريع بما هو أفظع منه تسخيفاً، وأشدُّ توبيخاً، وأوضح إلزاماً، فقال: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أم رأوا شركاءهم يخلقون كما يخلق الله، ولم يكن فَرْقٌ بين الخلقين، فاشتبه الأمر عليهم في استحقاق الألوهية؟! وهذا منتهىٰ التهجين والسخرية والتجهيل.

وبعد هذا النقد الواضح والإلزام الفاضح، قرَّر حقيقة الربوبية الصحيحة واختصاصها بالله، فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ فهو الواحد في الألوهية، ولا يستحقها أحد سواه.

ثم وصل الكلامَ بضَرْب مَثَلٍ للحق والباطل، وانعدام الثاني وبقاء الأول، وسبك النَّظْم علىٰ القدرة والمنَّة واختصاصهما به سبحانه، فقال: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ أي: أخذَ كلُّ وادٍ بقَدْر ما يَسَع، ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ وهو ما يعلو وجه الماء عند طغيانه مما يشبه وَضَرَ الغليان ورغوةَ اللبن، ﴿وَ﴾ كذلك يكون

﴿مِّمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ أي: مِثلُ زبد الماء هذا، وهو الخبث الذي يعلو المعادن عند الانصهار، ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾؛ فالحقُّ مثل الماء الصافي وخالص المعادن، والباطل مثل الزبد لهما، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ يُجْفيه السيل أو الانصهار ويُفرِّقه حتىٰ ينعدم، ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ من ماء السَّيل وخالص المعادن ﴿فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ طويلاً ينتفع به الناس، ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ لإبطال الشُّبه وإيضاح المُشْتبهات، وبيان الأشباه والمقايسات. والمَثَلُ يرفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفيَّة، ويُبرزها بصورة المحسوسات الجليَّة.

قال قتادة: هذه ثلاثة أمثال ضربها الله تعالىٰ في مثل واحد؛ شَبَّهَ نزول القرآن بالماء الذي ينزل من السماء، وشبَّه القلوب بالأودية، فمن استقصىٰ في تدبُّره وتفكُّره في معانيه، أخذ حظاً عظيماً منه، كالوادي الكبير الذي يأخذ الماء الكثير، ومَنْ كان دون ذلك فهو أقل حظاً. فهذا مَثَل.

ثم شبَّه الخطرات ووساوس الشيطان بالزَّبَد يعلو علىٰ الماء، وذلك من خُبْث التربة لا من ذات الماء. كذلك ما يقع في النفس من الشكوك، فإنه من خُبثها الطارئ عليها بإفسادها وانحرافها عن سنن الطبيعة، لا من ذاتها ولا من ذات الحق. يقول: فكما يذهب الزبد هباءً وتبقىٰ صَفْوة الماء، كذلك تذهبُ مَخَايلُ الشكِّ ويبقىٰ الحقُّ، فهذا مَثَلٌ ثان.

والمثل الثالث: قوله: ﴿مِّمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ...﴾، فالكفر مثل هذا الخبث، والإيمان مثل المعادن الخالصة والماء الصافي.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾.

ثم ذكر مصير الفريقين؛ ترغيباً للمؤمنين ووعداً لهم، وترهيباً للكافرين ووعيداً لهم، فقال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾، وهذا أبلغ تصوير لهَوْل ما ينالهم من العذاب، ثم أردفه بالتصريح والتسجيل، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾.

ثم أيَّد هذا البيان وقرَّره بحُرمة أن يستوي حُسْنُ حال المؤمن وسُوءُ حال الكافر في المصير، فقال: ﴿أَفَمَن﴾ كان بصيراً ﴿يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ لا يُبْصر ذلك ولا يعلمه. ففي الكلام احتباك، حيث ذكر في كل شقٍّ صفةً وأراد ضدَّها في الشق الثاني، والاحتباك من أساليب إيجاز القرآن، (كما جاء في المادة الثامنة من المقدمة الثانية).

ثم ختم الآية بما يحضُّ على الانتباه، فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾[1].

---

(١) الألباب: جمع لُبّ، وهو قلبُ الشيء وحقيقتُه وجوهرُه. أي: ما يتذكَّر تذكُّراً مؤدِّياً إلى العِظة =

ثم ذكر أفعالَ الذين استجابوا لربِّهم وصفاتِهم التي استحقُّوا بها تلك الحُسْنىٰ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما ألزمهم به عقلاً وسمعاً، ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠﴾ من الإيمان بالله وغيره، ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ أي: ما أمر الله به أن يُتَّبعَ من هذه التعاليم المنزَّلة ويُستدام. وقال الجبَّائي وأبو مسلم: هو ما يلزم من صلة المؤمنين، بأن يتولَّوهم وينصروهم ويذبُّوا عنهم، ويدخل فيه صلة الرحم وغير ذلك. فهم الذين يفعلون كل ذلك، ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ يوم القيامة.

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ علىٰ ما تكرهه النفس ويخالفه الهوىٰ ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾، لا لغرضٍ يَبْغونه، ولا لسُمْعة ورياء، ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أتوا بها مُقَامةً علىٰ وجهها الأكمل، وذلك بالإخلاص فيها لله والصِّدق في التوجُّه إليه، والشعور الصادق بما اشتملت عليه من ذكر وآيات، ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ وفي هذا القيد اسْتِدرارٌ وتنبيهٌ إلىٰ أنَّ هذا المال من فضل الله، وإنما يُحافَظُ عليه بالإنفاق منه شكراً لله، مرَّةً ﴿سِرًّا﴾ كي لا يكون مجال للمنِّ والأذىٰ، ﴿وَ﴾ مرَّةً ﴿عَلَانِيَةً﴾ إذا كان في ذلك مصلحة، كحثِّ أمثالهم علىٰ الاقتداء بهم، ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: يُجازُون الإساءةَ بالإحسان، أو يُتْبِعُون السيئة بالحسنة. قال قتادة: معناه: يدفعون إساءة مَنْ أساء إليهم بالإحسان والعفو[1]. وقال ابن عباس: يدفعون بالعمل الصالح السيِّئَ من العمل[2]، كما روي

= الكاملة إلا أصحابُ العقول الواعية المدركة الخالصة التي لا تشوبها الشوائب، الذين ينتفعون بآيات الله الكونيَّة والتنزيليَّة، ويعتبرون بالتاريخ وقصص القرآن، ويَعرضون كلَّ أمر على ما أودع الله في عقولهم من أصول ثابتة تُعرَفُ بها حقائقُ الأشياء، فيميِّزون بها بين الحق والباطل، والخير والشر.

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥: ٢٨٦).

(٢) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤: ٣١٣).

عن النبي ﷺ أنه قال لمعاذ بن جبل: «إذا عملتَ سيئة فاعمل بجَنْبها حسنة تَمْحُها»[١].

أقول: وذلك لأنَّ السيئة تُؤثِّر في النفس أثراً سيئاً، والحسنة الموجَّهة عليها تَقْلَعُ ذلك، وتؤثِّر في النفس أثراً حسناً. والله أعلم.

ثم سجَّل لهم بهذا الوعد الكريم فقال: ﴿أُولَٰئِكَ[٢] لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾[٣]، وقد فصَّلها بقوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أي: مَنْ آمن منهم مِثلَ ما آمنوا، وعمل مِثلَ ما عملوا أو قارب.

ثم ذكر ما يدل علىٰ عظمة سعادتهم، فقال: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾﴾ قائلين لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ علىٰ التكاليف وغيرها، ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ هذه العُقْبىٰ التي نِلْتُم سَعَادتكم فيها. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين. ويجوز أن تكون هذه الفاصلة تنويهاً من الله تعالىٰ، لا من كلام الملائكة.

ثم ذكر مصير المشركين المتَّصفين بأضداد تلك الصفات، لأنهم لم يستجيبوا لربهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ وهو ما ألزمهم به عقلاً[٤] وسمعاً، ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ أي: ما أمر الله به أن يُتَّبع من هذه التعاليم المنزَّلة، ومنها: صلة الأقارب والرَّحِم وغير ذلك. فهم يقاتلون ذوي رَحِمِهم عناداً للحق

---

(١) رواه هنَّاد في «الزهد» (١٠٧٢).

(٢) أي: الموصوفون بالأوصاف الثماني في الآيات ٢٠-٢٢.

(٣) أصل معنى العُقبى: هو العاقبة الحسنة. والمراد هنا: العاقبة المحمودة التي تعقب دار الدنيا، وهي الجنة.

(٤) في الإلزام العقلي نظر؛ إذ هو متماشٍ مع أصل المعتزلة في التحسين والتقبيح العقليين، وترتُّب الثواب والعقاب عليهما، والصواب ما عليه أهل السنة والجماعة من أن الإلزام سمعي (شرعي)، والعقل وسيلة للإدراك والفهم.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، فسجَّل عليهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ أي: سُوء أحوال الدار الآخرة. أعاذنا الله.

ثم أجاب عن حُسْن حال هؤلاء الكافرين في الدنيا علىٰ كفرهم وعنادهم، وردَّ استدلالهم به علىٰ رضا الله عنهم، وأوْمأ إلىٰ أنَّ ذلك يجري بنسبةِ تعاطي الأسباب الكونية ومقدارها كمّاً وكيفاً، فقال: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ ممَّن يتعاطىٰ أسباب بسط الرزق علىٰ وجهه الصحيح، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ لمن يُهمل ذلك، ولا تعلُّق للأمرَيْن بحالتي الصَّلاح والطلاح، ولكن بالتمسُّك بالأسباب علىٰ الوجه الصحيح وعدمه، كما قال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥] الآية، وقال تعالىٰ: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

ولكنه سبحانه زيَّف حُسْنَ حالهم المُقْتصر علىٰ الدنيا وحدها وبخَّس قيمته، حينما لم يَسْعوا لِنَيْل سعادة الآخرة معه، فقال: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ ونعيمها الفاني ﴿فِى﴾ جَنْبِ نعيمِ ﴿ٱلْءَاخِرَةِ﴾ الباقي ﴿إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ يُتمتَّع به زمناً قصيراً، ثم يفنىٰ، بخلاف نعيمِ الآخرة فإنه خالدٌ لا يَفْنىٰ. لذلك لم يكن للعيش الرغيد في الدنيا قيمة مهما كان أمره، إذا لم يصحبه السَّعي لنَيْل سعادة الآخرة معه، فكلُّ نعيم دون الجنَّة حقير، وكلُّ بلاء دونَ النار عافية وهناء.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ الإنكار عليهم في طلبهم للآيات، وغَفْلتهم عمَّا في هذا الكون من

آيات، ليُلْمِعَ إلىٰ منشأ ذلك فيهم، علىٰ نهج القرآن في العودة إلىٰ ما يريد إشباع الكلام فيه، فقال: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ولم ينظروا إلىٰ ما في هذا الكون من آيات، وإلىٰ ما في هذا القرآن من حُجج وبيِّنات، وذلك لإفسادِهم عقولَهم وتحطيمِهم مواهبَهم، فلم يُدركوا سبيلَ الرَّشاد.

وقد أقام مقام هذا التعليل ما يبيِّن وجه عنادهم بهذا البيان العام الذي يشملهم ويشمل أمثالهم، فقال: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾، فلا يُؤْمن ولو أجيب إلىٰ ما يقترح من الآيات.

وليس المراد: أن الله سبحانه يُلقي عليهم الضلال قَصْداً[1] أو يَخْلقهم ضالِّين، كلا، ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩]، وإنما المراد أنهم يَضِلُّون بإفساد فِطَرِهم وتحريفِهم طبائعَهم بمفاسد التربية وسوء القدوة، فيُعرضون عن أسباب الهدىٰ ويتمسَّكون بأسباب الضلال، وكذلك مشيئته سبحانه لم تَجْرِ جُزافاً واعتباطاً، وإنما تجري بالحق والعدالة، وفي سُنن مُطَّردة لا تتبدَّل، فلم يشأ سبحانه إلا إضلالَ مَنْ حرَّف فطرته، وهَدْيَ مَنْ حافظ عليها، كما قال: ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧﴾ وأقبل إلىٰ الحق والصواب، وذلك بمعونة محافظته علىٰ سلامة فطرته ونقاوة مواهبه، فيتأمل ما في هذا الكون من الآيات الباهرة، ويتدبَّر فيما أنزل الله من الدلائل الواضحة، ويتمسَّك بالهدىٰ بعد إذ جاءه.

ثم ذكر بعض صفات هؤلاء المهتدين المُنْبَعثة عن هداهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾، والعدولُ إلىٰ صيغة المضارع لإفادة دوام الاطمئنان

---

(١) ينبغي أن يقول: «جبراً»، فكلُّ ما يقع في هذا الوجود لا يخرج عن إرادة الله تعالى، فضلال الكافر مرادٌ لله تعالى، لكن باختيار العبد، فلا جَبْرَ فيه.

وتجدّده كلَّما تجدَّدت الذكريات. ثم ذيَّل بهذه الحقيقة النيِّرة للإشعار بأنهم أصابوا الهدف وأدركوا السداد، فقال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ ولا تطمئن بغير ذكر الله.

وقد وصف المؤمن هنا بأنه يطمئن قلبه بذكر الله، ووصفه في موضع آخر بأنه إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَ قلبه[1]، والمراد بالأول: أنه يذكر ثوابه وإنعامه وآلاءه التي لا تُحصىٰ، فيركن إليه لُبُّهُ. والمراد بالثاني: أنه يذكر عقابه وانتقامه، فيخافه ويوجل منه قلبُه.

ثم بشَّرهم ووعدهم بهذا الوعد الكريم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾، وطُوبىٰ من الطيِّب، كبُشْرىٰ وزُلْفىٰ. والجملة لإفادة المبالغة في نَيْل الطيِّبات عند مرجعهم إلىٰ الآخرة. فهو وَعْدٌ كريم بعِظَم النعيم.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾.

ثم عقَّب علىٰ إنكارهم وعنادهم، ببيان أنَّ إرساله لهم لم يكن غريباً في تأريخ البشر، فإنَّ الله تعالىٰ قد أرسل إلىٰ مَنْ قبلهم من الأمم رُسلاً مبشِّرين ومُنْذرين فقال: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ أُرسِلَ إليها رُسُلٌ لهدايتها، فأرسلناك إلىٰ هذه الأمة ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ لـهدايتهم وإرشادهم وتبشيرهم

---

(١) وذلك في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢].

وإنذارهم فأعرضوا، ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الذي رحمهم بهذا الإرسال، ووسعتهم رحمته، وشملهم بخيراته وإنعامه، ومن رحمته: إمهالهم لعلهم أن يثوبوا إلىٰ رُشْدهم.

ثم أمره أن يُبيِّن لهم خطَّته المتضمِّنةَ أن يستمرَّ علىٰ دعوتهم إلىٰ التوحيد، وعلىٰ التوكل والاستعانة به تعالىٰ، فقال: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ أي: مَرْجعي ومآبي، فيحكم بيني وبينكم.

ثم نوَّه بشأن هذا الوحي الذي أرسل إليهم، وتفوُّقِهِ عما أُرسِلَ إلىٰ الأمم قبلهم، وأنه من العظمة والكمال بالمكان الرفيع، بحيث إن ما جاء فيه من إرشاد، لو كان يمكن للجماد أن يفهم والأموات أن تسمعه؛ لتأثَّروا عظيماً بهذه البيانات، وهؤلاء لا يدركون، ذَكَرَ ذلك تجهيلاً وإهانة لهم، فقال: ﴿وَلَوْ﴾ فُرِضَ ﴿أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: زُعْزِعت عن مقرِّها بتلاوته عليها، لتأثُّرها بوضوح حُجَجِهِ، ونُصوع براهينه، وسَداد تعاليمه، وقوة توجيهاته، ورَهْبة وعيده، ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: تَصَدَّعت بتلاوته عليها كذلك، ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ففهموا ما جاء به لوضوحه في بيانه؛ لكان هذا القرآن.

وهذا تمثيلٌ لعظمة شأن القرآن، وقوة تأثيره، ووضوح بيانه، وجلاء وَعْظِهِ وإرشاده، ولكنهم مع كلِّ ذلك لا يتأثَّرون به ولا يؤمنون، فإن لم يَرَوا عظمة هذه الآيات ولم يؤمنوا بها، فبأيِّ آية بعدها يؤمنون؟!

ثم ألمع إلىٰ أن هذا التصلُّب في الضلال ليس عن عَجْز في القدرة الإلهية لإصلاحهم قَسْراً، ولكنه جارٍ علىٰ الحكمة الرَّبانية في كَوْن الإنسان مُخْتاراً في تصرُّفاته، فقال: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾، ومن أمره تعالىٰ: هذه السنة في البشر، وهي أن يخلقه مختاراً في تصرُّفاته، وأن مَن انطبع علىٰ الضلال بتأثير بيئته وإفساده لطبيعته لا يميل إلىٰ الهدىٰ والرشاد، ولو دُعي إليه بمثل هذا القرآن.

ثم أنكر على المؤمنين بما يتضمَّن تنزيلهم منزلة الغافل عن هذا الأمر في طبيعة الإنسان، وتيئيسهم من إيمان هؤلاء المشركين، لرسوخ الكفر فيهم، وتقريع المشركين عن إعراضهم عمَّا جاءهم من الهدىٰ في هذا القرآن المبين الواضح البرهان، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَأْيَسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾؛ وذلك بأنْ يخلقَهم مطبوعين علىٰ تقوىٰ الله، لا يستطيعون غيرها، كالملائكة ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. ولكن مشيئة الله لا تُخالِفُ الحكمة والمصلحة العامة، وكان من مُقْتضىٰ حكمته في طبائع الإنسان أن يكون رائدَه عقلُه ومستعداً للتأثر بكل ما يَرِدُ علىٰ نفسه باختياره، فيغلب عليه ما رسخ فيها بمؤثِّرات المحيط والمخالطة والتعليم وغير ذلك. وإنما جعله هكذا ليكون ذا علم واسع، ودرايةٍ فسيحة، وإيجاد عظيم؛ ليعمر الأرض ويستفيد من مواهبها وخيراتها، والله أعلم.

وفي كلمة ﴿يَأْيَسِ﴾ تضمينٌ لمعنىٰ: يعلم، علىٰ طريقة إيجاز القرآن، (كما جاء في المادة التاسعة من المقدمة الثانية). وَوَجْه تضمين اليأس معنىٰ العلم: هو أنَّ العلم اليقيني بالشيء تَيْئيس من ضدِّه.

والتقدير: أفلم ييأس الذين آمنوا من هداية هؤلاء المشركين لإفسادهم لطبائعهم، ويعلموا أنْ لو يشاء الله لهدىٰ الناس جميعاً؛ بأن يَقْسُرَهم علىٰ ذلك كالملائكة. فطُويت هذه الزوائد، لأن هذا التضمين يدلُّ عليها دلالة واضحة، وذلك علىٰ طريقة إيجاز القرآن في تراكيبه وأساليبه، والحاصل: أفلم يعلم الذين آمنوا أن الله سبحانه خلق الإنسان مختاراً في تصرفاته، وأنه إن أفسد طبيعته بمفاسد التربية وسوء القدوة؛ لا يمكنه أن يعود إلىٰ الصلاح.

ثم بيَّن حال هؤلاء المشركين ومآلهم وما هم مستهدفون له من البلاء؛ تسليةً له ﷺ ووعداً بنصره عليهم وتعقيباً للنّقدِ بالوعيد، فقال: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ ﴾ أي: داهيةٌ ونازلةٌ من البلايا، ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أي: بمجاوريهم فيفزعون منها، ويتطاير إليهم شَرَرُها. وهذا وعيدٌ لهم بعذاب الدنيا، قَرَنه بعذابِ الآخرة الذي عبَّر عنه بوعد الله علىٰ أحد المعنيين. وقيل: إن كلمة ﴿تَحُلُّ﴾ خطابٌ للنبيِّ ﷺ؛ لأنه كان لا يزال يبعث السرايا علىٰ أهل مكة فتُغير حوالَيْهم وتَغْنَم غنائمهم، فهم لا يزالون كذلك ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ في فتح مكة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾.

ثم تابع تسليته ﷺ ووعيده للمشركين فقال: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: تركتُهم ملاوةً[1] وحيناً من الزمن، في دَعة من العيش، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أخْذَ عزيز مُقْتدر. وقد هوَّل ذلك الأخذ بقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾؟ فهذا الاستفهام للتهويل والتَّحسيس.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ۚ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ تقريعهم وتجهيلهم وتسفيه أحلامهم في اتِّخاذ شُركاءَ لله لا يستطيعون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، فقال: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ وهو الله سبحانه وتعالىٰ الذي لا تَخْفىٰ عليه منكم خافية، يُحصيها لكم ويُجازيكم عليها، أفهو كالأصنام التي لا تعلم من نفسها شيئاً، ولا تملك لها نفعاً ولا ضراً؟ وقد أقام مقام هذا المحذوف

---

(١) الملاوة ـ بتثليث حركة الميم ـ: مدَّة العيش. «لسان العرب» (ملا).

قولَه: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾، وذلك علىٰ طريقة القرآن في الحذف والتعويض بكلمة عن كلمة، وجملة عن جملة، كما تقتضيه البلاعة العالية، تنويعاً في أساليب الإيجاز، (كما جاء في المادة العاشرة من المقدمة الثانية).

ثم سَخَّفهم بقوله: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي: بيِّنوا ما فيهم من الصفات التي تستحقُّ العبادة، أو سمُّوهم بالأسماء التي هي صفاتهم الحقيقية، كالبشر والحجر والخشب والصنم، ثم انظروا: هل تدلُّ تلك الصفات علىٰ جواز عبادتهم واتِّخاذهم آلهة؟ ثم بالغ في تسخيفهم بما يتضمَّن الإنكارَ عليهم والسخريةَ بهم، فقال: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أم تُعلِمون الله بوجود شُركاءَ له مُسْتحقِّين للعبادة وهو لا يعلمهم؟ وهذا غاية التسخيف ومنتهىٰ التجهيل، وأبلغ النفي والإنكار؛ لأن ما لا يعلمه الله لا وجودَ له البتة إلا بالأوهام.

ثم عمد إلىٰ صورة أخرىٰ من التأنيب، فقال: ﴿أَم﴾ تتكلَّمون ﴿بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ هُزْءاً دون رويَّة وتعقُّل، وتهرفون؟ ثم عَدَلَ عن ذلك التبكيت المنوّع إلىٰ بيان حقيقة الحال فيهم فقال: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾ وتمويهُهم، فتخيَّلوا أباطيل، ثم خَالُوها حقاً. أو المعنىٰ: أنهم زُيِّنَ لهم كَيْدُهم للإسلام، ﴿وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ برسوخ الكفر فيه بصُنعِهِ ومزاولته له ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾، وذلك لأنَّ سنة الله تعالىٰ في طبيعة الإنسان قَضَتْ أن من تشبَّع منهم بالكفر والضلال زُيِّن ذلك في نظره، وأصبح كارهاً للحق كلَّ الكُره، مائلاً إلىٰ الباطل كلَّ الميل، لا تفيده موعظة، ولا تُرجِعُه عن غيِّه نصيحة، ولا يُحب أن يسمع ما يخالف باطلَه ويُوهيه[1].

---

(١) أو المعنى ـ وهو الأدق ـ: ومن يُثبت اللهُ ضلالَه بحُكمه العادل نتيجةَ اختيار إرداته الحرّة في الحياة الدنيا فما له من هادٍ يُثبت له الهداية.

فليس المراد من الإضلال: أنَّ الله سبحانه يخصُّه به قَصْداً، أو يخلقه كذلك، كلا، قد ألـهمه فجوره وتقواه، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. وإنمـا المراد: أنهم يَضِلُّون بمعاطاة أسباب الضلال، كما يقال: لقد أعمىٰ الله عَيْنَه، وما العَمَىٰ إلا مرضٌ يَنْشأ من تقصيرِ صاحبه في العناية بقواعد الصحة للعين وأسبابها.

ثم بيَّن سبحانه ما أعدَّه لهؤلاء الكَفَرة من العذاب في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ يقيهم من عذابه الواقعِ بهم في الدارَيْن.

ثم بيَّن مصير المتَّقين؛ ليقابل بينه وبين مصير هؤلاء، وَعْداً وتبشيراً للمؤمنين، وزيادةَ وعظ وتنبيه للمشركين، فقال: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أي: صفتها أنها ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ و﴿أُكُلُهَا﴾ أي: ثمرها ﴿دَائِمٌ﴾ لا ينقطع، ﴿وَظِلُّهَا﴾ كذلك. ثم أجمل المصيرين وجَمَع بينهما زيادةً في التحسيس، فقال: ﴿تِلْكَ﴾ الجنة هي ﴿عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ أي: مُنتهىٰ أمرهم ومصيرهم، ﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ۚ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾.

وبعد أن ذكر شأن المشركين في أمر هذا القرآن المبين، ذكر شأن أهل الكتاب في أمره، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: الذين أسلموا منهم لسلامة طُوِيَّتهم

وخُـلُّوها من الحسد والمنافسة، ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ وكانوا ينـتظرونه، إذ هو الكتاب الذي وُعدوا به في التوراة والإنجيل، ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يعني: كَفَرَتَهُم الذين تحزَّبوا ضدَّ رسول الله ﷺ ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾[1] وهو الذي لا يوافق بعض أحكامهم، أو ما حرَّفوه في كتابهم. ﴿قُلْ﴾ إلزاماً لهم ورداً لإنكارهم: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ﴾ بما كان موجوداً في كتابكم قبل التحريف، وهو: ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ شيئاً، ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾ أي: مرجعي للحساب والجزاء. هذه عقيدتي التي أُمرت بها، ولا أحيد عنها، لأنها الحقُّ الواضح والدِّين الصالح.

ثم تابع الرد علىٰ إنكارهم بعضَه، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: القرآن ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أي: تشريعاً جديداً وكياناً فريداً، فلا غرابة أن خالف شريعة التوراة في بعض الأحكام؛ لأن الشريعة الجديدة تخالف الشريعة القديمة المنسوخة في بعض أحكامها بحكم التدرُّج في الرقي، والصعود من درجة إلىٰ أرقىٰ منها في الكمال، كما قال تعالىٰ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]، فالشريعة الجديدة دستورٌ مُسْتَقل قائمٌ بذاته، وإن كانا من طبيعة واحدة، فلا غَرَابة إذ تبدَّل فيه حكم من الأحكام أو أدب من الآداب التي كانت قبله. فلماذا ينكرون، وعلام يعترضون؟ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

---

(١) ومن جملة ما أنكروه: أمر تحويل القبلة عن بيت المقدس، وتحليل الأطعمة التي حرَّمها الله عليهم أو حرَّموها من تلقاء أنفسهم، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣ – ٩٧]، فختم بها الردّ عليهم والتأنيب. وكذلك أنكروا نظام توسيع الزواج للنبيِّ ﷺ، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ...﴾ [الرعد: ٣٨]. فألمع سبحانه أنَّ لكل أمدٍ وزمانٍ شريعةً ينزلها الله علىٰ نبيٍّ من الأنبياء ينسخ بها ما قبلها من الشرائع. (المؤلف).

ويجوز أن يكون في الآية إلماعٌ إلىٰ وجوب أن يكون الحكم للعرب لا يتعدّاهم إلىٰ غيرهم من المسلمين، فالدين الإسلامي عامٌّ للبشر أجمعين، وطبيعة الحكم ولغته عربية ليكون البشر أُمّة واحدة، وإن اختلفوا في الأجناس، والله أعلم. والعربي بنظر الشرع: مَنْ يتّصف بأمرين: التدين بالإسلام، والتكلم بالعربية. وكلُّ من يدين بهذا الدِّين ويتكلم العربية فهو عربيّ، كما جاء في الأثر[1]. والعربُ هم الحاكمون به، والحاملون لنبراسه، والناشرون لدعوته.

ولا يجوز لدولة المسلمين أن تكون طبيعتها غير الطبيعة العربية، ولا يجوز لهذه الدولة أن تكون لغتها غير عربية، وكان الأمر كذلك بعد تفرُّق العباسِيِّين إلىٰ دُوَيْلات إلىٰ حدود الثمانمئة الهجرية، إذ من المعلوم أنَّ كلَّ أمة ينزل كتابُ الشريعة بلغتهم يجب عليهم أن يكونوا هم الدعاةَ إليه والناشرين تعاليمَه في الأمم والبلاد، وكذلك اللغة العربية لأنها وسيلة الدِّين، وحكم الوسائل كالمقاصد. فالدينُ الإسلاميُّ لا يعيش بصورته الصحيحة تحت راية أعجمية، وإنما يعيش ويربُو ويُفهَمُ بمعناه الواضح في محيط عربيّ، وتحت راية عربية، ولقد ضاع وضَؤُلَ حين ضيَّعه أهله.

ثم أردف الردَّ بهذا التهديد الشديد، وبناه علىٰ الغرض البعيد، ليكون لوناً من ألوان شدَّة البيان بوجوب التمسُّك بكل ما جاء في هذا القرآن، وإن خالف التوراة في بعض أحكامه، وضمَّنه وعيداً رهيباً لمن أنكر بعضَه علىٰ ما فيه من حُجج دامغة وبرهان، فقال: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ في هذا القرآن ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾، ومن المعلوم أنَّ شرط (إن) لا يقتضي الوقوع، فهو لا يدل علىٰ

---

(١) وهو: «يا أيها الناس، إن الربَّ ربٌّ واحد، وإن الأب أب واحد، وإن الدين دين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم فإنما هي اللسان، فمن تكلَّم العربيَّة فهو عربي». عزاه في «كنز العمال» (٣٣٩٣٦) إلى ابن عساكر عن أبي سلمة بن عبد الرحمن مرسلاً.

أن اتِّباع أهوائهم متوقَّع منه ﷺ. كلا، وإنما هو فرضٌ لبيان مضمونه، أو خطابٌ للأمة في شخص النبي ﷺ حسب عُرْف التخاطب مع الرؤساء والزعماء، فقد يقال للزعيم: إن فعلت هذا كانت عاقبته كذا. والمراد: إن فعله قومك أو أمتك.

وفي توجيه الخطاب له ﷺ أمر آخر، وهو التنبيه إلىٰ أن هذا الذنب عظيم يُجازىٰ عليه هذا الجزاء الشديد، حتىٰ لو فُرِضَ وُقوعُه منك. فهو أسلوب من أساليب البيان المصُوغة للمبالغة في تفظيع الخَطْب وتهويل الشأن.

ويجوز أن تكون الآية لوناً من ألوان إلزامه الصبرَ علىٰ ما يلقاه من المشركين.

أما قوله: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ فهو معنىٰ مُنْتَزَع من حال المخاطَبين، حيث يستنجد المغلوب بمن ينصره ويقيه من الغالب أو المتسلِّط. والمعنىٰ: لا أحد ينصره من عذاب الله ويقيه منه. فهو كنايةٌ عن تحقُّق الوعيد وإنجازه. وانتزاع المعنىٰ من حال المخاطبين أسلوب من أساليب القرآن، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة).

ثم ردَّ علىٰ مَنْ ينكر بعضَه، ومنه إنكارهم عليه تعدُّدَ الزوجات، وأنه مسلك المترفين لا مَسْلك النبيين، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾؛ إذ لا تعارض بين الزواج والنبوة، فلا ينبغي أن يستنكروا منك ذلك. وتاريخ الأنبياء في ذلك ظاهر معروف، كما في إبراهيم وإسحق ويعقوب.

ثم تمَّم الرد علىٰ من ينكر بعض أحكام القرآن من أهل الكتاب لعدم موافقته لما عندهم، وبيَّن أنَّ الرسول لا يأتي بذلك من عند نفسه، بل بأمر الله تعالىٰ ووحيه، وأنه سبحانه يُبدِّل بعض أحكام الشرائع التي ينسخها، فيأتي بخير منها أو مثلها، بحسب تغيُّر بعض المصالح بتغيُّر الأزمان ورُقيِّ نوع الإنسان، ولا يخرج ذلك عمَّا في علمه الثابت من الحِكَم والمصالح العامة، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

وقد ضمَّن الكلام رداً لكثير من شُبَهِهم؛ حيث أراد بلفظ «الآية» ثلاثة أنواع منها: الآية القرآنية التي تأتي بحكم شرعي، والآية الكونية التي تكون معجزة لنبيّ، والآية الكونية التعذيبيَّة التي كان الرسول يتوعَّدهم بها، ويستهزئون بطلب تعجيلها. أي: لم يكن في مَقْدرة الرسول أن يأتيكم من عنده بآيةٍ قرآنية تطلبون تبديلها أو آية كونية تطلبون تعجيلها، وإنما يكون ذلك بإرادة الله وصنعه، وفي الوقت الذي يُقدِّره لها، إذ ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾ أي: لكل تأجيل وقت، ولكلِّ مدَّةٍ من المدد ووقتٍ من الأوقات أحكامُ شريعةٍ معيَّنة تُكتَبُ على العباد، نظراً لِمَا تقتضيه الحكمة بحسب تغيُّر أحوالهم، وبنتيجة تقدُّم النوع الإنساني في النُّشوء والارتقاء، لأنَّ الإنسان يحبُو في مدارج الرقيّ النوعيِّ في سَعَة العلم ومجَال التفكير وقوَّة الإدراك، فتعلُو الشريعة معه في أساليب الإفهام وتبديل بعض الأحكام دون الأسس الثابتة في الشرائع كلِّها، ولذلك ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من أحكام الشريعة السابقة، لِمَا تَقْتضيه الحكمة الحاضرة، ﴿وَيُثْبِتُ﴾ بَدَلَه ما يوافق مُستوى الإنسان الحديث، ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ أي: أمُّ الشرائع، وهو علمُهُ الأزليُّ بالحِكَم والمصالح والأحوال في مختلف الأزمان[1].

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

---

(١) والمعنى الأصح: يمحو اللهُ ما يشاء مَحْوَهُ، ويُثبِتُ ما يشاء إثباتَه في صُحُفِ الملائكة، وعنده أمُّ الكتاب، وهو: اللوح المحفوظ الذي لا يتعرَّض للمَحْوِ والتغيير؛ لأنه قد كُتب فيه ما هو كائن بحسب علم الله تعالى.

ثم أردف السياق المتضمِّن لعنادهم، بما فيه وَعْدٌ بخذلانهم وأخذهم بالعذاب حالاً أو مآلاً، وإيماءٌ إلىٰ أنَّ ذلك لا يخصُّه ﷺ، وإنما عليه البلاغ وعلىٰ الله الحساب، وإلىٰ أنَّ الله سبحانه لا يُخْلِفُ وَعْدَه بعذابهم الدنيويِّ وإن تأخَّر. يردُّ بذلك علىٰ استهزائهم في استعجال العذاب، فقال: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ من إنزال العذاب بهم، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ وقد أدَّيته، ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ فسَنُجازيهم بما يستحقون، وقد يُبطِئُ هذا الجزاء. وإنما قال: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ لأنَّ المعجَّل من عذابهم في الدنيا هو بعضُ ما يستحقُّون وما يعدُهم الله به من العذاب. وفي هذا تقريرٌ لِـمَا يتعجَّلون به استهزاءً مِن وعيدِ الرسول لهم بالعذاب، وبيانٌ لطبيعة وعيد المعارضين للأنبياء، فقد يتعجَّل وقد يتأخَّر، حيث عذَّب سبحانه بني إسرائيل من بعد موسىٰ عليه السلام بأنواع من الأسْر والقهر والتنكيل.

ثم ذكَّرهم بما يكون لهم كالبيِّنة علىٰ قُرب ما يُوعَدُون به، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾[1] أي: أوَلم يَرَ أهلُ مكة وغيرُهم من المعارضين أنا نفتح لمحمد ما حَوْلها من القُرىٰ واحدةً بعد أخرىٰ، فتَتَّسع رقعته ﷺ وتضيق رقعتهم، أفلا يُدركون أنا سنفتح له أرضهم كما فتحنا غيرها[2]؟ ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا

---

(١) يقول العلماء: إن تكرر الليل والنهار المتولِّد من دوران الأرض علىٰ نفسها أحقاباً لا تحصىٰ أنقَصَ نصف وزنها بما يتطاير منها في الفضاء طوال هذه الأزمان المديدة، والله أعلم. إلا أن القرآن ينهج في المعاني منهج عُرف التخاطب، لا منهج المعاني العلمية، فما ذكرناه من المعنىٰ العرفي هو المقصود من الآية. (المؤلف).

(٢) هذا التفسير يستقيم على القول بأن السورة مدنيَّة، والراجح أن السورة مكية، ومثلها ما جاء في سورة الأنبياء المكيَّة: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ [الأنبياء: ٤٤]. والصحيح في معنى الآية: أن الله سبحانه يُديلُ الدولَ بين الناس، فيأخذ من هذه الدولة لتلك =

﴿مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾[١] أي: لا يُعَقِّبُ أحدٌ حكمه بالرد والنقض، بمعنىٰ: لا رادَّ لحكمه وقضائه، ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ يُوفِّي كلَّ عامل عمله من دون إمهال؛ لأنّ سنَّته مَضَت أن تكون النتائج آثاراً للأعمال، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]. وأما سُرعة الحساب يوم الحساب، فذلك بإدراك الناس كلِّهم دفعة واحدة لأعمالهم، بحيث يُدرك كلُّ واحد منهم ما عمل من خير أو شر، فيعلم ما له وما عليه، وما يستحقُّ علىٰ كلِّ عمل من نعيم أو عقاب. والله أعلم[٢].

ثم نبَّههم إلىٰ سرعة ما كان من مصير أمثالهم من المكذِّبين في الأمم الغابرة، فقال: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ في تكذيب الرسل ومعارضتهم بكلِّ ما في وسعهم من مكر وتدبير، فأبطل الله مَكْرَهم وأيَّد رسله، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أي: لا تدبير خفياً لسواه. وقال أبو مسلم: معناه: أنه يملك الجزاء علىٰ المكر ولا يشاركه فيه غيره. وقال الجُبّائي: يريد بالمكر: ما يفعل الله تعالىٰ بهم من المكروه.

= الدولة، فتصغر الدول الكبيرة، وتضيق الدول الواسعة، وتضعف الدول القوية: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

(١) الحكم هنا ـ كما في سياق الآية ـ الحكم الكوني، أي: يتصرّف في الكون كما يشاء. والله سبحانه له الحاكميَّة الكونيَّة والحاكميَّة الشرعيَّة ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] فالحاكميَّة الكونيَّة تتَّصل بالخلق، والحاكميَّة الشرعية تتصل بالأمر، أي: الحكم الشرعي التكليفي.

(٢) ينبغي أن يُفسَّر «الحساب» بمعنى أزيد من إدراك الإنسان لعمله وما له وما عليه، فالأب إذا أوقَفَ ابنه على أعماله وعرضها له لا يُقال عنه: إنه حاسبه، وإنما يُقال ذلك فيما إذا أتبع هذا العَرْض بالمعاتبة أو التوبيخ أو التأنيب أو العقوبة. وعليه، فسرعة الحساب تكون بإدراك الناس كلِّهم دفعة واحدة لأعمالهم، مع بيان ما يترتب لكل واحد منهم على عمله من مثوبة أو عقوبة، مع تفصيل ما سُتر عليه منها، وما غُفر له، وما شفع له فيه شافع، ونحو ذلك، والله أعلم.

ثم ختم الآية بما يدل علىٰ التهديد والتقرير لذلك المكر، فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فيعدُّ لها الجزاء، ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ أي: لمن العاقبة الحميدة من الفريقين في الدارين.

ثم ختم السورة المشحونة بمعانداتهم وإنكارهم لنبوته ﷺ، ولما جاء به من النور المبين، بهذه الحجة الدامغة، والشهادة المُثْبتة لهذا الحقِّ اليقين، فقال: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بما أظهر من الآيات وأبان من الدلالات علىٰ نبوَّتي، وردَّ عليكم من الشبه والخزعبلات، فاللهُ سبحانه يشهدُ بنبوَّتي ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾ أي: المؤمنون من أهل الكتاب، فإنهم يشهدون علىٰ صدق نبوَّتي، وأن ما جئتُ به هو الحق المبين. وكان مشركو العرب يعتمدون علىٰ أهل الكتاب لأقوالهم في ذلك.

* * *



مكية، وهي اثنتان وخمسون آية

والغرض منها كالتي قبلها:

ـ إثبات نزول القرآن.

ـ وأنه هداية للناس، دعاهم إلىٰ التوحيد والإيمان وصالح الأعمال.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾.

﴿الر﴾ أوضحنا الكلام علىٰ الحروف التي تُبْتَدَأُ بها بعضُ السور في أول سورة البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لتنبيه الفكر وإثارته إلىٰ ما يأتي بعدها اهتماماً به، ومنه هنا قوله: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾ بدعائك إيَّاهم إلىٰ ما تضمَّنه من البيان لسُبُل الرشاد، وتُنقِذَهم بذلك ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ والضلال ﴿إِلَى النُّورِ﴾[1]

---

(١) نزل القرآن والناس في جَهَالة جهلاء، إرادتهم مسلوبة، وعقولهم عن التفكير محجوبة، والفوضىٰ ضاربةٌ أطنابَها في كلِّ مكان، والرذائل فاشية، والظلم حاكم منتشر، والشرك قد أفسد القلوب، وأكل كلَّ بقية من الإيمان، فوقع الناس في أسر الذل والعبودية وحطة الجهل والشقاء، وتهدَّمت دعائم الحياة الاجتماعية، وارتدَّ الإنسان إلىٰ أسفل سافلين. فمنَّ الله سبحانه علىٰ بني الإنسان وأنقذهم من ذلك الفناء بإنزال هذا القرآن علىٰ محمد ﷺ، ليخرج الناس من هذه الظلمات الحالكة إلىٰ النور الوضّاء المبين، بإذن ربِّ العالمين وأرحم الراحمين، جلَّت قدرته وعَظُم نواله، =

والهُدىٰ، واستعارة «الظلمات» للضلال و«النور» للهدىٰ من خصائص اللغة ومعروف في تعابير القرآن.

وكذلك قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ مُستعار من الإذن الذي هو تسهيل الحجاب، أي: بتيسير الله وتسهيله، وذلك بما مَنَحهم من الطبيعة الصالحة ما لم يفسدوها، ومن إرسال الرسل وإنزال الكتب، وبما يمنحهم من التوفيق للسداد.

وقوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بَدَلٌ من ﴿ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، أفاد به أنه هو الطريق المُوصِلُ إلىٰ الله العزيز الكريم، مُفيض الخير العميم في هذا الكون العظيم.

وفي وَصْفَي العزَّة والحمد: ترهيبٌ وترغيب، أضاف إليهما التحذير والتهديد بقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢﴾ فهو وعيدٌ مُرْهِبٌ لمن كفر بهذا الكتاب من سائر البشر، ولم يخرج به من الظلمات إلىٰ النور، ولم يَخُصَّ اللهَ بالربوبية، وجعل له شريكاً في ملكه، أو وسيطاً يتوسط به.

ثم وصف هؤلاء الكافرين بما يُومئُ إلىٰ الباعث لهم علىٰ ذلك الكفر، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: يختارونها عليها ويفرطون بالآخرة في سبيل الدنيا، أمثال العظماء من مشركي قريش، أعرضوا عن الإيمان بهذا القرآن واتّباع محمد ﷺ ضناً وتمسُّكاً بمراكزهم أن تزول، وبسيادتهم علىٰ أتباعهم أن تُمحىٰ، فأخذوا يعارضون الدعوة ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لأنهم يَرَوْنَها تصدُّهم عن مآربهم في دنياهم، وتُديلُ دولَتهم، فأخذوا يعارضونها بكلِّ قواهم، ﴿وَيَبْغُونَهَا

= ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦]. (المؤلف).

﴿عِوَجًا﴾ أي: يلتمسون لها المثالب ليُزَهِّدوا الناسَ عنها، أو: يبغون سبيلاً معوجة. فسجَّل عليهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ۝٣﴾.

ثم أكمل البيان بالكلام عن سبب إنزال القرآن عليه ﷺ باللغة العربية مع أنه لسائر الأمم، وردَّ علىٰ من يقول: لِـمَ لَـمْ ينزل بلغة التوراة، فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ويفهموا عنه، ثم هم يحملون ذلك النبراس، وينشرون النور والهدىٰ في الناس، ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾[1] وهو الذي آثر أسباب الضلال فتشبَّع بها، ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ وهو الذي آثر أسباب الهدىٰ فتشبَّع بها، وذلك لأنَّ سنة الله في أخلاق الإنسان وطباعِهِ قَضَتْ بأنه إذا تشبَّع بشيء لا يميل إلىٰ سواه، وينتحل لعقيدته أو عادته التي رَسَخت فيه البراهين والحجج، كما يلتمس لِـمَا يخالفها التضليل والتفنيد. وإيثارُ أسبابِ الضلال إنما يكون بإفساده لطبيعته، وليس من أصل خلقته. وإسناد الإضلال إلىٰ الله باعتبار ذلك، كما يقال: لقد أعماه الله، وما العَمَىٰ إلا مرضٌ طارئ علىٰ الطبيعة من معاكسة الأسباب التي جَعَلها الله لحفظ العين والبصر، أو من قِلَّة العناية بتطبيقها تطبيقاً صحيحاً. وكذلك مشيئته سبحانه لم تَجْرِ جزافاً واعتباطاً، كلا، وإنما تجري بالحقِّ والعدل، وفي سُنن مطَّردة لا تتبدَّل، فلم يشأ سبحانه إلا إضلالَ من حَرَّف فطرته، وهَدْيَ من حافظ عليها، وبذلك جرت سنته في تكوين الإنسان.

---

(١) ليس المراد: أنه سبحانه يُلقِي عليه الضلالَ قصْداً أو يخلقه ضالاً، كلا، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وإنما المراد: أنه يضل بإفساده لفطرته بالبيئة والتقليد والخلطاء الضالِّين، فيعرض عن أسباب الهدىٰ ويتمسَّك بالضلال، حتىٰ يرسخ فيه وتعمىٰ عليه بصيرتُه، فلا يرىٰ الحقَّ ولا يميل إليه. (المؤلف).

وتقدَّم التعليق على قول المؤلف: «ليس المراد: أنه سبحانه يلقي عليه الضلال قصداً»، بأنه ينبغي أن يقال: ليس المراد: أنه يلقي عليه الضلال جبراً. ص١١٣.

ثم عَـقَّبَ علىٰ ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ للإشـارة إلىٰ أن معاكسة هذا المعاند الضّال لم تكن غلبةً للقدرة الإلهية، بل تماشياً مع ما ذكر من سنة الله الكونية في كيفيَّة انطباعات الإنسان الاختيارية، تلك السنّة العامة التي اقتضتها الحكمة الربَّانية في الطبيعة البشرية.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾.

ثم أيَّد البيان بالواقع، فقصَّ علينا كيف أرسل رسلاً إلىٰ الأمم فبيَّنوا لهم، فاهتدىٰ من كان قد احتفظ بسلامة فطرته ونور بصيرته وهو القليل، وضلَّ من كان قد أفسد طبيعته فرسخ فيه الكفرُ والضلال. وخصَّ من بينهم بالذكر موسىٰ عليه السلام، فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ ﴾ وهي معجزاتـه التي أظهرها لبني إسـرائيل، وأوحىٰ إليه: ﴿أَنْ أَخْـرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ أي: بـهدايتك إيَّاهم بالكتاب الذي أُنزل إليك، ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ ﴾ قيل: المراد بها: وقائع الله في الأمم الماضية ليحذروا ذلك. وقيل: بل المراد بها: نِعَم الله في سائر أيامه. وقال أبو مسلم: المراد: سُنَّته وأفعاله في عباده من إنعام وانتقام، وكنَّىٰ بالأيام عنها لأنها ظرف لها. أقول: وهذا جَمْعٌ بين القولين؛ لأنَّ الكلام يتَّسع لهما، ولا يبعد أن يُراد بها أحوال الآخرة، والله أعلم.

ثم علَّل ذلك بالغاية منها، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التذكير ﴿لَآيَاتٍ﴾ وعِبَراً ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾ أي: لكلِّ مؤمن حقاً، لأنَّ الصبر علىٰ البلاء والشكر علىٰ النَّعماء من خصائص المؤمنين، والمؤمنُ يكون محافظاً علىٰ سلامة فطرته ونور بصيرته، فيدرك الحق ويتَّبعه، ويُبصِر الباطل فيَجْتنبه، كما هو مستعدٌ للنظر والتدقيق في آثار الله.

ثم قصَّ ما جَرَىٰ له مع قومه عندما دعاهم، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: يذلونكم أقبحَ الذُّلِّ، ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ تقليلاً لعددكم، ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أي: يُبقون البنات أحياء مع الذل والصَّغار، ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾ أي: محنةٌ واختبارٌ لكم، ليتبيَّن حالكم لأنفسكم كيف أنكم ذللتم هذا الذلَّ الفظيعَ بترككم ما لو كنتم تمسَّكتم به من شريعة الله لكنتم من القوَّة وصلاح الحال علىٰ جانب عظيم، يدفع عنكم قهرَ هؤلاء المتجبِّرين.

ويجوز أن تكون الإشارة إلىٰ الإنجاء، ويكون المراد بالبلاء: الاختبار بالنعمة، لأنَّ الله سبحانه يختبر بها كما يختبر بالنقمة. والمعنىٰ: وفي ذلك الإنجاء امتحانٌ لكم يَظهَرُ به شكرُ الشاكرين، وكفرُ الكافرين. كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ وهذا الفعل مُرادِفٌ لـ«آذن»، بمعنىٰ: أعلم، وهما في الاشتقاق مثل: توعَّد وأوعد، وهو أبلغ من «أذن»، لِمَا في «تفعَّل» من معنىٰ المبالغة. أي: قد بالغ في إعلامكم: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ ما أنعمت به عليكم من الإنجاء والإيحاء وغيرهما من النِّعَم، ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ نِعَماً إلىٰ نعمكم، ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾، ومن كمال فضل الله: التصريح بالوعد والتعريض بالوعيد.

ثم إنَّ موسىٰ بيَّن بعد ذلك ما يعلمه من حقيقة الأمر، وهو أن مضارَّ الكفر ومنافعَ الشكر تعود علىٰ صاحبها. أما الله سبحانه فهو مُتعال عن أن ينتفع بالشكر أو يتضرر بالكفر، كما حكىٰ عنه ذلك سبحانه بقوله: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ٨ ﴾ لا يُضِرُّ بعظمته وعُلوِّ شأنه كفرُكم شيئاً، ولا كفرُ أهل الأرض جميعاً.

﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٩ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٠ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ١٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ١٤ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ١٥ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ١٧ ﴾.

ثم وعظهم موسىٰ عليه السلام وذكَّرهم بأحوال الأمم المتمرِّدة علىٰ أنبيائها، كما أمره الله، فقال: ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ

﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، فأشار بهذه الجملة إلىٰ عددهم العظيم وكثرتهم البالغة الحدِّ، وإلىٰ أن ما بين هؤلاء الأمم وبين زمن موسىٰ عليه السلام قرون كثيرة وأمم عديدة لا يضبطها التاريخ، لذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: كَذَبَ النَّسابون[1]. يعني بهم: الذين يسردون نسب الأقوام إلىٰ نوح وآدم، لأنَّ تَقَادم العهد البعيد طَمَس معالم هذا النسب المديد.

ثم فصَّل ما كان من أمر أولئك الأمم مع أنبيائها، فقال: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾.

وقد اختلف المفسرون في معنىٰ هذه الجملة علىٰ أقوال، أَوْلاها: إن الواو في ﴿فَرَدُّوٓاْ﴾ يعود إلىٰ المُرسَل إليهم، والضميران في ﴿أَيۡدِيَهُمۡ﴾ و﴿أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ يعودان إلىٰ الرسل، أي: أخذ المُرسَلُ إليهم أيْدِيَ الرسل فوضعوها علىٰ أفواههم ليسكتوهم، وليس هذا علىٰ الحقيقة، بل علىٰ الكناية، ولا يلزم في الكناية تحقُّق المعنىٰ اللغوي، فهو مجرد تمثيل لمعارضتهم الشديدة وصَدِّهم عن تبليغ رسالاتهم. وفيه رمز إلىٰ قوَّة المعارضة؛ لأن في هذا التمثيل تصويراً لتعطيل أيدي الرسل وألسنتهم عن القول والعمل.

وبعد أن أجمل هذا المعنىٰ بهذه الجملة البليغة، فصَّله بما يأتي، فقال: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٩﴾، فهذا كلام يُؤْذِنُ بالمعارَضة الشديدة، والعناد اللدود، قولاً وفعلاً.

ثم حكىٰ ما أجابتهم به رسلهم بقوله: ﴿قَالَتۡ﴾ لهم ﴿رُسُلُهُمۡ﴾ ناقضةً عليهم قولهم، ورَادّةً عليهم شكَّهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ﴾[2] مع كثرة الأدلة من هذا الكون

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦: ٥٣٠).

(٢) وجود الله تعالىٰ من البداهات التي يُدركها الإنسان بفطرته، ويهتدي إليها بطبيعته، وليس من =

الظاهرة الدلالة علىٰ وجوده واختصاصه بالألوهية، وأشاروا إلىٰ هذا المعنىٰ بقولهم: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالِقِها علىٰ هذا النظام البديع والإحكام الدقيق. فكلُّ شيء فيها يدل عليه دلالة واضحة، ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥]، وعلىٰ صفاته دلالة ظاهرة جلية، كالشمس في رابعة النهار، والاستدلال بالأثر علىٰ المؤثِّر من أقوىٰ الأدلة المُثبِتَة، وهو سبحانه ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: إنما هو سبحانه ـ بهذا الوحي الذي أرسل به إليكم ـ يدعوكم إلىٰ ما فيه مصلحتكم وكمالُ فِطَرِكم من تهذيب أرواحكم، وغفران آثامكم، وصلاحكم للدار الآخرة التي أشار إليها بقوله: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: معيَّن ومقدَّر لقبضكم إليه ونقلكم من الدنيا إلىٰ الأخرىٰ، لتنالوا جَزاءَكم علىٰ الإحسان إحساناً، وعلىٰ السوء سُوءاً.

هذا ما قاله لهم رسلُهم ودَعَوْهم به إلىٰ الله، ولكنهم عارضوا وأعرضوا و﴿قَالُوٓاْ﴾ منكرين رسالتهم ورادِّين عليهم دعوتَهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ لا فَضْل لكم يُؤهِّلكم لِمَا تَدَّعُونه من النبوَّة والرسالة، وإنما ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ من غير شيء يوجب ذلك، ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ وحُجَّةٍ واضحةٍ علىٰ فَضْلكم واستحقاقكم لهذه المزيَّة، وصحَّة ادِّعائكم لما تَدَّعون، كأنهم لم يعتبروا ما جاؤوا به من البيِّنات، واقترحوا عليهم آيةً أخرىٰ تعنُّتاً ولجاجاً.

= المسائل المعقَّدة ولا من حقائق التفكير العويصة، ولولا البيئات الفاسدة التي تمسخ الفطرة، وتُولِّد فيها من العلل ما تجعلها تَعافُ العذْب الفرات، وتستسيغ الملح الأجاج، ما كان في الناس منكر ولا ملحد. وإنما جاءت الرسل لتصحيح فكرة الناس عن الألوهية، فإنهم ـ وإن عرفوا الله بطبيعتهم ـ إلا أنهم أخطؤوا في الإشراك به والفهم عنه، وضلوا ضلالاً بعيداً. (المؤلف).

واستنادهم في ذلك علىٰ قولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ يُنْبئ عن مُنتهىٰ الحُمْق والجهالة، لأنَّ الله سبحانه لم يكن ليبعث رسلاً إلىٰ البشر إلا من البشر، وبلسان قومهم ليبيِّنوا لهم. وقد مضت سُنَّة الله في ذلك حتىٰ كان متعارفاً في تاريخ الرسل، إذ لا يُمكن لكلِّ بشر أن يفهم عن المَلَكِ الذي هو الوحي، وإنما ذلك خاصَّة في الأنبياء أودعها الله فيهم بمقتضىٰ كمالهم في حدود البشريَّة وبلوغهم مُنتهاها في أصل تكوينهم. وهو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١]، وقوله تعالىٰ: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١]، لأن الأنبياء مُزوَّدون بالقدرة علىٰ الاتِّصال بالوحي، وعلىٰ استلهام المعلومات عن الله سبحانه بحُكم تناهيهم في الكمال. وليست هذه القدرة المُوهَبة عند غيرهم من البشر، إذ ليس في أحدٍ كمالُ الأنبياء، ولا مُزوَّد بهذا الاستعداد، مهما بلغ من الألمعية والنبوغ.

ثم ذكر ما أجابتهم به الرسلُ مما تضمَّن ذلك، فقال: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ ناقضةً لقولهم علىٰ طريقة مُجاراة الخصم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ ـ كما تقولون ـ ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ﴾ بالنبوة ﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، فيخصُّهم بها ويُميِّزهم بخصائص تؤهِّلهم لها، ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بمشيئته وتيسيره. يريدون: إنا لا نقدر من تلقاء أنفسنا أن نأتي بالمعجزات والخوارق، ونجيب اقتراحكم هذا، فذلك مما لا يقدر عليه البشر. وإنما يكون إذا خوَّلَنا اللهُ به. وهذا النوع من النفي يقال له: نفيُ الشأن، وهو أبلغ صُور النفي وأدلُّه علىٰ بُعْد الإمكان، ثم قالوا في إتمام البيان: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

ثم أكَّدوا التوكُّل بهذه العبارة الدالة علىٰ استبعاد عدم توكُّلهم مع وجود المقتضي

وانعدام المانع، فقالوا: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ برسالته ووحيه[1]، فهو الذي ينصرنا عليكم، ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ فالعاقبة للصابرين والمتقين.

ثم ذكر ما أجابوا به الرسل من السَّفاهة بعد أن ألزموهم بالحُجَّة، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: المُغالون في الكفر منهم ﴿لِرُسُلِهِمْ﴾ بعد ذلك الإلزام: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى[2] مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ عند تناهي كفر الكفرة وبلوغهم من العُتوِّ إلىٰ غايةٍ لا مَطْمَع بعدها في إيمانهم، وقال: ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: أرضَهم وديارَهم. ثم ذكر سنته العامة في ذلك، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ النصر علىٰ الأعداء إنما هو ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى[3] وَخَافَ وَعِيدِ[4] ﴿١٤﴾﴾ لا للضالين المُضِلِّين.

---

(١) الصواب أن يُقال: وقد هدانا سُبُلَنا لتحقيق النجاة من التعرُّض للهلاك بأيدي الكافرين. وليس وارداً في عبارة الرسل: ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ أن يكون المراد: سُبُلَ الدين، فسبيل الله الدينيّ لجميع الرسل سبيلٌ واحدة لا تعدُّد فيها، لكنها هنا سُبُل النجاة من القتل بأيدي أعدائهم الكافرين، وهي السُّبل المختلفة التي هداهم الله إلىٰ سلوكها للخلاص من تهديد أعدائهم لهم بالقتل، وكل ما جاء في القرآن من مادة (سبيل) فالمراد: شرائع الدين وأحكامه. وأما إذا جاء مجموعاً فقد جاء للدلالة علىٰ سُبل الأرض، أو سُبل الرزق، أو سُبل السلامة والنَّجاة في الدنيا.

(٢) أي: لتعودُنَّ عن دينكم الجديد الذي آمنتم به، ولتدخُلُنَّ في ديننا.

(٣) أي: خاف قيامي عليه ومراقبتي له، ومقامه بين يدي يوم القيامة. ويستعمل «المقام» كناية عن الذات الحاضرة في مكان القيام على سبيل التعظيم. والمراد: الذات المقدَّسة. وينظر تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

(٤) أي: وعيدي وتهديدي لمن يخالف أمري.

ثم أردف الوعد بإنجازه، فقال: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ أي: طلبت الرسلُ الفتحَ والنصرَ من الله تعالىٰ، فأعطاهم ذلك، ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ من معارضيهم ومعانديهم.

وبعد بيان مصير هذا المُعاند الجبَّار في الدنيا، بيَّن مصيره في الآخرة، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ[1] وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ[2] ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ[3]﴾ بعذاب أليم، ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ فيغصُّ به ويطول عذابُه، ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ لتوفُّر أسبابه ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ فيستريح. وذلك علىٰ حسب السنة الكونية في الدار الآخرة. وهذه الجملة من أبلغ التعابير لتصوير العذاب الشديد الدائم. ثم قال في تكميل البيان: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾[4]، ومُلخَّص البيان: أنه يستقبل كلَّ وقت عذاباً أشدَّ وأشقَّ مما كان قبله. أعاذنا الله.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾.

ثم تابع السياق بضرب هذا المثل لخيبة الكافرين في أعمالهم التي يعتقدونها سبباً لنجاتهم في الآخرة، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ

---

(١) أي: سوف يكون مصير هذا الكافر يوم القيامة جهنم، وهي غيبٌ بالنسبة له.

(٢) هذا بيان لنوع الماء المتقدِّم. والصديد: هو ما يسيل من جلود أهل النارمن قيح مخلوط بدم.

(٣) يتكلف شُرْبَه جرعةً بعد جرعة، لشدَّة حاجته إلى ما يُطفئ عطشه.

(٤) أي: سوف يأتيه بعد هذا العذاب في مستقبلِ بقاءِهِ في جهنم عذابٌ آخرُ شديدٌ مؤلم.

﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾، فلم تترك منه ذرةً، حيث إنهم ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ يوم القيامة ولا يحصلون ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ وعملوا من تلك الأعمال ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾[1] لحبوطها، لأنها بُنيت علىٰ غير أساس من معرفة الله تعالىٰ والإيمان به علىٰ الوجه الصحيح. ولم تكن موافقةً لِمَا أراده الله وارتضاه من الأعمال التي يُتوجَّه بها إليه ويُتعبَّد له فيها، والتي تُؤَهِّل الأرواح للسعادة الأخرويَّة[2]، فلم يكن لها أثر من ثواب أو تخفيف عذاب، كدأب الرماد المذكور؛ لأنهم ـ بعملهم هذا ـ كمن يطلب أمراً بوسائل غير مؤدية لنيله، وطرق غير موصلة إليه، لأنها ليست من الله، ولكن من مخترعات المضِلين. وهذه الآية شبيهة بما جاء في سورة النور بقوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ﴾ [النور: ٣٩] الآيات. وهذا المثل أبلغُ تصويرٍ لِمَا ينالهم من الحسرة والخسارة وعدم الانتفاع، و﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾.

وتقريراً لِمَا ذكر من الوعيد، حقَّق أمر البعث، وأتىٰ بصيغة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ لتصوير الأمر المُتحقِّق بصورة الظاهر المرئي، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: للغرض الصحيح والأمر الحقِّ المُسْتَتْبِع للغايات الجليلة والمقاصد النبيلة، يشير إلىٰ أنَّ خلقهما لم يكن عَبَثاً، ولا شيئاً سُدىٰ، ولكن لأمرٍ له ما بعده من الحشر والحساب والجنة والنار.

وبعد التنبيه إلىٰ قدرته العظيمة وأعماله الحكيمة، هدَّدهم علىٰ الشِّرك والمعارَضة بقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ بل هو

---

(١) الإيمان الصحيح في الأعمال كالقلب السليم في الجسم، إذا صَلَحَ صَلَح الجسد كلُّه، وإذا فَسَد فسد الجسدُ كله. فأعمال هؤلاء كمَنْ يطلب أمراً ويسعىٰ إليه من غير طريقه. (المؤلف).

(٢) تقييد ذلك بالأرواح يُوهِم معنى فاسداً، وهو كون النعيم والعذاب يوم القيامة للروح دون الجسد، وهو قول الفلاسفة، فكان الأَوْلى بالمؤلف رحمه الله اجتنابه.

هيِّن عليه، ولا تقف رحمته دون حكمته. وأتىٰ بصيغة الخطاب ولم يقل: (يُذهِبْهم)؛ زيادةً في الترهيب. ويجوز أن يكون الخطاب علىٰ عمومه، لأنَّ قدرته علىٰ ذلك لا تختص بهم، فيكون البيان عاماً علىٰ وجهه، والتهديد خاصاً.

﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

ثم ذكر المحاورة التي تقوم بين رؤسائهم ومرؤوسيهم يوم الحشر والحساب، تنبيهاً لمصيرهم الأليم، وتوقيفاً لهم علىٰ ذلك ليزدجروا، فقال: ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ أي: يبرزون من قبورهم يوم القيامة للحساب، وعبَّر بالماضي لتحقُّق الوقوع، ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ ﴾ أي: يقول الأتباع للرؤساء: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾، ومُلَخَّص المعنىٰ: إنا اتَّبعناكم للنجاة من هذا اليوم، فعاد علينا الأمر وبالاً، يتحرَّشون بهم، فيجيبهم الرؤساء بما حكاه سبحانه بقوله: ﴿قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ﴾، ولكنْ ضَلَلْنا فأضْلَلْناكم. وهذا جواب باللازم، علىٰ نهج القرآن في مثله، وهو يُؤْذن بأن الإغناء والإنجاء لا يكون إلا للمهتدين بهداية الله، ولا يتأتَّىٰ ذلك إلا لمن لم يفسدوا طبيعتهم بالانطباع علىٰ الضلال والتقليد الأعمىٰ، فيهديهم نورُ العقل إلىٰ اتِّباع الحق وتجنُّب الباطل.

ومُحصَّل هذا الجواب: أنْ قد سُدَّ علينا جميعاً طريق الخلاص، ولات حين مناص، ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ أي: لا مَهْرَب لنا من عذاب الله. وفي هذا الجواب من اليأس وانقطاع الأمل والحسرة والندامة ما يعجز عن وصفه القلم، أعاذنا الله. الحمد لله الذي هدانا لِـمَا هدانا إليه من الحقِّ، وما كنا لنهتديَ لو لا أن هدانا الله.

ثم حكىٰ ما يكون حينئذ من تَنَصُّل الشيطان من أسباب غَوايته لهم وإلقاء التَّبِعَةِ عليهم في تلك الغَواية، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ فأنجزه بالبعث والجزاء، ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ بالباطل ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾، وفي هذا دلالة علىٰ أنَّ الإنسان هو الذي يُفسِدُ علىٰ نفسه أمرَه، ويُدنِّس روحَه ويُدسِّيها باختياره، وإنما الشيطان يوسوس له من دون أن يكون له عليه تسلُّط وإجبار، كما قال: ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ حيث استجبتم لي باختياركم، نتيجةَ إفسادكم لطبيعتكم، فالآن ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بمغيثكم مما ينالكم، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ مُغيثيَّ مما ينالني.

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ أي: إني أتبرّأ مما كنتم تعتقدون في الدنيا من أني شريك لله. أو: من إشراككم إيَّاي بالله، فتكون (ما) مصدرية. وهذا المعنىٰ مفاد قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]. أو المعنىٰ: إني كفرت مِنْ قَبْلُ بالله الذي أشركتموني به، فتكون (ما) موصولة، واختيارها علىٰ (مَنْ) لإيشار معنىٰ الوصفيَّة، علىٰ حد قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل: ٣]. ويكون المراد: إني كفرت من قبلكم بالله حين خالفت أمره، وقد أشركتموني بمثل ذلك واتبعتموني، فلا خلاص لنا جميعاً من عذاب الله؛ ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾، ويجوز أن تكون هذه الفاصلة جملةً مستأنفةً من كلام الله تعالىٰ.

ثم أردف سبحانه وعيدَ الكافرين وبيانَ حالتهم السيِّئة، بوعد المؤمنين وحكاية حالتهم الحَسَنة، علىٰ نهج القرآن في مثل هذه المقابلة، لزيادة التنفير من الكفر والترغيب في الإيمان، فقال: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بتيسيره ورحمته، ثم ذكر ما يدلُّ علىٰ كرامتهم وسعادتهم، ويُؤْذِن بالنجاة من الهَوْل الشديد الذي كان ينالهم لو لم تَنَلْهم هدايةُ الله الأبدية، فقال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾، ففي هذه التحية إشعارٌ بذلك الفوز المبين، والنجاة من ذلك الهول العظيم، جَعَلنا الله من عباده الصالحين الفائزين.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾.

ثم أردف هذا بضرب مَثَل للإيمان والكفر ونتائجهما، تقريراً للسياق، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ في الأرض ضاربٌ بعروقه فيها، ﴿وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ أي: في الفضاء يشمخ للاستفادة من الجوِّ ويرتفع كلَّما بَعُدَت الأصول في الأرض، إذ قد رُوعي فيها القوانين الصحيحة في الغرس والتشجير والسقي والتدبير، وبذلك ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا﴾ أي: ثَمَرها ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ وَقَّتَهُ الله لإثمارها ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أي: بتيسير خالقها.

وهذا مَثَلُ المؤمن والإيمان، فإنه إذا كان صحيحاً راسخاً يزكِّي الغريزة ويُنمِّي استعدادها للخير، فلا يزال ينتج عنها آثار طيبة في النفس وفي الأعمال تؤدِّي إلىٰ سعادة

الدنيا وسعادة الأخرىٰ، ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ لأنَّ في ذلك زيادةَ إفهام وتذكير؛ إذ المثل يُصوِّر المعاني المعقولة بصُورة المحسوسات، فيُدْنيها من الحسِّ ويُقرِّبها للفهم، فيلمسها السامع لمساً. والمراد من الكلمة الطيبة: الإيمان الصحيح وما يتبعه، أو كل ما جاء في هذا القرآن من بيان، والله أعلم. فالدين الإسلامي بإيمانه وعباداته وقرآنه كلُّه من الكَلِم الطيِّب.

ثم ضَرَبَ مَثَلَ الكفر والكافر، فقال: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: استُؤصِلَت وأُخِذَت، لأنَّ عروقها قريبة غير قوية. أو المعنىٰ: خُلخِلَت عن مكانها بقلقلة ساقها من فوق الأرض، فهي مُخْتَلَّة متخلخلة ذابلة لا تزهو ولا تثمر؛ إذ ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾، فتكون هذه الشجرة خبيثةَ الوضع، عديمةَ النفع، فاقدةَ الثبات، علىٰ عكس الأولىٰ. وهكذا تكون كلمة الكفر غير مستقرَّة في النفس؛ لأنها تتكوَّن بالتقليد والتلقين، لا بالتفكير الصحيح والبرهان القاطع، فهي كريشة في مهبِّ الريح ربما تذهب بها. وذلك لأنها منافية للحق، مغايرةٌ للواقع، لا يستسيغها العقل السليم ولا الوجدان، وكلُّ دين وملّة ـ عدا الدِّين الذي كان عليه محمد ﷺ وأصحابه ـ من هذا القبيل، أعاذنا الله. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وإنما صدَّر المَثَلَ بـ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ لتنزيله هذا الأمرَ المتحقِّقَ منزلةَ الظاهر المرئيّ المشاهَد المحسوس.

ثم أردف المثل بصريح المعنىٰ، علىٰ نهج القرآن في تعقيب المجاز بالحقيقة، توضيحاً وتقريراً، فقال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ وهو كلمة الإيمان، ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فلا يَزِلُّون إذا فُتنوا في دينهم، لتمكُّنهم منه بالحجَّة والبرهان، ورسوخه

فيهم بالفهم والإتقان، ﴿وَ﴾ يُثبِّتهم ﴿فِي ٱلْآخِرَةِ﴾[1] فلا يَتَلَعْثَمون إذا سُئلوا في القبر ولا في موقف الحساب؛ إذ لا تدهشهم أحوال القيامة، لتمكُّن الإيمان منهم واليقين، فَهُمْ من فَزَع يومئذٍ آمنون.

ويجوز أن يُراد من التثبيت في الآخرة: ما ينالونه من السعادة. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

أما حال صاحب كلمة الكفر الخبيثة، فقد عُوِّضَ عنه بهذه الحقيقة العامة، علىٰ نهج القرآن في التعويض، فقال: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الذين ظلموا أنفسَهم بإفسادهم لها فضلّوا وكفروا حتىٰ تمكّن الكفرُ منهم، إذ قد مضت سُنّة الله في طبيعة الإنسان أنَّ مَنْ شبَّ علىٰ شيءٍ شابَ عليه، وصَدَّ عما يخالفه، وقاومه بكلِّ قواه، واستهدف للنتائج الوخيمة في عُقْباه.

ثم ذكر الوجه في خلق الإنسان علىٰ تلك الطبيعة، فقال: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ في السنن الكونية العامة، ولكن مشيئته لا تجري اعتباطاً، وإنما تجري بحسب الحِكَم والمصالح العامة، وفي سُنَنٍ مُطَّردة لا ظُلْمَ فيها ولا حَيْف، مقرونة بالحيطة والتوجيه.

ومُحصَّل المَثَلَين: أن كلمة التوحيد غَرْسٌ كريم، تمتدُّ أصولُه في القلب، وتظهر

---

(١) يجوز أن يراد بالكلمة الطيبة: ما في هذا القرآن من تعاليم عالية، وتوجيه صحيح في أمور الدنيا والآخرة. ويكون قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ﴾ تنويهاً بشأن هذا التوجيه، وإلماعاً لِمَا ينجم عنه من تمكين وفلاح، ولِمَا ينال المُعْرضين من خَيْبة وخسران، ويكون المراد بالنعمة: الشريعة التي من جملتها التوحيد والتنزيه، وبتبديلها: تحريفها، أو الإعراض عنها إلىٰ غيرها، مما وضعوه لأنفسهم من الشرك والضلال. (المؤلف).

آثارُه في الجوانح والجوارح، ظلالاً وارفةً، وثمراتٍ شهيّةً، من الأعمال الطيبة والأخلاق السامية، في الأفراد والجماعات. أما كلمة الشرك فغَرْس مُجتَثٌّ مَشْلول، في أرض خبيثة سَبْخة، لا وَرَقَ ولا ثَمَر ولا أغصان سوىٰ خباثةِ النفس وظلام الوجدان.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ﴾.

وبعد هذا البيان العام عن نتيجة الكفر، تعرَّض لمشركي قريش كالمستشهد بهم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾، وهم كفار قريش، نزل عليهم القرآن فلم يؤمنوا به، ﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ المتَّبعين لهم ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ والهلاك ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ هذه النار.

ثم نصَّ علىٰ كفرهم مُهَجِّناً لهم ومُؤَنِّباً، فقال: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: أمثالاً وشركاء، ﴿لِّيُضِلُّوا۟﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ تعالىٰ، وهو التوحيد. واللام للعاقبة وليست للغاية، إذ هم يحسبون أنهم يتقرَّبون بذلك إلىٰ الله، ويُرشدون الناس إليه. وكلُّ ضال يعتقد ضلاله هدىٰ، ويحسب أنه يُحْسِنُ صنعاً. اللهمَّ إني أعوذ بك من أن أُشرِكَ بك شيئاً وأنا أعلم، وأستغفرك لِـمَا لا أعلم. ثم توعَّدهم بقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟﴾ في نعيم هذه الحياة الفانية ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ﴾ في الحياة الباقية ﴿إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾.

وبعد هذا الإنذار ذكر ما يقابله، علىٰ نهج القرآن في المقابلة، وأمر المؤمنين أن يجدُّوا السير في طريقهم المستقيم، إرشاداً وتحذيراً، فقال: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: يأتون بها مقامةً علىٰ أكمل وجوهها، وذلك بأن يعقلوا ما جاء

فيها من مناجاة الله في القراءة والتكبير والتسبيح والتحميد؛ إذ ليس للمرء من صلاته إلا ما عَقَل منها، كما جاء في الحديث(١).

ثم تابع البيان بقوله: ﴿وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾، وهذا الوصف لبيان موضع النعمة عليهم والتنبيه لها، استدراراً لهم لينفقوا ﴿سِرًّا﴾ طلباً للإخفاء، كي لا يمسُّوا بعاطفة المُنْفَق عليه وشعورِهِ، ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ رغبةً في اقتداء الناس بهم في الإنفاق، ولكلٍّ مواضع تقتضيه. فهو يحثُّهم أن يفعلوا ذلك ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾ أي: لا ينفع فيه فداءُ مُفْتَدٍ ولا صداقةُ صديق مقرَّب، إلا عَمَلُ المرء نفسه.

فالآية حثٌّ علىٰ العمل الصالح قبل مَجيء يوم الحساب الذي لا تنفع فيه الفِدْيةُ ولا شفاعةُ الشافعين(٢). وإنما هو مقرونٌ بعمل الإنسان بما أرسله إليه سبحانه من

---

(١) قال الحافظ العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١: ١١٦) حديث: «إن العبد ليصلِّي صلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها، وإنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها» أخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان من حديث عمار بن ياسر بنحوه.

(٢) إلا من أذن الله له، كما قال سبحانه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ولا تعارض بين هذه الآيات التي تُثبت الشفاعة وبين الآيات التي يُستَدَلُّ بها على نفي الشفاعة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨]، ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

قال ابن جُزّي في «التسهيل» (١: ٨٩): «حيثُ ما كان الكلام في سياق أهوال القيامة، والتخويف منها، نُفيت الشفاعةُ على الإطلاق مبالغةً في التهويل، وحيثُ ما كان سياق الكلام في تعظيم الله نُفيت الشفاعةُ إلا بإذنه».

وقال ابنُ جُـزّي في «التسهيل» أيضاً (١: ٤٧) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨]: «ليس نفي الشفاعة مطلقاً، فإن مذهب أهل الحق ثبوتُ الشفاعة لسيِّدنا محمد، وشفاعة الملائكة، والأنبياء، والمؤمنين، وإنما المراد أنه لا يشفع أحد إلا بعد أن يأذن الله له، =

التعاليم، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

وإنما استُعمِلَ «البيع» بَدَل الفداء، لأنه أدلُّ علىٰ معنىٰ المعاوضة في الحضِّ علىٰ الإنفاق.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾.

ثم أردف السِّياق المتضمِّنَ للردِّ علىٰ المشركين والحضِّ للمؤمنين علىٰ التمسك بالدين، أردفه بما يؤيده من اختصاصه سبحانه بأفعال الألوهية، والتذكير بمننه العظيمة، وكيف قابلها الإنسانُ بالنّكر والكفر والغفلة والجهالة، ويومئ إلىٰ أن أبواب الرِّزق مفتوحةٌ للكسب منها والإنفاق، فقال: ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه هو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ علىٰ ما فيهما من عَظَمة وتدبير وتدقيق وإحكام، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ تعيشون به وتنفقون، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ وتيسيره حيث خلق طبيعة عَوْم الأجسام علىٰ الماء، وخلق

= لقوله تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس: ٣]، ولقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]. وانظر ما ورد أن رسول الله ﷺ يستأذن في الشفاعة، فيقال له: «اشفَعْ تُشَفَّع».

فكلُّ ما ورد في القرآن من نفيٍ للشفاعة مطلقاً يُحمَلُ على هذا؛ لأنَّ المطلق يُحمَلُ على المقيَّد، فليس في هذه الآيات المطلقة دليلٌ للمعتزلة على نفي الشفاعة». انتهى.

السماء بهذه الخاصَّة، ولولا ذلك لتعذَّر الوصول إلىٰ كثير من بقاع الأرض للتجارة والأسفار، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾ التي عليها مدار كثير من النِّعَم والفوائد وريِّ الأشجار.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ في سَيْرِهما وإنارتهما، وبهما مناط كثير من شؤون الإنسان وحياته وحياة الحيوان والنبات الذي يعود بالخيرات، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ بتنظيم هذا النظام الشمسي العظيم؛ لتعملوا في النهار أعمالكم التي عليها مدارُ شؤونِكم، وتسكنوا في الليل فيتعوَّض الجسم ما فَقَده من القوَّة والطاقة أثناء عمل النهار.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ وعبَّر عن الاحتياج بالسؤال، أي: ما كان حقيقاً بأن يُسأل لاحتياجكم إليه، وهذا يَعُمُّ النِّعَم كلَّها، ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ لكثرتها وعظمتها. ثم سجَّل علىٰ نوع الإنسان كُفْرَه بهذه النِّعَم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ إذ يشرك بهذا الإله العظيم أنداداً لا يملكون لأنفسهم ضَرَّاً ولا نفعاً، ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً. وإنما نسب لجنس الإنسان ما هو لصنفٍ منه لوجهين: الأول: الإشارة إلىٰ كَثْرة هذا الصنف، وأنه لا يتناهىٰ مع بعضه عن المنكر إذا فعله. والثاني: لأنَّ الجنس يتحقق في بعض أفراده حسب خصائص اللغة.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ

لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

ولما كان كفار قريش يزعمون أنهم علىٰ دين إبراهيم عليه السلام، ردَّ زَعْمَهم، وذكر شيئاً من تاريخ إبراهيم وتشدُّده في الإنكار علىٰ عبادة الأصنام، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ يعني مكة ﴿ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: بعِّدني وإيَّاهم عن ذلك. وهذا الدعاء استنكار واستقباح لعابديها، وينطوي علىٰ دعاء الناس للتوحيد. ويُلْمع إلىٰ عارضٍ خطير في تاريخ الأديان، وهو أنَّ الأمم بنتيجة إفراطها في تحريف دينها تنحدر إلىٰ عبادة الأصنام. ولذلك أردفه بقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: ضلُّوا باتِّباعها وعبادتهم لها، بزَعْم أنها تُقَرِّبهم إلىٰ الله زُلْفىٰ. وفي إسناد الإضلال إليها تجوُّزٌ معروفٌ مِثلُه في خصائص اللغة، ويسمَّىٰ في عُرْف البلاغة: الإسناد إلىٰ السبب.

وبعد هذا البيان المنطوي علىٰ الدعوة إلىٰ التوحيد قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾، وفيه تنصيصٌ وإيماءٌ إلىٰ أن كفار قريش ليسوا من إبراهيم في شيء كما يدَّعون. وفيه إلماع إلىٰ استجابته لله سبحانه في نشر الدعوة. ولذلك طلب غفران تقصيره فيما ليس في وسعه وإمكانه، فقال: ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾، يدعوه بصفتَي غفرانِهِ ورحمتِهِ أنْ لا يُؤَاخذه بما لا تقصير فيه عن إمكان، وبأن يُمهِلَهم لعلَّهم عن غيِّهم يرجعون، فيغفر لهم عصيانَهم. ومثل هذا قول نبيِّنا ﷺ عندما اشتدَّ قومه في معارضته: «ربِّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[1]، يريد: أن يُمهِلَهم ولا يعجِّل

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٦٩٢٩)، ومسلم (١٧٩٢)، عن ابن مسعود.

عليهم بعذاب الاستئصال، رجاءَ أن يَتُوبوا لِرُشْدهم فيؤمنون، واستعمل ﷺ الغفران بمعنىٰ التوفيق للإيمان، كما استعمله إبراهيم عليه السلام في أبيه في قوله: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ﴾ [الشعراء: ٨٦].

ثم تابع الدعاء المتضمِّن للدعوة إلىٰ التوحيد، بالدعاء لذرِّيته التي أسكنها في هذا البلد القَفْر لهذه الغاية، وبالتضرُّع إلىٰ الله سبحانه في شأنهم والعطف عليهم، فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ تنفيذاً لأمرك. ومعنىٰ المحرَّم: أنه حُرِّمَ التعرُّض له والتهاون به. وسمَّاه «بيتاً» مع أنه لم يكن فيه حينئذٍ بناء، باعتبار علمه بما سيكون من بناء البيت هناك بأمر الله تعالىٰ. لأنَّ الأنبياء تشعر شعوراً وجدانياً بما سيكون من أمرها وأمر شريعتها بصورة مُجمَلة. أو أن الله سبحانه أمره فعلاً ببناء هذا البيت في هذا المكان بعد أن تجتمع الناس علىٰ إسماعيل عليه السلام، وجعل إسكانه فيه مع أمِّه مقدِّمةً لذلك، فيكون إطلاق «البيت» علىٰ هذا المكان باعتبار ما سيؤول إليه. وهذا هو الظاهر القريب من قوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وفيه إشعارٌ وتنصيصٌ بأنَّ هذا هو المقصود بالذات من إسكانهم ذلك الوادي الأقْفر الذي ليس فيه ولا حوالَيْه مَنْ يقيم الصلاة.

ثم تابع الكلام بقوله: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي: ليقيموا معهم الصلاة ويعبدوا الله وحده، ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ لأنَّ واديهم غير ذي زرع؛ ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ تلك النِّعَم، أو لعلهم يتمكَّنون من إقامة الذكر والشكر لله تعالىٰ. وتفيد الآية أنَّ الله سبحانه أمر إبراهيم أن يُسْكِنَ ابنَه إسماعيلَ وأمَّهُ في هذا المكان ليكون مَثَابةً للناس وأمناً، ومقاماً يُعبَدُ فيه سبحانه وتعالىٰ. ولما كان هذا المكان مُقْفراً دعا إبراهيمُ عليه السلام ربَّه عز وجل أن يرزق ذُرِّيته هؤلاء الذين أسكنهم في

هذا الوادي الـمُقْفِر؛ أن يرزقهم ومَنْ يأوي إليهم من ثمراته الرغيدة ورزقه الواسع لعلَّهم يتمكَّنون من إقامة ذكره وشكره، لأنه سبحانه بنعمته تتمُّ الصالحات.

ولما كان الغرض من ذلك إقامة شعائر الله في هذا المكان، دَعَا اللهَ سبحانه أن يَجعَلَ أفئدةً من الناس تهوي إليهم ليُرشدوهم أن يعبدوا الله، ولم يكن المراد من جَعْل الأفئدة تهوي إليهم أن يعطفوا عليهم بأُعطياتهم كما يتصوَّر البعض ويقول، فإن هذا مما لا يحتمله الكلام، ولا يتناسب مع إبراهيم عليه السلام.

ثم تضرَّع إبراهيم عليه السلام لله تعالىٰ، وأدمج في ذلك بيانَ إخلاصه في العبادة، فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾. ثم اعترف ببعض نِعَم الله الخاصَّة عليه وشكرها، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾، وفي قوله: ﴿عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ تـتميم، أفاد المبالغة في تقدير النعمة واستعظام المنة. وفي قوله: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ إشعارٌ بأنَّ ذلك كان إجابةَ دعاءٍ منه تعالىٰ. وفيه زيادةُ إقرار بالنعمة.

ثم طلب من الله سبحانه أن يُعينَه علىٰ دوام عبادته له، وأن يُديمَ إجابة دعائـه منه، وأن يشملَه وآلَه والمؤمنين بغفرانه ورحمته يوم الدين، فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَ﴾ اجعل ﴿مِن ذُرِّيَّتِى﴾ كذلك، ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾، وهذه الجملة الأخيرة علىٰ وتيرة قولهم: «قامت الحرب»، والمراد بها المبالغة في التهويل من يوم الحساب، وقد يأتي القيام بمعنىٰ الشروع والابتداء.

هذا، وقد تقدَّم عذرُ استغفاره لأبيه في سورة التوبة عند قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾.

وبعد أن ردَّ علىٰ المشركين، ونَقَض عليهم ادِّعاءَهم أنَّهم أتباع إبراهيم عليه السلام، وذلك ببيان ما كان عليه من إنكار الشِّرك والدعوة إلىٰ التوحيد؛ توعَّدهم بهذا الوعيد الشديد، وسَبَك ذلك علىٰ تسليته ﷺ، فقال: ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾** ﴾، فلا تقرُّ في أماكنها من هَـوْل ما ترىٰ، ﴿ **مُهْطِعِينَ** ﴾ أي: مُديمي النظر، فهي حال مؤكّدة لما قبلها، ﴿ **مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ** ﴾ أي: رافعيها مُشْرئبِّين لما سَينزل بهم، ﴿ **لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ** ﴾ بل تبقىٰ عيونُهم شاخصة، وهذا تمكينٌ للوصف السابق، ﴿ **وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾** ﴾ أي: مُتفرِّقة مشتَّتة تترقَّب ما يفعل بها. وجميع هذه الصفات تُمثِّل شدَّة هَلَع نفوسهم من ذلك الموقف الرهيب. كان الله لنا بالعَوْن، وأعاذنا من ذلك الهَوْل.

وبعد أن توعَّدهم بعذاب الآخرة، توعَّدهم بعذاب الاستئصال في الدنيا، فقال: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾، فيُقالُ لهم تنديماً وتوبيخاً: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾، يريد تكذيبهم بما توعَّدهم به من هذا العذاب الساحق الماحي، أي: كذبتُم به ﴿وَ﴾ الحال قد ﴿سَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعاصي ممن كان قبلكم من كفار الأمم الخالية المَمْحوقة كعاد وثمود، ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ من العذاب المعجَّل في الدنيا، ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ لتعتبروا، فلم تتَّعظوا بكلِّ ذلك.

ويجوز أن يكون المراد بهذا العذاب: عذابَ الآخرة أيضاً، ويكون المراد من قوله: ﴿أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾: اعتقادَهم ببقاء الدنيا وخلودها، وإنكار الآخرة. فتكون الآية علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨].

ويجوز أن يكون قد تجوّز بالقسم عن مُجَرَّد الاعتقاد بذلك مبالغةً فيه. ومُحَصَّل الآية: إلزامهم بالدليل الواقعي بما جرىٰ علىٰ مَنْ سكنوا في مساكنهم، والدليل النظري بتقرير البراهين وضرب الأمثال، فلم يُفِدْهُم كلُّ ذلك طولَ عمرهم، فما فائدة التأخير؟!

ثم لفت الكلام إلىٰ النبي ﷺ، ونبَّهه علىٰ عنايته به وحفظه منهم، تسليةً له فقال: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾[1] أي: مَكَرَ كفارُ قريش بك مَكْرَهم الحنيق، حيث أرادوا أن يُثْبتوك أو يقتلوك أو يُخرجوك[2]، كما مكر كفَّار الأمم الماضية بأنبيائهم،

---

(١) أي: دبَّر كفارُ مكة المكايد في الخفاء، وائتمروا للإيذاء والضرر.

(٢) انظر الآية ٣٠ من سورة الأنفال.

وتوعَّدهم بقوله: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾[١] فهي كلمةُ تهديد رهيب، أي: لا يُهمِلُه لهم سبحانه وسيجازيهم عليه، أو عنده ما يمكرهم به ويعصمك منهم، فهم ضعفاء في جَنْب الله، ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾[٢] وهذا الوصف ليس علىٰ الحقيقة، وإنما هو تمثيلٌ لتهويل المكر، مثل: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]. وقيل: «إنْ» نافية[٣]. والمعنىٰ: لم يكن مكرُهم ليُـزيل الجبال، فيكون للتهوين والتضعيف، ويكون قد استعار الجبال لحجج القرآن القوية ودلائل النبوة الثابتة. أي: فلا يقدرون علىٰ ردِّ ذلك وإخماد هذا النور مهما حاولوا وشاغبوا، لأنه أثبت من الجبال.

ثم قرَّر الوعد والوعيد وفصَّله بقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾، والانتقام: من النقمة، وهي السطوة والعقوبة. وقد يُستعمل في عُرْف التخاطب بمعنىٰ التشفِّي، وهو بهذا المعنىٰ محال علىٰ الله. ولكن المعنىٰ: أنه ذو سَطْوة وعقوبة، فلا يُغالَب ولا يُماكَر، ويأخذ لأوليائه من أعدائه في الدنيا، ويُجازيهم بالعذاب الأليم في الأخرىٰ.

---

(١) أي: ثابت مُسجَّل. وعِلْمُ الله بمكرهم يعني أنَّه سبحانه قادر على إبطاله؛ لأنه غير خفيّ، فلن يصلوا منه إلى ما أمَّلوا، ولن يتحقَّق منه شيء.

(٢) تزول: تنقلع عن أماكنها وتتصدّع. و«أل» في ﴿ٱلْجِبَالُ﴾: لتعريف ماهيَّة الجنس أو عهديَّة ذهنيَّة، بحسب المعنَيَيْن المذكورَيْن بعد.

(٣) على القراءة الأولى: «إنْ» مخفَّفة للتوكيد، و«لَـتَزُولُ» بفتح لام «لَـتَزولُ» ورفع الفعل. والمعنى: قد كان مكرهم شديداً يهدّ الجبال ويزلزلها، وهو تعبير مجازيّ فيه مبالغة لبيان شدَّته، وإيغالٌ في ذمِّه وفاعليه.

وعلى القراءة الثانية وهي قراءة الجمهور: «إنْ» حرف نفي، أي: محالٌ أن تزولَ لكيدهم الجبالُ، فكيف بأصول التوحيد والشرائع وهي أشدُّ رسوخاً؟ وعلى هذا الوجه قرأ ابن مسعود: «وما كان».

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾[١] غيرَ السماوات، ﴿وَبَرَزُوا۟﴾ من قبورهم، ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾﴾ أي: مقيَّدين مع بعضهم بالقيود والأغلال، ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ أي: عليهم قُمُصٌ من مادة سريعة الاشتعال، ليكون عذابهم شديداً مستمراً، ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ أعاذنا الله. وفي هذه الجملة زيادةٌ في الإشعار بالهَوْل لذلك العذاب، وخصّ الوجوه بهذا لأنها موضعُ المواهب التي فرَّطوا بها ولم يستعملوها لمعرفة الحق والصواب، وهي: العقل والسمع والبصر وغيرها.

ثم بيَّن تعالىٰ أن هذا العذاب إنما هو غاية لما ارتكبوا من الشرك والإجرام. ولكنه ذكر ذلك بصورة قاعدة عامة لأعمال الخير والشر، علىٰ نهج القرآن في أساليبه، فقال: ﴿ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ من خير وشر. وهذا التعليل يُشعر بأن أمر الجزاء مرتَّب علىٰ الكسب وتدسية النفس أو تزكيتها ترتيباً كونياً طبيعياً، كما يترتَّب المسبَّب علىٰ السبب، والمعلول علىٰ العلة. والله أعلم. ثم قرَّر الحكم بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾ أي: مَضَتْ سُنَّته تعالىٰ بأن تكون النتائج آثاراً للأعمال بلا إبطاء.

أما سرعة الحساب يوم القيامة فهو إدراك الناس كلِّهم دفعةً واحدة لأعمالهم، فيدرك كل واحد ما عمل من خير أو شر، ويعلم ما له وما عليه، وما يستحق علىٰ كل عمل من نعيم أو عقاب[٢].

---

(١) الظاهر أنَّ هذا الكلام إجمالٌ لِـمَا جاء عن حوادث القيامة مفصَّلاً في ثنايا هذا القرآن. ولكن أما يجوز أن يُفهَمَ بأنَّ خراب القيامة يعقبه تعمير جديد، بمواد ليس فيها خصائص مواد الدنيا من زوال وفناء، هذا من غيب الله، ولا يعلم الغيب إلا الله، فإنْ أخطأت فأستغفر الله. (المؤلف).

(٢) انظر ما تقدم تعليقاً عند تفسير الآية ٤١ من سورة الرعد.

ثم ختم السورة وما احتوت عليه بهذا البيان العظيم الشأن المتضمِّن للتنبيه إلىٰ مكانة ما سَبَق من الهداية والعرفان، والتحذير من عاقبة الزيغ عنه والانحراف، فقال: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾، جلَّ مَنْ هذا كلامه، وهذه حِكَمُهُ وأحكامُه.

❊ ❊ ❊

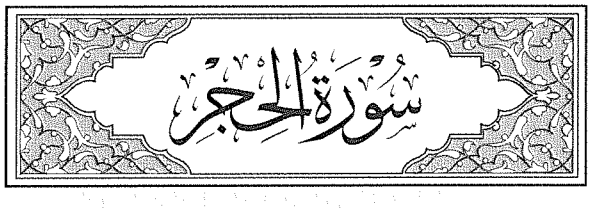

مكية، وآياتها تسع وتسعون

والغرض منها كالتي قبلها:

ـ إثبات تنزيل القرآن.

ـ وأخذهم بالترهيب والتحذير مما حَصَل للمكذِّبين قبلهم.

ثم خُتِمَت بما يناسب هذا الغرض.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٣ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٥﴾.

﴿الٓر﴾ مرَّ الكلام علىٰ هذه الحروف في أول سورة البقرة، وأصح الأقوال فيها: أنها لتنبيه الفكر وإثارته إلىٰ ما يأتي بعدها اهتماماً به، ومنه هنا قوله: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١﴾، فالإشارة بـ﴿تِلۡكَ﴾ إنما هي إلىٰ ما يُتلىٰ من آيات هذه السورة. قال أبو مسلم: المبين: الواضح. وقيل: هو المُبيِّن لِمَا يُصلحُ شأن الإنسان في الحياتين.

ثم أردف هذا التنويه لشأنه ببيان مصير الكفار المُعرِضين عنه، فقال: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢﴾ مؤمنين بهذا القرآن. قال الرازي ما معناه: إنَّ من خصائص اللغة إذا أُريدَ المبالغة في التكثير يُقْرَن الكلام بلفظ يدل علىٰ التقليل. وعليه، فيكون الكلام للمبالغة في التنبيه إلىٰ ما سيؤول أمرهم إليه من الحسرة والندامة.

ثم قرن التنبيه بالتهديد، فقال: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾، وهذا تهديد رهيب يهتزّ له الشعور، أعاذنا الله.

ولـما كان هذا التوعد مقروناً بالتسويف، أردفه ببيان سنته في ذلك التأجيل والإرجاء، فقال: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤﴾ أي: أجل مكتوب

معيَّن للإهلاك، ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾ أي: فنستأصلهم إذا حانَ ذلك الوقت المعيَّن المكتوب. فلا يَغُرَّنَّ هؤلاء الكفارَ إمهالُ الله إيَّاهم، فإنما ينزل بهم العذاب إذا حان حينُه.

﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

ثم ذكر شيئاً من معارضتهم واستهزائهم، فقال: ﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾ أي: يا مَنْ يزعم أنه نُزِّلَ عليه الذكر إنّ ادِّعاءَك بنزول الوحي عليك ادعاءٌ مجنون.

ثم تحدَّوه بقولهم: ﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ ﴾ ليشهدوا علىٰ صدق قولك أو يعضدوك في الدعوة، أو المعنىٰ: لِيُنْزِلُوا بنا ما تتوعَّدنا به. وهذا المعنىٰ أكثر ملاءَمةً للسياق. وكلمة ﴿ لَّوْ مَا ﴾ تفيد التحضيض، وكل ذلك علىٰ التهكُّم والعناد.

فأجابهم سبحانه بهذا الجواب الممزوج بالتوعُّد، فقال: ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ قال الحسن ومجاهد[1] والـجُبّائي: أي: بعذاب الاستئصال إن لم يؤمنوا، ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ ﴾ أي: مُمْهَلين عن عذاب الاستئصال.

ثم قابل تهكُّمَهم هذا وما يَنْبعث عنه من التحرُّش به والسَّعي في تحطيم أمره بما يتضمَّن الوعدَ بنصره عليهم، ويُنوِّه بشأنه بأنه لم يكن كما سبقه من الكتب التي عُبث بها؛ لأنه سبحانه أراده كتاباً عالمياً خالداً إلىٰ يوم القيامة، فتكفَّل بحفظه من التحريف

---

(١) ذكره الطبري في «تفسيره» (١٧: ٦٨).

والتبديل، باق علىٰ أصله إلىٰ يوم القيامة، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ أي: القرآن، فإنه يذكّر الناس بما يجب عليهم أن يعملوه ويعتقدوه، لِيَقُوا أنفسهم من النار وينالوا رحمةَ العزيز الغفار، وليحوزوا الراحة في الدنيا والسعادة في الأخرىٰ. أي: نحن نزَّلنا هذا القرآن علىٰ محمد ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾[1]، وحِفظُه إنما يكون بصَوْنه عن التلاعب به، وبنُصرة من يقوم بتنفيذ الدعوة إليه. والسرُّ في هذا الحفظ: أنَّ القرآن نزل للتأبيد لا للتوقيت، كما هو شأنُ بقية الكتب السماوية، فلا يَعقُبُه كتاب آخر يعوِّض عنه، كما جرىٰ لبقية الكتب بعد تحريفها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝١٥﴾.

ثم أتىٰ بما ينهجه القرآن إثر بيان معارضة المشركين، من تثبيته ﷺ ضدَّهم، ووعده بالنصر عليهم، مُلْمعاً إلىٰ أنه ليس بِدْعاً من الرسل، فقد أرسل سبحانه رسلاً كثيرين في الأمم الغابرة، وقرن ذلك ببيان حال أمثاله من الرسل مع أممهم ليدعَمَ البرهان بالواقع، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ رسلاً ﴿فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠﴾ أي:

---

(١) ومن ذلك مَنَعَتُه اللفظية في عُلوِّ تأليفه، فلو أنَّ أحداً حاول أن يُدخِلَ عليه شيئاً من كلام الناس البلغاء أو النبيين، لاضْطَرَبَ نظامه، ونادىٰ الكلام الداخل بأنه داخل، وظهر كالخرزة التافهة بين الجواهر، ولنفاه القرآن بنفسه عن نفسه، كما ينفي الكير خبثَ الحديد. هذا من جهة لفظه، فكيف أمر المعنىٰ وما حواه من علوم وتوجيه وتثقيف إنساني عظيم ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١ - ٤٢]، ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]. (المؤلف).

في الأمم الماضية، ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ ﴾ كما استهزأ قومك وتهكَّموا بك.

ثم بيَّن سُنَّة الله العامة في هذه الناحية من طبيعة الإنسان، إيذاناً بأنه ليس عجزاً في القدرة ولا قَسْراً للإرادة، فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي: كما أدخلنا التكذيب في قلوب أولئك الكافرين ـ بحَسَبِ سنّتنا في تكوين طبيعة الإنسان العامة، وهي أنَّ مَنْ تشبَّع منهم بالكفر والضلال، يُكذِّبُ الرسل ويتهكَّم بهم ـ نُدخِلُ التكذيب أيضاً و﴿ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ﴾ هؤلاء ﴿ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ من كفار مكة، بهذه السُّنّة العامة في طبيعة البشر، حتىٰ إنهم ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ أي: بهذا القرآن ويكذبونه. وذلك حسب سنة الله في انطباعات الإنسان إذا وصل إلىٰ سمعه قولٌ مخالفٌ لِمَا هو دين له قد انطبع عليه، فإنه يفاجئه بالتكذيب ولا يتدبره ولا يراه جديراً بالعناية والتفكير، ﴿ وَ ﴾ بهذا ﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ ومضت ﴿ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾، وهؤلاء مِثلُهم.

ويجوز أن تكون هذه الجملة للتهديد. والمعنىٰ: وقد مضت سنة الأولين في تعذيب الله المكذِّبين لأنبيائهم بعذاب الاستئصال، ونصيبُ هؤلاء مِثلُ نصيب مَنْ مضىٰ من أمثالهم. وقد جرىٰ ذلك في وقعة بدر، حيث استأصلت الرؤساءَ منهم والخطرين.

ثم أجابهم عن قولهم: ﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ بجواب آخر بيَّن فيه تصلُّبهم في الباطل وانطباعهم علىٰ العِناد، فلا يؤمنون مهما رأوا من الآيات البيِّنات، فقال: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ أي: يصعدون ويَرَوْنَ ما فيها من العجائب عِياناً؛ ﴿ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا ﴾ أي: سُدَّت عن الإحساس، ﴿ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ أي: يُخيَّل إلينا ذلك، وليس بحقيقة. والمعنىٰ: أنهم إن ظهر لهم الحقُّ أعرضوا عنه عَمْداً، وموَّهوه وأوَّلوه مُغَالين في العِناد والشك في الحقِّ

الواضح. وهكذا يكون كل من تشبَّع بالضلال وانطبع عليه، فإنه تتيه نفسُه في مَتَاهَات الشكوك، وتَحَارُ في مَحَارات الشُّبَه، ويُحالُ بينها وبين أنوار الحق الواضحة، وتلتمس التأويلات لطمْس الحقِّ وإخفائه.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

وبعد أن بيَّن عِنادَهم وإصرارَهم علىٰ الشِّرك، تمجَّد سبحانه باختصاصه بأفعال الألوهية، وألمع إلىٰ إثبات قدرته علىٰ ما يقترحون من الآيات، ببيان الواقع من قدرته في خَلْق الأرض وما فيها وخَلْق السماوات، وأومأ إلىٰ إبطال وتكذيب ما يضلِّلُ به الكَهَنةُ هؤلاء المشركين من أنهم يعلمون أمور السماء بواسطة الجنِّ، ولم يذكروا شيئاً عن رسالة محمد والوحي إليه بهذا القرآن؛ أومأ إلىٰ إبطال ذلك بما يتضمن: أنَّ الجنَّ لا تعلم من أمر السماء شيئاً صحيحاً، فأدرج ذلك في دليل قدرته الدالِّ علىٰ استحقاقه واختصاصه بالألوهية، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ أي: مخلوقاتٍ وأجراماً عظيمة، ﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا﴾ أي: بالشُّهُب ﴿مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾. قال الجُبّائي وأبو مسلم: أي: مرجوم مرمي بالشهب.

ثم استثنىٰ من ذلك الحفظ محاولةً فاشلةً لهم، فقال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ

﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ أي: واضح. والتعبير بالاستراق يُؤْذِن بأنه لم يفهم من ذلك ما يعلم به شيئاً.

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بينما النبي ﷺ جالساً في نفر من أصحابه إذ رُمي بنجم فاستنار، فقال: ما كنتم تقولون في الجاهلية إذا حَدَث مثل هذا؟ قالوا: كنا نقول: يولَدُ عظيم أو يموت عظيم. قال عليه الصلاة والسلام: فإنها لا تُرمىٰ لموت أحد ولا لحياته، لكن ربنا تعالىٰ إذا قضىٰ الأمر في السماء سبَّحت حَمَلة العرش، ثم سبَّح أهل السماء، وسبَّح أهل كلِّ سماء حتىٰ ينتهي التسبيح إلىٰ هذه السماء، ويستخبر أهلُ السماء أهلَ العرش: ماذا قال ربكم؟ فيُخبِرونهم، ولا يزال ذلك الخبر من سماء إلىٰ سماء إلىٰ أن ينتهي الخبر إلىٰ هذه السماء، ويتخطَّف الجن فيُرمَوْنَ»[1].

أقول: وذلك من عذاب الدنيا لِـمَرَدَة الجنِّ وكفارهم. ولا منافاة بين هذا وبين أنها من الأمور الطبيعية وتحدث بأسباب طبيعية، لأنَّ الله تعالىٰ له في كل أمر طبيعي حِكَمٌ بالغة منوَّعة لا تَـتَناهىٰ، وربَّما وفَّق سبحانه بين ظهور بعض تلك الظواهر الطبيعية والحوادث العرضية توفيق أقدار لأقدار، فيكون رَجْمُ الشياطين بهذه الشهب من بعض حِكَم هذه الظاهرة الطبيعية، وليس هو كل ذلك، ولا هو الغرض الوحيد منها. ومن خصائص القرآن والسنة إذا جاء الكلام فيهما عن الأمور الطبيعية أو الحقائق العلمية: لا يجري البحث إلا من ناحية خاصَّة تتعلق بالإنسان في ثقافته الدينية وأحواله الروحية، ولا يبحث عن حقيقتها وذاتياتها.

وفي تكوُّن هذه الشهب نظريتان:

الأولىٰ: أنها قطع تنفصل من النجوم مطلقاً، أو من المحطمة منها، ولا تزال تائهة

---

(١) رواه مسلم (٢٢٢٩)، عن ابن عباس، عن رجل من الأنصار.

في الفضاء، حتىٰ إذا مرَّت بهواء الأرض، وكانت من المواد المشتعلة التهبت، وقد تبقىٰ منها بقية تسقط علىٰ الأرض بعد أن تنطفئ فتُسمَّىٰ نيزكاً. وفي دُورِ الآثار كثيرٌ منها.

والثانية: أنها قطع تنفصل من حلقات تدور حول الشمس مكوَّنة من قطعٍ صغيرة الحجم، وهذه الحلقات مختلفة الميل علىٰ دائرة البروج، فإذا قربت منها الأرض جَذَبت بعضَ تلك القطع، فتسقط عليها. فإذا كانت من المواد المشتعلة تلتهب إذا مرَّت بكرة الهواء.

وبعد أن ذكر دلائل قدرته في السماء، ذكر دلائل قدرته وحكمته في الأرض، فقال: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ أي: وسَّعناها لتقوم بحاجيات الإنسان، ومهَّدناها ليتمكَّن من الاستفادة منها، ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ لتحفظها من المَيلان والمَيدان أثناء الدوران حَوْل نفسها وحول الشمس، والله أعلم. ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾ أي: مقدَّر معلوم في نِسَبِ أجزائه وتراكيب موادِّه بحسب الحِكَم البالغة في طبيعته، فإذا اختلَّت تلك الموازنة فسد الشيء أو استحال إلىٰ شيء آخر. ويعلم هذا العِلمَ المتخصِّصون بعلوم الطبيعة والنبات.

ثم تابع البيان ومَزَجه بالامتنان، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ من زروع وفواكه. وقوله: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾ معطوف علىٰ ﴿مَعَٰيِشَ﴾ أو علىٰ ضمير ﴿لَكُمْ﴾، والمعنىٰ علىٰ الأول: جعلنا لكم فيها معايش وخَوَلاً[1] وأنعاماً، الله يرزقها وإياكم. والمعنىٰ علىٰ الثاني: أعشناكم منها أنتم ومَنْ لستم له برازقين من عيالكم وخدمكم ومن دوابّكم وأنعامكم. فالآية تحسيسٌ لعظيم صُنع الله ومنَّته فينا وفيما نملك من حيوان وإنسان. والوصف في قوله: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ للزيادة في التحسيس والتمنُّن بالنِّعَم.

---

(١) هم: حَشَمُ الرجل وأتباعه، ويقع على العبد والأمة. «لسان العرب» (خول).

ثم أردف الخاصَّ بالعام الكلي علىٰ وجه التعليل، فقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ حسبما تقتضيه الحكمة، ويستدعيه الإتقان والإحكام. وقد استعار «الخزائن» للقدرة البالغة علىٰ إيجاد الأشياء، أو للنظام والأسباب الطبيعية الـمُوجِدَة لها مباشرة. وعبَّر بالإنزال لأنه يأتي بمعنىٰ الإيجاد والإعطاء.

ثم ذكر من دلائل قدرته العظيمة وخصائص الألوهية، نعمةَ نظام تكوُّن المطر العجيب، واقترانه بالحكمة البالغة والقدر المعلوم، فقال: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وذلك من بدائع الكون، حيث تهبُّ الرياح الجافَّة مارَّة بالبحار، فتتلقَّح ببخار الماء، وترتفع إلىٰ طبقات الجو الباردة، فتنقلب ماء، ومتىٰ انقلب نزل سحاباً، ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ وهو من نِعَم الله العظيمة العميمة؛ إذ لولاه لَـمَا عاش مخلوق، ثم زاد في التحسيس بقوله: ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾، ولكنه من خزائن الله، ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]. وقد تحقَّق في العلم الطبيعي أنَّ الهواء القريب من سطوح البحار وغيرها عندما يسخن بتأثير الحرارة يرتفع في الجوِّ ويبرد لوصوله إلىٰ منطقة باردة، أو لامتزاجه بتيار الهواء البارد، فإذا بَرد تكاثف فيه بخار الماء وتكوَّن السحاب، وسار مدفوعاً بقوة الهواء. ويتراوح بُعْدُه عن الأرض بين ميل وعشرة أميال، حتىٰ إن سكان الجبال الشاهقة يحاذونه، وقد يكون دونهم أحياناً.

وقيل في معنىٰ ﴿لَوَٰقِحَ﴾: أنه يتناول تلقيح الرياح للنبات والأشجار، وذلك بنـقل مادة التلقيح من الذكر إلىٰ الأنـثىٰ. فيكون لفظ ﴿لَوَٰقِحَ﴾ علىٰ المعنىٰ الأولىٰ بمعنىٰ: حَوَامل، من الفعل اللازم، لأنَّ لاقح بمعنىٰ: حامل، من قولهم: لَقِحَت الناقة؛ إذا حملت. وعلىٰ الثاني: من قولهم: لقحت النخل؛ أي: أُبِّرت بلقاح النخل، ولا يَبعُد أن يُراد بها المعنيان، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

ثم تابع دلائل المنَّة والقدرة علىٰ إيجاد النِّعم بإيجادنا من العَدَم، وألمع بالإحياء الأول إلىٰ القدرة علىٰ الثاني، فقال: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾، فيفنىٰ كلُّ شيء، ويبقىٰ وَجْهُ ربِّك ذي الجلال والإكرام.

ثم تابع السياق بقدرته علىٰ الإحصاء فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: مَنْ كان ومن سيكون، فأحصينا العَدَد، ولم يغب عنا منكم أحد، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ العظيم القدرة الواسع العلم ﴿هُوَ﴾ الذي ﴿يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾، فإحصاؤهم وحَشْرُهم من مُتعلَّق علمه وحكمته وقدرته.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾.

ثم أردف السياق المتعلِّق بأنواع من قدرة الله البالغة، ببيان قدرته تعالىٰ في بداعة خَلْقِ الإنسان، وكونه مُسْتعدّاً للخير بسلامة فطرته، وللشرِّ بإفساده لطبيعته، فيغوي ويضل. أردفه به تلميحاً إلىٰ أنَّ هؤلاء المشركين قد وقعوا في هذا الفساد والغَواية، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾، والصلصال: الطين اليابس الذي يُسمع له عند النَّقْر صَلْصَلَة، أي: صوت طنين. ويجوز أن يكون الصَّلصال بمعنىٰ: الخالص المُصَفَّىٰ، مِنْ: صَلَّ الشراب؛ إذا صفَّاه، والله أعلم. والحمأ: الطين الذي يَسْوَدُّ من طول مُجَاورة الماء. والمسنون: المصبوب[1]، كأنه أُفرغ حتىٰ صار صُورة، كما يُصَبُّ الذهب والفضة ويُصوَّر. فهذه الصفات الثلاث صفات الطين الذي خُلق منه أصل الإنسان، وفيها إشارة إلىٰ الأدوار التي مرَّ فيها جسمه من هذا الطين حتىٰ تكامل. والله أعلم.

---

(١) ومن معانيه: المصقول المُمَلَّس.

ثم قارن بين خِلقة الإنسان وخِلقة الجان، تكميلاً للبيان، فقال: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل خَلْق الإنسان ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ أي: النار الملتهبة. وفي الكلام إشعارٌ ببرودة مادة الإنسان وحرارة مادة الجانِّ، وأن وجودها قبل وجوده.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾.

ثم ذكر بعد هذا البيان قصَّةَ آدم والشيطان، الدالة على استعداد الإنسان للغَواية، إيذاناً بأن هؤلاء المشركين قد غَوَوْا وضَلُّوا بغَواية الشيطان، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ سُجودَ تحيَّةٍ وإكرام. وإضافةُ الروح إلى الله سبحانه من نوع إضافة الـمُلْك، مثل: كتابي ومصباحي وأثاثي. وكما يقول صاحب معمل الفخّار مثلاً: بُنِيَ هذا الدار بفخّاري، يتمجَّد بذلك. والغرض من هذه الإضافة: التكريم لهذا النوع من مخلوقات الله، أو لأنه أكثر المخلوقات وجوداً، وهو الروح الذي خصَّ به النوع الإنساني بعد الجنِّ والـمَلَك.

أما التسوية فقد قال حجة الإسلام الغزالي: التسوية: فِعلُ المحلِّ القابل للروح، وهو الطين في حقِّ آدم، والنطفة في حق أولاده، بالتصفية وتعديل المزاج. فإنه كما لا تقبل النار يابساً محضاً كالتراب والحجر، ولا رطباً محضاً كالماء والعسل، وإنما تتعلق

بمركب خاص، كأن يتردَّد الطين الكثيف في أطوار الخليقة حتىٰ يصير نباتاً فييبس، فتتشبَّث به النار. كذلك الروح لا تـتشبَّث بالطين، إلا بعد أن يُنْشئه الله خلقاً من بعد خلق في أطوارٍ متعاقبة، حتىٰ يصير صالحاً لذلك. وهذا في حقِّ آدم. أما في حق أولاده: فحتىٰ يصير نباتاً، فيأكله الآدمي، فيصير دماً، فتَنْتَزِعُ منه القوةُ المركبةُ في كلِّ حيوان صَفْوَهُ الأقربَ إلىٰ الاعتدال، فيصير نطفة، فيقبلها الرحم، ويمتزج بها منيُّ المرأة، فتزداد اعتدالاً، ثم ينضجها الرحم بحرارته، فتزداد تناسباً، حتىٰ تنتهي في الصفاء واعتدال نسبة الأجزاء إلىٰ الغاية، فتستعد لقبول الروح، كالفتيلة التي تستعدّ عند شرب الدهن لقبول النّار. فإذا استعدت النطفة لذلك بعد أن استكملت أطوارها في الرحم وانتهت إلىٰ الغاية، نفخَ فيها الروح. ومثال ذلك: فيض نور الشمس علىٰ كلِّ قابل للاستنارة. انتهىٰ بتصرُّف.

وأقول: إن الإمام الغزالي لم يوضِّح الفرق في كلامه هذا بين الروح والحياة. ومَنْ تأمَّل في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلىٰ: ٢]، ولاحظ مخلوقاته تعالىٰ ملاحظةً دقيقةً، رأىٰ أنَّ الحياة غير الروح؛ رأىٰ أن الحياة أمر عام في سائر مخلوقات الله، فالحياةُ في الحيوان هي حالة ناتجة من الدورة الدموية فيه، ومُحرِّكها القلب، فما دام يتحرَّك فالجسم حيّ، ومتىٰ تعطَّل سكنت الدورة الدموية وماتَ الجسم. والحياةُ في النبات ناجمة من الدورة المائية، تمتصُّها العروق من الأرض وتبعثها للجِذْع، فيبعثها للغصون، فللأوراق والثمر، وكلُّ جزء لا يصله شيء من ذلك الماء يموت، وإذا تعطَّلت العروق ماتت الشجرة، والله أعلم.

أما الروح فإنه غير ذلك الأمر، ومظهره في عالم الظهور والشهود النوع الإنساني، فإنه اختصَّ بهذه الروح عن سائر مخلوقات الله الـمُشاهَدة وامتاز بها، فكان له من الإدراك ما لا ينتهي عند حدّ. وعلىٰ هذا الإدراك مدارُ التكليف الذي اختُصَّ به الإنسان

من بين عالم الشهود، وجمع بواسطته بين الحياتين الأولىٰ والثانية. إذ الروح هي المختصَّة بالبقاء، وتنتقل من الحياة الدنيا إلىٰ الحياة الأخرىٰ في سَعَادة أو شقاء، والجسم تَبَعٌ لها لأنه غلافها وإطارها في الحياتين، لا فيما بينهما من حياة البرزخ، لأنها تكون فيه مجرَّدة عن الجسم، بخلافها في الحياة الأخرىٰ، فإنها تتَّصل بجسم صالح للخلود. والله أعلم. ولعله أن يكون لطيفاً، والله أعلم. وينشأ هذا الجسم من نواة الحياة الباقية في جسم الإنسان بعد الموت، ويُعبِّر عنها الحديث بعجب الذَّنَب[1]. والله أعلم.

وتوضيح الفرق بين الحياة والروح: أنه سبحانه قال عن الحياة: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلىٰ: ٢]، فكلُّ مخلوق من مخلوقات الله تعالىٰ حائز علىٰ الحياة بهذه التسوية؛ لأن الحياة عرض ناتج منها، ومتىٰ اخْتَلَّت منه هذه التسوية خللاً كبيراً زالت منه الحياة، وبطل أثرها من نموّ أو حركة، وما يتبعها من الأعراض والأحوال.

انظر إلىٰ هذه النباتات علىٰ اختلاف أنواعها، تراها إذا عبثت بها عبثاً كبيراً، بقطعها أو تمزيقها أو تكسيرها، فَقَدت الحياة وذبلت وماتت. وهذه الفواكه والخَضِرُ مثلاً ما دامت متَّصلة بشجرتها علىٰ تسويتها فهي حيَّة نامية، فإذا قطعتَها من شجرتها كانت كالعضو المقطوع من الجسم، تبطل حياته المستمدّة من ذلك الجسم، فإذا مرَّ عليها زمن قليل، طَرَأ عليها الفساد والانحلال، وهكذا الحَبُّ والنَّوىٰ، يبقىٰ مُحتفظاً بحياته الكامنة فيه، ما دام باقياً علىٰ التسوية التي خلقه الله عليها، فيصلح للنَّبت متىٰ استوفىٰ الشروط الطبيعية لذلك، من التراب والماء والزمن الموافق، فإذا فقد تلك التَّسوية لعارض يعرض له من عبث الإنسان به أو الحيوان، كالكسر أو من السُّوس مثلاً، فقد الحياة وقوة النَّبْت.

وكذلك الحال في المعادن، فما دامت باقية التسوية في مناجمها داخل الأرض،

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥)، عن أبي هريرة.

تكون محتفظة بحياتها تنمو وتتزايد وتتكامل، فإذا قُطع جزء منها للاستعمال فقد ذلك الجزء الحياة والنماء.

أما الحيوان فالأمر فيه أظهر؛ يُحافظ علىٰ حياته التي بها حركته ونماؤه، وسعيه وركوده، ويقظته ورقوده، فإذا طرأ علىٰ جسمه خلل كبير بنتيجة مرض أو شبهه حتىٰ أوقف قلبه، فقد الحياة، وطرأ عليه الانحلال والفساد. فالحياة تكون في المخلوقات بأسْرها نتيجة تَسْويتها من جانب الله تعالىٰ في أصل خلقتها، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلىٰ: ٢].

أما الروح فهو مخلوق عظيم من مخلوقاته تعالىٰ، لا يعلم كُنْهَهُ إلا الذي خلقه، ولذلك أضافه لنفسه تنويهاً بشأنه وتكريماً فقال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، فميَّزه بهذه الإضافة التكريمية من دون سائر المخلوقات. وهذه الإضافة علىٰ حدِّ قول القائل: أعطيناه من نفائسنا وتُحفنا. والتعبير بالنفخ عن خَلق الروح ـ والله أعلم ـ للإشعار بأنَّ الروح جسمٌ لطيفٌ خفيفٌ، وأنه مُستَقِلٌّ عن البدن لا مُمْتزج فيه، وأن البدن كالظرف والغلاف.

وروي عن الإمام مالك وغيره: أنَّ صورة الروح كصورة الجسد[1]، إلا أنها لطيفة. وعن جعفر الصادق: أنَّ الروح تبقىٰ علىٰ مثل قالبها في الدنيا، وعلىٰ صورة بدنها، لو رأيتها لقلت: فلان.

وعن الإمام مالك قال: بلغني أن الروح بعد الموت في برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت[2]. ومعنىٰ «في برزخ»: أنها محجوبة عنا، بحيث لا نراها للطافتها. والله أعلم.

---

(١) لم أجده إلا في «تفسير المنار» (٤: ٢٦٩).

(٢) ذكره الغزالي في «الإحياء» (٤: ٤٩٧).

والروح لا يتَّصل إلا بالإنس والجن والـمَلَك، والله أعلم، كما قال تعالىٰ في خلقة آدم: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾، فالتسوية هي الحياة، والروح أمر آخر امتاز به الإنسان عن سائر الحيوانات المُشاهَدة، بإدراك لا ينتهي عند حدّ وعقل لا تُكِلُّه مُعْضلة، كما قال تعالىٰ: ﴿خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٧]، أي: عن طريقة سائر الحيوان، ثم قال منوِّهاً وممتناً: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨]، أي: طبعك بطبيعة لا تميل عن الهدىٰ إن لم تُفْسدها.

وتدلُّ صورة التعبير في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩، صٓ: ٧٢] علىٰ أن جسم الإنسان إذا فَقَد تسويتَه التي بها الحياة لا يصلح أن يكون موضعاً لهذه الروح، والروح جسم لطيف لا عَرَضٌ كالحياة، وتبقىٰ بعد موت البدن في الفضاء في سعادة أو شقاء؛ تبعاً للاعتقاد والأعمال في الدنيا، حتىٰ إذا عاد البدن في الآخرة بعد النفخة الثانية اتَّصلت به الروح، ولا تخطئ جسدها، كما جاء في آيات: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. هذا ما أراه في الفرق بين الروح والحياة، والله أعلم بالصواب، فإن أصبتُ فالحمد لله، وإن أخطأتُ فأستغفر الله. ولا يعلم حقيقة الروح وكُنهها إلا الله.

وجاء في «تفسير الرازي» ما محصَّله: ومن الناس من يقول: الروح جسم لطيف لا يقبل التحلُّل والتمزُّق، فإذا تكوَّن البدن وتمَّ استعداده ـ أي: وهو المراد من قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ ـ نفذت فيه الروح نفاذ ماء الورد ـ أي: وهو المراد من قوله تعالىٰ: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ ـ، ثم إنَّ البدن ما دام سليماً قابلاً لنفاذ الروح فيه يبقىٰ حياً، ومتىٰ فَقَد السلامة يعرض له الموت[1]. وإني أقول: إن الإنسان ما دام حياً تتَّصل به الروح، فإذا مات فارقَتْهُ، والله أعلم.

---

(١) «تفسير الرازي» (٢١: ٣٩٨).

ثم قال بعد ما نقل هذا الرأي: وهذا مذهب قويٌّ شريف يجب التأمل فيه، فإنه شديد المطابقة لِـمَا وَرَد في الكتب الإلهية من أحوال الحياة والموت.

ثم قال بعد كلام طويل: وإن قوله تعالىٰ: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣] كلام صريح بأن النفس غير البدن، كما أنَّ قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ تصريحٌ بالفرق بين البشريَّة والروح. انتهىٰ بتصرُّف.

والنفس هي الرُّوح من حيث اتصالُها بالبدن.

ثم قال تعالىٰ في إتمام البيان عن قصة آدم والشيطان: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ (١) ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾، وهذا النفيُ للشأن، أي: لا ينبغي لي. وهو منتهىٰ الكفر والعناد. ويجوز أن يكون هذا مفاد تأويله للأمر، زاعماً أنه لا يتناوله، وإنما يتناول غير فصيلته. فلعنه سبحانه و﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: من جماعة الملائكة، أو من الجنَّة بعد وسوسته لآدم. وقال أبو مسلم: أي: من السماء، ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ أي: مطرود، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ أي: الإبعاد والطرد ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾.

فلما سمع هذا الحكم الميئِّس من الآخرة، طلب التمتُّع في الدنيا و﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ﴾ أي: فأمهِلني وأخِّرني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: يُحشرون للجزاء. وهذا استمهال يستلزم أن يبقىٰ حياً لا يموت أبداً؛ إذ هو طَلَبُ اتصال حياته الأولىٰ بالحياة الثانية التي هي بعد البعث للناس، فلم يُجبه الله إلىٰ ذلك، وإنما أجابه بما اقْتَضَتْهُ الحكمة

(١) والمعنىٰ: أيُّ عذر لك حملك علىٰ أن لا تكون ساجداً مع الساجدين من ملائكة الملأ الأعلىٰ، وقد تسلَّلت في صفوف الملائكة مترقياً، حتىٰ اعتبرتَ نفسك واحداً منهم.

البالغة، و﴿ قَالَ ﴾ له: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ وهو آخر أيام التكليف، أي: النفخة الأولىٰ التي يموت بها جميع الخلائق. وهذا هو المرويُّ عن ابن عباس[١]. وقال الحسن والـجُبّائي وأبو مسلم: الوقتُ المعلوم: يوم القيامة[٢].

أقول: وذلك عند النفخة الأولىٰ أيضاً التي يَتَداعىٰ بها بناء هذا العالم ـ والله أعلم ـ ويتجرَّد آخر إنسان من هواجس الشيطان بعد انقضاء الدنيا.

وقيل: عند النفخة الثانية التي يقوم بها الناس من قبورهم، فأنظره الله في رفع العذاب عنه، وفي بقائه حياً إلىٰ ذلك اليوم، طبقاً للحكمة، وليس تحقيقاً لرغبته.

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾.

ثم بيَّن تعالىٰ مَدَىٰ تأثير إبليس علىٰ الإنسان العابث بسلامة فطرته، والمفسد لنور بصيرته، فقال حاكياً عنه: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: لأُزَيِّنَنَّ[٣] لهم المعاصي في الدنيا ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾، ونَسَبَ الإغواء إلىٰ الله باعتبار سُنَّته العامة في خلق الجنِّ والإنس، وهي أن من يُفسِدُ منهم طبيعته ويرسخ في التمرُّد والضلال يغوي ويفقد الاستعداد للطاعة والامتثال. كما يقال: لقد أعماه الله،

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٣٢٣٨).

(٢) ذكره الزركشي في «البحر المحيط» (٧: ٣٩٠)، عن الحسن البصري.

(٣) أي: لأُحَسِّنَنَّ لهم متاعاتهم من الحياة الدنيا تزييناً أُدلِّيهم به إلىٰ معصيتك ومخالفة أمرك، حتىٰ دَرَكة الكفر.

وما العمىٰ إلا مرضٌ طارئٌ من التقصير في قوانين حفظ الصحة للعين[١]. ونقول: أيبس الله هذه الشجرة، إذا يبست من أكل الجرذ لها مثلاً، وذلك لأنه سبحانه جعلها مستعدة لليبس من تلك الأسباب. وعلىٰ هذا يُنسَبُ الإضلال والإغواء إلىٰ الله. والسبب المباشر إنما هو من الضالِّ والغاوي نفسه.

وقوله: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ تمثيلٌ وتصويرٌ لقوَّة إبليس وشدَّة تأثيرها، وتحذير عنها. ولكنها لا تؤثر بمن حافظ علىٰ نور بصيرته واستعداده الفطري لقبول الحق والإعراض عن الباطل. كما قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾[٢] وهم الذين حافظوا علىٰ سلامة فطرتهم المخلَصة، ولم يُفسِدوها بالتحريف والتخريب، فبقيت ناصعةً كما خلقها الله، تَقْبَلُ الحقَّ وتُعرِضُ عن الباطل، تعمل الخير وتتجنَّب الشر.

وفي قصة يوسف عليه السلام دليل واضح علىٰ ذلك، حيث لم تُـغْرِهِ المغريات لسلامة طبيعته من الفساد. فالإنسان مستعدٌّ للتحفُّظ من المُغْريات بنصُوع فطرته[٣]، وللوقوع فيها بإفساده لطبيعته وإتلافه لنور بصيرته. وقد مرَّ الكلام علىٰ مقاولة إبليس في سورة النساء وغيرها، فارجع إليه. وكذلك في لاحقة المقدِّمة الثانية.

وخلاصة ذلك: أنَّ هذه المحاورة مع إبليس قد تكرَّرت في القرآن المجيد بعبارات

---

(١) وقد يقع بقدر الله تعالىٰ علىٰ بعض الناس، دون تقصير في قوانين حفظ الصحة للعين. والأقرب في معنىٰ ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾: بسبب ما حكمت عليَّ به من الغَواية.

(٢) قرئ بفتح اللام، أي: الذين تستخلصهم وتَصْطفيهم فتعصمهم من الغَواية. وقرئ: (المخلِصين) بكسر اللام، أي: الذين يُخلِصون لك الإيمان والعمل، فأنت تحميهم من الغَواية بسبب إخلاصهم لك.

(٣) وبتوفيق الله له، وصدق التجائه إليه، كما قال سبحانه علىٰ لسان يوسف عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ...﴾ [يوسف: ٣٣]، ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ...﴾ [يوسف: ٣٤].

منـوَّعة، والمراد منها: أقوال الله التكوينية[١] التي يقول بمثـلها سبحانه عن تكوين المخلوقات وما خلقها الله عليه من الخصائص والمميزات. كما في قوله تعالىٰ عن خلق الأرض والسماوات: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فُصِّلت: ١١]، فقد قالوا: ليس هناك أمرٌ بالقول علىٰ الحقيقة ولا جواب لذلك القول، ولكن الكلام علىٰ التَّمثيل[٢]، يُبيِّن به سهولة ذلك عليه، وأنَّ خلقهما كان من غير تكليفٍ ولا مَشقَّة، وأنهما يقومان بما خصَّهما به من أعمال وآثار. وكذلك معنىٰ هذه المحاورة: أنَّ الشيطانَ أصبح بفساده هكذا مُغْوياً للبشر مُضِلاً لهم، وعليهم أن يحذروه بالمحافظة علىٰ سلامة فِطَرهم؛ إذ لا سلطان له علىٰ المخلصين. والله أعلم.

وقد نوَّه سبحانه وتعالىٰ بشأن هذا الإخلاص ومحافظة الفطرة و﴿قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ أي: إن هذا الإخلاص طريقُ مَنْ سـار فيه وصل ونجـا. ويجوز أن تكون هذه الجملة تمهيداً لما بعدها، أي: هذا طريق حق عليَّ أن أُحقِّقَه، وهو: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ الذين غَـوَوْا بإخلادهم إلىٰ الضلال، فأفسدوا طبيعتهم، وطمسوا نورَ بصيرتهم، وجمدوا علىٰ التقليد، وفقدوا استعداد النظر والتفكير. والتعبيرُ بالاتِّباع والغَواية للإيذان بأنَّ ذلك إنما كان بصنعهم.

والآية تُؤْذن بأن للشيطان قوة تضليليَّة تسويليَّة، تحلُّ بالنفس المستعدَّة لها، كما ينجذب الميكروب إلىٰ الموضع الذي يجد فيه غذاؤه في الجسم الذي لا يحافظه صاحبه حسب السنـن الكونية الصحية، فيفرخ ويتكاثر حتىٰ يخرج ذلك الشيء عن أصله

---

(١) بل الصحيح أنها أقوال حقيقية جرت بين الله تعالى وإبليس، والظاهر أن ذلك كان بواسطة مَلَكٍ كجبريل عليه السلام.

(٢) بل الكلام هنا علىٰ الحقيقة أيضاً.

بالتحلُّل والتفسُّخ. فكذلك هذه القوة التسويلية المُغْوية، تعمل في النفوس المستعدة للغَواية مثل هذا العمل من التحلُّل والتفسخ. والله أعلم.

ثم ذكر مصير هؤلاء الغاوين المتَّبعين للشيطان، فقال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾، فذكر الباب وأراد المحلَّ المختص به الذي يُدخَلُ منه إليه. أي: لكلٍّ من أقسامها قسمٌ وصنف منهم. ويظهر ذلك بحسب نوع ما اقترفوه من الذنوب فوق الشرك. والله أعلم.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

ثم قرن مصيرهم بمصير المتَّقين؛ تكميلاً للترهيب بالترغيب، وزيادةً في الاستفزاز والتنبيه، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾، ويُقالُ لهم عند دخولها: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾ زيادةً في تكريمهم وتأنيسهم. وقرأ الحسن: (أُدْخِلوها) بصيغة الماضي المجهول.

ثم قال تعالىٰ في إتمام البيان: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أي: ما كان بينهم من حقد في دار الدنيا. وروي عن الحارث الأعور: أنه كان جالساً عند علي رضي الله عنه إذ دخل زكريا بن طلحة، فقال له عليٌّ: «مرحباً بك يا ابن أخي، والله إني لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله تعالىٰ في حقِّهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾. فقال الحارث: كلا، بل الله أعدل من أن يجعلك وطلحة في مكان واحد، قال رضي الله عنه: فلمن هذه الآية، لا أُمَّ لك، يا أعور»[1].

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (٨٢٧) بنحوه، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩: ٢٠٩): رواه =

وكذلك لا يكون لديهم تحاسُد علىٰ درجات الجنة ومراتب القُرب والنعيم، لعلمه أنه دونه في الأسباب، وأنه أخذ حقَّه وافراً، ولا حقَّ له في مثل مرتبة صاحبه. ويكونون ﴿إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ أي: تعب، إذ ليس فيها ما يُوجبه من الكدّ، ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ فهم فيها خالدون، ومن تمام النعمة هذا الخلود. اللهم اجعلني منهم يا أرحم الراحمين.

ثم أردف ما تقدَّم من البيان عن مصير الكافرين والمؤمنين بما يزيد في الترغيب والترهيب، والتبشير والإنذار، فقال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ بالمؤمنين، ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي ﴾ للعصاة ﴿هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾، وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو يعلم المؤمنُ ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنَّته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد»(١). وفي رواية: «العاصي» بدل «الكافر».

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

= الطبراني في «الأوسط»، والحارث ضعَّفه الجمهور، وقد وُثِّق، وبقية رجاله ثقات. وهذه الرواية ذكرها الرازي في «تفسيره» (١٩: ١٥٠).

(١) رواه مسلم (٢٧٥٥)، عن أبي هريرة.

ثم أيَّد هذا البيان بالواقع، فاستشهد عليه بقصة إبراهيم مع قومه، حيث غمر الله المحسنين منهم بإحسانه العميم، وأخذ المسيئين بالعذاب الأليم، وقد مزج مع ذلك تفصيل ما سبق في أول السورة من قوله: ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الحجر: ٨]، وجعله تمثيلاً له، فتنبَّهْ إليه، حيث قال: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ أي: خائفون، وذلك لـمّا امتنعوا من أكل ما قرَّبه إليهم من العجل الحنيذ كما في سورة هود[1]، إذ من عادتهم أنَّ الضيف إذا قُدِّم إليه الطعام فلم يأكل ظنُّوه جاءهم بمكروه، أو يريد الإيقاعَ بهم، كما هي العادة عند البدويين.

فلما قال لهم ذلك: ﴿ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ ﴾، وزادوا في إيناسه وطمأنته بقولهم: ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ ﴾ أي: يكون ذا شأن عظيم في العلم، إذا بلغ الرُّشْد. فعَلِم أنهم ملائكة، وفهم من فحوىٰ ما تستلزمه البشارة أنه باقٍ هو وأهله في عافية.

ولما سمع بهذه البشارة التي ملأت قلبه سروراً، ووافقت غرضه ومأموله، طَغَتْ عليه موجةٌ من الحرص الطبيعي علىٰ تحقُّق إنجازها وتحقيقها، فاستفهم عمَّا يكون من أمر المانع الطبيعي، وهو الكِبَر، وأخرج الاستفهام عن ذلك بصورة الاستبعاد والاستعظام، ليسمع من المبشِّر ما يكفُّ عنه تلك الخاطرة، ويخفِّف عنه ذلك الهاجس، علىٰ حدِّ قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، و﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ أي: بأيِّ أعجوبة تُبشِّروني؟! يستعظم عادةً أن يولَدَ له ولدٌ وهو بهذه السن.

وقد دفعه إلىٰ هذا الكلام شدَّة الحرص علىٰ أمر محبوب، ظهرت تباشير الطمع فيه، ليسمع ما يسرُّه من تذليل عوائقه الطبيعية التي يحسُّ بها، فأجابوه عن ذلك،

---

(١) في الآية ٦٩ منها.

و﴿ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الذي لا بدَّ واقع، ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾، ومادة القنوط تُؤْذن بأنه إنما استبعد ذلك، نظراً للسنَّة الطبيعية المعتادة. ولذلك لم يقولوا له: «فلا تكن من الممترين».

ويؤيِّد هذا ما حكاه عنه سبحانه بقوله: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ عن كمال المعرفة بالله سبحانه وعَظَمة قُدرته البالغة. ويُؤْذِنُ هذا القول بأنه إنما قال ذلك بدافع الحِرص، لا بدافع اليأس والإنكار.

وبعد أن اطمأنَّ منهم عَلِمَ أنهم ملائكة مُرسَلون لأمر آخر فوق البشارة التي جاءت عَرَضاً ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي: فما شأنكم الذي أُرسِلتُم به ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾﴾؟ ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ يعنون: قوم لوط، وعبَّروا بالوصف المُؤْذن بالعلَّة دون التصريح بهم، اكتفاء بما يأتي بعد، علىٰ طريقة إيجاز القرآن، وهو قوله: ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ أي: من الماضين في الهلاك.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

ثم وصل بقصة إبراهيم قصَّةَ لوط، لأنها فرع منها وتتمَّة للبحث، وقال: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ﴾ لهم لوط: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي: رَهِبَهم، وقال لهم: إنكم قومٌ يُخْشىٰ بأسُكم، ﴿ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أي: قالوا له: لا بأس عليك هنا، وإنما جئنا أن نُنزِلَ بقومك ما كانوا يشكون فيه من نزول العذاب بهم.

﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ الذي لا مجال فيه للشك ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾، وهذا التأكيد فيه تمهيدٌ لِـمَا بعده أيضاً، وهو قولهم: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ أي: بطائفة منه. والمعنىٰ: سِرْ بأهلك بعدما يمضي أكثرُ الليل، ويبقىٰ قطعة منه، ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ ﴾ أي: كُن وراء أهلك؛ لتكون عيناً عليهم وأمناً لنفوسهم، ولئلّا يتخلَّف أحدٌ منهم أو يتراخىٰ، ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ لئلّا يرىٰ العذاب فيَفْزَع ولا يحتمل قلبه ذلك. وهذا مرويٌّ عن الحسن وأبي مسلم، أو هو كنايةٌ عن مُواصلة السير السريع، وتهويلٌ للعذاب الواقع، أي: أسرِعوا ﴿وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ قال السُّدّي: أي: اذهبوا إلىٰ الموضع الذي أمركم الله بالذهاب إليه، وهو الشام.

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ﴾ ضمَّن ﴿قَضَيْنَآ ﴾ معنىٰ: أوحينا، أي: أوحَيْنا إليه أنْ قضينا ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ ﴾ المفسَّر بقوله: ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: أوحينا إليه أنه لا يُصبح الصباح إلا وقد استأصلهم العذاب. قال أبو السعود: وإيثار اسم الإشارة في قوله: ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ علىٰ الضمير للدلالة علىٰ اتِّصافهم بصفاتهم القبيحة التي هي سبب هذا القضاء، والضمير لا يؤديه، أي: دابر هؤلاء المجرمين. وإيراد صيغة المفعول في قوله: ﴿ مَقْطُوعٌ ﴾ بدل صيغة المضارع؛ لكونها أبلغَ في الدلالة علىٰ الوقوع.

وفي لفظ القضاء، والتعبير عن العذاب بالأمر، والإشارة إليه بـ«ذلك»، وتأخيره عن الجارّ والمجرور، وإبهامه أولاً ثم تفسيره ثانياً: من الدلالة علىٰ هَوْل ذلك العذاب وفظاعته ما لا يَخْفىٰ[1].

﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٥: ٨٤-٨٥).

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

ثم عاد وذكر ناحيةً أخرىٰ من القصَّة، وهي ما كان من قومه مع هؤلاء الضيوف، فقال: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ﴾ أي: أهل مدينة سدوم، منزل قوم لوط ﴿يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ بأضيافه عليه الصلاة والسلام طمعاً فيهم. والاستبشار: ما يظهر علىٰ البَشَرة من أثر الفرح.

ولـمّا رآهم لوط ﴿قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي﴾، والضيف ـ حيث كان مصدراً في الأصل ـ أُطلِقَ علىٰ الواحد والمتعدِّد والمذكَّر والمؤنَّث، وإطلاقُه علىٰ الملائكة إنما هو بحسب اعتقاده عليه الصلاة والسلام قبل أن ينكشف له أمرهم، لكونهم في زيِّ الضيف، ولا يَبعُدُ إطلاقُه عليهم لغة، والتأكيد لإظهار اعتنائه بشأنهم، ومراعاة حقوقهم وحمايتهم من السُّوء، وقد مهَّد به لقوله: ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾﴾ عندهم بأن تتعرَّضوا لهم بسوء، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مباشرتكم لِـمَا يسوؤُني، ﴿وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾﴾ أي: لا تُذِلُّوني بالتعرُّض لمن أجَرْتُهم وأضَفْتُهم.

هذا ما قاله لهم وأنَّبهم به، ولكنهم لم يرتدعوا وأجابوه بكلِّ وقاحة و﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾ أي: عن التدخُّل في شؤون العالمين؛ يريدون بذلك أنفسهم، ويعنون التعرُّض لهم عن هذا الفعل، ومحاولة كفِّهم عن الناس.

فلما رأىٰ إصرارهم، وأن المعالجة بالتأنيب والتقريع والتعذُّر لا تُجْدي نفعاً بهؤلاء الأدنياء، أظهر لهم شدَّة امتعاضه من عملهم هذا وتجاوزهم عليه في ضيوفه، و﴿قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾، وهذا كلام صادر عن أشدِّ الألم والامتعاض بأمرٍ يراه في منتهىٰ الفظاعة والشناعة، يُظهِرُ به لهؤلاء الأدنياء أنَّ طلبكم هذا أشدُّ فظاعة عليَّ

من هذا الأمر الشنيع، فيكون إنكاراً عليهم بأشنع وجوه الإنكار، ولا يُراد بمثل هذا الأسلوب المعنىٰ الحقيقي للتركيب. وذلك معروف في أساليب الخطاب، يقوله المتذمِّر لإظهار امتعاضه الشديد مما هو في درجته في الشناعة عنده أو أشد.

ويؤيِّد هذا المعنىٰ جوابُهم عنه وتنزيههم له الذي حكاه سبحانه في سورة هود بقوله: ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ [هود: ٧٩] أي: إننا نُنزِّهك عن ذلك، ونرفع من قدرك عما يشينك.

وقيل: بل إنَّ الكلام علىٰ الإرشاد، والمراد من البنات: نساء قومه، لأنَّ النبيَّ في قومه كالوالد. أي: كفُّوا عن فعلكم هذا واكتفوا بالنساء عن الذكران، فهو الموافق للفطرة، والمؤدِّي للغاية التي خُلِقْنَ لها، وهي بقاء النسل، بخلاف فعلكم هذا. وهذا القول مرويٌّ عن ابن عباس والحسن وقَتادة وغيرهم[١].

وقد نعىٰ عليهم سبحانه عدم اكتراثهم، بقوله: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾، والعَمَهُ: أقبح العمىٰ.

ثم حكىٰ صورة نزول العذاب بهم، فقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ أي: عند شروق الشمس، ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾، وقد مرَّ تفسير هذا في سورة هود[٢]، فارجع إليه.

ويجوز أن يُراد بالصيحة: صياحهم من الفزع لِـمَا أصابهم من جرَّاء الرَّجْم بهذه الحجارة[٣]، كما يقال: أخذه البكاء. والله أعلم.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧: ١١٨).

(٢) في الآية ٨٢ منها.

(٣) هذا قولٌ ضعيف مردود، وإنما المراد: أخذت أرواحَهم من الحياة الدنيا صَيْحةٌ صوتيَّة عُظمىٰ بعد شروق الشمس.

ثم حضَّ علىٰ الاعتبار بهذه العبرة، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ أي: المتفكِّرين المعتبرين.

﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: هذه القرىٰ التي جعلنا عاليَها سافلَها ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ أي: في طريق ثابت لم تندرس أيام التنزيل، وهي طريق قريش إلىٰ الشام، وهذه القرىٰ هي قرىٰ مدينة سدوم.

وفي كلمة ﴿مُّقِيمٍ﴾ مجاز عقليّ، لأنها في الحقيقة صفة لأطلال تلك القرىٰ، بمعنىٰ أنها باقية إلىٰ الآن، ولكنْ وُصِفَ بها السبيل، أي: الطريق، كما يقال: نهر جار، فيوصف بصفة الماء فيه، وليلة ساهرة، فتوصف الليلة بصفة المحبين لها، والمراد من قوله: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾: أن أطلالها ظاهرة علىٰ هذا الطريق.

وعلىٰ القول بأنها دخلت في بحيرة لوط يكون الكلام باعتبار ما كان. ويجوز أن يراد البحيرة نفسها، وذلك من خصائص اللغة من ذكر المحلِّ وإرادة الحالِّ؛ مجاز مرسل. والله أعلم.

ثم ختم القصة بما يحضُّ علىٰ الاعتبار بها، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ الذين حافظوا علىٰ سلامة فِطَرهم ونور بصائرهم، فكانوا ينظرون الحقَّ بعين الحقِّ، ويبصرون الباطلَ ببصيرة صدقٍ، بخلاف المشركين الذين فقدوا سلامة فِطَرِهم ونور بصائرهم بالتمادي في الباطل ورسوخهم علىٰ التقليد الأعمىٰ. فالمؤمنون هم الذين يعلمون أنَّ ما حاق بأولئك المعاندين من العذاب إنما كان لسوء صنيعهم، وأما غيرهم فيحملون ذلك علىٰ الاتِّفاق والمصادفات، والأوضاع الفلكية والعوامل الطبيعية، ولم يعلموا أنها موافقة أقدار لأقدار[1] من الله العزيز القهَّار، لتكون آية بيِّنة للنظر والاعتبار.

---

(١) بل بعضها موافقة أقدار لأقدار، وبعضها خوارقُ عادات غير جارية على مقتضى السنن الكونية، كما تقدَّم بيانُه في التعليق في مواضع. ينظر على سبيل المثال ص٢٣٢.

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾.

ثم أردف قصة إبراهيم ولوط بقصَّة شعيب مع قومه لنفس الغرض السابق، فقال: ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾، والانتقام: من النقمة، وهي السطوة والعقوبة، ويستعمل في عُرْف التخاطب بمعنىٰ التشفِّي، وهو بهذا المعنىٰ مُحَال علىٰ الله، فليس بمراد. والأَيْكة: الشجر المتكاثف. قال قتادة: وهم قوم شُعيب عليه السلام، وكانوا يسكنون الغيضة، وقد أرسله الله إليهم وإلىٰ أهل مدين فعَصَوا رسولهم، فهلك أصحاب الأيكة بالظلة التي احترقوا بنارها، وهلك أهل مدين بالصيحة، ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ أي: الأيكة ومَدْيَن ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾ أي: لبطريق واضح، وهذا مِثْلُ قوله: ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾، فما قيل هناك يُقال هاهنا.

وفي تثنية الضمير في ﴿ إِنَّهُمَا﴾ اكتفاءٌ وإشارة؛ حيث اكتفىٰ بتثنيته عن التصريح بأهل مدين أيضاً، وأشار إلىٰ أنه أُرسِلَ لهما معاً. وذُكِرَ في تثنية هذا الضمير وجه آخر، وهو أنه يعود إلىٰ مدينة قوم لوط ومدينة أصحاب الأيكة، وإنما كرَّر البيان فيه عن قوم لوط أثناء قصَّة شعيب زيادةً في التنبيه والتبصير، ولاشتراكهما في الوضوح والظهور ببقاء أطلالهما علىٰ الطريق الواضح والأثر الثابت.

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

ثم ذكر قصة ثمود لنفس الغرض، فقال: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ وهم ثمود، كانوا يسكنون الحِجْر، وهو وادٍ بين المدينة والشام. قال الـجُبّائي: بعث الله

إليهم رسلاً منهم صالح عليه السلام[١]، وقيل: لم يبعث إليهم إلا صالح، ولكنَّه أتىٰ بصيغة الجمع لإرادة الجنس، والجنس يصدق بواحد من أفراده، وقيل: إنما ذكر الجمع لأن من كذَّب رسولاً فقد كذّب جميع الرسل، لاتِّحاد الرسالات كلِّها في الطبيعة والأصول، فأراد بالجمع المبالغة في التأنيب.

ثم فصَّل البيان بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ التنزيلية، أو الكونيَّة كالناقة[٢]، أو كِلَيْهما، ﴿فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾ وبها مكذِّبين.

ثم ذكر شيئاً من تفوُّقهم بالقوة والمدنيَّة علىٰ أهل مكة، تعظيماً للترهيب، فقال: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ من أن يصيبَها بلاء لمناعتها وحصانتها، فلم تُغْن عنهم شيئاً. أو بمعنىٰ: غافلين عن عذاب الله، ظانِّين أنَّ إنشاء هذه البيوت أو ما عندهم من العلم والصناعة يقيهم من كلِّ شيء.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: نَزَل بهم العذاب صباحاً، ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

ويجوز أن يكون معنىٰ ﴿يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾: يستخرجون منها الصخر لبناء البيوت.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ

---

(١) فالمراد بلفظ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: أنهم كذبوا عدداً من المرسلين، بعثهم الله إليهم، وأنَّ آخرهم صالح عليه السلام.

(٢) وهي آية إعجازية خارقة للسنة الكونية، كانت لإثبات صدق صالح في رسالته.

لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾.

ثم أشار سبحانه إلىٰ أن أسباب إهلاك الأمم إنما هو مخالفتهم للحق، وسبك ذلك علىٰ إثبات الحشر، بمقتضىٰ خلق هذا الكون العظيم، الذي لا يجوِّز العقلُ أن يكون خلقه سُدىٰ، وعاد بالكلام إلىٰ محوره السابق عن المشركين الذين هدَّدهم بهذه القصص، مُلْمِعاً إلىٰ إثبات الحشر والحساب، وتوعدهم به تعقيباً للسياق بدليل القدرة، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ من المخلوقات، ومنهم البشر، ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: للغرض[1] الصحيح والأمر الحق، فلم يخلق الله البشر علىٰ وَجْهِ الأرض سُدىٰ، ولم يكن أمرهم هملاً، ولم يُرسل الرسل بما أرسله إليهم عَبَثاً، ولم يَعِدْهم بما وعدهم به من الثواب والعقاب باطلاً، كلا، ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ لا ريب فيها، فيُوَفَّون أجورهم يوم القيامة، ﴿فَٱصْفَحِ﴾ الآن عنهم ﴿ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ الذي لا يضرُّ بنشر الدعوة وتعميم الإرشاد، وتحمل أذيَّتهم وعِنادهم حتىٰ يأتيَ أمر الله، ويديل الحق منهم ما يديل.

ثم علَّل ما تضمَّنه الكلام من أن خلق الإنسان علىٰ هذه الأرض وتكليفه بما كلَّفه به إنما هو بالحق والغرض الصحيح، وأن إعراض بعضه لم يكن عن عجز في القدرة،

---

(١) في التعبير بـ«الغرض» في حق الله تعالى نظر، فأفعالُ الله سبحانه لا تُعلَّل بالأغراض، وإنما يُبحَث فيها عن الحِكم، فلو قال: «للحكمة البالغة» لكان أحسن وأسلم.

وإنما هو بمقتضىٰ الحكمة والتدبير الصحيح، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾ أي: يعلم مَنْ خلق وما يصلح له وما يضمن له الكمالَ وصلاحَ الحال، فيضع الشرائع التي تكفل ذلك.

ثم نوَّه بشأن ما أنزله عليه ﷺ من الدين القيِّم الممتاز عن سائر الشرائع المنزلة، وجعل الكلام تتميماً لما قبله وتمهيداً لما بعده، وتمجيداً للقرآن، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ يجوز أن يُراد بها بعض مواضيع القرآن، والقرآن كله كما قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾[1] [الزمر: ٢٣]. وعلىٰ هذا تكون كلمة ﴿سَبْعًا﴾ للتكثير لا للتحديد[2]. بمعنىٰ: أن الأخبار والبيانات والبراهين والقصص والمواعظ يكثر تكرارها فيه بأساليب منوَّعة، للإشارة إلىٰ وجوهٍ وعِبَرٍ مختلفة، ولا سيما أسس الدين الثلاثة: التوحيد، والرسالة، واليوم الآخر، فإنها تكرر بكثرة لأهميتها؛ إذ من نهج القرآن تلوينُ الكلام عن الغرض الواحد المهم بأساليب منوَّعة، زيادة في تقريره وتحليله وتفصيله، ويكون عطف القرآن عليها في قوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ من عطف الكلِّ علىٰ

---

(١) المثاني: جمع «مَثناة»، وهي الطيَّة الواحدة التي تُثنىٰ، وُصف القرآن بأنه مثاني؛ لأنه كتابٌ متشابه في الحسن والكمال، ولأنه تظهر في السطوح المقروءة من مثانيه جملٌ وكلمات، وتوجد مطوياتٌ داخل المثاني تُستخرج بالتأمل الدقيق، وبالاستنباط العميق، ضمن ضوابط الفكر وقواعد الاستعمال اللغوي وأماراته، إما عن طريق الحقيقة، أو عن طريق المجاز.

(٢) بل المراد بالسبع المثاني: سورة الفاتحة، إذ هي جامعة لكليات كبرىٰ هي بمثابة عنوانات عامات للدين الذي اصْطفاه الله عز وجل لعباده. وقد صحّ عن الرسول ﷺ أن الفاتحة هي السبع المثاني وهي القرآن العظيم. فلا عدول عن هذا الذي صحَّ عن الرسول ﷺ. روىٰ البخاري (٤٤٧٤) من حديث أبي سعيد بن المعلىٰ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أُوتيته».

الجزء إن أُريدَ بالمثاني المكرَّر منه فقط، أو من عطف أحد الوصفين علىٰ الآخر إن أُريدَ بها القرآن كلُّه، والله أعلم.

وبعد أن ذكَّره بهذه النعمة التي لا يماثلها شيء، زهَّده في زخارف الدنيا التي أفاضها علىٰ المعاندين له والمعارضين لما نزل عليه، لتكون الدنيا من حظِّهم والآخرة من حظِّه، وهو أمرٌ يوافق ما في نفسه ﷺ، ولكنه جاء النهي لمجرَّد المبالغة في التهييج، فقال: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا﴾ أي: أصنافاً ﴿مِّنْهُمْ﴾ أي: من الكفار، ويجوز أن يتعلق بـ﴿مَتَّعْنَا﴾، أي: لا تمدنَّ عينيك إلىٰ ما متَّعنا به بعض هؤلاء الكفَّار من أصناف النِّعَم والأنعام والأموال والأولاد، فإنها مُسْتَحقَرة بالإضافة إلىٰ ما أُوتيتَه من نعمة القرآن، كأنه قيل: إنك أُوتيتَ هذا القرآن العظيم الذي كلُّ شيء غيره لا شيء، فلا تَشْغَل سرَّك وخاطرك بالالتفات إلىٰ زخارف الدنيا الحقيرة التي متَّعنا بعضهم بها. وهذا ليس علىٰ ظاهره؛ لأنه ﷺ لا تمتدّ عينه إلىٰ ذلك، ولكنه إما لشدَّة البيان عن زهادة زخارف هذه الحياة، وإما نهيٌ للأمة في شخص النبيِّ ﷺ، وذلك علىٰ نهج القرآن في أساليبه، (كما جاء في الفقرة (أ) من المادة السادسة عشرة من المقدمة الثانية).

ويجوز أن يكون ما كان عليه المسلمون من الفقر والعوز نتيجةَ مقاطعة المشركين لهم، وهجرتهم عن ديارهم وأملاكهم. وما كان عليه الكفار من التموُّل والغنىٰ، والحروبُ تحتاج إلىٰ الأموال؛ كلُّ ذلك كان يحزُّ في نفسه ﷺ، فوَعظه مع أتباعه سبحانه وتعالىٰ وهوَّن عليه.

وبعد أن نهاه عن الالتفات إلىٰ أموالهم، نهاه عن الاهتمام بأمرهم وحزنه عليهم إن لم يؤمنوا، وأمره أن يهتمَّ بأمر المؤمنين، فقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: إن لم يؤمنوا، ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ أي: تواضَعْ لهم، وارفق بهم، وأَلِنْ جانبَكَ معهم.

﴿وَقُلْ﴾ للمشركين المعاندين: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾ لكم بعذاب شديد، مثَّل له سبحانه بقوله: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ [١] ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾[٢] أي: إني نذير لكم بمثل ما نزل علىٰ المقتسمين من العذاب.

وقد اختلفوا في المقتسمين، فقيل: هم اليهود، فرَّقوا القرآن وجعلوه أعضاء كأعضاء الجَزُور التي يقتسمونها بالميسر أقساماً، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، آمنوا بما وافق دينهم وكفروا بما خالف دينهم، وأكثروا فيه المشاغبات، مثل تحويل القبلة عن بيت المقدس، وحِلِّ بعض اللحوم المحرَّمة عليهم، وغير ذلك. والمراد من العذاب الذي نَزَل بهم: ما جَرَىٰ علىٰ بني قريظة والنضير من التقتيل والتشريد.

فإن قيل: هذه السورة مكية، وحادثة بني قريظة والنضير إنما كانت في المدينة؟ قلنا: إنه جعل المتوقَّع الثابت في علم الله كالواقع. ومثل ذلك من خصائص القرآن، كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

وقيل: بل المراد من القرآن ما يُقرَأُ من سائر الكتب الإلهية، وتُؤْخذ منه التعاليم والأحكام. والمراد من الاقتسام: الإيمان ببعض تعاليمها والكفر بالبعض الآخر، أو العمل ببعضها وترك بعض. ومن ذلك: جَعْلُ اليهودِ التوراةَ قراطيس يُبْدون بعضها ويُخفون كثيراً. والمراد من العذاب: ما جرىٰ عليهم من التقتيل والتشريد علىٰ يد بُختَنَصَّر وسنحاريب وغيرهما.

وقيل: بل المراد من المقتسمين: هم الذين اقتسموا طُرق مكة يصدُّون الناس عن

---

(١) يجوز أن يتعلَّق قوله: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا﴾ بقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾، ويجوز أن يتعلَّق بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾، ويجوز أن يتعلَّق بقوله: ﴿أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾. والله أعلم. (المؤلف).

(٢) عضين: جمع «عِضَة»، وهي القطعة، جُمِعَ جمعَ المذكر السالم علىٰ خلاف القياس.

رسول الله ﷺ وعن الإيمان به، وكانوا ستة عشر رجلاً، بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم لمن أتىٰ مكة، يقولون لهم: لا تغترُّوا بهذا الخارج منا والمدَّعي النبوة، وقد جعلوا القرآن عضين، أي: جزَّؤوه أجزاء، ووصفوا كلَّ جزء بصفة. فقالوا عن بعضه: سحر، وقالوا عن بعضه: أساطير الأولين، وقالوا عن بعضه: مُفْترىٰ. فأنزل الله بهم عذاباً، فماتوا شرَّ ميتة. وقيل: قُتِلُوا ببدر شرَّ قتلة.

وقال بعض المفسرين: إن قوله: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ متعلِّق بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾ أي: آتيناك وأنزلنا عليك كما أنزلنا علىٰ أهل الكتاب هؤلاء الذين جعلوا توراتَهم قراطيسَ يُبْدونها ويخفون كثيراً، أو قسموا القرآن إلىٰ أقسام، فما وافق كتابهم قبلوه، وما خالفه لم يقبلوه.

فهدَّدهم سبحانه بقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ في موقف الحساب يوم القيامة ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ في الحياة الدنيا.

ثم أمر النبي ﷺ أن يدأب بالقيام علىٰ العمل فيما كُلِّف به وأُسنِد إليه، ولا يلتفت إلىٰ اتِّفاقهم مع المشركين ومضادَّتهم ومعارضتهم، ولا يهتمَّ لهم، فقال: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ به من الدعوة إلىٰ هذا القرآن، أي: اجهر بالدعوة إلىٰ دين الله، واهدم بمِعوَل الحقِّ الذي أُوحي به إليك ما بَنَوْهُ وبَنَاه آباؤهم من الباطل، غير خائف ولا وَجِل، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ إذا آذوك بالكلام.

ثم وعده بإهلاكهم، فقال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ أي: دفعنا عنك شرَّ استهزائهم ومعارضتهم. قال ابن عباس وسعيد بن جبير: وكانوا خمسة نفر من أشراف قريش: العاص بن وائل، والوليد بن المغيرة، وأبو زَمْعَة الأسود ابن عبد المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن قيس، فأهلكهم الله [1].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧: ١٥٤ - ١٥٥).

وبعد أن أمره بالإعراض عنهم ذكر أهجن صفتهم، وهي الشرك، وتوعَّدهم عليه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي: ما سيناهم من عذاب الآخرة فوق عذاب الدنيا.

ثم سلّاه وأرشده إلىٰ ما يجب أن يعالج به نفسه تجاه معارضتهم وشدَّة مواقفهم التي كانت تحزُّ في نفسه وتُحزنه حزناً أليماً، من جرَّاء ما يوجِّهون إليه من تُهَم وتحدِّيات، فقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ من تكذيبك والاستهزاء بك والشرك بالله.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ ونزِّهه عمَّا يقولون وتذكَّر نعمته عليك، ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ أي: من المصلِّين له، فأمره بالصلاة إذا ضاق صَدْرُه من معارضتهم بعد تذكُّر نعمة الله عليه بالنبوة، فإنَّ الصلاة تقوِّي العزم وتُجدِّد النشاط في نشر الدعوة، وتُربِّي الثبات في ذلك، لما فيها من مناجاة الله.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «وكان رسول الله ﷺ إذا حَزَبه أمرٌ فَزَعَ إلىٰ الصلاة. ويقول لبلال: (أرِحْنا)»[1].

ثم أمره تعالىٰ أن يكرِّر هذا العلاج النفسي كلَّما ضاق صدره منهم، حتىٰ يتمَّ له النصر عليهم، فقال: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ أي: حتىٰ تجد النصر عياناً، وتشاهد دخول الناس في هذا الدين أفواجاً. وقال ابن عباس[2] والحسن ومجاهد[3]: أن المراد: حتىٰ يأتيك الموت، إذ به تنكشف الأمور عياناً. والله أعلم.

---

(١) لم أجده عن ابن عباس، ورواه أحمد (٢٣٢٩٩)، وأبو ادود (١٣١٩)، عن حذيفة بلفظ: «كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلىٰ».
ورواه أحمد (٢٣٠٨٨)، وأبو داود (٤٩٨٥)، عن رجل من الصحابة.
(٢) ذكره الرازي في «تفسيره» (١٩: ١٦٧).
(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧: ١٦٠).



مكية، غير ثلاث آيات في آخرها

وهي مئة وثمان وعشرون آية

والغرض منها:

ـ إنذار المشركين بالعذاب.

ـ وإبطال شركهم.

ـ ورد شبههم علىٰ القرآن والنبوة والبعث، وهي أمور متشابكة متلازمة.

وذُكِرَتْ بعد سورة الحجر؛ لأنَّ في آخر الحجر وعيداً للمستهزئين، وفي أول النحل: أتىٰ الأمر وحان الحين.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾.

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وهذا ردٌّ على استعجال الكفار للعذاب، استهزاءً به وتكذيباً له، ويشمل إنكارهم للقيامة والحساب. ويجوز أن يتناول الكلام استبطاء المؤمنين لعذاب الكفار، فيكون تثبيتاً لهم أيضاً. وقد جاء على طريقة التعبير عن المتوقَّع بلفظ الواقع، تحقيقاً له وتقريراً.

ولما كان استعجالهم للعذاب إنما هو من نتائج إشراكهم، أو هو هو، أردفه بالتنزيه، فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾﴾.

ثم ضمَّ التنزيه الذي يُدرَكُ بالعقل السليم والوجدان النزيه، ضمَّ إليه إنزال الرسل بالتوحيد، تَبْصرةً وذكرىٰ، فقال: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ أي: بالشريعة

التي هي كالروح للبشر، لأن بها صلاحَ الروح وكمالَها وحفظَها من التردِّي والارتداد إلىٰ أسفل سافلين. فاللهُ سبحانه يوحي بهذه الشريعة ويُنزِلُها ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ ويختارهم للرسالة، لاختصاصهم بصفات تُؤهِّلهم لذلك. فيرسلهم للناس ويُوحي إليهم ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ﴾ الناسَ ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾ ولا تشركوا بي شيئاً.

ثم ذكر ما يؤيِّد اختصاص الألوهية به، ويُحقِّق صحَّة وعده ووعيده بما له من القدرة البالغة، والنِّعم الزاهرة، والمِنَنِ العظيمة التي يكفرها الإنسان، ويُبَرهِنُ بعظمة الكون علىٰ ما يَعقُبُه من الكون الثاني المعبَّر عنه باليوم الآخر، فجعل الأول دليلاً علىٰ الثاني فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: للغرض الصحيح[1] والأمر الحقِّ، فلم يكن أمرهما هملاً ولم يخلقهما عبثاً، بل لمقاصد نبيلة وغايات جليلة، ففيه إشارة إجمالية إلىٰ أنَّ تكوين العالم وإبداع خِلْقةِ بني آدم شيءٌ له ما بعده في اليوم الآخر، يوم الدين والحساب والجزاء. فلم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، ولم يشاركه أحد في خلقهما أبداً، ﴿تَعَٰلَىٰ﴾ الله ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣﴾ ولم يَقْدُروا الله حقَّ قَدْره، فينكروا عليه القدرة علىٰ الحشر والحساب.

ثم أشفع السياق الداعي إلىٰ التوحيد والرامي إلىٰ الإنذار بالحشر والحياة الثانية التي ينكرونها؛ أشفعه بما يؤيِّدهما من دلائل القدرة والمنَّة وأفعال الألوهية. وابتدأ ذلك بما يتضمَّن التأنيب والتقريع لهذا الإنسان الذي لا يعرف نفسه، ولا يقدر نعمة الله عليه وقدرته البالغة، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤﴾، وهذه الآية ذات وجهين:

الأول: أن الله سبحانه منَّ علىٰ هذا الإنسان بهذه المنَّة العظمىٰ، وهي القدرة علىٰ

---

(١) الأحسن أن يقال: «للحكمة الصحيحة» كما سلف التعليقُ عليه (١: ١٠٢).

البيان والتفكير، فأساء التصرُّف بها، حتىٰ عارض تعاليمَ الله وخاصَمَ رسله إليه. ومن هذا الوجه يكون فيها إسنادُ ما للبعض إلىٰ الكلِّ، وذلك من خصائص اللغة.

والثاني: بيان قدرة الله تعالىٰ في تكوين هذا الإنسان، كيف يخلقه من ماءٍ مَهين، فلا يزال يتطوَّر حتىٰ يصبح من القدرة علىٰ البيان بهذه المَثَابة العظيمة. وجعل ذلك دليلاً واضحاً علىٰ قدرته سبحانه علىٰ الحشْر والحساب. ومُحَصَّلُه: أنَّ هذه القدرة البالغة التي جعلت من الماء المهين بشراً ناطقاً خصيماً، كيف تعجز عن إعادته بعد الموت بشراً سوياً، وكان يكفيه ما فيه أن يكون له دليلاً علىٰ قدرة الله واختصاصه بالألوهية لو كانوا يعلمون.

ثم تابع دليل القدرة بدليل المنَّة؛ تحقيقاً لاختصاصه بالألوهية، وتبكيتاً للمشركين علىٰ مقابلة النِّعَم بالكفران، فقال: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ أي: ما تستدفئون به من الأكسية والأردية وغيرها من المعمولات الصوفية، ﴿و﴾ لكم فيها ﴿مَنَٰفِعُ﴾ أخرىٰ من دَرِّها ونتاجها وغير ذلك، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥﴾ أي: من لحومها.

وإنما غيَّر النّظم للإيماء إلىٰ عظمة المنَّة، حيث إنها لا تبقىٰ عند الأكل منها، كما في الأمر السابق واللاحق المُبيَّن بقوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ أي: زينة في أعين الناس ومباهاة ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ أي: حين تردُّونها من مَراعيها إلىٰ مَرَاحِها عند بيوتكم بالعشي، ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾ أي: حين تُخرِجونها بالغَدَاة من حظائرها إلىٰ مسارحها، ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾، وهذه العبارة من أبلغ التصوير للبُعد العظيم الشاقِّ الوصول، أي: تحمل أثقالكم إلىٰ المسافات البعيدة جداً، ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾ يُمهِلُ المعارضين، ويُسبغُ عليكم هذه النِّعَمَ الجليلة، ويُيسِّر لكم الأمور الشاقّة.

﴿وَ﴾ كذلك خلق لكم ﴿ٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ أي: وتتزيَّنون بها ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾، وفي هذا تنبيهٌ إلىٰ ما في الكون من عَظَائم المخلوقات التي لا يعرف عنها الإنسان إلا قليلاً، وإذا عثر علىٰ شيءٍ منها يسمّي ذلك اكتشافاً جليلاً، فتبارك الله أحسن الخالقين، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. وألمعت الآية إلىٰ كلِّ ما حَدَث ويحدث للإنسان من اكتشاف الآلات والوسائل للمسافات البعيدة وحَمْل الأثقال.

وبعد أن ألمع سبحانه أنه يُنزِلُ الروح من أمره لتوجيه الإنسان إلىٰ سبيل الرشاد، وامتنَّ بما سهَّل له من وسائل النقل المادية في الأسفار والتقلُّبات، عَقَّب ذلك بأن من رحمته تعبيدَ السُّبُل ولا سيما الروحيَّة، فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: عليه سبحانه تقويم الطريق المادي والمعنوي وتمهيده، وقد فعل ذلك في سبيل هداية الإنسان بأمرين: بسنة الطبيعة، وبوحي الشريعة. فقد خَلَق الإنسان مُلْهَماً بالتمييز بين الفجور والتقوىٰ، ومُستعداً لمعرفة الحقِّ بعقله إن التفت إلىٰ آثار الله في هذا الكون، فللّٰه الحجَّة البالغة علىٰ الناس إذا انحرفوا وحادوا عن الطريق القويم الذي مهَّده لهم، ولا حُجَّة لهم عليه.

ثم قابل السبيل القَصْدَ الذي مهَّده سبحانه وتعالىٰ بالسبيل الجائر الذي يسلكه المجرمون المُحرِّفون لطباعهم، فقال: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾، فأشار بهذا النَّظم من العبارة في تقسيم السبيل وتصنيفه إلىٰ أنَّ هذا الجائر محرَّف عن الطريق القاصد بصنع الإنسان الذي أفسد طبيعته بمفاسد التربية وسُوء السلوك، وألمع إلىٰ أنَّ ذلك منه لم يكن قَسْراً لإرادة الله، ولا عن عجز في قدرته تعالىٰ، فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾؛ إذ كان قديراً أن يخلق الإنسان مقسوراً علىٰ عمل الخير كالملائكة، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤْمرون، ولكنَّ حكمة الله شاءت أن يكون الإنسان مُسلَّطاً علىٰ

إرادته مختاراً في أعماله، ليتزوَّد بمواهبَ كلُّها خير، ما لم يُفسِدْها بتحريف مَجْراها وبسُوء تصرُّفاته فيها. فإنْ حافظ علىٰ سلامة فطرته، وقصد السبيلَ المستقيم، فذلك بفضل الله ورحمته. وإن حَرف طبيعته، واتَّبع الطريق الجائر، فهو الذي ظَلَم نفسه وأرْداها حين انحرف بها من الطريق المستقيم إلىٰ الجائر السقيم.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

وبعد هذا البيان عاد إلىٰ سَرْدِ دلائل القدرة والمنَّة المستلزمة للتوحيد وللقدرة علىٰ الحشر والإعادة، علىٰ نهج القرآن في العودة، فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَ﴾ لكم ﴿مِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي: ترْعَوْنَ فيه أنعامَكم. وكذلك ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ ويستدلون بها علىٰ وجود الصانع، وحكمته، واختصاصه بالألوهية، وقدرته علىٰ الحشر والحساب.

ثم تابع السياق منتقلاً إلىٰ بدائع السماوات، فقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ إذ لولاها لَـمَا كان حياة في حيوان ولا نبات. ثم غيَّر النظم، فقال: ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ لأنَّ الليل والنهار والشمس والقمر هي من عوالمنا ونظامنا الشمسي، فهي قريبةٌ منا بالنسبة إلىٰ النجوم الثوابت، ولها تأثير عظيم في حياتنا وحياة معاشنا، بخلاف النجوم الثوابت فهي عوالم أخرىٰ ونُظُمٌ أخرىٰ عظيمةُ الشأن، بعيدة المدىٰ، ليس لها بنا اتِّصال ولا أثر؛ إذ بينما يصلنا ضوء الشمس بثماني دقائق لا يصلنا ضوء أقرب نجم من أقرب طبقة من النجوم الثوابت إلا في أربع سنوات ونصف، فما ظنُّك بالأبعد منها إلىٰ ما يقدر.

وقد جُدِّدت في هذا العصر المراصد الفلكية، واستُحدثت الآلات لتحقيق الأبعاد وتحليل النور، فعُلِمَ الشيء الكثير من سرعة الكواكب وأبعادها، ومعرفة مساحتها وكثافتها والمواد المؤلَّفة منها، إلىٰ نحو ذلك مما كان مجهولاً من قبل، فثبت لعلماء الفلك أنَّ النجوم تعدُّ بملايين ملايين الملايين، لكنهم لم يتمكنوا إلىٰ الآن إلا من معرفة أبعاد بضع مئات منها؛ لأنَّ سائرها أبعَدُ من أن تُدرك أبعادُه. تلك مسافات لا يحصيها التقدير، جلَّتْ عظمةُ الله العلي القدير، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢﴾ وهم الذين حافظوا علىٰ سلامة عقولهم ونور قلوبهم، إذ هم المستعدُّون للنظر والتدقيق في آثار الله واستشعار عظمته وجلاله.

ثم تابع السياق بقوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓ﴾ أي: وسخَّر لكم ما خلق في الأرض من أنواع الحيوانات والنباتات والمعادن وألوان النِّعَم، وأراد باختلاف الألوان: اختلاف الأصناف؛ لأنَّ اختلاف الأصناف غالباً يكون باختلاف الألوان. ثم ختم هذا بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٣﴾ أنَّ اختلافَها في الهيئات والطباع ليس إلا بصُنْع صانع عليم حكيم.

وقد وصف القوم في هذه الفاصلة بالتذكُّر؛ لأنَّ دلالة تلك الأصناف علىٰ قدرة الله معلومةٌ بالفطرة واضحةٌ للعِيان لولا الغفلة والذهول، ووصفهم فيما قبلها بالتعقُّل لأن المُدْرَكات العلويَّة تحتاج إلىٰ عقل واسع وفكر دقيق، وجمع فيها الآيات لكثرتها في العالم العلوي بالنسبة إلىٰ العالم السفلي، ووصفهم في آية الإنبات الأولىٰ بالتفكُّر؛ لأنَّ مندرجاتها تتعلَّق بحياتنا المادية ومشاهداتنا البصريَّة، ويكفي لفهمها مجرَّدُ التفكير والنظر الصحيح، لأنَّ التفكير هو طريق العلم بالمشاهدات.

وبعد أن عدَّد النِّعَم المتعلِّقة بالبر من العالم السفلي، ذكر النِّعَمَ المتعلِّقة بالبحر منه فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ فوصفه بالطراوة إشعاراً بلطافته، ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ كاللؤلؤ والمرجان، ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ مقبلةً مُدْبرةً، حيث خلق الله في الماء قوة العَوْم عليه لتنتفعوا بذلك، ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ تعالىٰ بركوبها للتجارة والأسفار، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: وليُعِدَّكم لشكره بمعرفة حقوق نِعَمِهِ الجليلة والقيام بأدائها بالطاعة والتوحيد.

ثم جمع بين منافع الأرض والسماء ومِنَنِهما، فقال: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي: جعل فيها ثوابت لِتَتَوازَنَ سائرُ نواحيها وينتظم دورانُها فلا تميد، ﴿وَ﴾ جعل فيها ﴿أَنْهَٰرًا﴾ تتفجَّر من الجبال، ﴿وَ﴾ جعل فيها ﴿سُبُلًا﴾ بأنْ خَلَق الأرض من مادة ينطبع عليها الأثر ويثبت ولا يتعفىٰ، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ بذلك إلىٰ مقاصدكم، ﴿وَ﴾ جعل فيها ﴿عَلَٰمَٰتٍ﴾، ولم يجعلها صَلْدةً متساويةَ الشكل مُتَّحِدَتَه كالماء مثلاً، فكان فيها معالم وفوارق تستدلُّ بها السابلة.

ثم جمع إلىٰ الاهتداء بعلامات الأرض ومعالمها، الاهتداءَ بعلامات السماء ومعالمها،

للمناسبة وللتذكير بإتمام النعمة، تكميلاً للبحث، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾.

وبعد أن ذكر أنواعاً مما خلق وأبدع في الأرض والسماء، واحتجَّ بها علىٰ اختصاصه بالألوهية، أشفع الكلام بالتجهيل والتسخيف للمشركين، فقال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ كلَّ هذه الأشياء ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ ذباباً، في استحقاق الألوهية ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ ذلك؟ فكيف تُشركون به مَنْ لا يخلق شيئاً وهم يُخلَقون؟ وهذا إلزام لهم بالحجَّة إثر تفصيل ما فصَّل من الأدلة علىٰ اختصاصه سبحانه بالألوهية.

ثم ختم البيان من ناحية المنن بهذا الإجمال، فقال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾، ولما كان ذلك يتضمَّن دوام الإنعام مع التفريط بالشكر والإفراط في الكفر قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾، ومن مقتضىٰ ذلك أن يصبر علىٰ المعاندين والمعارضين لعلَّهم يثُوبونَ إلىٰ رُشْدهم، فهو لا يقطع رحمته عن المقصِّرين ولا عن المشركين، حتىٰ لا يبقىٰ في القوس مَنْزع للآمال.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

ثم أضاف سبحانه إلىٰ عظم مخلوقاته، سَعَة معلوماته، وسَبَكَ الكلامَ علىٰ التهديد لهؤلاء المشركين المصرِّين، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي: مُطَّلع علىٰ سرِّهم ونَجْواهم.

ثم قابل بين عِظَمِ صفاته ومَهَانة صفات معبوديهم؛ تبصرةً لهم وإلزاماً، وقد

وصفهم تارةً باعتبارهم ممثَّلين بالأصنام، وتارةً بالنظر للأصنام أنفسها، علىٰ نهج القرآن في ذلك، وابتدأ بالمعبودين من أموات البشر، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ والإله يَخْلُق ولا يُخْلَق، وهؤلاء ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ والإله الحقّ حيٌّ لا يموت، ﴿وَ﴾ هؤلاء ﴿مَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ والإله الحقُّ يعلم السِّرَّ وأخفىٰ، ويعلم متىٰ يكون البعث والحساب. وإنما قيَّد الشعور بالبعث للرمز إليه، وإلىٰ مصيرهم فيه.

والضمير في ﴿يُبْعَثُونَ﴾ يجوز أن يكون لمن يمثِّلونهم بالأصنام مِن الصُّلحاء، والمعنىٰ: وما يشعر أولئك المعبودون أيَّان يبعثون، أو للعابدين لها، أي: وما يشعر أولئك المعبودون أيان يُبْعَثُ عَبَدَتُهم. وقال ابن عباس: «إنَّ الله يبعث الأصنام ومعها شياطينُها للحساب»[1]، أي: رؤساء الضلال. والله أعلم. وعلىٰ كلٍّ، ففيه تهكُّم بالعابدين لها وتوعُّد لهم بيوم البعث والحساب.

ثم صرَّح بالمدعى الناتج بعد إقامة الحُجج عليه، وأنكر علىٰ المشركين، فقال: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

ثم بيَّن سبب إصرار المشركين علىٰ باطلهم بعد وضوح الحق، وقال: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾، فذكر أنَّ الذي جعلهم يتصلَّبون في باطلهم مع وضوح الحق عدمُ إيمانهم بالآخرة، واستكبارُهم علىٰ الداعي للخير، لأنَّ الأول يؤدي إلىٰ قصر النظر علىٰ العاجل، والثاني يقتضي الإعراض عن الدلائل. وأتىٰ بالفاء للإيذان بأنَّ إصرارهم علىٰ الإنكار وقع نتيجةً لتحقيق البراهين وتوضيح الدلائل. لذلك هدَّدهم بقوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقاً ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٠: ١٩٦).

ثم كنّىٰ علىٰ الجزاء بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ عن الحق، وعلىٰ الدعاة إليه، وعن الآيات الدالة عليه. وإنما يحبُّ المتمسِّكين به، والويل لمن لا يُحبّه الله.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

وبعد أن ذكر ضلالهم بأنفسهم، ذكر تضليلهم لأتباعهم، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ أي: إذا سألهم أتباعُهم عما جاء به محمد ﷺ؟ ﴿قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: خرافات الأولين وأباطيلهم. والتعبير بـ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ ليس من تعبير القائلين، بل من تعبير القرآن، للإيذان بأنه منزَّل حقاً وللمبالغة في التأنيب، ويجوز أن يكون للمقابلة بينه وبين نظيره الآتي في المؤمنين. حكىٰ بهما نظر الصِّنفَين في هذا القرآن.

وقد اكتفىٰ عن جواب هذه الشبهة بما ذكره في سورة الفرقان، بقوله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦]. وأما هنا فقد بيَّن عاقبتهم علىٰ الضلال والإضلال، فقال: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَ﴾ يحملوا كذلك ﴿مِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، والتقييد بقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ للإشعار بأنَّ

مكرهم لا يروج عند ذوي الألباب، وإنما يتبعهم الجهلاء والأغبياء، وللتنبيه إلىٰ أن جهل هؤلاء المتَّبِعين لا يكون عذراً لهم، إذ كان عليهم ـ بما لهم من مواهب ـ أن يبحثوا ويُفرِّقوا بين المحق الحقيق بالاتباع وبين المبطل الضليل الضَّلول.

ثم أنَّبهم ونَعَىٰ عليهم وبالغ في تهجين أمرهم بقوله: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: ما يعملون من الوزر، أو ما يحملون من الأوزار.

ثم توعَّدهم بما جَرىٰ علىٰ أمثالهم في الأمم الماضية، فقال: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ بأنبيائهم، ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾، وهي الأساطين التي تعمد البناء وتدعمه، أو الأسس التي يُبنىٰ عليها. وقد ضمَّن ﴿أَتَىٰ﴾ معنىٰ: قلع، أي: فتَضَعْضَعَت أركانُه، ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ وهذا القيد للتمكين، مثل قولهم: لطمه علىٰ وجهه؛ واللطم لا يكون إلا علىٰ الوجه. وصفعه علىٰ قفاه؛ والصفع لا يكون إلا علىٰ القفا.

والآية تمثيل، شبّه فيه حالَ أولئك الماكرين الذين يدبرون أنواعاً من المكر للإيقاع برسل الله، وإبطالَه تعالىٰ لتلك الحيل والمكايد، وجَعْلَه إيَّاها أسباباً لهلاكهم، بحال قوم بَنَوْا بنياناً وعمدوه بالأساطين، فأتىٰ ذلك البناء من قِبَلِ أساطينه، بأن ضُعْضِعَت، فسقط عليهم السقف فهلكوا. والمعنىٰ: فقلع الله مكرهم من أصله، وعاد ضرر المكر عليهم. فيكون مجرَّد تمثيل لاستئصالهم، أردفه بالتحقيق، جرياً علىٰ قواعد البلاغة العالية في البيان وأساليب القرآن، فقال: ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: وهم لا يحسبون ذلك ولا يتوقعونه، ويجوز أن يُرادَ به عذاب بالزلزلة، والله أعلم.

وهذا جزاؤهم في الدنيا. أما جزاؤهم في الآخرة فقد ذكره بقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ علىٰ رؤوس الأشهاد، ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ

﴿تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۖ﴾ أي: تخاصمون الأنبياء والمؤمنين في شأنهم؟ والمراد من هذا الاستفهام: التبكيت علىٰ ما كانوا يعتقدونه من أنها تشفع لهم عند الله. ولما كان جوابهم الخذلان والسكوت، أقام مقامه قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ من أهل الموقف، وهم الأنبياء والمؤمنون الذين أُوتوا علماً بدلائل التوحيد، وكانوا يدعونهم في الدنيا إلىٰ التوحيد، فيجادلونهم وينكرون عليهم، أي: يقولون توبيخاً لهم وإظهاراً للشماتة بهم، يقولون: ﴿إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ﴾ أي: الفضيحة والذُّلَّ والهوان ﴿ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٧﴾.

ثم ذكر حالهم عند الوفاة للإشعار بأنَّ هذا الخِزيَ والسُّوءَ يختصّ بمن استمرَّ كُفْرُه إلىٰ حين الموت دون من آمن منهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ وأيُّ ظلمٍ أكبر من تسبيبهم لها هذا العذاب المهين، ﴿فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ وإلقاء الشيء: إظهاره بحيث يُدرَكُ جلياً، أي: فسالموا كلَّ المسالمة أو استسلموا كل الاستسلام وأخْبَتُوا كلَّ الإخبات حين عاينوا الموت قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءٖ﴾ أردناهم ليُقرِّبونا إلىٰ الله زلفىٰ. ويجوز أن يكون هذا تفسيراً للسَّلَم. علىٰ أن يُراد من السلم: القول الدال علىٰ الاستسلام. فتجيبهم الملائكة بقولهم: ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٨ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٢٩﴾ عن الخير وعن الدعاة إليه، وعن التوحيد وما يُفْضي إليه من السعادة والهناء.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٠ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣١ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢﴾.

ثم أردف نظر المشركين في القرآن ومصيرهم من جرَّاء ذلك، بنظر المؤمنين فيه

ومصيرهم، علىٰ طريقة القرآن في المقابلة، فقال: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ هذا اليوم وهم المؤمنون: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ﴾ من حسنة الدنيا بمراحل. فألمع إلىٰ أن هذا المُنزَل يوجِّه الإنسان إلىٰ ما يُسعِدُه في الدنيا وإلىٰ ما يُسعِدُه في الأخرىٰ، وإلىٰ أن السعادة الثانية لا تقايس بالأولىٰ؛ إذ كلُّ نعيم دون الجنة حقير. فقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟...﴾ تفصيل للخير وبيان له، ويجوز أن يكون مستأنفَ بيانٍ من الله تعالىٰ لمصيرهم، وتفصيلاً منه تعالىٰ لما قاله المؤمنون، وتقريراً له.

ثم نوَّه بشأن هذه الكرامة في الآخرة وزادها تفصيلاً بقوله: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾، ثم زاد في التحسيس بهذه الكرامة وأكملها بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ﴾ لهم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾، فقابل في كلِّ حالة من حالات أولئك المشركين ومصيرهم حالةً من حالات المؤمنين ومصيرهم، اللهمَّ اجعلني من المتقين يا أرحم الراحمين.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ تفصيل مصير المشركين وتقريره، وسَبكه علىٰ التهديد والتحذير، فقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: ملائكة الموت، فينالهم ما ينال

الظالمين لأنفسهم، ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي: بعذاب الاستئصال في الدنيا. ثم استشهد علىٰ ذلك بما جرىٰ علىٰ أمثالهم من الأمم فقال: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فأصابهم ما أصابهم، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ بما جرُّوا إليها من الوبال، ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾ من عذاب الاستئصال الذي كان يتوعَّدهم به أنبياؤهم فيستهزئون.

وقوله: ﴿فَأَصَابَهُمْ ...﴾ عطفٌ علىٰ قوله: ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وما بينهما اعتراضٌ قُصِدَ به تعجيلُ البيان في أن فِعلَهم ذلك كان ظلماً لأنفسهم، لأنهم جرُّوا به إليها الوبال.

ثم ذكر لهم شبهة أخرىٰ ونقضها، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ يريدون أن ما حرَّموه علىٰ أنفسهم كالبَحيرةِ والسائبة وأمثال ذلك لو لم يكن مرضياً لله لَـمَا مكّننا منه، فردَّ سبحانه بأنهم إنما اتَّبعوا في ذلك ضلالَ مَنْ قبلهم، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ولم يمتثلوا أمر رسلهم وقالوا مثل قولهم: ما شاء الله يقع، وما لم يشأ يمتنع وقوعه، وكل ما وقع هو بإرادة الله. فهم يحتجُّون علىٰ أنَّ ما هم عليه هو الحق؛ لأنه لو لم يكن كذلك لما مكَّنهم الله منه، إذ يمتنع وقوع ما لا يريده الله. بمعنىٰ: أن الإنسان مجبور في أعماله، نازلٌ عند إرادة الله؛ جهلاً منهم لمعنىٰ الإرادة والمشيئة، ولِـمَا طبع عليه الإنسان من تسلُّطه علىٰ إرادته واختياره في تصرُّفاته.

وعلىٰ مثل هذه الشبهة يجري بعض الجهال اليوم من عصاة المسلمين، يعتذرون بها عن عصيانهم وارتكابهم الآثام.

ومثل هذه الآية قوله تعالىٰ في سورة الأنعام: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا ...﴾ [الأنعام: ١٤٨].

فردَّ الله سبحانه عليهم بما يُؤْذن بأنه تعالىٰ قد خلق الإنسان يتصرَّف في أمره مختاراً مستعداً للهداية بطبيعته، وللضلال بإفساده لها، وقد أرسل الرسل لإرشاده وتوضيح الحق من الباطل، فبلّغوا ما أمرهم الله به، ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾؟ وملخَّص الرد: أن نظريتهم هذه ضالة، وقد بيَّنت الرسلُ لهم الحقَّ فلم يقبلوه واتَّبعوا أسلافَهم الضالِّين، فهل علىٰ الرسول إلا البلاغ المبين.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾.

ثم فصَّل ما أجمل، وذكر أهم ما في ذلك البلاغ مما يتناسب مع السياق، وهو الدعوة إلىٰ التوحيد، فقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ وهو كلُّ ما يُعبَدُ من دون الله، وكلُّ مَنْ يدعو إلىٰ الضلال، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ وهو الذي يحافظ علىٰ سلامة فطرته ونور بصيرته، فأجاب الحقَّ حين دعاه، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ وهو الذي أفسد فطرته وأعمىٰ بصيرته بمتابعة الضالِّين والتقليد الأعمىٰ والرسوخ في الغيِّ والانطباع عليه، فكذَّبَ الحقَّ وعاداه، ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ يتوعَّدهم بمثل ذلك ويُنذِرُهم به.

ثم يأَّسه من هدايتهم لإفسادهم، فقال: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى

﴿مَن يُضِلُّ﴾، وإسناد الإضلال إليه تعالىٰ باعتبار سُنته العامة في أخلاق الإنسان، (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية)؛ إذ قد جَرَت سنته تعالىٰ في الراسخين في الضلال أن يفقدوا الاستعداد للهداية، وقد حقَّت عليهم كلمة العذاب، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ يدفعونه عنهم. وهذه الجملة كناية عن العذاب الذي لا نَجَاة لهم منه.

ثم حكىٰ سبحانه عن المشركين نوعاً آخر من كفرهم، وهو إنكارهم البعث، فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ ينكرون البعثَ ويُقسِمون علىٰ ذلك الأَيْمانَ الغليظة، فردَّ الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: يبعث الله من يموت، ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ وَجْهَ صحَّةِ ذلك وتحقُّقَ وقوعِه، لجهلهم بشؤون الله عزَّ وجلَّ، من العلم والقدرة والحكمة وغيرها من صفات الألوهية، وبما في هذا الكون من سُنن خفيَّة، ولعدم وقوفهم علىٰ سرِّ التكوين، وإدراكهم الغاية القُصْوىٰ منه بيقين، ولغفلتهم أنَّ البعث مما تقتضيه الحكمة التي تمشي عليها أعماله وسُننه سبحانه.

وقد أردف تحقيق البعث بوجه من حُسْن التعليل، يتضمَّن الزَّجْرَ لهم والتبكيتَ علىٰ أحسن الوجوه وأجملها، فقال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ من أمر الأديان والحشر والحساب، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ فيما يزعمون وينكرون. ففي هذا العلم نوعٌ بديع من حُسْن التعليل، وإشارةٌ إلىٰ أنَّ من حكمة البعث والحساب التمييزَ بين المُحق والمُبْطل، بالثواب والعقاب.

ثم أشفع تحقيق البعث ببيان أنَّ إيجاد الله سبحانه للأشياء مجرَّد إرادة عليّة لا معالجة فيها ولا نَصَب[1]، فقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾

---

(١) الإرادة غير الإيجاد، فالإيجاد فعلٌ من أفعاله تعالى لا معالجة فيه ولا نصب كما قال المؤلف، وهو واقع بقدرته سبحانه أو بتكوينه؛ تبعاً لإرادته، كما هو ظاهر من الآية المذكورة.

وهذا هو المسمَّىٰ بالأمر التكويني. والكلام تمثيلٌ لسهولة تَأتِّي المقدورات بأنه لا يزيد علىٰ تعلُّق مشيئته تعالىٰ بها، وتصويرٌ لسرعة حدوثها بعد تدرُّجها في سُنن التكوين. وفي الآية إيماء إلىٰ أنَّ الله سبحانه هو الذي يملك سرَّ التكوين، ولا يعلم ذلك السِّرَّ إلا الله، فلا مَطْمَع فيه للبشر.

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

ولما كان كفر الكافرين مصدراً لإيذاء المؤمنين الذين أدىٰ إلىٰ هجرتهم وترك أوطانهم، أردف السياق بهذا الوعد الكريم لهم، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ ﴾ فراراً بدينهم، ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ﴾ ولا ذنب لهم إلا أن يقولوا: ربنا الله، ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ قال ابن عباس: «أي: بلدة حسنة عوضاً عن أوطانهم، وهي المدينة»[1]. وقيل: بل حالة حسنة، وهي: النصر والفتح والعزَّة وعُلوُّ الشأن. هذا في الدنيا، ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ الذي سينالونه ﴿ أَكْبَرُ ﴾ مما أعطيناهم في الدنيا ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ أي: لو كان هؤلاء الكفار يعلمون، أي: لو كانوا من أهل العلم والمعرفة والتعقل. وقيل: المعنىٰ: لو كان المهاجرون يعلمون ما سينالهم من الجزاء ويرونه عياناً، لَـمَا تألَّموا لِـمَا أصابهم من المهاجرة وشدائدها.

ثم ذكر صفتهم التي استحقّوا بها ذلك، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ علىٰ الشدائد، ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ مُفَوِّضين إليه الأمر كلَّه.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧: ٢٠٦).

﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾.

ثم ردَّ عليهم شبهة أخرىٰ، وهي إنكارهم أن يكون أحد البشر رسولاً من الله، فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ وتاريخ البشر حافل في ذلك، ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ أي: علماء أهل الكتاب، ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ليعلموكم تاريخ الأنبياء في البشر.

ثم ذكر المُرسَل به فقال: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: أرسلناهم بالمعجزات الباهرات، ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ أي: الكتب المحتوية علىٰ التعاليم والشرائع التي يُبلِّغها الرسول عن الله تعالىٰ إلىٰ العباد، ﴿وَ﴾ علىٰ هذه السُّنّة ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: القرآن الذي يذكِّر الناس بما يجب عليهم لِيَقُوا أنفسَهم من النار وينالوا رحمةَ العزيز الغفار، وليحوزوا الراحةَ في الدنيا والسعادة في الأخرىٰ. وقد ألمع إلىٰ ذلك بقوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ في عاقبةِ أمرهم.

وبعد أن أجاب عن شبهتهم، هدَّدهم بقوله: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟﴾ المكراتِ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ من الذين يتحزَّبون لهلاك الأنبياء، ويأتمرون عليهم. كما فعل هؤلاء المشركون بالنبي ﷺ، حيث ائتمروا عليه في دار الندوة أن يقيِّدوه أو يقتلوه أو يخرجوه. أفأمن هؤلاء ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: يأتيهم في حال غفلتهم ومأمنهم، ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ﴾ الله ﴿فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾ بين البلاد في مسايرهم ومتاجرتهم. ولما كان التقلُّب يوهم بالفرار قرنه بقوله: ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: بممتنعين عنا، أو فائتين لنا. وهذا تصوير لعجزهم تجاه قدرة الله البالغة وطلبه الرهيب.

ثم قابل قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ أي: علىٰ صورة تدريجية يشعرون معها أنَّ نتيجة أمرهم الدمار، فيملأ الرعبُ قلوبَهم علىٰ استمرار. والمراد من هذه الأقسام: بيان الإحاطة بهم من كل جهة وصَوْب. ولما كان قوله: ﴿أَفَأَمِنَ﴾ يتضمَّن التهديد المؤجَّل، علَّل ذلك بقوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ يؤجِّل عنكم العقوبة لعلَّكم ترجعون عن غَيِّكم وتهتدون.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

ثم أردف الكلام بما يدل علىٰ معنيين: الأول: قدرةُ الله العظيمةُ التي يخضع لها كلُّ شيء، والمراد: تأييد التهديد بالإلماع إلىٰ القدرة علىٰ إنجازه. والثاني: أن الله سبحانه يسجد له ويقرُّ بألوهيته، أو يؤذن بذلك، كلُّ شيءٍ من جماد ونبات وحيوان وجنّ وإنس ومَلَك. والمراد: تبكيت المشركين وتقريعهم علىٰ كفرهم بالتوحيد الذي أقرَّ وآذن به كلُّ شيءٍ. وقد سبك ذلك علىٰ ما في نظام هذا الكون من حكمة وتدبير، ومن انقياد المكوِّنات جميعها بذواتها وأعراضها لقدرة الله العلي القدير، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ﴾ أي: يمتدّ عَقِبَ انتصاف النهار، وينبسط عمَّا كان قبل ذلك، وكذلك ينقبض وينبسط ظلّ الأشجار ونحوها من ذوات التمايل ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: منقادة مُسْتَسلِمة له تعالىٰ في ذلك النظام.

ومن لطف العبارة ولطافة المسلك والإشارة: ما في ذلك التمايل من هيئة السجود والالتصاق بالأرض، وهو أمرٌ يدلُّ علىٰ حكمته وإتقان صُنعه في تنظيم العالم الشمسي وغيره.

ولما أسند لها السجود ـ وهو من خصائص العقلاء ـ استعمل لها ضمائر العقلاء، وذلك من خصائص اللغة.

وإفراد اليمين وجَمْعُ الشمائل من قواعد البلاغة، مثل الظلمات والنور، فيحمل المفرد علىٰ الجمع. وذلك من خصائص اللغة وعُرف التخاطب. ومثله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل: ٧٨، السجدة: ٩، الملك: ٢٣].

وبعد أن بيَّن أنَّ الأشجار وشبهها من أنواع الجمادات كلها منقادة لله تعالىٰ ذاتاً وعرضاً، بالنظام الطبيعي الذي خلقها الله عليه. أردف ذلك ببيان أنَّ كل ما علىٰ الأرض من الحيوان والإنس والجن والـمَلَك منقادٌ لله تعالىٰ كذلك. وعبَّر عن ذلك بالسجود في معنَـيَـيْهِ الحقيقي والمجازي[1]، فقال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾، ولإرادة الوصفيَّة غلَّب غير العقلاء بحكم الكثرة، وأتىٰ بكلمة ﴿مَا﴾، ثم عطف الملائكة عليها عطف الخاص علىٰ العام، للاهتمـام بالخاص. ثم خصَّ الملائكة بنوعٍ من البيان، له زيادة تأثير في السياق والتقريع، فقال: ﴿وَهُمْ﴾ علىٰ تميُّزهم ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ عن عبادته تعالىٰ، بل ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾، وفي هذا زيادة تقريع للمشركين، وتأنيب لهم. وفي قوله: ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ إشعارٌ بالقهر والسلطان، كقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨، ٦١].

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّـَٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

---

(١) وقد يكون كله وارداً على المعنى الحقيقي، لكنْ سجود كل شيء بحسبه وعلى ما يلائمه. وهذا أقرب، والمعنى فيه أبلغ.

ولما نتج مما تقدم أنه سبحانه وتعالىٰ مستحقٌّ وحده للألوهية، صرَّح بذلك في صورة حكم ونتيجة لما تقدم من بيانات، فقال: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ فذكر أقل التعدّد. ثم أردف السَّلب بالإيجاب وصيغة الحصر، فقال: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وهو الله، وعوضاً عن التصريح به قال: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ ليكون حضاً علىٰ التوحيد، وترهيباً من الشرك وما ينبعث عنه. والالتفات من الغيبة إلىٰ التكلم لتربية المهابة، ولذلك أيضاً قدَّم المفعول. وتتناول الآية الردَّ علىٰ الثنوية القائلين بإله الخير وإله الشر[1].

ثم ذكر من دليل القدرة ما يؤيِّد التوحيد والرهبة، فقال: ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً، ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ أي: واجباً مُحتَّماً مخصوصاً به، فلا يُدان إلا لله، ويُدْأَبُ له فيه، ويُدَاوَمُ عليه. إذ الوَصَبُ: الوجوب والتعب الناشئ عن الدأب ودوام العمل. وقد يستعمل للدوام مطلقاً، من ذكر الخاص وإرادة العام. فالمراد: أنَّ له العبادة والطاعة دائماً ودائباً، فلا يُدْأَبُ في الدين إلا لله، ولا يُكَدُّ ويُتْعَبُ في العبادة إلا له تعالىٰ، فله الدين مجهوداً به إليه، وواجباً علىٰ الناس أجمعين. وبعد هذا البيان أنَّبهم بهذا الإنكار، فقال: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾[2].

ثم ذكَّرهم بدليل التوحيد الفطري، وهو ما طبع الله النفوس عليه ما لم يفسد أصحابها تلك الطبيعة، وصدَّر الكلام بالتذكير بالنعم، وزيادةً في التأنيب، فقال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ لا يُشاركه في ذلك أحد، فكيف تشركون بعبادته غيرَه؟ ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ أي: ترفعون أصواتكم بالدعاء والاستغاثة؛

---

(١) وهم مجوسُ الفُرس ومن اتبع دينهم من قبائل العرب، الذين يثبتون إلهين اثنين: إلهاً للخير، وهو النور، وإلهاً للشرّ، وهو الظلمة.

(٢) والمعنى: أفبعد هذا البيان الجليّ تتَّقون عقابَ إله الشرِّ الذي جعلتموه إلهاً كذباً دون أن يكون لكم دليل يُثبتُ إلهيَّته، ويُثبتُ صحَّة دعواكم!!

إذ تشعر حينئذٍ طباعكم ونفوسكم بأنه تعالىٰ لا يدفع الضرّ سواه. ويشترك في هذا الشعور عند الضُّرِّ المؤمن والمشرك؛ لأنَّ الفطرة حينئذ تغلب التقليد والتطبُّع، فتعود إلىٰ حالتها الأولىٰ، وتتوجَّه النفس إلىٰ الله وحده، رغم أنف صاحبها، لِمَا فُطِرَتْ عليها من الشعور بوجود الله ووحدانيته وسُلطانه، وأنه هو وحده الملجأ والصَّمَد والنصير، تلك الفطرة التي عبَّر عنها سبحانه بقوله: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ﴾ عاد التطبُّع والفساد إلىٰ النفوس المفسودة، فرجعت إلىٰ الشرك. وهذا هو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: يعود المشرك إلىٰ إشراكه. والآية موجَّهة إلىٰ عموم الناس نظراً للطبيعة الناصعة التي فُطِروا عليها، ولكن المشرك أفسد طبيعته بصنعه وتقليده لأرباب الضلال. فيعود المشركون إلىٰ إشراكهم بعد أن كشف الضرَّ عنهم، ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ من النِّعم، ولا سيما نعمة هذا الكشف عنهم. وهذه الجملة مطويَّة علىٰ أفظع النقد والتقريع. ثم هدَّدهم بقوله: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾ قليلاً، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ عاقبةَ ذلك.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

ثم شرح بعضَ أقوالهم في الشرك ونقضها عليهم، وبيَّن فسادها وسخافتهم فيها، فقال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقةَ أمره وسخافةَ تأليهه، ﴿نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ من الحَرْث والأنعام بقولهم: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦]. ويجوز أن يعود الواو في ﴿يَعْلَمُونَ﴾ إلىٰ لفظة ﴿مَا﴾، إذ المراد بها: المعبودون، فيكون المعنىٰ: أنهم يجعلون لآلهتهم نصيباً مما رزقناهم، وآلهتُهم لا عِلمَ لهم بذلك. أو المعنىٰ: أنهم ليسوا من ذوي العقول. ولا يبعد أن تكون الجملة تشنيعاً عليهم، بكلٍّ من الوجهين.

وفي قوله: ﴿مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ زيادةُ تأنيب لهم وتشنيع؛ فالرزق من الله، والعبادة لغير الله.

ثم توعَّدهم بقوله: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾، والالتفات إلىٰ الخطاب للمبالغة في الترهيب. وكذلك صيغة الافتراء، فيها زيادةُ مبالغة في التهديد والتقريع.

ثم شرح لهم سخافة أخرىٰ، ونقَضها عليهم، فقال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ من البنين. وهذا قول خزاعة وكنانة، فهم الذين يقولون: الملائكة بنات الله، تعالىٰ الله عن ذلك عُلواً كبيراً. وفي قوله: ﴿مَا يَشْتَهُونَ﴾ زيادةٌ في التشنيع، شَرَحَ وجهَهُ ببيانِ حالهم في البنات، فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ من الكآبة، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ مملوءٌ غيظاً من المرأة التي جاءت بالأنثىٰ.

﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: يستخفي كي لا يراه أحد ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ علىٰ عُرْفهم، ثم يحتار في أمره: ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ أي: علىٰ ذُلٍّ وهوان ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ ويَئِدُه، والتذكير باعتبار لفظ ﴿مَا﴾. وكانوا يفعلون ذلك بالبنات مَخافةَ الفقر،

فيطمع غير الأكفاء بهنّ، أو مخافةَ الأسْر في حروبهم الجَهْلاء، فأنَّبهم بقوله: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ حيث ينظرون البنات بهذه النظرة السخيفة، ويفعلون بهم هذه الفعلة الرهيبة، وحيث يجعلون ما هذا شأنُه في نظرهم لله المتعالي عن الصاحبة والولد. وهذا نقضٌ لشركهم علىٰ أشنع وجوه النقض والتأنيب. وخلاصته: كيف تسخفون وتنسبون إلىٰ الله ما لا ترضونه لأنفسكم؟ والغرض: إبطالُ أمر شركهم وتقبيحُه وتسخيفه بأنواع من الوجوه.

ثم عقَّب علىٰ ذلك بقوله: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ﴾ أي: الحال السيِّئ، وهو هذه الأمور الذميمة، والتخيُّلات الفاسدة، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ والنزاهة عن صفات المخلوقين، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ فلا يُعاجلهم بالعذاب، لعزَّته وحكمته التي منها ما ذكره بقوله: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم ﴾ بالكفر والمعاصي فوراً ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا ﴾ أي: علىٰ الأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ ﴾ تدبُّ عليها من البشر، ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ ﴾ المُسمَّىٰ، لانتهاء أعمارهم، أو لحلول عذابهم، ﴿ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

وقوله: ﴿يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ تكميلٌ للمعنىٰ ومبالغةٌ في ضَبْط الأجل المسمَّىٰ. والآية تدلُّ علىٰ أنَّ الله سبحانه لا يُعذِّب الظالمين في الدنيا إلا قليلاً منهم أو ضئيلاً بالنسبة إلىٰ ما ينالهم في الآخرة. وعَوْدُ ضمير ﴿عَلَيْهَا ﴾ إلىٰ الأرض عَوْدٌ إلىٰ ما يُدرِكُه الذِّهنُ، وإن لم يتقدَّم له إيماء. وذلك من خصائص اللغة ونهج القرآن.

ثم عاد للموضوع في البنات مُشَنِّعاً عليهم ومُسَخِّفاً لهم فيه، فقال: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ لأنفسهم، وهذا تكريرٌ لما سبق، كرَّره لقوله: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ ﴾، وهذا التركيب علىٰ حدِّ قولهم: وجهه يصفُ الجمال، وعينه تصفُ السحر.

والمراد به المبالغة في الوصف. والمعنىٰ: يجعلون له تعالىٰ ما يجعلون، ويزعمون ـ مع وضوح كذبهم الشنيع وكفرهم الفظيع ـ ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ عند الله، لأنهم يحسبون أنهم يُحسِنون صُنعاً. وقد حكىٰ عنهم ذلك أيضاً في سورة فصِّلت بقوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فُصِّلت: ٥٠].

فردَّ عليهم سبحانه بالسوأىٰ، عكس مأمولهم، مُسجِّلاً بقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي: مُقدَّمون فرطاً وتقديمة أمام أهل النار.

﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

ثم سلّاه ببيان أنَّ الذي يجري لك مع قريش جرىٰ للأنبياء قبلك مع أقوامهم، فقال: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ القبيحةَ من الشرك وما يتبعه وينجم عنه من الدنايا والرذائل ومقاومة الحقِّ، ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ أي: فهو وليُّهم يوم القيامة لا ناصر لهم سواه. والمراد: نفيُ الناصر لهم بطريقة المبالغة. وكلمة ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ لحكاية الحال الآتية. ويجوز أن يراد باليوم: يوم زيَّن لهم أعمالهم في الدنيا، فيكون حكاية للحال الماضية. وأتىٰ بالقسم زيادةً في التسلية، وتقريراً للوعيد.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ هذا القرآن العظيم قد جاء لإصلاح ذلك العبث في دين الله وشريعته علىٰ جاري سنته تعالىٰ في ذلك، حيث إنه سبحانه يبعث في كل زمان رسولاً، حتىٰ إذا عبثت الأيدي بما جاء به في كتابه، قفىٰ عليه برسولٍ آخر، وأنزل عليه كتاباً آخر يصلح به ما أفسده الناس من الكتاب الأول، فقال: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ

﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾، لأنَّ الإيمان الصحيح يحمل على الأخذ بما جاء عن الله، ويحفظ لهم سلامة الفطرة ونور البصيرة، فيرون الحقَّ حقاً، ويبصرون الباطل باطلاً.

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

ثم عاد إلى مثل ما تقدَّم من دلائل التوحيد، وعجائب الخلق، وبدائع الحكمة، وعظائم النِّعَم، وأدمجها ببعضها، مُعلِّقاً عليها بما يناسبها ويماشي السياق، ومن نقد المعرضين الغافلين، وبيان منَّته تعالى على الخلق أجمعين، ودلالتها على اختصاص المُبدِع سبحانه بكونه إله العالمين، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ أي: أنبت فيها الكلأ بعد يبسها، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾ هذا التذكيرَ ونظائرَه سماعَ تفكُّر وتدبُّر وإذْعان، ويُدرِكون أنَّ الذي يحيي الأرض يحيي الموتى.

ثم تابع السياق، وذكر عجائب قدرته في أحوال الحيوانات والامتنان بها علينا، فقال: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾، بيَّن بعضها بقوله: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾، والمراد من الفَرْث: العلف المنهضم في الكرش. والسائغ: هو الذي يسهل مرورُه في الحَلْق، ويلذُّ طعمه. فالآية تلفت الأنظار إلى صنع الحكيم القدير في تركيب كرش الأنعام وتنويع الغدد التي تُحيلُ خلاصة الفَرْث والدم

إلىٰ هذا السائل البديع والسائغ اللذيذ، وهل يتعذَّر أو يصعب علىٰ هذا الصانع القدير إعادة الإنسان بعد الموت؟!

وقوله: ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ زيادة تحسيس بالنعمة، بعد التحسيس بالعبرة. وتذكير الضمير العائد إلىٰ الأنعام لمراعاة جانب اللفظ. لأنه اسمُ جمع، فلفظه مذكَّر، وقد أنَّثه في سورة المؤمنون فقال: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون: ٢١] مراعاةً لجانب المعنىٰ، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، وبمقتضىٰ خصائص اللغة، ودقائق المعاني التي لا يدركها إلا العالِمون، ويكتفي بظاهرها المتوسِّطون. ويجوز أن يكون المراد من قوله: ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ مجرَّدَ التعجيب، أي: نُخرجه من جسمٍ يحوي هذين الشيئين. ولم يكن المراد أنه يُحيلُهما إلىٰ هذا السائل. والله أعلم. بل يكون المراد أنه سبحانه جَعَل جسمها يفرز هذا وهذا، ويجمع بين المتباينات، يُلمِعُ بذلك إلىٰ قدرة الله البالغة.

ثم ذكر عجائب النبات والامتنان به علينا، فقال: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾. قال ابن عباس: السَّكَرُ: ما حُرِّمَ من ثمرها[1]. والرزق الحسن: ما أُحِلَّ من ثمرها. وقال قتادة: نزلت الآية قبل التحريم[2]. وقال أبو مسلم: لا حاجة إلىٰ هذا القول؛ لأنه تعالىٰ خاطب بها المشركين، وعدَّد إنعامَه عليهم بهذه الثمرات، والخمر من أشربتهم، فكانت نعمة عليهم.

أقول: وعلىٰ كلٍّ، فقد أشار إلىٰ أن السَّكَرَ منه ليس أمراً حَسَناً، وذلك بمقتضىٰ تقابل الوصفين. وضمير ﴿مِنْهُ﴾ يعود إلىٰ المذكور. وقيل: المراد بالسَّكَر: ما يشرب من العصير من أنواع الأشربة.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢: ٣٥٧).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧: ٢٤٤).

ثم ختم ذلك بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ حثاً على التنبيه والتبصُّر بما في عجائب تلك المخلوقات من عِبَرٍ وبصائر، وفي أطعمتها من نِعَم وذخائر.

ثم ذكر من آياته عجائب الهداية والإلهام في الحيوان، وما في نتيجة ذلك من النِّعَم على بني الإنسان، فقال: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ أي: خلقها مُلهمَة، وجَعَلها مستعدَّة بغرائزها لما فسَّره بقوله: ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾، حيث يكثر ما تحتاجينه من الماء والمرعى والمأوى، وذلك إذا كنت حُرة طليقة، ﴿وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي: يبنون لك من العرائش، أو في العرائش، وذلك إذا كان لك أرباب، ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ أي: اسلكي الطُّرُقَ والنُّظُم التي أودعها الله في غرائزك لهذا العمل، وذلَّلها لك.

ثم بيَّن نتائج ذلك الصنع فقال: ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ ما بين أبيض وأصفر وأحمر وأسود، وذلك حسب اختلاف سنّ النحل، والفصل الذي تعمل فيه، والمرعى الذي ترعى منه، و ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾، إذ هو مُغَذٍّ جداً، ومليِّن ومُشَهٍّ ومُقَوٍّ للجسم، وسَهْلُ الهضم. ولهذه الخصائص كان نافعاً أثناء كثير من الأمراض، ولا سيما التي تنهك القوى. وقد ثبت في الطب الحديث أنَّ العسل يحوي مقداراً كبيراً من الكلوكوز الذي أصبح سلاحاً للطبيب في كثير من الحالات المرضية في مختلف الأمراض إذا لم يشخص المرض.

ثم ختم هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾، ففصَّلها بالتفكير، لأن مُنْدَرِجات هذه الآية تتعلَّق بالمشاهدَات، والتفكير هو طريق العلم فيها.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ

مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

ثم ذكر من آياته عجائب بعض أطوار الإنسان، إثباتاً لقدرة الله في التطويرات، والبعثُ واحدٌ منها، فقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾، وهذان الطوران لسائر أفراد الإنسان، والوفاة أمره عجيب، ولكن لا ندرك ذلك لأنه مألوف، والوفاة ليست أقلَّ عجباً من الحياة. ثم ذكر طوراً يكون لبعضهم واكتفىٰ به عن سلسلة التطويرات بين الخلق والوفاة، فقال: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ واللام للصيرورة، أي: ليصير إلىٰ مثل حالته الأولىٰ: حالة الطفولة؛ في عدم الفهم والدراية. فهذه تطويرات متباينة ومتعاقبة لا تضيق القدرة عليها عن القدرة علىٰ البعث والنشور؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ فلا يعجز عن تطوير الإنسان في الحياتين حسبما يقتضيه علمُه وحكمته البالغة.

وبعد أن ذكر اختصاصه تعالىٰ بالألوهية لاختصاصه بعَجَائب المخلوقات وعظائم النِّعَم، ذكر قُبحَ ما يعتقده المشركون من إشراك مخلوقات الله تعالىٰ معه وهم لا يرضون أن يشركوا عبيدهم معهم، وكلهم من صنع الله وخلق الله، ورِزقُهم جميعاً من رزق الله، فقال: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾[1]، وجعل منكم أغنياء

---

(١) إن الله سبحانه لم يجعل نظام رزق الإنسان كنظام رزق الحيوان، فردياً في السَّعي والحصول عليه، بل جعل نظام رزق الإنسان اجتماعياً لا يتم إلا بتعاون الأفراد. أما اختصاص كلِّ واحد بمهنة من تلك الحاجيات فمبنيّ علىٰ الميل والعزم ونوع التثقيف وغير ذلك. وهذا النظام =

وفقراء، وموالي ومماليك، ليتمَّ نظام هذا العالم، ويُسخِّر بعضكم بعضاً في قضاء الأشغال وتسيير الأمور، وذلك من حكمته وتدبيره في شؤون الإنسان وأحواله الاجتماعية، ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ أي: لا يرضىٰ الأسياد أن يشركوا عبيدَهم بمالهم ومنزلتهم، فيكونون علىٰ حد سواء. فإذا أبيتُم أن تُشركوا مماليككم في حالكم فتصبحوا معهم متساوين في المنزلة، فكيف تجعلون عبيد الله ومخلوقيه شركاء له في ذلك؟ ﴿أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٧١﴾ ويُشرِكون به مَنْ لا يملك لهم رزقاً وهم يُرزَقون؟! وأنتم تعلمون لا رازق إلا الله، إذ هو وحده خالق تلك النِّعَم، وواضع سنن الكون.

فهذا بيانٌ لقبيح ما يعتقده المشركون، وتقريع لهم، ونقض لشِرْكهم بأشنع وجوه النقض من طريق المنطق والوجدان، وقواعد العُرْف والاجتماع. وهو إثباتهم لله سبحانه ما يكرهون مثله لأنفسهم ولا يقبلونه. وقد بدأ الآية ببيان تفاوت الأرزاق المبنيّ علىٰ الحِكَمِ والمصالح.

ثم تابع دليل قدرته ومنَّته المُسْتلزم لحكمته ولألوهيته، فقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ أي: خلقكم بحكمته ذكوراً وإناثاً ليتمَّ التناسل، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ﴾ ولولا ذلك لم يبق النوع الإنساني، ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، وهذه حِكَمٌ ونِعَمٌ لله تعالىٰ. فهل لشركائكم يدٌ في ذلك؟ ثم التفت من الخطاب إلىٰ الغيبة لتعجيب السامعين من أمرهم، حيث إنَّهم لا يدركون الحقَّ ولا

= يجعل التفاضل في الرزق أمراً طبيعياً، إذ يكون فيهم التاجر والزارع والصانع والعامل علىٰ اختلاف في المراتب والمهن والقدر فيها. ومنهم الغني والفقير، والمأمور والأمير، والجليل والحقير، نتيجةً لسعي الإنسان ومقدار نشاطه. فإسناد التفضيل إلىٰ الله سبحانه باعتبار هذا النظام. والله أعلم. (المؤلف).

يعتبرون بالحِكَم، ولا يُراعون النِّعَم، فقال: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهو الإشراك بالله ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ ولا يقومون بواجب شكرها من توحيد الله وتمجيده؟!

ثم أشفع التأنيب بمثله، ونَقَضَ عليهم شركَهم بما يتضمَّن البَوْنَ البعيد بين قدرة الله وجلاله وعظيم منتِّه وبالغ حكمته، وبيَّن عجز شركائهم ومهانتهم، وخصَّ بالذِّكر أهمَّ الأشياء لهم، وهو الرزق، فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا﴾ أي: لا يرزقونهم من السماوات مطراً ولا من الأرض نباتاً، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ شيئاً مهما كان. ويجوز أن لا تكون الواو للاستئناف، ولكن لعطف ﴿يَعْبُدُونَ﴾ على ﴿يَكْفُرُونَ﴾، تفسيراً له وتفصيلاً. و﴿رِزْقًا﴾ إنْ جعلتَه مصدراً فـ﴿شَيْـًٔا﴾ منصوب به؛ بَدَلُ عامٍّ من خاصٍّ، وإلا فبَدَلٌ منه. ومَرْمَىٰ الآية: أنهم يعبدون الصنم ويكفرون بمن يفيض عليهم النِّعَم.

وبعد أن عنَّفهم بهذا التعنيف، وأشعرهم بجهالتهم الشنعاء، جمع بين التأنيب والدعوة إلىٰ الرَّشاد، وقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ والأشباه، أي: لا تجعلوا له مثيلاً تشركونه به، ولا تشبهوا بشأنه تعالىٰ شأناً من الشؤون، ولا تجعلوه كعظمائكم في الحاجة إلىٰ من يُقرِّبكم إليهم زُلفىٰ، فاتَّبِعوا ولا تبتدعوا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ فاتَّبِعوا ما يأمركم به وانتهوا عما ينهاكم عنه، وتمسَّكوا بالخطة التي يرسمها لكم، ولا تَهْوُوا إلىٰ الحضيض بمخالفتها.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾.

وبعد أن سخَّف رأيهم في دَعوىٰ الشرك، ونبَّههم إلىٰ اختصاص أفعال الإلهيَّة وصفاته به تعالىٰ، ضرب لهم هذين المثلين لنفسه وللأصنام؛ إبطالاً لدعوىٰ المشارَكة بينه وبينها، وزيادةَ تسخيفٍ لهم في ذلك، فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ من الأحرار الكرام ذوي المنزلة العالية في قومهم، ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ﴾ تفضُّلاً وإحساناً ﴿سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾؟ وقد جمع الضمير للإيذان بأنَّ المراد: منْ اتَّصف بالأوصاف المذكورة من الصنفين المذكورين، لا فَرْدان معيَّنان منهما، أي: هل يستوي العبيد والأحرار الموصوفون بما ذكر من الصفات، مع أنَّ الفريقين سِيَّانِ في البشريَّة والمخلوقية والعبودية لله سبحانه، وإن ما ينفقه الأحرار إنما هو من عطاء الله لهم، فحيث لم يَستوِ الفريقان ولم تُسَوُّوا أنتم بينهما مع أن الأمر مهين، فما ظنكم بربِّ العالمين؟ تشركون به عبيدَه وما لا ذليلَ أذلُّ منه، وهو الأصنام، و﴿ٱلْحَمْدُ﴾ كلُّه ﴿لِلَّهِ﴾ لا يستحقّه سواه؛ لما له من عظيم النِّعم وجليل الأعمال.

ثم أنّبهم علىٰ جهالتهم فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مِثْلَ هذه البداهة الواضحة، فيشركون به سبحانه مَنْ لا يخلقون شيئاً وهم يُخلَقون.

ثم ضرب مثلاً آخر يدلُّ علىٰ ما دلَّ عليه المَثَلُ السابق علىٰ وجه أوضح وأظهر، فقال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ وهو مَنْ وُلِدَ أخرس، فهو لا يَفْهَمُ ولا يُفهِم، وفوق ذلك ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من الأشياء المتعلِّقة بنفسه وبغيره؛ لقلَّة فهمه وإفهامه وسوء إدراكه، ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ أي: ثقيلٌ وعالةٌ علىٰ مَنْ يلي أمره؛ لأنه ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾، وهذا بيان لعدم قدرته علىٰ إقامة مصالح

مولاه، ولو كانت تافهة لا ينجح فيها أبداً، فمثل هذا ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: هل يستوي هذا الأبكمُ الكَلُّ العاجز ومَنْ هو فصيحٌ يُرشد الناس إلىٰ الحق والطريق القويم، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ يسلكه في شؤونه، لا يتوجَّه إلىٰ مَطْلَب إلا ويبلغه بأقرب سعي وأدنىٰ تفكير.

وإنما قابل تلك الصفات بهذين الوصفين، لأنَّهما كمالُ ما يقابلها، إذ الأمرُ بالعدل هو مِنْ أعلى أنواع النطق والكلام، والسَّيْرُ علىٰ الصِّراط المستقيم هو من أرفع أصناف المقدرة والسلوك والاهتمام.

والمثل يبيِّن أنَّ هؤلاء المشركين في شركهم كمَنْ يُسوِّي بين عبد مملوك عاجز وحُرٍّ مالك قادر، وهو أمرٌ مُخالف للمنطق والمعقول. وكمن يُسوِّي بين رجل أخرس عاجز حقير، وآخر فصيح نبيه مرشد نبيل.

فالمثل الأول: لبيان المفارقة بين قُدرة الله العظيمة وعَجْز الشركاء. والمثل الثاني: لبيان المفارقة بين علم الله الواسع ورشاد هدايته، وبين جهل الشركاء وضلال توجيههم.

وقيل: إنَّ المثلين يتناولان المؤمنَ والكافرَ أيضاً، لبيان الفرق بين الحرية والعبودية المعنويتين؛ إذ في الثانية: قيودُ الجهل والوثنيّة والشهوات، وفي الأولىٰ: انطلاق العقل في التوحيد والمعرفة والأخلاق الفاضلة وإشراقها.

ثم أردف ذلك ببيان شيء من علم الله الواسع، تقريراً لاختصاص الألوهية به تعالىٰ دون سواه، وفرَّع عن ذلك أمر البعث علماً به وسهولة عليه، فقال: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: الأمور الغائبة عن علوم المخلوقين قاطبةً، بحيث لا سبيل لهم إليها، لا مشاهدة ولا استدلالاً، لأنها لا تقبل القياس والاستنباط، إذ لا مثيل لها في عالم الشهود. ومن ذلك غَيْبُ قيام الساعة والحشر والحساب الذي هو أعظم ما وقع

فيه المماراة والإنكار. وقد بيَّن سهولة إيجادها عليه تعالىٰ، فقال: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ في سرعته وسهولته ﴿إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ أي: كرجع الطرف، ﴿أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ وهذا تمثيل لمنتهىٰ السهولة والسرعة. وقد علَّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٧٧﴾.

﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨ أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٧٩ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٨٢ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٣﴾.

ثم أيَّد البيانَ عن قدرته البالغة بالواقع المعروف، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ أدواتٍ تعلمون بها، أي: وسائل للعلم والإدراك وسَعَةِ المعرفة، فتطوَّرتُم حسبما أودع الله فيكم من الاستعداد تطوُّراً عجيباً بالمدارك السامية إلىٰ حدٍّ يُدهِشُ العقول أحياناً ويُحيِّر الألباب، وذلك من أظهر الأدلة علىٰ قُدرة الله القادر الحكيم، وعلىٰ أن الإنسان له أطوار يتطوَّر إليها، وبَعثُه وحياتُه بعد موته واحدٌ منها.

وإنما أفرد السمع لأنه مصدر في الأصل، تستوي فيه الأحوال كلُّها من إفرادٍ وتثنية وجَمْع، أو لأنه ذكر مع الجمع فيدلُّ علىٰ الجمع، وذلك من خصائص اللغة، كما

قال تعالىٰ: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ [النحل: ٤٨].

ثم علَّل ذلك الجعل بهذه الغاية، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ هذه النِّعَم وتصرفونها فيما خُلِقَت له، وذلك بتوحيده تعالىٰ والقيام بأوامره ونواهيه، ولكن الإنسان كفور.

وفي الآية تقريعٌ ضمني للذي لم يستفد من تلك المواهب، ولم يُدرِك بها الحقائق.

ثم تابع البيان عن قدرته بإثارة الشعور إلىٰ ما أودعه الله في هذا الهواء اللطيف من قابلية حَمْل الأجسام الكثيفة. وذكر من ذلك الطير وتقلُّباته في جوِّ السماء، فإنه أمر يُدرِكُه كلُّ أحد، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بما أودع في الهواء من قابلية حَمْل الأجسام إذا كانت علىٰ وضع خاصٍّ، كما خلق الله الطير؛ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ إذ هم الذين لم يُفسِدوا فِطَرَهم ولم يَطْمِسوا نور بصائرهم، فينتبهون لآيات الله وعظائم قدرته ودقة تدبيره، وأنه خلق لكل شيء ما يحتاجه من الأسباب، ومن ذلك أمر الحشر والحساب، وما أمركم به ونهاكم عنه في شريعتكم من الأسباب.

ثم ذكر من نعمته وقدرته وحكمته نوعاً آخر، فقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ حيث خلق لكم مواد الإنشاء، وجَعَل لكم من استعدادكم ما تتمكَّنون به من الإبداع في البناء. وهذا فيما يخصُّ أهل الحضر. ثم ذكر ما يخصُّ أهل البوادي وما يخصُّ أغنياء المسافرين، فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ أُخَرَ من أديمها ومن أشعارها، وهي الأخْبية والقباب والخيام، ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ وفي تَرحالكم وأسفاركم، ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ الدائمة أو أثناء التَّرحال والأسفار، ﴿وَ﴾ جعل لكم كذلك ﴿مِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا﴾ وهي أمتعة البيت.

وفي قوله: ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾ تزهيد بذلك الأثاث مهما كان قيِّماً، لأنه من متاع هذه الحياة الفانية، علىٰ طريقة القرآن في سبك المعنىٰ علىٰ المعنىٰ.

ثم ذكر ما يخصُّ فقراء المسافرين، فقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ كالأشجار والآكام تتَّقون به حرَّ الهاجرة، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ كالكهوف والغِيران تتَّقون بها البرد والعوادي.

وبعد أن ذكر أمر المسكن، ذكر أمر الملبس، فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾، وهو كلُّ ما يُلبَس، أي: جعل لكم ثياباً من القطن والكَتّان والصوف وغيرها، ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾، واكتفىٰ به عن ذكر البرد، وذلك علىٰ طريقة إيجاز القرآن بالاكتفاء بذكر أحد الضدَّين عن ذكر الآخر. ثم عطف عليها ألبسة الحرب فقال: ﴿وَسَرَٰبِيلَ﴾ من الدروع والجواشن[1] ﴿تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ أي: البأس الذي يصلُ من بعضكم إلىٰ بعض في الحروب من الطعن والضرب.

ثم ختم هذه المنن بالتمنُّن وباستفزاز الشعور لوجوب شكرها بالانقياد إليه تعالىٰ وحده دون سواه، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الإنعام البالغ ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ أي: رجاء أن تنظروا فيما أسبغ عليكم من النِّعَم الظاهرة والباطنة، فتعرفوا حقَّ منعهما، فتؤمنوا به وحده، وتَذَرُوا ما كنتم به تشركون، وتنقادوا لأوامره سبحانه ونواهيه.

ثم صرف الخطاب عنه إلىٰ رسول الله ﷺ، تسليةً له، فقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن الإسلام ولم يقبلوا منكم ما تُلقي إليهم من البيِّنات والعِبَر والعظات، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾ وقد بلَّغتَ وأدَّيْتَ واجبَك، فلا بأس عليك.

---

(١) الجَوْشَن: هو اسم الحديد الذي يلبس من السلاح. «لسان العرب» (جشن).

ثم وبَّخهم وقَرَّعهم على معرفتهم لهذه النِّعم، وكفرهم بمُنعِمِها، رغماً عن هذه التَّحسيسات، فقال: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ عليهم، ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ حيث يشركون بمُنعِمِها ولا يَرعَونَ حقَّها، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: الجاحدون.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

ثمَّ نبَّههم وأوقَفَهم على ما سيكون من أمرهم في الآخرة، تهديداً لهم وإنذاراً وتبصيراً، فقال: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وهو نبيُّهم يَشْهَد لهم وعليهم بالإيمان والكفر، ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الاعتذار؛ إذ لا عُذْر لهم. والإتيان بـ«ثم» للإشارة إلى زيادة ما يحيق بهم من شدَّة الهمِّ والحَزَن عند المنع عن الاعتذار، فلا هم يُعذَرون ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ أي: لا تُقبَلُ منهم العُتْبى، وهي بمعنى طلب العفو. فالآية بجملتها تصويرٌ لموقف الحساب، وشدَّة الحال عليهم، وانسداد الطُّرق بهم، فلا نجاةَ ولا خلاصَ.

ثم ذكر حالهم السيئَ في مصيرهم للعذاب، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ أي: لا يُمهَلون. وقد تجوَّز بالرؤية عن التلبّس به.

ثم ذكر ما يكون بينهم وبين شركائهم، فقال: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟﴾[1] أي: الشُّركاء المزعومون ﴿إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: أجابوهم بالتكذيب في أنهم شركاء الله، أو أنهم ما عبدوهم وإنما عبدوا أهواءهم، كقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨٢]، وهذا البيان في شأن مَنْ يَعبُد الأنبياء والملائكة والصالحين. والمراد من إلقاء القول: إظهار معناه للنفس بتأثير ووضوح، حتىٰ تدركه متميِّزاً عن غيره. والمراد به هنا: شدَّة المبالغة في المدافعة والتنصُّل. وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾[2] أي: الاستسلام لحكمه تعالىٰ، بمعنىٰ: أظهروه جلياً بارزاً للعيان، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم[3] مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ من أنَّ آلهتهم تَشْفَع لهم عند الله.

وبعد أن ذكر وعيد الذين كفروا، أتبعه بوعيد من ضمَّ إلىٰ كفره صدَّ الغير عن سبيل الله، مثل بعض هؤلاء الشركاء، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾؛ عذاباً بكفرهم، وعذاباً بصدِّهم الناس عن سبيل الله.

---

(١) يجوز أن يراد بالشركاء هنا: الرؤساءُ الذين دعوا هؤلاء الأتباع لهذا الشِّرك وأوقعوهم فيه، علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، وذلك لأنهم اشترعوا بشرعهم وائتمروا بأمرهم. وعليه فيكون معنىٰ ﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾: أنَّ الأتباع يقولون للرؤساء: كَذَبتُم علينا في أمر الشرك وأوقعتمونا. (المؤلف).

(٢) قدَّموه طائعين بعد أن كانوا في الدنيا مُتكبِّرين مُعاندين. و﴿يَوْمَئِذٍ﴾: وقتَ إذ كذَّبتهم معبوداتهم.

(٣) أي: زال وغاب وضاع وبَطَل عن المشركين.

ثم أعاد الوعيد بالبعث والحساب، بناءً علىٰ شهادة الرسل، ونصَّ علىٰ توعُّد كفار قريش بمثل ذلك؛ مبالغةً في تنبيههم، فقال: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: نبياً من قومهم يشهدُ علىٰ أعمالهم ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾، ثم أتبع ذلك ببيان أنه سبحانه قد قطع حُجَّة الناس إذ أنزل عليهم هدايتهم مع هذا الرسول، فقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ للعالمين، ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ المنقادين بتعاليمه وبياناته. أما حرمان الكفرة من مغانم آثاره، فمن تفريطهم به نتيجةَ إفسادهم لطبيعتهم، برداءة التربية وسوء القدوة.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

ثم ذكر مُجمَلَ ما جاء في هذا الكتاب وطبيعة ما فيه من الأوامر والنواهي، والأسس

الاجتماعية العظيمة في إصلاح شؤون البشر، وتنويهاً بشأن المنزَّل، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ (١) بِٱلۡعَدۡلِ (٢) وَٱلۡإِحۡسَٰنِ (٣) وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ (٤)﴾ ما يسدُّ عَوَزَهم، ﴿وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ (٥) وَٱلۡمُنكَرِ (٦) وَٱلۡبَغۡيِۚ (٧)﴾، وهذه هي مُجْمَلُ هذا الدِّين والعُمُد والكليات التي بُني عليها مُفصَّل أوامر هذا القرآن ونواهيه. فالله سبحانه ﴿يَعِظُكُمۡ﴾ (٨) بذلك ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ وتُراعون وُجوهَ الحِكَم والمصالح في أعمالكم، وتتمسَّكون بما يأمركم الله به، وتَنْزجرون عمَّا ينهاكم عنه. والإحسان: كلُّ ما يُحقِّق شيئاً من المُثُل العُليا. وعكسه الإساءة.

ثم خصَّ من بعد تلك الأسس العامة: الوفاءَ بالعهد، تنويهاً بشأنه، وتمهيداً به لما بعده، فقال: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًا﴾، والكفيل يُراعي حال المكفول، فهو هنا بمعنىٰ:

---

(١) أي: يُوجب ويفرض. والتعبير بفعل المضارع للدلالة على التَّجدُّد والاستمرار.

(٢) العدل: هو الاعتدال والتوسُّط في كلِّ شيء من غير إفراط ولا تفريط، وإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، والمراد به: العدلُ بين العبد وربِّه سبحانه بتوحيده وعدم الإشراك به، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والعدلُ بين العبد ونفسه بمنعها ممَّا فيه هلاكها وفسادها، والعدلُ مع الخلق بإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه.

(٣) الإحسان مع الله سبحانه بأداء فرائضه وعبادته كأنك تراه، ومع الخلق بأن تُحسِنَ إلى مَن أساء إليك، وبإتقان العمل وإكماله.

(٤) أي: صلة الرحم، وهم القرابة الأدنون والأبعدون منك.

(٥) أي: الذنوب المُفرِطة بالقُبح. والمراد بها: الكبائر المتعلقة بالفروج.

(٦) أي: ما أنكره الشرع وقبَّحه ونهى عنه نهيَ تحريم. وهو ما تكرهه العقول السليمة أيضاً.

(٧) أي: العدوان على حقوق الناس بالقوة والقهر.

(٨) ينصحكم الله سبحانه نصحاً مقروناً بما يثير الرَّغبة والرَّهبة.

جَعَلتُموه شاهداً ورقيباً. ففي الجملة زيادةٌ في التحذير، قرَّره بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾.

ثم أتبع الكلام بهذا التمثيل لبيان بَشَاعة نَقْض الأَيْمان وعدم الوفاء بالعهد، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ﴾ في إبرامه حتىٰ عاد ﴿أَنكَٰثًا﴾ أي: طاقات، والمفرد: نكث. والمراد: تشبيهُ الناقض لعهد الله أو عهد الناس بمن هذا شأنُها.

ثم أردف التمثيل ببيان الحقيقة المرادة منه، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾، قال الواحدي: الدَّخَلُ والدَّغَلُ: الغش والخيانة[1]. وقال الزجّاج: كلُّ ما دخله عَيْب. قيل: هو مَدْخول، وفيه دَخَل[2]. وقال غيره: الدخل: ما أُدخل في الشيء. وعلىٰ كلٍّ، فملخَّص المعنىٰ: لا تجعلوا أيمانَكم مُخاتلةً وخداعاً ومُوَاربةً بينكم، وتنقضوها لمآربكم ظلماً وغدراً.

ثم بيَّن صورةً من صُوَر البواعث علىٰ ذلك بقوله: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍ﴾ أي: أكثر وأقوىٰ. ومُحصَّل الكلام: النهيُ عن أن يَغْدِرَ القويُّ من الأمم بمعاهدته تجاه الضعيف منها. وقيل: إنهم كانوا في الجاهلية يحالفون، فإذا جاءهم مَنْ هو أكثرُ عدداً وأعزُّ نفراً، نقضوا حلف أولئك وحالفوه عليهم، فنهاهم الله عن ذلك.

فالآية تنهىٰ المسلمين عن مثل ما تتَّخذه الدول الأوربية حُجَّةً لنقض العهود والمواثيق، وهو ما يعبِّرون عنه بمصلحة الدولة. وتنصُّ الآية علىٰ أنَّ هذه المصلحة لا تُبَرِّر نَقْض العهود، وتُشَنِّع علىٰ من يفعل ذلك بهذا التشبيه المُزْري الوجيع.

---

(١) «التفسير الوسيط» (٣: ٨٠).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٣: ٢١٧).

ثم حضَّ علىٰ التمسُّك بما ذكر من الأحكام والعهود، ملمعاً إلىٰ العهد مع الله في التشريع، فقال: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ أي: يختبر بما ذكر من العهود والأوامر والنواهي ما بقي في نفوسكم من نور الفطرة وسلامة الوجدان والإنسانية، لتقوم الحجَّةُ لكم أو عليكم، ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾، وفيه التجوُّز بالبيان عن الجزاء لأنه نتيجتُه، وبالاختلاف عن المخالفة للأحكام لأنه يؤدِّي إليها. والمعنىٰ: أنه تعالىٰ يُجازيكم علىٰ مُخالفاتكم، بعد أن يبيِّن لكم ما فعلتموه من ذلك.

ولبيان أنَّ هذا الاختلاف إنما هو باختيار الإنسان وصنيعه حسب سُنَّة الله في فطرته، حيث خلقه يتصرَّف في شؤونه بنفسه، ويختار الوجهة التي يريدها بإرادته، ولإفادة أنَّ هذا الاختلاف ليس قَسْراً لإرادته تعالىٰ ولا عن عجز في قدرته، قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ في السَّيْر علىٰ الهدىٰ والقَسْر علىٰ الإصلاح، بمقتضىٰ الغريزة والفطرة، وليس لكم في أعمالكم رأيٌ ولا اختيارٌ، وإذن لَمَا كنتم هذا النوعَ المسمَّىٰ بالبشر الذي شاءت حكمة الله أن يخلقه مُخْتاراً في تصرُّفه بشؤونه، ليكون خليفةً في الأرض، يتصرَّف في مرافقها ومواهبها بثقافة عقله.

فلهذه الغاية لم يَشَأ سبحانه أن يكون الإنسان مَقْسوراً في أعماله، ﴿وَلَٰكِن﴾ شاء أن يكون مُخْتاراً فيها، وقد جهَّزه بهدايتين: هداية طبيعية، وأخرىٰ شرعية، فهو يسير بحسب عقليته المكتسبة بمؤثِّرات التربية، فإن كانت حسنة سار في الطرق الصَّالحة، وإن كانت سيئة سار في الطرق الفاسدة، وذلك معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾[1]

---

(١) ليس معنىٰ الإضلال أنَّ الله سبحانه يخصُّه به قصداً أو يخلقه كذلك، كلا، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. وإنما المراد ضلال العبد بمعاطاة الأسباب المؤدية إليه، كما يقال: لقد أعماه الله، وما العمىٰ إلا مرض طارئ ينشأ من تقصير الإنسان في قوانين الصحة لحفظ العين والبصر، فالمراد: =

وهو الذي أفسد غريزته بمفاسد التربية والتقليد، وتشبَّع بأسباب الضلال، فعَمِيَ عن الهُدىٰ، ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ وهو الذي حافظ علىٰ سلامة فطرته ونُور بصيرته فاسْتَنار الحق ولبَّاه.

فمؤدَّىٰ البيان: إنكم مستعدُّون للميل إلىٰ الضلال والهُدىٰ، بحسب تكييفكم لمواهبكم، والتصرُّف بما أودع فيكم من الاختيار، ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ في تصرُّفاتكم، لأنكم فعلتموها باختياركم.

وتحرير الآية: أن الله سبحانه شاء أن يخلق البشر مُسَخَّراً لإرادة نفسه حسبما تنظمها له عقليته، أو تدفعه لها عاطفته، وهو قادر أن يحفظ موازنته في إرادة الخير، إذا لم يخلد إلىٰ الشر والفساد، ويتشبَّع بالضلال بسُوء التربية والتقليد الأعمىٰ. فإن جَنَح لذلك كان وبالاً علىٰ نفسه ظالماً لها، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. وإن جَنَح للخير والصَّلاح كان عضواً صالحاً في المجتمع، نافعاً لنفسه وقومه والناس أجمعين. ولتقرير هذا المعنىٰ وبيان أنه سبحانه لم يُـخْلقه ضالاً بطبيعته، ولكنه ضلَّ بسُوء تربيته، عقَّب بقوله: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

= أنه يضل بسوء تصرُّفه وإفساده لطبيعته، بمفاسد التربية والتقليد. وكذلك مشيئته سبحانه لا تجري جزافاً واعتباطاً، كلا، وإنما هي أزليَّة جارية بالحقِّ والعدل في سنن مُطَّردة لا تتبدَّل، فقد سبقت مشيئته تعالىٰ أنْ ألهم كلَّ نفس هداها، وميَّز لها فجورها وتَقْواها، فكان لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]. ويجوز أن يكون فاعل ﴿يَشَآءُ﴾ عائداً إلىٰ «من»، ويكون المعنىٰ: يضل من يشاء الضلال، ويهدي من يشاء الهداية، علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. والله أعلم. (المؤلف).

وتقدم التعليق في المقدمة (١: ٥٦٩) على القول بأن فاعل «يشاء» عائد إلى «مَن»، أي من يشاء الضلال، ومن يشاء الهداية.

ثم كرر النهيَ عن الاستهتار والمُخاتَلة في نقض العهود، مبيِّناً ما ينتج عنه من الأضرار في الدنيا والعقاب في الأُخرىٰ، فقال: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ أي: مكراً وخديعة، ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾[1] وتهوي في مهاوي الرَّدَىٰ، ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾ في الدنيا بتضييع الثقة بكم، وقلة الاعتماد عليكم، وما يتفرَّع عليهما من الأضرار الاجتماعية العظيمة، وذلك ﴿بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الذي منه الوفاء بالعهود، والصدق والصَّراحة في المعاقدات والمعاملات.

وبعد أن لمَّح إلىٰ ما يناهم من الأضرار الدنيوية بنتيجة المُخاتَلة والمُوارَبة في المعاقدات والمعاهدات، توعَّدهم عليها في الآخرة، فقال: ﴿وَ﴾ فوق ذلك ﴿لَكُمۡ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤﴾ بما فرَّطتم في أمر الله والوفاء بالعهد.

ثم ذكر هذا الحكم العامَّ بعد ذلك الحكم الخاصِّ، فقال: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ وهو متاع هذه الحياة الدنيا مفضِّلين له علىٰ ما عند الله، ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩٥﴾ أي: إن كنتم من أهل العلم والمعرفة والتمييز. والمراد بالعهد: نوعاه: العهد ما بين العبد وأخيه، والعهد ما بينه وبين الله فيما يأمره به وينهاه.

ثم علَّل تلك الخيرية وبيَّن وجهها بقوله: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾ علىٰ مشاقِّ التكاليف التي منها التمسُّك بالعهود؛ لنجزينَّهم ﴿أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٦﴾.

---

(١) يُحذِّر سبحانه من معاهدات للاحتيال علىٰ حقوق الضعفاء، هذا هو المبدأ الإسلامي، فقايسوه أيها الناس بما يقوم به الذين يُسمُّون أنفسهم المتمدِّنين في العصر الحاضر، يحرِّفون معاهدات كانت سبباً لنكبة العالم، فليعتبر بذلك أولو الأبصار، ويدركوا أن الثقافة في الدين الإسلامي، لا في غيره من المبادئ والقوانين. (المؤلف).

ثم بيَّن ثمرة التمسُّك بهذه التكاليف حَمْلاً لهم عليها، فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ وفي هذا الوصف إشارة إلىٰ أنَّ تلك التعاليم إنما هي صلاح للبشر، فمن عمل منهم بها ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لأن الإيمان هو مصدر الأعمال الصالحات علىٰ وجهها الصحيح ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾، وأفرد الضمير باعتبار لفظ ﴿مَنْ﴾، وجَمَعَه باعتبار المعنىٰ في قوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

وقد اختلفوا في هذه الحياة الطيبة أين تكون؟

فقال بعضهم: في الدنيا، وفسَّرها بأنَّ المؤمن يعلم أن خيرات الدنيا خسيسة، فلا يتهالك علىٰ إحرازها، بل يعتدل في تحصيلها، ولا يغتمّ لفقدانها كثيراً، وبذلك تكون حياتُه كلَّ راحة واطمئنان، وقد أنزل الله القرآن شريعة عالمية، ولغته لغة عالمية، يتعلَّمها كلُّ أحد مع لغته ليكون البشر عائلة واحدة تفهم القرآن وتعمل به، لا خلاف بينهم إلا في مشكلات يسيرة يحلها لهم السلطان بأحكام القرآن. فما أعظم هذه السعادة! ويا حَسْرةً علىٰ العباد!

وقال السُّدِّيّ: إن هذه الحياة الطيبة تحصل في القبر وعالم البرزخ قبل الآخرة.

وقال الحسن وسعيد بن جبير: إن هذه الحياة الطيبة لا تحصل إلا في الآخرة.

والذي أراه في مَفَاد الآية: أن التعاليم الإلهية ـ إذا عُمل بها علىٰ الوجه الصحيح ـ عادت بسعادة الدنيا وسعادة الأخرىٰ، بحكم انطباقها علىٰ السنن الكونية.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ

قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾.

ولما بيَّن أنَّ الكتاب المنزل هو تِبْيانٌ لكلِّ شيء في الصالحات، يصلح به أمر هذا الإنسان من كلِّ الجهات، وانتهىٰ البيان إلىٰ أنَّ مدار الجزاء المذكور هو صلاحُ العمل وحُسنُه، رتَّب عليه بالفاء الإرشادَ إلىٰ ما به يحسن العمل ويخلص من شوائب الفساد، ويكون علىٰ أكمل وجوهه، وهو قراءة هذا القرآن بالتدبُّر ليعلم به وجه ذلك، والاستعاذة بالله من الشيطان إذا قرأه دفعاً لخطراته وسُوء وساوسه فيه، وفي وجوب التمسُّك بتعاليمه المارَّة الذِّكْر وفوائدها العظيمة الشأن، فتكون لك بتطبيق هذه التعاليم شخصيةٌ صالحةٌ كاملة، تصلح للسعادة في الحياتين الدنيا والأخرىٰ، فقال: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ أي: استعصِمْ بالله منه ليقيك شرَّ وساوسه في تعاليمه وتوجيهاته وآدابه وواجباته. وقد علَّل الأمر بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ﴾ أي: بسبب وسوسته ﴿مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾، ومُلَخَّصُ الكلام: أنَّ خطرات السُّوء تَبعُدُ عن المؤمن الخالص الإيمان، وتكثر عند غيره، مثل جراثيم المرض، تقلُّ عند من يحافظ نفسه ولا تضره، وتكثر عند غيره ويشتد ضَرَرُها عليه.

ثم عاد إلىٰ ردِّ شبههم علىٰ القرآن، وذكر شيئاً من تأثير وسوسة الشيطان علىٰ أولئك المشركين، فقال: ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ﴾ بأن بُدِّلَ حكمٌ شرعيٌّ كان في شريعة سابقة كالتوراة، بحكم شرعيٍّ آخر مكانه في هذا القرآن، ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ حسب مُقْتضيات المصالح[1]، بحسب اختلاف الأجيال والأزمان

---

(١) وهذا التعليل لنسخ الأحكام ما بين شريعة وأخرى، وهو اختلاف مصالح العباد، واردٌ في =

وارتقاء نوع الإنسان، ﴿قَالُوٓاْ﴾ لك يا محمد: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭ﴾ عن الله، حيث أتيتَ بحكم مخالف لحكمه في كتابه السابق، كلا، ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١﴾ حِكْمَةَ تبديل الشرائع ونَسْخ بعض أحكامها الخاصَّة بوقت أو أمة أو حالة مما بطلت الحاجة إليه، أو تهيَّأ الوقت لتبديله.

ثم أمره أن يردَّ عليهم بقوله: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: إنَّ هذا القرآن الذي فيه تبديلُ بعض الشرائع السابقة نزَّله جبريل من الله سبحانه بالحقِّ الموافق للحكمة والمصالح العامة، ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بما فيه من الحُجَج والآيات، فيزدادوا تصديقاً ويقيناً، ﴿وَ﴾ ليكون ﴿هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ١٠٢﴾ المنقادين لأوامره ونواهيه.

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ١٠٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤ إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٠٥﴾.

ثم أخذ يُحلِّل بعض مُعانداتِهم وتُـهَمِهم لهذا القرآن وإنكارهم أنه من الله، وينقضها عليهم، فقال: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞ﴾[1] أي: إنَّ

= أحكام الشريعة الواحدة أيضاً، فكان ينبغي تفسير تبديل الآيات بنسخ الأحكام على وجه عام، أي: سواء بين شريعة وأخرى أو في الشريعة نفسها.

(١) لم يكونوا في هذا القول جادِّين ولا مطمئنين، ولكنهم يريدون أن يدرؤوا عن أنفسهم بالصدق أو الكذب، بالجِدِّ أو اللعب، وكفىٰ في تجهيلهم والتشنيع عليهم قوله سبحانه: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ١٠٣﴾ إذ فيه من السخرية بهم ما لا يزيد عليه. وقد زادوا بسفههم هذا الحقَّ الذي اتَّهموا قوةً إلىٰ قوته وثبوتاً علىٰ ثبوته. ولـمَ لـمْ =

محمداً يتعلَّم هذه التعاليمَ التي يبثُّها ويُسمِّيها قرآناً من فلان، ولم يُسمِّ القرآن ذلك الـمُعلِّم المزعوم، بل اكتفىٰ بما لَـمَحَ في الجواب عن هذه المقالة الشنعاء: أنه أعجمي وليس بعربي. وهذا الأمر مما يزيد في بُعد هذه المقالة عن الصِّحَّة ويبالغ في التشنيع، فقال: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾، والإلحاد: الإمالة عن الاستقامة، أي: لسان الرجل الذي يكذبون عليه وينسبون إليه التعليم غير عربي، ﴿وَهَـٰذَا﴾ القرآن ﴿لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ ذو بيانٍ وفصاحة، بعيدٌ كلَّ البعد عن متناول أفصح الفصحاء، فكيف بالأعاجم؟ وفاقد الشيء كيف يعطيه! وهذا الرد من أشنع الردود عليهم وأفضحها[1].

= يأخذوا من هذا الأعجمي ما أخذه منه محمد ﷺ، فيداووه من جنس دائه ويستريحوا من عنائه؟! وما مَنَعَ ذلك الأعجمي أن يبدي صفحته فيتولّىٰ بنفسه تلك القيادة العالمية أو ينال شرف تلك الأستاذية؟! والإلحاد: الطعن. وضمَّنه معنىٰ: يضيفون، فعدّاه تعديته علىٰ نهج القرآن في ذلك. وتقدير الكلام: ولسان الذي يضيفون إليه هذا الطعن والتعليم أعجمي لا يحسن العربية، فكيف يُعلِّمُه هذا القرآن الذي عجز العرب الفصحاء عن الإتيان بآيات من مثله؟ فهل هذا إلا مهزلة وهُراء؟! (المؤلف).

(١) قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ لا يخْلو هذا البشر من أن يكون وثنياً أو يهودياً أو نصرانياً. فالوثنيُّ لا يمكن أن يُعلِّمَه التوحيد والرد علىٰ المشركين، واليهوديُّ لا يمكن أن يُعلِّمَه أخبار المسيح وأمِّه والإقرار لهما بالفضل والنزاهة. والنصراني لا يمكن أن يُعلِّمَه أن ينكر لاهوت المسيح ولا التثليث ولا الصَّلب، فهذه دعوىٰ ظاهرة السُّخْف والبطلان. ثم إنَّ التعلُّم لا يأتي في جلسة أو جلسات قليلة، ولا سيما مثل علوم القرآن العديدة، بل لا بدَّ من اختلاف المتعلِّم علىٰ المعلم أزماناً طويلة، ومثل ذلك لا يتمُّ في الخفاء، فلو كان لاشتهر بين العرب. ومثل علوم القرآن يقتضي مُعلماً متضلِّعاً في العلوم، ولم يكن في مكة شخصٌ مشهور بذلك معلوم بفضله بين الناس، ولو كان لاضطر النبيُّ إلىٰ تقديم هذا الشخص علىٰ أصحابه ولأظهر له احتراماً زائداً، ولفاه المعلم بذلك لبعض الناس، وكل ذلك لم يكن. فما أحمق هذه الدعوىٰ! وما أسخفها لدىٰ العاقل والجاهل والعدو والصديق! (المؤلف).

وفي هذا وشبهه إلماع إلىٰ وجوب كَوْن اللغة العربية لغةً رسميةً في الدول الإسلامية الأعجمية، وقد كان الأمر كذلك إلىٰ حدود الثمانمئة الهجرية؛ لأنَّ هذا الدين لا ينتعش ولا يُفْهَم علىٰ الوجه الأكمل إلا بالعربية.

وبعد أن أماط شبهتهم وردَّ طعنهم، ذكر منشأه فيهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ للحقِّ والصواب؛ لا قولاً ولا فعلاً، فهم فاشلون حتىٰ في تصوير أكاذيبهم، لا يعرفون كيف يكذبون ليروج كذبهم، لما قد انطبعوا عليه من الكفر وسَخَافة الفكر، وذلك حسب سُنَّة الله في خلق الإنسان إذا رَسَخت فيه بعض المَلَكات وانطبع عليها، لا يفارقها ولا يتحوَّل عنها إلىٰ غيرها، ويلتمس المعاذير الواهية والتقوُّلات السخيفة، لِيَصِمَ بها ما يخالفها من الحقِّ المبين. فتوعَّدهم علىٰ ذلك بقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ أي: بما كانوا يكفرون.

ثم ردَّ مرة أخرىٰ علىٰ قولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾، وقَلَبَ الأمر عليهم، وردَّ الوصف إليهم ببيان أنهم هم المُفْتَرون، بعد أن ردَّه بتحقيق أنه مُنزَّل من عند الله. وإنما وسَّط بينهما قوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ...﴾ لشدَّة اتِّصاله بالردِّ الأول، وليكون زيادةَ تشنيع علىٰ افترائهم هذا، وليُلمِعَ إلىٰ دفعه في هذا الحكم الذي سجَّله علىٰ الكاذبين برد الوصف عليهم، فقال: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ لأنهم لا يخافون عقاباً يَردَعُهم عنه، ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ أي: إنَّما المُفْتري مَنْ يكذِّب بآيات الله، ويقول: إنها افتراء، وإنَّ الرسول مُعلَّم من البشر.

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ

هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

ثم أردف هذا السياق المبيِّن لحال الكافرين ومصيرهم، ببيان حال المرتدّين منهم الذين كفروا بعد إيمانهم، وجَعَله بحسب السياق امتداداً لردِّ قولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾، قرَّر فيه بحسب الصيغة قاعدةً عامة، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ وقبل أن يذكر حُكمَهُم ومصيرَهُم استثنىٰ المُكْرَهين، تعجيلاً بالتَّطمين، علىٰ نَهْج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، وقد كان قريش يُكرِهون بالتعذيب بعضَ ضعفاء المؤمنين من مواليهم علىٰ أن يتكلَّموا بالردة والكفر بما جاء به محمد ﷺ، وممن اتَّفق له ذلك عمار بن ياسر، فقيل: يا رسول الله، إن عماراً قد كفر، فقال: «كلا، إنَّ عماراً مُلِئ إيماناً من قَرْنه إلىٰ قَدَمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه»، فأتىٰ عمارٌ رسولَ الله ﷺ يبكي، فجَعَل رسول الله ﷺ يمسح عينيه، ويقول: «ما لك؟ إن عادوا لك فَعُدْ لهم»[1].

وبعد أن استثنىٰ المُكْرَهين، عادَ لتقرير حكم المُرتدِّين قَصْداً، وبيَّن المراد بهم بطريقة الاستدراك، فقال: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي: اعتقده باختياره وطاب به نفساً ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾؛ إذ لا أعظم من جُرْمِهم. والجمع في الضميرين لمراعاة جانب المعنىٰ لـ﴿مَّن﴾، وقد جاء عنه ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دينَه فاقتلوه»[2].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧: ٣٠٤)، عن ابن عباس.

(٢) رواه البخاري (٦٩٢٢)، عن ابن عباس.

ثم علَّل الحكم بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: إنهم لا يشكُّون في صدق محمد ﷺ، وإنما فعلوا ما فعلوا طلباً للدنيا عن الآخرة، وباعوا آخرتهم بدنياهم، حفظاً لمراكزهم ومنافعهم.

ثم علَّل الأمر بوجه آخر فقال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾، لأنَّ من سُنة الله في طبائع البشر وأخلاقهم: أنَّ من ترسخ فيه مَلَكَة من المَلَكات بمزاولته لها لا يميل لضدِّها أبداً، ويلتمس الوصمات لِمَا يخالفها. فمَنْ رَسَخَ فيه الكفر لا يهتدي للإيمان ولا يراه حقاً. وهذا معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾.

ثم ذكر حُكْمَهُ فيهم ناعياً عليهم، فقال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ أي: كاملو الخسارة.

وبعد إكمال البيان عن المُرتدِّين قصداً واستيفاء الحكم عليهم، عاد إلىٰ تأكيد العفو عمَّن أُكرِهَ وتقريره زيادةً في التطمين، وبيَّن لهم طريقة التزكية والنجاة، وعطفه بـ﴿ ثُمَّ ﴾ لهذا الغرض، فقال: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ﴾ في دينهم بالإكراه علىٰ الردة، ﴿ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا ﴾ أي: من بعد تلك الفتنة ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾، وأعاد قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا ﴾ لبيان عدم إخلال تلك الفتنة بالحكم، وللمبالغة في تقريره.

ثم ذكر زمن ذلك الغفران لهم، فقال: ﴿ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ لا يهمُّها شأنُ غيرها، ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾ في جزائهم، بل يأخذونه حقاً وعدلاً.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

وبعد أن ذكر المغفرة والرحمة لهم في ذلك اليوم الحَرِج، توعَّد الذين فتنوهم من أهل مكة، وضَرَب لهم هذا المثل فقال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾، وفي الكلام استعارةٌ بديعةٌ مزدوجةٌ من صفات المطعوم والملبوس، وهذا كان حالَ مكة في قريش منذ ظهور الإسلام إلىٰ فتح مكة.

ثم بيَّن مُجمَلَ ما كانوا يصنعون، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾، وفي هذا القيد زيادةٌ في التقريع، لأن فيه إيماءً إلىٰ أنهم يعرفونه بأصله ونسبه وأخلاقه وصدقه فيهم، ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، ثم بيَّن ما أصابهم من جرَّاء ذلك التكذيب، فقال: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ أي: وهم متلبِّسون بالظلم. والمراد من العذاب: ما أصابهم من الجَدْب الشديد واضطراب الحال، أو وقعة بدر. وعلىٰ الثاني: يكون في الآية تنزيلُ المتوقَّع المعلوم لله منزلةَ الواقع، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، لأنَّ السورة مكيَّة، ووقعة بدر مدنيَّة.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ

﴿ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾.

وبعد أن بيَّن ما أصاب هذه القرية من المَجَاعةِ بسبب ظلم أهلها بالشرك وملابساته، حذَّر الناس من أعمالهم الشركيَّة التي منها تحريم ما لم يُحرِّم الله من الأنعام. وخصَّ هذا بالذكر لمناسبته مع المجاعة، وللإيذان بجهالة الشرك وسَفَهِ أحواله، وقدَّم ما حرَّم سبحانه ليُعلَمَ أنَّ ما عداه حلال فيتناولوه شاكرين، وابتدأ بذكر التحليل العامِّ ليكون أساساً للكلام، وسَبَكه على التمنُّن، وقَرَنه بطلب الشكر عليه، فقال: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾، ولا تَتَّبعوا خطواتِ الشيطان في تحريم ما لم يُحرِّم الله من البحيرة والسائبة وغير ذلك.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ﴾ اللهُ ﴿عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ مما ذبح على النُّصُب للأصنام. فهذه هي المحرَّمات عليكم في سائر الأحوال إلا في حالة الاضطرار، ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي: غيرَ متناول لها قَصْداً بلا اضطرار، فهذه حالٌ مؤكِّدة لمعنى الاضطرار، على نهج القرآن في تعقيب الشيء بسَلْب ضدِّه، ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي: لم يَتجاوز في الأكل حدَّ الضرورة، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ لا يُؤَاخِذُه بذلك.

ثم تابع الخطاب للناس بما فيهم المشركون، وردَّ عليهم مخالفتهم لما ذكر من التحليل والتحريم في الذبائح، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾، وهذا التركيب على حدِّ قولهم: وجهُه يصف الجمالَ، وعينُه تصف السِّحْرَ، وسَيْرُه يصفُ الكلال. والمراد به المبالغة في وصف كلامهم بالكذب في قولهم: ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ

﴿وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ أي: كما تقولون: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩]، وأمثال ذلك؛ ﴿لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ أي: إن الذين يفترون على الله الكذبَ في أمر التشريع، فيُحلِّون ويُحرِّمون من أنفسهم، لا يُفلِحون في الدنيا ولا في الأخرىٰ؛ لأنَّ الأحكام الشرعيَّة يجب أن تُسايرَ الطبيعة البشرية الفردية والاجتماعية، المادية والروحية، وتكفل لها السعادة في الحياتين بصورةٍ صحيحة واقعية، ولا يمكن أن يعلم ذلك بحدود مضبوطة إلا الله سبحانه الذي يعلم مَنْ خلق وما يحتاج إليه، فهو وحده القادر أن يُشرِّع للإنسان ما يلائم روحَه وجسمَه ملاءمةً صحيحة متقنة يكون له بها السعادة والفلاح. أما ما يخالف تشريع الله، ويعتقد الإنسان أنه من مصلحته؛ فذلك خديعة من النفس يُزيِّفها العقل الصحيح والوجدان النزيه.

ثم أجمل عدم الفلاح بقوله: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ أي: منفعةٌ أو لذةٌ وقتية في الدنيا، ﴿وَ﴾ لكن ﴿لَهُمْ﴾ بها في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾، وكذلك في أكثر أيام الدنيا لو كانوا يشعرون.

ولما حَصَر المحرَّمات العامة فيما ذكر، قال في إتمام البحث: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟[1] حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ أي: في سورة الأنعام، إيذاناً بأنها ليست من المحرَّمات الذاتية، وغير مُحرَّمة على غيرهم، وإنما حُرِّمت عليهم خاصَّة جزاءً لهم على ظلمهم، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بذلك التحريم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾، حيث فعلوا ما استوجبوا عليه ذلك العقاب.

---

(١) يقال: هاد فلان، أي: رجع. والذين هادوا: هم اليهود، لأنهم رجعوا إلى الله بالتوبة من عبادة العجل.

ثم عقَّب هذا السياق في الكلام عن المشركين والتوعُّد لهم، ببيان قبول التوبة ممن تاب بعد جهالة؛ ليروا البابَ مفتوحاً لهم، ومن نهج القرآن إذا تكلم عن سفه الجاهلية وأبطل حكماً من أحكامها عقَّب ذلك بالعفو عمَّن أسلم منهم تطميناً لنفوسهم، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ أي: جهلاً أو سَفَاهة، ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد تلك التوبة ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾، وهذه الإعادة لبيان عدم إخلال ذلك العمل بالحكم، وللمبالغة في تقريره.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

ثم تابع الكلام عن المشركين وردَّ عليهم ما يدَّعونه من أن إبراهيم كان علىٰ مِلَّتهم، مُبيِّناً أن مِلَّة إبراهيم هي هذا الدينُ الحنيفُ نفسُه الذي تدعوهم إليه، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ بانفراده؛ لحيازته من الفضائل البشرية ما لا تكاد توجد إلا متفرِّقة في أمة، وكان ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ مطيعاً له قائماً بأمره، ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مائلاً عن كلِّ دين باطل، ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾، فكيف تزعم قريش أنهم منه؟ وكان ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ أي: لِنِعَمِهِ تعالىٰ عليه. وفي هذا تقويةٌ للردِّ علىٰ دعواهم، إذ فيه تعريضٌ وإيماءٌ إلىٰ أنه عليه الصلاة والسلام علىٰ خلاف ما هم عليه من الكفران بأنعُم الله تعالىٰ. وقد ﴿اجْتَبَاهُ﴾ للنبوَّة ﴿وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ بما أوحاه إليه، وهذا الصِّراط يصل سالكُه إلىٰ سَعَادة الدارَيْن.

ثم التفت من الغيبة إلىٰ التكلُّم، إظهاراً لكمال الاعتناء بشأنه، فقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، وهي مصداق قوله تعالىٰ حكاية عنه: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، فكان ذا شأن رفيع في الأجيال اللاحقة، ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ أصحاب الدرجات العُلىٰ، مصداقاً وإجابةً لما حكاه عنه بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣].

وبعد التمهيد بهذا البيان عن إبراهيم عليه السلام، وجَّه الخطاب إلىٰ النبيِّ ﷺ، فقال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ وفيه دلالة علىٰ التقارب بين الملَّتين: ملَّة إبراهيم، وملَّة محمد صلوات الله عليهما. وفي قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ مبالغة في الردِّ على قريش في دَعْواهم أنهم على مِلَّته.

وقال أبو مسلم: إن الآية ردٌّ علىٰ اليهود والنصارىٰ في ادِّعائهم أن إبراهيم كان منهم، قد أردفها بالردِّ علىٰ اليهود ما يدَّعونه من أنَّ تعظيم أمر السبت هو من شريعة إبراهيم، وعلىٰ مَنْ يدّعي اتباعَه أن يعمل به[1]، فردَّ عليهم بأنه كان خاصاً فيهم جزاءً لهم، وليس من مِلَّة إبراهيم، فقال: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ وليس هو من دين إبراهيم. وقد قالوا في ذلك: إن موسىٰ عليه السلام أمر اليهود أن يجعلوا في الأسبوع يوماً واحداً للعبادة، وأن يكون ذلك يوم الجمعة، فأبوا عليه، وقالوا: نريد السبت، إلا شِرْذِمة منهم رضوا بالجمعة، فأذِنَ الله تعالىٰ لهم في السبت، وابتلاهم بتحريم الصيد فيه.

---

(١) أي: ينبغي على مَن يدّعي أنه من أتباع إبراهيم عليه السلام أن يعمل في يوم السبت، لأن تحريمَ العمل فيه لم يكن من شريعته، وإنما هو خاصّ باليهود.

وروي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ الله كتب يوم الجمعة علىٰ مَنْ كان قبلنا، فاختلفوا فيه، وهدانا الله له»[1].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ مِنْ أَمْرِ الأديان والشرائع واختلافهم فيها. ويجوز أن يكون فيه تجوُّز بالاختلاف عن المخالفة.

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

وبعد ما تقدَّم من البيانات عن المشركين والكافرين، وإثبات أنَّ الدين الصحيح هو ما كان عليه إبراهيم حنيفاً مسلماً، وهو نفسُ هذا الدين الذي جاء به محمدٌ ﷺ في الطبيعة والقواعد الأساسية، أمَرَهُ أن يَدْعُوَ إلىٰ هذا الحقّ بألين وأوضح برهان، فقال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، والذين يُدْعَون بالحكمة: هم أهل البصيرة والنفوس الطيبة، والذين يُدْعَون بالموعظة الحسنة: هم عوامُّ الناس، والذين يُجادَلون بالتي هي أحسن: هم أهل الجَدَل والشغب.

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ أي: اسلُكْ في الدعوة والمناظرة الطريقة المذكورة، فإنه تعالىٰ أعلَمُ بحال مَنْ لا يَرْعوي عن الضلال لإفساده وتحريفه لطبيعته بالكلية، وبحال مَنْ يصير أمره إلىٰ الاهتداء لمحافظته علىٰ سَلامة فطرته ونور بصيرته ولو في الجملة. يشير بذلك

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٣٤٨٦)، ومسلم (٨٥٥).

إلىٰ أصناف الناس في نشأتهم، لا في طبيعتهم، ويُلمِعُ إلىٰ أن ما شرعه له في صورة الدعوة هو الذي تقتضيه الحكمة في هداية المستعدِّين للهداية، وتفاهة غير المفسدين لذلك الاستعداد، الضالِّين عن طرق الـهُدىٰ والرَّشاد.

وفي الآية دليل علىٰ أنَّ الدين الإسلامي قام بالدعوة لا بالسيف، كما يزعم الـمُبطِلون أعداءُ هذا الدين. ويؤيِّد ذلك أنه ﷺ جاءته النبوة وهو وحيد فريد ليس بذي سلطان، وخَذَله في أول الأمر حتىٰ أقرباؤه، فلا زال يُقيمُ الأدلة ويُظهِرُ محاسن هذا الدين ويُوضِّح معائب ما هم عليه حتىٰ وَضَح الحق لمن أراد الله هدايتَه.

وقد أنبأنا التاريخ أنَّ هذا الدين قَبِلَتْهُ العقول السليمة، واستَحسَنَتْهُ الطِّباع الكريمة، وشاع في الناس قبل مشروعية الجهاد الذي شَرَعه الله لإزالة الأشواك عن طريق الدعوة، ولمقاومة المعتدين علىٰ أهل الدين، أو علىٰ مَنْ يريد نشره، أو علىٰ مَنْ يريد الدخول فيه.

وقد سُئل أحد الأعراب: لِمَ آمنت بمحمد علىٰ عجل؟ قال: لأنه لا يقول عن شيء: افعله، والعقل يقول: لا تفعله، ولا يقول عن شيء: لا تفعله، والعقل يقول: افعله.

أقول: فلذلك دَخَلت الناس في دين الله أفواجاً بعد وضوحه لهم.

وبعد أن أمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ بالدعوة إلىٰ الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالحُسْنىٰ، أتبع ذلك الأمر بحكم دفع المعتدين علىٰ هذا الدين وأهله، والمانعين لنشر الدعوة إليه، ولكن لا يزيدون في الدفاع علىٰ قدر الحاجة، فقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ ولا تزيدوا علىٰ ذلك. وسمَّىٰ الاعتداءَ عليهم عقوبةً للازدواج والمشاكلة، أو لسبب اعتقاد المشركين أن قتالَهم عقابٌ للمسلمين علىٰ تبديل دينهم. والمقصود من الآية: إيجاب مراعاة العدل مع مَنْ يناصب العداء، فما أعظم هذا الدين!

ثم أكمل هذا التأديب العالي بما هو أعلىٰ منه مقاماً، وهو الصبر عليهم فيما لا يضرُّ بنشر الدعوة، فقال: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ ولم تُعاقِبوا علىٰ الاعتداء عليكم ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾، والمتبادر أنَّ هذا التلقين إنما جاء بسبب ما كان من مواقف الكفَّار التي قد لا تُطاق، وما كان يعتلج في نفوس الأقوياء من المسلمين من الرَّغْبة في الوقوف منها مواقف المقابلة. ومن المعلوم أنَّ الترغيب بالصبر إنما هو فيما لا يضرُّ بنشر الدعوة.

ثم خصَّ الرسولَ ﷺ بالأمر بالصبر علىٰ صعوبة الدعوة، لأنه أَوْلىٰ الناس به، لزيادة علمه بالله تعالىٰ، ووثوقه بنصره له، لأنه مُعرَّضٌ لما ينتابه من الشدائد في سبيل الدعوة، فقال: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: بذكرك لوعده لك بالنصر ورفع الذكر وعظيم الأجر، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ ليأسك من إيمانهم، ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ أي: في ضيقِ صَدْرٍ من مكرهم.

ثم علَّل الأمر والنهي بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾، والمراد من هذه المعيَّة: الولاية الدائمة والعناية الخاصة.

* * *

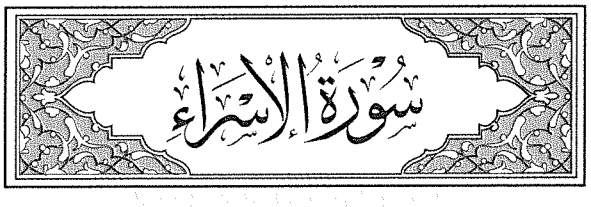

أو سورة بني إسرائيل

مكية، وهي مئة وإحدىٰ عشرة آية

وكانت حادثة الإسراء في السنة الثانية عشرة من البعثة، وقبيل الهجرة.

والغرض من هذه السورة:

ـ إثبات حادثة الإسراء

ـ وفَضْل المسجد الذي أُسري به إليه، وحال أهله بني إسرائيل، وما جرىٰ علىٰ هذا المسجد من جَرَّاء سلوكهم.

ـ والموازنة بين كتابي المسجدين: القرآن والتوراة، وما خصّ به القرآن من مزايا وقوة براهين ومواعظ ووصايا.

ـ وبيان حكمة الإسراء في اختبار الناس به.

ثم عاد إلىٰ بيان مزايا القرآن وإثبات نزوله وخَتَم به السورة.

❊ ❊ ❊

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾.

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ وهو بيت المقدس ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ ببركات الدين والدنيا؛ لأنه مهبط الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ ﴿لِنُرِيَهُ﴾ بهذا الإسراء والمعراج ﴿مِنْ آيَاتِنَا﴾ العظمىٰ في الأرض والسماء التي منها ذهابه في برهة من الليل إلىٰ بيت المقدس، وهو في مسيرة شهر عن مكة المكرمة.

ثم أومأ ـ والله أعلم ـ إلىٰ دفع ما ربما يسبق بعض الأذهان الضيِّقة من أنَّ هذا

الإسراء المقرون بالمعراج فيه مناسبة لداعية الحضور والمثول، فقال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾(١) أي: لا حاجة له بالمثول، فمؤدَّىٰ هذه الفاصلة أنَّ هذا الإسراء والمعراج

---

(١) المعراج بالروح والجسد معاً أم بالروح فقط؟ اختلف العلماء في ذلك، فالجمهور علىٰ أنه كان بالروح والجسد معاً، وقليل من العلماء من قال: إنه بالروح فقط، ولكنهم لا يعنون أنه رؤيا رآها في النوم، إذ الرؤيا خواطر للحس الباطن، وذلك من وظائف الجسم. أما الروح فإدراكها حقيقي واقعي قوي، ولا سيما بعد انفكاكها من الجسم، كما أشار إلىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]. والروح قد تنفكُّ من الجسم أثناء الحياة، كما أشار إلىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا...﴾ [الزمر: ٤٢]. وعلىٰ هذا الضوء يمكننا أن ندرك مقصد القائلين أنَّ المعراج بالروح فقط، بالبيان الآتي، والله أعلم.

أقول: يجوز أن يكون ذلك بانفكاك الروح عن الجسد وبقائه في محلِّه حياً، لأن الحياة أمر في البدن، وهي غير الروح ـ والله أعلم ـ فالروح كائن مستقل عن البدن مُغلَّف به، ويُؤْنس لهذا الرأي: أنَّ الروح المجرَّدة ـ والله أعلم ـ ينعدم لديها القُرب والبُعد والزمان والمكان. وكذلك يُؤْنس له: أن طبيعة المعراج تُعرَفُ مما جاء فيه: وكلُّه روحيّ، لأن الأنبياء الذين صَلَّىٰ بهم ثم لاقاهم في السماء في أمكانهم أرواح لا أجسام فيها، لأنهم في البرزخ، وحياة البرزخ مجرَّدة من الأجسام، ولا تتَّصل الأرواح بالأجسام إلا عند الحشر. وحياة الأجسام كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]. ولكون الأنبياء ـ والله أعلم ـ كانوا أرواحاً مجرَّدة صعدوا إلىٰ أماكنهم بعد أن صلىٰ بهم قبل أن يصل هو إلىٰ تلك الأماكن، لأن سيره بطيء، سَيْر مختبر مُسْتطلع، فالصعودان من جنس واحد، والله أعلم. وكذلك حال من اتَّصل بهم من الأطفال الذين حول إبراهيم عليه السلام والسعداء الذين رآهم في السعادة، والأشقياء الذين رآهم في الشقاء؛ كلهم أروح مجرَّدة في حياة البرزخ التي تنعدم فيها الأجسام، وكله حال واقعيّ ليس برؤيا.

وأما من يقول: إن قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ﴾ [الإسراء: ٦٠] المراد منها المعراج، يكون إطلاق الرؤيا فيه مَجَازاً، لعلاقة المشابهة بينهما من بعض الوجوه. ولو كان المعراج رؤيا رآها ﷺ وادَّعىٰ بها، لما أنكرها عليه منكر من المشركين، ولا أحدث الأمر تلك الضجة. =

= نعم، هناك مَنْ يرىٰ أن المعراج كان مرتين؛ مرة كان نائماً في الحرم أو عند أم هانئ فانتبه وحكاه، ومرة قبل الهجرة في اليقظة وهو المسمَّىٰ بالمعراج. فعلىٰ هذا الرأي، يجوز أن تكون الأولىٰ رؤيا، كالتي قبل فتح مكة بأكثر من سنة، ثم تحقَّقت رؤيا المعراج بالمعراج، كما تحقَّقت رؤيا الفتح بالفتح. وقد جاء بعض أحاديث المعراج يومئ إلىٰ الأولىٰ، وأكثر الأحاديث تومئ إلىٰ الثانية، والله أعلم.

وممن قال: إن المعراج بالروح فقط؛ عائشة رضي الله عنها، فيجوز أن يكون قولها رأياً علماً مستنبطاً مما تعلمه عنه بقربها منه من طبيعة روحه ﷺ وقابليتها لمثل ذلك. ويجوز أن يكون قولها حديثاً موقوفاً عليها، سألته عن المعراج، فأدركت من كلامه أنه بالروح، ولكونه دون التصريح المؤهّل للرواية، أوقفته عليها ولم تروه مرفوعاً، كما هو شأن الصحابة في الأحاديث الموقوفة عليهم. فإنهم كانوا يهابون الرواية ويقلِّلونها. ولمثل ذلك جاء في أصول الحديث: أن الموقوف علىٰ الصحابي إذا لم يكن من المواضيع الاجتهاديَّـة ـ بمعنىٰ: ليس للاجتهاد فيه مجال ـ فهو في عداد المرفوع إلىٰ رسول الله ﷺ.

هذا، وإن القول بأنَّ المعراج كان بالروح والجسد معاً أقرب للأفهام، وأولىٰ بالإيمان. والقول بأنه بالروح فقط أدرأ لشبه المنكرين ومُشَاغبتهم.

وقد وصف ﷺ المعراج بقوله: «هو الذي يمدّ إليه ميتكم عَينَـيْه إذا حضر». فهذا معراج أرواح الصالحين. والله أعلم.

هذا ما رأيته، فإن كان صواباً وحقاً فالحمد لله رب العالمين، وإن كان خطأ وباطلاً فأستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ولا يعلم سِرَّه إلا هو.

وكان المعراج في العام الذي تُوفي أبو طالب وخديجة، وكانا له درعين حصينين، تُسَـرِّي عنه خديجةُ عند الشدائد، ويدافع عنه أبو طالب بحكم العصبية، فاشتدَّت عليه قريش، فجاء المعراج في هذه الظروف مُبدِّداً سحائب هذا الجو الخانـق، ومضيئاً له مستقبله الـمشرق، والله أعلم. (المؤلف).

قلت: والقول بأن المعراج كان بالروح والجسد هو الأوفق بسياق الأحاديث الصحيحة الواردة فيه، ولذلك صار إليه الجمهور، والجواب عن شبه المنكرين متيسِّر على القول به أيضاً، فلا حاجة للمصير إلى أنه بالروح فقط.

إنما هو لإراءته الآيات العظيمة، لا للمثول؛ إذ لا حاجة لله سبحانه في ذلك، ولا يجوز عليه، بل هو محال في حقِّه تعالىٰ. فما هذا الإسراء والمعراج إلا سَفْرَةٌ قصيرةٌ عَجْلىٰ في هذا الكون العظيم، ليرىٰ بعض عجائبه وبديع آياته.

وعن مسروق قال: «سألتُ عائشة رضي الله عنها: هل رأىٰ محمد ربَّه؟ فقالت: سبحان الله، لقد قفّ شعري لما قلت، وهل يُرَىٰ ربُّك؟!»[1]. وتتمة الجواب في سورة ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾.

قال أبو السعود: وفي هذا التعليل إيماءٌ إلىٰ أنَّ إسراءه ﷺ إنما هو لإراءته الآيات[2].

أقول: فالغرض من هذا الإسراء والمعراج: أن يحيط الرسول ﷺ علماً إجمالياً بالوجود والموجودات الكونية في أكبر صُورة ممكنة. وقد عُدِمت فيه حُجُبُ الزمان والمكان، كما يكون الحال في الأرواح المجرَّدة من الملائكة وغيرهم، والله أعلم.

وقد جمع له الأنبياء عليهم السلام، فصلَّىٰ بهم في بيت المقدس، ثم استقبلوه في السماوات العُلَىٰ، كما تضمَّنته طرق حديث الإسراء والمعراج. وفي هذا الإسراء دليل القدرة وتقرير النبوَّة.

وإنما افتتح سورة بني إسرائيل بذكر الإسراء؛ لاشتماله علىٰ ذكر المسجد الأقصىٰ الذي هو مركز دعوة موسىٰ عليه السلام. ثم ذكر قصَّتهم ليحيطه علماً بتاريخ المكان، ويزيده عرفاناً بطبائع الأمم، ويحذِّر الأمة المحمديَّة من الوقوع فيما وقعت به بنو إسرائيل، فقال: ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ كما آتيناك القرآن

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧).

(٢) ينظر: «إرشاد العقل السليم» (٥: ١٥٥) بنحوه.

وجعلناه هُدىٰ للناس كافَّة، ثم فسَّر أساس تلك الهداية لبني إسرائيل بقوله: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢﴾ يا ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ فعَنْوَنَهم بهذا العنوان لتحسيسهم بنعمةِ الإنجاء من الغرق من بين أولئك الذين أغرقهم بشركهم، وللتحذير من مثل ذلك الحادث ولإغرائهم بالإيمان والتوحيد، لأنه هو الذي نجَّىٰ آباءهم مع نوح عليه السلام. ولذلك علَّل الحمْل بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ أي: حملناه وأصحابه لأنه كان شاكراً لله.

قال ابن عباس: كان في السفينة سبعون من المؤمنين عدا أهله[1]. أقول: ولهذا يُسمَّىٰ نوح: آدم الثاني.

ويجوز أن يعود ضمير ﴿إِنَّهُۥ﴾ إلىٰ موسىٰ، وتكون الجملة لتنديد بني إسرائيل بأنَّ خطتهم غير خطَّته، لأنهم كافرون غير شاكرين، وبهَدْيه ليسوا بمهتدين.

ثم ذكر عدم اهتداء بني إسرائيل بكتابهم هذا، وما جازاهم به من تسليط الجبابرة عليهم، فقال: ﴿وَقَضَيْنَآ﴾ متضمِّناً معنىٰ: أوحينا ﴿إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو التوراة ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤﴾ بالظلم والعدوان والإعراض عن الله، ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أي: فإذا جاء وقتُ أُولىٰ المرَّتين ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾، وهذا التخصيص للتحسيس بالمجازاة، وكان أولئك العباد ﴿أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: ذوي قوَّة وبطش في الحرب، ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ أي: توغَّلوا في بلادكم واستولوا عليكم، وسَبَوْا نساءكم وأولادكم، ﴿وَكَانَ﴾ ذلك ﴿وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥﴾ لا مَناصَ منه.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: رَدَدنا لكم الدولة والغَلَبة علىٰ هؤلاء الذين

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٨٦٥)، وفيه «ثمانون» بدل «سبعون».

فعلوا بكم ما فعلوا، حين تبتُم ورجعتُم عمَّا كنتم عليه من الفساد، كما يُشعِرُ بذلك السياق. ومثل هذا الطيِّ من خصائص القرآن في أنواع الإيجاز.

ثم تابع البيان فقال: ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦﴾ مما كنتُم قبل، أو من أعدائكم، أي: أكثر عدداً في الرجال التي تنفر للحرب وأقوىٰ جُنداً.

ثم رغَّبهم ورهَّبهم بقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾ أعمالكم ﴿أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾، حيث تدوم عليكم هذه النعمة بهذا الإحسان، وينالكم من الله الرحمة والحنان، ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي: وإن أسأتم أعمالكم فقد أسأتم لأنفسكم أيضاً، إذ تُفقِدونها السعادةَ الأبدية، والكرامةَ السرمديَّة، والعزَّ والسلطان، ولكنهم أساؤوا فسلَّط الله عليهم، كما توعَّدهم بقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ﴾ أي: جاء وقتُ المرَّة الآخِرة، بعودتكم إلىٰ سُوء الأعمال، بعثنا عليكم عباداً كذلك ﴿لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ بتسليطهم عليكم وتوغُّلهم في بلادكم، ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، ويعوثوا به فساداً، ﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧﴾[1] أي: وليدمِّروا كلَّ ما غلبوا عليه من بلادكم تدميراً. والمعنىٰ: يُدمِّرونكم تدْميراً ما لبثوا مُسلَّطين عليكم.

---

(١) جاء في كتاب «العصور القديمة» للدكتور جايمس هنري براستد، عضو أكاديمية العلوم في برلين، ما يلي: بعد مضيِّ قرن علىٰ نجاة اليهود من يد سنحاريب الملك الآشوري، استولىٰ الكلدانيون علىٰ الآشوريين وخرَّبوا نينوىٰ عاصمة مُلكهم، ففرح اليهود العبرانيون، وظنوا أن في ذلك خلاصاً لهم من ظلم الأجانب، ولكنهم لم يلبثوا أن شاهدوا نبوخذ نصَّر ملك الكلدانيين يغزو أورشليم ويخرِّبها، ويجلي أهلها إلىٰ بابل. فلم يزالوا في الأسر والهوان حتىٰ استولىٰ كورش ملك الفرس علىٰ بابل، فأعاد اليهود إلىٰ أورشليم.
وقد جاء بعض التوضيح لهذا في قوله تعالىٰ: ﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [المائدة: ٧١] الآيات. (المؤلف).

ثم منَّاهم سبحانه بإعادة رحمته عليهم مرةً ثالثةً إنْ حافظوا عليها، وإلا أعاد عليهم الكرَّة، فقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ إنْ تبتُم ورجعتُم إلىٰ طاعته، ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ بعدَها إلىٰ فسادكم ﴿عُدْنَا﴾ عليكم بمثل هذا التَّسليط والعذاب في الدنيا. ثم توعَّدهم في الآخرة بالدخول تحت هذا الحكم العام، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾ أي: سجناً ومَحْبساً أبدياً.

والآيات تدلُّ علىٰ أنَّ الله سبحانه يُؤَاخذ الأمم والشعوب في الدنيا قبل الآخرة بما يقع منها من ظلم وفساد ومَعَاصٍ يظهر أثرها فيها بالاستمرار عليها، ولكنهم يقولون: إنها أمور عادية تعتري الإنسان، ولم يعلموا أنها توفيقُ أقدار لأقدار جزاءً للمظالم والأضرار.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ...﴾ خطاباً لليهود المعاصرين للنبيِّ ﷺ، أو عاماً شاملاً لهم.

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾.

وبعد أن ذكر هذه القصَّة عن بني إسرائيل وما فيها من التَّسليط عليهم لعدم

اهتدائهم بما أرسل إليهم، دَعَا الناس إلىٰ هذا القرآن بما فيهم بنو إسرائيل في عصر الدعوة، مُحذِّراً بالسياق السابق من أن يفعلوا به ما فعل بنو إسرائيل بالتوراة، فينالهم ما نالهم، وضمَّن البيان عَظَمةَ شأنِ هذا القرآن، زيادةَ تشويق للأخذ به والعمل بتعاليمه، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[1] أي: للطريقة التي هي أقوم الطرائق لصلاح الدنيا والأخرىٰ، لأن الذي يدرس القرآن دراسةً صحيحة، ويعمل بها عملاً صحيحاً، يكون شخصية لا تكون في غيره، لذلك قال تعالىٰ: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ علىٰ وجهها الصحيح، ولم يعملوا لها علىٰ الوجه الصحيح؛ ﴿أَعْتَدْنَا﴾ وهيَّأنا ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠﴾.

ولما ذكر سبحانه وعيدَ الكافرين، عقَّبه باستعجالهم له استهزاءً، وبيَّن طبيعة الإنسان المخلوق من عَجَل بأنه لا يقنعه ويردعه الوعيد المؤجَّل، ويُريده مُعجَّلاً كالخير، حيث إنه يقول لمن يدعوه إلىٰ الخير: لو كان عملُنا وعقيدتُنا غيرَ مرضيَّة عند الله لم يجعل حالنا في الدنيا خيراً من حالك، ولكن نرجو أن يكون حالُنا في الآخرة مِثلَ حالنا في الدنيا، ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ [مريم: ٧٥]، ولذلك أنكر عليهم سبحانه، فقال: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ۝١١﴾[2].

---

(١) فيما يظهر من طبيعة التوراة وطبيعة القرآن، أنَّ الأول يخاطب العاطفة ويُرغِّب ويُرهِّب بالماديات، والثاني: يخاطب العقل بالحقائق الراهنة والبراهين القاطعة. وفي ذلك دليل علىٰ تقدُّم النوع الإنساني، وتنزيل القرآن عليه في أول وصوله لهذه المرتبة في مبدأ كماله. والله أعلم. (المؤلف).

(٢) حاصل المعنىٰ: أنَّ الإنسان يريد أن يكون جزاء الشر عاجلاً في الدنيا، وحيث لم يجده ينكره، والله سبحانه بحكمته وجلاله جَعَل جزاء الشر في الأخرىٰ، ولم يَحرِم الشريرَ من خير الدنيا، فهو بذلك يتوهَّم أن لا شيء عليه، وأنه مرضيٌّ عند الله. =

وقد حُذِفَت واو ﴿وَيَدۡعُ﴾ في النُّطق لالتقاء الساكنين، وحُذِفَت إملاءً تبعاً لذلك، علىٰ نهج إملاء القرآن في مثله. وعُدِّي الدعاء بالباء؛ لأنه من قولهم: دَعَا به؛ إذا استحضره. أو لتضمينه معنىٰ الاستعجال.

فألمع سبحانه إلىٰ أن أعماله كلَّها بتقديمها وتأخيرها مبنيّةٌ علىٰ سُنَن لا تتبدَّل، وحِكَم لا تُدْرَك. ومثَّل لذلك بما بين الليل والنهار من تعاقب ومفارقات اقْتَضَتْها حِكَمٌ، بعضُها ظاهرة، وبعضُها خفيَّة، فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةً﴾ يريدُ سبحانه وتعالىٰ ما في حكمة النظام الشمسي ودوران الأرض اليومي من تكوُّن الليل المُظْلم والنهار المُبْصر. أي: فكذلك أعمالُه كلُّها علىٰ قواعدَ وأصولٍ وحِكَم ظاهرة وخفية، ومن ذلك صبرُه علىٰ المجرمين، وتأجيلُ جزائهم إلىٰ حين، وجَعْلُ الإنسان مختاراً في تصرُّفاته؛ كلُّها مبنيَّة علىٰ حِكَم.

ثم ذكر شيئاً من ظاهر تلك الحكمة في الليل والنهار، فقال: ﴿لِتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ في النهار المُبْصر، أي: لتطلبوا فيه أسباب معاشكم، ﴿وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ﴾ في الليل المُظلِم الذي من نتائجه ظهورُ القمر، وذلك لإقامة مصالحكم الدينية والدنيوية المنوطة بالأشهر القمرية.

ثم ختم الآية أو البحث بما فيه إعذار وإقامة حُجَّة، وهو تفصيله تعالىٰ لكلِّ ما يحتاجه الإنسان من البيان، فيما يعود عليه بالسعادتين ليحيط علماً بذلك، فقال: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ١٢﴾ أي: بيَّناه في هذا القرآن بصورةٍ واضحة، كي لا يكون للناس علىٰ الله حُجَّة، إذا حفظ لهم وعليهم أعمالهم، وجازاهم عليها.

= ويجوز أن يكون الكلام تسليةً لبعض المؤمنين الذين يرغبون أن يُعجِّل الله العقوبة للكافرين. وعلىٰ كلٍّ، فالآية هي علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُ﴾ [الرعد: ٦]. (المؤلف).

كما ذكر ذلك بقوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ أي: طوَّقناه بعمله من خير أو شر، أي: فلا يستعجل هذا المستهزئ، فقد حُفظت عليه أعماله. وإنما قيل له: طائر، علىٰ عادة العرب في قولهم: جرىٰ طائره بكذا، أي: بما يناله من ذلك. يعنون ما يتفاءلون به أو يتشاءمون بتيامُن الطير أو تَياسُره. ومحصَّل المعنىٰ: أن عمل الإنسان يحيط به كالطَّوْق فلا يفارقه، فعمل الخير كالعِقْد الزائن، وعَمَلُ الشرِّ كالغلِّ الشائن.

ثم عَطَفَ عليه عَطْفَ تفسيرٍ وتفصيل بقوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا﴾ وهو ما كتبه الحَفَظة من الأعمال، ﴿يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ أي: مفتوحاً أو مُفصَّلاً، أحصاه الله عليهم ونَسُوه، فيُقالُ له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ أي: يكفيك اليومَ محاسبةُ نفسِك لك، وعَتْبُها عليك، ولَوْمُها إيَّاك.

ثم أتىٰ بهذا الـهزِّ والإيقاظ، فقال: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: مَن اهتدىٰ بهذا القرآن الهادي لأقْوَم الطُّرُق فإنما يهتدي لنفسه، وينال هو المنفعةَ بتلك الهداية، ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن ذلك ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾، لأنَّ وبال ضلاله عليه، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ بل كلُّ نفس تحمل وِزْرَها ولا تحمل وِزْرَ غيرها. وذلك لأن عقاب الذنب ـ والله أعلم ـ طبيعي[1] مبنيٌّ علىٰ سُنَّة كونية في تكيُّف الروح كيفيَّـة تؤهِّلها للشقاء، فكمـا أنَّ الجوع لا يزعج إلا نفس الجائع، والمرض لا يُؤْلم إلا نفس المريض، فكذلك الذنب لا يؤثِّر إلا عن نفس صاحبه، والله أعلم.

وإنما عبَّر عن النفس الأولىٰ بالوازرة؛ للإشارة إلىٰ أنها مشغولة بأمرها وَوِزْرِها، ثم أعذر بعد أن أنذر، فقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ أي: لم نُعذِّبهم إلا بعد أن بعثنا لـهم الرسل فلم يؤمنوا، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]،

---

(١) بل هو شرعي، لا مدخل فيه للطبيعة وسننها، وقياسُه بالجوع والمرض فيه تكلُّف ظاهر.

فالمراد: تسجيل استحقاقهم للعذاب؛ لأنهم لم يؤمنوا بما جاءتهم به الرسل. فالآية لإبداء حجة الله عليهم سبحانه في تعذيبهم، وأنهم ليس لهم عُذْرٌ أو حُجَّةٌ يتمسَّكون به، إذ قد أعذَرَ من أنذَرَ، ولم تَخْلُ أمةٌ من نذير.

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾.

ثم تابع المعنىٰ ببيان أنَّ مبدأ المعارَضة ومصدرَها إنما يكون في الرؤساء والـمُترَفين من القوم، فقال: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾[1] أي: أمرنا القرية علىٰ لسان الرسول فلم تُطع وعارَضت بمُعارضة رؤسائها، فاستحقَّت الإهلاك، كما هو شأن قوم نوح وعاد وثمود.

وفي الآية إشارةٌ إلىٰ أن الرؤساء والـمُترَفين هم أساس الفتنة؛ لأنَّ لهم القدرة في

---

(١) هذا قانون اجتماعي لا يتغيَّر، وهو أن الخاصة في مقدمة الأمة، فيكونون عُرْضةً قبل العامة للتلوث بالإصابات في الأمراض الاجتماعية وفساد الأخلاق والتهاون بالواجبات الإلهية، ثم تتبعهم العامة في ذلك تدريجياً؛ إذ العامة تتبع الخاصة دائماً في عقائدها وعاداتها ومداركها وتقتدي بها، وذلك قانون اجتماعي وسنة كونية. والرجوع إلى التاريخ يرينا أن الأمم البائدة لم يأتها الداءُ الذي أبادها إلى من قِبَلِ أهل خاصَّتِها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ [الأحزاب: ٦٧] والترف مفسدة عظيمة تؤدي إلى انحلال الأخلاق وتحطيم الإنسانية وانحطاط النفوس. (المؤلف).

القبول والإعراض، والأمة تَبَعٌ لهم. ولذلك قال عليه السلام في كتابه إلىٰ هِرَقلَ: «فإن تولَّيْتَ فإنَّ عليك إثم كلِّ القبط»[١]، وفي كتاب آخر من كتبه: «فإن عليك إثم الأريسيِّين»[٢]، أي: التَّبعة والفلاحين. وذلك لأنهم يَأتمرون بأمره ويتَّبعون أثرَه.

وإسناد هذا الأمر إلىٰ الله تعالىٰ باعتبار سُنَّته العامة في أخلاق الإنسان إذا أفسد فطرته بمفاسد التربية، فهو علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٨٨]، وقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥].

ويجوز أن يكون هذا الأمرُ أمرَ تكوين، يريد به تكوينه فيهم كذلك حسب السنن الكونية. وعلىٰ كلٍّ، فهو يشير به إلىٰ سُنة من سنن الله في أخلاق الإنسان وطبائعه، وهي أن المترفين والرؤساء هم الذين يعارضون الرُّسُلَ والهُدَاةَ خوفاً علىٰ مناصبهم ومراكزهم، ويُحرِّضون أتباعهم علىٰ ذلك، والله أعلم.

ويقول علماء الاجتماع: إنَّ المترفين في كلِّ عصر يحافظون علىٰ الوضع الحاضر، ويقاومون بكلِّ قواهم الثورة والتجديد.

وعلىٰ كلٍّ، فالترف مَفْسَدَة للفرد والمجتمع يؤدِّي بالأمة إلىٰ الدمار، فهو مَفْسَدَة للأخلاق، ومِقْراض للأمم، يفضي بها إلىٰ الفناء.

ثم استشهد بتاريخ الأمم الماضية في إهلاك المكذِّبين، تهديداً لهؤلاء المعارضين، فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ لمعارضتهم أنبياءَهم، ثم زاد في التهديد والتوعُّد بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ يُحصيها لهم ويُعاقبهم عليها عقاباً أليماً.

---

(١) ذكره ابن القيم في «زاد المعاد» (٣: ٦٩١).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٩٤)، ومسلم (١٧٧٣)، عن أبي سفيان.

ثم أجاب سبحانه عمَّا يخطر ببال بعض قاصري الأفهام، من أن مثل هؤلاء المذنبين إذن كيف ينالون سعادة الحياة الدنيا؟! وإذا كانوا ممقوتين عند الله سبحانه فكيف يرزقهم ويُرفِّه عليهم؟! فبيَّن سبحانه السنة الكونية في ذلك، فقال: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ وحدها، وقَصَرَ همَّه عليها، وهي سعادة الحياة الدنيا، ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ وهو الذي يسعىٰ لها سَعْيها، حسب سُنن الله الطبيعيَّة في الحصول عليها. وهذا الشرط يُفهَمُ من مُقَابِلِهِ فيما يأتي، علىٰ سُنَّة القرآن في الاحتباك، (كما جاء في المادة الثامنة من المقدمة الثانية)؛ إذ قد جَرَت إرادةُ الله سبحانه ومشيئته بأن تكون النتيجة بنسبة السعي ودرجة إتقانه، فهو ينال منها بمقدار ذلك. ولكنه يُحرَمُ من سعادة الحياة الأخرىٰ إذا لم يَسْعَ لها سعيها، فيناله شقاؤها الرهيب، كما قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ أي: مطروداً من رحمة الله.

ثم ذكر ما يُقابلُه، فقال: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فالإيمان الصحيح بتوحيد الله وتنزيهه أساس في الأعمال الصالحة لا تتم إلا به متىٰ كان خالصاً من كل نوع من أنواع الشرك، حتىٰ من الرياء، فشرط لها شرطين: الإيمان والسعي، فإذا حصلا للطالبين ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ عند الله تعالىٰ. وهذا كنايةٌ عن أنه تعالىٰ يُجازيهم عليه الجزاءَ الأوفىٰ، فينالون ثمرة أعمالهم موفورة.

وتحرير الأمر: أن الله سبحانه خلق الإنسان وقذف به إلىٰ هذه الأرض، وركَّب فيه من المواهب والقوىٰ ما يسيطر به علىٰ قوىٰ الطبيعة واستثمارها، ويهتدي به إلىٰ الكمالات الروحانية واستحصالها، وهداه بعقله وحده إلىٰ الأولىٰ، وبه وبالوحي والرسل إلىٰ الثانية. فهو إن طلب الدين والدنيا معاً حصَّلهما، ووَجَد من قواه ومما يتعلَّمه من الوحي ما يساعده علىٰ ذلك. وإن لم يُرِدْ إلا الدنيا وحدها، بلغ مُناه منها إن اتَّبع السنن

الكوينة فيها، وسار بمقتضاها وموجباتها؛ فمِنَحُ الله معروضةٌ لكلِّ من طلبها، إذا تمسَّك بالأسباب الطبيعية، لا فَـرْقَ في ذلك بين سائر الفِرَق والأصناف، مؤمنين وكافرين، ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ أي: عن كل مَنْ يطلبه بأسبابه وطرقه الصحيحة.

ثم استشهد علىٰ ذلك بما هو واقع جليّ، فقال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الجاه والمال والسَّعة والكمال، وذلك حسب قوة التمسُّك بالأسباب وضعفه، وصحّة ذلك وخطئه، ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ فهي أحقُّ بالطلب وأعظم نَيْلاً للأرب، ولا تُنال إلا بالأسباب والأعمال التي قرَّرتها الشرائع الصحيحة والكتب المنزلة. وبتفاوتها قوةً وضعفاً تتفاوت تلك الدرجات العُلىٰ.

وحاصل المعنىٰ: كما تجد تفاوتَ درجاتِ الدنيا بتفاوتِ مُعَاطاة أسبابها ومُقْتضياتها وحُظوظها من السَّداد والإتقان، فكذلك تَتَفَاوت درجاتُ الآخرة بتفاوت درجاتِ الإيمان والعمل والإحسان، بما جاء في ثنايا هذا القرآن.

وهذه الآية تُمثِّل العدل الإلهيَّ الدقيق في جميع طبقات عباده، لا فرق بين مسلم وكافر، فمن عمل صالحة للدنيا، وكان مصيباً فيها علىٰ الوجه الذي وضعه سبحانه في سنن الكون، وجد ثمرتها. ومن عمل صالحة للأخرىٰ، وكان مصيباً علىٰ الوجه الذي بيَّنه سبحانه في نظامها وأحكامها، انتهىٰ إليها وتمتَّع بثوابها. لذلك ترىٰ من الناس مَنْ يكفر بالله وهو متمتِّع بخيرات الدنيا، مَغْمور في نعيمها، ومنهم من هو مؤمن بالله إيماناً قوياً ولا يكاد يجد قوتَ يومه. كلُّ ذلك أثرٌ من آثار العدل الإلهي، ومن تنظيم أوضاع الدارَيْنِ تنظيماً ثابتاً عادلاً، علىٰ سُنن كونية لا تتغيَّر، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨]، فإنَّ الأول ـ وإن

كفر في عقيدته ـ فقد أحسن في إدارة أعماله الدنيوية وتوجيهها إلىٰ الصواب وإتقان أسلوبها علىٰ حسب السنن الكونية، فأثابه الله تعالىٰ في الدنيا علىٰ قدر اجتهاده. وأما الثاني فإنه وإن آمن بالله حتىٰ وصل إلىٰ مرتبة الصدِّيقين، إلا أنه أهمل إتقان عمله في أمور الدنيا وتوجيهه نحو السنن الكونية، فلا يَجْني من وراء ذلك إلا العدم والفاقة.

فهذا العدل الإلهيُّ سارٍ بين الأمم في مجموعها، كما هو سارٍ بين الأشخاص علىٰ انفرادها؛ فإنَّ الأمة الكافرة ـ إنْ جدَّت واجتهدت ونَهَجَت نهجَ النظام والاعتدال في أمورها الدنيوية ـ وَصَلت من الرفعة والسُّؤْدد إلىٰ أعلىٰ مقام، ولا يمنعها الله بسبب كفرها أن تسود علىٰ أمة مؤمنة إذا كانت لا تساويها في النظام والعمل بالسنن الكونية، كما قال تعالىٰ للمؤمنين: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ۖ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى

حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾.

وبعد أن ذكر أنَّ الآخرة أكبرُ درجاتٍ وأكبرُ تفضيلاً، وأنهىٰ به السياق المتضمِّن للتبشير والإنذار والنعي علىٰ المشركين، بيَّن أهم الأسباب المؤدية إلىٰ نَيْل سعادة الآخرة، وأجملها في عدَّة أصول سُمِّيت بالوصايا العشر، وابتدأها بهذا التحذير لأنه أساسُها، فقال: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ بتسليط الخرافات علىٰ وهمك، وصَيْرورتك أسيراً لها. ومَنْ أحقُّ بالذم ممَّن دنَّس بصيرته بالضلال، فأصبح لا يُبصر الحقَّ والهدىٰ والكمال! وأيُّ خذلانٍ يؤدِّي إلىٰ الشقاء الدائم والحياة المريرة لمن يعتمد علىٰ الأوهام والخيالات والوسائط من الأحياء والأموات.

ثم استأنف الكلام وقَرَن بالدعوة إلىٰ التوحيد ما أراد أن يرفع من شأنه، وهو الإحسان بالوالدين، فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أي: حكمَ حكماً قاطعاً وأمر أَمْراً مُبْرَماً ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾.

ثم أخذ يُفصِّل صُورةَ الإحسان إليهما، فقال: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾، و﴿إِمَّا﴾ هذه مركبة من (إن) الشرطية و(ما) الزائدة للتأكيد، ولذلك دخل الفعلَ نونُ التوكيد، وجواب الشرط قوله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا

﴿نَنْهَرْهُمَا﴾ أي: لا تقل لهما: أفٍّ، إن ضجَّراك، ولا تَنهَرْهما إن أدَّباك. والمراد: تجريدُ الإحسان إليهما من كلِّ تنغيص وإن قَلَّ، وتخليصُه من كلِّ ما من شأنه أن يُشعِرَ بالتذمُّر من حياتهما عند الكِبَر.

ثم أردف النهي بالأمر بضدِّه تقريراً له، علىٰ سُنة القرآن في ذلك، فقال: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾، وصفة الكرم تستعملها العرب للجَوْدة في كلِّ شيء.

ثم أردف الإحسانَ بالقول بالإحسانِ بالفعل، فقال: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾، وفي هذا التركيب استعارةٌ بديعة، رَمَز فيها إلىٰ ما يفعله الطائر في فراخه الضعيفة عندما يُظلِّلها بجناحه شفقةً عليها وحفظاً لها.

ثم أردف الأمرَ بالإحسان إليهما بالأمر بالدعاء لهما، وضمَّن صيغة الدعاء ما يُذكِّر الولد بما قاساه الوالدان في تربيته من الأتعاب، استفزازاً لشعوره، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾، فقد أمر سبحانه الولد بالإحسان إلىٰ والدَيْه، ولا سيما عندما يَصِلان إلىٰ درجةٍ من العَجْز والضعف، بحيث يُصبحُ أحدهما ثقيلاً علىٰ نفسه وغيره، وأمر الولد بأن يَتبَعَ معهما خمسة أمور: أن لا يتأفَّف مما يَثْقُلُ عليه منهما، وأن لا يُنغِّصهما بكلام يثقلُ عليهما، وأن يخاطبهما بلطف واحترام، وأن يعطف عليهما عطْفَ الطائر علىٰ فراخه، وأن يدعو الله أن يرحمهما مقابلَ تربيتهما له وإحسانهما عليه.

وقد جاء في الحديث: «كلُّ الذنوب يُؤخِّر الله منها ما شاء إلىٰ يوم القيامة، إلا عقوق الوالدين، فإن الله يُعجِّله في الحياة قبل الممات»[1].

ثم أردف هذه الوصية بما يحمل علىٰ إنجازها بأكمل الصُّور، فأتىٰ بمعنىٰ عامٍّ يشملُها وغيرَها، علىٰ نَهْج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾،

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤: ١٧٢) وقال: صحيح الإسناد. وتعقَّبه الذهبي فضعَّفه.

فكان هذا تحذيراً من أن يُضْمِرَ لهما كراهةً واستثقالاً، لأن الأمر مظنَّة ذلك، ثمَّ رشح التحذير بقوله: ﴿إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ﴾ أي: في نيَّاتكم وأعمالكم، ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾ أي: يغفر للمُنيبين إليه والتائبين ما يصدر عنهم من الهفوات. والتوَّابون: هم الراجعون إلىٰ الله من دون شرك ورياء.

ثم ذكر الأمر الثالث من هذه الوصايا التي هي من الأسباب المؤدية إلىٰ نَيْل السعادة، وهو الأمر بالإحسان لذوي القربىٰ والمساكين وابن السبيل، واستَتْبَعَ ذلك بالنهي عن التبذير، ليشملَ هذا وغيره من الصَّرف، فقال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ من حُسْن المعاشرة وصِلَةِ الرَّحِم والبِرِّ بهم. وفي قوله: ﴿حَقَّهُۥ﴾ إيذانٌ بوجوب ذلك، وتقريرٌ له، وهو مرعيٌّ في قوله: ﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾ أي: الفقير المُعْدَم، ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: المنقطع في السفر، بحيث يتعذَّر عليه الوصول إلىٰ أهله. ويتناول اللفظ بعمومه المتشرِّدين في الطرقات، وفي وصفهم بأبناء السبيل زيادةُ استفزازٍ وإشعارٌ بوجوب العطف عليهم والرحمة لهم.

ثم أتبع ذلك بقاعدة النهي عن التبذير مطلقاً ليشمل هذا الإيتاء وغيره، وليتمكَّن من الصَّرف في هذا وغيرِه من وجوه البر، فقال: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾، وهذا المصدر للتأكيد والتقرير للحكم. والتبذير: الصَّرْفُ لا علىٰ وجه معقول ومقبول. ثم علَّل هذا النهي بما ينفِّر منه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾، وفي هذا إشارة إلىٰ أنَّ التبذير ناشئٌ عن غَواية وضلال.

ثم تمَّم التعليل وزاده تنفيراً بقوله: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ أي: مبالغاً في كفران نعمته، وكذلك أخوه المبذِّر، حيث صرف ما أعطاه سبحانه ورزقه إيَّاه، في غير محلِّه أو زائداً عن حاجته، ولم يدَّخره ليوم بُؤْسه، أو يدفعه إلىٰ مسكين أو فقير. وعَدَّىٰ ﴿كَفُورًا﴾ باللام لتضمُّنه معنىٰ المعارضة.

ثم علَّمنا سبحانه وتعالىٰ كيف نصرف المساكين وغيرهم ممن أمرنا بالإحسان إليهم، إذا لم يكن في أيدينا ما نُحسن به عليهم، ونرجو أن نحصل عليه بعد حين، فقال: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أي: إنْ أردتَ أن تصرف عنك مُبْتغي الخير حتىٰ يتيسَّر في يديك ما تعطيهم في مواسم اليُسْرُ، كالحصاد والقطاف وغير ذلك مثلاً، ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ أي: فيه يُسْرٌ ولين. فعلَّمنا سبحانه أن نصرفهم بالحُسْنىٰ، أي: أن نصرفهم علىٰ اليُسْر ورحمة الله. ولا يخفىٰ ما في قوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ من الترجية والتأميل من الله سبحانه لهذا الـمُعْسِر المسؤول، ومن استفزاز الشعور نحو الإعطاء.

ثم نهانا عن البخل بعد أن نهانا عن التبذير لأنهما رذيلتان، وعلَّمنا الاعتدال في الصَّرْف مُطلقاً ـ حتىٰ في وجوه البرِّ والإحسان ـ بهذا التمثيل البديع، فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾، فهما تمثيلان لمنع الشحيح وإسراف المبذِّر؛ زَجْراً لهما عن هذا التطرُّف، وحَمْلاً علىٰ ما بين الأمرين من الاقتصاد وحُسْن التصرف الذي هو الفضيلة.

ثم أتىٰ بما هو كالتعليل للنهي عن كلِّ البسط، فبيَّن ما ينبعث عنه من الأضرار الفادحة والآلام النفسية، وقال: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ أي: متحسِّراً في نفسك ومُلاماً علىٰ ما فعلتَ بها وجَنَيتَ عليها.

ثم تابع السياق بالحثِّ علىٰ الإنفاق، اعتماداً علىٰ الله، وضمَّنه تعليلاً للمفاضلة في الرزق وتهويناً علىٰ الـمُقِلّ، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ ممَّن تـمسَّك بأسباب البسط، ﴿وَيَقْدِرُ﴾[1] لمن يشاء ممَّن أهمل الأسباب أو قَـصَّر فيها، أي: يُوسِّعه

(١) إن الله سبحانه لم يجعل نظام رزق الإنسان كنظام رزق الحيوان فردياً في السعي والحصول عليه، =

ويُضيِّقه بمقتضىٰ النظام الموضوع بحَسَب الحكمة علىٰ السَّعي ونوعه وقوته وضعفه ودرجة إتقانه. وكلمة ﴿يَقْدِرُ﴾ تتضمَّن التقليل مع التَّنسيق والتنظيم.

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾، فيعلم من مصالحهم ما يخفىٰ عليهم، ومن ذلك أنْ قَرَن الرزق بهذا النظام المتفاوت ليُسخِّر بعضُهم بعضاً في الأعمال، وأمَرَ الغنيَّ أن يعطف علىٰ الفقير، ويخفِّف أثقاله ومضايقاته بالزكوات والصدقات والمداينات.

وقد جعل هذا التعليل تكميلاً للسابق وتمهيداً للاحق، أي: للأمر الرابع من هذه الوصايا، وهو قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ أي: مَخَافة الفقر وشدة الحاجة.

أقول: ولا يبعد أن تشمل الآية بعمومها ودلالتها ما يفعله بعض الناس مِنْ مَنْعِ الحَبَلِ أو إفساده احتراساً عن كثرة العيال، ولا أقلّ من أن نقصره علىٰ الإلقاء.

وقد علَّل النهي بقوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾[1]، فعلَّل النهي بإبطال مُوجب

= بل جعل نظام رزق الإنسان اجتماعياً لا يتم إلا بتعاون الأفراد. أما اختصاص كل واحد بمهنة من تلك الحاجيات فمبنيٌّ على الميل والعزم ونوع التثقيف وغير ذلك من خصائصه المكتسبة، وهذا النظام يجعل التفاضل في الرزق أمراً طبيعياً؛ إذ يكون فيهم التاجر والزارع والعامل والصانع على اختلاف في المراتب، ومنهم الغني والفقير والمأمور والأمير والجليل والحقير، نتيجةً لميل الإنسان وسَعْيه ومقدار نشاطه وعزمه. فإسناد التفضيل إلى الله سبحانه باعتبار هذا النظام لا بالقَسْر، والقَصْد، لأن الله سبحانه خلق الإنسان مختاراً في تصرُّفاته مسلَّطاً على إرادته، يتصرَّف في شؤونه كيف يشاء. هذا ما أراه، والله أعلم. (المؤلف).

قلت: لكن قوله: «لا بالقسر والقصد» فيه نظر، أما القَسْر فنفيُه مُسلَّم، وأما القَصْد فلا، إذ ما من شيء في الوجود إلا وهو واقع بإرادة الله تعالى، وكونه مبنياً على أسباب وسنن لا ينافي ذلك.

(١) إنما قال هنا: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾، وقال في سورة الأنعام: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]؛ لمطابقة كُلٍّ منهما لسياقه، فقد أراد هنا الفقر المتوقع في المستقبل، حيث قال: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ =

المنهيِّ عنه، ودفع ذلك الهاجس. وقوله: ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ فيه توضيح للأمر واستشهاد بالحاضر، أي: كما زرقناكم نرزقهم.

ثم علَّله من وجه آخر، وهو بيان عظم إثمه وضرره، فقال: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ وأيُّ خِطْءٍ أعظمُ وأفظعُ من قتل الإنسان وَلَدَه وفَلِذةَ كبده! فَضْلاً عما فيه من تقليل النَّسْل المُضِرِّ بمصالح الأمم وقوتها.

ثم ذكر الأمر الخامس من هذه الوصايا، فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾، وعلَّل النهيَ بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ أي: لِما له من النتائج الوخيمة والعواقب الأليمة في الزاني والمزنيِّ بها والولد والعيال والأقارب والعشيرة، من حطة وسَفَال وفظائع ومصائب طوال؛ إذ ينشأ عنه من التعاسة الصحية والأخلاقية والاجتماعية ومصير هذا الولد الذي لا ذنب له سوىٰ ما جَنَتْه عليه الشهوة البهيمية الأثيمة ما يعجز القلم عن بيانه. وقد أجمل ذلك كلَّه بهذه الجملة القصيرة، علىٰ أسلوب إيجاز القرآن، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾. والفاحشةُ: هي الفعلة المتناهية في القُبح المادي والمعنوي.

ولا يخفىٰ ما في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟﴾ من التخييل البديع؛ حيث خيَّله بالشيء المُخيف وبالشرس المفترس، تنفيراً منه وتَبْعيداً عنه، لما فيه من الأضرار التي لا حدَّ لها ولا نهاية. وذلك فوق ما في النهي عن القرب من النهي عن دواعيه؛ من ذرائعه ووسائله، كالنظرة والمزاح والغَزَل والكلام غير المباح.

= فأومأ إلىٰ أنَّ هؤلاء الأولاد ربما يكونون حينئذ كاسبين لكم، أما في سورة الأنعام فقد أراد الفقر الواقع والأولاد صغار، حيث قال: ﴿مِّنْ إِمْلَـٰقٍ﴾ فقدَّم في كلٍّ من السياقين ضمان رزق الكاسب بالذات وغيره بالتبع، إيماء إلىٰ أن الله سبحانه قد جعل كسب العباد سبباً لحصول الرزق. (المؤلف).

ثم ذكر الأمر السادس من هذه الوصايا المُفْضية إلىٰ تنظيم أحوال الاجتماع، وإلىٰ السعادة فيها، فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾، وفي هذا القيد مبالغة في النهي استثنىٰ منه قوله: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: بارتكاب ما يُبيحُ الدم، كالبغي والعدوان، وبما ثَبَتَ عنه ﷺ: «لا يحِلُّ دمُ امرئ مسلم إلا بإحدىٰ ثلاث: كفر بعد إيمان، وزنىٰ بعد إحصان، وقتل نفس بغير نفس»[1]. ولا فرق في أن يقتل نفسه أو نفس غيره.

ثم بيَّن إحدىٰ صُور القتل بالحق، فقال: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا﴾، وفي هذا القيد إيماءٌ لعلَّة السلطان المقرّر بقوله: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ علىٰ هذا القاتل، أي: أذِنَ الله بقتله قَطْعاً لدابر العدوان. ثم حدَّد هذا السلطان وقَصَره علىٰ القاتل دون أفراد عشيرته أو قبيلته، كما كانوا يفعلون في الجاهلية، فقال: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ﴾، وهذا السلطان إنما هو بطلب إجراء القتل من الحاكم، لا بمباشرته القتل بنفسه، لأنه ﷺ هو الذي كان يُجْرِي المحاكمة في القصاص ويقرِّر الحكم، ثم يدفع القاتل إلىٰ وليِّ المقتول ليقتله أو يعفو عنه إن شاء.

ثم علَّل النَّهيَ بما يتضمَّن الصبر والأناة، وحضَّ أولي الأمر علىٰ مُناصَرة هذا الولي، ليكفَّ عن الإسراف المتأتِّي عادةً من مباشرة القتل بنفسه أو بأحد أفراد عشيرته، علىٰ دَيْدَنهم في الجاهلية، فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾، ولفظة ﴿كَانَ﴾ هذه لتقرير

---

(١) رواه أبو داود (٤٥٠٢)، والشافعي في «مسنده» (٧٩٦). وصحَّحه ابن المُلقِّن في «البدر المنير» (٨: ٣٤٤)، عن عثمان بن عفان.

وأصل الحديث متفق عليه؛ رواه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦) عن ابن مسعود بلفظ: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدىٰ ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

الحكم وتأييده. والمعنىٰ: فقد تقرَّر علىٰ أُولي الأمر مُناصَرَتُه علىٰ حقِّه بالعدل والتعقل، فلا يرتكب الفوضىٰ والإخلال بالنظام.

ثم ذكر الأمر السابع، فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: بالطريقة التي هي أحسَنُ الطرق في تنميته واستثماره، وفي الصَّرف علىٰ ما تحتاجه مصلحته في تربيته تربية فاضلة، إلىٰ غير ذلك من الصُّور الحُسْنىٰ التي تدخل تحت قوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾؛ إذ هي عبارةٌ واسعةُ المدلول، علىٰ طريقة بلاغة القرآن، تشمل كل مصلحة رائدها الإخلاص، وباعثها فائدة اليتيم بغايتها وثمرتها الشريفة، وتختلف صور ذلك باختلاف العصور والظروف والبيئات.

وقد جعلت الآية غاية لحجز أموال اليتامىٰ يُنتَهَىٰ إليها، وهي قوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ جَمْع شِدَّة، مثل: «أَنْعُم» جمع نعمة، أي: حتىٰ يبلغ مبلغ الرجال، ويتمكَّن أن يتصرَّف بأمواله تصرُّفاً حسناً ينمِّيها ويستثمرها ويحفظها من عَبَث العابثين وخديعة الخادعين. وقد جاء في الحديث: «لا يُتْم بعد بلوغ»[1].

ثم ذكر الأمر الثامن، وهو الوفاء بالعهد، فقال: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ وهو يشمل العهدَ ما بين العبد وربِّه، وما بينه وبين غيره. وأحكامُ الله كلُّها عهود. ثم قرَّر ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ عنه، وهذا يدل علىٰ عظيم الاهتمام بالعهد، وأنَّ الله سبحانه شاهِدٌ ومُحاسِبٌ عليه أشدَّ الحساب. ولا شكَّ أن المحافظة علىٰ العهود من أكبر المصالح الاجتماعية، والعبث بها من أضرِّ المفاسد العمرانية، وعليها مدار الثقة بين الدول والأفراد.

ثم ذكر الأمر التاسع، وهو صدق المعاملة في البيع والشراء، وإتقان الأعمال في

---

(١) رواه أبو داود (٢٨٧٣) من حديث علي كرم الله وجهه، بلفظ: «لا يُتْم بعد احتلام».

الحِرَفِ والصناعات، فقال: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ فخصَّ الكيل بالذكر لأنه أساس المبايعات. ثم عطف عليه ملاك المعاملات كلها والصناعات بأسرها، فقال: ﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ وهو العدل السويّ في كلِّ أمر، والإتقان السَّديد في كلِّ شيء، فالصانع يتقن صناعته، والموظف معاملته، والزارع يركز زراعته، والحاكم حكمه، والعالم علمه، والطبيب طبه، والقائد تعبئته، والجندي مقاتلته، والمسلم عقيدته، والعابد عبادته، والمُفكِّر فكرته، فيزنها بالقسطاس المستقيم لتكون رصينةَ الصُّنع دقيقةَ التنظيم، صحيحةَ التنسيق، مستوفيةً الكمال، بديعةَ الجمال والجلال. وفي ذلك صلاحُ المجتمع ورُقِيُّهُ مادياً ومعنوياً. وهو معنىٰ قوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾ أي: مآلاً وعاقبةً؛ إذ يجعل العيش في الدنيا رغيداً، والخلود في الآخرة سعيداً.

ومثل هذه الآية قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]. ويجوز أن يُراد بالميزان في هذه الآية الأخيرة: تطبيق تعاليم الكتاب الدينية والدنيوية، علىٰ أعمال الإنسان وأقواله تطبيقاً سديداً، والله أعلم.

ثم ذكر الأمر العاشر، فنهانا عن الزيغ والضلال، والظنون والخيال، فقال: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ أي: لا تَتْبع ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ تقليداً أعمىٰ، أو رَجْماً بالغيب، أو وهماً بالخيال، ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ أي: يُسأل صاحبه عن أفعاله. فالله سبحانه ينهانا أن نسيء التصرُّف بهذه المواهب فنفسدها حتىٰ تنبعث وراء الظنون والأوهام، ثم نمشي علىٰ ضلالها، ونسير في ظلامها؛ في العقيدة والديانات والأعمال والمعاملات. وإذا تدبَّرنا فيما يحدث في هذه الحياة مما يضرُّ الإنسان والإنسانية وجدناه كلَّه يرجع لذلك.

وهذه الآية جمعت طرق التحسُّس والاستدلال كلها: السمعيات، والمحسوسات، والعقليات.

ثم نهانا عن الزهو والتكبر والاختيال، فقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: مختالاً زاهياً، وهو حال ينبعث عن الإخلال بغريزة حبِّ الكمال، وفسادها بالتربية السيئة والتوجيه الرديء، فيتولَّد منها الشعور بالترفُّع والعَظَمة واحتقار الغير، وهو أمر مُضِرٌّ بالاجتماع ضرراً فادحاً.

ثم علَّل النهي بهذا التعليل الساخر، فقال: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ يتندَّر عليه. ومفاده: إنك لن تترك في الأرض خرقاً بخَطْوِك، ولن تبلغ الجبال طولاً بزهوك، ومهما بلغت من العَظَمة والسلطان فلستَ بشيءٍ في جانب هذه المخلوقات الكونية، وكلها ذالة متواضعة دائبة فيما خلقها الله عليه، لا تُفسِدُ طبيعتها، ولا تغيِّر نظامها، فما بالك أيها الإنسان لست كذلك!

ثم ختم هذه الوصايا بقوله: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ وهو المنهيَّات مما سبق وأضداد الأوامر منه؛ كانت ﴿عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ فلا يرضاها لنا، ويعاقب عليها عقاباً وبيلاً.

وهذه الآيات هي الوصايا العشر التي هي جُلُّ ما في بقية الكتب السماوية. وقد أجملها القرآن بهذه الآيات، فجاءت قطرةً من بحره الزاخر، وقد جاءت تارةً بصورة النهي، وتارةً بصُورة الأمر بالمقابل. والأول: لما كان مناطُ الخير فيه تَرْكَ المحرمات، والثاني: لما كان مناطُ الخير فيه فِعْلَ ما يقابل المحرم. وقد أراد الله سبحانه لهذا الإنسان أن يَسْمُوَ بإنسانيته إلىٰ أعلىٰ عليِّين، ولكنه ارتدَّ وانحطَّ إلىٰ أسفل سافلين.

وهذه الوصايا العظيمةُ الشأن الجليلةُ الأثر تصلح وحدها أن تكون نظاماً اجتماعياً من أفضل الأنظمة وأكمل القوانين. لذلك نوَّه سبحانه وتعالىٰ عنها بقوله:

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِ﴾؛ إذ بها تكون الأخلاق كاملة، والأحوال فاضلة، والتآلف مُتوافراً، والكمال الإنساني زاهراً. ومن وراء ذلك كلُّ السعادة والرفاه ورَغَد العيش والصَّفاء، وفي الآخرة فلاح عظيم.

وقد لفت الخطاب في هذه الآية المنوِّهة بهذه الوصايا إلىٰ النبيِّ ﷺ، ثم عاد إلىٰ الخطاب العام، وختم السياق بما بدأه به، وهو النهيُ عن الإشراك بالله؛ تأكيداً له وتقريراً، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ تعبده أو تصمد إليه أو تتوسَّط به أو تتوكَّل عليه أو تتبع تشريعه وتعليمه وتضليله وتوهيمه، ﴿فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ٣٩﴾ تفقد السعادة الأبدية، وتبقىٰ في شقاء سرمديّ لا يزول ولا يحول، أعاذنا الله، والشرك بضع وسبعون باباً، ومنه الرياء، إنَّ الله لا يقبل عملاً فيه مثقال ذرة من رياء. اللهم إني أعوذ بك من أن أُشرِكَ بك شيئاً وأنا أعلم، وأستغفرك مما لا أعلم.

﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ٤٠ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ٤١ قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ٤٢ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤٣ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤ وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ٤٥ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ٤٦ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ٤٧ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ٤٨﴾.

ثم عاد بالكلام إلىٰ محوره السابق عن المشركين، علىٰ نهج القرآن في العودة ودمج المباحث، ووَصَلَ النَّهيَ عن الإشراك بالتهكُّم بالمشركين في عقيدة من عقائد بعضهم،

وضمَّنه الإبطال، فقال: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾. ثم أتبع التهكُّم بالإنكار والتأنيب والتفظيع، فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ تهتزُّ منه السماوات والأرض وتخرُّ الجبال هداً.

ثم علَّق علىٰ مجموع السياق السابق بما يدلُّ علىٰ عَظَمة شأنه، ويستفز الشعور لما فيه من التبصير والإرشاد والتثقيف والسَّداد، وضمَّنه التقريع للمشركين علىٰ جهلهم والتأنيب علىٰ عنادهم وإعراضهم عنه، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: نوَّعنا الدلائلَ والعِبَرَ والمواعظ والإرشاد وضربنا الأمثال ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ الأمر ويعرفوا الحال ﴿وَ﴾ لكنه ﴿مَا﴾ كان ﴿يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾ عن الحق وبُعداً عن الصواب.

وبعد هذا التقريع والتأنيب، عاد إلىٰ الإبطال التهكُّمي للشرك، فقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ أي: إن كان هؤلاء آلهة فما بقاؤهم بين ظهرانيكم، لِـمَ لا يذهبون إلىٰ ذي العرش العظيم، ما داموا شركاء له، فيكونون معه؟!

ثم قرن الإبطال التهكُّمي بالتنزيه عنه، وقرَّر التوحيد بالتنزيه والبرهان، فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[1] أي: تدلُّ هذه المخلوقات العظيمة البديعة الصنع المحكمة الإتقان علىٰ انفراده سبحانه بالألوهية، وتسبح له وتُنزِّهُه عن الشريك والمثال، وكذلك المؤمنون والملائكة المُقرَّبون وسائر المخلوقات في الأرض والسماوات، ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: بما أودع فيه من كمال النظام وبداعة الصنع والإحكام؛ إذ هو يدلُّ دلالةً واضحةً علىٰ اختصاص

---

(١) هذه الآية تدلُّ علىٰ أنَّ الأشياء كلَّها تعرف ربَّها، وأنه مُتَّصف بالكمال المُطْلق، ومُنزَّه عن النقائص والعيوب، ولذلك فهي تُنزِّهُه عما لا يليق به، وتصفُه بالمحامد والكمالات اللائقة به.

خالقه بالألوهية، ويُنزِّهُه عن الشبيه والنظير بدلالة طبيعته، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1] أيها المشركون، لإخلالكم بالنظر الصحيح، ولعمىٰ البصيرة منكم والمدارك. ومع كلِّ ذلك، لا يُعَجِّل لكم العقوبة، ويُمهلكم لعلَّكم ترجعون عن غيِّكم، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ يُمْهل ويَغْفر لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدىٰ.

وقد بيَّن السبب في عدم اهتدائهم بهذا القرآن علىٰ وضوحه، فقال: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ لا يحبُّون أن يسمعوه لكرههم له وخوفهم منه أن يسحرهم، أعاذنا الله. وهذا الجَعْلُ إنَّما هو بسُنَّة الله العامة في أخلاق البشر وطباعهم، وهي أنَّ مَنْ رَسَخَت فيه مَلَكَة من دين أو عادة أو عقيدة إذا وَصَل إليه شيء مما يخالفها لا يتدبَّره ولا يراه جديراً بالنظر والتفكير. لذلك كان هؤلاء المشركون لا يتبصَّرون القرآن ولا يتدبرونه.

ومن مباحث اللفظ: أنَّ اسم المفعول هنا استُعمِلَ بَدَلَ صيغة اسم الفاعل، مبالغةً في مدلوله، علىٰ طريقة المجاز العقلي.

---

(١) هذه الآية تخبر عن تسبيح الأشياء وحمدها علىٰ وجه الحقيقة، عن معرفةٍ به سبحانه، وعن نطق صادر عنها، وتُثبت أن ذلك حق وحقيقة، وتنفي تأويلها بغير ذلك، أو أن ذلك من باب المجاز، أو من باب دلالة الحال دون المقال. فيقول سبحانه: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي: ولكن لا تفقهون تسبيحها وحمدها، لأنها ليست من جنسكم، فقد تسمعون صوتها، ولكن لا تفهمون معنىٰ ذلك، كأصوات الطيور ونحوها. وربما لا تسمعون ولا تفقهون كتسبيح النبات والجماد ونحوها. فلو لم يكن تسبيح الأشياء حقيقياً واعتقاداً وقولاً لَـمَا احتاج الأمر إلىٰ هذا الاستدراك، فإنه لو كان تسبيحها وتحميدها من باب دلالة المخلوق علىٰ الخالق، لما قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾. ويُنظَرُ ما كتبه شيخنا العلامة المفسِّر عبد الله سراج الدين في أنَّ العوالم كلَّها بأصنافها تعرف خالقها فتسبحه وتحمده وتسجد له حقيقة علىٰ كيفية مناسبة لخلقها في كتابه «هدي القرآن إلىٰ معرفة العوالم والتفكر في الأكوان» ص ٣٢٨-٣٥٣.

ثم تابع المعنىٰ بقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾، والأكنّة: الأغطية، والوقر: الصمم. استُعيرا للإعراض وعدم الإصغاء الناتج عن تشبُّعهم بالكفر والعناد.

ثم زاد في البيان توضيحاً وتفضيحاً بقوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ أي: مُوَحِّداً إياه في الألوهية، ومقرِّراً ما هو الحق له سبحانه، ﴿وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ كأنهم حُمُر مُسْتَنفِرة، فرَّت من قسورة. وهذا تصويرٌ بديعٌ للإعراض والعناد، والجهالة العمياء.

ولما كان بعض المنافقين منهم يحضرون مجلسه ﷺ، بيَّن تعالىٰ أنَّ حضورهم هذا ليس للفهم والدراية، وإنما هو للتضليل والزراية، فقال: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ ﴾ أي: بما يستمعون بسببه، ﴿ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ أي: نحن أعلم بغرضهم من هذا الاستماع، ﴿وَ﴾ نحن أعلم بهم ﴿ إِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ ﴾ أي: متناجون بما بيَّنه سبحانه بقوله: ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾ أي: معطىٰ قوَّةَ السِّحْر، يخدع بها الناس.

ثم عجَّبه من غَوايتهم وجهالتهم، فقال: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ ﴾ حيث مثَّلوك بما يدلُّ علىٰ سَخَافتهم، أو تعمُّدهم السيِّئ مما هو ظاهر البطلان، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾ أي: لتشويه أمرك مهما حاولوا واختلقوا وتقوَّلوا، لأنَّ تلك السَّخَافات التي يَصِمُونك بها لا تنطلي حتىٰ علىٰ الأغبياء.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ

﴿ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾.

وبعد أن ذكر شُبَههم السخيفة في الإلهيات وأبطلها عليهم، وفي النبوات كذلك، ذكر ما كان منها في البعث والمعاد، فقال: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ وهو ما بُولغ في تفتيته ودقِّه. وقال الفرَّاء: هو التراب، أي: بعد أن نكون كذلك، ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾؟ يستبعدون ذلك وينكرونه.

فأجابهم بجوابٍ صِيغَ نَظْمُه علىٰ الاستهانة بالأمر والاستخفاف به مهما كان حاله، فقال: ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ عن قبول الحياة، فإنَّ قدرة الله تعالىٰ لا تعجز عن تَسْويتكم وإحيائكم.

فالآية تَرُدُّ عليهم إنكارَهم إعادةَ العظام الرفات، بما معناه: أنْ لا فَرْقَ بين أن تكونوا رفاتاً أو حجارة أو حديداً أو أيَّ شيء يَكْبُرُ في صدوركم، إذ ليس من هذا ولا هذا يخلق، فلا يعيقُ الإعادةَ أن تبلىٰ عظامكم أو تقوىٰ علىٰ البقاء، إذ لا دخل لذلك في الإعادة، وإنما هي من نواة الحياة الأولىٰ، الكائنة في عجب الذنب كما جاء في الحديث[1]، وهو مِن مادة لا تتفتَّت ولا تفنىٰ أين ما كانت وتكون علىٰ وجه الأرض، بعد أن تكون كتلة ترابية بالاصطدام، ثم يُنزِلُ الله عليها مطراً، فتربو تحت التراب، حتىٰ تتم خلقتهم، ثم تَشَقَّقُ الأرض عنهم سراعاً، كما جاء في القرآن والحديث. والله أعلم.

---

(١) سلف تخريجه ص٤٢٨.

وقد أخرج الجواب مخرج أمر التعجيز، لأنه أبلغ في الإلزام، ثم حكىٰ سبحانه استهزاءهم بهذا الجواب، وقال: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ بعد أن نكون كذلك؟ ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ مما تعلمون، حيث خلق آدم وحوَّاء من تراب، وهو مادة ليس بينها وبين شكلكم هذا شَبَهٌ ولا مقاربة. وهذا جوابٌ مُسْكِت، وبرهان قويّ متين لو كانوا يعقلون.

ثم قال في إتمام البيان عنهم: ﴿فَسَيُنغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي: يُحرِّكونها تحريكَ المتعجِّب المستهزئ، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾؟ يقولون هذا القول زيادةً في الاستهزاء، ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾ ذلك ﴿قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾.

ثم أعلمهم بأنَّ ذلك سيكون عندما تشاهدونه واقعاً بكم، فتَبْهتون وتَنْدمون، وتَسْتقصرون مدَّة الحياة الدنيا التي غرَّتكم بهذا الغرور، فقال: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: بما يدلكم من واقع بعثكم بعد الموت، علىٰ حَمْده سبحانه ومَجْده وعظيم صُنعه وقدرته، ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ أي: وإنكم حينئذ لتستقصرون مدَّة لبثكم في الدنيا التي بعتموها بمديدِ الآخرة. ويجوز أن يُراد اللبث بين الموت والحياة الثانية: تلك المدة المسمَّاة بحياة البرزخ. تُرَىٰ ـ والله أعلم ـ قصيرةً كما تُؤْذِنُ بقِصَرها قصَّةُ المارِّ علىٰ القرية[1]، وقصَّة أصحاب الكهف والرقيم. والله أعلم.

ثم أمر المؤمنين أن يجاملوهم بالكلام، لأنه أدعىٰ إلىٰ تخفيض عنادهم، فقال: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾ وهذا العنوان للمؤمنين تشريفٌ لهم وتعزيز، أي: قل للمؤمنين: ﴿يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[2] ولا يُخاشِنُوا في المجادَلة، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي:

---

(١) يعني: الواردة في الآية ٢٥٩ من سورة البقرة.

(٢) الكلام الحسن مصدرٌ عظيم للنجاح. والمجتمع الذي يسود فيه يكون راقياً هادئاً مريحاً، لأن =

يُهيِّج فيهم المراء والشر، والمخاشنةُ معهم تُفضي إلىٰ العناد وازدياد الفساد، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ أي: بارز العداوة. ومحصَّل الآية: الأمر للمؤمنين بأن يكون كلامهم مع المشركين حول الإيمان والدعوة إليه باللطف واللين والصُّورة الحُسْنىٰ، لأنَّ ذلك أجْلَبُ لقلوبهم وأمْيَلُ لطِباعهم، إذ لا يكون معها مجالٌ للأَنَفَة والنَّخْوة والجاهلية. ويجوز أن يكون قاعدة عامة، وتشمل ما قبلها علىٰ أسلوب القرآن في مثل ذلك، بأن يلينوا في كل قول.

ثم لقَّنهم الصُّورة الحُسْنىٰ التي يجب أن يقولوها لهم، وهي: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ أي: بالتوبة والإقلاع عن الشرك، ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾[1] أي: بالإصرار علىٰ الكفر والبقاء عليه. فقد قال أكثر المُفسِّرين: إنَّ هذه الآية بيانٌ للتي

= كثيراً من المشاكل تنشأ من رديء السلوك ودنيء الكلام. لذلك جعله القرآن من جملة ما دعا إليه من الفضائل الاجتماعية والمعالي الأخلاقية، وجاء في سورة البقرة: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]. ويسمَّىٰ هذا في اللغة: اللباقة، وهي أن تغلب خصمك وتقنعه دون أن تُغضبه وتؤذيه.

ويجوز أن يراد بكلمة ﴿عِبَادِى﴾ العموم، ويكون الكلام للتوجيه بعد النقد والتأنيب، ولدعوتهم عموماً إلىٰ الدين ـ بما فيهم المشركون ـ بعد أن تهيَّأت نفوسُهم بما تقدم من النقد والبيان. (المؤلف).

(١) مشيئته تعالىٰ لا تجري جزافاً واعتباطاً، فهو لا يثيب العاصي ولا يعذب الطائع، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. ولكن مشيئته أزلية جارية بالحق والعدل، ضمن سنن مطَّردة لا تتبدَّل، فقد سبقت مشيئته سبحانه بأن ألهم كلَّ نفس هُداها، وميَّز لها فجورها وتقواها، فكان ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]. والله أعلم. (المؤلف).

هي أحسن، وما بينهما اعتراض. والمعنىٰ: قولوا لهم هذه الكلمة، أو ما يُشَاكِلُها، ولا تُصرِّحوا لهم بأنهم من أهل النار، فإنَّ ذلك يُهيِّجهم علىٰ الشرِّ، مع أنَّ العاقبة مما لا يعلمه إلا الله سبحانه، فعسىٰ أن يهديهم إلىٰ الإيمان.

وفي الآية وجهٌ آخر: وهو أنَّ المراد من العباد: الكفار، أو عموم الناس بما فيهم الكفار، ويكون هذا العنوان للتلطيف والتأليف، وعموم الناس أَوْلىٰ بالسياق.

وكلمة: ﴿أَحْسَنُ﴾ ليست من باب التفضيل، وإنما هي للمبالغة في الحُسْن، أي: ادعُهم إلىٰ الكلمة الحُسْنىٰ، وهي التوحيد، وأعلِمْهم أنَّ الحامل لهم علىٰ الشِّرك إنما هو الشيطان، وقل لهم: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ...﴾. ومُحصَّل المعنىٰ: ربُّكم أعلم بكم ويُجازيكم بحَسَب أعمالكم، وقد أفصح عن هذا المعنىٰ بقوله: ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ لإفادة أنَّ تلك المجازاة بحسب ما شاءه الله سبحانه، وهو رحمة المؤمن المطيع، وتعذيب الكافر المسيء، ولا مُبدِّل لكلماته، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ويجوزُ أن تكون الآية تهويناً للمؤمنين عن شرك المشركين. ومُحصَّل المعنىٰ: أن الله سبحانه يعلم من انطبع علىٰ الشِّرك فلا يؤمن، ومن بقي فيه شيء من نور الفطرة فيميل للإيمان، ولذلك سَلَّىٰ النبيَّ ﷺ عن حُزنه لعدم إيمانهم بتذكيره بحدود الرسالة، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾ أي: موكولاً إليك أمورهم، تَقْسُرهم علىٰ الإيمان، وإنما أرسلناك بشيراً ونذيراً، فاشتغل بالدعوة، ولا عليك إن لم يؤمنوا، واؤمُر أصحابك بمداراتهم وملاينتهم.

ثم ردَّ عليهم اعتقادهم بأنه لو كان مَلِكاً مثل داود عليه السلام، فقال: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فيختار منهم لنبوَّته من يشاء ممَّن يصلح له، و﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ثم ألمع سبحانه إلىٰ عِظَم هذا القرآن وتشريعه وفَضْل مَنْ جاء به، فقال: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بالفضائل النفسانيَّة والكتب السماويَّة، لا بالملك والزخارف، وقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم، ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ يناجي به ربه، وبهذا كُـرِّم داود، لا بما آتيناه من نِعَم الدنيا وخيراتها. يردُّ سبحانه وتعالىٰ بهذا الإلماع علىٰ من أنكر من المشركين علىٰ النبيِّ ﷺ كونه لم يكن مثل داود عليه السلام في الملك وكثرة المال.

ويجوز أن يكون تفاضل النبيين بنزول الكتب عليهم وعدمه، فالذي نزل عليه كتاب يكون أفضل من الذي لم ينزل عليه كتاب. وكذلك يكون بتفاضل الكتب المنزلة، فمن كان كتابه أفضل يكون أفضل، وتفاضل الكتب يكون بكثرة ما فيها من الأحكام والتوجيهات وقلّتها، وبكونها موقَّتة، وبمدَّة بقائها، أو دائمة إلىٰ الأبد.

وفي قوله: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ إيماءٌ إلىٰ أنَّ بعض الكتب خالية من الأحكام، وإنما هي أذكار ومناجاة لمجرَّد القراءة والتسبيح. وعليه، فيكون القرآن العظيم أفضل الكتب السماوية، ومحمد ﷺ أفضل الأنبياء، والله أعلم؛ وذلك لكون شريعته دائمة إلىٰ انتهاء هذا العالم، فيها كل ما يحتاجه من أحكام بصورة قواعد كلية عامة.

ثم أمره أن يتحدَّاهم في آلهتهم، هل تكشف عنهم ضراً أو تُحوِّل عنهم فقراً؟ فقال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أنهم آلهة ﴿مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾.

ثم زاد في الإلزام والإبطال ببيان أنَّ هؤلاء الذين يعدُّونهم آلهه ـ كالمسيح وغيره ـ يفتقرون إلىٰ الله ويلتجئـون إليه، ويتقرَّبون، يرجون رحمته، ويخافون عذابَه، فكيف يكونون شركاء له تعالىٰ؟! بيَّن ذلك فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ من دون الله إنما هم

أناسٌ ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ إليه تعالىٰ بالطاعة والعبادة ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾.

ثم وصل الكلام بهذه الفاصلة الرهيبة فقال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾، أعاذنا الله.

وذكروا في الآية وجهاً آخر، وهو أن لفظ ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ يعود إلىٰ النبيِّين. وبيَّن عنهم هذا البيان تحذيراً من عبادتهم مع الله والإعراض عنهم حثاً للاقتداء بهم.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾.

ثم أردف تَبْكيتَ المشركين وإلزامَهم بتهديدهم، وتوعّدهم بما يتضمَّن تحقيق ما يستهزئون به من الوعيد، فقال: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾ استحقَّت عذابَ الاستئصال ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: مُعذِّبوها في الدنيا قبل عذاب الأخرىٰ. وهذا تقرير لما يستعجلون به من العذاب، أي: إلا نحن مُسْتَأصلوها عن آخرها، ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ ببليَّة دون الاستئصال، ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾ أي: هو من سُنن الله الكونيَّة في خَلْقه، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

ثم أجاب عن تحدِّيهم في طلب الآيات المعجزة وعدم إجابته لهم ما طلبوا، فقال: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ﴾ التي طلبوها ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ ولم يؤمنوا بعد أن جاءتهم، فشأن أولاء كشأن أولئك، وحينئذ يستحقون عذاب الاستئصال

بمقتضىٰ سنة الله. واستشهد علىٰ ذلك بتاريخ ثمود فقال: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ أي: بيِّنةً ذات بصائر وأبصار، لا تقبل الشك والإنكار، ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ وقد ضمَّن كلمة ﴿ظَلَمُوا۟﴾ معنىٰ: كفروا، فعدَّاها بالباء لتفيد المعنيين معاً، علىٰ نهج القرآن في ذلك. أي: كفروا بها وظلموا أنفسهم فاستأصلناهم بالعذاب، ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ المقترحة ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ لـمن أُرسِلَت إليهم، وإنذاراً بنزول العذاب الـمُستأصِل لهم إن لم يؤمنوا.

ثم استشهد علىٰ قوله: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾ بما يُلمِعُ إلىٰ ما جرىٰ علىٰ كفار قريش في وقعة بدر، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ حين أراه مَصَارع القوم ببدر في الرؤيا التي رآها قبيل الوقعة[1]، علىٰ أنه يجوز أن يكون بوحيٍ من الله أوحىٰ به إليه.

ثم ذكر أمرين من الأمور التي كانت فتنةً للمشركين، وباعثاً للطعن في نبوَّته، يماثل بهما ما فتنهم به في رفض طلبهم للآيات.

الأمر الأول: حديث المعراج الذي تضمَّنه ما جاء في أول السورة من الإسراء، فقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ﴾ وهي المعراج الـمُتمِّم للإسراء، ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: امتحاناً واختباراً لتعلم الثابت من المتزلزل، وإنما كان أمر المعراج فتنة لأنه كان مَثَارَ جدل ومناقشات بين الناس، فكفر به المنافقون والمشركون، وارتابَ ضعفاء الإيمان، وازداد به المؤمنون إيماناً، وإنما سماه رؤيا: إما لأنه وقع ليلاً، أو لغرابته لأنه ليس من نوع المشاهَدَات المألوفة، أو لأنه كان بالروح المجرَّدة عن الجسد، وليس المعنىٰ أنه كان حلماً فذلك باطلٌ، لأنه ﷺ لو ادَّعىٰ أنه حلم لَـمَا أنكر عليه المشركون، ولَـمَا استوجب إثارة ذلك الجدل.

---

(١) رواه مسلم (٢٨٧٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: «... كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس...».

وممَّن قال بأن المعراج كان بالروح المجرَّدة: عائشة رضي الله عنها[١]. ولا بدَّ أن يكون ذلك عن توقيف منه ﷺ، لأنها كثيراً ما كانت تسأله عن مشكلات فيُفسِّرها لها. ويجوز أن يكون عن مجرَّد فهم منها واستنباط[٢].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧: ٣٥٠) عن عائشة قالت: ما فقد جسد رسول الله ﷺ، ولكن الله أسرىٰ بروحه.

(٢) اختلف العلماء في أنَّ المعراج كان بالجسم أو بالروح، والأكثر علىٰ أنه بالجسم، ولا يعنون بالروح الرؤيا، لأنه ﷺ رآه أولاً في الرؤيا، ثم رآه في اليقظة، وإنما يعنون بالروح ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا... ﴾ [الزمر: ٤٢]. والروح هي العنصر المهم في الإنسان. والقائلون بالجسم هم الأكثرون بالنسبة إلىٰ القائلين بالروح، ولكن السيدة عائشة رضي الله عنها هي من القائلين بالروح، وهي ما هي في العلم والإدراك، ولا بدَّ أنّها قد سألت رسول الله ﷺ عن هذا الأمر المهم، وأنه ﷺ صلَّىٰ بالأنبياء في بيت المقدس، وهم في أرواحهم، وإني رأيت في إحدىٰ روايات المعراج قوله ﷺ: «إني رأيت كما يرىٰ المحتضر» [لم أقف عليها]. والمُحْتَضر تنفكُّ روحه عن جسمه، وأن المناطق التي قطعها في أقل من ليلة مناطق بعيدة جداً يصعب علىٰ الجسم القيام بذلك، ثم إنه ﷺ يقول: إنه أوتي بالبراق فركبها [رواه مسلم (١٦٢) عن أنس]، والظاهر أنها من مادة البرق، وسَيْرها سريع جداً لا يتحمَّله الجسم حسب العادة، وبين المناطق التي قطعها فضاء يخلو بعضه من الهواء، وقطعه بالجسم متعذِّر، وقد قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٢].

وأما الروح فتتحمَّل كل هذه الأشياء، وهي عنصر مهم في الإنسان، وليس ببعيد أن نقول: هو الإنسان، إذ ينوّر ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ [النساء: ٥٦]؛ إذ هذا يدل علىٰ أنَّ الجسم وسيلة لزيادة الإحساس لا غير، والله أعلم.

وإني رغم ذلك كلّه لا أنكر علىٰ من يقول: إنه بالجسم، لأنَّ الله سبحانه قادرٌ علىٰ كلِّ شيء، ولكني أرجِّح ما قالته عائشة رضي الله عنها، فإن أصبت فالحمد لله، وإن أخطأت فأستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. =

وقال الزمخشري: إن المراد من الرؤيا هنا: رؤيا اليقظة والبصيرة، يعني: مفادها مفاد قوله تعالىٰ: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾، وليس رؤيا النوم[1].

وقال بعضهم: المراد بها: الرؤيا التي جاءت في سورة الفتح، حيث ظنوا أنهم يدخلون المسجد الحرام في تلك السنة، فتلتها وقعة الحديبية، ومنعتهم قريش من الدخول إلىٰ السنة الثانية، فافتُتِنَ بذلك المنافقون.

ثم ذكر الأمر الثاني، فقال: ﴿وَ﴾ كذلك جعلنا ﴿ٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ فتنةً للناس، وهي شجرة الزقوم التي ذكر القرآن أنها تنبت في أصل الجحيم، فكانت مَثَار تكذيبٍ للمشركين، وقالوا: كيف تنبت الأشجار في النار؟ وأن القرآن الذي يقول مثل هذا لا يصحُّ أن يكون من عند الله، ولم يعلموا أنَّ سُنن الله في طبيعة الحياة الأخرىٰ غير سُننه في طبيعة الحياة الدنيا. ومعنىٰ الملعونة: أنَّ آكلها ملعون، ففي الوصف مجاز عقليٌّ.

ثم ختم السياق ببيان أنَّ كل ما ذُكِرَ من التنبيه والإيقاظ لم يزد المشركين إلا إعراضاً، فقال: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بإيقافهم علىٰ ما سيكون من أمرهم وبيان مصيرهم إنْ أصرُّوا علىٰ الكفر والإشراك، ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ ذلك ﴿إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ وتمادِياً في الضلال.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ

= وقد جاء في تاريخ الإسراء روايتان: سبع عشرة من ربيع الأول، وسبع وعشرون من ربيع الثاني، ويجوز أن يكون أحدهما للرؤيا، والثاني لليقظة. (المؤلف).

وما بين معقوفتين زيادة مني للتخريج.

(١) ينظر «الكشاف» (٢: ٦٧٤-٦٧٦).

ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾.

ولما كان طغيان هؤلاء المشركين بهذه الآيات من وساوس الشيطان، ألمع إلىٰ أن هذا ليس ناشئاً عن عجز في قدرة الله عليهم، وإنما هو ناشئ من خلقهم مختارين في تصرُّفاتهم، وذكر قصَّته مع آدم، ووضح عداوته للإنسان، وذكّرنا بها؛ ليحملنا علىٰ التحرُّز منها، علىٰ نهج القرآن بذكر هذه القصَّة في مثل هذا الموقف، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ تحيةً وتكريماً، ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ أبىٰ واستكبر و﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾، وفيه إيماء لعلَّة التمنُّع، وهي الاستكبار والترفُّع.

وقد طوىٰ بقية القصة اعتماداً علىٰ بيانها في غير هذه السورة، ولعدم الغرض بها هنا، علىٰ سُنَّة القرآن في ذلك، (كما جاء في المادة الثانية عشرة من المقدمة الثانية). وقد ذكر منها ما يساوق الموضوع، وهو ما يدلُّ علىٰ استعداد الإنسان للشر، فإذا ماشىٰ ذلك الاستعداد وانهمك فيه، عَادَ عليه بالوبال، كما أوضح ذلك بما حكاه بقوله: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ أي: بأمرك لي بالسجود له ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ منهم. ونَظْمُ الآية يُؤْذِن بأنَّ المهتدين قليل بالنسبة إلىٰ الضَّالِّين من الناس.

وقوله: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾ مأخوذ من قول العرب: حنك الدابة؛ إذا جعل في رأسها وحنكها المِقْوَد. فالمراد هنا: أنه يملك زمامهم ويتسلَّط عليهم، كما يملك الفارسُ فرسه بلجامها، إلا الذين يعبدون الله حقاً ويتدرَّعون بصحيح الإيمان، فليس للشيطان عليهم سلطان.

وقد أجاب له سبحانه هذا الطلب، طبقاً للحكمة البالغة و﴿ قَالَ ٱذۡهَبۡ ﴾ أي: امض لشأنك الذي اخترتَه، ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ﴿٦٣﴾﴾.

ثم صوَّر قوة استيلائه عليهم بقوله: ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم ﴾ أن تَسْتَفِزَّهُ ممن قد أفسدوا طبيعتهم بمفاسد التربية وسوء القدوة، استَفزِزْهُم ﴿بِصَوۡتِكَ ﴾ أي: بدعائك لهم إلىٰ الفساد، ﴿وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ والجَلَبة: الصياح، أي: صِحْ عليهم صيحةَ آخِذٍ لهم بأعوانه من راكب وراجل، فالكلام علىٰ التمثيل، فقد صوَّره بصورة القائد الهاجم بجيشه مُشَاةً وركباناً، تمثيلاً وتصويراً لقوة استيلائه وتأثيره علىٰ أوليائه. والمراد: بيان قوة استيلاء استعداد الشرِّ علىٰ الكفار وضعفاء الإيمان، والذين لا يعبدون الله حقاً.

وقد جاء في «دلائل الإعجاز»[1]: أنَّ بعض المفسرين توهَّموا في الألفاظ الموضوعة علىٰ المجاز والتمثيل أنها علىٰ ظواهرها، فأفسدوا المعنىٰ، وأبطلوا الغرض ولم يُوفَّقوا لما هو المقصود وما به المراد[2]. وهذا الكلام بأسلوب من أساليب العرب العالية، صُورَتُه أَمْرٌ، وحقيقتُه بيانٌ؛ يحذِّر به الإنسان من خروجه بحكم اختياره من هدايته الطبيعية وهدايته التشريعيَّة، يخرج من ذلك بالتقليد الأعمىٰ وسُوء التربية، مصداقاً لقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ * ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ [التين: ٤ – ٥].

ثم قال في إتمام البيان: ﴿وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ ﴾ بحَمْلهم علىٰ كسبها وجَمْعها من الحرام، ﴿وَ﴾ شاركهم في ﴿الأَوۡلَٰدِ﴾ بحَمْلِهم علىٰ تربيتهم وتنشئتهم علىٰ الكفر والضلال، والانحراف عن فطرة الله وطريقه المستقيم، ﴿وَعِدۡهُمۡ ﴾ ومنِّهم بوساوسك.

---

(١) للجرجاني.

(٢) «دلائل الإعجاز» ص٣٠٥.

ثم بيَّن ضلال تلك المواعيد، ونعىٰ عليهم بها، فقال: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ بمواعيده الخادعة وتسويلاته البارعة، حتىٰ إنه يُموِّه الباطل بالحق، والخطأ بالصواب.

ثم بيَّن القليل الذين استثناهم من الاحتناك، فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ أي: المؤمنين المُخْلِصين في العبادة لي ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾[1]

---

(١) روىٰ مسلم (٢٨١٥) عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج النبيُّ ﷺ من عندي ليلاً، فغرْت عليه، فجاء فرأىٰ ما أصنع فقال: «مالك يا عائشة؟ أغرت؟». قلت: وما لي لا يغار مثلي علىٰ مثلك، فقال: «أقد جاءك شيطانك». قلت: يا رسول الله! أو معي شيطان؟ قال: «نعم». قلت: ومع كل إنسان؟ قال: «نعم». قلت: ومعك يا رسول الله؟! قال: «نعم. ولكن ربي أعانني عليه حتىٰ أسلم».

وروىٰ مسلم (٢٨١٤) عن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا وقد وَكَّل الله به قرينه من الجن». قالوا: وإيَّاك يا رسول الله؟ قال: «وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير».

أقول: وفي هذا إيماءٌ إلىٰ أن في كل إنسان نزعة من الشر، فإن ذلَّلها وتسلَّط عليها استسلمت له، وهانت عليه، فسلم منها.

قال أفلاطون: في الإنسان طبائع أربع: العقل، والهوىٰ، والشهوة، والعفة. فالعقل يعاتب الهوىٰ، والهوىٰ يقاتل العقل، والعفة تعاتب الشهوة، والشهوة تقاتل العفة. والإنسان مسلّط علىٰ مشيئته.

أقول: فمن عمل خيراً جُوزي به، ومن عمل شراً جُوزي عليه، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وقصَّة يوسف عليه السلام مع المرأة التي هو في بيتها تمثِّل ذلك وتبين أن المؤمن الحقَّ لا يغلبه الشيطان. (المؤلف).

قلت: وكلامُه يُشعر بتفسير أن الشيطانَ المُوكَّل بالعبد نزعةٌ مِن الشر في نفس الإنسان، وهو خلاف المعنى المراد من الحديث، كما يظهر من سياقه.

يحفظهم من وَسْوَسة الشيطان بحسب سنته العامة، وهي أن الذي يتشبَّع بالهدىٰ لا يميل إلىٰ الضلال، ولا يقدر علىٰ غوايته المضلون[١].

ويجوز أن يكون في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ إلماعٌ لما احتاط لنا فيه مِن جَعْل طبيعتنا لا تتأثَّر بوساوس الشيطان ما لم نفسدها.

قال ابن عباس فيما جاء من مثل هذه الآيات في خطاب إبليس: إنه تهديد للشيطان بصورة الأمر[٢]. وقال ابن كثير: إنَّ هذا الخطاب للتكوين[٣]، فهو عبارة عن بيان الواقع في صفة طبيعة الإنسان وطبيعة الشيطان.

---

(١) يقول علماء النفس ما محصَّله: إن الذات البشرية تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام: الذات السفلىٰ، والذات العليا، والضمير. فالذات السفلىٰ هي التي تتكوَّن من التربية السيئة التي تجمّل الغرائز في حالتها الهمجية، وكلُّ همِّها أن تصل إلىٰ أهدافها، وإن أساءت التصرُّف، وعبثت بالقيود الاجتماعية والقوانين النظامية من شرعيَّة ووضعية، ولا تريد أن تخضع للعقل والضمير.

والذات العليا هي التي تتكوَّن من التربية الحسنة والنشأة السامية والثقافة والتهذيب الصحيحَيْن، ويكون همُّها التمثُّل بالمثل العليا والتفوُّق في ذلك بمعونة العقل والضمير.

فالذات السفلىٰ إذا غلبت تهوي بالإنسان إلىٰ أسفل سافلين. ولذلك حذَّر منها القرآن، وعبَّر عنها بهذه القوة الشِّرِّيرة التي يُمثِّلها الشيطان، أو هو عبارة عنها. والله أعلم. والذات العُليا إذا غلبت تسمُو بالإنسان إلىٰ أعلىٰ عليِّين، وهو الكمال المنشود لبني الإنسان في عالم الغيب وعالم الشهود، والله أعلم بحقيقة الحال. (المؤلف).

قلت: وكون الشيطان يُمثِّل القوة الشريرة في الذات البشرية، أو هو عبارة عنها؛ غير صحيح، بل الشيطان مخلوق من النار أُوتي قوة يستطيع بها أن يوسوس لبني آدم من حيث لا يشعرون، وهو يُغذِّي هذه القوة الشريرة في الذات البشرية ويُنمِّيها، لا أنه عبارة عنها.

(٢) ذكره الرازي في «تفسيره» (١٨: ٤١٦).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥: ٩٤)، ولفظه: «هذا أمرٌ قَدَريّ».

أقول: فإنَّ الآيات تُمثِّل إحاطة استعداد الشرِّ بالإنسان من كلِّ نواحيه إذا أفسد طبيعته بمفاسد التربية، وتُؤْذن بوجوب شدَّة الاحتراس من ذلك، بما أعطاه الله من العقل والاستعداد للخير، وتُومئُ إلىٰ أنَّ استعدادَهُ للخير إيجابيّ، واستعدادَهُ للشرِّ سلبيّ ناشئٌ من تحريف طبيعته وإفساد غريزته؛ إذ كلها خير ورشاد في أصل خِلْقتها، كما وضَّحنا ذلك في لاحقة المقدمة الثانية، حيث إن الله سبحانه هدىٰ الإنسان بهدايتين: هداية طبيعية، وهداية شرعية. فهاتان الهدايتان كفيلتان بدفع وساوس الشيطان عنه ما لم يفسد طبيعته، وتمسَّك بتعاليم هذا القرآن، فإن فسدت طبيعته بمفاسد التربية والتقليد الأعمىٰ تسلَّط عليه الشيطان.

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾.

ثم عاد بالكلام عن المشركين، ناعياً عليهم شركهم، ومذكِّراً لهم بنعمه عليهم، بالغريزة الدينية التي تظهر فيهم عند الشدائد، ومدلِّلاً علىٰ أنه مختصٌّ بالربوبية لاختصاص أفعالها فيه سبحانه، فلا ربَّ لهم سواه، فقال: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾ أي: يُجريه ويسوقه علىٰ الماء بما أودع فيه من قوَّة حَمْل الأجسام الطافية عليه؛ إذا كانت علىٰ وضع خاص مُنْطبق علىٰ قانون العَوْم. وقد مَزَج دليل القدرة بدليل المنَّة، فقال: ﴿ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ بالتجارة وغيرها من المواصلات، وذلك من فضل الله وحكمته ومنته عليكم، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ ﴾ حيث هيَّأ لكم ما تحتاجون إليه، وذلَّل لكم ما تعسَّر من أسبابه.

وبمناسبة الكلام على الفلك والبحر واستدلاله بقدرة الله فيها على اختصاصه بالألوهية، أشفع ذلك بدليل التوحيد الفطري، وذكّر المشركين بما أودع في فطرتهم من توحيد الله عزَّ وجل، وما يظهر من ذلك في شعورهم عند الشدائد رغم أنفهم، فيندفعون إلى طلب النجاة منه تعالى وحده بسائق الطبيعة، كما تَنْبعث نفوسهم لطلب الغذاء عند الحاجة إليه، إذ يشعرون أنْ لا ملجأ إلا إليه سبحانه، ثم يعودون إلى شركهم بعد زوال الشدة، فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ بتهيُّجه ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي: تضل عنكم شركاؤكم، ولا تدعون حينئذ إلا الله، ولا ينجيكم غيره، ولا تدعون إلا إيَّاه، ولا تشعر حينئذ فطرتكم بغير ذلك، ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ﴾ الله تعالى ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عنه وعُدْتُم إلى شرككم، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ للنِّعَم.

وبعد أن ذكَّرهم بأنهم مطبوعون على توحيد الله وتنزيهه طبعاً، ولكنهم قد أفسدوا طبيعتهم بمخالطة المضلِّين، وتقليد آبائهم الضالين، سَاوَقَ الكلام بالتوعُّد لهم، فقال: ﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ الله الذي نجَّاكم ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: ريحاً تَحْصبكم بالحصباء حتى تُهلِكَكم، ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾ يَصْرف عنكم ذلك؛ إذ لا رادَّ لأمر الله.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أي: يعيدكم إلى البحر ثانيةً بسَوْق التقادير، ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ يقصف بكم الفُلْك، ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ أي: ثائراً علينا يتبعنا ويعقبنا بما فعلنا ليثأر لكم. وهذا الوصف مأخوذ من عادات المخاطَبين، حين يُنْجد بعضهم بعضاً ممن ينال منهم، ويتبع المُنجِد المعتدي لِيَثأرَ منه أو يستخلص منه ما اغتَصَب، على سُنَّة القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة في مجازات القرآن). والمعنى:

لا تجدون مُنجِداً ولا ناصراً. وهذا المعنىٰ بعينه هو معنىٰ: ﴿لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ في الآية السابقة، لأنه بمعنىٰ: لا تجدون مَنْ ينصركم ويحفظكم من بأس الله. والوكيل: يحافظ علىٰ المُوكَّل به.

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾.

وبعد أن نَعَىٰ علىٰ المشركين شِرْكَهُم، وأثبت التوحيدَ لله سبحانه واختصاصَه بالربوبيَّة، أثبتَ الحشْرَ الذي ينكرونه أيضاً، ودلَّل عليه بتمييز الإنسان عن سائر الحيوان، بما كرَّمه به من المواهب العظيمة، والروح الكريمة الواسعة الإدراك، والجسم المعتدل وقواه المتَّسعة لجليل الأعمال، وبما أكرمه به من النِّعَم الكبيرة والمِنَن الجزيلة العظيمة الآثار؛ إذ كل ذلك يدلُّ دلالة واضحة علىٰ أنَّ مصير الإنسان ليس إلىٰ الفناء كمصير الحيوان، ولكن إلىٰ خلود يكون فيه شقياً أو سعيداً، حسب صحَّة اعتقاده وسَدَاد أعماله أو سوء ذلك، فقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ فقد خلقهم في أحسن تقويم، وأسدىٰ إليهم من المواهب الجليلة ما لم يُسْدِهِ إلىٰ غيرهم من المخلوقات، ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ بما تنوَّع من وسائل النقل، ولا سيما ما كان علىٰ الحاملات العصريَّة

المصنوعة بمعونة تلك المواهب التي أودعها الله فيهم، والاستعداد الذي طبعهم عليه، ليكونوا خُلفاء في الأرض يعمرونها ويستنبطون كُنوزها وخيراتها، ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ﴾ في ذلك ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ فهل يُعقَلُ بعد هذا أن يكون مصيرهم مصير سائر الحيوانات في العدم المطلق والفناء؟

كلا، وإنما لهم حياة أخرىٰ يشقون فيها أو يسعدون، نتيجةً لأعمالهم التي تُكَيِّفُ أرواحهم بكيفية صالحة للسعادة أو الشقاء[1]، كما بيَّن ذلك سبحانه بقوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ أي: بمن ائتمُّوا به من نبيٍّ أو مقدَّم في الدين، ونحاسبهم علىٰ ما فعلوا، ﴿فَمَنْ﴾ فعل خيراً كما أُمِرَ و﴿أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ أي: كتابَ عمله، وأخذُه باليمين كنايةٌ عن أنه حاوٍ لأعمال الخير ومُسْتوجب للسعادة والهناء[2]، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ﴾ مُبْتهجين مُغْتبطين، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ أي: لا ينقصون من عملهم ومن أجورهم عليه أدنىٰ شيء. والفتيل: الخيط الذي في شَقِّ النواة، يُضرب به المثل لأقل القليل وللشيء التافه.

﴿وَمَن كَانَ فِى﴾ أمر ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ الحياة أو المواهب والنِّعَم ﴿أَعْمَىٰ﴾ لم يُبْصِر شأنها ولم ينتبه لما يُراد منها، فيسيءُ التصرُّف بها، ولا يفعل ما يرضي الله، وهو الذي لم يتمسك بتعاليم هذا القرآن، ولم يكون له شخصية بمقتضاه؛ ﴿فَهُوَ فِى﴾ أمر ﴿ٱلْءَاخِرَةِ

---

(١) القول بأن الأعمال تُكيِّف الأرواح للحياة الأخروية، محاولةٌ من المؤلف رحمه الله لإجراء أحوال الآخرة على قوانين وسنن من جنس قوانين الدنيا وسننها، وفيه اقتحام للمغيبات من غير دليل، وقد تقدم التعليق عليه (١: ٢٢١).

(٢) بل أخذُه باليمين حقيقة لا كناية، يعني: يتلقاه بيده اليمنى، والمُراد: أن الله عز وجل يُقدِرُه على تلقِّيه باليمين ليكون علامةً على نجاته وفوزه، بخلاف من لا يُقدِرُه الله على ذلك فيتلقاه بشماله أو من وراء ظهره، ولا حاجة للمصير إلى الكناية ما دام الحملُ على الحقيقة ممكناً سائغاً.

﴿أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ أي: يكون أشدَّ غفلةً وعَدَمَ انتباه للأمور التي تُوصله إلىٰ سعادة الآخرة.

قال ابن عباس: أي: من لم ينتبه لهذه النِّعَم التي أنعم الله بها عليه، لم ينتبه للأمور التي توصله إلىٰ سعادة الآخرة، ويكون فيها أعمىٰ كما كان في أمر نعمه أعمىٰ[1]. وفي رواية أخرىٰ عنه: من كان في الدنيا أعمىٰ عمَّا يرىٰ من قدرة الله في خَلْق السماوات والأرض وما فيهما من المخلوقات وعجائبها، فهو في أمر الآخرة أعمىٰ وأضلُّ سبيلاً. أي: في معرفة ذلك علىٰ الوجه الصحيح.

وملخَّص ذلك: أن من كان في الدنيا أعمىٰ لم يُبْصِر الحقَّ ولم يدرك الهدىٰ، فهو في الآخرة لا يرىٰ السعادة بعينيه أبداً، لأنه لم يكون له شخصية تؤَهِّلُه لذلك. والله أعلم. وبين الوصفين نوعٌ من المُشاكَلة، ويكنىٰ بعدم رؤية الشيء عن عدم الحصول عليه. يقال: لا ترىٰ كذا بعينك، أي: لا تحصل عليه. وعلىٰ كلٍّ، فمحصَّل الآية: أنَّ العَمَىٰ عن الشريعة وتعاليمها يؤدِّي في الآخرة إلىٰ الشقاء الأليم، لا يرىٰ السعادة بعينه فيها، وقد أفصح الله له عن السبب للتأنيب والتنديم.

ويجوز أن يكون المعنىٰ: وَمَنْ كان في هذه الدنيا أعمىٰ عن طريق الحق والهدىٰ، لأنه أفسد مواهِبَه بمفاسد التربية وسوء العشرة وجمود التقليد، فلم يُدرك بها ما يُرضي الله؛ فهو في الآخرة أعمىٰ وأضلُّ عن السعادة وطريقها، والله أعلم.

وقال الرازي في معنىٰ الآية: إن الأرواح الجاهلة في الدنيا المفارقة لأبدانها علىٰ جهالتها تبقىٰ علىٰ تلك الجهالة في الآخرة. وأن تلك الجهالة تصير هناك سبباً لأعظم الآلام الروحانية التي عبَّر عنها بالعمىٰ[2].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٣٧٢٠، ١٣٧٢١)

(٢) «تفسير الرازي» (٢٢: ١١١).

وعلىٰ كلٍّ، فالمراد من الآية: التعليل للصنف المطوي فيها، وهو مَنْ أوتي كتابَه بشماله، علىٰ نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (مكرراً) من المادة الثامنة من المقدمة الثانية). ومهما يكن من معنىٰ الآية، فلا يَغِبْ عن بالك أنَّ عمىٰ الآخرة غير عَمَىٰ الدنيا، إذ ليس بين ما في الآخرة وما في الدنيا مشابهة إلا بالاسم، كما جاء ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وجاء مثل هذه الآية في سورة طه[1].

ثم أردف الكلام بذكر شيء من عَمَىٰ هؤلاء المشركين في الدنيا وحرصهم فيه، فقال: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾، وذلك لأنه لو سكت عن بعض شأنهم المخالف لِـمَا أوحىٰ الله به إليه، يكون كالمفتري غيره، ﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾ أي: لو سَكَتَّ عن بعض شأنهم لرضوا عنك ولكنتَ لهم ولياً.

أقول: وهذا لون من ألوان شدَّة البيان في القرآن، يُـوَجَّه إلىٰ النبي ﷺ لمجرَّد التثبيت والإرشاد. ومثله قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ * وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ...﴾ [القصص: ٨٦ – ٨٧]. وهذا الافتراء غايةٌ لهم مقصورة علىٰ محاولتهم لها ورغبتهم فيها، فأعرضَ عنهم ﷺ بوجهه.

وقال في «مجمع البيان»: إنها نزلت في وفد ثقيف، قالوا: نبايعك علىٰ أن تُعطينا ثلاثاً: أن لا نَنحَني أو نُجبي ـ يعنون بعض أفعال الصلاة ـ، ولا نكسر أصنامنا بأيدينا، وتمتعنا باللات سنة[2]. فقال رسول الله ﷺ: «لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود، فأما كسر الأصنام بأيديكم فذاك لكم، وأما الطاعة للات فإني غير ممتِّعكم بها». فقام

---

(١) في الآية ١٢٤ منها.

(٢) ذكره في «تفسير مقاتل بن سليمان» (٢: ٥٤٣، ٥٤٤)، ورواه أحمد في «مسنده» مختصراً (١٧٩١٣).

رسول الله ﷺ وتوضَّأ دفعاً لغضبه، فقال عمر بن الخطاب: ما بالكم آذيتُم رسول الله ﷺ، إنه لا يَدَعُ الأصنام في أرض العرب. فما زالوا به حتىٰ أنزل الله الآيات.

ومعنىٰ: ﴿ لِنَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ﴾: إنك إذا اتَّبعت أهواءَهُم أو هَمَمْتَ، كنتَ كالمفتري لغير ما أوحي إليك، ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾ أي: ولولا أن ثبَّتناك بخصائص النبوة وطبيعتها العليَّة، لقد كِدْتَ تركنُ إليهم شيئاً قليلاً، بحسب خصائص الطبيعة البشريَّة في المجاراة والتأليف، فتُعطيهم بعض ما يسألونك بالسكوت عنهم، ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ﴾ أي: ضِعْفَ عذاب الحياة وضِعْفَ عذاب الممات، ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ يدفع عنك.

هذا ما يقوله سبحانه وتعالىٰ لنبيِّ الرحمة المؤيَّد بالكرامة والعِصْمة، فاعتبروا يا أولي الألباب، فإنه قولٌ فَصْل، وما هو بالهزل، واخشَوْا يوماً ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [لقمان: ٣٣]، اللهمَّ احفظنا من كلِّ ما لا يرضيك.

وقال ابن عباس: إنَّ رسول الله ﷺ معصومٌ، ولكن هذا تخويف لأمته، لئلا يركن أحدٌ من المؤمنين إلىٰ أحد من المشركين في شيءٍ من أحكام الله وشرائعه[1].

أقول: وذلك من خصائص اللغة في عُرف التخاطب مع الرؤساء والزعماء، فقد يُقال للرئيس: إذا فعلت هذا كانت عاقبته كذا، والمراد: إذا فعله قومُك.

والذي أراه ـ والله أعلم ـ : أنَّ الآيات تُلهِمُ عَرْضَ بعض المعتدلين اقتراحاتٍ بسيطة، ومَيْل النبي ﷺ إلىٰ الجنوح إلىٰ شيءٍ من التساهل حرصاً علىٰ هدايتهم، ولكن الأمر لم يتعدَّ الخاطر إلىٰ الفعل، وقد عصمه الله من ذلك، لأن فيما طلبوه شيئاً من

---

(١) ذكره ابن الجوزي في «تفسيره» (٥: ٦٩).

الشذوذ عما أوحىٰ الله إليه من أسس الدعوة. وقوله: ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ يدلُّ دلالة صريحة علىٰ أنَّ ما خَطَر بباله قد كان شيئاً غير مُهم، وكان عن اجتهادٍ فيه خِلافُ الأَوْلىٰ، اشتدَّ فيه الحرص الطبيعي علىٰ المصالح الخيرية، ثم غلب التأديبُ الإلهيُّ ذلك الحرصَ. ولا يَبعُدُ أن يكون هذا الركون كالركون إلىٰ صناديد قريش عندما عاتبه سبحانه بقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١]، وكقوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٨]. والأصحُّ أن يقال: إن (لولا) حرف امتناع لوجود. وعليه، فقد امتنع الركون لوجود التثبيت بحكم النبوَّة والكمال. والله أعلم.

ثم ذكر صفحة أخرىٰ من أحوال المشركين، وإصرارهم علىٰ الكفر، وحرصهم عليه، ومقاومتهم الشديدة للرسول ﷺ وما جاء به، فقال: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ أي: ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ التي أنت فيها، وهي مكة ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ أي: إذا فعلوا ذلك ﴿لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ﴾ أي: لا يبقون بعدك في هذه الأرض ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ أي: زمناً قصيراً، ثم يُهلكهم الله بعذاب الاستئصال، ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ حيث عارضهم أقوامُهم وكذَّبوهم وأخرجوهم، فاستأصَلْناهم بعذاب. ومن ذلك ما جاء في آخر السورة من أمر موسىٰ وقومه مع فرعون وملئه، ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا﴾ في الأمور الكونية ﴿تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾، بل هي جارية ومطَّردة في سائر الأزمان.

وقد جرت هذه السّنّة في المعارضين من كفار قريش الذين أخرجوه من مكة، فاستأصلهم ببدر بعد هجرته بسنة. ويجوز أن تكون الهجرة ليست من الاستفزاز؛ لأنَّ الله سبحانه أمره بالهجرة إلىٰ المدينة لنشر الدين هناك، ويجوز أنهم تفكروا في ذلك، ثم أعرضوا خوفاً من نشر الدين. والله أعلم.

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾.

ثم أمره بإقامة الصَّلاة إزاحةً لما يعتريه من الهمِّ من جَرَّاء أعمالهم ومعانداتهم، لأنَّ مناجاةَ الله تثبِّت القلبَ وتُسلِّي الحزن، فقال تعالىٰ: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، وكان ﷺ إذا غمَّه أمرٌ فزع إلىٰ الصلاة، ويقول لبلال: «أرحنا»[1]. وإقامة الصلاة: الإتيان بها علىٰ أكمل الوجوه، وأهمُّ ذلك حضورُ القلب والشعور بما فيها من معاني القراءة والأذكار والقيام لله تعالىٰ والركوع والسجود وما فيه من تذلُّل وخضوع؛ لأنَّ ذلك هو الروح لها، كما قال ﷺ: «ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها»[2]، وإنما يحصل المصلّي علىٰ هذه الصورة من الصلاة بالتدريب والمران.

ثم أدمج سبحانه وتعالىٰ في الأمر بإقامة الصلاة بيانَ أوقاتها، فقال: ﴿ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ ﴾ أي: لزوالها، فأقام الوقت مقام العلَّة علىٰ طريقة المجاز المرسل، وقوله: ﴿ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾ أي: ظلمته، وقد أجمل بهذه الجملة أربع صلوات: الظهر والعصر والمغرب والعشاء. وقد فصَّل هذا الإجمالَ حديثُ جبريل في مواقيت الصَّلاة[3] حيث بيَّنها له

---

(١) رواه أحمد (٢٣٠٨٨)، وأبو داود (٤٩٨٥)، عن رجل من الصحابة.

(٢) قال الحافظ العراقي في «تخريجه علىٰ الإحياء» (٤٤٤): لم أجده مرفوعاً. ورواه أبو نعيم في «الحلية» (٧: ٦١)، عن سفيان الثوري من قوله.

(٣) رواه الترمذي (١٤٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

بالفعل. وكذلك بيَّن له وقت الصبح الذي ذكره سبحانه بقوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ أي: صلاة الصبح، وعبَّر عنها بهذا العنوان تنويهاً وتعظيماً لشأن المناجاة لله بالقرآن، وقراءته في الصلاة في ذلك الوقت الذي قد خُلِّيَ القلبُ فيه من أكثر الشواغل، فيكون شاهداً غير غائب، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ يشهدُه القلب ويحضره أو تشهده الملائكة. وقد أظهر كلمة «الفجر» مع أنَّ المقام يقتضي الإضمار، وذلك لمزيد الاهتمام بها، ولتكون العبارة مستقلَّةً تجري مجرىٰ المثل والكلمة الفُضْلىٰ.

ثم حضَّه علىٰ صلاة الليل، لأنها أشدُّ تأثيراً في ذلك، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي: زيادةً خاصَّة بك، ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ أي: منزلاً كريماً. وقيل: المراد به مقام الشفاعة. والله أعلم.

ثم لقَّنه هذا الدعاء يطلب به إنجاز الوعد بالتوفيق للنصر، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ في كلِّ ما يُلابسني من أمر، أو في أعباء النبوة والرسالة. والشيء الصدق: هو المُسْتوفي للكمال، أي: أدخلني إدخالاً مكرماً، وأخرجني إخراجاً مُشرفاً. أو: اجعل وُرودي وصُدوري في أموري موفقاً ميموناً، ﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ أي: قوةً معزَّزة ونصراً مؤيداً.

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ وهو الوحي والإسلام، ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ﴾[1] وهو الشرك والكفران ﴿إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾، وفي الآية وَجْهٌ آخر: وهو أنها بيانٌ من الله

---

(١) يعني المجتمع في أول الأمر داعي الخير الذي يقوم به الأنبياء والمصلحون، وعلىٰ رأسه المترفون وأصحابُ المراكز، للمحافظة علىٰ مراكزهم، ويظلُّ يقاوم ما وَسِعَته المقاومة، حتىٰ تخورَ قواه وتنهارَ مقاومته تدريجياً، فيندفعُ عنه ذلك إلىٰ التيار الجديد اندفاعاً حماسياً شديداً، كأنه يكفِّر عن سابق خطيئته في تلك المقاومة. (المؤلف).

سبحانه وتبشيرٌ بغَلَبة الحق للباطل، إذا رُوعيت أسبابه، كما هو عليه ﷺ. فهو يُبشِّرُه بذلك بعبارة دعاء، علىٰ نهج القرآن.

ثم نوَّه بشأن ما احتوىٰ عليه هذا القرآن هدايةً وإرشاداً، ونَدَّد بهؤلاء المشركين الذين لم يزدادوا به إلا بُعداً وعناداً، فقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ للنفوس ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ به، في تزكية نفوسهم، وتوسعة مداركهم، وإصلاح شؤونهم، ونَيْل السعادة في دنياهم وآخرتهم، ﴿وَ﴾ لكنه ﴿لَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ لتكذيبهم وكفرهم به وإعراضهم عنه، فقد أنعم الله عليهم بهذه النعمة فأعرضوا عنها.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾.

ثم بيَّن خَلْقَ الإنسان في الإعراض عن الله وكفران نِعَمِهِ، رغم احتياجه إليها وتنعُّمه بها، وصَاغَ الكلام علىٰ سنة القرآن في تعقيب الأمر بما يشمله وغيرَه، مُؤْذِناً بأنَّ إنزال القرآن نعمةٌ عُظمىٰ على الإنسان، وضمَّن ذلك وعيد هؤلاء الظالمين، ومنشأ إعراضهم عن الحق، فقال: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ وهذا كنايةٌ عن الاستكبار والازدراء للنعمة وكفرانها، ومنها نعمة القرآن، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾، وهذا وصف للجنس باعتبار بعض أفراده ممَّن هو علىٰ هذه الصفة. ومثل ذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن، لأنَّ الجنس يتحقَّق في بعض الأفراد، وتضمَّنت الجملةُ الوعيدَ للظالمين، علىٰ نهج القرآن في تعقيب التنديد بالوعيد.

ثم وضح مَنْشأ الإعراض بالإلماع إلىٰ أنه نوع التربية وشكلها وتكييفها للنفوس، فقال: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ أي: علىٰ طريقته التي تُشاكِلُ حاله التي طوَّر نفسَه

عليها من الصلاح أو الفساد، وطابعه الذي طَبَعَ نفسه عليه بالتربية الصحيحة أو الفاسدة، ثم علَّل ذلك وَوَعَد وأوعد بما تضمَّنه قوله: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾، فأشار إلىٰ أنَّ الأمر في الصَّلاح والفساد عائدٌ إلىٰ الهدىٰ والضلال اللذَيْن هما أثران للنفس إذا زُكِّيَتْ وإذا دُسِّيَتْ، والله سبحانه يعلم المهتدي من الضال ودرجة كلٍّ منهما. وإنما صاغه بهذه الصيغة ليدلَّ ـ مع التعليل ـ علىٰ الوعد والوعيد، علىٰ نهج القرآن في سَبْكِ المعاني بعضها مع بعض.

ومُحصَّل الكلام: أن كُلاً من أفراد الإنسان يعمل علىٰ ما طوَّر به نفسَه وشكَّلها، من التزكية أو التَّدْسية، حتىٰ صار الـهُدىٰ أو الضلال خَلْقاً من خَلْقِهِ، وشكلاً من أشكاله. واللهُ سبحانه وتعالىٰ يعلم مَنْ يُزكِّي نفسه ومن يُدسِّيها، فالإنسانُ مُيَسَّر للخير خِلْقَةً، إلا إذا أفسد غريزته الدينية ودنَّسها، فينحدر إلىٰ الشر.

ولما كان أثر ذلك يعود إلىٰ الروح التي هي مَنَـاط ذلك التشكيل والتكييف، فيرفعها إلىٰ أعلىٰ عليِّين، أو يخفضها إلىٰ أسفل سافلين، لأنها إما أن تتكيَّف بالصلاح كيفيَّة تؤهِّلها للسعادة في الأخرىٰ، أو تتكيَّف بالفساد كيفيَّةً تؤهِّلها للشقاء فيها، فلمَّا كان الشقاء والسعادة يجريان علىٰ الروح، كان الإنسان في الحقيقة هو الروح، لذلك كمَّل البحث عن الإنسان بالكلام عن ذات الروح، لمح إلىٰ كل ذلك بقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ...﴾[1] أي: المستعدَّة لهذين الحالين.

---

(١) يأتي في القرآن كلمة (الروح) وكلمة (النفس)، والمراد بهما ـ والله أعلم ـ واحد بالذات، وإن اختلفتا بالاعتبار، إذ المراد بالروح ذاتُها المجرَّدة وحقيقتُها الراهنة. والمراد بالنفس: الروحُ من حيث تعلُّقها بالبدن، وأنها موضع للاستعدادين: الخير والشر، وتتكيَّف بما يُعرِّضها له صاحبُها منهما، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-٨]، ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٨]، =

وهناك وجه آخر للربط، وهو أنه بعد أن ألمع إلىٰ الحشر من طريقة طبيعة الإنسان وكرامته، عاد فأكَّده من طريقة روحه، وألمع إلىٰ أنه مخلوق عظيم، ذو جسم وروح، فكيف تنكرون عليه البقاء، وما يتبع ذلك من حشر وسعادة أو شقاء؟! فقال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾[1] لا يُؤهِّلكم لمعرفة مثل حقيقة الروح؛ لأنَّ طريق علمكم العقل، وهو لا يُدرك من المعقولات إلا ما له مثيلٌ مما يعرفه من المخلوقات.

= ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]، ﴿لَآ ءَاتِيَنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣]، ﴿سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ [طه: ٩٦]، ﴿إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ [النمل: ٤٤]، ﴿إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ [سبأ: ٥٠].

وإنما يكثر التعبير بلفظ النفس في القرآن، ولم تأت عبارة الروح فيه إلا قليلاً، لأن القرآن إرشاد للنفس يحضُّها علىٰ التكيُّف بكيفيَّات الخير والصَّلاح، ويُحذِّرها من كيفيَّات الشرِّ والفساد. ولم يتكلَّم القرآن عن ذات الروح المجرَّدة إلا قليلاً، مثل قوله تعالىٰ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ...﴾.

وقد تأتي كلمة النفس بمعنىٰ: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٥١]، ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤]. ولم يُرَدْ بها الروحُ في هذه الآيات.

ووجه الربط في الآية: أنه لما كان السياق يتضمَّن أمرَ الآخرة وشؤونها، ومرجع ذلك من الإنسان ما فيه من الروح، تعرَّض لذكره إجمالاً تتميماً للبحث وتثبيتاً له.

وقد تكلمتُ في أول سورة الحج عن مستقرِّ الروح، وعن بعض أحوالها بعد الموت وقبل القيامة، فارجع إليه. (المؤلف).

(١) حَلَّل الفيلسوف الإنجليزي العلم الإنساني في كتابه «الأصول الأولية»، فأحاله إلىٰ درجة العجز المطلق أمام إدراك كُنه أصغر ذرة من ذرات الوجود، وقرَّر أنه لا يكسبنا في الإلمام بالموجودات المعروفة لنا إلا إدراك علاقتها ببعضها وصفاتها الخارجية عن كيانها وكنهها.

أقول: وهكذا القرآن إذا كلَّمنا عن شيء لا يعرِّفنا حقيقته، ولكن أحواله المتعلِّقة بنا وصفاته الخارجية، وكذلك حديث رسول الله ﷺ. (المؤلف).

والروح التي خصَّ الله بها أصنافاً ثلاثة: الإنس والجن والـمَلَك، وجَعَلها مدار التكليف ومناط السعادة والشقاء، لا مثيل لها بين المخلوقات التي تعرفونها.

والروح غير الحياة، إذ الحياة أثرٌ يظهر في الأجسام كلِّها متىٰ كانت علىٰ التَّسوية التامَّـة التي سوَّاها الله عليها. وذلك يكون لكلِّ مخلوق من مخلوقاته تعالىٰ، حيواناً أو نباتاً، بخلاف الروح، فإنها مخصوصة بالأنواع الثلاثة: المَلَك والإنس والجن. ولا تظهر في جسم الإنسان إلا إذا كان حياً. والله أعلم. ولا عبرة بإطلاقها علىٰ الحياة في عُـرْف التخاطب، لأنه مبنيٌّ علىٰ التساهل في التعبير، وبادئ النظر والتفكير. وقد مرَّ الكلام عن ذلك في سورة الحجر عند قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩].

وجاء في «تفسير الرازي» ما محصَّله: ومن الناس من يقول: الروح جسم لطيف لا يقبل التحلُّل والتمزُّق. فإذا تكوَّن البدن وتمَّ استعداده ـ يعني: ما هو المراد من قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ ـ نفذت فيه الروح نفاذ ماء الورد في الورد ـ يعني: ما هو المراد من قوله تعالىٰ: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ ـ ثم إن البدن ما دام سليماً قابلاً لنفاذ الروح فيه، يبقىٰ حياً، ومتىٰ فقد السلامة يعرض لها الموت.

هذا ما نقله الرازي[1]، ولكني أقول كما قلت في سورة الحجر: إنَّ هذا البدن ما دام علىٰ تسويته فهو حيّ، وإذا فَقَدَ تلك التَّسوية إلىٰ حدٍّ ما يفقد الحياة، وإذا فَقَدَ الحياة لا تظهر فيه الروح، كما لا يظهر الضوء الكهربائيُّ في زجاجته إذا عطبت. والله أعلم.

ثم قال الرازي بعدما نقل هذا الرأي: وهذا مذهب قويٌّ شريف، يجب التأمل فيه، فإنه شديد المطابقة لما وَرَدَ في الكتب الإلهية من أحوال الحياة والموت.

ثم قال بعد كلام طويل: وإن قوله تعالىٰ: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣]:

---

(١) في «تفسيره» (٢١: ٣٩٨).

كلام صريح بأن النفس غير البدن، وكذلك قوله تعالىٰ في ذكر مراتب الخلقة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]. انتهىٰ[1].

ولما أراد أن يذكر نفخ الروح قال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وهذا صريحٌ بأنَّ الروح جنسٌ مُغاير لما سَبَقَ من المراتب الجسمانية، كما أن قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩، ص: ٧٢] تصريح بالفرق بين البشريَّة والروح.

وقال الفيلسوف رينان الفرنسي: كان اليونان يعتقدون أنَّ في الإنسان عنصرين مستقلَّين: الروح والجسد.

ومن مباحث اللفظ: أنه إنما أظهر في مقام الإضمار، فقال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾، ولم يقل: «قل هو من أمر ربي»، إظهاراً لكمال الاعتناء بشأنه، كما تقتضيه البلاغة العالية، ولتكون الجملة مستقِلَّة بذاتها.

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾.

ثم حسَّسَنا سبحانه وتعالىٰ بمنَّته علينا في إنزال هذا القرآن الذي علَّمنا فيه ما لم نكن نعلم، وهدانا به لرشدنا ولمصيرنا وأسباب سعادتنا في الدارَيْن، ولكن لم يَقدُرْهُ البشر حقَّ قَدْره، وأعرض أكثرهم عنه، ونَدَّد بهم مخاطباً بذلك النبيَّ ﷺ الذي أنزل عليه، ومُمْتناً بالنعمة العُظْمىٰ التي أنعمها علينا بإنزاله، وذكر ذلك بأسلوب من أساليبه

---

(١) «تفسير الرازي» (٢١: ٤٠٣).

البديعة في البيان، فقال: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ ﴾ أي: لا تجد مَنْ يتوكَّل لك علينا باسترداده، ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ وهذا استثناء منقطع، أي: ولكن يَحُول دون ذلك رحمةُ الله وفَضْلُه عليك، ﴿ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ والخطابُ للرسول ويشمل المؤمنين علىٰ نهج القرآن في مثله.

ومحصَّل الآية: بيان عِظَم منَّة الله علينا في إنزال هذا القرآن، ولو فقدناه ـ كما فقدت أهل الكتاب ـ لخسرنا خسراناً مبيناً.

ثم نوَّه بمقدار شأن هذا الموحىٰ به إليه وعَظَمة قَدْره، فقال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾ أي: بكتاب من جنس القرآن، ﴿ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ أي: ولو تَظَاهَروا علىٰ الإتيان، وتَعَاونوا عليه.

ثم عاد فنعىٰ علىٰ البشر بأنه نوَّع لهم البيان عن شؤونهم في الحياتَيْن بهذا القرآن، ليذّكّروا ويفعلوا ما يُصلحهم، فلم يؤمن به إلا القليل، فقال: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾ أي: كرَّرنا لهم فيه البيانات والإيضاحات والحجج الباهرات بوجوهٍ مختلفة وصور منوَّعة، زيادةً في الهداية والإرشاد، فلم يُؤَثِّر كلُّ ذلك علىٰ أكثر الناس، وأبَوْا إلا الكفر وجُحود الحق الذي ظهر للعيان كالشمس في وَضَح النهار.

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا

﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل
لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا
رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾
وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ
وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم
بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ
يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ
فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ
ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾.

ولَـمَّا عجزوا عن الـمُحاجَّة عَمَدوا إلىٰ طريق اللَّجاج والعِناد، مما يدلُّ علىٰ قلَّة فهمٍ ودراية في حدود النبوَّة، جاهلين أنها لا تتجاوز القدرة البشريَّة، كما حكىٰ عنهم ذلك بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ أي: عيناً جاريةً في أرض مكة لا يَنْضَبُ ماؤها، ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ﴾ في هذه الأرض ﴿جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾.

ثم غيَّروا الأسلوب إلىٰ نوع آخر من العناد، مصحوباً بالاستهزاء والاستخفاف، كما حكىٰ ذلك عنهم بقوله: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ يعنون ما هدَّدهم به تعالىٰ في سورة سبأ بقوله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [سبأ: ٩]. ثم زادوا علىٰ ذلك بقولهم: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ أي: مقابلين لنا، حتىٰ نشاهد ذلك بأعيننا. ويجوز أن يكون ﴿قَبِيلًا﴾ بمعنىٰ: جماعات، فيكون حالاً من «الملائكة».

ثم تابعوا العناد بنَوعَيْه، فقالوا: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ أي: من ذهب مُرَصَّع بأنواع الجواهر، ويجوز أن يريدوا مثل هيكل سليمان عليه السلام، والله أعلم، ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أمامنا علىٰ معارجها.

ولما كان هذا الأمر حالاً غير منضبط وقابلاً للتمويه بزعمهم، أضافوا إليه للتوثيق قولهم: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ أي: إننا لن نُصدِّق برُقيِّك هذا إلىٰ السماء إذا ادَّعيتَه حتىٰ ينزلَ علينا رأساً من دون أن يتلقَّىٰ مِن قِبَلِك كتابٌ نقرؤه، وفيه تصديقُ أنك نبيٌّ مُرسل. وهذه الزيادة يُلهِمُها قولهم: ﴿تُنَزِّلَ﴾، عِوَضاً عن قولهم: تأتينا بكتاب. والله أعلم.

وهذه الاقتراحات الـهَوْجاء تحتمل أمرين: إما اعتقادهم أنَّ الرسول يجب أن يكون علىٰ هذه المقدرة وبهذه الصفة؛ جهلاً منهم بتاريخ الرسل وحدود الرسالة. وإما أن يكون تعنُّتاً منهم وتندُّراً، وهو الأظهر.

فأمره سبحانه أن يُـجيبَهم بالجواب الـمسْبوك علىٰ التعجُّب من اقتراحاتهم، والتَّسخيف لهم، والسخرية من مطالبيهم، والتحديد لمدىٰ النبوَّة، والتنزيه لله تعالىٰ عن أن يتحكَّم عليه بشيء، أو يشاركه أحد في شيء، فقال: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ أي: أنزِّهه عن أن يَتدخَّلَ أحد في شؤونه باقتراحات، و﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا﴾ كسائر الناس لا قُدْرةَ لي علىٰ شيء مما اقترحتموه، وهل كنتُ إلا ﴿رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ كسائر الرسل، لا يأتون قومهم إلا بما يؤتيهم الله، مما يُلائمُ حال قومهم ويُصلِحُه، ولم يكن أمرُ الآيات إليهم، وليس لهم أن يتحكَّموا علىٰ الله، حتىٰ تتخيَّروها عليَّ.

أقول: إنَّ هؤلاء جَهَلة حُمَقاءُ لا يُفرِّقون بين حدود النبوة وعظمة الألوهية.

ثم خصَّ بالنقض أكبر شبهة لديـهم من شُبههم، لأنها مِلاكُ هذه الاقتراحات

وجِماعُها، فقال: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ أي: ما منعهم من الإيمان إلا إنكارهم أن يكون الرسول بشراً. فأمره أن يُجيبَهم بهذا الجواب، فقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ ومفاد هذا الجواب: أن الرسول يجب أن يكون من جنس المُرْسَل إليهم، ليفهموا عنه، وذلك أمر بديهي لا شبهة فيه. وهذا أقوىٰ دليل وأوضَحُه في إثبات المدَّعىٰ، ونَقْضِ شبهتهم هذه.

ثم أشفع الإلزام ببيان أنه قد أدَّىٰ الرسالة لهم، وأبلغهم ما أوحىٰ به إليه، وما علىٰ الرسول إلا البلاغ، فقال: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ علىٰ أني رسول الله وأدَّيتُ ما عليَّ من واجب الرسالة أكمَلَ أداء، وأنكم كذبتُم وأبيتُم وعاندتُم، والله سبحانه عليم بشأنكم؛ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾ لا تَخْفىٰ عليه من أمرهم خافية.

ثم تابع الكلام بهذا البيان العامِّ المسبوك علىٰ التَّنديد والوعيد، والمتضمِّن وَجْهَ تصلُّبهم في عنادهم، رغماً عن المبالغة في إرشادهم، فقال: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ باستعمال عَقْلِهِ بمقتضىٰ الفطرة وإرشاد الدين لسلوك سَبيل الهدىٰ ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ للفوز بالسعادتين، ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ وذلك بإفساد الإنسان لطبيعته وتحريفه لغريزته، فيُعرض عما جاءَه من الحق، ويعارض المرسلين، ويتَّبع غير سبيل المؤمنين؛ ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: لا ينصرهم أحدٌ من عذاب الله، ولا يمنعهم منه نصير، وبيَّن صورته بقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ يُسْحَبون عليها ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ مُبْلِسين مُسْتَسلِمين، جزاءَ ما كانوا في الدنيا لا يُبصِرون الحقَّ ولا ينطقون به ولا يستمعون له. أو المعنىٰ: أنهم لا يُبصرون ما تَقَرُّ به أعينُهم، ولا ينطقون ما يُقْبَلُ منهم، ولا يسمعون ما يلذّ مسامعهم. وعلىٰ كلٍّ، فالكلام يُؤْذِنُ بأنهم يحشرون علىٰ أسوء

الأحوال، ثم ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ خالدين فيها ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ وسَكَنَ لهيبُها ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾، أعاذنا الله.

وقد بيَّن تعالىٰ أنَّ ذلك العذاب إنما هو بما كسبت أيديهم وسبَّبوه لأنفسهم، فقال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟﴾ مُنكِرين للبعث أشدَّ الإنكار: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ باليةً مسحوقةً ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾، فأنكروا البعثَ وكلَّ ما جاء فيه عن الله، وركبوا غَوايتهم، فأصابهم ما أصابهم من عذاب الله. وكيف يستعظمون البعث علىٰ قدرة الله البالغة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ ويبعثَهم خلقاً جديداً؟! ﴿وَ﴾ قد ﴿جَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا﴾ لذلك ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ وجحوداً، مع وضوح هذه الأدلَّة والبراهين. ويجوز أن يُراد بالأجل: الموت الذي لا يرتابون فيه، فتكون الجملة مُتمِّمة للدليل، لأنَّ الموت أعجبُ من البعث لو تأمَّلناه.

ولما كان منشأ هذه المعارضة المُفْضية إلىٰ إنكار ما جاء به إنما هو الحرصُ علىٰ مراكزهم المالية والاجتماعية، ألمع إلىٰ أنَّ هذا هو السبب في العِناد، لا الشك في نبوتك. ولكنه ألمع إليه وإلىٰ التأنيب عليه ضمن البيان عن طبيعة الإنسان في شدَّة الحرص والإمساك، علىٰ نهج القرآن في سَبْك المعاني وإدماجها، فقال: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾، وذلك لأنَّ مبنىٰ أمره علىٰ الحاجة.

وفي معنىٰ هذا البيان تلميحٌ للفرق بين كرم الله سبحانه وبخل الإنسان، وتلويحٌ لمن يتعجب من ثرائهم مع كفرهم هذا، فهو سبحانه لا يُمسك رزقه عن هؤلاء المعارضين، وما كان عطاء ربك محظوراً، فهو يرزقهم ويُعطيهم، ويُفيض عليهم النِّعَمَ، مع إعراضهم وكفرهم بالله، ولا يقابل ذلك بالمنع والإمساك.

وقيل: إن الآية تعليق علىٰ طلبهم أن يفجِّر لهم في أرض مكة ينابيع تعود عليهم بالثراء العظيم، إلخ. ومفادها: أن البشر لا يُصلح طبيعتَه إلا الإيمانُ بالله والتمسُّك بما جاءه من عند الله من هُدىٰ ورشاد. ومهما اتَّسعت ثروتهم مع الكفر والعناد فليسوا بمُصلِحين بها شيئاً بين العباد.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾.

ثم ذكر قصة موسىٰ مع فرعون، تأييداً لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ ...﴾ [الإسراء: ٥٩] وامتداداً له، وتسليةً للنبي ﷺ عن تخلُّف هؤلاء المشركين من قومه عن الإيمان، مُلمعاً إلىٰ أنه سبحانه لو أجاب طلبهم لهذه الآيات الكونية والمعجزات لما آمنوا أيضاً، كما أنَّ آل فرعون لم يؤمنوا مع توفُّر الآيات والبصائر، فقال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ﴾ واضحاتِ الدلالة علىٰ نبوَّته وصحَّة ما جاء به[1] فلم يؤمنوا.

ثم استشهد علىٰ ذلك بهذه الجملة الاعتراضية، فقال: ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، ثم تابع الكلام فقال: ﴿ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ ﴾ مُنكراً لتلك البيِّنات: ﴿ إِنِّى لَأَظُنُّكَ

---

(١) وهي: العصا، واليد، والطُّوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، وآية الرِّجز، وهو عذاب أنزله الله بفرعون ومَلَئِهِ كأمراضٍ وأوجاع لا عهد لهم بها، وآية السنين المُجدِبات والنقص في الثمرات.

﴿يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ١٠١﴾ أي: مخدوعاً بدعواك الرسالة عن الله. وقيل: بل المعنىٰ: إنك مُعطىٰ عِلمَ السحر تخدع به الناس.

لذلك ﴿قَالَ﴾ له موسىٰ رداً وتبكيتاً: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الآياتِ ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾ أي: براهين للناس يُبصرون بها الحقَّ، وليست بسحر، ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ١٠٢﴾ أي: هالكاً أشدَّ الهلاك إذا أعرضتَ عنها وكذَّبتَ بها.

ثم بيَّن تعالىٰ ما كان من أمر فرعون واستئصاله هو وقومه بالعذاب، فقال: ﴿فَأَرَادَ﴾ فرعون ﴿أَن يَسۡتَفِزَّهُم﴾ أي: موسىٰ ومَنْ معَه من بني إسرائيل ويُزعجهم ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أرضِ مصرَ بالقتل أو النفي، ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ١٠٣﴾.

﴿وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ[1] لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ التي أراد أن يستفزَّكم منها، وهذا جزاؤكم في الدنيا، ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ١٠٤﴾ أي: حشرناكم وجئنا بكم وبهم جميعاً، لنحكم بينكم بالحق. وهذا تهديدٌ لقوم فرعون، وإنذارٌ لقوم موسىٰ خُتِمَ به السياق.

﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ١٠٥ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا ١٠٩ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ١١٠ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرٗا ١١١﴾.

---

(١) من بعد هلاك فرعون.

ثم عاد بالكلام إلىٰ محوره السابق في المشركين، منوِّهاً بشأن هذا القرآن للتنبيه إلىٰ ما جاء في هذه السورة من عظيم الإرشاد، والهداية إلىٰ طريق السَّداد، وللتصديق بما اشتملت عليه من الوعد والوعيد وتحقيق إنجازه، فقال: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: القرآن ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي: إنَّ كلَّ ما نَزَل به إنما هو حقٌّ واقعٌ، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾ فلا عليك أن لا يؤمنوا.

ثم أجاب عن شبهتهم وشبهة أهل الكتاب في نزوله متفرِّقاً، إذ كانوا يقولون إنَّ محمداً يُفكِّر في فَصْلٍ فَصْل، ويقرؤه علىٰ الناس، ولو كان كتاباً من عند الله لنزل دفعةً واحدةً، كما أنزل كتاب موسىٰ، فقال: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ أي: أنزلناه متفرِّقاً، أو فصَّلناه سوراً وآيات؛ ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي: علىٰ مهل وتُؤَدة، فإنَّ ذلك أعون علىٰ الفهم، ﴿وَ﴾ هكذا ﴿نَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ أي: مفرَّقاً علىٰ حسب الحوادث؛ ليكون أوقعَ في النفوس، ولتهضمه العقول بالتدريج، كما تقتضي الحكمة والمصلحة. وتنزيلُه غيرَ متسلسل أدلُّ علىٰ أنه من عند الله. وقد جاء شبيه هذه الآية في سورة الفرقان[1] فانظر إليها.

ثم ختم البحث مبيِّناً عدم الاكتراث بهم إن لم يؤمنوا، فقد آمن به أهل العلم والنظر الصحيح، وجعل ذلك رداً علىٰ عِنادهم، وقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ﴾ [الإسراء ٩٠] وتهديداً لهم، فقال: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا۟﴾ فإنَّ إيمانكم به لا يزيده كمالاً، وامتناعَكم عنه لا يورثه نقصاناً.

ثم ساق كالتعليل قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ وقرؤوا الكتب السالفةَ، وعَرَفوا حقيقة الوحي وأمارات النبوة ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ ويسمعون وعده ووعيده،

---

(١) يعني الآية ٣٢ منها.

﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾، وهذا أجلُّ تصوير للتصديق به وبمشتملاته من البعث وغيره. وفيه صَفْعٌ للمشركين علىٰ إنكارهم له، ولما جاء به من الحشر والتوحيد والنبوَّة، واستهانةٌ بأمرهم، واستحقارٌ لهم؛ إذ قد أعلنت هذه الآية أنَّ جُحودهم وموقفهم هذا لا قيمةَ له ولا اعتبار، طالما أهل العلم يقفون منه هذا الموقف التَّصديقيَّ الخاشع، وهم الوفد الذي جاء من نصارىٰ العرب الذين يسكنون مشارف الشام وشمال الجزيرة، أو من نصارىٰ مكة والمدينة المعتدلين.

ثم تابع البيان عن حال الذين أوتوا العلم من قبله مُبيِّناً صورة أخرىٰ منها، فقال: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ كما يزيدهم علماً ويقيناً.

ثم ختم السورة بالدعوة إلىٰ التوحيد، وسبك الكلام علىٰ الردِّ لبعض أقوالهم فيها، فقال: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾ أي: ادعوه الله أو ادعوه الرحمن، ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ والصفات العُليا، وكلها دالَّة علىٰ مَعَان في ذات الله تعالىٰ إذا تدبَّرتموها. وقد قيل: إنَّ في الآية إيماءً ورَدّاً علىٰ قول المشركين ـ لما سمعوا من رسول الله ﷺ يقول: «يا الله، يا رحمن»[1] ـ: إنه ينهانا عن أن نعبد إلـهين، وهو يدعو إلهاً آخر. وعلىٰ قول اليهود: إنك لتُقِلُّ ذِكرَ الرحمن وقد أكثره الله في التوراة.

وبعد أن أمرهم أن يدعوه: الله أو الرحمن، علَّمهم كيفيَّـة الدعاء، فقال: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ أي: أمراً وسطاً قَصْداً. وذكر الصلاة لأنها كلَّها دعاءٌ وثناء، ولا يَبعُدُ أن يُحمَلَ الكلام علىٰ المعنيـين.

ثم ختم الدعوة إلىٰ التوحيد ذاكراً أصوله بقوله: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧: ٥٨٠)، عن ابن عباس: «يا رحمن، يا رحيم» بدل «يا الله، يا رحمن». وذكره ابن حجر في «فتح الباري» (١٣: ٣٦٠) وعزاه لابن مردويه، وضعَّف إسناده.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾، وقد جمعت هذه الآية الردود علىٰ سائر أنواع الشرك.

وقد روي عنه ﷺ: «إنَّ هذه الآية هي آية العز»[1]، وما أجلَّ هذا العزَّ وأعلاه.

سبحان الله، والحمدُ لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حَوْل ولا قوَّة إلا بالله العليِّ العظيم.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

انتهىٰ الجزء الخامس[2] من تفسير القرآن المُسمَّىٰ: «أَوْلىٰ ما قيل في آياتِ التنزيل» لرشيد الخطيب الموصلي بانتهاء سورة الإسراء، ويبتدئ الجزء السادس بابتداء سورة الكهف.

* * *

(١) رواه أحمد (١٥٦٢٥)، والطبراني (٢٠: ١٩٢)، عن معاذ بن أنس. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧: ١٧٧): رواه أحمد من طريقين؛ في إحداهما رشدين بن سعد وهو ضعيف، وفي الأخرىٰ ابن لهيعة وهو أصلح منه، وكذلك الطبراني.

(٢) حسب تقسيم المؤلف ـ رحمه الله تعالىٰ ـ للطبعة الأولىٰ من الكتاب.

فهرس محتويات المجلد الرابع

الموضوع	الصفحة
تفسير سورة الأنفال	٥-٥٦
تفسير سورة التوبة	٥٧-١٤٥
تفسير سورة يونس	١٤٧-٢٠٦
تفسير سورة هود	٢٠٧-٢٦٩
تفسير سورة يوسف	٢٧١-٣٤٤
تفسير سورة الرعد	٣٤٥-٣٨١
تفسير سورة إبراهيم	٣٨٣-٤١٣
تفسير سورة الحجر	٤١٥-٤٥٠
تفسير سورةالنحل	٤٥١-٥١١
تفسير سورة الإسراء	٥١٣-٥٨١

* * *